عبد الرحمن منيف



مدن الملح

التيه

I



عبدالرّحمن مُنيف

مُدُن المِلح

التّيه

I

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي

عبد الرحمن منيف

مدن الملح

التيه

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص. ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف:
5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726

لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إلى

علي منيف

الذي رحل قبل الأوان

إنه وادي العيون...

فجأة، وسط الصحراء القاسية العنيدة، تنبثق هذه البقعة الخضراء، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء، فهي تختلف عن كل ما حولها، أو بالأحرى ليس بنيها وبين ما حولها أية صلة، حتى ليحار الإنسان وينبهر، فيندفع إلى التساؤل ثم العجب «كيف انفجرت المياه والخضرة في مكان مثل هذا؟» لكن هذا العجب يزول تدريجياً ليحل مكانه نوع من الإكبار الغامض ثم التأمل. إنها حالة من الحالات القليلة التي تعبّر فيها الطبيعة عن عبقريتها وجموحها، وتبقى هكذا عصيّة على أي تفسير.

وادي العيون قد يبدو بنظر الذين يسكنون فيه مألوفاً، وبعض الأحيان لا يثير تساؤلات كبيرة، لأن هؤلاء تعودوا أن يروا أشجار النخيل تملأ الوادي، وتعودوا أن يروا الينابيع تتفجر في أمكنة عديدة خلال فصل الشتاء ثم بداية الربيع، إلا أنهم. رغم العادة، يحسون أن قدرة مباركة هي التي ترعاهم وتيسر لهم الحياة. أما إذا جاءت القوافل، وقد جللتها أكوام الغبار وهدها التعب والعطش، وأخذت تجدّ في السير، خاصة في المرحلة الأخيرة، لتصل إلى وادي العيون بأسرع وقت، فكانت القافلة كلها تمتلئ نشوة أقرب إلى الرعونة، لكنها لا تلبث أن تسيطر على اندفاعها حين ترى الماء، متذرعة بحجة أن الذي خلق الدنيا والبشر خلق في نفس الوقت وادي العيون في هذا المكان بالذات، ليكون إنقاذاً من الموت في هذه الصحراء الغادرة الملعونة. فإذا استقرت القافلة، وفكت أحمالها، وارتوى الرجال والدواب، فإن نوعاً من الخدر اللذيذ، لا يلبث أن يتحول إلى رضى عارم، يسيطر على كل شيء، ولا يعرف ما إذا كان ذلك يتولد من

المناخ أم من عذوبة الماء، أو ربما نتيجة الشعور بزوال الخطر، لأنه لا يقتصر على البشر وحدهم، إذ يتجاوزهم ليصيب الحيوانات أيضاً، فتصبح أقل طاعة وأقل رغبة على الاستجابة للأحمال الثقيلة أو على مواصلة السفر بعد ذلك.

وادي العيون بالنسبة للقوافل شيء خارق، أعجوبة لا يصدقها من يراها لأول مرة، ومن يراها لا ينساها بعد ذلك، حتى ليتردد اسم الوادي في جميع مراحل الطريق، في الذهاب والعودة: «كم بقي لنصل إلى وادي العيون؟» «إذا وصلنا وادي العيون وأمرحنا هناك سوف نستريح أياماً قبل أن نواصل السفر» «أين أنت يا وادي العيون يا جنة الدنيا».

هذا الإلحاح على ذكر وادي العيون يعني الكثير، إذ إضافة إلى الإنقاذ الذي يشكّله للقوافل والمسافرين، فإنه في هذا الموقع بالذات، يمكّن رجال القوافل من التأكّد من أشياء كثيرة: متى مرت القوافل الأخرى وإلى أين ذهبت. ماذا تحمل هذه القوافل وكم تحمل.... هذا زيادة على معرفة الأسعار وأصحاب الأحمال وغير ذلك من المعلومات، وعلى ضوئها يقرر رجال القافلة إن كان عليهم أن يبيعوا في هذا المكان أو ذاك، أن يسرعوا في السفر أو يؤخروه أياماً، ثم ما يجب تداركه في الطريق من أعمال ومواد... أو معاودة السؤال.

لو ترك لمتعب الهذال أن يتحدث عن وادي العيون لقال كلاماً لا يصدقه أحد، لأنه لا يقتصر على طيب الهواء وعذوبة الماء الذي لا يتوقف يوماً واحداً في السنة، ولا عن روعة الليل، إنه يضيف أشياء أخرى كثيرة خارقة، ويروي قصصاً يعود بعضها إلى أيام نوح، كما تؤكد العجائز! بين متعب الهذال ووادي العيون علاقة خاصة، عشق من نوع لا يتكرر كثيراً. أما الذين عاشوا خلال فترتين، الفترة التي كان فيها وادي العيون كما يراه متعب الهذال، ثم الفترة التي تلت ذلك، فسوف يتحدثون بطريقة مختلفة. سوف يقولون إن هذا الوادي، بالنخيل الذي يملؤه، بالمياه التي تروي الناس الذين يعيشون حوله، والتي توقف المسافرين أياماً لكي يستريحوا ويتزودوا بما يحتاجون إليه ثم يواصلون رحيلهم بعد ذلك، ربما إلى أماكن

أفضل. . إن هذا الوادي في هذا المكان من الأرض لا غنى عنه، ولو لم يكن موجوداً لما كان هناك بشر أو حياة، ولما كانت هناك طريق أيضاً، ولما جاءت إليه القبائل، وما كان لمتعب وقبيلته العتوم أن يعيشوا في هذا المكان من الأرض.

يمتد الوادي مسافة ثلاثة أميال أو تزيد قليلاً. وهذا الامتداد العريض في البداية، لا يلبث أن يضيق شيئاً فشيئاً حتى يصبح في نهايته مجرد شريط رفيع تتناثر فيه أشجار قليلة من النخيل، وهذه الأشجار تعيش على ما يتسرب إليها من بقايا الماء، وربما من بقايا البشر والحيوانات، ولذلك فهي في نهاية الوادي أقل نمواً وتتباعد بطريقة لافتة للنظر. فإذا وقف الإنسان عند شجرة النخيل الأخيرة فإن الأرض الرملية المملوحة تبدأ هناك، وهذه الأرض الخاصة المتميزة هي جزء من الوادي وجزء من الصحراء، لأنها، بعد ذلك، تنهض بسرعة لترتفع قليلاً قليلاً إلى أن تصبح هي والصحراء التي تليها شيئاً واحداً. وحين تهب الرياح فإن الرمال تتراكم على هذا الجزء المنحني، لكن شجيرات الأثل ثم السدر والشيح القصيرة المستدقة، والتي تتكاثر عند نهاية الوادي، تمنع تقدم الرمال وتجعل الأرض داكنة بعض الشيء وتجعلها أكثر تماسكاً أيضاً، مما يساعدها على أن توقف حركة الرمال، أو على الأقل تحد من حركتها وامتدادها.

بعد الوادي وحوله تقوم بعض الهضاب، وهي هضاب رملية متحركة، لكن اتجاه الرياح ثم طبيعة التربة تجعلها أكثر ثباتاً من غيرها، وتجعلها مشرفة على مساحات واسعة من الأرض المحيطة بها، ولذلك يستدل بها الناس ويطلقون عليها أسماء لتمييزها، فمن جهة الشرق تقوم الظهرة، أما من جهة الشمال فالوطفة وأم الأثل، ومن ناحيتي الغرب والجنوب تقوم هضاب أقل أهمية ولا تعني الكثير بالنسبة للوادي أو المسافرين، ومع ذلك أطلقت عليها الأسماء، لأن طبيعة الصحراء تجعل للأسماء أهمية تفوق غيرها، وهذه لم تخلق نتيجة الرغبة أو في لحظة من لحظات الجنون، وإنما خلقتها الطبيعة ذاتها وأعطتها من الأسماء ما يوازي أهميتها أو الصفات التي تحملها.

الذين سافروا وعرفوا الأمكنة، يعرفون أن البحر ليس بعيداً عن وادي العيون، إنه على مسيرة سبعة أو ثمانية أيام، لكن طريق القوافل لا تصل البحر، وإن كانت تقترب منه أو تبتعد عنه تبعاً لوجود الماء والواحات. أما نهاية الصحراء، من الناحية الثانية، فلا أحد أبداً يقدّر نهايتها، قد تكون بعيدة وقد لا تكون، لكنها بنظر الجميع سر لا يعرف أحد الوصول إلى حقيقته.

في سنوات الخير يظهر الخير، أول ما يظهر، في وادي العيون، إذ إضافة إلى غزارة المياه التي تملأ الأحواض الثلاثة المحيطة بالنبع، فإن مياه العيون تنحدر إلى أماكن لم يكن متوقعاً أن تصلها. وفي تلك السنين تزرع الخضرة، وتظهر النباتات المختلفة، خاصة التي تأتي مع الأمطار المبكرة، ويتصرف الناس في الوادي بطريقة لا يصدقها المسافرون الذين تعودوا المرور على محطات كثيرة مشابهة، إذ يسرف أهل الوادي في الإلحاح على المسافرين للبقاء فترة أطول، ويظهرون تعففاً زائداً في أن يأخذوا مقابل ما يعطون، وتصطنع المناسبات لكي تجعل الكثيرين يمسكون عن الرحيل؛ وفي مثل هذه السنين يتبدى الكرم حتى يبلغ حدّ الإسراف فيستغرب المسافرون ويقولون إن أهل وادي العيون أقرب إلى السفه والرعونة، وإنهم لا يفكرون في الغد، ولا يتذكرون الأيام الصعبة التي مرت عليهم في السنين السابقة.

أما في سنوات الجفاف، وهي أكثر السنوات، فإن أهل وادي العيون يتصرفون بطريقة مختلفة، إذ يبدون أكثر حزناً، وأقرب إلى الانطواء، ويتركون المسافرين يتصرفون بالطريقة التي تروق لهم، دون إلحاح منهم ودون إزعاج أيضاً، أما إذا عرضت عليهم بعض السلع مقابل ما يقدّمون من تمر وماء وخدمات أخرى، فإنهم يتقبلونها شاكرين، وبأقل الكلمات. وإذا ألحف أهل الوادي بطلب شيء فإنهم يلحفون بأن توافق القافلة على أن تحمل معها بعض المسافرين الجدد، وهؤلاء يكونون قد استعدوا منذ وقت طويل وانتظروا وقتاً أطول، وبرحيلهم يشعر الوادي ببعض الراحة وببعض الأمل، لأنه تخلص من أعباء كانت تثقله، ولأنه، أكثر من ذلك، ينتظر

آمالاً سوف تأتي ذات يوم مع الذين رحلوا، ولا بد أن يعودوا. وما بين الراحة والأمل، وباستمرار الماء والقوافل يستمر الوادي عزيزاً قوياً، لا يخاف ولا يتردد، لأنه سيجد طريقته، ـ ودائماً يكتشف هذه الطريقة ـ لمواجهة المصاعب والتغلب عليها.

بشر وادي العيون، إذن، مثل مياهه: إذا زادوا عن حد معين فلا بد أن يفيضوا، أن يتدفقوا إلى الخارج، وهذه الزيادة، فالهجرة، لازمتهم منذ أمد بعيد. فجأة يحسون أنهم تكاثروا، وأن الوادي لم يعد قادراً على احتمالهم، ولا بد للشباب القادرين على السفر من اكتشاف أماكن جديدة، ليشدوا الرحال إليها من أجل الإقامة والرزق. إن حالة مثل هذه تبدو خفية غامضة، وقد لا تتعلق دائماً بالأمطار أو المواسم، كما هي الحال في أماكن أخرى، إذ رغم المطر الذي قد يأتي في سنة من السنين، ورغم المراعي التي تحيط بالوادي، والمياه التي تفيض وتمتد إلى مسافات لم تكن تصلها في أوقات أخرى، فإن هاجساً ملعوناً ينمو بخفاء وبطء في القلوب. وهذا الهاجس الذي يحسه الكبار، لكن يتكتمون عليه ويقاومونه، ينام وينهض في قلوب الشباب والأمهات، فيأخذ شكلاً حاداً عصبياً عند الشباب، وشكلاً حزيناً يائساً عند الأمهات. لكن رغبة اكتشاف العالم، وحلم الغنى، وذلك الحنين إلى شيء ما، يلح على الشباب إلى درجة لا يستطيعون معه الصبر أو احتمال نصائح المسنين، ولذلك يقررون وحدهم، مهما كانت هذه القرارات قاسية.

لا يوجد واحد من الرجال في الوادي، خاصة في سن معينة، لم تستول عليه رغبة السفر، وقلما يوجد واحد من المسنين لم يسافر إلى مكان من الأمكنة. صحيح أن هذه الرغبات والسفرات تتفاوت من حيث المدة والنتائج، إذ قد تستمر سنوات طويلة، وقد تمتد فتشمل العمر كله، وبعضها قد لا يدوم أكثر من شهور، يعود بعدها المسافر خائباً أو ظافراً، لكنه يعود أيضاً مملوءاً بالحنين في الحالتين، ومثقلاً بالأفكار والذكريات وحلم السفر مرة أخرى. أما النتائج التي جناها المسافرون من أهل وادي العيون فلا يمكن أن تلخص بكلمات قليلة، لأن لكل مسافر مقاييسه

وتصوراته، وأغلب الأحيان لا يتفق معه الآخرون في هذه المقاييس والتصورات، فالنجاح والفشل، الغنى والفقر، لا يعني مفهوماً واحداً بالنسبة للجميع، فقد صادف، في حالات كثيرة، إن عاد بعض المسافرين من أهل الوادي، ورافق عودتهم الكثير الكثير من الأحاديث والأفكار والقصص، ثم الليالي الطويلة من الأحلام، لكن ظل هؤلاء المسافرون فقراء، أو أقرب إلى الفقر، ومع ذلك لا يكفّون، ولا يكفّ غيرهم، عن تذكر عشرات القصص حول الأعمال التي قاموا بها والمبالغ التي وصلت لأيديهم، ثم كيف ذهبت، وإن الحياة لا تدوم لأحد.

هذه القصص وغيرها تتردد كثيراً في وادي العيون، وهي تثير الخيال وتخلق تحريضاً لا يمكن مقاومته. والأبناء الذين يقدمون الوعود القاطعة أن سفراتهم لن تطول، وأن عودتهم ستكون في الربيع أو الخريف، يدركون أن المسنين لا يصدقونهم، لكن شعوراً أقرب إلى اليأس والتسليم يدفعهم إلى الموافقة والتصديق. أما إذا جاء ذكر الموت، وسقطت دمعة أم، أو صدرت عن الأب كلمة من نوع معين، وأحس الأبناء بقرب الأجل، فإنهم يحسون أيضاً بروح شيطانية تسيطر عليهم وتجعلهم أكثر قسوة وأكثر استخفافاً، لكنهم في اللحظة الأخيرة يهدأون ويتراجعون.

حديث وادي العيون والسفر له بداية بالنسبة لأي شخص، لكن ليس له نهاية. وهذه الحالة يعرفها الكبار والصغار، وتعودوا عليها وألفوها إلى درجة لم تعد تثير أحداً أو تخلق أحزاناً لا يمكن مقاومتها. حتى الأمهات اللواتي يردن أن يبقى أولادهن في الوادي، وأن يستمروا فيه إلى النهاية، لأنهم يخفن الأمكنة الأخرى، ولا يتصورن وجود أمكنة أفضل، لا بد أن يسلمن في فترة من الفترات، لكنه تسليم العاجز اليائس، مع أمل أن يعود هؤلاء في وقت من الأوقات، لكن بعد أن يكونوا قد شبعوا من السفر!

❀ ❀ ❀

.. وتصرفات الناس أيضاً في وادي العيون خليط عجيب من الوداعة والجنون، إذ بمقدار ما يبدون مسالمين ممتلئين رضا، فيندفعون إلى

المساعدة بهمة كبيرة، دون انتظار مقابل من أي نوع، فإنهم في أوقات أخرى أميل إلى الكسل والأحلام، حتى رجال القوافل الذي لا يقيمون في الوادي، إلا فترات قصيرة، عرفوا في الناس هذه الصفات، واحتملوا كثيراً من التصرفات التي لا تبدو مقبولة في أماكن أخرى. كانوا يقولون «أهل الوادي أطفال كبار، الكلمة تحييهم وتقتلهم، وعلى الإنسان أن يعرف كيف يتكلم معهم وكيف يعاملهم». لذلك يجب أن يكون التصرف مع أهل الوادي بطريقة خاصة، وهذه الطريقة قد تعبر عن نفسها دون كلمات بعض الأحيان، لأن الناس هنا ينظرون إلى الآخرين، ويرقبون الحركات والتصرفات بانتباه شديد. فإذا كوّنوا قناعة أو وصلوا إلى رأي، أصبحوا أسرى لهذه القناعة ولهذا الرأي، وقلما غيّر أحد أهل الوادي نظرته أو تصرف وفقاً لقناعة مغايرة، وحتى لو اختلفوا فيما بينهم حول أشخاص معينين أو حول بعض المواقف، كان ينبري من يقول: «لا تتعجلوا! لقد رأينا آلاف البشر، وعلمتنا الحياة الكثير، فانتظروا». إن كلمة من هذا النوع تضع حداً لمناقشات كثيرة، لأن رهاناً ضمنياً يقوم في تلك اللحظة، والأيام وحدها ستثبت من يكون مصيباً ومن هو المخطئ.

وكثيراً ما يؤكد المسافرون ويوصي بعضهم بعضاً أن يكون التعامل مع أهل الوادي بطريقة مختلفة عما تعودوا، لأن خطأ بسيطاً أو تصرفاً يتسم بالحماقة ينعكس على القافلة كلها، ويؤثر على العلاقة لأمد طويل. فالذين كانوا يحرصون على أن يناموا إلى جانب أحمالهم وبضائعهم، لا يتركونها ولا يسهون عنها لحظة واحدة، ولا يثقون بالآخرين إذا أبدوا رغبتهم في حراستها، إن هؤلاء يتخلون بثقة ورضاً عن هذه المهمة إذا وصلوا الوادي، لأنهم يعرفون مدى الأمانة والحرص اللذين يميزان الناس هنا. أما إذا جرت عمليات البيع والشراء، فإن أهل الوادي يفضلون أن تجري بسرعة ودون مساومات أو إكراه، لأن المساومات إذا جرت ينظرون إليها باستغراب مشوب بعدم الثقة وعدم التصديق، خاصة إذا التقى رجال قافلتين وبدأت تلك المفاوضات القاسية الطويلة والتي يتخللها الكثير من مظاهر عدم الرغبة في الشراء، أو الاختلاف الكبير فيما يعرضه المشترون وما

يطلبه البائعون، حتى إذا انتهت تلك المفاوضات بشكل مفاجئ، وبالأثمان والشروط التي حددها المشترون ووافق عليها البائعون، بدت مظاهر الاستغراب، وبعض الأحيان صرخات عدم التصديق أو الاستنكار، لكن الضحكات التي تملأ وجوه الطرفين، والتي تدل على الرضا، تدفع بعض رجال الوادي لأن يقول:.

ـ هؤلاء التجار شياطين في ثياب بشر، لأنهم لا يعرفون الحلال ولا يخافون من الحرام.

فإذا تصدى من يقول أن التجارة تعتمد على المساومة وعلى المفاوضة، ثم الرضا في النهاية، وإن مال التجارة حلال مثل مطر السماء، كان أهل الوادي ينظرون إليه بنوع من الشفقة الممزوجة بالسخرية، ويقولون له أو في أنفسهم «وكيف يتساوى من يعمل طوال العام لكي يكسب رزقه بمن يربح أكثر المال في لحظة؟».

ما يميز أهل الوادي ويجعلهم نمطاً خاصاً من الناس يظهر أكثر ما يظهر في العتوم، لأنهم في المكان الذي اختاروه سكناً لهم، في الظهرة، ثم العلاقة التي تربطهم بالعشيرة الكبيرة المنتشرة على مدى الصحراء، كوّنت لهم نظرة للحياة والعلاقات والسلوك قد تختلف عن الآخرين، فهم ليسوا مضطرين لاستقبال القوافل لحظة وصولها، لأن القوافل أول ما تتجه إلى الماء وإلى الخان القريب، والعتوم في أعلى الظهرة يرون ويعرفون لكنهم لا ينزلون إلا بتروٍ وبعد وقت من وصول هذه القوافل. أما انهم جزء من العشيرة الكبيرة فيعطيهم قوة وشعوراً بالثقة، لذلك ينظرون إلى الأشياء والمال نظرة فيها ذلك الترفع، وبعض الأحيان فيها الاستهتار، لأنهم على ثقة أن الحياة مهما قست عليهم لا يمكن أن تطحنهم، وهذا يدفعهم في حالات كثيرة إلى نوع من السلوك فيه فظاظة وشيء من الخشونة، لكنهم إذا وثقوا، إذا أحبوا، أعطوا كل شيء دون تردد، ورضوا بأي شيء دون شعور بالمرارة.

والعتوم في وادي العيون أكثر الناس فقراً، لكنهم أكثر الناس ترفعاً، وربما كان هذا الترفع ناشئاً عن الفقر ذاته، لأن أي واحد من العتوم لا

يمكن أن يصبح غنياً حتى لو أراد، إذ في ساعة من تلك الساعات التي لا يعرف أحد متى تأتي يبدّد كل ما جمعه دون شعور بالأسف ودون ندم أيضاً، ويبدأ من جديد، لكن بهمة لا تعرف التعب أو التوقف، حتى إذا جمع شيئاً زائداً بدأ اللعبة ذاتها مرة أخرى!

والناس في وادي العيون، أيضاً، فقراء، لكنهم يبدون الرضا عن الحياة التي يعيشونها، وقد يسرفون بعض الأحيان إلى درجة المبالغة. ومع ذلك فإنهم في أوقات معينة يبدون السخط، لأن التمر الجاف واللبن، وهذا الخبز القاسي الذي يضطرون لأكله أياماً متوالية، يجعلهم في حالة من العصبية نظراً للآلام التي تتولد في أمعائهم، ثم ذلك الجفاف الذي يصيب الوجوه والأطراف، وما يعقبه من الضعف، حتى إن الرجل إذا قام من مكانه أصابه الدوار وسقط. والأطفال الذين تظهر عليهم آثار ذلك من النحول والصفرة، وبعض الأحيان من القيء والإسهال اللذين يتواليان في أيام الصيف بأوقات متقاربة.. هذه المظاهر حين تتكرر وتزداد المخاوف وتشعر الناس أنهم بحاجة إلى الأدام وإلى قليل من اللحم لكي تقوى أجسادهم على المقاومة. وفي مثل هذه الحالات ينتظر الوادي وصول قافلة، لأن مجيء القافلة يعني تغييراً في طبيعة الحياة، وإمكانية أكبر على ذبح عدد من رؤوس الغنم، مقابل ما يحصل عليه أهل الوادي. فإذا تأخرت القوافل كثيراً، فلا بد أن تصطنع مناسبة ما لكي يذبح جمل ويأكل الوادي كله.. وعند ذاك تتغير الحياة.

إذا تغيرت الحياة تتغير طبائع الناس وتصرفاتهم. يصبحون أكثر رغبة في الحديث، وأكثر استعداداً للسهر، وفي ليالي الصيف لا يكتفون بالجلوس حول دلال القهوة أو تبادل الأحاديث، إذ تصيبهم حمى الغناء وبعض الأحيان الرقص، وفي هذه الليالي تتفجر الأفكار والأحزان والذكريات، وتطغى على الرجال الرغبة في المضاجعة، وبعض الأحيان الرغبة في العراك، كل ذلك يتم لأسباب غامضة، وفي حالات أخرى دون أسباب، إذ ما يكاد الجوع يفتك بالأمعاء، وما تكاد أواني اللبن تدور حتى يصرخ أحد الرجال:

ـ الشواء.... نعم الشواء ما يجب أن يؤكل في هذه الليلة...

ولقد صدف مراراً أنه خلال الليل، بشكل سريع ومفاجئ، ربما نتيجة رهانات قديمة، يتم الاتفاق على أن يذبح جمل في الفجر. وحين يبدأ الإعداد لذلك تظهر البراعة والخفة، وتظهر أنواع لا حصر لها من المساعدة والتعاون، إذ تهيّئ جماعات الحطب وتهيئ غيرها القدور، وثالثة تعد خبزاً جديداً، أما الذين يبدون استعدادهم للذبح والسلخ والتقطيع فكثيرون، وخلال فترة قصيرة يتحول الوادي إلى خلية من النشاط والحركة. إنها حركة من نوع خاص، فيها القدرة على البقاء والتحدي واصطناع الأسباب لمقاومة الفقر والأحزان.

نتيجة لهذه الحياة اكتسب الناس في وادي العيون صفات في الجسد شديدة الظهور، فهم أميل إلى الطول، مع اتساق في العظام. أما الأطراف فمستقيمة ناحلة وكذلك الخصور والأكتاف، حتى ليظن من ينظر إليهم وكأنهم مجموعة من الخيول التي طال ترويضها وإتعابها، فضمرت أكثر مما ينبغي، لكن ظلت قوية مفتولة وجميلة أيضاً. أما الوجوه فإنها أميل إلى الطول لكنها تفيض بالراحة لفرط تناسقها وانسامجها، حيث تظهر الشفاه الرقيقة، مع الوجنات المنسكبة دون بروز أو نتوءات من أي نوع، عكس المناطق الأخرى، والتي كثيراً ما تظهر عيوباً حادة في مكان من الوجه أو الجسد.

ولأن الناس متشابهون في وادي العيون، سواء بالملامح وطبيعة الحياة، فإنه لا يمكن التمييز بين واحد وآخر إلا بحكم السن أو رجاحة العقل، أو ربما بالقرابة مع العون الجد، والذي يعتبر جد الوادي وأقوى شخصية فيه، رغم أنه قضى منذ سنين طويلة، لكن القصص التي تروى عن شجاعته وكرمه، ثم ذلك التفاني الذي ميّز كل حركاته وسكناته، جعلته بنظر الجميع خارقاً ومهيمناً.

وإذا كان إبراهيم العون وقبيلة العتوم قد جاءوا من الصحراء البعيدة واستقروا في وادي العيون، فإن للطبيعة والأمكنة أيضاً قوانينها التي قد تبدو غير مفهومة.

وآل العون، ومنهم جازي الهذال، وقبله أبوه متعب، انزرعوا في هذا المكان كأشجار النخيل. كان يتنازعهم حنين العودة من حيث أتوا، وحنين السفر إلى الأماكن الأخرى، لكنهم كانوا يحسون أيضاً أن قضية غامضة مناطة بهم. وإذا كان الناس لا يزالون يتذكرون جازي الهذال قبل أربعين أو خمسين سنة، وما فعله ضد الأتراك، وكيف جعل حياتهم في وادي العيون جحيماً لا يطاق، كيف كان يختفي فترة حتى يظن الكثيرون أنه قد قتل أو قد مات، ولم يعد له أثر ويكاد ينساه الناس، بمن فيهم الأتراك أنفسهم، حتى ينفجر مرة أخرى فيقتل ويدمر ويحرق ويأخذ ما يستطيع أخذه ويغيب في الصحراء فترة من الزمن يعتبرها كافية للنسيان، فإذا عاد مرة ثانية حوّل الوادي إلى جحيم.

لقد فعل جازي ذلك مرات عديدة، حتى قبل أن يصبح الأتراك أعداء بنظر الناس، واستمر كذلك إلى أن تركوا. أما محاولات القيادة التركية ملاحقته والقبض عليه فقد انتهت بأن قتل قواد الحملتين اللتين سيّرتا عليه، وحوّل الأفراد إلى جزء من جماعته يغزو بهم ويقطع الطريق، وقيل إنهم ظلوا معه إلى النهاية.

هذه القضية التي سيطرت على آل الهذال وعذبتهم كانت تعرض لهم بأشكال وصور تتغير فترة بعد أخرى، وربما هي السبب الذي دفعهم لاختيار هذا المكان المتوسط، محطة للذين يسافرون ويرجعون، وليكونوا أيضاً شهوداً على فترة من الحياة والتاريخ لا تقع إلا مرة واحدة ثم لا تتكرر، وليقولوا بعد ذلك للناس ما رأوا من أعاجيب وغرائب!

في ذلك اليوم البعيد، الذي يشبه آلاف الأيام قبله، ولد لمتعب الهذال آخر أولاده الذكور. حدث ذلك أواخر الربيع، عند العصر. كانت الحرارة قد اشتدت ذلك اليوم والأيام التي سبقته، وثمار النخيل برعمت وتكورت، وكان على متعب الهذال أن ينتهي بسرعة من وضع العصي تحت عتوق «أم الخشب» ويربطها بقوة، لكي ينصرف إلى بيته في الظهرة، وليعرف وليطمئن ماذا حصل، كما يجب أن يعدّ القهوة مبكراً، لكن لما رأى ابنه فواز راكضاً نحوه، وقد امتلأ وجهه بالفرح، فقد أدرك أن زوجته وضعت، وأنه جاء ولد ذكر، فظل نصف معلق على النخلة ينتظر وصول فواز ويتوقع أن يسمع البشارة. تلفت حواليه أكثر من مرة، بدا له وادي العيون تلك اللحظات أكثر خضرة. قال في نفسه: «أمطار السنة كانت كثيرة» قال فواز وكان لا يزال بعيداً:

ـ يوبه... يا يوبه.. البشارة

قال متعب الهذال لنفسه: إذا أقبلت.. أقبلت.

ولم يتردد، مثلما حصل في المرات السابقة، في تسمية الغلام، وكأنه هيأ نفسه لذلك منذ وقت طويل. فما كادت قدماه تلمسان الأرض، وينظر بإمعان في عيني الصبي، وقد امتلأ وجهه بالفرح والغبار وحبات العرق، حتى سأله بطريقة تقريرية صلبة:

ـ قلت، يا وليدي أن «مقبل» جاء؟

تطلع الصبي إلى أبيه بارتباك، تصور للحظات أن أباه لم يفهم ما قاله له. قال وقد هدأت أنفاسه:

ـ جاءنا أخ.. يوبه

قال متعب الهذال وهو يضع يده الكبيرة على رأس الصغير:

ـ قلت لي جاء مقبل.. ها؟

وضحك بصوت عال ثم أضاف:

ـ الله يبشرك بالخير.. يا وليدي

وبعد أن فك حزامه وأرخى ثوبه ونفض يديه سارا بهدوء متجهين إلى البيت في الظهرة. سارا بصمت، لكن توهجاً داخلياً أقرب إلى الصخب كان يدفع متعب الهذال. بدت له الظهرة بعيدة أكثر من مرات سابقة، وكاد أن يسرع، وفكر أن يهرول، لكنه تراجع، قال في نفسه «لو كان الولد الأول، أو لو كان الوقت غير هذا الوقت!» وضحك بصوت عالٍ. التفت فواز حواليه أكثر من مرة، ثم تطلع إليه. قال متعب الهذال:

ـ «شقرة مبارك» الصغيرة لمقبل.

وفي المساء أولم متعب وليمة كبيرة، ذبح خروفاً ودعا الكثيرين. وفي الليل المتقدم، بعد أن غادر الرجال، جلس وحيداً في ضوء القمر. مرت أمام عينيه حياته كلها مثل شريط طويل. كان يرى أيامه ولياليه. تذكر نفسه حين كان صغيراً، وتذكر أول أسفاره، أما حين تذكر وضحة لما جاءته بأول ولد فقد ابتسم. كانت خائفة، وفي الليل المتأخر بكت فرحاً وهي تتطلع إليه. في هذه الليلة، لما تطلع إليها كانت متعبة، لم تضحك ولم تبك. ولا يعرف متعب الهذال لماذا أراد أن يحفر بأظافره الأرض القاسية تحت البساط، وكأنه يعلّمها، يريد أن يترك فيها أثراً قوياً. أما حين دخل البيت في هذا الوقت المتأخر فقد كان مصمماً على أن يخرج العصملية وأن يطلق بضع رصاصات. خطرت له الفكرة بسرعة، مثل التماع البرق. إنه يفعل ذلك بعد مجيء كل ولد. المرة الأولى حين جاءه ثويني. ثويني كان ولده الأول، الذي مات منذ وقت طويل. أخرج العصملية تلك الليلة أمام الرجال، وفي جو من الفرح والانفعال أطلق مشطاً كاملاً، وقد شاركه الذين كانوا يحملون مسدساتهم. يتذكر أن ابن مبارك والحويزي وشعلان أطلقوا رصاصاً غزيراً، ويتذكر أيضاً أن الحويزي أطلق كل ما يحمله من رصاص يوم جاء شعلان، وكذلك حاول القحطاني، إلا أن مسدسه بعد

الرصاصة الأولى استعصى. كان الرجال في كل المرات فرحين منفعلين. أكلوا وضحكوا وأطلقوا رصاصاً غزيراً. هذه المرة لم يكونوا مثل المرات السابقة. كان الفرح في تلك الليلة باهراً كبيراً، ومع ذلك فإن ثويني مات صغيراً. هذه الليلة أكلوا وشربوا وفرحوا، وقال القحطاني بفرح أن أيام الخير أقبلت بمقبل، لكنهم لم يطلقوا ناراً، حتى هو لم يفكر بذلك، قال لنفسه بنوع من الحزن «كانت الأيام الماضية أيام خير. . أحسن من هذه الأيام».

تعمّد أن يحدث بعض الضجة، لكي لا يخلق رعباً أو مفاجأة، وهو يستخرج العصملية. وقف إلى جانب فراش وضحة، وكانت أخته سارة تهدهد الطفل الصغير، ويبدو أنها فزعت لتوها من إعطائه لحسة العسل.

تطلعت إليه المرأتان. كانت وضحة متعبة، نصف نائمة، أما حين رأت العصملية فقد تحركت بتحفز، وكأن شعوراً بالخوف أو الفرح سرى في جسدها فغيّرها. تطلعت إليه بانتباه وهي ترتفع قليلاً. داخله شعور بالاعتزاز. دق العصملية على الأرض، وكأنه إعلان عن أمر ما. سارة كانت تكلم الطفل الذي ظل يبكي. كانت كلماتها أقرب إلى التوضيح «تفيدك يا وليدي، تقوّيك، وباكر تصير رجّال. الرجال لازم يصيروا رجال» أما حين سمعت دقة البندقية على الأرض فقد التفتت. تطلعت إلى متعب بتساؤل، ثم تطلعت إلى وضحة،. قال متعب:

ـ يا جماعة الخير. .

قال هذه الكلمات بطريقة بطيئة وكأنه يمهّد لحديث طويل. لما رأى المرأتين تنظران إليه، تنظران إلى البندقية بتساؤل، تابع بلهجة مرحة:

ـ صحيح من قال: من خلف ما مات. . .

توقف لحظة، ابتسم، هزّ رأسه أكثر من مرة وخرج صوته حزيناً:

ـ الله يرحم والدينا ووالد والدينا.

وبهدوء شديد رفع البندقية. شد الترباس وأدخل طلقة في بيت النار، ثم استدار وخرج.

كان الصمت، وكان القمر. كان متعب الهذال في الفلاة الكبيرة

وحيداً. تأمل السماء والنجوم واستنشق الهواء بقوة. شعر أنه يريد أن يفعل شيئاً غير عادي. قال بصوت أقرب إلى الانفعال والحدة:

ـ دوك يا جوف الليل.

رفع البندقية باتجاه السماء، باتجاه القمر وأطلق. دوت الطلقة، فخدشت الصمت، وملأت رائحتها رئتي متعب الهذال. جر الترباس فخرجت الطلقة الفارغة بقوة وعبقت في أنفه رائحة البارود أكثر من قبل. تذكر أياماً بعيدة. قال في نفسه «اللهم اجعلها أيام خير، واجعلنا أقوى وأكثر صبراً!» ولما جر الترباس مرة أخرى ودخلت الطلقة الثانية بيت النار سمع حركة داخل البيت. قدّر إنها ليست حركة وضحة أو سارة، أما لما سمع الصوت فقد أدرك أن واحداً من أولاده قد استيقظ على صوت الطلقة. التفت قليلاً، لم ير أحداً أول الأمر، ارتمى على البساط، بعد لحظات جاءه شعلان. كان وجهه متسائلاً وأقرب إلى الخوف. قال متعب الهذال، وهو يسند البندقية إلى الأرض بوضع مائلَ:

ـ ها، يا وليدي، تراك خفت؟!

ابتسم شعلان وتطلع إلى أبيه بتساؤل، لما رآه هادئاً مستقراً هزّ رأسه دلالة النفي. قال متعب الهذال وقد اشتعل وجهه بالفرح في ضوء القمر:

ـ لما جيت للدنيا شعلناها بارود للصبح...

هزّ الشاب رأسه وقد امتلأ بالاعتزاز. تابع متعب الهذال:

ـ واليوم، يا وليدي، جاءك أخ.

ضحك شعلان دلالة المعرفة والموافقة. أضاف متعب الهذال.

ـ ويلزم أخوك أن يشمّ ريحة البارود.. حتى إذا كبر ما يفزع.

قالت سارة من الداخل، وكأنها تنصت للحديث:

ـ ولِم قهوتك يا أبو ثويني.. ترى رجال وادي العيون يصلونك هالحين نوبة ثانية.

ـ القهوة حاضرة يا سارة.. ويا مرحبا بهم..

ـ إذا جاءوا تشتعل للصبح.

رد شعلان بانفعال:

ـ يوبه... عطني البندق

دفع متعب الهذال بندقيته إلى ولده بزهو. كان يريد أحداً يشاركه هذه اللعبة الغامضة والمثيرة. كان يفيض في تلك اللحظة بمشاعر حادة سريعة، وبخفة أقرب إلى الانفعال، رفع شعلان البندقية ودوت الطلقة فملأت وادي العيون كله. كان صوتها، هذه المرة، قوياً مجلجلاً أكثر من الطلقة الأولى في أذني متعب الهذال، أما رائحة البارود فقد عبقت وملأت الجو بلذة موحشة. لما خيم الصمت من جديد، جاء صوت سارة من الداخل:

ـ الخير بالجايات، والجايات أكثر من الرايحات.. يا أبو ثويني..

قال متعب:

ـ وكّلي الله يا سارة.. الزمان طويل!

وحين دوّت الطلقة الثالثة قال متعب الهذال لابنه:

ـ يكفي.. يا وليدي...

توقف لحظة، ثم أضاف وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ جماعتنا وحنا أدرى بهم، أما سراجين أو ظلمة.. طلقة ثانية وكلهم بالظهرة.

وضحك من جديد. كان متعب الهذال يكلّم نفسه، يكلّم الآخرين، وكان يحس أن كل شيء حوله يتحرك بقوة، حتى القمر والنجوم بدت له مختلفة عن أيام كثيرة سابقة، وأحس أن لسعة البرد التي عبرت الدنيا في تلك اللحظة تعطيه قوة ونوعاً من الثقة فتمطى يريد أن يدفع جسده كله لكي يستجيب إلى التفجر الذي يملأ روحه، وأن يقول كلمات تنحفر ليس في الذاكرة وحدها، وإنما تنزل إلى القلب لتستقر هناك. قال وهو يتطلع إلى القمر، إلى وجه شعلان، إلى الباب المفتوح قبالته، وقد وقفت هناك سارة:

ـ إذا كبر ولدك فخاوه

قالت سارة، وقد أخذها جو الانفعال والفرح:

ـ إذا أقبل البخت، يا أبو ثويني، باضت الدجاجة على الوتد.

رد عليها وهو يقهقه:

ـ وإذا أدبرت، يا سارة، بال الحمار على الأسد

صرخت وضحة من الداخل، وجاء صوتها متعباً مديداً:

ـ وكلوا الله يا جماعة الخير.

مقبل بن متعب الهذال ولد في وادي العيون، هذه واقعة مؤكدة تماماً، أما الواقعة غير المؤكدة فسنة ولادته. وهذا الخلاف ناشئ عن النسيان أو لاختلاط الوقائع وتشابهها، فخالته وسمة، تؤكد أنه ولد في سنة الجراد. كانت تلك السنة سوداء قاسية، ولما ولد قال متعب الهذال: انتهت أيام الجوع وأقبلت أيام الخير. وفي محاولة لأن يؤكد هذه الرغبة سمّاه «مقبل». وتضيف وسمة أن أخاها سعد، جاء تلك السنة بعد غياب طويل، وأن ما حمله معه من سكر وطحين وأقمشة كان السبب في بقاء العائلة في وادي العيون فلم تغادره كما فعل الكثيرون. وزيادة في التأكيد تقول أنها لبست ثوباً من الأثواب التي حملها إليها سعد، وأنها وضعت مقبل على كتفها، فبال على الثوب الجديد، ورغم ذلك فقد استبشرت وقالت أن الأيام الصعبة سوف تنتهي قريباً!

سارة، أم ثنيان، تقول إنه ولد في سنة فاضت فيها الغدران، أما سنة الجراد التي تتحدث عنها وسمة فكانت قبل هذه السنة بثلاث سنوات. وتتذكر أن البدوان تلك السنة لم يصلوا وادي العيون إلا في وقت متأخر، لأن الخير في البادية كان كثيراً والمياه ملأت الغدران. وزيادة في التأكيد تقول أن الفقع والعكّوب والخبّيز تلك السنة كانت من الكثرة إلى درجة لا تتذكر أنها رأت شيئاً مشابهاً في أية سنة أخرى. أما تسميته بهذا الاسم فقد كان باقتراح منها، هي التي اقترحت الاسم وهي التي أصرّت عليه، «لأن متعب كان يريد تسميته ثويني أو ذياب، ثويني على اسم المرحوم، وذياب بعد حادثة الغنم التي جرت في الوادي».

الخلاف بين وسمة وسارة حول السنة التي ولد فيها مقبل لم يحسم،

لأن كل واحدة تصرّ على رأيها، ولأن الشواهد لدى كل واحدة منهما لا يمكن أن تخدع الإنسان إلى الدرجة التي تفترض ما تدعيه الأخرى، كما لا يمكن أن تخون الذاكرة إلى هذه الدرجة.

وإذا كانت ولادة أحد في وادي العيون لا تحمل امتيازاً من أي نوع، ولا تثير أي مقدار من الخلاف، فإن ما زاد في تعقيد الأمور في تلك الفترة أن الحكومة أرسلت لجنة من ثلاثة أشخاص لكي تسجّل أسماء الذكور والمواليد الأحياء، وقد مرت اللجنة على مناطق كثيرة في البادية، وكانت تحمل أوراقاً ودفاتر كبيرة، ولم يعرف الناس لماذا جاءت أو الغاية الحقيقية من التسجيل. وهذا الخوف دفع الناس في وادي العيون إلى التعامل معها بتحفظ شديد: اخفوا الكثير من المعلومات، ولم يذكروا شيئاً عن المسافرين، كذلك لم يسجلوا الإناث ولم يشيروا إليهن. أما الذكور فقد سجلوا قسماً منهم ولم يسجلوا القسم الآخر، وزيادة في الحيطة فقد طُلب من الصبية، بين الثامنة والرابعة عشرة، أن يغيبوا، أن يذهبوا إلى البساتين خلال النهار، وتعمد الآباء أن يذكروا وقائع مبهمة للغاية حول سنة ولادة أبنائهم.

هذا ما فعله الجميع، تقريباً، في وادي العيون، لأن الجندية كانت تنتظر الشبان، كما راجت الإشاعة قبل وصول اللجنة بأسابيع، لكن هذا لم يمنع ثلاثة أو أربعة في الوادي من عمل شيء مناقض تماماً، إذ سجلوا الذكور كلهم، وسجلوا المسافرين، ولم يتردد بعضهم من إضافة أسماء بعض الذين ماتوا خلال السنوات الأخيرة. فعلوا ذلك لأنهم سمعوا من أحد رجال اللجنة، إذ قال لهم ذلك بحذر شديد، وطلب أن لا يذكر شيء عن الأمر، قال لهم أن كميات من الطحين والسكر والقماش سوف توزع في الوادي وفي الأماكن الأخرى، تبعاً لعدد الأفراد. سخر الناس كثيراً من هذه الأخبار، وأكدوا أنها مجرد أكاذيب للإيقاع بهم، لأن الحكومة لم تفعل ذلك من قبل، حتى في السنوات التي مات خلالها الناس عطشاً.

في وقت لاحق لما ذكر لسليمان الهديب سنة ولادة مقبل تمهّل قبل أن يؤكد أو ينفي، وحين أكدوا له أن سجلات الحكومة لا تخطئ ولا تعتمد

على الذاكرة، فقد ابتسم بسخرية، وبعد أن هزّ رأسه عدة مرات قال:

ـ إذا كان دليلهم كتابهم فخطأهم أكثر من صوابهم.

وتذكر هو كيف تعامل الناس في الحدرة مع اللجنة التي جاءت تلك السنة!

أما الخالة ودعة، خالة الوادي كما كان يطلق عليها، فتقول شيئاً مختلفاً تماماً عن سنة ولادة مقبل، تقول أنه أكبر من عنود بثماني أو تسع سنوات. تتذكر ذلك لأن مقبل بعمر حليمة التي ماتت وعمرها سنة واحدة، وبين حليمة وعنود بطنان، ولذلك يجب أن يكون مقبل قد ولد سنة «الحرب العمومي»، لأن هزاع، زوجها، سجن أيام تلك الحرب في مصر، بعد أن رفض بيع الغنم التي كانت معه، وهرّبها، أو حاول تهريبها، لكن ألقي القبض عليه وسجن. ويتذكر هزاع، كما تؤكد الخالة، ودعة، أن «الحرب العمومي» بين الألمان والطليان والإنكليز والهنود والسنغال كادت تسوقه إلى طرابلس الغرب لولا رحمة الله، وإن هذه الحرب استمرت سنوات وسنوات، وأن حليمة ولدت بعد سفر أبيها بخمسة شهور.

كانت الخالة ودعة في وقت من الأوقات تؤكد هذه المعلومات بقوة، لأن مقبل كان أقوى المرشحين للزواج بعنود، لكن بعد أن انتظرت فترة طويلة، ولما ظل مقبل متردداً ويتهرب من إعطاء جواب نهائي، ثم لما جاء واحد من جماعة هزاع وطلب أن يتزوج عنوداً ووافق أبوها وتزوجت، فقد أصبحت الخالة ودعة أقل حماسة في تأكيد المعلومات السابقة، بل وادعت أنها لا تتذكر جيداً، لكنها لا تتردد أيضاً في الموافقة على رأي أختها وسمة، مؤكدة في نفس الوقت أن ما تقوله سارة ليس صحيحاً، وأنه مجرد تلفيقات بقصد ترتيب زواج مقبل من إحدى قريباتها.

إذن لا حاجة أبداً لأن يرهق أحد ذاكرته في تقصي سنة ولادة مقبل. الأمر من التعقيد إلى درجة كبيرة، يضاف إلى هذا أن لا فائدة ترجى من وراء ذلك، ولا أهمية لأن يكون ولد في سنة الجراد، أو في سنة الطوفان، وربما ولد قبل ذلك أو بعده، لكن الشيء المؤكد أن هذه الولادة كانت قبل الفترة الشديدة الاضطراب العاصفة، لأن الوادي، وطريق القوافل، والناس

جميعاً أصبحوا بعد ذلك في حالة من الصعوبة والفقر والانتظار. وكانت أصداء العالم البعيد تصل بين فترة وأخرى مع القوافل أو مع الأقرباء الذين غابوا سنوات طويلة، وقد اضطر الكثيرون منهم إلى العودة في هذه الفترة، خوفاً من أن يساقوا إلى الحرب، إضافة إلى أن أبواب رزقهم قد ضاقت.

كانت أصداء العالم وأخباره تختلط وتتداخل، وفي تلك الفترة كان فواز صبياً أقرب إلى سن الشباب، لأنه أصبح يجلس في مضافة الرجال. هذا ما تؤكده سارة أيضاً حين تتذكر، لأنه في الليل، مع القصيد والسوالف وعواء الذئاب البعيدة، سمعت، لأول مرة، أن فواز يريد أن يسافر.

وإذا كان وصول قافلة يعني الكثير للصغار والكبار، ولا يترك أحداً والاّ يحرّك فيه رغبة من نوع أو آخر، فإن الرجال الذين يظهرون مقداراً كبيراً من الهدوء والاتزان، ويتأخرون في الوصول إلى العين أو إلى الخان، يعرفون أشياء كثيرة قبل أن يروا القافلة وقبل أن يصلوها، لأن الصغار الذين يتراكضون مثل القطط يحملون الأخبار بسرعة: كم عدد رجال القافلة وعدد جمالها، ماذا تحمل، ومتى جاءت وإلى أين هي ذاهبة؟ إن الصغار لفرط شغفهم وحب الاستطلاع لديهم يندفعون بسرعة لكي يعرفوا كل شيء ويتأكدوا بأنفسهم، ثم لا يلبثون أن ينقلوا للكبار ما رأوا! هذا ما حصل بالنسبة لجميع القوافل التي مرت؛ والكبار الذين يستمعون باهتمام، لكن دون أن يظهر عليهم ذلك، لأنهم قد سمعوا شيئاً من القوافل الأخرى، من طارش مرّ قبل أيام، أو من حساب الأوقات بين رحلة وأخرى، بين مكان وآخر. فإذا وصل الكبار إلى العين ثم إلى الخان نظروا بإمعان إلى كل شيء، حتى إلى روث الدواب، لكي يقدروا ويعرفوا.

في هذه الفترة بالذات توقف فواز عن مشاركة الصغار الركض، وأخذ يتعمد مثل رجال العتوم التأخر في الوصول إلى العين، لكنه كان يضيق مع ذلك من تأخر أبيه في الوصول، فيسبقه؛ فإذا بدأت القوافل تستعد للرحيل ومواصلة السفر، بعد استراحة يومين أو ثلاثة، فلا بدّ أن يحاول شيئاً، إذ إضافة إلى مساعدة المسافرين، كان يحاول إقناع أبيه والآخرين. فمع كل حمل يُرفع ويشدّ على ناقة أو بعير، ومع كل حبل يدور من جهة إلى أخرى

أثناء حزم الأمتعة، كان يبدي براعة وقوة، ولا يتوقف عن محاولة الإقناع بطريقة أو أخرى. فإذا جاءت ساعة الرحيل الحقيقية، وكانت الأيدي المعروقة السمراء تمتد بقوة، لكن بخفة أيضاً، للسلام والوداع، كان فواز يمتلئ غيظاً ومرارة لأنه لم يكن في هذه القافلة. لكن كان يقنع نفسه أن هذا سيتاح له في المرة القادمة، مع قافلة أخرى.

قال متعب الهذال لابنه، بعد أن سافرت قافلة جديدة:

ـ بعد سنتين أو ثلاث تكبر وتسافر.. يا وليدي

وحين ألحّ عليه فواز واتخذ موقفاً أقرب إلى العناد، وتصرف تصرف الرجال أثناء رحيل القافلة، قال متعب الهذال:

ـ يا وليدي.. هذه الديرة أحسن من غيرها..

يصمت قليلاً، يتذكر، ثم يضيف:

ـ ما وراء السفر غير التعب.

وحين يؤكد له فواز أن في القافلة التي رحلت اليوم، وفي القافلة التي رحلت قبل أسبوعين، فتياناً في مثل عمره، أو أصغر قليلاً، كان متعب يقول مخاطباً زوجته:

ـ يا وضحة، شعلان بعده ما رجع، وفواز يريد يسافر.. حضري له الزهاب وتوكلي على الله.

في هذا الوقت، عند هذا الحد، ينسحب متعب الهذال ليبدأ دور زوجته، فإذا كان هو مستعداً للمناقشة، ثم التنازل الظاهري، إرضاء لغرور الشاب، فإن رفض وضحة مؤكد ولا يقبل التراجع، لأنها بغريزتها بما تملكه من قوة خفية، وبعض الأحيان بنظرة حزن وانكسار، تجعله يتراجع ويترك الفكرة بعض الوقت. كانت تؤكد له أنه بعد سنوات قليلة سيصبح أكثر قوة وقدرة على تحمل أعباء سفرة قد تمتد عشر سنين، أما الآن، وقبل أن ينبت شاربه، فيجب أن تبقى فكرة السفر أملاً. وتأتي له بأمثلة كثيرة عن أبيه، عن أقربائه الذين سافروا: متى بدأوا وكم تحملوا من المتاعب والآلام، وما تزال تحدّثه، تحاول معه، إلى أن يقتنع أو يتظاهر بالاقتناع. فإذا حان موعد ورود الماء كان أبوه يقول له بلهجة تحدٍ:

ـ إذا كبرت وأصبحت قوياً فورد الدواب. وعد سالماً.

ومعنى أن يأخذ فتى في مثل عمره عدداً من الدواب بمفرده، أن يكون قوياً وماهراً، لأن وقت الغروب في وادي العيون، حيث تأتي الدواب لتستقي، من أصعب الأوقات وأكثرها مشقة وخطورة، إذ إضافة إلى ضرورة الوصول إلى العين في وقت مناسب، فإن السيطرة على الحيوانات وعدم اختلاطها، وما يرافق ذلك من مناقشات، وبعض الأحيان من نزاع، لا يقوى عليها إلا الرجال أو الفتيان الأقوياء، وكثيراً ما تطلب الأمر وجود أكثر من شخص واحد لكي تجري السقاية بسرعة ودون ضرر.

لذلك حين طلب متعب الهذال من ابنه الذهاب بمفرده، شعر فواز بالزهو والتحدي، أما حين أشارت أمه إلى أخيه إبراهيم، والذي يصغره بسنة، أن يذهب معه، فقد رفض فواز بإصرار، قال بما يشبه التحدي:

ـ وحدي، ما أريد أحداً، وارجع قبل الجميع.

ذهب فواز بمفرده، لكنه لم يرجع مبكراً كما وعد. رجع متأخراً، متأخراً جداً! وحين يتذكر اليوم الأول الذي ذهب فيه بمفرده للسقاية، وأنه عاد متأخراً، يتذكر أن هذا لم يحدث نتيجة عدم القدرة، وإنما نتيجة سبب آخر، أكثر أهمية، وهو الذي أخّره.. وهذا السبب نفسه هو الذي منعه من السفر.. بعد ذلك.

فبعد أن غابت الشمس وبدأت الظلمة الخفيفة تغطي كل شيء، وكانت الجمال والغنم تولد في مدى النور المتراجع المتداخل الألوان حركة وأصواتاً لا حصر لها، ومع الحركة الثقيلة والاحتكاك، ثم الأصوات المبعثرة، كان فواز يحس بالرهبة والثقة في وقت واحد، وكان يحس أيضاً بالحصار. ورغم الأصوات العمياء التي كان يدفعها أمامه، حاثاً الدواب على أن تسرع، فقد بقيت الحركة رتيبة وأقرب إلى البطء، وفي وقت متأخر شعر بالندم أنه استسلم لهذا الإغراء الخفيّ، وبقي ساعة أو أكثر يتنقل بين الدواب وحلقة الرجال الصغيرة قرب مضافة ابن الراشد. أما حين وصل إلى الظهرة، ووجد العجوز جالسة في مكان متقدم، وكأنها بجلستها تلك، قريباً من الأرض، تحاول أن تخترق الظلمة والمسافة، كما يفعل

الإنسان أثناء النهار، حين يقف منتصباً أو يجلس على ربوة عالية، واضعاً يده فوق عينيه، لكي يمعن النظر في البعيد ويتأكد من الأطياف والحركات. . . كانت العجوز في الظلمة تجلس بتلك الطريقة، وقد انتابها القلق الذي أصبح خوفاً. أما إبراهيم فقد أخذ يدور حوله بطريقة ماكرة، دون أن يقول كلمة، لكن ليشعره أيضاً بأهميته والفائدة التي كان يمكن أن يجنيها لو كان معه.

تابع فواز طريقه دون أن يتوقف أو يقول كلمة ليفسر تأخره، لكن شيئاً عصبياً سيطر على حركاته وجعله يصرخ على الغنم بقسوة لكي تدخل الحظيرة بسرعة، وعلى الجمال لكي تتوقف تمهيداً لإناختها وعقلها، وبعد قليل صرخ في وجه إبراهيم، الذي كان لا يزال يدور حوله، طالباً منه إنجاز ما تبقى من أعمال.

لم يكن في تلك اللحظة مستعداً للتبرير، كان يريد أن ينقل لأبيه ما شاهده وما سمعه. لكن ما كاد ينظر إلى وجهه، على ضوء النور الخفيف المنبعث من بقايا الحطب الذي ما زال مشتعلاً، حتى التمعت عينا متعب الهذال بابتسامة هي بين السخرية والشفقة، وكأنه يريد أن يقول له دون كلمات «يجب أن تكف عن العناد وطلب السفر. . ما زلت صغيراً ويجب أن تنتظر!» أما حين أنزل عينيه واستمر في تقليب الجمر، فقد شعر فواز أن أباه لا يريد تفسيراً أو تبريراً لما وقع، إذ استمر بحركته الخفيفة المتقنة في تقليب الجمر تمهيداً لمواصلة لصنع القهوة.

شعر فواز بالخيبة وأسقط في يده. فجلسة العجوز على مسافة من البيت، وبتلك الطريقة، ثم حركة إبراهيم المليئة بالرعونة والتحدي، وهذه النظرة السريعة المثقلة بالعتاب من أبيه، وبما يشبه عدم الثقة، ثم الصمت الذي ميّز هذه المواقف جميعها، كل ذلك أشعره بالخيبة تماماً، ثم بالخطأ الفادح. تصور أن الساعة التي قضاها متنقلاً بين مضافة ابن الراشد والدواب، وبين وجوه هؤلاء الضيوف الغرباء الغامضين، والركض السريع لكي يتأكد أن الجمال والغنم رويت ولم تؤذ أحداً، جعله يتساءل مرة بعد أخرى إن كان عليه أن يعود بسرعة أو أن يشهد هذا الشيء الغريب الذي

يراه لأول مرة، قال لأبيه الذي ظل واثقاً من حركاته وانشغاله:

ـ عند ابن الراشد ضيوف غرباء. . .

سقطت كلماته بين الجمر وأصوات الدلال، وظل أبوه يواصل عمله، كأنه لم يسمع ولا يريد تبريراً للتأخر. شعر بالتحدي، قال بصوت حادّ وعصبي:

ـ من الفرنج ويتكلمون العربي.

لما قال هذه الكلمات رفع أبوه إليه عينين متسائلتين، وانتظر أن يسمع شيئاً جديداً. أضاف وهو يجلس مقابله والنار ودلال القهوة بينهما:

ـ ثلاثة أجانب، ومعهم اثنان من عرب الزور، ويتكلمون العربية.

وتغيّرت لهجة فواز ليخلق تأثيراً قوياً:

ـ يتكلمون بطريقة مختلفة عن طريقتنا، بطريقة مضحكة، لكن يمكن أن نفهم ما يقولون.

وفجأة رأى أباه يتغير، تتجمع حواسه في عينيه، ينظر إليه بإمعان وحدة، وكأنه يريد أن يقرأ في وجهه وعينيه ما رأى، وأية انطباعات ترسبت في نفسه، لكي يقدر أي نوع من الرجال أولئك الذين رآهم. سأل ببطء:

ـ وعرفت منين هم ويش يريدون؟

ـ الناس حول المضيف قالوا إنهم نصارى.

ـ ويش يريدون؟

ـ سمعت ابن الراشد يقول لواحد منهم: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله وقال الرجل وراءه: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ـ وما يبغون؟

ـ الناس يقولون إنهم جاءوا ليبحثوا عن الماء

ـ وأنتْ. . أنتْ ويش سمعتهم يقولون؟

ـ كان الناس حولهم كثيرين. . ولم أسمع إلا كلمات من هنا ومن هنا.

بنفس التحفز الذي بدا في عينيه حين قال له إنهم أجانب، وأخرجه من

جو العتاب واللوم الذي بدا عليه أول الأمر، تجمع جسده بحركة سريعة وخفيفة، قال وهو ينهض:

ـ لازم اشوف بنفسي

وخلال فترة قصيرة أسرج هو وفواز الحصانين، أما محاولات مقبل في أن يتشبث به، أن يأخذه معه، فقد انتهت بسرعة وحزم قال لزوجته:

ـ امسكي الزغير، خذيه عنا

وبعد أن امتطى حصانه أضاف وهو يتهيأ للانطلاق:

ـ الله العليم أنّا نتأخر ويجوز ننام عند ابن الراشد.

وفي فترة قصيرة تحركا وسارا. ظلا غارقين في الصمت، فلا يسمع إلا الوقع الهش لحوافر الخيل، أما حين وصلا مضافة ابن الراشد، فقد جلس متعب الهذال قريباً من الضيوف، وجلس فواز مع الفتيان الذين كانوا في مثل عمره، غير بعيد عن باب المضيف.

متعب الهذال، وهو يوافق بسرعة على قضاء الليل عند ابن الراشد، ويقضي النهار التالي حتى الغروب، يرقب الأجانب الثلاثة، ويتحدث معهم، ويسأل نفسه ويسأل الآخرين عن الأسباب التي دعت هؤلاء إلى المجيء، ثم تلك العودة البطيئة الحزينة، وما تخللها من وقفات وأحاديث، والطريقة التي عامل بها ابنه، سواء في التصرف أو الحديث، كل هذا جعل فواز الهذال رجلاً قبل الأوان، وترك في نفسه هذه الذكرى التي لا تمحى.

خلال رحلة العودة إلى الظهرة، اختار متعب الهذال طريقاً طويلاً، طريقاً لا يسلكه إلا نادراً، وبدا رجلاً جديداً لكل من رآه ولكل من عرفه. كان شديد الحيرة والحزن. تكلم بطريقة مختلفة عن أية مرة سابقة، بنبرة الصوت، بنوع الأحاديث، بالأسئلة الكثيرة التي يطرحها على ابنه، وكان في الحقيقة يطرحها على نفسه وعلى الآخرين. وفواز الذي حرص طوال رحلة العودة على أن يبقى صامتاً، كانت كلمات أبيه من الغرابة إلى درجة لا يمكن أن تنسى: «أكيد هؤلاء لم يأتوا من أجل الماء، إنهم يريدون شيئاً آخر. ولكن ما عساهم يريدون؟ وأية أشياء في هذه الفلاة غير الجوع والرمل والعجاج؟ ويقولون إنهم سيقضون هنا وقتاً طويلاً؟ كيف سيعيشون؟ كانوا وهم يأكلون أشبه بالدجاج. والأسئلة التي يسألونها خبيثة، ملعونة، وتؤكد إنهم ليسوا مثل الذين جاءوا من قبل: «هل جاء أجانب غيرنا؟» «هل سمعتم عن أجانب، عن إنكليز وفرنسيين، جاءوا إلى هنا؟» «هل بقوا فترة طويلة؟ هل فعلوا شيئاً؟» إنهم خائفون، عندهم ما يخافون منه، وأنت تعرف أن الذي يعمل عملاً خبيثاً يخاف من الآخرين. لو كانوا صادقين

وجاءوا من أجل الماء، فالماء معروف مكانه، لا يريدون أن يبقوا في هذا المكان، يريدون أن يتجولوا، أن يذهبوا ويرجعوا، وبعدهم سيأتي غيرهم، هكذا قالوا، وقالوا «انتظروا، اصبروا، سوف يصبح كل واحد منكم غنياً!» ولكن ماذا يريدون منا وما همهم إذا أصبحنا أغنياء أو بقينا على حالنا؟ انظر إلى عيونهم، إلى أقوالهم وتصرفاتهم، إنهم شياطين، ولا يمكن لأحد أن يثق بهم. إنهم ألعن من اليهود.. ويحفظون القرآن أولاد الحرام... عجايب».

فإذا توقف وتطلع إلى ابنه ليسأله الرأي فيما يقوله، كان فواز يبقى صامتاً، لأن هذا الذي يجري لا يفهم منه إلا القليل. صحيح أنه سمع الفتيان يقولون عنهم كلمات قاسية، ويشيرون إليهم ويضحكون، ورآهم كيف يأكلون وكيف يتكلمون، لكن لم يستطع أن يدرك ما يدور حوله. حتى إذا وصلا إلى الظهرة، وروى متعب الهذال للرجال الآخرين بعض ما رأى وبعض ما سمع، كان يتطلع إلى ابنه يريده أن يتحدث، أن يؤكد، بطريقة ما، ما كان يقوله هو، في الوقت الذي علمه طوال السنوات السابقة أن يبقى صامتاً إذا تكلم الكبار، وأن يبقى واقفاً حين يكون الضيوف، وأن يتصرف متعب الهذال بطريقة مختلفة: «يا جماعة الخير، الواحد لا يصدق: واحد منهم، الله أعلم... شيخهم، يعرف العربية، لكنه لا يريد أن يتكلم بها. أنا متأكد. لاحظته، كان مثل الصقر يراقب ويتنصت. سألته إن كان يعرف العربي أم لا قال: «شوية.. شوية» ابن الملعونة يعرف أحسن من الجميع، لكنه خبيث، وحين يريد شيئاً يتكلم بلغته ويطلب من الآخرين أن يسألوا! والماء؟ وادي العيون ماؤه يكفيه، لا نريد أكثر من هذا الماء. لو أرادوا الماء، لو أرادوا مساعدة الناس لذهبوا إلى أماكن أخرى».

خلال الأيام التالية حرص متعب الهذال أن يقوم بالسقاية بنفسه، ولكي يمتحن شكوكه طلب من جميع الرجال أن يذهبوا ويشاهدوا هؤلاء الأجانب بأنفسهم.

أكثر من ذلك كان يطلب من ابنه، فواز، أن يعود بالدواب لكي يتعلل هو عند ابن الراشد. وفي كل مرة يعود بأفكار جديدة كلها تؤكد شكوكه

السابقة وتزيده اقتناعاً أن «هؤلاء الشياطين لا يمكن أن يفعلوا خيراً لوجه الله».

إنهم يقضون النهار كله في حركة دائمة، يذهبون إلى أماكن لا أحد يفكر بالذهاب إليها. يجمعون أشياء لا تخطر ببال. معهم قطع حديدية لا يعرف الإنسان ما هي أو ماذا يفعلون بها، حتى إذا رجعوا عند المساء رجعوا ومعهم أكياس من الرمل وقطع من الحجارة، وقد جلبوا معهم مرة أغصاناً من الإثل والقيصوم والشيح. كسروا الأغصان بطريقة عجيبة ولصقوا عليها أوراقاً كتبوا عليها أشياء غريبة. لم يكونوا يكتفون بذلك، كانوا يضعون علامات من الخشب أو قضبان الحديد في جميع الأماكن التي يمرون بها، وكانوا يكتبون عليها ويكتبون على قراطيس يحملونها أشياء لم تفهم أبداً، لكن هذه العلامات لا تلبث أن تختفي أو تغيّر أماكنها حالما يغيبون. كان صبية الوادي يفعلون ذلك، والكبار لا يعترضون، وقد جمع الصبية عدداً من هذه العلامات. ولما جاء فواز ببعض القضبان الحديدية، حين كان يسرح بالغنم، قلّبها أبوه باهتمام وببعض الخوف. دقها على حجر، دقها ببعضها، وتنصت إليها مدة طويلة ثم أكد على ضرورة عدم تقريبها من النار.

والماء.. أين الماء وكيف سيجدونه؟ والحكومة.. هل تعرف أين هم وماذا يفعلون؟ حين سأل متعب الهذال ابن الراشد، أكد هذا الأخير أن معهم تفويضاً من الأمير، وإنهم قضوا أسبوعاً في ضيافته، وحين سأل الدليلين أكدا أن الأمير أرسلهم، وإنهما جاءا معهم لهذا السبب.

ومع كل جديد يزداد تشاؤم متعب الهذال، وتزداد شتائمه ومخاوفه، حتى أصبح لا يتحدث إلا في هذا الموضوع. وإذا كان الرجال من حوله يشتركون معه في الحديث فإنهم لم يكونوا جميعاً يشاركونه في الرأي، لكن بحكم المنزلة والسن كانوا يتركونه يتحدث كما يريد، ويشتم كما يريد.

كان يحس أن شيئاً خطيراً يوشك أن يقع، لم يكن يدري ما هو أو متى، ولم تفده التوضيحات التي قدمها الكثيرون، إذ بمجرد أن رأى

هؤلاء، بحركتهم اليومية الدائمة، بالأدوات التي يحملونها، ثم وهم ينقلون أكياس الرمل والحجارة ويكدسونها بعد أن يكتبوا في دفاترهم، ويضعوا عليها علامات، ثم تلك المناقشات التي تمتد من الغروب إلى ما بعد العشاء بقليل، وما يعقبها من الكتابة، وهذه الأسئلة الملعونة التي يسألونها، عن القبائل ولهجاتها ونزاعاتها، ثم عن الدين والمذاهب، وعن الطرق والرياح ومواعيد المطر، هذه الأشياء كلها ولدت لديه مخاوف تزيد يوماً بعد يوم أن هؤلاء يريدون شراً بالوادي وبالناس. وأهل وادي العيون الذين نظروا باستخفاف، أول الأمر، لما يفعله الأجانب الثلاثة، وضحكوا كثيراً حين رأوهم يحملون الرمال والحجارة، بدوا أكثر دهشة وحيرة وهم يكتشفون يوماً بعد آخر أن هؤلاء يعرفون الكثير عن حياة البدو والصحراء والعشائر والدين. أما كلمة الشهادة التي يرددونها حين يطلب منهم ذلك، ثم الأحاديث التاريخية الطويلة، فقد دفعت الكثيرين من أهل الوادي إلى سؤال أنفسهم ثم التساؤل فيما بينهم إن كان هؤلاء مسلمين أم أنهم جن، لأن بشراً مثلهم يعرفون كل ذلك، ويتكلمون العربية، ولا يصلون وليسوا مسلمين، لا يمكن أن يكون أمرهم طبيعياً.

وابن الراشد الذي بدا شخصاً مختلفاً منذ أن وصل هؤلاء الأجانب، وبالغ بالكرم والعناية، وإظهار هذا الكرم وهذه العناية، وكأنه كان على علم سابق بوصولهم، أو ربما نتيجة تعليمات مشددة من قبل الأمير، نقلها إليه الرجال الذين جاءوا معهم، فقد كان في دخيلته يحس أن مغانم كبيرة يمكن أن تجنى من هؤلاء، ولذلك بالغ في كل شيء، حتى في الحديث والتصرف، وكان هذا أكثر مما يطيق الوادي وأكثر مما يحتمل الناس. وإذا كان الكثيرون داخلهم شعور الكبرياء في الأيام الأولى، وكأن الوادي يعيش في بحبوحة ورخاء، ويعرف كيف يحتفي بالضيوف، فقد بدأ الشك يخامرهم وتساءلوا ما إذا كانوا قادرين على الاستمرار، خاصة وإن إقامة هؤلاء الأجانب قد طالت، وبدا أنها ستطول أكثر.

هذا السلوك من ابن الراشد لشدّ ما أثار متعب الهذال وأدخل الغضب إلى قلبه. صحيح أنه يحب الكرم، ويعرف كيف يكون كريماً، فيقدم

للضيوف أحسن ما عنده، حتى لو ترك أهل بيته جياعاً، لكنه لا يعرف لماذا بدا ابن الراشد خائفاً مستسلماً أكثر مما ينبغي أمام هؤلاء. قال له بعد مرور أيام على وصول الأميركان:

ـ اسمع يا ابن الراشد: نأكل التراب، ونقدّم للضيوف أولادنا، لكن لا نرضى أن نهز رؤوسنا مثل العبيد لكل كلمة يقولونها.

ولما ابتسم ابن الراشد في محاولة للتغلب على غضب متعب الهذال قال الأخير:

ـ حتى الطريقة التي تبتسم بها أو تنظر إليهم لا يقبلها أهل الوادي. إنهم رجال مثلنا، ولولا أن الأمير أرسلهم لأرجعناهم من حيث جاءوا، لأن الماء في الوادي يكفي ولا نريد مساعدة من أحد...

توقف ابن هذال لحظات. بان على وجهه الأسى، هزّ رأسه عدة مرات ثم تابع:

ـ تكلم معهم مثل الرجال. تعامل معهم مثل الرجال، يا ابن الراشد.

ـ الله يصلحك يا أبو ثويني.. ثقلت كلامك.

ـ والله من يوم جاءوا ما لك شغلة ألا تضحك مثل العجيان.

رد ابن الراشد بمكر:

ـ يا أبو ثويني الجماعة ما هم مثل جماعتنا، لازم نكون معهم كرماء حتى يقولوا إننا عرب.

رد متعب الهذال بعصبية:

ـ نحن عرب يا ابن الراشد وما نبغي شهادة من أحد.

وتغيّرت لهجته:

ـ اذبح لهم، اضحك، سولف.. لكن مثل الرجال.

وإذا كانت القوافل قد استمرت تمر بوادي العيون، فقد كان يلذ لمتعب الهذال أن يقصر الحديث ـ بعد أن يسأل المسافرين الأسئلة الضرورية والتقليدية ـ عن هؤلاء الأجانب الخبثاء الغدارين، فهم جاءوا لا يعرف لأي سبب، أو ماذا سيفعلون، ثم ماذا ستكون النتائج في النهاية. لم

يكن يكتفي بذلك، كان يريد من جميع رجال القافلة أن يروا الأميركان الثلاثة لكي يتأكدوا، وأن يساعدوه على اكتشاف السر وراء مجيئهم. والمسافرون الذين يسمعون حديث متعب الهذال، كانوا يتصرفون بطريقة تؤكد شكوكه إلى أقصى حد «رأينا في الطريق إلى وادي العيون عدداً منهم: كانوا يبدون مثل الخراف المسلوخة من حرارة الشمس، كانوا يتراكضون في الفلاة، أما حين أمرحنا ورأينا الأمير قبل خمسة أيام فقد قال لنا «من يعترض طريقهم سيلقى جزاءه... إنهم خويا، وجاءوا لمساعدتنا!» وحين يستوضح متعب الهذال عن المساعدة التي يمكن أن يقدمها هؤلاء، ويؤكد أن حالنا بخير ولا نريد مساعدتهم، كان الرجال يتبادلون النظرات فيما بينهم ولا يتكلمون.

فإذا رأى رجال القوافل الأجانب الثلاثة وتحدثوا إليهم، كانت شكوكهم تزيد ومخاوفهم تكبر، لأنهم يتساءلون ويتحدثون عن أمور وأماكن لا يتوقعها ولا يصلها أحد، ولذلك لا يمكن أن يصدّق إنهم جاءوا من أجل الماء.

هذا ما حصل في تلك الفترة، أما لماذا كان متعب الهذال بهذا الشكل ولماذا نظر إلى هؤلاء الأجانب تلك النظرة القاسية المليئة بالمخاوف، فإن حالة من الألهام، أقرب إلى النبوة ملأت نفسه وحياته في السنوات الأخيرة!

على غير انتظار أو توقع وصل هديب وشعلان مع إحدى القوافل، وصلا بعد غياب عن الوادي استمر ثلاث سنين. لا زال الكثيرون يتذكرون ذلك اليوم، لأن خبر وصولهما، حين نقله الصبية الذين استقبلوا القافلة على طريق الخبرة الشرقية، جاء مشوشاً مضطرباً؛ قال بعض الصبية أن الذي وصل هو الخوش، وقد وقع هذا الخطأ نتيجة اختلاط الصور والأسماء في أذهان الصغار، وما كاد هذا الخبر يصل إلى وادي العيون، وإلى أم الخوش بالذات حتى بدأت ترقص وتبكي وتضحك وتزغرد في آن واحد. كانت لا تعرف هل تندفع لملاقاة القافلة أم تذهب إلى البيت لتحضره وتستعد. كانت تتراكض في كل الاتجاهات وتتراجع كالمذهولة، أما حين وصلت القافلة وتبين أن اللذين وصلا هما هديب وشعلان فقد تغير كل شيء: خيّم الصمت والهبوط ثم جاء الحزن، خاصة لما ملأت ولولة أم الخوش الوادي، وزاد حزنها أكثر من أية مرة سابقة. ومتعب الهذال الذي حاول أن يفرح لم يستطع، فقد غلبه الحزن تماماً، وودّ في أعماقه لو لم يصل هذا المسافران.

في الليل، وأمام عدد من الرجال، ذكر متعب الهذال أنه لم يتوقع عودة المسافرين، بل وذهبت به الظنون، في فترة معينة، إلى أنهما لن يعودا أبداً. أما الآن وقد عادا فقد تذكر كيف أنه وهديب بذلا جهوداً كبيرة حتى جمعا ما يكفي لشراء ثلاثة جمال حملت مجموعة من البضائع كانت في وادي العيون لرجل انفصل عن القافلة التي كان فيها.

قال متعب الهذال هذا والتفت إلى ابنه شعلان، الذي كان يتابع بلهفة قصته كأنه ليس طرفاً فيها:

- شعلان كان يسرح بالحلال، لا شاف ولا سمع، لكن ما إن جاء وشاف خاله يستعد حتى جن وسافر معه.

وضحك متعب بصوتٍ عال، ثم ذكر كيف أنه لم يستطع شيئاً لمنع شعلان، قال وهو يستعيد قصة قديمة:

- قلت لامه: يا أم ثويني.. هذا ابنك وهذا أخوك، وقريشاتنا وقريشات الناس أمانة بين أيديهم، فإذا جعنا، وإذا شتمنا الناس فلا تسأليني، اسألي الرجال...

وأشار إلى هديب وإلى شعلان ثم تابع بتهديد:

- قلت لها: إذا كانوا مثل أهل وادي العيون، يزرعون بكل ديرة شجرة وينتظرون ثمرها، ما كانوا ولا كان يومهم، أما إذا رحمونا ورجعوا بعد سنة سنتين عشنا وخلصنا من حلوق الناس.

وضحك ضحكة فرحة، مليئة بالثقة. وتذكر كيف أن وضحة تولت بعد ذلك كل الأمور، كيف أعدّت لشعلان وهديب ما يحتاجان إليه، وكانت في كل خطوة، مع كل حركة، تلح على ابنها أن يعود، أن يعود بسرعة، وشعلان الذي كان يؤكد لأمه أنه سيفعل، ويريد من أبيه أن يسمع، كان أغلب الوقت مشغولاً بإعداد لوازم السفر، حسب ما يتصور وحسب ما رأى المسافرين الآخرين يفعلون. أما الساعات الأخيرة قبل السفر فقد اتسمت بذلك الحزن القاسي، فبدت الكلمات عديمة الجدوى، وتتلاشى قبل أن تُسمع، ولذلك قرر متعب الهذال أن يترك الظهرة إلى الوادي. حرص على النزول مبكراً، وقد تعمد قبل أن يترك الظهرة أن يقول لزوجته:

- البلاد طلبت أهلها، وهديب وشعلان مثل الخوش، قد لا يعودان قبل سنين.

وحين أكدت له أن أخاها وعدها أن يعود سريعاً، وإنه لن يغيب إلا فترة قصيرة، بمقدار ما يحتاجه الطريق، رد بسخرية:

- إذا شفت أولاد شعلان يا وضحة فاحمدي ربك.

وسقطت دموع وضحة بصمت. كانت في أعماقها تشارك زوجها رأيه تماماً، وربما كانت لديها مخاوف أكبر منه.

الآن.. وهديب وشعلان يعودان بهذا الشكل المفاجئ أثارا من الفرح بمقدار ما أثارا من المفاجأة. وإذا كانت وضحة قد اختلطت دموعها بابتسامتها، وهي تقبل ابنها وأخاها، فإنها لا تعرف هل تضحك أم تبكي أم تتذكر.

كان متعب الهذال يحكي أشياء كثيرة متعمداً. كان يحكيها وينظر إلى ابنه فواز، وكأنه يريده أن يتعلم درساً، أو على الأقل أن يستوعب هذا الدرس.

وبطريقة بارعة وجه الأمور نحو أحاديث معينة، يريد أن يتفرغ، في أسرع وقت، إلى المسافرين ليسألهما، وكأنه مدفوع بقوة خفية، عن هؤلاء العفاريت الذين وصلوا في الأيام الأخيرة، أي شيء يمكن أن يعملوا، وماذا يقول الناس في الأماكن الأخرى.

أن العلاقة بين متعب الهذال ونسيبه هديب الحمد علاقة خاصة، إذ بمقدار ما فيها من مودة، فيها من التحدي والمشاكسة الشيء الكثير. كان متعب الهذال يعتبر أن العمر وحده الذي يعلّم الإنسان، وينظر إلى الصغار بقليل من الثقة، وبعض الأحيان بشك، وكان لا يخفي ذلك. أما هديب الحمد فإنه يرى أن السفر، الانتقال من مكان إلى آخر، الالتقاء بالبشر، ما يعلّم الإنسان ويجعله أكثر معرفة ودراية.

وتلك الليلة حين جرى الحديث مرة أخرى عن السفر وأنه وحده الذي يعلّم ويغير علّق متعب وهو يضحك بصخب، لأنه تذكر ما كان يقوله هديب:

- العمر وحده يا ابن أخي يعلّم من يريد أن يتعلم

- ما قولك بالدريبي؟

- وقبل أن يجيب تابع

- أي نعم الدريبي.. هذا اللي يقول إنه راح للهند والسند، واللي يحكي مصري كأنه ولد بمصر.. تعرفه...

وحين هزّ هديب رأسه دلالة أنه يعرف تابع متعب:

ـ أول أمس، قبل كم يوم، راح مع الجماعة إلى الخبرة الشرقية، ولما التفتوا ما وجدوا له أثراً. . ضاع الدريبي، ملح وذاب، ولولا رحمة الله وفطنة حمار من حمير الوادي لظل بمكانه ومات.

ابتسم هديب ابتسامة ساخرة. وحرك كتفيه، قال متعب:

ـ أتعرف من رجّعه لوادي العيون؟

لم يجب هديب، قال متعب وهو يضحك:

ـ حمار ابن المدور هو اللي قاده وهو اللي رجعه!

وأضاف بعد قليل وقد أخذت لهجته نبرة جديدة:

ـ الصخرة، يا ابن أخي، تعلم ولا تتعلم. . البشر هم اللي يعلّمون ويتعلمون. . والبني آدم كل شيء يعلّمه وكل يوم يطلع له قلب جديد.

كان متعب الهذال يتحين الفرصة لكي يسأل ويعرف، كان يريد أن يرى أثر السفر في هذين الرجلين اللذين يعودان الآن. كان يسترق النظر، بين فترة وأخرى، إلى ابنه شعلان يقرأ في وجهه وعينيه آثار ذلك السفر الطويل. وإذ أخذ الرجلان يتحدثان عن البشر والأماكن، عن المشاق والصعوبات، عن الجوّ والليالي الباردة، ثم عن القوافل التي ضاعت وهلكت، وعن المرض الذي حلّ بمصر وكيف إنهما وُضعا مع المئات في أماكن خاصة محاطة بالأسلاك، وكان الجنود، والأسلحة بأيديهم، يمنعون الدخول والخروج، حتى إذا انقضت فترة، وكانوا قبلها أصحّاء معافين، خرجوا من الكرنتينا وقد هدهم التعب والمرض والجوع. وبعد ذلك تحدثا عن الطعام والفاكهة، عن المياه الباردة التي تتدفق في شوارع الشام في كل وقت. ومتعب الذي سمع بانتباه وأبدى إعجابه وسأل عن الكثير من التفاصيل، وكان يستعيد في لحظات معينة بعض الوقائع والأسماء، ويبدي دهشته لضياع القافلة التي كان فيها فلان وفلان، ويبدي أسفه لموت فلان الذي يعرفه وسافر معه في وقت من الأوقات، كان يريد أن يصل إلى الأمور التي تهمه أكثر من غيرها. أن يعرف لماذا جاء هؤلاء الأجانب وماذا

سيفعلون. وهديب الذي أبدى معرفة تفوق معرفة شعلان، قال وهو يؤكد على الكلمات التي يقولها:

- بلى يا أبو ثويني. لقيناهم في كل مكان. والناس يقولون إنهم سيحفرون الأرض ويقلبون عاليها سافلها، ولا أحد يعرف...

توقف قليلاً وتوالت هزّات رأسه حزناً وأسفاً ثم تابع:

- قبل أيام، عند المديرج، رأينا عشرة أو أكثر منهم، كانوا في أربع خيام، ومعهم عدد من جماعتنا، ولما طلبنا أن نمرح عندهم قالوا: «تشربون وتمشون، تمرحون بمكان ثانٍ»، وشربنا ومشينا. ولما جئنا الأمير قال: «هذا بعلمنا وما لكم لازم».

تركت هذه الكلمات علامات الدهشة والغضب على وجه متعب الهذال، قال بحدة:

- والله إذا تركناهم، يقلبون الوادي فوق رؤوسنا، كفار ولا يرحمون.

قال شعلان، وكان يتكلم وينظر إلى أبيه بما يشبه اللوم:

- هذا عمل حكومة يوبه.. وما دامت الحكومة تعرف والأمير قال مالكم لازم، الاعتراض ما يفيد.

تطلع متعب الهذال إلى ابنه شعلان وكأنه فوجئ بوجوده وكلامه، حتى إنه لم يصدق أذنيه أول الأمر، فلما استقرت الكلمات في عقله، قال بسخرية:

- يا وليدي.. خالك يقول السفر يعلّم. أراك ما تعلّمت شيء!

سقطت الكلمات على رأس شعلان كما تسقط الصخور الثقيلة الحادة، أو كما يسقط الزيت الغالي. وإذا كان قد تعود، منذ وقت طويل، أن يكون فظاً قاسياً مع الآخرين، وفي حالات معينة أقرب إلى الحماقة، فإنه تجاه أبيه شديد الضعف. شعر في تلك اللحظة أنه عاجز عن الإجابة، وشعر أنه لا يحتمل الكلمات الساخرة التي قالها أبوه، وإذا كان الصمت قد امتد ثقيلاً فوق رؤوس الرجال فقد أحس شعلان بالاختناق وأنه لا يقوى على البقاء فخرج.

كان متعب الهذال في حالة من الغضب والانفعال إلى درجة قد يفعل شيئاً غير عادي، أحس هديب بذلك أكثر من الآخرين، قال في محاولة لأن يغير الجو:

ـ يا أبو ثويني، أردنا أو لا العفاريت ستصل ديرتنا، والقضية ما منها حيلة.

رد متعب بعصبية:

ـ العفاريت وصلت يا هديب. وصلت.. وصلت.

ـ وما قولك يا أبو ثويني؟

ـ قولي نشوف الأمير، نشوف الجماعة.. هناك، وبعدها الله كريم.

قال هديب بخبث:

ـ ظني ما منها فائدة.. يا بو ثويني.

ـ وين الفايدة يا مبارك؟

ـ الفايدة باللي يقسمه الله.

استراح قليلاً وأردف بصوت مخنوق:

ـ يا أبو ثويني، يا ولد العم، الناس غيري وغيرك. الناس مع الأمير وابن الراشد، الواحد منهم خايف أو طمعان، وانت أكثر مني تعرف: تسعين أبرة ما يجن مخرز، وهذه الحكومة يا متعب ما ترحم.

ـ ما لنا وهذه البلية؟ ما لنا والحكومة؟

أجاب هديب بحزن:

ـ هذا رأي الحكومة يا ولد العم.

ـ اسمع يا هديب، الحكومة ما هي حكومة ابن الراشد وأمثاله، الحكومة تعرف أكثر الناس أن وادي العيون لأهله، وتعرف كم صار من البلايا على الماء، وإذا كانت ذيك المشاكل انتهت والناس عاشت فابن الراشد اليوم حوّاس ويلعب.

ـ ابن الراشد ما هو بشي يا ولد العم، ابن الراشد ذويل ويقول ما يسمع.

ـ لكنه هذه الأيام هو والأمير شي واحد، وانت تعرف إنه إذا تصادق الرعيان ضاعت الغنم.

ـ يا أبو ثويني، ابن الراشد ما هو بشي، الجماعة هناك هم أساس المشكلة.

ـ ابن الراشد أساس البلية، كل يوم والثاني عند الأمير: وادي العيون يبغي ماء، البدوان أخذوا الماء. وادي العيون مات من العطش ولازم تحفرون لنا بيار جديدة. وادي العيون ما يمر فيه أحد.. وادي العيون.. وادي العيون. لو فكّ شره ابن الراشد عن وادي العيون ترانا بخير وسلامة.

ـ يا ولد العم، حتى الأمير ما له يد، وسوالف ابن الراشد سوالف ليل، المشكلة أكبر من الاثنين.

ـ ما قولك لو بعثنا طارش للجماعة هناك؟

ـ أم البيض مصيودة يا أبو ثويني، والجماعة هناك موكدين وادي العيون وما هم تاركيه ولو بعثنا طارش والف طارش، اللي بروسهم لا بد نراه ولا بد يصير.

بعد ذلك تشعّب الحديث. لم يبق أحد من الرجال إلا وتحدث، وشعلان الذي عاد بدا خجولاً مطعوناً، لكن ما كاد يمر بعض الوقت حتى قال أشياء كثيرة لكي يوضح موقفه ويفسر الكلمات التي قالها من قبل. لم يتحدث إلى أبيه مباشرة، لكن صوته، طريقته في الحديث، وبعض الأحيان النظرات الحذرة الخفية نحوه، كانت بهدف أن يسمع أبوه، أن لا يخطئ في فهمه. ومتعب الهذال الذي لم يترك شتيمة إلا وقالها، ولم يترك فرصة من أجل توضيح الشرور التي ستواجه وادي العيون والديرة كلها، كان يشعر بحزن شديد، وتمنى لو أن شعلان لم يأت أو لم يقل الكلمات التي قالها.

قال أحد المسنين ينهي الحديث، ويخفض من حدة متعب الهذال:

ـ طولوا بالكم يا جماعة الخير.

فلما تطلعت إليه العيون تابع:

ـ ديرتنا وحنا نعرفها: تبلع ألف عفريت.

وضحك الرجل المسن بصوت خشن أقرب إلى الحشرجة ثم أضاف:

ـ وحرام عليكم أن تتعاركوا وتختلفوا قبل ما تصل العفاريت، وإذا تعاركتم واختلفتم العفاريت تخرب بيتكم. وتنام على صدوركم.

قال متعب الهذال وكأنه يحدث نفسه:

ـ لازم نعرف كيف نمنعهم من الوصول، وإذا وصلوا ندفنهم أو نهججهم ونلعن والديهم.

بعد سبعة عشر يوماً رحل الأميركيون ومعهم الدليلان، لكن رحيلهم هذه المرة كان إلى الداخل وليس من حيث أتوا. ومتعب الهذال الذي لم يقتنع بهذا الرحيل، وإنما اعتبره دليلاً أكبر على الشؤم، قال في مضافة ابن الراشد في ذات الليلة التي رحلوا فيها، وأمام عدد من رجال وادي العيون:

ـ الجماعة عندهم سالفة، والماء حجة...

ضحك بسخرية وتابع:

ـ يدورون عن جن، عن عفاريت ما يندرى، لكن ابشروا يا أهل الوادي، إذا طلع الشيء اللي يدورون عليه ما ظل منكم أحد حياً.

لم يكن هذا الحديث، والذي جاء على هذه الصورة من الحدة والغرابة، مفاجئاً للرجال، لأن المفاجأة التي وقعت في الأيام الأولى زالت وحلّت مكانها أسئلة غامضة، حتى أصبح الحديث الوحيد الذي يجري بين أي اثنين، في أي مكان وفي كل وقت، عن هؤلاء، ولم يعد أحد بحاجة إلى مقدمات من أي نوع لكي يتحدث عنهم؛ وفي وقت لاحق أصبح الحديث موصولاً، بحيث يستطيع الإنسان أن يبدأ كلاماً مع جماعة ويواصله مع آخرين، لأن كل شيء يقع يُعرف وينتشر بسرعة، وأن التصرفات التي بدرت من هؤلاء خلقت شكوكاً لا نهاية لها. فليرات الذهب الإنكليزية والرشادية التي كانت توزع بسخاء، لقاء أبسط الخدمات، ثم الأثمان المرتفعة التي أعطيت مقابل الصناديق الخشبية والأكياس التي استعملت لخزن كميات من الرمال والحجارة، وأخيراً ما دفع لابن الراشد مقابل الناقتين اللتين اشتراهما هؤلاء، وهذه التصرفات وغيرها جعلت أهل

وادي العيون في حيرة كبيرة وحتى الذين أبدوا تسامحاً، وقالوا ننتظر قبل أن نحكم، ساورهم الشك في أن يكون أولئك الأميركيون قد جاءوا من أجل الماء.

ووادي العيون الذي تعود على مرور القوافل، ورأى بشراً من أنماط كثيرة، كان الأميركيون الثلاثة بالنسبة له بشراً من نوع غير مألوف، نوع مختلف تماماً، بطريقة حياتهم وتصرفاتهم والأسئلة التي يسألونها. ثم ذلك السخاء الذي لا يظهر أبداً من المسافرين الآخرين.

وابن الراشد الذي بدا مستعداً، أول الأمر، لأن يدافع عن هؤلاء، ويؤكد بطرق شتى أن الأمير أرسلهم، وأنهم أصدقاء جاءوا للمساعدة، لم يعد متحمساً للدفاع. أكثر من ذلك أكّد للذين سألوه عن هؤلاء الأجانب، كيف ينامون وكيف يتصرفون حين يكونون وحيدين، أكّد أن لهم تصرفات عجيبة للغاية، وأن لهم رائحة خاصة. وما الإسراف باستعمال العطور وإشعال البخور إلا لكي تغيب هذه الرائحة. كما أكّد أنهم لا ينامون في ليلة من الليالي قبل أن يكتبوا أشياء كثيرة وربما كانوا يسحرون. وفي حالات عديدة كانوا يتوقفون عن الكتابة، يتبادلون بعض الكلمات ثم يعاودون مرة أخرى، خاصة ذلك الذي لا يتكلم العربية، إذ كان أكثرهم اهتماماً، كان يشرف على خزن الرمال التي يأتون بها، ويكتب على الصناديق، ويضع علامات بألوان وأشكال غريبة للغاية. أما في الصباح فإنهم يصلّون بطريقة عجيبة. إذ يبدأون برفع أيديهم وأرجلهم في الهواء، ويحركون أجسامهم كلها ذات اليمين وذات اليسار، لا يتوقفون إلا بعد أن يزخّهم العرق ويبدأون باللهاث.

قال أحد الرجال مخاطباً ابن الراشد:

ـ دوّر تحت الفراش، تحت الرمل، يا أبو محمد، يمكن تركوا وراءهم بلايا مسحورة.

ومتعب الهذال الذي كان يسمع وتتوالى هزات رأسه علّق بلهجة ساخرة:

ـ ابن الراشد لازم ينقل المضافة من المكان كله، لأن الجن سكنها من يوم وصلها الكفار ودخلوها.

ولما وجد نوعاً من الاهتمام والموافقة لما قاله تغيرت نبرة صوته:

ـ حتى لو ما بها جن رائحتهم تقتل الطير.

قال أحد الرجال وهو ينهض:

ـ يا جماعة الخير. . الفلاة، تحت السماء، أخير من هذا المكان.

بدا ابن الراشد محرجاً، إذ لا يستطيع أن يدافع عنهم كما فعل في البداية، كما لا يستطيع أن يتنكر لقيم الضيافة، قال لينهي الموضوع:

ـ القول قولكم: الفلاة أطيب، والله يلعنهم ويلعن ساعتهم، والحمد لله خلصنا منهم.

قال متعب الهذال الذي كان يسير إلى جانب ابن الراشد:

ـ ولّف نفسك من جديد يا ابن الراشد، تراهم راجعين نوبة ثانية.

رد ابن الراشد بعصبية:

ـ ذكر الشيطان ولا ذكرهم يا رجل.

لم تمض عشرة أيام وعاد الرجل الذي يتظاهر أنه لا يعرف العربية، ومعه معظم الأحمال التي حملوها؛ قضى ليلة واحدة في وادي العيون مع دليله، وفي فجر اليوم التالي واصل سفره، أما الاثنان الآخران فلم يعرف عنهما شيء لفترة طويلة.

ويوماً بعد آخر بدأت الحياة الطبيعية تعود إلى وادي العيون وأخذت صور الأميركان تبتعد وتُنسى، إلا في ذاكرة متعب الهذال، الذي أخذ يراقب كل شيء بنفسه. وإذا كان تعوّد ألا يسأل أحداً عن الكثير من الأمور، فقد أصبح حريصاً أشد الحرص على أن يستقبل أية قافلة تأتي، ومن أية جهة تأتي، فإن جاءت من ناحية البحر والشام كان يسأل بشكل مبهم إن رأى المسافرون أحداً أو شيئاً غير مألوف. أما إذا جاءت القوافل من الداخل فكان يسأل عن رجلين من الجن دخلا الصحراء قبل فترة ثم

انقطعت أخبارهما، وكان يود في أعماقه لو يأتي من يخبره أنهما ماتا عطشاً أو أكلتهما الذئاب. كان يريد أن يعرف أي شيء عن هذين الغولين، فإذا جاءت الأخبار من هذه الناحية أو تلك غامضة مشوشة، فلا يكتفي بواحد يسأله، إذ كان يتعمد سؤال الكثيرين، ويتعمد السؤال عن أشياء كثيرة، حتى إذا سمع كل ما قيل يطيل التأمل والتفكير. أما وضحة التي كانت تشغلها أمور أخرى في هذه الدنيا فما لبثت إن دخلت في الجحيم الذي أراده متعب الهذال، فإذا ضاقت بأسئلته، بالعصبية المفاجئة التي اتسمت بها حركاته وتصرفاته، تقول له بيأس يصل درجة التوسل:

ـ اترك هذه السوالف يا رجل. . الحكومة تعرف أكثر من الجميع.

فيرد عليها بسخرية:

ـ أي والله الحكومة تعرف أكثر من. . .

ولا يكمل عبارته لأنه لا زال متردداً. ربما كانت الحكومة لا تعرف ماذا يفعل هؤلاء الشياطين.



مرّ الصيف كله وجاء بعده الخريف. وغابت نهائياً صورة أولئك الأجانب الذين مروا في الوادي قبل شهور طويلة، ولم يعد أحد يسأل عنهم أو يتذكرهم. ومتعب الهذال الذي ظل خائفاً مترقباً، وجد ان استمرار الحديث عنهم أو السؤال يضاعف همومه ومخاوفه، خاصة وأن الآخرين بدأوا يضيقون من أسئلته وهواجسه، ويعتبرون مجرد ذكرهم شؤماً يجب أن يبتعدوا عنه. ولذلك طوى متعب الهذال هذا الموضوع أو كاد، لكنه مع ذلك لم يستطع أن ينجو من الأحلام والهواجس التي تطارده في الليل. أصبح ليله ثقيلاً صعباً، فأخذ يهرب من النوم، أو يكتفي بنوم ساعات قليلة، وغالباً ما تكون خلال النهار وبشكل متقطع أيضاً. وإذا كانت وضحة وآخرون قد لاحظوا ذلك فقد خافوا عليه، وتوقعوا أن تنهار صحته، فأخذت أحاديثهم معه تنحو منحى معيّناً لعله ينسى، وأخذت تصرفاتهم تتسم بمقدار كبير من العناية والشفقة، لكن هذا اللون من الأحاديث، وهذه

الطريقة في التصرف، بدل أن تخفف عنه وتشغله أو تنسيه بدأت تثيره وتجعله أكثر حدة وتطرفاً.

ولما وصل خبر الحالة التي ألمّت بمتعب الهذال إلى ابن الراشد قال لاثنين أو ثلاثة حوله، وقد بدا صوته حزيناً:

ـ العتوم دائماً بهذا الشكل، إذا كبر الواحد منهم ينهبل أو يذبح.

وخفض صوته كثيراً، حتى أصبح همساً:

ـ لازم يسرح بالغنم أو يلعّب الأولاد.. متعب الهذال.

أشفق الكثيرون على الرجل وأخذوا يراقبون حركاته وتصرفاته، أما هديب فكان أكثر الناس خوفاً وقلقاً. كان يتصور أن متعب الهذال إذا تُرك أو لم يشغل نفسه بعمل من الأعمال، فإن كلام ابن الراشد عنه سوف يتحقق. قال له في غروب يوم من أيام الخريف، وقد هبت نسمة عذبة بعد نهار قائظ:

ـ أظنها تكون سنة خير هذه السنة.. يا أبو ثويني...

التفت إليه متعب، وقد فوجئ، فلما وجده يعبّ الهواء بقوة، أدار رأسه في الأفق وكأنه يستطلع الجو، ثم تابع:

ـ وإذا جاء الوسمي وكانت الأمطار كثيرة تتغير حياة الناس ويتغير الوادي

ـ الله يسمع منك.. يا ابن أخي.

ـ واشوف بيتك تضعضع يا أبو ثويني، وخاف يشيله المطر والريح.

وبكثير من البراعة والهمة والتعاون، وبعد أن تجند عدد من الشبان، أصدقاء شعلان وأقرباؤه، بدأت على الظهرة عمليات بناء دائبة، رافقها الكثير من المزاح والتحديات، وقد اشترك فيها متعب الهذال نفسه بحماسة كبيرة وبهمة لا تعرف التعب: رممت الأسوار الطينية، أضيفت إلى الحظيرة أجزاء جديدة، أما الأسطحة فقد دُحلت عدة مرات وأصلحت الجوانب، كما جددت بعض الأعمدة الخشبية، ونظفت مساقط المياه. وفي غمرة العمل بدا لمتعب الهذال أنه بالإمكان إقامة غرفة جديدة، خاصة وأن

وضحة أشارت في الليلة قبل الفائتة إلى أن شعلان أصبح في سن ووضع يجب معهما التفكير باختيار امرأة له. ولذلك لم يتردد في أن يشرع فوراً بالبناء، ورافق العمل بعض الإشارات الخفية التي تدل على أن أموراً جديدة وهامة يمكن أن تحصل في بيت متعب الهذال خلال فترة من الزمن، وهذه الإشارات لم تكن تحتاج إلى فراسة كبيرة لكي تستنتج، خاصة وأن الشبان أثناء جبل الطين أو نقل الحجارة كانوا يتصرفون ويبتسمون بطريقة توحي أنهم يعرفون كل شيء، وكان متعب الهذال يقابل كل ذلك برضى واعتزاز!

ومثلما تغيرت حالته كثيراً في الفترة السابقة، فقد تغيرت من جديد: أصبح يأكل بشهية وينام نوماً عميقاً متصلاً. كما استعاد قوته وثقته، وإن كانت الأحلام لم تتوقف عن ملاحقته وإتعابه، لكنه في غمرة التعب والانشغال الكامل كان ينسى كل شيء.

قبل أن ينتهي البناء والترميم بيومين أو ثلاثة، ومثل عادتها كل صباح وكل مساء جاءت وضحة تحمل إبريق الشاي، لكي «يشرب النشامة الذين تعبوا وعطشوا»، قال لها هديب وهو يتناول الإبريق والكؤوس:

ـ أبو ثويني رجع أكثر شباباً مما كان.

ـ أولاد الحرام اللي جاءوا طوّشوا رأسه.. وإلا كان أقوى من الشباب.

ـ راحوا وعسى أنهم ما يردّون.

ـ لا كانوا ولا كان يومهم.

وفي اليوم الأخير، ذبح متعب الهذال خروفاً عند عتبة الغرفة الجديدة، وتعالت صيحات الشباب وصخبهم وهم ينقّلون نظراتهم بين شعلان وأبيه، ويتطلع بعضهم إلى بعض، قال أحد الشباب:

ـ ولّفنا المعلف، ما بقي إلا الفرس.

رد متعب الهذال وهو يضحك بصوتٍ عالٍ.

ـ وكلوا الله. ما يحول الحول إلا ويعرّس.

سأل هديب بمكر:

ـ شعلان أو أبوه؟

ـ شعلان وأبو شعلان يا ابن الحلال!

هكذا رد متعب الهذال، وقد طغت على الجميع موجة من الفرح والرضا، وكانت ليلة كبيرة من ليالي وادي العيون.

وإذا كان البيت قد رمم تحسباً من الأمطار التي قد تأتي، فلم يكن متعب الهذال بحاجة إلى من يقنعه بضرورة تحضير أرض البستان في الوادي وتهيئة بعض البذور. انطلق بنشاط، قلب الأرض مرتين، فتح فيها أثلاماً، رفع النباتات الطفيلية والأشواك، ثم وضع كميات من الزبل وخلطها خلطاً جيداً مع التربة. نظف القناة الشمالية، التي طمرتها الأتربة والرمال، استعداداً للأمطار وتوقعاً أنها ستكون أكثر من سنوات غيرها. قال في نفسه وهو يحفر برغبة وهمة: «هذه الأرض مثل الكنز لا يُعرف ما بداخلها حتى تأتي الأمطار.. فإذا جاءت الأمطار مبكرة وكثيرة جاء معها العجب» وتذكر سنوات معينة، سنوات الخير، فابتسم ورفع رأسه إلى السماء وتنشق الهواء بقوة.

وفي هذه الفترة شعر متعب الهذال أنه أكثر قوة، ولام نفسه أنه انشغل بقصة أولاد الحرام الذين مروا بالوادي قبل شهور. قال في نفسه: «سالفة وانقضت، وهذا الوادي ياما شاف وياما سمع.. واللي مروا بالوادي أكثر من التراب، لكن ما بقى منهم أثر وعسى اولاد الحرام اللي مروا يغيب أثرهم ويغيب ذكرهم». وأحس أكثر من أية فترة سابقة بروابط تشده إلى الأرض والنخيل وأشجار التين وإلى الناس في الوادي أيضاً. قال لمقبل ابنه الصغير الذي كان يدور حوله، وينظر بإعجاب إلى كل حركة من حركاته:

ـ ذيك النخلة، الرابعة على اليسار، بعمرك يا وليدي؛ وكل ما تكبر أنت يوماً تكبر معك، وباكر انت تزرع نخلة لابنك، وابنك يزرع نخلة لابنه، وسنة بعد سنة ويظل وادي العيون أخضر، ويظل الناس يمرون بالوادي ويشربون من ماء الوادي، ويترحمون على الأموات، ويقولون، وهم بظل الشجر، الله يرحم كل من زرع نخلة وعرقاً أخضر.

وظل مقبل، مثل كلب صغير، يدور حول أبيه، يداعبه، يقفز على ظهره إذا انحنى، فإذا انقضى النهار وأقبلت الظلمة التصق به، أمسك ثوبه بقوة لا يريد أن يتركه أو أن يبتعد عنه، فإذا وصلا إلى العين، وكان الأولاد قد انتهوا من السقاية، وساروا بالدواب إلى الظهرة، كان متعب الهذال يتمهل قليلاً، يغسل وجهه ويديه من ماء العين، يترنم فتصدر عنه أصوات فرحة تعبيراً عن الارتياح والشكر، ثم يواصل طريقه مصعّداً بالتل، لكنه لا يتوقف عن الحديث إلى ابنه، وهو يدرك أن الصغير لا يفهم أكثر الأشياء التي يقولها، ومع ذلك يستمر.

قالت وضحة مخاطبة هديب، وكانا يلمحان طيف متعب يقترب:

ـ سبحان الرب المعبود، ترى الرجل راح ورّد.

رد هديب بصوت خفيض، لا يكاد يسمع:

ـ العمل يحيي الرجال، يا أم ثويني.

وبدا أن كل شيء في الوادي عاد إلى حالته الطبيعية، لكن المخاوف، ثم تلك الأحلام التي ملأت ليالي متعب الهذال، لم تنته!

كانت من الأمور المألوفة أنه إذا جاءت قافلة أو سافرت قافلة. . أو حتى الرسائل التي قد تأتي من المسافرين، أن تدفع سؤالاً إلى الأذهان أو الشفاه: «ما هي أخبار الخوش وما هي علومه؟» إن هذا السؤال، لفرط ما تكرر ووجه إلى الكثيرين، أصبح له معنى خاص ووقع مختلف عن عشرات الأسئلة المماثلة التي تطرح للسؤال عن المسافرين. فالخوش أصبح معروفاً حتى للذين لا يعرفونه. صحيح أن له ملامح تختلف من واحد لآخر، ولاسمه وقعاً متفاوتاً أشد التفاوت، لكن لا أحد يعيش في وادي العيون أو يمر فيه إلا ويجب أن تكون له صلة بهذا الإنسان بشكل أو بآخر.

لماذا أصبحت للخوش هذه الصورة؟ وهل هو إنسان حقيقي من لحم ودم أو مجرد شخصية من نسج الخيال؟ وإذا كان رجلاً حقيقياً فلماذا تحيط به هذه الهالة من الغموض ويثير هذا المقدار من الأسئلة؟ هل لأنه مسافر؟ ألأنه لم يعد ولم تسمع أخباره؟ ولكن المسافرين من وادي العيون أكثر عدداً من المقيمين فيه، حتى لا يخلو بيت أو مضرب في الوادي والظهرة والمنطقة القريبة من مسافر أو أكثر. بعض هؤلاء امتد بهم الزمن وطالت غيبتهم، انقطعت أخبار بعضهم فترات طويلة لكنهم عادوا في النهاية، أو على الأقل بدأت تأتي أخبارهم ثم رسائلهم ومعها تلك الأقمشة الملونة التي لا ينسى أحد من المسافرين أن يرسلها.

هناك إذن شيء يميز الخوش ويجعل له وضعاً مختلفاً عن الآخرين. يمكن لكل واحد من أهل الوادي أن يقول شيئاً، وقد يكون ما يقوله مختلفاً عن قول الآخرين، لكن يبقى صحيحاً مع ذلك. فالذين يقولون إنه شجاع

وإن شجاعته مضرب المثل صادقون. . والذين يقولون أنه كان أقدر الناس على العدو، ويستطيع أن يأتي بالجمل الهائج حتى لو كان على مسيرة نصف يوم، وإن كثيرين رأوه متعلقاً بذيل جمل، والجمل يمرجحه كما لو أنه مجرد ثوب أو كأنه بلا وزن، إن هؤلاء صادقون أيضاً. . أما إذا وصل الحديث إلى مدى تحمل البشر، خاصة للجوع والعطش، وذكرت بعض القصص عن رجال تحملوا، فإن أكثر القصص إثارة تلك المتعلقة بالخوش. هذه أمور لفرط ما تكررت واستعيدت أصبحت مألوفة إلى درجة كبيرة، ومع الأيام فقدت إثارتها وبريقها، إلا في لحظات التحدي أو أمام الغرباء. لكن ما ظل مثيراً في أمر الخوش طريقة اختفائه.

فبعد أن سافر في قافلة السالمي، واستمر معها حتى الجوف، لم يره أحد بعد ذلك. اختفى دون إنذار وبلا مبررات واضحة، ولولا أن المسافرين الذين كانوا في القافلة أكدوا أنه استمر معهم، ثم تركهم في الجوف، بعد مسيرة سبعة أيام من العيون، لولا هذه التأكيدات القوية الجازمة لقال الناس أن الأرض ابتلعته، أو أن حيواناً افترسه. طبيعي لم يسلّم أحد باختفائه، لكن الرجال الذين نقلوا تلك الأخبار كانوا من الثقات المعروفين، ثم التواتر الذي حصل بعد ذلك من قبل آخرين. أما القوافل التي جاءت من الجوف فقد ذكرت أشياء متناقضة مضطربة، وهذه بدورها عززت الشكوك وزادتها، ورغم أن عدداً من المسافرين ألحّ في السؤال عنه، وتبرع آخرون باستقصاء أخباره، فإن أياً منهم لم يصل إلى جواب قطعي، أو إلى مجرد جواب يمكن الاطمئنان إليه، ولذلك انقطعت أخباره دفعة واحدة.

ما كان اختفاء الخوش أو انقطاع أخباره ليثير هذا المقدار من الاهتمام والتساؤل، ثم الشفقة، لولا تلك الأم، أمه. كان ابنها الوحيد، ومنذ أن مات أبوه ـ وقد حصل هذا قبل سنوات طويلة ـ اكتسبت الأم من صفات الرجال ومظهرهم الشيء الكثير، إذ إضافة إلى العناية ببضع نخلات، وهي ما تبقى لها من مال الدنيا بعد رحيل زوجها، فقد ربّت ثلاثة أو أربعة رؤوس من الماعز وبضع دجاجات، وكانت تبيع للمسافرين الحليب

والبيض، وتقدم بعض الخدمات التي يحتاجها هؤلاء، كأن تصنع حبالاً أو ترفو الثياب الممزقة أو تجمع بقايا الأشياء التي يتركها المسافرون، وتظل تعالجها بصبر ودأب حتى تصنع منها شيئاً نافعاً. بهذه الطريقة الصعبة المكابرة ربت الخوش، والخوش الذي لم يحس بفقد أبيه أول الأمر، لصغر سنه، لم يحس بالغضاضة بعد ذلك، لأن كثيراً من الأطفال حوله كانوا بلا آباء، إما لأن هؤلاء مسافرون أو لأنهم ماتوا.

ظلت الأمور تسير بشكل طبيعي، رغم المصاعب، حتى كبر الخوش وأصبح أقرب إلى الرجال، والأم التي صبرت واحتملت وجدت في الرجل الجديد، الشجاع القوي، والذي ينظر إليه أهل الوادي بإكبار، سلوتها، حتى قال الكثيرون، بمن فيهم متعب الهذال، أن الأم بعد أن كبر الخوش أصبحت أكثر فتوة وشباباً. لكن أم الخوش التي تسمع مثل هذا الكلام، دون أن يعني لها شيئاً، تتصرف بطريقة لا تترك لأحد أن يتجاوز حدوداً معينة، والناس الذين تعودوا عليها بهذا الشكل وأحبوها، ثم ما اكتسبته من صفات نتيجة العمر والتجربة جعلتها محبوبة أكثر من قبل وموضع احترام وتقدير.

كل هذا جزء من تاريخ الوادي الأقرب إلى النسيان، لأن ما تلا ذلك كان هو الذي يحفر في وجدان الناس وذاكرتهم، تماماً كما تفعل المياه في المنحدرات، خاصة إذا جاءت سخية مفاجئة. إذ ما كاد الخوش يختفي بتلك الطريقة الغامضة حتى انتهى الفرح وجاءت أحزان لا نهاية لها. فالمرأة التي بدأت تسأل المسافرين ولا تجد جواباً، ما لبثت أن أخذت تنتظر في فم الوادي أكثر ساعات النهار، لعل قافلة تأتي وتحمل إليها خبراً عن الخوش، وإذا كانت قد تعودت أن تظهر الحزم والصرامة، وهي تسأل، وكأن الأمر عادي جداً، تحولت يوماً بعد يوم إلى امرأة من نوع آخر: أصبحت تلحف في السؤال ولا تترك أحداً في القافلة إلا وتسأله، والذين لا يعرفون الخوش ولم يسمعوا باسمه، تتحدث لهم عنه. كان يلذ لها أن تتحدث الساعات الطويلة.

وأهل الوادي الذين عرفوا الخوش وأمه حزنوا أشد الحزن أن تنقطع

أخباره بهذا الشكل، وكانوا، في البداية، مثل أمه حماسة للسؤال عنه، وتكليف المسافرين أن يسألوا. كتبوا الرسائل إلى الأقرباء والمعارف ليوافوهم بأية أخبار عنه، لكن الأيام تنقضي ولا يأتي خبر، والناس الذين يكادون ينسون الخوش في غمرة العذاب اليومي من أجل البحث عن الرزق، يطالعهم كل يوم وجه العجوز، فلا يستطيعون نسيانه يوماً واحداً. كان أكثر وجوداً من الناس الأحياء الموجودين، وكان وجوده يزداد كثافه ما دام الحزن يغرق العجوز أول الأمر ثم يغيرها فتصبح امرأة لا يدري الإنسان كيف ينظر إليها أو كيف يتعامل معها. فالحديث الذي لا ينتهي عن الخوش، بمقدار ما يثير من الابتسامات، لما يتخلله من حوار وأسئلة، يثير الحزن، لأن العجوز في غمرة الأسئلة والحديث لا تلبث أن تنتحب، وقد تتكلم بطريقة شديدة الانفعال، وتختار كلمات بعينها، وبعض الأحيان تردد أبياتاً من الشعر، وقد تغنيها.

كانت تفعل ذلك دون شعور بالخوف أو الحرج، وبحماسة كبيرة وصوت عالٍ، كأنها تخاطب عدداً كبيراً من الناس. وفي أحيان أخرى تخاطب الدجاج والماعز وتتحدث إليها ساعات متواصلة، وكأنها تروي قصة بلا نهاية.

من يسمع أم الخوش تتحدث لأول مرة يظنها امرأة شديدة الاتزان، حين تبدأ برواية قصة سفر ابنها، ترويها وكأنها تعني امرأة أخرى، أما التفاصيل الصغيرة الغارقة في ظلام الوادي البعيد المنسي، والتي تطفو بشكل مفاجئ، فكأنها حدثت في الليلة الفائتة. تستمر كذلك فترة من الزمن، ثم فجأة تتغير لهجتها ونبرة صوتها، تتلفت حولها بفزع، تتلمس الأرض كأنها تخاف أن تنفتح فتصرخ بانفعال:

ـ اسمعوا يا أهل الوادي: المنام ما يكذب. جاءني ثلاثة ملائكة، كانوا في ثياب بيضاء وقالوا لي: الخوش يكون هنا يوم الخميس. الملاك الكبير له وجه مثل وجه الخوش ويضحك مثله، وكان الصغير بقوة الخوش، والثالث ما شفته لأنه كان يعطيني ظهره.

وحين يطلب منها أن تكف عن هذا وأن تصبر وتنتظر ترد باستهزاء:

ـ يا أهل وادي العيون أنتم ظلاّم وما عندكم رحم، أنتم تتركون أولادكم مثل ما تتركون الدواب، وبعد مدة الدابة اللي تنذبح تجرونها وتذبحونها، والدابة اللي ما تنذبح ترمونها بالحجارة إلى أن تبتعد عن الوادي وتموت، وأنا ما أريد اصير مثل أهل الوادي.

وتظل العجوز تردد وتنغّم: «الخميس.. يوم الخميس.. هذا الخميس»، والناس ينظرون إلى بعضهم وينظرون إليها، وتختلط ابتسامات الشفقة بالتساؤل، ويقولون في أنفسهم: «الدنيا عذبت العجوز، أكبر العذاب انتظار من لن يأتي»، لكن أحداً لا يستطيع أن يقول كلمة من هذا النوع للعجوز، لأنها قد تقتلها، ولذلك كانوا يتركونها تنتظر... وكانوا ينتظرون معها لعل شيئاً ما يقع.

الرسائل والدراهم وتلك الأقمشة الملونة التي يبعث بها المسافرون كانت مثل حبال خفية تربط المقيمين بالغائبين، وتجعل المسافرين موجودين بأصواتهم وملامح وجوههم، وتجعل الحياة ممكنة لهؤلاء الذين لا يتعبون من الانتظار في وادي العيون. كانت أم الخوش تتمنى انتظاراً من هذا النوع. إن ما تريده رسالة تأتيها، قطعة من القماش الملون، وليبق الخوش بعد ذلك حيث يريد. أما أن تظل هكذا، لا تعرف شيئاً، ولا يقول لها أحد كلمة واحدة، فإن ذلك أقسى عليها من الموت، ومع ذلك فإنها شديدة الثقة والتأكد أنه سيأتي، وهي إذ تبالغ في إكرام القادمين الجدد، وفي الحوام حول القافلة منذ لحظة الوصول وحتى لحظة المغادرة، فلأنها تتوقع أن تسمع كلمة تؤكد لها أن الخوش لا يزال حياً، وإنه في مكان ما يتاجر، يبيع ويشتري، وصار عنده عدد لا حصر له من الإبل والغنم.

كانت أم الخوش تفعل ذلك حين تأتي القوافل، أما إذا رحلت القوافل فكانت تدور في الوادي منذ الفجر وحتى الغروب أو بعده قليلاً، وفي ذلك الطواف الذي لا ينتهي تخاطب الكبار والصغار، تتحدث مع الأشجار والحيوانات، وتسأل كل من يصادفها إن رأى الخوش أو سمع شيئاً من أخباره. وإذا كانت العادة، في أغلب الأماكن، أن يصبح هذا النوع من الناس مجالاً للسخرية والتندر، وبعض الأحيان هدفاً لاعتداء الصبية

وتسليتهم، فإن وادي العيون لم يفعل ذلك؛ لأن أحداً لم يقل عن هذه المرأة شيئاً رديئاً، وإنما كانت موضع عطف واهتمام الجميع. كانت تدخل البيوت والخيام في الوادي والظهرة وكأنها تدخل بيتها، وفي تلك البيوت تستقبل استقبالاً كريماً، ويستمع إليها الرجال والنسوة ويتكلمون معها كلاماً عاقلاً موزوناً.

كان ذلك يجري دون اتفاق أو تدبير سابق وإنما نتيجة لتلك العلاقات التي تطبع الحياة في الوادي، وتجعل الناس وكأنهم أسرة واحدة. صحيح أن قرابات من نوع أو آخر تجمع الناس هنا، لكن العلاقات التي تتحكم أقوى من تلك القرابات. فإذا سافر الأزواج والأخوة كان أصدقاؤهم يهتمون بالنخيل وبزراعة بعض المحاصيل نيابة عنهم. إنها عادة من عادات الوادي، وهذا ما حصل بالنسبة للبستان الصغير الذي كان لأم الخوش، إذ بعد أن انشغلت بهذه القضية لم تعد قادرة على العناية بالنخيل، أو بزرع القليل من الخضرة، فتولى عنها ذلك عدد من الرجال. كانوا يقومون به دون أن يكلفهم أحد، وبصمت، كأنهم يفعلون ذلك لأنفسهم، حتى إذا جاءت بعض النقود ثمناً للثمر الذي يباع للمسافرين أعطوها ما تستحق، فتنظر إلى النقود التي توضع في يدها بفرح وتسأل بلهفة الأطفال:

ـ ها الخوش هو اللي أرسل القريشات؟

وحين يصمت الذي أعطاها، خوف أن تجرحها أو تبكيها كلمات النفي، كانت تعابير وجهها تمتلئ بالحزن ويخيم عليها الصمت، لكن تصرخ فجأة:

ـ هذه الفلوس، فوق اللي عندي، تكفي لزواج الخوش!

وتستسلم فترة قصيرة لهذه النشوة، تضحك، تزغرد، تسافر، تحلم، ثم فجأة تجهش بالبكاء. كان بكاؤها حاداً مكتوماً في البداية، ثم ما يلبث أن يصبح أقرب إلى الاستغاثة، حتى أن الأنسان لا يطيق أن يسمعه، فيترك الرجال المكان، أما النسوة والصبية فإنهم ينظرون إليها بدهش ثم بحزن، وكثيراً ما كانت النساء يشاركنها في نحيب مكتوم، حتى إذا هدأت ران صمت ثقيل موجع. ولما كان البدو، ووادي العيون بشكل خاص، لا

يعرفون البكاء ولا يحبونه، ويستغربون كيف يبكي الناس أو لماذا، فإنهم حين يرون ذلك يصبحون أقرب إلى الضعف والحيرة ويغرقون في التشاؤم.

إن ارتباطاً غامضاً حدث ما بين حالة مثل هذه ونوع من البلاء حلّ بوادي العيون بعد ذلك، حتى ليصعب على الإنسان أن يفسر الأمر. وإذا كان متعب الهذال قد حضر ذلك اللقاء بين أم الخوش وذاك الذي زرع البستان ورعى النخيل، ثم ما تلا ذلك من النشوة والضحك فالبكاء، فقد سمعه أكثر من شخص يقول:

ـ يا رب، يا صاحب الخيمة الزرقا، أنت العالي وتعرف ما بالقلوب، احرس الوادي وجنبه البلاء.

وتذكر هو، وتذكر آخرون، المرة السابقة، حين جاء أحد البدو من الداخل، من مكان بعيد، وقد لفت نظر متعب الهذال الحول في عينيه وافتراق أسنانه العليا. هذا البدوي الذي حمل لأم الخوش مبلغاً من المال، وهي بين سؤالها عن الخوش، وفرحتها أن أمراً جديداً يحصل، رفض الرجل أن يقول شيئاً قبل أن يحضر بعض الناس، فلما جاء عدد منهم، وكان متعب الهذال من بينهم، أوضح الرجل أن عبد الله المكتوم. والد الخوش، كان قد بضّعه في يوم من الأيام، وقد جرى هذا قبل عشرين عاماً أو أكثر، وإنه الآن جاء ليرد ما بذمته من مال، ويريد أن يكون الموجودون شهوداً.

هذه الحادثة، وما تخللها ثم ما تلاها من فرح وبكاء، لم تمض عليها إلا بضعة أسابيع حتى حلّ بالوادي مرض غريب قضى على عدد كبير من البشر والماشية، وقال بعض الناس أنه أصاب الأشجار أيضاً.

تذكر متعب الهذال هذا الحادث وما تلاه حين وصل الأجانب الثلاثة، وتأكد أن أمراً مشؤوماً لا بد أن يقع. لم يكن متأكداً من أفكاره وهواجسه، لكن شعوراً قوياً ملأه وسيطر عليه، وظل تحت وطأة هذا الشعور فترة من الزمن يردد:

ـ إذا كان بدوي واحد أسنانه فرقاء وعينه حولاء جاب كل البلاء. فهذه المرة، وبعد أن جاء أصحاب العيون الزرق والأسنان الفرق لا بد أن يفنى الوادي ويهلك البشر!

صحيح أن الكثيرين لم يشاركوا متعب الهذال أفكاره وقناعاته أول الأمر، ولم تملأهم الهواجس التي ملأت رأسه، لكن ما كان لأحد أيضاً القدرة على إقناعه بعكس ذلك، وهو نفسه إذا كان عاجزاً عن تفسير هذه الرؤى والهواجس، لا يستطيع أن يقتنع بغيرها. وأهل الوادي الذي استقبلوا الأجانب بنوع من الترقب والحذر، وكان حب الاستطلاع لديهم أقوى من الشك، فإن حالة متعب الهذال اختلفت عن ذلك كثيراً، وهذا يفسر جزءاً من الأفكار والسلوك الذي ملأ عقله ووجدانه في تلك المرحلة.

ما كاد متعب الهذال يتخذ تلك المواقف التي بدت غريبة لبعض الناس حتى سرت الهمسات ثم التساؤلات: «لم يكن الرجل بهذا الشكل، وهؤلاء الشياطين الذين جاؤوا لا بد أن يرحلوا غداً أو بعد غد، لكن «السودا» التي أصابت متعب الهذال لا أحد يعرف متى تخرج منه» ويصمتون قليلاً ثم يضيفون: «أصبح مثل أم الخوش لا يمكن التفاهم معه».

أم الخوش تذرع الوادي من أقصاه إلى أقصاه، وقد بدت، أكثر من أية مرة سابقة، مشعثة الشعر، شديدة الحزن والانفعال، وكانت تردد كلمات بدت غريبة لكل من سمعها: «قبل حلول الحول «القيامة تقوم والوادي يحترق».

يتذكر الرجال هذا حين وصل الأجانب الثلاثة، لأن أم الخوش التي رابطت عند مضافة ابن الراشد لا تتركها لحظة واحدة في اليوم الأول، تريد أن تسأل هؤلاء الأجانب عن الخوش، هل رأوه أو سمعوا عنه شيئاً، والأجانب في انشغال كامل عنها، يسألون عن مواسم الأمطار وأيام الحرارة، وأماكن المياه، وعن الرمال كيف تتحرك وفي أي الاتجاهات، والقوافل متى تأتي وكم تبقى ثم أين تذهب، وغير ذلك من الأسئلة التي تهمهم، وهي التي تنظر بعيون مدهوشة وتتابع كل حركة تصرخ بين فترة وأخرى:

ـ يا جماعة الخير.. من منكم سمع علوم الخوش؟

وحين لا تجد جواباً تصرخ بصوت أعلى:

ـ يا جماعة اللي سمع منكم علوم الخوش يعلمني.. وما يخاف.

ورجال الوادي الذين سمعوا هذا السؤال آلاف المرات، وليس لديهم جواب عنه، لا يعرفون كيف يداورون هذه المرأة وكيف يصرفونها. أما الأجانب الذين كان يخرجهم السؤال، بين فترة وأخرى، عما هم فيه، فلا يفهمون ما تقوله العجوز، ولا يعرفون إن كان الكلام موجهاً إليهم أم إلى غيرهم، خاصة وأن النظرة الأولى لوجه المرأة توحي بالحذر وما يشبه الخوف، حتى إذا صرخ في وجهها ابن الراشد:

ـ يا بلية كفي شرك ـ الجماعة ما يعرفون الخوش وما عندهم علومه.

قامت أم الخوش، اقتربت من ابن الراشد، نظرت إليه باستهزاء، ثم نظرت إلى الضيوف الثلاثة الذين تحركوا إلى الوراء حركة لا شعورية نتيجة الخوف وفيما يشبه الدفاع عن النفس. كانت نظرتها إليهم متفحصة متهمة، ولقد استمرت فترة غير قصيرة، والسكون يمتد ثقيلاً منذراً فوق الجميع، حتى إذا ضاق ابن الراشد ذرعاً وتوقع شراً صرخ بأحد رجاله:

ـ خذوا البلية من وجوهنا.

وبحركة عصبية أزاحت أم الخوش يديها إلى الخلف، كأنها تحاول أن تفلت من أيدٍ وهمية تصورت أنها ستطوقها، ونظرت بنصف وجهها إلى اليمين ثم إلى اليسار، وبهدوء تراجعت بظهرها إلى الخلف بخطوات صغيرة، لكن ظلت تصوب عينيها بحقد واستهزاء إلى ابن الراشد، وما كادت تبتعد خطوات أخرى حتى بصقت على الأرض وقالت:

ـ سيحترق هذا الوادي.. وأنت أصل البلاء.

ولكي يبقى ابن الراشد مسيطراً، وفي محاولة لأن يكتم انفعالاته، قال وهو يضحك بعصبية:

ـ خذوا الحريمة.. خذوها.

يتذكر الرجال الذين كانوا في المضيف هذا الذي وقع، ثم يتذكرون أم الخوش كيف بدأت تذرع الوادي، وتتكلم بتلك الطريقة الصاخبة، وحين تتعب من ذلك تختار مكاناً قريباً من مضافة ابن الراشد، لكن دون أن تقترب إلى الدرجة التي تعرّضها للإهانة أو الطرد، لعلها تظفر بسؤال هؤلاء الأجانب إن كانوا قد رأوا الخوش أو سمعوا عنه شيئاً. لكن ابن الراشد

الذي داخله الخوف أن تتصرف أم الخوش تصرفاً قد يسبب أذى لهؤلاء، ثم الحذر الذي بدا من الأجانب أنفسهم، وابتعادهم قدر ما يستطيعون عن هذه المرأة «الشريرة»، منعاها تماماً من طرح ذلك السؤال أو الظفر بجواب عنه!

بعد أن انشغل الوادي أياماً بالأجانب الثلاثة، وظلت الأسئلة والهواجس تدور مثل زوبعة الصحراء، ما دام هؤلاء موجودين، ثم بعد رحيلهم بفترة قصيرة، بدأت الحياة تعود إلى سابق عهدها، إذ أخذ الوادي يتطلع إلى هذه الجهة ويتطلع إلى الجهة الأخرى منتظراً وصول القوافل والمطر والمسافرين، لكن الهاجس الملعون الذي توارى في قلوب أكثر الناس برحيل الأجانب، ظل يرفع رأسه ويلح على اثنين: أم الخوش ومتعب الهذال.

لقد تأكدت أم الخوش بعد رحيل الأجانب أنهم ما جاءوا إلاّ ليبلغوا الوادي أمراً متعلقاً بالخوش، ولهذا السبب أبعدوها عنهم، لم يتركوا لها فرصة لكي تسألهم وتعرف، وإلا لماذا بدا الفزع على وجوههم عندما اقتربت منهم في مضافة ابن الراشد وصمتوا حين سألتهم؟ هل قتلوه وجاءوا لكي يصالحوا على دمه؟ وإذا كان هناك من يصالح بعد رحيل عبد الله المكتوم فليس غيرها، لكن لم يسألها أحد، لم يتكلم معها أحد. وحتى لو لم يكونوا هم القتلة فلا بد أن يعرفوا الشيء الكثير عنه! ثم ألا يحتمل أن يكون الخوش قد أصبح غنياً ويملك الشيء الكثير وأرسل هؤلاء لكي يبلغوا وادي العيون أين هو وكيف أصبح؟ ولو قال هؤلاء شيئاً عن الثروة التي يملكها الخوش ألا يجب أن تعرف؟ أليست أمه وأرضعته من صدرها؟ وهم، من يعرفه مثلها ومن يحبه مثلها؟ ولماذا يتقاسمونه وهو حيّ ولا تدري؟

كانت متأكدة أن شيئاً ما قد أصاب الخوش. كان ابن الراشد والسحيمي وعبد الله المعيوف يمازحونها من قبل. كانوا يقولون لها «اصبري.. الصبر مفتاح الفرج، باكر يجي الخوش ويعرّس وتفرحين، وكل وادي العيون يفرح.. بس وكلي الله!» كانوا يقولون هذا ويقولون أكثر منه. وفي أحيان أخرى كانوا يمزحون ويسألون، إذا كانت تنوي الزواج بعد

عودة الخوش، فإذا قلبت شفتيها دلالة السخرية والاستنكار كانوا يقولون بتأكيد «سوف تحنين يديك ورجليك، وسوف ترقصين سبعة أيام وسبع ليالٍ، وحتى لو جاء الخوش ومعه حريمه راح تظلين وراه حتى تزوجيه مرة ثانية!» وحين تسمع مثل هذه الكلمات تطوف في رأسها الصور والخيالات فتفرح، تبتسم، تتطلع إلى البعيد، تحس بنشوة، لكن فجأة ترتعش وتعود بسرعة، تتطلع إلى وجوه الذين يكلمونها، تتطلع إليهم بتلك الطريقة الوحشية، وكأنها تريد أن تكتشف ما وراء الكلمات التي تسمعها. والرجال الذين يديرون وجوههم بسرعة، خشية أن تلتقي نظراتها بنظراتهم، كانوا يخافون تلك العيون.

أما الآن، في مضافة ابن الراشد فكان السحيمي والمعيوف وآخرون، لم يتحرك أحد منهم حين حاولت أن تسأل الأجانب الثلاثة، تركوا ابن الراشد يطردها كما تطرد الكلاب. نسوا الكلمات التي كانوا يقولونها لها. نسوا أيام كان عبد الله المكتوم حياً، ونسوا الخوش تماماً. لا... إنهم لم ينسوا شيئاً، لكن الشياطين الثلاثة جاءوا ليقولوا لهم أن الخوش مات، أو أنه لا يريد أن يعود. لو أنهم أبلغوهم بشيء آخر لقالوه لها، يمكن أن توافق على أن يبقى حيث هو، وأن يتزوج، أما إذا بقي فقيراً فقد كان أبوه قبله فقيراً، الفقر لا يشين أحداً. تحملت الكثير، ولا تزال قوية وقادرة على التحمل. وإذا كان قد مات فمن دفنه؟ وأين دفن؟ ولماذا لا تعرف؟ هل يبدو هؤلاء الشياطين إنهم هم الذين قتلوه أو يعرفون من قتله..؟ كانوا يدفعون الليرات الرشادية والإنكليزية ثمناً لقطع صغيرة من القماش وبعض الصناديق المصنوعة من سعف النخيل.. هل هم مجانين ليدفعوا كل هذه الفلوس لو لم يكونوا قد قتلوه؟

قال الكثيرون من أهل الوادي «المرأة ودّعت. كان فيها رجاء قبل فترة.. أما اليوم...».

ويمد أحد الرجال يده إلى فمه حين يسمع هذا الكلام، يضع الإبهام على الأسنان الأمامية العليا ثم يسحبه بسرعة دلالة على أنه لم يبق شيء.

وأم الخوش التي أصبح ينظر إليها هذه النظرة أخذ يتجنبها الكثيرون،

يديرون وجوههم إذا مرت، يصمتون إذا جلست في مكان قريب. ولم يتردد البعض في أن يطلب من الصبية، وقد جرى ذلك بشكل خفي، أن «يسرحوا» بها! والصبية الذين كانوا يبدون التردد، وبعض الأحيان الخوف أن يسيئوا إليها خلال الفترات السابقة، خشية تأنيب الكبار وعقابهم، أصبحوا الآن شديدي الحماس لتنفيذ ما يُطلب إليهم. كانوا يتفننون في اختراع عشرات القصص والحيل، لكي يبعدوها عن الرجال، وعند ذاك لا يتركون طريقة أو كلمة لإثارتها: «الخوش رجع.. رأيناه عند العين» «جاءت قافلة والرجال هناك يسألون عن أم الخوش».

إن ما جرى في هذه الفترة بمقدار ما يثير الضحك، والذي لا يمكن مقاومته، خلّف أحزاناً لا نهاية لها، لأن المرأة التي تركض مثل كلبة لأية كلمة تتعلق بالخوش، تصدق كل ما يقال لها. وتبدو في حالات كثيرة أقرب إلى الأطفال في ابتساماتها وركضها، حتى إذا اصطدمت بالفراغ، بوحشة الأمكنة، باللاشيء، اقتعدت الأرض وبدأت تبكي. كان بكاؤها يقطع القلوب، يسحقها، والأطفال الذين تسببوا في كل ذلك، كانوا يركّضونها ويركضون معها، وهم يضحكون ويصرخون، حتى هؤلاء أو بعضهم يصاب بحالة من الألم والانفعال حين يرونها قد انهارت وأصبحت كومة من النشيج.

الرجل الوحيد، أو من الناس القلائل، الذي استمر على نظرته وموقفه، لا بل زاد عطفاً عليها هو متعب الهذال. أصبح يتعمد أن يكون قريباً منها أغلب الأحيان، لكي يمنع عنها الأذى، ويطرد الأطفال، ولكي ينقذها من حالة الانهيار التي تهدّها إذا سقطت في موجة البكاء والنحيب.

كان يقول لها كلمات طيبة لكي يعيدها إلى حالة من التوازن، وبعض الأحيان يربت على ظهرها طالباً منها أن تكف عن هذا البكاء الذي لا يليق بها، وكان يقول لها أن الخوش نفسه لو رآها على هذه الحال لا بد أن يستبد به الغضب، وشيئاً فشيئاً تكف وتهدأ، ثم لا تلبث أن تعود إلى حالة من الصفاء فتتكلم كلام العقلاء وتستمع إلى ما يقال، وقد تتذكر الأشياء القديمة وبعض الأشعار فلا تتردد في أن تقولها.

لم تخطئ توقعات هديب ولم يخب أمل متعب الهذال، إذ سقطت على وادي العيون وعلى المناطق المجاورة أمطار مبكرة وغزيرة، فتفاءل الناس وفرحوا، وتوقعوا أن تكون هذه السنة من سنين الخير. وقد زاد في التفاؤل أن القوافل التي وصلت الوادي في أواخر أيام الخريف، ثم بعد ذلك، أكدت أن الأمطار وقعت على مسيرة أيام، وأن الأودية سالت والغدران امتلأت، وقد عزّز التفاؤل أن أسعار بعض المواد التي حملتها القوافل لم ترتفع، كما هي العادة كل سنة في مثل هذا الوقت. أما الجو فقد أصبح أقرب إلى البرودة المنعشة، امتلأ الهواء بالرطوبة، وأصبحت الريح الخفيفة التي تهب من جهة الغرب والشمال، في بعض الليالي، تحمل معها رائحة الخصوبة، وتخلق في الجسد والروح معاً حالة من العنفوان. كان هذا يظهر واضحاً في كل شيء، في الإنسان والحيوان وحتى في الطبيعة القاسية الجامدة. وتتذكر وضحة أن شعلان، لأول مرة، قال لها أنه يريد أن يتزوج، لكنه لم يلح ولم يتشبث، ورغم أنها لم تجبه بوضوح، فقد ضحكت من الفرح، وأكدت أنها حالما تفرغ من هديب، الذي أتعبها ولم يقتنع ولم يوافق بعد، سوف تتفرغ له، وسوف تختار له أجمل فتاة في وادي العيون، فإذا لم تعجبه أية واحدة منهن فلن تتردد في الذهاب إلى عجرة، وسوف تستعين هناك بقريباتها.

أما متعب الهذال الذي تغيّر كثيراً، خاصة بعد الأمطار الغزيرة، فقد أصبح يقضي يومه كله في البستان الصغير الذي يملكه، رغم أن لا عمل له فيه، ورغم أن وجوده أو غيابه لا يغيّر شيئاً، لكن كان يروق له أن يرقب قطرات الماء وهي تنحدر إلى باطن الأرض، حتى إذا استقرت هناك،

بدأت بجنون تفعل أشياء لا يصدقها العقل ولا يستوعبها الإنسان. فبعد أيام قليلة من وقوع الأمطار، وكما قال متعب الهذال نفسه، اهتزت الأرض اهتزازاً موصولاً، أقرب إلى الارتجاف، وبدأ باطن الأرض يتدفق إلى خارجها. قال هذا بحمى وهو يتحدث إلى هديب، بعد أن رأى كثيراً من البذور التي نثرها قبل أسابيع، وقد بدأت تندفع من داخل الأرض بقوة وترفع رؤوسها الصغيرة، بل كانت تكبر في كل لحظة. وفي محاولة لأن يقنع هديب، ويعبر له عن الأحاسيس التي شعر بها في أوقات عديدة، خاصة ارتجاف الأرض، قال أن ذلك يشبه الالتحام بين رجل وامرأة، ويشبه لحظة النشوة التي يحس بها الإنسان.

ورغم أن متعب الهذال كان يعبر بصدق عما أحس به، فقد تعمّد أن يستعمل هذه الطريقة وهذه الأوصاف، في محاولة ماكرة منه ليحرض هديب على الزواج، كما اتفق مع وضحة على أن يفعل! أما عندما أسرّت في أذنه أن شعلان يريد أن يعرّس أيضاً، وقد حدثها في الأمر، فقد ضحك متعب بصوتٍ عالٍ، وقال إن بناء الغرفة الجديدة فأل حسن ويدل أيضاً على بعد النظر.

في هذه الفترة خيّمت حالة من الرضى على أهل وادي العيون كلهم حتى أم الخوش أصبحت أكثر هدوءاً، وقد أحس رجال القوافل بالأمر قبل غيرهم، وقبل أن يدرك أهل الوادي ذلك. وابن الراشد الذي كان لا يوفّر أحداً من تعليقاته ولسانه اللاذع، والذي قال في أكثر من مكان أن متعب الهذال انتهى، ولم يبق أمامه إلا أن يسرح بالغنم، ما لبث أن قام بزيارته في البستان أولاً ثم في الظهرة بعد ذلك، وقد بدا خلال الزيارتين ودوداً طيباً، فلم تخرج منه أية كلمة يمكن أن تفسر على أنها تعريض، بل وبدا لكثيرين أن العلاقة بين الاثنين أقوى وأمتن مما تصوروا أو افترضوا. أما عندما جاء ذكر الأميركان عرضاً فقال بنوع من الضيق:

ـ أيام وراحت يا أبو ثويني، تنذكر ما تنعاد.

وأشار بعد ذلك، بأكثر من طريقة، إلى أنه لو تُرك وادي العيون وشأنه

لعاش بسلام ورضا، ولظل محطة أساسية في الطريق لا غنى عنها لأكثر القوافل.

وفي هذه الفترة أيضاً وافق هديب على أن يتزوج. لقد عبّر عن هذه الموافقة بطريقة غير مباشرة، قال أمام متعب ووضحة أنه لا يعترض على فكرة الزواج، ويمكن أن يتزوج غداً أو بعد غد، إذا وجد بنت الحلال التي تناسبه. ووضحة التي اعتبرت هذه الموافقة كافية، قالت لتحسم الأمر:

ـ اترك بنت الحلال عليّ.

وضحكوا ثلاثتهم وبدأت هي تستعرض في ذاكرتها المرشحات واحدة بعد واحدة، وما زالت توافق وتستبعد وتتردد، إلى أن تقدم الليل، فتركت الأمر للغد لكي تتابعه.

حتى متعب الهذال الذي قضى فترات طويلة يرقب الأشجار والزرع، وانقطع عن القوافل ومضافة ابن الراشد، أحس أنه لم يعد بحاجة إلى الأخبار، وإن الأخبار لو تأخرت عليه يوماً أو اثنين فلن يغيّر ذلك شيئاً. أما حين بعث ابن الراشد يعاتبه، ويذكّره أنه زاره مرتين، وأن انقطاعه الطويل عن المضافة لا يمكن أن يفسّر أو يفهم من الآخرين على أنه موقف ودي، فقد رد عليه مع شعلان أن الذي يؤخره هو الزرع فإذا نما واستوى فسوف يزوره.

استمرت الأمور هكذا من مطلع الخريف إلى منتصف المربعانية، وقد تأكد تماماً خلال هذه الفترة أن المياه ستكون كثيرة، وستصل إلى نهاية الوادي، فالقناة الشمالية سالت من الأمطار، والعشب ملأ الفلاة كلها، أما الحيوانات فقد انتفخت وتوقع الكثيرون أن تلد الشياه اثنين اثنين، أما الكلاب فقد أصبحت تسلية للكبار والصغار معاً وهي تتعارك وتتهارش ثم تتجامع فتستعصي! وفواز الذي ذكر أباه بوعده، طالباً منه بأن يسمح له بالسفر في فترة قريبة، فقد رد عليه في إحدى الليالي وكان المطر كثيفاً متواصلاً، قال وهو يقلب القهوة في محماسه:

ـ يا وليدي تنتظر إلى أن يعرّس أخوك، ونحصد الشعير وبعدها الله كريم.

ولما أراد فواز أن يعترض، وقد بدا ذلك من نظرته، رد أبوه وهو يضحك:

ـ الخان ضاق باللي فيه، والجماعة فوق بعضهم من أيام، يخافون من السفر والسيل، وأنت تريد تسافر؟

وبإشارة خفية، لكن شديدة التأثير، رغم أنها دون كلمات، غمز هديب بعينه، طالباً من فواز أن يؤجل الموضوع، وأنه سيتولى عنه ترتيب كل شيء، فأخذ الحديث مجرى آخر وتأجل السفر وتأجلت أمور أخرى كثيرة.



في الأيام العشرة الأخيرة من المربعانية، وعلى حين فجأة، دون توقع أو انتظار، وصل إلى وادي العيون ذلك الأميركي الذي سافر قبل شهور طويلة، وصل ومعه أربعة آخرون وعدد من رجال الأمير. كان متعب الهذال قد سمّاه النحس، وسمّاه آخرون الغراب، أما هذه المرة فقد جاء باسم جديد: عبد الله. لا أحد يعرف من أعطاه هذا الإسم أو لماذا. كان رجال الأمير يسمُّونه بهذا الإسم، وكان هو إذا تحدث إلى أحد أو سأله أحد أي سؤال يدق على صدره مرة أو مرتين ويقول: «عبد الله.. عبد الله!».

خلال أيام قليلة تغير كل شيء في وادي العيون: البشر والطبيعة والحيوانات! فما كاد هذا الأميركي ورفاقه يمضون بضعة أيام حتى وصل إلى الوادي عدد كبير من الناس. بشر بأشكال وألوان لا تخطر على بال، فيهم القصير المليء الأحمر الشعر، والطويل الذي يستطيع أن يمد يده ويقطف الثمر. فيهم الأسود الذي يشبه الليل، وفيهم الأشقر والأحمر، أجسامهم تشبه الخراف المذبوحة، عيونهم زرق، وأشكالهم تدعو إلى الخوف والتساؤل. جاءوا على الجمال والخيل، وجلبوا معهم أشياء لا حصر لها من الصناديق والأحمال والخيام، وخلال فترة قصيرة، غير بعيد عن نبع الماء، أنزلوا الصناديق والأحمال ونصبوا الخيام. وبدا المنظر الذي

تكوّن خلال ساعات قليلة أشبه ما يكون بالحلم، ومتعب الهذال الذي لم يفطن للأمر بسرعة، لأنه كان في البستان، انتفض وهو يسمع ما يقوله الآخرون، ثم اصفر لونه، وفي لمح البصر هرول إلى العين، إلى مضافة ابن الراشد، ليعرف أي شيء حصل في وادي العيون.

كثيرون يتذكرون لحظة وصوله، يتذكرون كيف كان يرتجف مثل سعفة، وكيف كان ينظر كذئب، أما وهو يرقب إقامة المعكسر فقد كانت الشتائم تتساقط على رؤوس الناس كما يتساقط المطر. كان يريد أن يحطم وأن يدمر، لكن الكثيرين منعوه.. وقال الكثيرون في وقت لاحق:

ـ كان متعب الهذال على حق... نعم كان على حق!



ما كاد المعسكر يقام، والأحمال تنزل وتنظم، والرجال يخططون الأرض، ويقيمون سياجاً من أسلاك، ووراءه أخشاب بيضاء قصيرة، ثم ينثرون مواد غريبة حول الخيام، ويرشون الأرض بماء له رائحة نافذة، حتى بدأوا يفتحون صندوقاً خشبياً ويخرجون منه قطعاً حديدية سوداء، وخلال فترة قصيرة أخذ صوت، يشبه الرعد، يهدر من هذه الآلة، ففزع البشر والحيوانات والطيور، وبعد عدة دقائق من الهدير والدويّ رفع أحد الأميركان يده مشيراً إلى آخر فهمد صوت الآلة، وخلّف في الآذان دوياً قوياً ظل يطن فترة طويلة من الزمن.

ما كاد هذا يتم، وبطريقة سريعة تشبه لعبة يؤديها السحرة، والناس يراقبون كل ما يجري بصمت وخوف، حتى بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وبدا أن وادي العيون يعيش ليلة لم يعش مثلها من قبل. لكن ما إن بدأت أصوات الحيوانات تملأ ساعة الغروب، حتى هدرت تلك الآلة من جديد، وبصوت أفزع الجميع، ورافق هديرها هذه المرة أضواء قوية تخطف الأبصار، وخلال فترة قصيرة اشتعلت عشرات الشموس الصغيرة القوية، وامتلأ المكان بنور لا يمكن للإنسان أن يتصوره أو يتحمله. تراجع الرجال والصبية ونظروا إلى الأضواء مجدداً ليتأكدوا أنهم لا يزالون يرونها،

نظر بعضهم إلى بعض بخوف وتساؤل. أما الحيوانات التي كانت تقترب تلك الأثناء فقد تراجعت بذعر، فهجّت الجمال، واضطربت الغنم. قال متعب الهذال الذي كان يقف غير بعيد عن المكان، قال بصوت قوي ليتغلب على الخوف وعلى صوت الآلة:

ـ ارجعوا يا أهل وادي العيون.. إذا لم ترجعوا حرقتكم النار وما بقي منكم أثر.

هذه الذكرى التي تبدو باهرة، غير ممكنة التصديق، في بداية الأمر، تحولت مع الأيام إلى شيء عادي، لأن الرجال الذين ظلوا فترة من الزمن صامتين يرقبون كل شيء بذعر ممزوج بالترقب، ما لبثوا أن تعودوا، وتجرأ ابن الراشد وسأل الغراب ليشرح له كيف تولدت هذه الأضواء وهذا الصوت، ورغم أن الشرح طال وتخللته تفاصيل كثيرة، لم يستطع أحد أن يفهم شيئاً.

توقع الناس وانتظروا حصول أشياء كثيرة في الليلة الأولى، مثلما توقع الإنسان الرعد بعد البرق، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وانقضت هذه الليلة، وانقضت ليالٍ بعدها والخوف لا يزال قوياً في القلوب، إلا أن الحركة الغامضة التي بدأت في كل مكان لم تترك مجالاً لسؤال بعينه، لأن كل حركة، وكل سكنة لا بد أن يعقبها شيء ما. وهؤلاء الأجانب الذين يتحركون ويصخبون، ويرفعون أيديهم بإشارات كثيرة، ويتصرفون بغرابة غير مألوفة، لم يحسوا بوجود الناس حولهم أو باستغرابهم، كانوا في انشغال كامل عنهم. وفي اللحظات القليلة، خلال الحركة والانتقال من مكان لآخر، وحين يصطدمون بالرجال والأطفال، يمدون أيديهم إلى الأكتاف يرتبون عليها أو إلى الخدود يداعبونها. كانوا بهذه التصرفات وكأنهم يداعبون حيوانات أو مخلوقات غريبة.

كل الذين رأوا متعب الهذال في الليلة الأولى لاحظوا إصراره على الجميع أن يبتعدوا عن المكان، وأن يظلوا منتبهين طوال الليل، إذ لا بد أن يحصل شيء ما قبل أن يطلع فجر اليوم التالي. كما أصر أيضاً على أن يبعد الأطفال والنسوة، ويخرجوا إلى الظهرة. أما هو فقد ظل متوقعاً في كل

لحظة أن يتفجر المكان، ويخرج منه هؤلاء، بعد أن يسدوا المنافذ، شاهرين أسلحتهم في محاولة لأن يقتلوا جميع الناس.

لقد رأى متعب الهذال رأي العين أشياء عديدة غامضة حصلت وراء الأسلاك، ونبه عدداً من الرجال إلى ذلك، وظل طوال الوقت شديد الانتباه والحذر، لأن شخصاً طويلاً أسود كان يترقب وينتظر اللحظة المناسبة لكي ينقضّ ويقتل ويفتك، إلا أن عيني متعب الهذال اللتين لم تعرفا النوم ولم تغمضا لحظة واحدة، فوتت على ذلك الشخص أن يفعل شيئاً، لكن في غبش الصباح لم يعد يرى الشخص نفسه، وإنما رأى مكانه، أو إلى جانب المكان الذي كان فيه، عموداً!

كيف استقبل الرجال في وادي العيون هذا الذي حصل وكيف كان رد فعلهم؟ أية مخاوف وأية أوهام استبدت بهم؟ والناس في الظهرة هل كان وضعهم أفضل من الذين كانوا في الوادي؟

إن هذه الأمور وعشرات غيرها لا يمكن أن تروى بكلمات، لأن الكلمات تضعفها أو ربما تغيرها، فالخوف يزيد لحظة بعد أخرى، والتوقع يسيطر على الناس ويشلهم، والمفاجأة هي الشيء الوحيد الذي يتكرر بلا انتهاء.

بعد ثلاثة أيام من السهر والمراقبة، في الليل والنهار، دون نوم حقيقي، وبأقل قدر من الأكل والماء، رجع متعب الهذال إلى الظهرة إنساناً آخر. كان شخصاً جديداً تماماً: إذ بعد أن نزل عن فرسه، وبدا مترنحاً زائغ النظرات، وفي حالة من الأعياء الشديد أو ربما المرض، سقط عند باب البيت، ولم تجد محاولات زوجته في أن تقيمه من مكانه، فأتت له بفراش ومساند، لكي ينام ويرتاح. أما محاولاتها إقناعه بأن يغسل وجهه ويتناول فنجاناً أو اثنين من القهوة فقد انتهت دون جدوى، لأنه بمقدار ما كان رافضاً مصراً كان خائر القوى ضعيفاً، وبدا في أشد حالات الحزن والإعياء، وكأن الدنيا في نهايتها. أما حين بدأ يتكلم فقد كان أشد ما يكون وعياً وبأساً «يقولون: يوم القيامة؟ اليوم هو يوم القيامة. يقولون: إذا مشى الحديد على الحديد؟ اليوم رأيت الحديد يمشي على الحديد!» وبعد أن

يتوقف ليفكر يتابع بنبرة أشد: «كان علينا أن نفعل شيئاً منذ وقت طويل يا وضحة، منذ أن جاءوا أول مرة. عرفت أنهم سيرجعون، وأنهم سيفعلون أشياء لا يفكر بها إنس أو جان. جاءوا. رأيتهم بعيني. في مثل لمح البصر أطلقوا عشرات الجن والعفاريت. وهذه العفاريت تتوقد وتهدر في الليل والنهار، إنها أشياء مثل رحى الطاحون تظل تدور وتدور دون أن تتعب ودون أن يديرها أحد. ماذا سيحصل في هذه الدنيا؟ وكيف سنقضي عليهم قبل أن يقضوا علينا؟».

بدا موقفه أقرب إلى العناد والبلاهة، وبدا أنه لا يليق بعمره ومنزلته، فإذا كان الأمر أمر قوة فإن أهل وادي العيون والظهرة من الكثرة والشراسة إلى درجة أن أحداً لا يفكر بالاعتداء عليهم أو غزوهم. أما إذا كان الأمر متعلقاً بالذكاء ورجاحة العقل فإن مضارب العتوم والسحيمي والمرزوق والروضان لا تخلو بين أسبوع وآخر من متقاضين جاءوا من أماكن بعيدة، راضين مختارين، أن يكون واحد من أهل العيون حكماً بينهم. وإذا كان الأمر متعلقاً بهؤلاء الغرباء، الذين جاءوا إلى الوادي، ونصبوا الخيام يريدون الإقامة، فلا بد أن توجد طريقة ما لإجلائهم أو التفاهم معهم على الماء، خاصة وإن رجال الأمير معهم هذه المرة، وليس الحال كما كان حين جاءوا أول مرة.

في الهزيع الأخير من الليل، سيطر حلم ملعون على متعب الهذال وأرقه فاستيقظ مرعوباً، ودون أن يكلم أحداً التقط بندقيته وبخفة ركب فرسه ونزل إلى الوادي.

لم تحدث جريمة قتل في تلك الليلة، أو في الليالي القليلة التي تليها، لأن حالة الذهول في البداية، ثم حالة الانتظار بعد ذلك، جعلت كل شيء مؤجلاً. ومتعب الهذال الذي لم يتعود أن يحمل بندقيته إلا نادراً، إذا كان على أهبة السفر أو إذا سمع صوت ذئب قريب من الغنم، وفي لحظات التحدي، والتي قليلاً ما تقع، جعل وضحة شديدة الخوف حين رأته يحمل البندقية ويخرج، ليس لأنها بطبيعتها تخاف من هذه المشاهد شأن أغلبية النساء، وتؤثر السلامة على أي مكسب، وإنما لأن الحالة التي كان عليها متعب الهذال جعلتها شديدة الحذر ثم الخوف، قالت لفواز الذي استيقظ على ضجة أبيه، بحزم أقرب إلى الأمر:

ـ اذهب وراءه. لا تتركه، ولا تجعله يراك أو يحس بك...

وتغيرت نبرتها:

ـ قد يحتاج إليك.

كانت وضحة قادرة على اتخاذ القرارات الضرورية في أوقاتها، وإن بدت امرأة مسالمة، حتى ليظن من يراها أنها لا تستطيع شيئاً. وكلماتها القصيرة الواضحة في عتمة الليل الأخيرة، جعلت فواز قوياً، لكن عصبياً أيضاً، ودون أية كلمة وبلا انتظار تبع أباه.

على غير عادته نزل متعب إلى الوادي سالكاً أطول الطرق وأصعبها، وكأنه باختياره ذلك الطريق أراد أن يرى المشهد كله، فبعد أن رأى المعسكر من ناحية الظهرة، أمعن النظر بالوادي والتلال المحيطة يريد أن يراه من الناحية المقابلة، أو ربما كان يخشى أمراً، ويضمر شراً، قال فواز لنفسه «إذا أطلق النار يشتعل الوادي كله، لن نكون وحدنا، لأن أهل

الوادي لا يتركون الإنسان يحارب وحده، إنهم يحاربون معه حتى النهاية، وبعد أن تنتهي الحرب يسألون لماذا حاربوا» لقد سمع مثل هذا الكلام مرات كثيرة، روى ذلك المسنون والشباب، والصغار الذين لم يروا حرباً ولم يعيشوا في تلك الزوابع التي يتحدث عنها الكبار، كانوا في شوق لأن يروا شيئاً من ذلك. أما حين أفلتت كلمات من أفواه الفتيان والصغار عن هؤلاء الكفرة وضرورة قتلهم، فقد نظر الكبار إلى الصغار نظرة مستغربة أقرب إلى التأنيب، مؤكدين أنهم لا يخافون، لكنهم لا يستطيعون أن يرفعوا سلاحهم في وجوه الأصدقاء، وما دام الأمير قد أرسل هؤلاء فهم أصدقاء إذن. صحيح أن أحداً لم يشعر بالراحة لمجيئهم، ودخلت الوساوس والظنون إلى كل عقل وكل قلب، لكن لم يفكر أحد أيضاً أن يرفع السلاح. أما الآن ومتعب الهذال يخب في الظلمة والبندقية على كتفه فلا بد أن يقع أمر غير عادي.

لم يكن متأكداً من شيء، ولأنه بدا متردداً مأخوذاً، وكأنه لا يصدق، فإن الدروس الأولى التي يتعلمها الإنسان في الصحراء، أن لا يهدد بالسلاح، أن لا يمزح به، ليس لأنه يخاف السلاح وإنما لأنه يحبه إلى درجة لا يقبل أن يكون وسيلة للتهديد أو المزاح، هذه الدروس تتبدد وتضيع، وكأنه لا يعرفها. كان متعب الهذال ينهر أولاده، أو أي إنسان آخر في وادي العيون، حين يراه يحمل سلاحاً ويوجهه في هذا الاتجاه أو ذاك وهو يمزح. قال لشعلان مرة: «لا تلعب بالسلاح أبداً، لأن من يلعب به مرة يلعب به كل مرة. والناس الذين يهابون السلاح الذي يقتل، والرجل الذي يقتل، لا يهابون ولا يحترمون الرجل الذي يلعب بالسلاح». وقال له مرة ثانية «إذا رفعت السلاح فاضرب.. أو لا ترفعه أبداً».

في ظلمة الفجر، وهو يخب حاملاً سلاحه، ثم بعد ذلك الانتظار الطويل، عند نهاية الوادي، وهو يربض في مكان وابنه يربض في مكان آخر، والمكانان لا يبعدان عن بعضهما أكثر من مائة متر، وحصانه إلى جانبه، وبين فترة وأخرى يرفع سلاحه، يصوبه إلى المعسكر، ثم ينزل السلاح، ويبدو في نزوله منكسراً ذليلاً، حتى إذا رفعه في المرة التالية،

ربما بتصميم أكبر، كان بعد ذلك ينزله بذل أكبر. وما زال يرفع بندقيته وينزلها، يجلس ثم ينهض، يغير من وضعية الرمي مرة بعد أخرى، ولا يفعل شيئاً، حتى إذا ارتفعت الشمس وملأت الدنيا، لم يعد فواز يتوقع أن يفعل أبوه شيئاً، كما لم يعد قادراً على أن يظل مختبئاً، فما كاد ينهض من مخبئه ويصرخ منادياً على أبيه، وما كاد يلتفت ويراه حتى أصابته حالة من الفزع والارتباك. كان يود، في تلك اللحظة، لو تنشق الأرض وتبتلعه، لو يموت، أو لو يطلق النار على نفسه أو على حصانه أو على المعسكر. أما حين تقدم فواز من أبيه فقد رآه مصفر الوجه، زائغ النظرات، وكانت شفته السفلى ترتجف من العصبية والانفعال. وكانت يده تزحف بسرعة على ماسورة البندقية صعوداً وهبوطاً، وهي أقرب إلى التشنج. لم يكن في تلك اللحظة مستعداً لأي حديث، حتى عندما سأله فواز إن كان رأى ذئباً أو عدواً، فقد حرك رأسه دلالة النفي، دون أن يتكلم، لكن قالت عيناه أكثر من اللوم وأقسى من العتاب. قالت عيناه «باطن الأرض خير من ظاهرها، ولا أريدك أن ترى ضعفي. . أن تراني هكذا».

بعد وقت غير قصير والصمت يقف قوياً قاسياً بين الاثنين، عدا حركات متعب العصبية في رحلة يائسة على ماسورة البندقية، خرج صوته متعباً:

- هل ورّدت الحلال؟

لم ينظر إلى ابنه حين سأله وهو يسمع إجابته، قال الشاب:

- اليوم دور شعلان وإبراهيم.

رفع متعب، لأول مرة إلى ابنه، عينين حزينتين مليئتين بأسئلة خرساء: منذ أي وقت أنت هنا تراقبني؟ من الذي طلب إليك أن تأتي وما الذي جاء بك في هذه الساعة؟

ومن جديد تراجعت نظراته وهو يخفض رأسه. كان حائراً متعباً، كان يريد أن يقول أشياء كثيرة، وكان يريد أن يبقى صامتاً.

وإذا كانت ثمة لحظات يشعر الإنسان فيها أنه عارٍ، أو أنه يرتكب إثماً، ولا يريد أحداً أن يرى عريه أو يراه وهو يرتكب الإثم، في مثل هذه

اللحظات يكون الإنسان قاسياً ومجنوناً تجاه نفسه وتجاه الآخرين. قال لفواز بقسوة أقرب إلى الجرح والإهانة:

ـ خذ البندقية وارجع إلى الظهرة.

وبفظاظة ودون انتظار، أخرج الطلقة وسحب المشط، ثم رمى إليه البندقية، كما يرمي عصا. سقطت البندقية بين ساقيه. تركها برهة قبل أن يلتقطها، تابع متعب الهذال وهو يستدير:

ـ يلله.. خذها واغرب من وجهي.

أحس فواز، تلك اللحظة، أن أباه انتهى، أنه سقط في بئر عميقة لا قرارة لها، وإنه لا يريد أن يرى بشراً أو يسمع صوتاً، حتى فرسه التي كانت في الظل إلى جانبه، وبدت وديعة مستأنسة، وكأنها لا تريد مفارقته أبداً، بدا وكأنه يضيق بها. ولا يريدها أن تبقى إلى جانبه، إذ ما كاد فواز يلتقط البندقية ويهم بالمسير حتى قال له بحدة:

ـ اربط الدهماء تحت ذيك النخلة.

وأشار دون أنيلتفت إلى نخلة بعيدة، ثم انقلب على جنبه، كأنه يدخل في ملكوت النوم والغيبوبة وربما الموت.

❀ ❀ ❀

لم يعد متعب الهذال إلى الظهرة في اليوم الأول ولا في اليوم الذي يليه، وقد سبب غيابه مزيداً من الشعور بالإثم والخطأ لدى فواز، إذ لو لم يره هكذا، ضعيفاً يائساً، لأخذت الأمور مجرى آخر. لو فعل ما كان يدور في رأسه ربما اشتعل وادي العيون وتغيرت أمور كثيرة، أما الآن، لا يعرف أين أو إلى متى، فإن هذا الجرح في روح متعب الهذال لن يشفى أبداً.

ذكر بعض الناس أنهم رأوه مرتين قريباً من المعسكر. كان شديد الغضب، حانقاً، ولم يتردد في الوقوف وتوجيه الشتائم للأميركان يريد أن يستفزهم، لكن الذين سمعوا شتائمه رفعوا رؤوسهم للحظة، التفتوا إليه التفاتة سريعة ثم عادوا إلى ما كانوا به منشغلين. أما في المساء، وفي مضافة ابن الراشد فلم يترك شتيمة، ولم يوفر أحداً. قال إن الحريق بدا في

وادي العيون منذ أن جاء ابن الملعونة النحس أول مرة. كان على الناس أن يفعلوا شيئاً منذ ذلك الوقت، قبل أن يؤكل الأخضر واليابس، أما إذا ظلوا كذلك، إذا صمتوا وانتظروا فسوف يهلك الجميع. وقال للرجال أيضاً أنهم إذا لم يفعلوا شيئاً فسوف يتولى الأمر وحده. أما حين اقترح أحد المسنين أن يذهب وفد لمقابلة الأمير، فقد هزّ متعب الهذال رأسه دلالة السخرية، وقال:

- إلحق العيار لباب الدار. الأمير قريّب، لكن ما منه فائدة.

جرى مثل هذا الحوار مرات عديدة، وكان أغلب المرات حواراً يائساً، إذ لا ينتهي إلى نتيجة. فالحركة في وادي العيون وحوله لا تهدأ ولا تتوقف، وابن الراشد يبقى أياماً في الوادي ثم لا يلبث أن يغيب غيبات طويلة غامضة. وإذا كان متعب الهذال يشتم، يتحدى، يغلظ في القول لابن الراشد، فإنه كان يخاف من غيباته أكثر مما يخاف من وجوده ومحاولاته إقناع أهل الوادي أن يرحلوا. كان لا يعرف ماذا يدبر في هذه السفرات، وأية مصائب يمكن أن تحل بالوادي نتيجة زياراته للأمير أو غيره.

ظلت الأمور تراوح بين الأمل واليأس، بين الخوف والرجاء، إذا جاء طارش من هذه الجهة وانفرد به متعب الهذال، وسأله عما رأى وعما سمع، ينتهي إلى نوع من القناعة ينقلها بأسلوبه الخاص إلى أهل وادي العيون. وإذا جاء طارش من الجهة الأخرى ونقل أخباراً من نوع مختلف يحاول متعب الهذال أن يرى فيها أملاً، فإن وجده، عاش أياماً وقد تحول إلى إنسان لا يعرف كيف يستقر، كيف ينقل أحاسيسه إلى الآخرين. فإذا رجع بعد ذلك ابن الراشد، وأراد أن ينقل لأهل الوادي أخبار الشياطين الذين سيبدأون العمل بعد أيام أو أسابيع، هب في وجهه متعب الهذال، فلا يتركه حتى يفرغ ما في جوفه من شتائم وتهديد. وابن الراشد الذي يقابل متعب الهذال بموقف ضاحك ومليء بالمزاح والمداعبة، لا يلبث أن ينقل للناس أخباره واقتراحاته، مشيراً عليهم أن يكونوا حكماء وعاقلين فلا يضروا أنفسهم بأنفسهم، وعليهم أن يكفوا عن سماع هذا الشايب الخرف.

فإذا نقل لمتعب ما قاله ابن الراشد، مع بعض التعريض، كان يهدّ عليه في الليل أو النهار، ضارباً عرض الحائط بكل المجاملات التي تعودها الوادي سنين طويلة، وبطريقة مليئة بالخشونة والتحدي تبدأ تلك المبارزة التي يتابعها أهل الوادي بشوق بين الاثنين.

كان ابن الراشد يصمت، يكتفي بكلمة هنا وبكلمة هناك، رداً على ما يقوله متعب الهذال. فإذا زادت الأمور عن حد معين، كان يعرّض بمتعب، لكن بطريقة ساخرة، مع بعض التهديد الضمني. كان يقول له:

ـ يا ابن هذال، لا تخف، وكّل الله، حقك يصلك، وأنت تعرف: اللي عند الأجاويد ما يضيع.

فإذا رفض متعب الهذال أن يسمع، إذا سخر، كان ابن الراشد يغيّر لهجته:

ـ يا ابن هذال، أنت شيخ الوادي، أنت أعقل من فيه، ولازم تعرف أن الحكومة تتعامل مع الناس بالناموس أو الدبوس.

ـ وتهددني يا ابن الراشد؟

ـ يا ابن هذال، قلنا لك: الرأي رأيهم، ونحن عبيد مأمورين، وأنت بلشتنا بلشة حضران: ركوع وتسليم. ما خلصنا من سالفة، من قضية، إلا بدأت من جديد. يا ولد العم اترك هذه البلشة واترك الحكومة بهمها.

ـ وإذا ما تركتها يا ابن الراشد؟

ـ أول الغضب جنون وآخره ندم. . يا ابن هذال

ـ هذه ديرتنا، يا ابن الراشد، نعرفها، نعرف رجالها وحزومها، نعرف خبرها ومطاويها، وأنت أدرى من غيرك، والأحسن أن تعلّم الجماعة. . . هناك.

ـ يا ابن هذال، يا ولد العم، إن بغيت الفراق فاطلب ما لا يطاق.

ـ والله يا ابن الراشد كل بني آدم آخرته خرقة، وأنت تعرف ابن هذال.

وبطريقة ساخرة وخفية يضع ابن الراشد نهاية لهذا الحوار الذي لا يمكن أن ينتهي إلى نتيجة.

ـ الرسول مبلغ وغير ملوم يا أبو ثويني، وأنت تعرف: منك الصبر وعلينا الوفاء.

ظلت الأمور مضطربة قلقة لبضعة أسابيع، بعد أن أقيم المعسكر، وأصبح الأميركان يقضون وقت الظهيرة من كل يوم في الشمس مبطوحين على وجوههم، لا تستر أجسادهم سوى سراويل قصيرة. كانوا يفعلون ذلك غير مبالين بالناس حولهم من صبية ورجال، وكأن الواحد منهم داخل خيمة.

بدا الأمر شديد الغرابة، وقد أثار من الحنق والغضب الشيء الكثير، حتى ابن الراشد الذي كان يدافع عن عبد الله، ويبذل محاولات متعددة معه، ويؤكد له أن الناس لا يقبلون أن يروا الرجال على هذا الشكل، انتهت محاولاته إلى الفشل. وإذاكان الرجال قد استمروا بالمرور قرب المعسكر، وكذلك الصبية، فإن النسوة اللواتي تعودن الذهاب إلى العين، وجلب الماء، توقفن تماماً، واعتراهن ذعر حقيقي.

وبدا متعب الهذال بنظر الناس حكيماً وأكثر معرفة بما ستؤول إليه الأمور.

بدأت الهمسات ثم التحديات، ثم التفكير بذهاب وفد إلى الأمير «يا طويل العمر: نوافق على أن يأخذوا ماءهم من العين، لكن نموت ولا نوافق على أن ينزلوا على الماء. نساءنا يا طويل العمر، أعراضنا يا طويل العمر، وإذا أردتم أن تحلوا المشكلة حلوها.. وإذا ما أردتم نحلّها بأيدينا».

هكذا كان يجري الحديث في المضافات وبيوت الشعر، والرجال الذين شعروا بالجرح وما يشبه الخوف مما يرون، توجسوا شراً ومنعوا النساء من ورود الماء نهائياً، وكلفوا الصغار بذلك، لكن نبه عليهم أيضاً أن لا يتوقفوا وأن لا ينظروا جهة المعسكر.

كان متعب الهذال في الظهرة، كان بعيداً عن العين، وحتى لو كان قريباً لم يكن ليغير أقواله وقناعاته. أما الرجال الآخرون الذين كانوا يسكنون قريباً من العين، في بطن الوادي، وحول البساتين، فقد شعروا أن

الأمر أكثر خطورة مما قدروا في البداية، وأنه لا يحتمل تأجيلاً أو انتظاراً. خاصة وأن الذين جاءوا من طرف الأمير مع هؤلاء كانوا أعجز من أن يفعلوا شيئاً، كل ما يملكون أن ينقلوا ما يقوله الناس إلى المترجم، وكان المترجم أشد كبرياء وخشونة من الأميركان أنفسهم.

سيطرت حالة من الخوف على الوادي كله. أصبح الرجال أقرب إلى العصبية والنزق، وأصبح متعب الهذال شخصاً لا غنى عنه، فإذا غاب عن الوادي يوماً واحداً، لكي ينام في الظهرة، شعر الناس أنهم بحاجة إليه، وأنه وحده القادر على أن يقول كل شيء، وأن يعبر عن أفكارهم وما يدور في عقولهم ونفوسهم.

كانت الحيرة، في هذا الجو المضطرب الغامض هي السيد، فرغم كلمات الليل الكبيرة والتحديات، ثم الاتفاق والوعود، فإن للنهار سلوكه ومخاوفه وطريقته في التصرف، إذ ما يكاد اليوم الجديد يبدأ حتى يسيطر اتفاق ضمني بين الرجال على تأجيل الذهاب إلى يوم آخر، لعل شيئاً يحصل في ذلك اليوم وينهي هذا الكرب الذي يخيم على الوادي. أما إذا وصلت قافلة، فقد كان يرافق وصولها أخبار وأحداث تشغل الناس عما هم فيه، ثم تبدأ عمليات البيع والشراء والتبادل، حتى إذا جاء المساء انعقدت السهرات وبدأت الأحاديث والأخبار، لكن تظل قضية هؤلاء الأجانب الحديث الذي يطغى على كل الأحاديث، وكان يثير من الاهتمام بقدر ما كان يثير من التساؤل والخوف، ورغم أن المسافرين هم الذين كانوا يتولون الحديث، أغلب الأحيان، لأنهم سافروا ورأوا، ويمكن أن ينقلوا للآخرين شيئاً، فإن الرجال في وادي العيون يملكون الكثير الكثير ليقولوه، خاصة عن هؤلاء الشياطين الذين جاءوا فجأة ولا يعرف إلى متى سيبقون أو ماذا سيفعلون! وكان المسافرون يبدون اهتماماً كبيراً لأنهم سينقلون ما يسمعون إلى الأمكنة الأخرى وإلى الناس الآخرين الذين لم تصلهم بعد أخبار هؤلاء الشياطين.

كانت الأحاديث عن هذه المجموعة من الشياطين تبدأ محايدة عامة، ثم لا تلبث أن تصبح ذات ألوان واضحة شديدة القسوة، ويشترك فيها أكثر

الرجال، فتعطى لكل واحد من هؤلاء صفة تصبح اسماً، وهذه الصفات والأسماء التصقت بهم بسرعة فائقة. وإذا كانت العادة في وادي العيون أن تطلق الصفات على الكثيرين، وتأتي بالمعايشة الطويلة، وبعض الأحيان دون أن يقصد إليها أحد أو يتعمدها، فقد كان إطلاق الصفات أمراً ضرورياً لمواجهة الحالة الجديدة، وتمييز هذه المخلوقات التي بدت في الأيام الأولى شديدة الشبه، حتى ليصعب التفريق بين واحد وآخر، إلا أن المراقبة المستمرة والتدقيق الذي لا يتوقف ولا يتعب بهؤلاء وتصرفاتهم جعلت إطلاق الأسماء والصفات أمراً في غاية اليسر. «فالغراب» أو «ابن الملعونة» هو الاسم الذي سقط على ذاك الذي جاء أول الأمر، والذي تسمى فيما بعد باسم عبد الله. أما الآخرون فالأكحل والبطين والجربوع، والأفصع والمغزل والدجاجة وأبو الحصين، وغير ذلك من الأسماء. أما كيف تم اختيارها ومن أطلقها فلم يكلف أحد نفسه عناء البحث، حتى الصفات التي لا تنطبق بدقة على بعض هؤلاء، ما لبثت أن أصبحت شديدة الانطباق وتكاد تكون وحدها الملائمة!

بهذه الطريقة كانت تجري الأحاديث وتروى القصص عن هذه المجموعة التي وصلت، رغم أن معظم أفرادها بعدما استراحوا فترة من الوقت أخذوا يقضون الجزء الأكبر من نهاراتهم في أعمال غامضة وبعيدة عن الأنظار والمراقبة، إذ كانوا منهمكين في داخل الخيام يرسمون ويكتبون، وكانوا بين ساعة وأخرى يحملون أوراقاً كبيرة من خيمة إلى أخرى، وبعض الأحيان يفرشونها على الأرض ويدققون فيها وقتاً طويلاً، ثم يمسكون بعصي صغيرة ويقيسون. كانوا يفعلون هذا غير آبهين بنظرات الناس الذين كانوا يقفون وراء السياج يرقبون كل حركة وكل سكنة. وكان الأطفال والصبية أكثر الذين يتابعون، ومع كل حركة يصرخون ويشيرون متوقعين أن يحصل شيء ما بعد ذلك.

كانت هذه الأحاديث تدور وتنتقل بسرعة من بيت لآخر، ومن خيمة لأخرى. والمسافرون في القوافل يستمعون باهتمام ويستولي عليهم حب الاستطلاع في أن يروا بأنفسهم هذا الذي يتحدث عنه أهل وادي العيون.

فإذا انقضت الليلة وجاء اليوم التالي، اقترب المسافرون من المعسكر، وبدأوا يراقبون، فإذا ما استعادوا في مخيلاتهم القصص التي سمعوها في الليلة الفائتة بدوا شديدي الرغبة لمعرفة من يكون الأفصع ومن يكون الجربوع، وكثيراً ما داخل بعضهم الفرح حين يشير إلى أحد هؤلاء ويقول بلهجة هي بين التأكيد والتساؤل: «هذا هو البطين» أو «هذا هو الأفصع.. اقطع يدي إذا لم يكن هذا هو الأفصع!» فإذا انطبقت الصفة على الموصوف، كان الرجل ينظر إلى الآخرين بزهو يصل حدود الفرح الطفولي، وقد يتصرف بهياج ويصرخ. أما إذا كانت الأصوات عالية والمراهنة ارتبطت بأن يعرف صاحب الاسم أو الصفة أنه المقصود، ينظر مستطلعاً، فعندئذٍ كان يبلغ الفرح درجة لا يتصورها أحد، إذ تعلو الصيحات وترافقها إشارات من أيدي الصغار والكبار، وكلمات الاستحسان، وغير ذلك من التصرفات غير المتوقعة.

كان هذا بعض ما يحصل في محاولة للتغلب على الكرب والمخاوف، أو لنسيان هذا الهمّ الذي يكبر ويزداد كل يوم، فإذا سافرت القافلة، وعاد أهل الوادي إلى مواجهة الحقيقة القاسية، بكل ما فيها من هموم ومخاوف، بدأوا يفكرون ويبحثون عن طريقة لمواجهة هذا البلاء الذي يحاصرهم ويقترب منهم.

تمر ثقيلة متباطئة. حرارة الجو تزداد وتدفع بأعداد جديدة من البدو الذين تركوا الوادي في أول الشتاء طلباً للمرعى، إلى العودة والاقتراب من الماء، لأن الصحراء تصبح يوماً بعد آخر، ابتداء من نهاية الربيع، جحيماً لا يطاق. والذين تعودوا على أن يتابعوا الغيوم، وينزلوا عند كل ماء، من أجل أن يطعموا حيواناتهم، ويبقوا على قيد الحياة، والذين عرفوا لكل مكان أياماً في السنة يقيمون فيه خلالها، ويعرفون متى يتركون هذه الأماكن وإلى أين يجب أن يتوجهوا. وأهل الوادي الذين تعودوا على هذه الرحلات وعرفوا مواعيدها، يعرفون أن نهاية الربيع والصيف كله، ثم جزءاً من الخريف، الأوقات التي يضيق الوادي ويتزايد البشر فيه. حتى قوافل المسافرين التي تدفعها السرعة ويدفعها الحنين لأن تواصل رحيلها بعد يوم أو يومين من الراحة في وادي العيون، إذا كان الفصل شتاء أو ربيعاً، فإنها في الأوقات الأخرى تطيل الإقامة وتطيل السؤال، وتنتظر أن يكبر القمر ويساعدها على سير الليل بدل سير النهار الشاق. ومعنى الإقامة الطويلة في الوادي، خاصة في مثل هذا الوقت من السنة، أن الأفواه التي تستقي من العين والآبار تتضاعف، وتزدحم حول الماء ليل نهار، وما يولده ذلك من نزاعات ومصاعب واختلاف. ورغم الطيبة التي تميز أهل الوادي، فإنهم في مثل هذا الوقت يصبحون بشراً من طبيعة مختلفة، يصبحون أكثر حدة وأكثر شراسة، ولا يخفون ضيقهم بأشياء كثيرة، كما تزول الابتسامات عن وجوههم وتفارقهم الرغبة في أن يتحدثوا أو أن يطيلوا الحديث.

إنها إذن أيام الانتظار قبل أن يهجم الصيف بحرارته وعذابه، وهو

انتظار أكثر صعوبة من أية أيام سابقة، خاصة بعد أن جاء هؤلاء الشياطين وأقاموا معسكرهم قريباً من العين، ولا يعرف ماذا سيفعلون وكيف ستكون حال المياه إذا استمروا مثلما يفعلون الآن، ينقلون عشرات الأحمال كل يوم إلى المعسكر، ويسرفون في استعمالها، كما لو أنها شيء مبذول لا يعني أي إنسان.

انقضت أيام عديدة، وطلائع الذين رحلوا بدأت بالوصول، والموعد الذي تعود أن يجيء فيه الأمير ينقضي دون خبر أو إشارة من أي نوع ينبئ عن وقت وصوله، والمسنون الذين أشاروا بهذا الرأي بدوا أكثر قلقاً وخوفاً، فلما عاد متعب الهذال إلى جنونه، وبدأ يلح كل يوم على أن يذهب وفد إلى الأمير، لم يجد اعتراضاً في البداية، ثم وجد تأييداً وموافقة في نهاية الأمر. وفي مضافة ابن الراشد اتفق الرجال أن ينتدبوا عدداً منهم لمواجهة الأمير وأن يعرضوا عليه كل شيء.

كان المكان الذي يقيم فيه الأمير على مسيرة ثلاثة أيام من وادي العيون. وإذا كانت من عادة الأمير الخروج إلى القنص في مثل هذا الوقت من السنة، والمرور بالوادي في طريق الذهاب والعودة، فقد فكر بعض المسنين بالانتظار إلى أن تحين هذه الفرصة، لأن سفر عدد منهم إلى هناك لا يغني عن أن يشاهد الأمير بنفسه هذا الذي يشكون منه ويخافونه. فالمعسكر بالمكان الذي أقيم فيه، وهؤلاء الأجانب بالأجساد العارية، أغلب ساعات النهار، ينتقلون دون تردد أو حرج، ثم هذه الآلات الملعونة التي تخيف الحلال بهديرها الذي لا يتوقف، والتي تسبّبت مرات كثيرة بهياج الإبل وهربها، ثم العناء الذي لحق أصحابها نتيجة ذلك، هذه الأمور لا يمكن أن تتلخص بكلمات، أو تصوّر لإنسان بعيد. يجب أن تشاهد، أن ترى بكل تفاصيلها وجنونها لكي يُدرك مدى الهمّ الذي تولده. لكن مع ذلك قرروا أن يذهب وفد منهم.

كان الرجال يوصون بعضهم، ويلحّون في التوصية، أن يكون الحديث مع الأمير هادئاً متزناً، وأن يتولاه ابن الراشد، باعتباره أكثرهم معرفة بالحديث ومن الكبار فيهم، إضافة إلى ما يتصف به من معرفة قوية

بالأمير، وله دالة عليه، ثم هو الذي استقبل هؤلاء الأميركيين وعرف كل شيء عنهم. والرجال حين يلحون في مثل هذا الأمر إنما يقصدون، بالدرجة الأولى، أن لا يتركوا لمتعب الهذال حرية الكلام والتصرف، لأن العصبية التي ميزت سلوكه، والشتائم التي يكيلها للأميركيين ليل نهار، ثم هذا التحريض الدائم لأهل الوادي أن يفعلوا شيئاً للوقوف في وجه الشياطين، حتى لو اضطروا إلى حمل السلاح أو الذهاب إلى العاصمة ومقابلة السلطان... إن هذه الحالة التي ميزت متعب الهذال جعلت الرجال يتخوفون ويتحسبون. ولو كان الأمر يحتمل أن يمنع ابن هذال من الذهاب، أو يطلب إليه البقاء إلى أن يأتي الأمير، لما تردد بعض المسنين في أن يقول ذلك، لكن الجميع أحسوا أن متعب الهذال لن يهدأ له بال، ولن يكف عن الهياج والتحريض، وحتى اللجوء إلى الإهانة، لو ظل بعيداً. ثم ماذا لو ذهب وحاول مع الأمير؟ إنه برغم هذه الصفات يملك مقداراً كبيراً من رجاحة العقل وحسن التصرف. يعرف المجالس وما يمكن أن يقال وما لا يقال، لذلك فإن التخوف الزائد أو التحفظ المبالغ فيه قد يعطي نتيجة معاكسة. فإن كان متعب الهذال في الوفد فهو خير ألف مرة من أن لا يكون، وأن يتحدث مع الأمير خير من أن يمنع. أما هذه التوصيات الأخيرة، التي يؤكد عليها الرجال الآن، وقبل أن يصلوا دار الإمارة، فإنها نوع من التحسب والتحفظ قد يفيد وقد لا يفيد.

بدا الأمير، قبل أن يتكلم ابن الراشد، وكأنه يعرف لماذا جاء الرجال وماذا يريدون، إذ ما كاد يجري الحديث عن القنص والجو ثم وادي العيون، حتى بدأ الأمير:

- ستكونون يا أهل وادي العيون أغنى الناس وأسعدهم، وكأن الله لا يرى غيركم...

وتغيرت لهجته:

- لقد صبرتم وتحملتم كثيراً... الشهادة لله، أما الآن فسوف تعيشون وكأنكم في حلم، وسوف تتحدثون عن الأيام القديمة وكأنها سالفة من السوالف.

وعاد إلى لهجته الأولى

ـ والخير، يا جماعة الخير، إذا عمّ عمّ.

كان ابن الراشد قد هيأ الكلمات التي يريد أن يقولها، كيف يبدأ وكيف يسوق الحديث حتى يصل إلى النقاط الحساسة، وكان يريد أن يثير الشك في نفس الأمير إذا لم يقنعه، ثم كان يريد أن يطلب إليه المجيء، وبسرعة، لكي يرى بنفسه، ويتأكد من كل كلمة يقولها له الآن. أما وأن الأمير قد بدأ هذه البداية وساق الحديث في هذا الاتجاه، فقد أسقط في يد ابن الراشد ولم يعرف كيف يستطيع البدء ليصل إلى ما كان يريده. قال في محاولة يائسة:

ـ أنت تعرف، يا طويل العمر: المال ما هو كل شيء في هذه الدنيا، قبل المال: العرض، الأخلاق، العادات التي تعودنا عليها...

كان يريد أن يتابع في هذا الاتجاه، لكن الضحكة المجلجلة التي انطلقت من فم الأمير، غيّرت الجو مرة أخرى، وجعلت الرجال في حيرة من أمرهم. قال ابن الراشد بارتباك:

ـ مهما قلنا، يا طويل العمر، العين غير الأذن، والتجربة غير السالفة.

اعتدل الأمير في جلسته، رسم على وجهه سمات الحزم والقسوة:

ـ إذا تكلمت، يا ابن الراشد، عن الأخلاق فأنت تعرف أننا أكثر الناس حرصاً على الأخلاق، وإذا أردت الدين فالدين عندنا ما هو عند غيرنا.

ـ ولكن يجب أن تأتي وتشوف كل شيء بنفسك.

ـ لا تخف، أصلكم، لكن ما أريده منكم أن تقدموا للجماعة كل المساعدة، لأنهم جاءوا من تلفات الدنيا ليساعدونا.

قال متعب الهذال بعصبية:

ـ الله يخزيهم.. ما نريدهم ولا نريد مساعدتهم.

التفت إليه الأمير وقال بسخرية:

ـ ولكن حنا نريد مساعدتهم، وأنت إذا كنت لا تريد فأرض الله واسعة.

ـ أي والله . . . أرض الله واسعة . . .

قال ابن الراشد في محاولة لتهدئة الموقف

ـ ولكن ماذا يريدون يا طويل العمر؟

قال الأمير بنفس السخرية:

ـ هم ما يريدون أي شيء، حنا طلبناهم وجاءوا لمساعدتنا.

ـ وأية مساعدة . . يا طويل العمر؟

هكذا، ببراءة، سأل ابن الراشد، فأجابه الأمير:

ـ تحت أرجلنا، يا ابن الراشد، بحار من النفط، بحار من الذهب، والخويا جاءوا ليخرجوا النفط والذهب.

تطلع ابن الراشد إلى الأمير وهز رأسه دلالة الدهشة والثقة، ثم تطلع إلى الرجال الآخرين ليرى وقع كلمات الأمير عليهم، قال بنفس البراءة مخاطباً الأمير

ـ وكيف عرفتم يا طويل العمر؟

رد الأمير بثقة وعصبية:

ـ من يدرينا لولا مساعدتهم؟ هم قالوا لنا: تحت هذه الأرض بحار من الخير، ولأنهم يحبون الخير، ولأنهم أصدقاء قالوا: الجماعة يستاهلون المساعدة وجاءوا.

ـ وهذا الذهب في وادي العيون يا طويل العمر؟

ـ في وادي العيون، هنا، وفي كل مكان من هذي الأرض المباركة، وصاحب الجلالة عندما انتزع هذي الأرض بحد السيف، وحارب الأعداء والكفار، كان يعرف من أجل أي شيء يحارب.

قال متعب الهذال ببرود وتحدٍ:

ـ حنا اللي حاربنا، بسيوفنا أخذنا هذي الأرض شبراً وراء شبر.

تضايق الأمير من هذا التعريض وبتلك اللهجة، قال متجاهلاً كلام متعب الهذال:

ـ بعد ما منّ الله علينا بالنعمة لازم نشكره، لا أن نخلق المشاكل، ونقول: فلاني وتركاني.

وتغيرت لهجته وتابع:

ـ أنتم كبار وأعقل أهل وادي العيون، وواجبكم أن تسهّلوا عمل الأصدقاء وتخدموهم بعيونكم.. وإن شاء الله ما تحل السنة الجديدة إلا والفلوس لآذانكم.

قال متعب ساخراً:

ـ والله، يا طويل العمر، قبل ما تجي هذه العفاريت كانت حالنا على أحسن حال، لكن من يوم ما حلوا بهذه الديرة أشوف الدنيا مثل بول البعير: كل يوم إلى الوراء.

رد الأمير بحدة:

ـ اسمع يا ابن هذال، وهذا الكلام لك ولغيرك، والحاضر يبلغ الغايب: أي واحد يخلق مشاكل ما له عندنا إلا دواء واحد: هذا.

وأشار إلى سيف كان معلقاً على الجدار، وهز بسبابته تهديداً في نفس الوقت وسأل من جديد:

ـ ما قولك يا ابن هذال؟

ضحك متعب الهذال ضحكة صغيرة، وكأنه يريد من خلالها أن يستمد قوة إضافية ترقد في أعماقه. ران صمت ثقيل على الغرفة، سأل الأمير بعصبية

ـ ها.. ما تقول يا ابن هذال؟

ـ أنتم الحكومة، عندكم العسكر والسلاح، واللي تريدونه يصير، ويجوز باكر، بعد ما يطلّع لكم النصارى الذهب من تحت القاع، تصيرون أقوى، لكن اعلم، يا طويل العمر، أن الأميركان ما يعملون شيء للّه.

كان يريد أن يتابع لكن الأمير قاطعه بعصبية:

ـ اتركنا من هذا الكلام وأجب عن سؤالي: فهمت ما قلته لك أم لا؟

رد متعب الهذال بحدة:

ـ اسمع يا أبو رضوان، أنا شيبة بعمر والدك، وصوتك لا تتركه يفلت، وما بيننا أصقى حتى تسمّعه، وإذا أردت تحمر عينك فما كل الناس تخاف العين الحمراء، وحنّاجينا نقول لك ما شافت عيوننا.

كان لهذه الكلمات تأثير قوي ولم يقتصر على الأمير والرجال الذين حوله، إذ امتد إلى ابن هذال نفسه، فشعر أنه قوي إلى درجة لا يخاف شيئاً أو أحداً، وأنه مستعد لقول كل ما يريد، مهما كلفه ذلك، وهذه الطريقة في الحديث تنقل عدواها بسرعة، وتترك نتائجها دون ما خطأ، إذ ما لبث أن تابع:

ـ . . . وديرتنا يا أبو رضوان صغيرة ونعرف بعضنا، الكريم حنّا مثله كرام واللئيم ما له عندنا إلا العصا؛ والكفار من يوم ما حلّوا بديرتنا، وقبلهم الثلاثة اللي جاءوا في الشتاء،ما شفنا إلا المصايب. . .

وتغيرت نبرة الصوت مرة أخرى:

ـ حنّا اليوم بآخر الربيع، العربان تركت البادية وطلايعها وصلت لوادي العيون، وما أظن أن في البيار ما يكفي البشر، فكيف تريدنا أن نترك الكفار يرفعون من البيار كل مطلع شمسماية حمل وحمل يرمونهافي الأرض ونسكت عليهم؟

ضحك الأمير في محاولة لأن يسيطر على الجو من جديد، وقال وهو يمسح أنفه:

ـ اسمع يا ابن هذال. . إذا كان ما يشغلك الماء فابشر، بدل البيار الثلاثة الموجودة نحفر لك ماية بير، وإذا ما كان بهذا المكان بمكان غيره، وفيك حيل وشيل، هذه مسألة بسيطة، لا تخف، وبعد اليوم ما أحد يعطش. وحنّا ما نريد أن يبقى وادي العيون مربط الإبل والدواب، الخويا يريدون أن يحفروا في الوادي، وعندها يأتيكم الخير.

قال ابن الراشد

ـ والله، يا طويل العمر، اللي يهمنا هو الماء.

قال متعب الهذال بحدة ليقطع الطريق على هذه الروح المستسملة:

ـ اسمع يا ابن الراشد، ما يهمنا الماء وغير الماء، وأنت تعرف: أنا بالظهرة، وحريمي ما ينزلن للعين، وكل ما عندي بسيتين صغيّر، يمكن أن أتركه وأمشي، الناس في الوادي يهمها الماء وغير الماء، يهمها العرض، الناموس، وما نريد أحد فوقنا، وما نريد هالكفار الخنازير صبح وعشية، واليوم بهذا الشكل، بعد كم يوم ما نعرف ويش يصير.

قال الأمير وقد أدرك نقاط القوة والضعف:

ـ يا جماعة الخير، الحكومة أعلم وأقدر منكم، ومثل ما قلت لكم: الأخلاق والدين حنّا أحرص منكم على الأخلاق والدين... والماء ابشروا.

قال متعب الهذال بيأس:

ـ القضية، يا طويل العمر، من أولها إلى تاليها، إننا ما نقدر نعيش معهم. لو كانت القضية يوم أو اثنين تهون، لكن أن نعيش جميع، ما نحتمل. وإذا كنا، حتى اليوم، ما حملنا سلاح في وجوه بعض لا أحد يدري باكر ويش يحصل.

قال الأمير بلهجة هجوم جديد:

ـ تركناك تقول كل اللي ببطنك يا ابن هذال، خلنا نسمع رأي الرجال.

قال ابن الراشد، وكأنه يستعيد درساً حفظه من قبل:

ـ حنا مع الحكومة، يا طويل العمر. اللي تختاره الحكومة فيه خيرة الله، ونوافق عليه.. فإذا كنتم ناويين تأمين الماء وحفر بيار جديدة وتوفرون للبدو والمسافرين والبساتين الماء، نسد عيوننا عن النصارى وما لنا شغل بهم ولا بينا شي.

قال سالم المكتوم:

ـ المسألة بسيطة يا طويل العمر، لما شفنا إنك بطيت علينا وما تريد القنص قلنا من كل بد نصل الأمير نسلم ونطمئن، وانت يا طويل العمر قلت ما يكفي وزود.

قال عبيّد السويلمي:

ـ إذا كان الذهب تحت وادي العيون فباطن الأرض خير من ظاهرها، وما علينا إلا أن ندعو لصاحب الجلالة بطول العمر.

رد متعب الهذال بسخرية:

ـ أي والله بـاطـن الأرض أخـيـر مـن ظـاهـرهـا، أهـل الـوادي لازم يختارون: الماء أو الذهب.

صمت لحظة ثم أضاف:

ـ والظاهر أن أهل الوادي يعرفون.. واختاروا الذهب.

ونتيجة كلمات السويلمي وابن هذال، وبهذه التورية الطريفة وقع ما يشبه الاتفاق الضمني! إن ما أراد الرجال أن ينقلوه للأمير قد قالوه، وإن كان بهذا الشكل الذي ترك مرارة لا تمحى من قلب متعب الهذال، وظل يتذكر هذه الحادثة ويسخر من الرجال والأمير حتى وقت متأخر، لأن ما اتفق عليه الرجال خالفوه تماماً.

قبل أن ينقضي ذلك اللقاء، وباستغلال الجو المرح الذي ولدته الكلمات الأخيرة، قال الأمير:

ـ الليلة عشاكم عندنا.

كانت هذه الكلمات إيذاناً بانتهاء المقابلة، ودعوة العشاء تعبيراً عن الرضى الذي أحس به الأمير، ولكي يزيل أية مرارة من نفس ابن هذال قال له بدعابة:

ـ وإذا كان عندك شيء جديد، يا ابن هذال، عن الخويا، فأجله إلى العشاء.

رد متعب بسخرية:

ـ اللي عندي، يا طويل العمر، ما يرضيك، لكن ما عندك وما عندهم يرضي ويزيد.. وهذا يكفي!

ـ عدت يا ابن هذال؟

ـ انت اللي طلبت مني العود، وإذا كنت ما تريدني أعود أريّحك فأرضى وترضى.

ـ أنا راضٍ، أريدك أنت أن ترضى.

ـ الرضا نسيناه، يا طويل العمر، كل ما نريده الستر والسلامة، وأظن أن الستر ضيعناه من يوم ما جاء الخويا، وما بقيت إلا السلامة، وانت تعرف إن الإنسان لا يدري متى يموت وفي أية أرض يموت.

ـ وكل الله يا رجل.

ـ وعليه توكلت وإليه أنيب.

كان من الممكن لهذه المناقشة أن تستمر وتطول ثم تتشعب، لكن والأمير يقف، ثم هذه العبارات التي تتردد دون معنى أو ضرورة، أغلب الأحيان، وضعت حداً، إذا استأذن الرجال وخرجوا.

كانت مشاعر الحرج والدهشة والفرح والانتظار تسيطر على الرجال إلا متعب الهذال، فقد أحس أن الدنيا تضيق حتى تكاد تطبق عليه، ورغم الضجة التي حوله كان الصمت يملؤه والفراغ يحيط به من كل جانب. ولأول مرة في حياته يشعر أنه وحيد، أنه ذرة من الرمل لا تعني شيئاً، ولا يعني أحداً. أما الكلمات التي قالها فهي بمقدارما أغضبت الآخرين، خاصة الأمير، فإنها تغضبه وتجعله يحس بالتفاهة واللاجدوى. كان يود أن يتكلم مثلما تعود دائماً. أن يصرخ، أن يقول كل ما يدور في عقله. فجأة أصابه الخوف ثم الخرس. ما قاله لا يعني شيئاً مهماً، مجرد أصوات عمياء. لو لم يكن كذلك لما اندفع المكتوم والسويلمي والآخرون لأن يتكلموا مع الأمير بتلك الطريقة. لماذا جاء معهم؟ وماذا يربطه بهم الآن؟ الذهب؟ إنه لا يريد مثقالاً واحداً من الذهب. وهؤلاء الكفرة هل يمكن أن يعطوا الذهب دون مقابل؟ وإذا كان لا بد من دفع المقابل... فماذا يكون؟

عبرت في رأسه هذه الأفكار والتساؤلات والمشاعر، وعبرت أخرى غيرها، وإذا كان الرجال الذين معه قد شعروا بالحرج وفضلوا الصمت أو الأحاديث الجانبية العابرة، فإنه لم يكن يرى أياً منهم أو يسمع كلمة من كلماتهم. كان بعيداً مشغولاً، وكان ضائعاً متعباً، أما حين اقترح ابن الراشد أن يذهبوا إلى السوق، أن يزوروا بعض الأصدقاء، فقد رد متعب بعصبية، وكأنه يواصل حديثاً:

ـ . . . لا أريدكم ولا أروح معكم. . . وهالحين اركب ناقتي وامشي لوادي العيون.

ولم يأبه لنظرات الرجال وإلحاحهم عليه أن يبقى، لأن سفره المفاجئ وعدم تلبية دعوة العشاء سيتركان مرارة وغيظاً في نفس الأمير. وإذا كانت الأمور قد سارت بسلام حتى الآن، وانتهى اللقاء بأن خرج الجميع راضين أو متظاهرين بالرضا، فإن غياب متعب الهذال بهذا الشكل، دون اعتذار أو تفسير، سيعقّد الموقف من جديد، لكن متعب الهذال لم يكن مستعداً للمناقشة، إذ ركب ناقته العمانية البيضاء، وانطلق دون أن يلتفت، دون أن يسمع نداءات الرجال. . . أو كلماتهم.

أية أحزان استبدت بمعتب الهذال في الصحراء الملعونة خلال يومين وليلتين حين كان عائداً إلى وادي العيون؟ أية لحظات أسى سيطرت عليه وربما دفعته إلى الغناء أو البكاء؟ لا أحد يدري، لأن متعب الهذال حمل سره معه ورحل. لم يتكلم عن ذلك لإنسان، ولم يطلع أحداً على أفكاره، حتى بعد أن عاد إلى وادي العيون. لقد استبدت به حالة من الصمت أقرب إلى الذهول. وبمقدار البراعة التي كان يتميز بها حين كان يتكلم من قبل، فإنه أصبح أكثر قدرة وبراعة على الصمت! كان الرجال حوله يتكلمون ويسألونه أو يتساءلون، لكنه في غياب كامل عن الأصوات والحركات، لا يسمع ولا يجيب. حتى التعابير التي يمكن أن يلمسها الإنسان في وجوه الآخرين، مهما حاولوا إخفاءها، أو كانوا لا يفهمون ما يقال لهم، غابت تماماً عن وجه متعب الهذال. كان حجراً أو أقرب إلى الحجر: وجه شاحب، متخشب، جامد الملامح، ولولا رفة العينين، تظهر بين فترة وأخرى، لظن من ينظر إلى وجه ابن هذال أن وجه ميت يرى. أما محاولات الناس، بمن فيهم وضحة، في حمله على الكلام، فقد كانت تنتهي إلى الفشل الكامل. وكان إذا ضاق بكلام الذين حوله، وهذا ما تكرر كثيراً بعد عودته، بعد لقاء الأمير، ينسحب بهدوء، ويتصرف كما لو كان وحيداً، إذ يذهب إلى مكان منعزل أو يذهب لكي ينام.

كان وادي العيون ينتظر عودة الرجال ليعرف ماذا جرى، أما الآن، وبعد أن عاد متعب الهذال وحيداً، ثم موقف الصمت التام الذي اتخذه، فقد ترسب في أعماق كل إنسان في الوادي شعور حاد بالمرارة ثم الخوف. وإذا كان الناس تجاه المصائب التي يتوقعون، ينتظرون بارقة

أمل، ويتشبثون بها، حتى لو كانت كاذبة واهية، ولا تقوى على منع وقوع تلك المصائب، فإن وجه ابن هذال بدّد كل أمل، وقضى على كل بارقة. حتى فكرة انتظار الرجال الآخرين التي راودت أذهان بعض الناس، ما لبثت أن انهارت وتلاشت، وسيطرت بدلاً عنها حالة من الحزن أقرب إلى اليأس: «ماذا يمكن أن تضيف كلمات ابن هذال لو تكلم؟ إن وجهه وعينيه أقوى من الكلمات وأقسى منها» «إذا تكلم سوف تكون كلماته قاتلة، لقد رأى أشياء كثيرة في هذه الحياة، ولا بد أن تقتله علته». «ولو تكلم الرجال بغير ما تكلمت عينا ابن هذال فلا بد أن يكونوا كاذبين، ومتعب الهذال لا يكذب، لأنه لا يعرف الخوف... وهم يخافون».

بعد أن عاد متعب الهذال، وبعد ذلك الغرق المهول في الصمت، شعر كل من في الوادي أن نهاية ملعونة مدمرة تتربص بالجميع، وتنتظرهم كل لحظة. ومثل هذه النهاية يقف الإنسان تجاهها عاجزاً منتظراً، حتى الحزن الذي يبدو متدفقاً كثيفاً في بعض اللحظات، يعجز عنه الإنسان في لحظات أخرى، بل ويتمناه، لأن يأساً مروعاً متشبثاً يربض على الحواس فيشلها، ويجعل الحركة ميتة والزمن عذاباً.

قالت وضحة، وهي ترمي الدثار السميك فوقه، رغم الحر الذي أخذ يملأ ذرات الهواء:

- إذا مرت هذه الحمى دون أن تقتله يمكن أن يعيش ويبلغ المائة.

وهزت رأسها دلالة الشك والخوف.

وحين سألها هديب، وحين سألها أولادها، عما جرى، هزت كتفيها دلالة أنها لا تعرف شيئاً، وإنها لا تهتم بما يجري، وبعد فترة صمت قالت كأنها تخاطب نفسها:

- من يوم ما جاء أولاد الحرام الثلاثة دخله عفريت، وبدل أن يخرج العفريت من رأسه حضنه كما تحضن الدجاجة البيض، والآن الحمى تقتله، وهذي هي حمى العفاريت.

لم يفهم أحد بوضوح ما قالته وضحة ولم يجرؤ أحد على معاودة السؤال. كانت عصبية شديدة الهم، تركض من مكان لآخر، وعلامات

الخوف ظاهرة على حركاتها وتصرفاتها. أما الإجابة التي كانت ترددها لكل من يسألها عن حال أبو ثويني، فقد بدت لفرط ما كررتها تثير الفزع، كانت تردد:

ـ الرجل خلص... راح، إلا إذا كان رب العالمين يريد يسويه مثل أيوب.

حين عاد الرجال، بعد خمسة أيام، كان اللغط يعمّ وادي العيون، وكانت الحمى تفتك بمتعب الهذال، ولم يكن أحد من الناس الذين اجتمعوا في مضافة ابن الراشد مستعداً لتصديق أية كلمة من الكلمات الكثيرة التي قيلت. تبددت كلمات الغنى والذهب كما يتبدد الدخان في الهواء، وارتفعت راية سوداء مثل سؤال كبير: «إذن.. جاء هؤلاء ليبقوا؟!» وتحولت حركات ابن المكتوم والسويلمي وابن الراشد إلى حركات عمياء وكلمات كاذبة «الذهب؟ من أين لهذه الأرض الذهب إذا لم يشتغل الناس ولم يركضوا من مكان لآخر؟ النفط؟ ما يأتينا يكفينا لنوقد هذه الفوانيس التي تخنق برائحتها أكثر مما تضيء».

تذوي التفاصيل، تتراجع ثم تغيب. وحتى تلك التي لا تزال عالقة بالذاكرة، ربما ولدتها الرغبة أو ولدها الخيال الجامح، لأن أية محاولة لاستعادة صور الأشياء، والأماكن والملامح تصطدم بالنسيان الذي يتمدد كالهواء الساخن، يجعل كل ما جرى أقرب إلى الحلم.

إنها مأساة من نوع خاص، تشبه حالة فقدان الذاكرة ثم استعادتها في وقت متأخر، فتظهر فوضى الأشياء وتداخلها ولعنتها أيضاً. ومع ذلك، وإذا كانت حياة متعب الهذال تهم أحداً، وإذا كان وادي العيون قد وجد في وقت من الأوقات ثم تلاشى تحت وطأة الزمن الآخر، فإن اللحظات الأخيرة هي وحدها الباقية، وقد تكون وحدها التي وقعت فعلاً.

ففي أواخر تلك الليلة، من ليالي الصيف المتأخر أو بداية الخريف، وعلى غير انتظار، سمع دوي مجنون يملأ الوادي، كان دوياً يشبه الرعد البعيد، أو يشبه سقوط أعداد كبيرة وهائلة من قرب الماء الممتلئة على أرض سبخة، فيرتج الهواء وتصطخب الآذان حتى يصعب تمييز الصوت أو مكانه. وإذا كان متعب الهذال قد قرر أن يبقى في الظهرة طوال الفترة التي امتدت بين عودته وأواخر الصيف، رافضاً بإصرار لا يقاوم كل المحاولات التي جرت لحمله على النزول إلى الوادي، بعد هذا الرفض والعزلة، ونتيجة مرضٍ لم يفارقه يوماً واحداً، حصل ما يشبه الاتفاق الضمني: أن يُنسى الرجلَ، أن يعتبر ميتاً أو كأنه لم يعد موجوداً، ولذلك عاد الوادي إلى حياته السابقة. صحيح أن بعض الصعوبات قد نشأت في ذلك الصيف، لكن أمكن التغلب عليها، وبدا أن هذه المجموعة التي جاءت

تبحث عن النفط، وبعد أن انتهت من إعداد متطلبات المرحلة الأولى، قررت البدء.

ليس مهماً كيف كانت البداية، لأن الدوي الذي ملأ تلك الليلة، أواخرالصيف، يعتبر البداية الأكثر رسوخاً في الذاكرة، هي وحدها التي حملت متعب الهذال على أن يكسر أطواق العزلة وينزل إلى الوادي.

قد تكون هناك تفاصيل كثيرة من نوع أو آخر سبقت هذه البداية، وقد تعتبر ذات أهمية خاصة، لكن لم تكن كذلك لمتعب الهذال. فالمحاولات العديدة، والتي تدخّل فيها أقرباء ومعارف كثيرون، في أن يبيع البستان الصغير الذي يملكه في وادي العيون، وبمبلغ بدا كبيراً في ذلك الوقت، هذه المحاولات باءت بالفشل.

كل ما كان يقوى عليه متعب الهذال هو أن يهز رأسه دلالة الرفض، وفي الحالات التي لجأ فيها بعض الأقرباء إلى الضغط عليه كان يضحك بسخرية ويغادر المجلس. أما ما نقل عن لسان الأمير أن ابن هذال يبيع رضي أم لم يرض، فقد قابلها بهزات رأس دلالة أن ننتظر ونرى. ولذلك فإن الدويّ الذي سمعه في تلك الليلة ولد في نفسه انفعالات كثيرة، إذ لا بد أن يكون قد فكر وحلم بحدوث انفجار في المعسكر قضى على كل شيء، وقد يكون تصور أن أمراً خطيراً قد حدث في تلك الساعة، ونتيجة لذلك كان الدوي ولا بد أن يراه بنفسه، وقد تكون هناك تصورات أخرى خطرت في باله، وإلا كيف يفسر ذلك الحماس الذي دفعه لأن ينسى عزلته وينزل إلى الوادي؟

مع أضواء الفجر الأولى كانت كائنات حديدية ضخمة تتحرك. كان دويها يصم الآذان ويملأ الصحراء كلها. كانت هذه الكائنات غريبة الشكل كبيرة الحجم إلى درجة أن أحداً لم يتصور وجود مثل هذه الأشياء. أما الأضواء التي كانت تنبعث منها فإنها تشبه النيازك. كانت تتحرك في رتل سالكة نفس الطريق التي كانت تسلكها القوافل، وخلال وقت قصير، والدوي يزداد ويقترب، وصلت هذه الكائنات إلى الوادي.

لا يمكن لأحد أن يصف اللحظات التي وصلت فيها هذه الآلات، كما

لا يُعرف أبداً الشعور الذي سيطر عل الناس وهم يراقبون هذه الكتل الصفراء الضخمة تتحرك وتدويّ ثم تتوقف عند حدود المعسكر. ليس بمقدور أحد أن يصف أو يحدد. ومتعب الهذال الذي وصل الوادي بخفة قط، والذي راقب كل شيء بانتباه، وظل على مسافة من هذه المخلوقات العجيبة، لا يقترب منها خوف أن تفعل شيئاً لا يمكن مقاومته أو التغلب على شروره، أحس في أعماقه، حين توقف الدوي، إن الدنيا انتهت.

إذ ما كادت الآلات تتوقف وتنفتح منها كوى ومصاريع، ويخرج رجال معفرون، وينظرون إلى ما حولهم، حتى خيم الذهول والصمت: أين كان هؤلاء الرجال؟ كيف استطاعوا الدخول إلى هذه الآلات والخروج منها؟ وهل هم رجال حقيقيون أو عفاريت؟ ولماذا كانوا هناك وماذا سيفعلون؟ وهذه الكتل الحديدية الصفراء هل يمكن لإنسان أن يقترب منها ويظل سالماً؟ وماذا تفعل وكيف تتصرف وهل تأكل مثل الحيوانات أم لا تأكل أبداً؟

كان الصبية أسرع من غيرهم في الاقتراب من الآلات، ثم لم يترددوا في أن يضعوا أصابعهم فأيديهم كلها عليها، . مدوا، أول الأمر، أصابع خائفة، بهدف لمسها، وحين أحسوا بقسوة الحديد مدوا أيديهم، ثم لم يترددوا في أن يدقوا دقاً خفيفاً، وكأنهم يدقون أبواباً لا بد أن تنفتح، حتى إذا اطمأنوا قليلاً بدأوا يدورون حولها ويتحسسونها في أماكن عديدة بالأيدي أو بعصيّ صغيرة، وتجرأ أحد الصبية وقذفها بحجر، والرجال الذين كانوا يراقبون الأطفال بعصبية في البداية، خوف أن يقع لهم مكروه نتيجة هذا العبث، لم يلبثوا أن أصبحوا راغبين في أن يفعل الصبية ما يفعلون، لأن ذلك قد يمكنهم من معرفة الغاية التي جاءت من أجلها هذه الآلات وماذا ستفعل.

إنها لحظات من المراقبة الدقيقة الحادة، تخللتها المخاوف والدهشة. أما حين خرج بعض العاملين في المعسكر، مع أولئك الذين كانوا داخل هذه الآلات، ليلقوا نظرة، فقد تراجع رجال وادي العيون والصبية بضع خطوات، ووقفوا منتظرين خائفين، وبطريقة مليئة بالزهو والثقة كان الرجال

الجدد يدورون حول الآلات، ويفتحون مصاريعها ويرفعون أغطيتها، والآخرون ينظرون باهتمام.

في إحدى اللحظات قفز واحد من الرجال ودخل في الآلة، وخلال لحظة خاطفة انطلق الهدير، ثم بدأت الحركة. كانت تلك الآلة تدور بطريقة شيطانية، كانت ترتفع وتنخفض وتهدر وتئز، وأهل وادي العيون الذين ابتعدوا مسافة كبيرة، كانوا ينظرون بعيون خائفة مدهوشة، وقد عقد الصمت ألسنتهم، ولا يعرفون متى تنفتح أبواب الجحيم وتبتلع كل ما هو فوق الأرض.

ولأول مرة، منذ شهور طويلة، يسمع أهل الوادي من جديد صوت متعب الهذال:

ـ وصلت العفاريت ولازم نضربها، وإذا بقينا مثل الخشب راح تاكلنا وما تخلي منا أثر.

ربما كان يريد أن يتكلم أكثر من ذلك أو غير ذلك، لكن الصمت الذي خيم، بعد أن توقفت الآلات، والنظرات المتسائلة الخائفة التي انصبت عليه من الذين حوله، جعلته يشعر باللاجدوى. لا أحد يفهمه، لا أحد يقف إلى جانبه، ولن تجدي أية كلمات يمكن أن يقولها. وبطريقة عصبية، عبرت عنها هزات رأسه اليائسة المعذبة، تراجع إلى الوراء، وكأنه شعر بالندم، لأن هذه الكلمات أفلتت منه دون إرادة، وحين أمسك به بعض من كان حوله، وطلب منه أن يفسر طبيعة هذه المخلوقات العجيبة، وماذا ستفعل، نحّى الأيدي بخشونة، وكأنه لا يطيق أن تمسه يد أو أن يسمع كلمة. والرجال الذين تعوّدوا أن يكون متعب الهذال على هذه الصورة، لم يستغربوا تصرفاته، ولم يتوقعوا شيئاً هاماً يمكن أن يقوله لهم، لذلك انصرفوا عنه، وانطلق هو إلى رابية قريبة وجلس. كان في موقعه القريب البعيد، وبجلسته المتوترة، يرقب كل شيء ويفكر، وكأنه يشهد نهاية حقبة طويلة من الحياة والزمن.

إنها نهاية عالم، أو ربما نهاية مرحلة من المراحل الطويلة التي سيطرت على الحياة في هذه الصحراء البعيدة المنسية. لم يقل هذا أحد

بصراحة سوى متعب الهذال، أما الآخرون، في وادي العيون وما حوله، فقد أحسوا بذلك وإن لم يعبروا بكلمات أو أفكار. كانت تتملكهم مشاعر الضغينة والنزق والخوف، وكانوا ينظرون حولهم بتساؤل، لكنهم لم يدركوا ولم يقدروا بوضوح أي شيء يمكن أن يحدث، أو ربما كانوا يأملون أن يقع في اللحظة الأخيرة أمر قد يغيّر كل ما يدبّر ويخطط فتعود الأمور إلى ما كانت عليه في الوادي وينتهي هذا الحلم القاسي الطويل.

رغم مرور الساعات الطويلة، والناس ينتظرون، فإن الأميركيين ظلوا قابعين داخل المعسكر في حالة من الصمت والتحفز. كان يتخلل هذه الساعات خروج مجموعة من خيمة لأخرى، أن ترتفع النداءات وبعض الأحيان ترتفع أغانٍ أو أصوات مترنحة، لكن هذا لا يدوم طويلاً، ويغرق المعسكر مرة أخرى في الصمت. والناس حول المعسكر اقتعدوا الأرض في جماعات صغيرة، تحت ظلال النخيل والتين، وكأنهم ينتظرون شيئاً ما. كان كل واحد على يقين راسخ أن أمراً ما لا بد أن يقع، وهذا التيقن دفع بالكثيرين لأن يرسلوا أولادهم لإحضار بعض الأكل، وتحمس بعضهم لأن يعد القهوة في الهواء، بعيداً عن المضارب والبيوت، لأن الرغبة بالمتابعة وعدم ترك أي أمر يحدث دون أن يكون الإنسان موجوداً، سيفوّت فرصة لا يمكن أن تتكرر.

ومتعب الهذال الذي ظل على الرابية البعيدة المطلة، يراقب ويفكر، لم يستجب للنداءات في أن ينزل ويأكل، أو ليشارك في قهوة الصباح ثم قهوة قبل الظهر، فقد ظل صامتاً مهموماً، وظلت حواسه مستفزة مليئة بالانتظار، وكان أكثر الجميع توقعاً. أما حين أرسلت إليه بضع حبات من التين والتمر ورغيف من الخبز، فقد وضعها جانباً، إذ لم يكن جائعاً أو راغباً في الأكل، لكن هاجساً ما دفعه لعدم رفضها، لأن الانتظار قد يطول، ولا يريد أن يترك المكان.

إنها إحدى المرات النادرة التي تسيطر فيها تلك الحالة على جميع الناس في الوادي وما حوله، لأن هؤلاء العفاريت، منذ أن وصلوا، قبل بضعة شهور، يزدادون غموضاً، وتصبح معرفة نواياهم أكثر صعوبة. إنهم

طوال ساعات النهار داخل الخيام، خاصة الخيمة الكبيرة في الوسط، ثم في البيوت الخشبية التي بنيت بإتقان، يكتبون ويرسمون، في جو من الخفاء يغلف حياتهم كلها. وأهل الوادي الذين تميزوا منذ وقت طويل بالفراسة ومعرفة الحاجات والبشر، خاصة وأنهم تعودوا على ذلك من المراهنات الكثيرة التي كانوا يجرونها فيما بينهم لمعرفة ما يحمله المسافرون، وما تحمله القوافل، فإنهم تجاه هؤلاء الشياطين كانوا حائرين، وخافوا من أية تحديات أو مراهنات فيما بينهم، كل ما عرفوه أن الأميركيين سوف يخرجون النفط والذهب من الأرض، أما كيف سيفعلون ذلك، فلم يكن أحد قادراًعلى معرفة أو تحديد أي شيء. وفي المرات التي حاول ابن الراشد، مستغلاً علاقاته مع «الغراب» ثم مع المترجم، لم يظفر بأكثر من إجابات عامة. وحين حاول أن يزيد الأمور وضوحاً بمعلومات من عنده، لم يستطع اختراع سوى كلمات أضافت غموضاً على الغموض الذي كان يغرق فيه.

والآن، وبعد أن وصلت مجموعة من هذه الآلات الجهنمية الصفراء، فقد توقع الجميع أن نهاية ما أصبحت وشيكة، وكل واحد يريد رؤية هذه النهاية بنفسه، وأن يعرف كل التفاصيل، حتى أصغرها وأكثرها خفاء.

الساعات تمر طويلة ثقيلة، وساعات بعد ظهر هذا اليوم تبدو أطول وأثقل ساعات تمر على الوادي، منذ أن وجد الوادي، ومنذ أن وجدت تلك الأعمال الصغيرة التي تشغل الناس. وحتى العادات التي تعودها بعض الرجال، كأن يشرفوا على عقل الجمال، أو أن يعدوا القهوة بأنفسهم، لكي تطيب وتكون بالمذاق الذي يشتهون، حتى هذه العادات ما لبثت أن تراجعت وتأجلت، دون شعور بالضيق، وكُلف الشبان الصغار بالأعمال التي لم يتعودوا القيام بها، فأقبل عليها هؤلاء بحماس كبير.

كان الرجال ينتظرون حدوث شيء ما خلال النهار، لكن معظم الساعات انقضت والحياة عادية رتيبة، وكأن هذا اليوم سينقضي كغيره دون مفاجآت، أما والشمس تنزلق نحو المغيب، فقد أقبلت الدواب وملأت الوادي بأصواتها وضجيجها، وجاء الرعاة والبدو الذي يرِدُون الماء في هذا

الوقت، وبالحركات المليئة بالمبالغة والصخب، خلقوا دوياً إضافياً ملأ الوادي كله، ثم جاء الأميركيون وأضافوا إلى ذلك الضجيج دوي الآلات التي جلبوها معهم منذ البداية، والتي تولّد النور والصخب والخوف في نفوس الكثيرين، فأصبح الوادي عند ذاك أقرب ما يكون إلى عواء ذئاب ضالة أو إلى صرخات بنات آوى الجائعة الخارجة في أول المساء باحثة عن شيء تأكله أو عن إلف تستأنس به.

هكذا كان الوادي في تلك الساعة أول المساء. ورغم أن شيئاً من الملل أو ما يشبه الحزن قد سيطر على معظم الرجال، وظنوا ليلة أخرى قاسية ملولة سوف تنقضي كما انقضت الليالي منذ ثلاثة شهور أو أكثر، فقد خرج فجأة، وعلى شكل موكب أو تجمع كبير معظم الذين كانوا في المعسكر. كان «الغراب» يقود هذا الجمع، وبد أن حديثاً طويلاً قد جرى من قبل، إذ ما كادوا يتركون باب المعسكر حتى أشار «الغراب» بيده أول الأمر ناحية اليسار، ثم ناحية اليمين، مع كلمات كثيرة والتفات نحو هذه الناحية ثم نحو تلك، وحين بدا الأميركيون بالحركة ثم بالمسير انخضّ الوادي كله، وتولدت ضجة تشبه الصخب، لأن الأطفال والصبية الذين كانوا يراقبون، والذين كانوا يوردون الدواب ويساعدون في السقاية، ما لبثوا أن صرخوا وتحركوا بشكل أقرب إلى الفوضى. أما الرجال الذين بدوا أكثر اتزاناً واستقراراً فقد التفتوا، ثم تحركوا مبتعدين قليلاً عن طريق الأميركيين، فلما شق هؤلاء طريقهم، متوقفين أول الأمر عند العين والآبار، ثم سائرين في الوادي، تابعهم الرجال بأعينهم، ثم تحركوا ببطء وراءهم. أما متعب الهذال فقد انتفض منذ اللحظة التي غادر فيها الأميركيون المعسكر. وقف على الرابية مثل ذئب متحفز، حتى إذا تحركوا تحرك بموازاتهم، محتفظاً بنفس المسافة والسرعة، لكن كانت عيناه ترقبان كل حركة، وأذناه تلتقطان كل صوت، وبدا شديد الاهتمام دقيق الملاحظة، وراغباً في معرفة كل شيء. أخذ يفسر كل حركة وكل إشارة، أما حين تكلم «الغراب» مشيراً إلى كثبان الرمل والساقية والأشجار، فكان شعور الحقد يتزايد ويقوى في قلب ابن هذال، إلى درجة أن حركته بدت

عصبية، واعترى وجهه الشحوب. أما الكلمات التي كان يرددها فقد فهم بعض الصبية القليل منها، ونقلوا أنهم سمعوه يقول «يا أولاد الزواني يا أحجار القراني، سأنتقم منكم قبل أن ينتقم الواحد القهّار» وقالوا أيضاً أنه شتم الحكومة والسلطان والأمير وكل الذين يساعدون الكفار.

لم يترك متعب الهذال حركة دون أن يراقبها باهتمام، إذ ظل يمشي ويقف ويشتم وينظر إلى كل شيء، كما لو أنه لن يرى المكان مرة أخرى، ورغم أن أحداً من الأميركيين لم يلتفت إليه، إلا أنه جفل أكثر من مرة حين كان يشار باتجاهه، إذ ظن في البداية أنهم يقصدونه، لكن تأكد في وقت لاحق أنهم يقصدون الأرض التي يمشي عليها، وأنه لا يعدو أن يكون علامة من العلامات في هذا المدى الفسيح!

ولولا أن «الغراب» تقدم باتجاهه، لكن دون أن يلتفت إليه أو يهتم بوجوده، ويضع برجله علامة على التراب، ثم يبدأ يقيس المسافة حتى منتصف الوادي، لولا هذه الحركة لظن متعب الهذال أنهم يعنونه بالإشارة، وكاد أن يتصرف بحمق، إذ ماذا يريدون منه ما دام يسير بعيداً عنهم بعشر خطوات أو تزيد قليلاً؟ أليس من حقه أن يذهب إلى بستانه في النصف الأخير في الوادي ويجلس هناك ويغني ويفكر ويشتم كما يريد؟ إن من حقه أن يفعل ما دام لا يؤذي أحداً، أو لم يفعل ذلك طوال السنين الماضية؟

هكذا فكر ابن هذال وهو يرى «الغراب» يتحرك بحماس ويشير بيديه ويعلو صوته، والآخرون الذين كانوا يرافقونه أبدوا من الأسئلة والملاحظات الكثير، وقد ولّد هذا خوفاً حقيقياً لديه، وظن أن ليلته تلك لن تمر على خير، ولا يعرف لماذا قرر أن يرجع قبل الأميركيين إلى عين الماء. هبط إلى العين مسرعاً، شمر عن ساعديه، وغرف بيديه الاثنتين غمراً كبيراً وسفحه على وجهه، تنشق الماء وتركه يسقط على لحيته، ثم أخذ غمراً ثانياً وشرب، وبعصبية انتزع سترته ودلّى رأسه في الماء، هزه عدة مرات وظلت عيناه مفتوحتين. شعر بالبرودة واللذة والخوف، ظل كذلك وقتاً، حتى إذا أحس أن أنفاسه تتكاثف في صدره وتثقل عليه رفع رأسه، ترك قطرات الماء تتساقط بغزارة ثم تتراجع شيئاً فشيئاً بعد ذلك،

وأخيراً وبجماع كفه ملأ راحته وشرب، وبهدوء، وكأنه وحده في هذا العالم، اتجه إلى الرابية، اتخذ مكاناً عالياً مطلاً على الماء مباشرة. ربما اعتبر أن الوادي لا يعني شيئاً لو أن الماء توقف، وربما اعتبر أن بستانه والأرض التي قبله ثم التي تليه إلى آخر الوادي لا تعني شيئاً خاصاً إذا أراد الأميركيون أن يوقفوا الماء، بل وفكر أيضاً أن الأرض في الوادي كله متساوية إلى درجة لا يمكن أن يعتبر أرضه ذات قيمة أو أهمية مختلفة عن الأراضي الأخرى في الوادي. لو أنه فكر بشكل مختلف لظل في البستان، ولنام تحت شجرة من أشجار النخيل. ولو أنه أراد أن يدافع عن بستانه وأشجاره وحدها لما اختار هذا المكان المكشوف حيث يراه الجميع. أن شيئاً ما دفعه لاختيار هذا المكان، وحين رجع الأميركيون، وظهرت وجوههم وظلالهم تحت الأنوار القوية، كان قد سهل الأرض عند تلك الرابية، وقرر أن يبقى ساهراً منتظراً حدوث تلك المعجزة التي طالما انتظرها!

بعد الفجر بقليل، حين كانت أضواء النهار تتمدد وتنفصل عن الظلمة ثم تنفرد بهدوء فوق الأشياء، كان الوادي لا يزال يلتف بغلالة خفيفة تركها الليل والرطوبة المتسربة من الهواء والأشجار ومياه العين، ومن أنفاس الناس الذين كانوا ينتفضون بهدوء تلك الساعة ليبدأوا يوماً آخر. كان متعب الهذال، بعينيه الواسعتين الحزينتين، واللتين لم تغمضا لحظة واحدة، يرقب وينصت ويفكر ويتابع حركة الحياة في ولادتها الجديدة، في ذلك اليوم الخريفي البعيد. كانت الأشياء والأماكن والحياة، حتى تلك اللحظة، تتململ في الصمت الحزين الهادئ، وكأنها ستبقى هكذا إلى الأبد، لكن صرخة قوية انفجرت في المعسكر، وبانفجارها غير المتوقع، والذي ولّد تحفزاً لدى متعب الهذال، بدأت الحياة تتغير، وما هي إلا لحظات قليلة حتى هب الأميركان، وبعد وقت لم يطل خرجوا.

كان خروجهم خروج الشياطين، ففي لمح البصر توجهوا إلى الآلات بتلك العصبية وذلك الاندفاع إنذاراً أخيراً أن كل شيء قد انتهى. لم يقل أحد ذلك لمتعب الهذال، لكن إحساساً قوياً طغى عليه وملأه تماماً. إذ رغم أنه لم يعرف ماذا سيحصل، إلا أن تلك الحركة الموزونة الحافلة جعلته يحس ذلك، نهض على مهله، تنشق هواء الوادي برئتيه وجسده كله. نظر إلى كل ما حوله وكأنه يودع الأماكن والأشياء. رأى سرباً من طيور القطا يحوم. نظر إلى الرجال في المعسكر، امتلأ إحساساً قوياً بالنهاية، وما كادت تلك الآلات المجنونة تبدأ حتى صرخ صرخة حادة موجعة:

ـ حسافا.. حسافا... يا وادي العيون!

كانت تلك الحركة إيذاناً حقيقياً ملعوناً حافلاً بالنهاية، وإذا كان هناك أحد يتذكر تلك الأيام البعيدة، الأيام التي كان يوجد خلالها مكان يسمى وادي العيون، ورجل يدعى متعب الهذال، وعين من الماء وأشجار، وبشر من طبيعة معينة... إذا كان لا يزال هناك من يتذكر، فإن أقوى ثلاث ذكريات لا تزال تخبط القلب كلما عاد الإنسان إلى تلك الأيام وتذكر: التراكتورات وهي تهجم مثل ذئاب جائعة على الأشجار وتبدأ تمزقها وترميها أرضاً الواحدة بعد الأخرى، ثم بعد ذلك تسوي بين شجرة وثانية، بين الساقية والأرض التي حولها، حتى إذا انتهت من مجموعة من الأشجار هجمت بنفس الضراوة والوحشية على مجموعة جديدة وبدأت تقتلعها. كانت الأشجار وهي تميل وتترنح، قبل أن تسقط، تصرخ، تستغيث، تولول، تجن، تنادي نداءً أخيراً موجعاً، حتى إذا اقتربت من الأرض هوت بتضرع، وكأنها تحتج أو تريد أن تلتحم بالتراب من جديد، في محاولة لأن تنبثق، لأن تتفجر مرة أخرى.

هكذا بدأت مجزرة وادي العيون، وهكذا استمرت حتى أتت على كل شيء؛ ومتعب الهذال الذي شهد بداية المجزرة لم يشهد نهايتها، لأن الرجال الذين وصلوا على صوت الآلات المجنونة، ووقفوا يرقبون ما يجري أمامهم، وبعد أن أفاقوا من الذهول الذي سيطر عليهم خلال الفترة الأولى، والتفتوا ورأوا ابن هذال، قال هؤلاء الرجال أشياء كثيرة شديدة الحزن. قالوا إنهم لأول مرة في حياتهم يشهدون رجلاً مثل متعب الهذال يبكي. كانت دموعه تتساقط بغزارة، لكن بصمت أيضاً. كان صامتاً تماماً. لم يفه بكلمة واحدة. لم يشتم. لم تخرج من حنجرته أية آه أو نأمة، فقط كانت دموعه تنهمر، ولم يكن خجولاً أو خائفاً، ولم يكن فخوراً أيضاً. كان ينظر من خلال الدموع إلى الوادي كله، كان ينظر بصمت ويهز رأسه.

في وقت ما، ولم يعرف ذلك الوقت أبداً، والرجال يتابعون ويتحركون، والآباء ينادون على أبنائهم لكي يجمعوا الحطب معهم، لكي يساعدوهم، انسحب، بهدوء، متعب الهذال، ترك الرابية باتجاه الظهرة. وخلال فترة قصيرة، رغم توسلات وضحة التي هوت على قدميه تقبلهما،

ورغم محاولات الأقرباء، كان قد اتخذ قراراً. أخذ يعمل بهدوء، حضر كل ما يحتاجه، دون أن يلتفت إلى أحد، دون أن يسمع كلمة واحدة من الكلمات الكثيرة التي كانت تقال. كانت في عينيه بقايا دموع، لكنه لم يبك، أما حين انتهى من تهيئة كل شيء فلم ينس التقاط بندقيته وقربة الماء، وحين اعتلى ظهر ناقته العمانية، نظر إلى الجميع، نقّل نظراته من وجه لآخر، وبدا أنه يتمعن، كأنه لا يريد أن ينسى، حتى إذا نظر إلى كل الوجوه لكز ناقته فاهتزت اهتزازاً قوياً وهي تنهض، وبدا متعب الهذال وهو يرتفع مثل خيمة كبيرة، ثم بدا مثل غيمة، أما حين بدأ حركته السريعة فقد أصبح مثل طير أبيض... وبدأ يبتعد ويبتعد حتى تلاشى... واختفى!

لم يره إلا القليلون وهو يرحل. كان الناس في الوادي مشغولين خائفين وهم يراقبون تلك الآلات المجنونة تقتلع الأشجار وتدك الأرض وتقلب كل ما فوقها، ولما تعبوا من المراقبة، ورأوا كل شيء بعيونهم يتهدم وينتهي، تلفتوا، نظر بعضهم في وجوه بعض مستغربين، أما عندما سألوا عن متعب الهذال فقد وُجد من قال إنه رحل. بدت الكلمة غريبة، غير مألوفة، بل ومعادية أيضاً: «متعب الهذال يرحل؟ كيف يرحل ويترك الوادي... وإلى أين يمكن أن يرحل؟».

بدا كل شيء غير قابل للتصديق. قال أحد الرجال:

- متعب لا يترك الوادي، متعب يموت ولا يرحل.

- رحل منذ زمن طويل. رحل حين قطعوا أول شجرة.

- متعب لا يرحل... أراهن.

- الظهرة قريبة، والوادي الآن مثل ما تراه، لا يخفي إبرة.

- من ناقة إلى ناقة.

- ولكنه رحل منذ ثلاثة أيام. شعلان قال إنه رحل. وأنا رأيته بعيني على ناقته مشرّقاً.

- أريد أن أخسر رأسي وأخسر الناقة. متعب لا يرحل.

- وكّل الله يا ابن الحلال، خلي راسك بين أكتافك وخلي ناقتك عندك، واسمع كلامي: متعب رحل!

قال الكثيرون: متعب الهذال مثل عادته دائماً: إذا جاءته «السوداء» يغيب يوماً أو يومين ثم يعود، ولذلك فإذا شرّق أو غرّب لا بد أن يرجع.

كان أهل الوادي جميعاً على يقين راسخ أن متعب لا يتخلى عن

الوادي، وأنه ليس مثل الآخرين يمكن أن يحمل أمتعته ويمشي. أما إذا كان قد دخل الصحراء غاضباً مهدداً كما فعل أبوه وجده، فلا بد عندئذٍ أن يفعل مثلما فعلوا. كانوا أشرس أهل الوادي في محاربة الأتراك، كانوا لا ينامون في مكان واحد مرتين، وقد حولوا الطريق السلطاني كله إلى جحيم، حتى أن الأتراك وضعوا جائزة «مائة ليرة رشادية» لمن يقتل الهذال أو يأتي به حياً. وقبل جازي كان أبوه، متعب. قبض الأتراك عليه مرة، لكن قبل أن يصبح الصباح هرب. رُوي أنه وضع في القهوة مادة دوخت الحراس. وقيل أنه رشاهم فتركوه يهرب، وقد عوقب رجال حامية وادي العيون كلهم، ونقلوا لأنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمتعب الهذال وأن يرسلوه إلى حامية الكرك.

تذكر الناس هذه القصص وتوقعوا أن متعب الهذال سيعود مرة أخرى. الذين شعروا بالخوف قالوا إن هذا الزمان يختلف عن زمن الأتراك، ولذلك لا يمكن لمتعب أن يرفع بندقية أو أن يقتل أحداً. أما الذين كانوا أكثر شجاعة وتفاؤلاً فقد وافقوا على أن متعب سيعود، لكن أضافوا أنه إذا عاد سيشعل الدنيا، قد يقتل وقد يخرب ويمكن أن يحرق أيضاً. أما أن يترك الأميركان، خاصة بعد أن فعلوا ما فعلوا في وادي العيون، فأمر مستحيل.
قال نزال المعاني، وهو يتطلع إلى مكان بعيد:

ـ العتوم مثل حيات الشتا، يختفون، ينامون، لكن إذا دفت.. الله يستر.

رد محمد المدور وهو يهز رأسه ويبتسم:

ـ كيف تخلص وين تروح يا ابن الراشد؟

وينزق قال عبد الله المسعود الذي كان يسمع ولا يرغب في المشاركة:

ـ والله يا أهل العيون ما عندكم غير السوالف، والزلمة حتى يكفّ شره، حتى يخلّص روحه ترك الوادي وهجّ، ما ظل بنفسه شيء. وأنتم تقولون فلاني وتركاني، وكأنه ما عندكم سالفة غير ابن هذال.

وتطلع الرجال من جديد أحدهم في وجه الآخر. وهزوا رؤوسهم أسفاً وحزناً وانتظاراً.

وبدا بالنسبة لكل واحد أن سفر ابن هذال مهما طال، وغيابه مهما امتد فلا بد أن ينتهي ولا بد أن يعود.

ورغم أن الكثيرين تصوروا، أثناء ما كانوا يرقبون المشهد الغريب، أن ما يشهدونه حلماً أو ما يشبه الحلم، إلا أن توقف التراكتورات واحداً بعد آخر، وذلك الصمت القاسي الذي خيم على هذه الأرض «الجديدة»، فبدا الوادي وكأنه جزء من الصحراء التي تليه، عدا بعض التلال، ثم تلك الأكوام من بقايا الشجر، عند ذاك تأكد الجميع أن ما يرونه شيء حقيقي، شيء قاس لئيم معادٍ، وأقرب ما يكون إلى الموت.

إلى جانب هذه البقايا في السهل الفسيح، ظلّ أولئك الذين أصروا على البقاء وتفاءلوا وتوقعوا وانتظروا. كانت حركاتهم بطيئة حزينة وأقرب ما تكون إلى اهتزاز الفزّاعات المصنوعة من الخرق وسعف النخيل إذا ضربتها الريح، كانت تتحرك ثم تسكن تدريجياً حتى تصبح جزءاً من المدى الصلب المغبر اللامتناهي، وتعود مرة أخرى إلى الحركة ثم إلى السكون.

وابن الراشد الذي بذل جهوداً خارقة في الأيام الأخيرة، بالتعاون مع قوات البادية، على ترحيل أهل الوادي، واختار الرجال العشرين الذين سيعلمون في المعسكر، كان مرتبكاً خائفاً من تشبث بعض الناس أو تأخرهم في الرحيل، أما عند عصر اليوم الثالث، ومع سقوط الأشجار الأخيرة، فقد صرخ في الرجال المتجمعين، وأخذ وجهه سمات الحدة والحزم:

ـ يا جماعة الخير.. ارحلوا برضاكم مثل ما رحل الجماعة قبلكم أحسن ما ترحلكم العصا. كل واحد أخذ حقه المقسوم، والأمير يقول اللي يريد ديرته وعشيرته فألف سلامة، واللي يريد مكان، الحكومة حضّرت المكان.

بعد ذلك لم ير الناس ابن الراشد، ولم يعد إليهم. ظل مرابطاً في المعسكر، وبدلاً منه جاء رجال البادية.

أبلغ رجال البادية من تبقى من أهل الوادي بضرورة الرحيل. رفضوا

أية مناقشة. وبعد أن نادوا على الذين سيبقون، ووضعوهم قريباً من المعسكر، قال أحد الجنود، وكان ينظر إلى الأرض:

ـ معكم هذه الليلة، وباكر قبل الغروب أنتم بديرة ثانية. . . ونتلاقى.

في جو من الغيظ والتحدي والحزن والغضب وعشرات المشاعر الأخرى التي سيطرت على الناس في الوادي، كانت أم الخوش الإنسان الوحيد الذي لا يخضع لأية أوامر، ولا يوافق على كل ما يجري. إذ بعد إن جمعت حاجاتها في كومة صغيرة، ووضعت إلى جانب الذي سيرحلون، تبرع بعض الناس فحزم هذه الحاجات. كانت أشياء لقلتها وتنافرها، تثير الضحك والحزن في نفس الوقت: ثياب قديمة، تنكات فارغة متفاوتة الأشكال والأحجام، قطع خشبية، مجموعة من الحبال وعصا خيزران معقوفة الرأس. وأم الخوش التي كانت، ذلك الوقت، قريباً من الظهرة، تنتظر، مثل عادتها كل يوم، قافلة جديدة، لعلها تسمع خبراً أو ترى أحداً. حين جاءت ووجدت كومتها، وقيل لها أنها سترحل مع الراحلين، نظرت بسخرية، ابتسمت أكثر مما تفعل في العادة، وبهدوء جرت أشياءها وفصلتها عن الكوم الكبير الذي كان على شكل دائرة. جرتها إلى مسافة اعتبرتها كافية وانفصلت عن الراحلين وأشيائهم. فكت الحزمة، فكتها بعناية. أخرجت بعض ملابس الخوش، نفضتها في الهواء، تشممتها، أبعدتها عن عينيها قليلاً ونظرت إليها من هذه المسافة، كما لو أنها تتأكد من مظهرها وجمالها، ثم قرّبتها إلى وجهها مرة أخرى، نظرت إليها بعناية لتطمئن إلى سلامة القماش وحسن صنعه. تشممتها مرة ثانية، حتى إذا ملأت روحها منها جمعتها، وضعتها بعضها فوق بعض. ربتت عليها، تكلمت معها، قالت أشياء أحزنتها وأفرحتها، أضحكتها ثم أبكتها. قامت بكل هذه الأعمال الصغيرة، كما لو أنها وحدها في الفلاة، والناس الذين كانوا يتابعون، وكأنهم يرونها لأول مرة، رأوا في وجهها وجوههم، وأحسوا أن حياتهم مليئة بالحزن والانكسار. كانوا يتابعون تلك الحركات بصمت، ولم يفطن الكثيرون إلى الدموع تسيل من عيونهم. تذوقوا ملوحتها وأحسوا بها كاوية فنظروا إلى الأرض ولم يجرؤوا على أن ينظر

الواحد في وجه الآخر. أما عندما ناموا، وقد فعلوا ذلك في وقت مبكر، وكانوا مثل القطط في ليالي الشتاء فوق أمتعتهم وأشيائهم، وبعد أن بدأ الخدر ثم النوم، سمع صوت أم الخوش. ظن من كان مستيقظاً، أو من أفاق على صوتها، أنه في حلم، أو في عالم آخر، فقد كان الصوت مرتجفاً وفيه لوعة. سألت بصوتٍ عالٍ وهي في مكانها:

ـ يا جماعة الخير. يا أهل الوادي، نسيت اسألكم عن متعب، أبو ثويني، وين متعب؟

لم يجرؤ أحد على أن يجيب. ارتد الصمت ثقيلاً كثيفاً، سألت من جديد:

ـ يا جماعة.. اللي يعرف علوم أبو ثويني يعلمني.

واستمر الصمت، وقد رافقه ذلك التوتر الذي ينبئ بالخوف، لأن اللحظة التالية يمكن أن تفجّر كل شيء. قال صوت خشن، لا يعرف إن كان صوت رجل أم صوت امرأة عجوز:

ـ نامي يا بنت الحلال، نامي والصباح رباح.

علت ضحكة مختنقة جافة ثم صوت.

ـ لا تخافوا يا جماعة الخير، اللي يعرف علوم أبو ثويني يعلمني.

أما عندما استمر الصمت شديداً قاسياً، وأكثر حزناً من قبل، فقد سألت بلهجة تعريض هازئة:

ـ الصباح رباح؟ باكر تعلموني بأخبار أبو ثويني؟

وظل الصمت مثلما كان قاسياً مرتاباً، وأقرب ما يكون إلى الخوف. تابعت بنفس السخرية:

ـ يا جماعة الخير، البارحة.. لا قبل يومين أو ثلاثة أيام... أنا شفته، سولفنا وقال لي: لا تخافي، الخوش يرجع. وأنتم تعرفون. أنا صار لي سنين اتني الخوش وأنشد، وأنتم، أنشدكم عن أبو ثويني ولا أحد يجيب ولا أحد يسمع...

توقفت قليلاً ثم أضافت بمرارة:

ـ الله منكم يا أهل الوادي.

وانكفأت أم الخوش على نفسها.

الذين ظلوا ساهرين كانوا يسمعونها تحدث نفسها. لم يفهموا شيئاً مما كانت تقوله، ولم تعد إلى توجيه الأسئلة أو انتظار إجابة أحد. والذين دخلوا في ملكوت النوم واقتربوا منه، كانت تصلهم أصوات رتيبة تتكرر باستمرار، في لحظات تعلو الأصوات قليلاً، وفي لحظات أخرى تتوارى لكن لا تغيب ولا تتلاشى. انها تشبه ولولة ريح مقبلة أو استغاثة بعيدة، أما عندما بدأ الصوت يتداخل ويتثنى ويغيب حتى التلاشي ثم يهب مذعوراً، فكان الذين غادرهم النوم، والذين لم يقووا عليه منذ البداية، يحسون في ذلك الصوت ندباً موصولاً بالقلب أو كأنه الشوكة في باطن العين. كانوا يغمضون أعينهم في رحلة طويلة مع الذكريات الحزينة، وكأن تلك الرتابة الموجعة تجعل للأشياء نكهة مختلفة وطعماً كاوياً كالجرح المفتوح.

في وقت لا يدرى متى، في صراع النور والظلمة، هدأ صوت العجوز. لم يهدأ دفعة واحدة أو بشكل مفاجئ، وإنما تباطأ وارتخى، ثم اشتبك باللهاة تماماً، فأصبح مجرد نبرة تشبه قطعة من الدهن تذوب شيئاً بعد شيء، فلما غاب نهائياً، قال الذين لا يزالون يساهرون النجوم «النوم راحة.. وقد نامت العجوز».



مع غياب نجمة الصبح بدأت الحياة تدب في هذه الكومة من البشر مرة أخرى. بدأت رخوة مترددة، لكن مع اتساع رقعة السماء وانفصال الأرض عن الفضاء، في هذا المدى المترامي إلى ما لا نهاية، أخذت الأجساد حركة أكثر وضوحاً ثم أكثر قوة. الذي انتفضوا مع ذرات النور المتقدمة، وكأن يداً خفية هزتهم وأيقظتهم، انفتحت عيونهم فذعروا أو لم يصدقوا، لأن النوم إذا كان قد سرقهم وأنساهم في أي مكان هم، وفي أي وضع كانوا، فإن اليقظة الأولى لم تساعدهم على أن يعرفوا أو على أن يستوعبوا، لذلك هزوا رؤوسهم مرة بعد أخرى، لكي يطردوا النوم،

ونظروا من جديد ليتأكدوا، فلما تذكروا من جديد أغمضوا أعينهم في محاولة للغرق أو النسيان، لكن ذلك كان متأخراً أو ربما مستحيلاً.

قبل شروق الشمس استيقظ الجميع، عدا أم الخوش. كانت تنام واضعة جبهتها على كومة الملابس، في جلسة أشبه ما تكون بالصلاة، كانت راكعة نصف ركوع، وكأنها مترددة أو لم تصلِّ بعد، وكان شكلها مثل نصف الكرة. نظر إليها الكثيرون بحذر وكأنهم يخشون إيقاظها أو يريدون لها أن تنام وقتاً أطول لتعوض ما فاتها من نوم الليل. ظلت حركتهم محاذرة وأصواتهم بطيئة خافتة، وظلت في نومها المتحفز أو في صلاتها غير المنتهية، حتى بعد أن عوت الكلاب على اثنين من رجال البادية كانا يتجهان نحو المعسكر، أما حين بدأ الصبية يتراكضون، واقترب أحدهم من أم الخوش، فقد نقفه عبد الله المسعود بحصاة، وأشار عليه بإصبعه مهدداً، طالباً منه أن يبتعد. وقد سمع أقرب الناس إليه يقول بصوتٍ منخفض:

ـ للفجر.. العجوز ما نامت...

وأضاف بعد قليل وهو يهز رأسه لوعة:

ـ الله يساعدها... ويساعدنا.

حين ارتفعت الشمس مقدار ذراع لم يبق شيء في مكانه. أعيد حزم الأمتعة، أشعلت النار، تحرك الرجال من مكان إلى آخر ليلقوا نظرة. أما النسوة فقد كانت حركتهن بطيئة مترددة، خلافاً للأيام السابقة، وكأنهن لا يعرفن ماذا يجب أن يفعلن أو كيف. أما الصبية الذين زادت حركتهم وعلت أصواتهم فلم يعودوا مبالين أن تحركوا في هذا المكان أو في أي مكان آخر. حتى عبد الله المسعود الذي كان لا يبعد نظراته عن أم الخوش، فقد اعتبر أن الوقت الذي مر، منذ أن نقف الصبي بحصاة، وطلب منه أن يبتعد، كافياً، فلم يعاود زجر الصبية أو التكلم بصوت منخفض.

وظلت أم الخوش في جلستها تلك، غير مبالية بكل ما يجري حولها، لا تسمع ولا تتململ. كانت هادئة مستقرة في صلاتها أو في غفوتها. ولئن

كان رجلا البادية قد عادا من معسكر الأميركان، فقد اقتربا كثيراً من هذه الكتلة البشرية. قال أحد الرجلين بصوت حمّله مقداراً كبيراً من الود:

ـ يا جماعة الخير.. مشي السرى أحسن لكم، وإلا الشمس ذبحتكم.

رد عبد الله المسعود بسخرية:

ـ لا تخف، نمشي، نمشي، بس وكل الله يا ابن الحلال.

ـ لو مشيتم مع الفجر كان صرتم هالحين بالخبرة الشرقية أو بعدها.

ابتعد الرجلان. نظر الصبية إلى آبائهم متسائلين ما إذا حان وقت الرحيل. قال محمد المدور يخاطب نفسه بصوتٍ عالٍ:

ـ إذا مشينا هالحين نمرح بالخبرة، وبعدما تكسر الشمس نعاود ونشيل.

سأل عبد الله المسعود، وهو يشير إلى أم الخوش:

ـ والعجوز؟

ـ تمشي معنا.

هكذا رد أكثر من واحد. فسأل من جديد:

ـ وإذا ما رضيت؟

قال محمد المدور:

ـ رضيت أم لم ترض، نشيلها ونمشي.

ـ طيب.. شوفوها. اسألوها.

تقدم محمد المدور بخطوات قوية، لكن حذرة أيضاً، وضع يده على كتفها:

ـ أم الخوش... يا أم الخوش.

لم تجب ولم تتحرك.

ـ الدنيا صارت الظهر... يا أم الخوش.

لم تجب.

أمسك محمد المدور برمانة الكتف وهزها.

ـ يا أم الخوش....

تحركت قليلاً، لكن لم تجب. هزها أكثر من قبل. مالت بعض الشيء نحو الجانب الأيسر، لكن لم تغير من إصرارها على أن تبقى كما هي: غافية، معاندة... أو ربما تواصل صلاتها. رفع كتفها قليلاً، كانت حركته بين الشدة والحزم، ارتفع الوجه بمقدار شبر وتغير وضع الجسد؛ أما حين ارتخت يده فقد عادت أم الخوش إلى وضعها السابق: هوت على كومة الملابس وكأنها تقبلها ولا تقوى على مفارقتها.

قال رجل من بعيد:

ـ خلصونا يا جماعة الخير.

تقدم عبد الله المسعود، جثا على ركبتيه، إلى جانب أم الخوش، وضع يده على كتفها، تطلع إلى محمد المدور، وتطلع إلى الذين حوله، وبكثير من الحنان الخائف همس:

ـ يا أم الخوش... يا أم الخوش.

ولم تجب، ظلت على حالها، قال محمد المدور بنفاد صبر.

ـ نشيلها ونمشي، وافقت، ما وافقت.. هذا هو.

رد عبد الله المسعود.

ـ خف ربك، يا ابن الحلال، شلون نشيلها؟ نعجة؟ ما هي بنعجة!

قال رجل من بعيد، وربما كان هو نفسه الذي صرخ من قبل:

ـ خلصونا يا جماعة.

تقدم محمد المدور أكثر من قبل، صار فوقها تماماً، وضع يديه تحت إبطيها ورفعها، ارتفعت مثل كومة الثياب، بدت بين يديه كطفلة كبيرة. هزها هزاً قوياً موصولاً لعله يخرجها من هذا السبات القوي. كان الصبية يتابعون هذه الحركة بفضول وهم يصرخون ويضحكون، أما الرجال والنسوة فقد ابتسموا. عبد الله المسعود الذي ظل جاثياً رفع رأسه. ليتابع هذه اللعبة التي تصرّ عليها أم الخوش في لحظات الرحيل الأخيرة. حين وقعت عيناه على وجهها انتفض كمن يفيق من نوم بشكل مفاجئ، وأحس بقلبه ينتفض خارج صدره. صرخ بألم:

ـ حرام عليكم يا جماعة.

وانتفض واقفاً، أمسك بأم الخوش وأنزلها بهدوء. كبت على وجهها بنفس الوضعية السابقة، جثا إلى جانبها، وقد بدا مرتجفاً خائفاً. أمسك وجهها، تطلع إليه بإمعان، ثم أداره قليلاً نحو الآخرين الذين اقتربوا. كان الوجه مصفراً جافاً بارداً، وقد فارق الحياة، لما تأكد من ذلك أعاده ببطء فوق كومة الثياب.

قام بهدوء، أقرب إلى الاستسلام. مشى بخطوات قصيرة متعبة حتى آخر حلقة الرجال:

ـ الله، سبحانه وتعالى، أراحها وخلصت.

لم يصدق أحد، أما حين اقتربت منها وضحة وقلبتها فذعرت وتراجعت ثم صرخت بصوتٍ حاد يشبه صوت طفل:

ـ وينك يا أبو ثويني، وين عينك تشوف.

وفي أقل من ساعة حفر القبر ودفنت. أما الأشياء التي بقيت فلم يرض إنسان أن يمد إليها يده، فبعثرتها الريح، ثم جاءت الرمال ودفنت ما تبقى منها.

وإذا كان قد تقرر أن تغادر القافلة وادي العيون قبل الظهر، فقد أصبح موت العجوز سبباً كافياً لأن تبقى، وببقاء القافلة يوماً إضافياً، كان امل يراود الجميع أن يحصل في ذلك اليوم ما يغير هذا القرار، ويجعل كل شيء قابلاً لإعادة النظر. أما جنود البادية فقد ظلوا بعيدين، ورفضوا الدخول في أية مناقشة، أو الإجابة عن أية أسئلة تطرح. تظاهروا أنهم لم يروا شيئاً، لكن كانوا مصممين أيضاً أن لا يسمحوا بالبقاء سوى ذلك اليوم.

في الظلمة الزرقاء الناصلة، ومع هبات ريح خفيفة منعشة، كانوا، بصمت، قد انتهوا من استعدادهم للرحيل. أما حين تركوا وادي العيون، أو بكلمات أدق، حين أجبروا على تركه، بعد شروق الشمس بقليل، فقد كانت بين الراحلين عائلة متعب الهذال، وكان فواز الكبير بين إخوته. شعلان وحده بقي في الوادي، لكي يتابع تحصيل ما يستحق للعائلة من تعويض، ثمناً للبستان الصغير الذي كان لهم، وللأرض التي كانت عليها دراهم.

كان هديب قد سبقهم إلى عجرة، المحطة الأساسية على الطريق السلطاني، وكان يفترض بفواز أن يتحمل مسؤولية الرحلة، وأن يتولى أموراً كثيرة، إذ بعد أن ترك متعب الهذال وادي العيون بتلك الطريقة الغاضبة، وخلف وراءه غباراً كثيراً وكلاماً أكثر، بدأ رجال الأمير ينظرون إلى «بقايا» متعب الهذال نظرة مليئة بالحقد والغضب، وبدأت الإشاعات تسري أن العائلة لن تنال تعويضاً من أي نوع، وأنها سوف ترحّل بالقوة إذا لم ترحل باختيارها، فإذا وصلت إلى عجرة لتتدبر أمرها بنفسها، وهذا، مع أمور أخرى، ما اضطر هديب إلى صرف النظر عن التعويض الذي تشبث به الكثيرون، وانتظروا حول وادي العيون، تاركاً الأمر لشعلان يتابعه. وسافر بسرعة إلى عجرة لكي ينتظرهم هناك، لينطلقوا بعد ذلك في رحلة إلى الداخل، إلى حيث لهم علاقات وقرابات، سواء من ناحية الأب أو من ناحية الأم، يمكن أن تحميهم وتؤمن لهم حياة فيها بعض الاستقرار، إلى حين عودة متعب الهذال.

فواز كان «الكبير» بين الأخوة. يمكن لهذا الوصف أن يثير الضحك

والسخرية حين يذكر، لأن عمره آنذاك لم يكن يزيد على أربع عشرة سنة. كان ضامراً شديداً مثل خيزرانة، وقوياً كحبل مبلول، أو هكذا كان يتظاهر وهكذا يريد أن يكون. كان يتعلق بذيل الناقة وهي مسرعة كالبرق، ويزحف مثل قرادة حتى يعتليها، لكي يثبت لكل إنسان أنه بلغ مبلغ الرجال، هذه الصورة تبدو بعيدة الآن، متداخلة إلى درجة لا يمكن للإنسان أن يكون متأكداً، فالأشياء والأشكال بعد وادي العيون اختلطت إلى درجة كبيرة، ومع ذلك فما تزال في الذاكرة طرية حاضرة بملامحها وروائحها، حتى الكلمات التي ترددت همساً بين اثنين، وتلك الأسئلة العارضة التي يتبادلها الذي يستعدون للرحيل، عن الحبال والماء والطحين، لا تزال ترنّ قوية حادة في آذان الباقين والراحلين.

قال هديب، حين وصلت القافلة إلى عجرة:

ـ خفت كثيراً أن تجدوا صعوبة... أو أن تتعطلوا في الطريق...

قال هذه الكلمات وفي عينيه ذلك الإعجاب الذي لا يستطيع أن يخفيه، وحين بدأ فواز بفك الأحمال تابع هديب يحدث أخته:

ـ فكرت أكثر من مرة أن أرجع إلى وادي العيون، أو ألاقيكم على الطريق.

قالت رضية:

ـ لقينا أكثر من ذيب على الطريق.

رد هديب وهو يضحك:

ـ الذياب ما تخوف...

توقف لحظة ثم أضاف:

ـ ومعكم رجال.

هل كان شجاعاً كما تصوره خاله أو إلى الدرجة التي افترضتها أخته؟ هل كان خائفاً أو ظهر عليه الخوف خلال الرحلة، والتي استمرت ثلاثة أيام؟ كان شديد الحذر، رغم أنهم كانوا في قافلة من خمسة بيوت، بعد أن توقف الكثيرون في الخبرة وبعدها، أو ذهبوا في طرق أخرى، لكن وضحة

الحمد كانت قوية إلى درجة أن أية شجاعة ظهرت عليه أو حكمة ميزت تصرفاته تعود إليها. كان في عينيها ذلك الحزن النبيل بعد رحيل متعب. لم تدرك سبباً معقولاً لثورته وهياجه ثم رحيله. أطبقت شفتيها بحزم ورفضت أن تقدم سبباً أو تفسيراً لما فعله. كانت تدرك في أعماقها أن روحاً خطرة حلت في قلبه وعقله وحملته على اتخاذ ذلك القرار. وإذا كانت قد شهدت في أوقات سابقة ثوراته التي تصل حدود العزلة ثم السفر المفاجئ والغياب الطويل، ففي هذه المرة لم تكن متأكدة أنه سيعود مثلما فعل في المرات السابقة، وإن ظلت على يقين أن أمراً ما لا بد أن يقع في اللحظة الأخيرة ويغير كل شيء، إذ لا يمكن لمتعب الهذال أن يتخلى دفعة واحدة، خاصة في هذا الوقت بالذات الذي يغيب فيه وادي العيون إلى الأبد. لا يمكن أن يرحل دون أن يفعل شيئاً، دون أن يحرق أو يقتل ويدمر. لكن لما رأت قراره الحازم القاسي، وبذلك الشكل المفاجئ أيضاً، ثم رحيله، ظلت تنتظر لحظة بعد أخرى، أن يظهر من جديد، أن يدور مرة أو مرتين حول الوادي، حتى إذا تعب، حمل معه الحزن والحمى وعاد. أما أن تنقضي الأيام ولا يظهر أو يبعث بإشارة، ثم يمضون ويرحلون فعلاً فقد أحست بحالة من الحزن بلغت حد اللوعة. هل يمكن أن يمضوا ويخلفوا كل شيء وراءهم؟ هل يحتملون الذهاب إلى مكان آخر وقد خسروا الدار والأرض والنخيل... وقبل ذلك كله خسروا الذي كان أهم ما في حياتهم: متعب الهذال؟

لم يجرؤ أحد على أن يسأل مثل هذه الأسئلة، لكن ذلك الحزم القاسي الذي ظهر في تصرفات وضحة، ثم صمتها، أغلب وقت الرحلة، وذلك الحزن الذي ظهر جلياً قوياً في عينيها، والذي ما لبث أن أعدى الآخرين، جعل كل شيء نهائياً ولا يمكن الوقوف في وجهه.

ومع ذلك فإن تلك المرأة الرائعة الكبيرة، وضحة الحمد، هي التي قادت القافلة، هي التي ساهمت بشد الأحمال على الركائب، وهي التي فكتها. وإذا كان فواز قد امتلأ بالحذر طوال الرحلة، وكان، في كل لحظة، يتوقع أمراً خطيراً، وهذا ما جعله عصبياً، لا ينام إلا قليلاً، ولا

يأكل إلا كما يأكل الطير الخائف، فلم تشأ وضحة أن ترى ذلك. ظلت بصمتها وجبروتها تعدي وتؤثر عليه حتى وصلوا إلى عجرة. أما حين التقوا بهديب، وأراد أن يخفف عنهم، أن يخلق جواً من المرح، فقد اصطدم بصمتها، وما لبث أن شاركها الصمت ثم الحزن.

الأيام الأربعة التي قضوها في عجرة، عند إحدى القريبات، لا يمكن أن تغيب من الذاكرة أبداً. لم يحصل خلالها شيء غير عادي، ولم تصل أخبار جديدة من متعب الهذال أو عنه، رغم أن قوافل الحج في تلك الفترة لم تكن لتنقطع يوماً واحداً.

في هذه الأيام الأربعة أحس الجميع أن رحيلهم عن وادي العيون كان قاسياً عنيفاً، مثل لطمة مفاجئة. وقد ملأهم هذا الرحيل بشعور قاهر منذ الليلة الأولى في عجرة، إنهم وحيدون، وإنهم لا يستطيعون احتمال الحياة الجديدة. إذ بعد أن آوى الجميع إلى الفراش، وكان الصمت، في تلك الليلة، ثقيلاً مسيطراً، عدا نباح الكلاب، وبعض النداءات البعيدة المتفرقة، في ظل ذلك الصمت، سمع، لأول مرة، وربما منذ سنوات طويلة، بكاء أمه، وضحة الحمد. كان بكاء مكتوماً متقطعاً، لا تريد لأحد أن يسمعه، أو أن ينتبه إليه. بكت مثل طفلة صغيرة، لكن خفية عن الآخرين. كانت تعض على اللحاف، تدفن وجهها في الوسادة... وتبكي.

في تلك الليلة أدرك فواز، بشكل خاص، إن ما حصل لهم ليس مجرد الرحيل عن مكان اسمه وادي العيون، وليس خسارة من النوع الذي يستطيع الإنسان أن يألفه أو أن يتعود عليه. أدرك أن ما وقع فراق، يشبه الموت، وأن لا شيء، لا أحد، يمكن أن يعيدهم إلى ما كانوا عليه. ورغم الغضب الذي يملأ صدورهم على أبيهم، لأنه تركهم يواجهون هذه المصيبة وحدهم، فقد اختلطت كلماته الغاضبة مع بكاء وضحة تلك الليلة، وبدا مفهوماً أكثر من الأيام السابقة، وربما بدا أقل قسوة.

بعد تلك الليلة وحتى وقت متأخر، لم ينم هذا الذي ترك الصبا مبكراً، ودخل الرجولة قبل الأوان. ظلت الأشباح تطارده، وامتلأت تلك الليلة، كما امتلأت الليالي التالية، بذلك الانتظار الموجع.

في عجرة، النقطة التي كانت تمر فيها القوافل عبر آلاف السنين، حيث يلتقي الطريق السلطاني بطرق أخرى، ثم يفترق عنها، اختلطت قافلتهم بغيرها من القوافل، وخلال الايام الأربعة التي قضوها في عجرة، اشتروا ما يحتاجون إليه من مواد تكفي للطريق وللفترة الأولى من إقامتهم في منازلهم الجديدة، في الحدرة. دفعوا، ثمناً لذلك، كل ما حملوه معهم من دراهم. ولأول مرة يكتشفون أن الأماكن الأخرى، والناس أيضاً، يختلفون كثيراً عن وادي العيون. كانت كلمات الباعة قصيرة، سريعة، باترة. وكانت نظراتهم مليئة بالارتياب. أما محاولات هديب الحمد في تخفيض أسعار الطحين والسكر، ومروره على عدد كبير من الباعة للمساومة والتأكد، فقد انتهت إلى نوع من التسليم الأقرب إلى اليأس. قال لوضحة وأكياس الطحين ملقاة في ظل الجدار:

- لو كنا في غير هذا الوقت من السنة لحصلنا على أسعار أرخص وكميات أكبر من الطحين.

هزت وضحة رأسها بنوع من الموافقة، تابع بصوت مليء بالمرارة:

- يقولون إن الدين معاملة... لكن التجار لا يعرفون إلا المال، هذا هو دينهم.

وبصمت أقرب إلى الحزن ربطت الأحمال في فجر اليوم الخامس ومشوا.

صغرت القافلة عندما تركوا الطريق السلطاني واتجهوا شمالاً. كانوا قد هيأوا أنفسهم لرحلة طويلة، وكان يفترض أن يصلوا بسرعة إلى روضة المشتى، لكي يلتحقوا بقافلة ذكر أنه وصلت قبلهم إلى هناك ببضعة أيام،

وقيل إنها ستمكث أياماً أخرى بانتظار رعيتين أو ثلاث من الإبل، ثم تواصل رحيلها بعد ذلك إلى الحدرة وما وراءها.

إنها المرة الأولى التي تبدو لهم الأماكن معادية، وفيها ذلك المقدار الهائل من القسوة. وإذا كانوا قد شعروا بثقة كبيرة حين التقوا بالخال في عجرة، وتولى عنهم الأمور كلها، بما في ذلك قيادة القافلة، فقد بدت لهم وجوه البشر في الأماكن التي مروا بها، قاسية صمّاء، وأحسوا أن طعم الماء الذي شربوه مالحاً وأقرب إلى المرارة، أما الأماكن التي توقفوا فيها فقد بدت لهم غير مألوفة ولا يمكن للإنسان أن يتعود عليها. ووضحة، التي كانت قوية متماسكة طوال الطريق من وادي العيون إلى عجرة، أصبحت الآن كالناقة المسنة، كانت تنظر إلى كل شيء نظرة بطيئة، لكن خالية من التأمل، ولم تتكلم طوال الطريق أبداً، حتى عندما كان يتعمد الخال سؤالها عن أمر من الأمور كانت تكتفي بأن تهزّ رأسها دلالة الموافقة أو عدم المعرفة. وحين يجلسون إلى الأكل تمتد يدها المعروقة في رحلة طويلة بين فمها وصحن الطعام، وتظل تلوك اللقمة كأنها تتلهى ولا تريد أن تبتلعها، أو ربما لا تجد في نفسها القدرة على ذلك. كانوا، أغلب الأحيان، يقومون عن الطعام قبلها، تاركين لها شيئاً تأكله، وكانوا يتحاشون النظر إليها أو أن يطلبوا منها أن تأكل المزيد، لأن المرة الوحيدة التي فعلت رضية ذلك، وكانت منفعلة، أقرب إلى الغضب، وهي تشهد أمها تغرق في هذه الحالة من الكآبة والصمت القاسي، ثم في حالة من المرض الغامض، حين طلبت منها رضية أن تأكل، لكي تكون أقوى، نظرت إليها بطريقة جعلتها تكف تماماً، وجعلت الجميع لا يحاولون الضغط عليها بعد ذلك.

كانت رحلة مليئة بالحزن الصامت. الإبل تخبّ في مشيها الرتيب، والشمس بعد شروقها بوقت قصير، تصبح عذاباً لا يمكن أن يحتمل، أما محاولات الحديث والصخب، حين يتوقفون لجمع الحطب، لإيقاد النار، لإعداد الطعام، فقد كانت تعويضاً أخرق عن الكلام الذي يجب أن يدور بينهم. كان كل واحد، بطريقته الخاصة، يحاول احترام صمت الأم ومشاركتها في الحزن الذي تغرق فيه. وفي المرات القليلة التي حاولوا أن

يتكلموا، أن يقولوا شيئاً، كان كلامهم قصيراً مبهماً، وفي أحيان أخرى لا يعني شيئاً، ولكن كان دوماً خافتاً لا يكاد يسمع ثم يبتر فجأة، مخلفاً لدى كل واحد منهم شعوراً قوياً بالذنب. ورغم أن عادة الخال منذ عرفوه المزاح والغناء وبعض الأحيان المبالغة في إظهار الفرح أو الغضب، وكان هكذا إلى فترة قريبة في وادي العيون، ثم في عجرة، أما الآن فقد بدا إنساناً مختلفاً. ومحاولات إبراهيم معه في أن يحمله على الغناء أو الحدو، أو أن يقص عليهم بعض القصص من رحلاته، انتهت هذه المحاولات إلى الفشل، رغم أن وضحة، في حالات كثيرة، كانت بعيدة أو لا تسمع.

وصلوا إلى روضة المشتى، كانت القافلة التي يفترض أن ينضموا إليها ويسافروا معها قد غادرت، ومعنى ذلك أن ينتظروا أياماً، وقد تمتد هذه الأيام لتصبح أسابيع، خاصة وأن الطريق التي تقود إلى الداخل لا تمر فيها القوافل إلا بأوقات متباعدة، وتنقطع أو تكاد في فترة الصيف.

لا يمكن تذكر تلك الرحلة وتلك الأيام بتفاصيلها الكاملة، لأن وضحة الحمد الصامتة، المملوءة بكبرياء من نوع نادر، بدت، خاصة في روضة المشتى، أكثر جنوناً وتطرفاً من متعب الهذال.

هل الحمى التي أصابتها هي التي أنقذت متعب الهذال، أعادت تكوينه بنظر أولاده وجسّدت فيه براءة مطلقة؟ هل هي الحمى التي تكلمت وأسرفت في الكلام؟ لا تزال الكلمات أو بعضها قوية مشربة وأقوى من أية كلمات غيرها، إذ بعد أن وقعت وضحة الحمد فريسة للمرض، وتملكتها حمى قوية كثيفة جعلت تهذي في إحدى الأمسيات، قالت أشياء كثيرة، لكن أوضح ما قالت: «يا أبو ثويني أنت السالم والدايم وين ما كنت وين ما طيّبت. أنت أحسن الرجال وزينة وادي العيون اللي قلته صار أنت الصادق وهم ما صدقوا وادي العيون راح يا أبو ثويني بعدما رحت ما ظل فيه شي صار تواريخ وأمثال لا ترجع ولا تقول المربى قتّال إلى حين ما يكبر العيال وبرجعتكم تكونون الغانمين ويكونون مكسورين وتأكلهم الندامة وأولادك هم النشامة يا أبو ثويني وتجيك العلوم!»

بعد أسبوعين مليئين بالعذاب والانتظار والمرض بدأوا رحلتهم، ، مرة ثانية، من روضة المشتى إلى الحدرة. كانت رحلة قاسية، أقسى ما فيها الصمت الذي ملأها.

كانوا في القسم الأخير من القافلة، هكذا أرادت وضحة. لم تقل كلمة واحدة منذ أن غادرتها الحمى وحتى وصولهم إلى الحدرة، لكن كل نظرة منها، كل حركة كانت طوفاناً من الأوامر الحازمة القصيرة، الشديدة الوضوح. وكان الخال، مثل طفل كبير، يركض في كل الاتجاهات عله يستطيع في النهاية أن يصل إلى ما تريده أخته، أو لعله يدخل الرضا إلى قلبها.

فبعد عدة أيام من المرض الحاد في روضة المشتى قدّر الجميع أن في هذا المكان ستكون النهاية، فقد عافت الأم الأكل والشراب، وغابت في عالم من الحمى والهذيان، وبدأت نظرات هديب وحيرته تفضحه، بل وكاد يصرف النظر عن مواصلة الرحلة، خاصة وأن أخبار القوافل انقطعت، مما جعله يفكر ويقترح العودة إلى عجرة مرة أخرى، وهناك يمكن أن يفكر بهدوء وتتخذ القرارات المناسبة، إلا أن الصحوة المفاجئة لوضحة وبداية استعادتها لوعيها ولقواها، ثم وصول قافلة صغيرة متجهة إلى الحدرة، غيّر كل شيء، جعل وضحة تتغلب على المرض، ربما بدافع أنها لا تريد الموت في هذا المكان. ودون كلمات كثيرة أو مناقشة من أي نوع، هزت رأسها، دلالة الموافقة، حين عرض عليها هديب مواصلة السفر، اتُخذت كل الترتيبات ليكونوا جزءاً من هذه القافلة، الصغيرة البائسة، وساروا.

كانت القافلة صغيرة، عبارة عن ثلاثة من رعاة الإبل، مع إبلهم،

وعائلة سليّم الهزاع وعائلة متعب الهذال، وكان على هذه القافلة أن تقطع المسافة بين روضة المشتى والحدرة في خمسة أيام.

ما كادوا يصلون مشارف الحدرة حتى أرسل فواز مع أحد الرعاة ليبلغ الأهل بوصولهم، وحين جاء ثلاثة من العتوم، أقرباء متعب الهذال ليلتقوا بالقافلة وليساعدوا، وكان اثنان منهم يعرفان عائلة متعب الهذال معرفة قريبة مباشرة، وقد مرّا قبل سنة أو اثنتين في وادي لعيون، ومكثا هناك فترة من الزمن، ما كاد الرجال الثلاثة يصلون ويسلمون حتى فوجئوا أن متعب الهذال لم يكن موجوداً. أما حين سألوا عنه، وهل سيلحق بهم وأين تركوه، ما إن طرحت هذه الأسئلة، وكان الجميع يستريحون عند البئر شرقي الحدرة، حتى اكتشف الجميع أن وضحة دخلت في مرحلة جديدة، فالصمت الذي بدأ في وادي العيون، وكان نتيجة الحزن أو ربما الإرادة، أصبح الآن شيئاً مختلفاً، إنه الآن أكبر من الحزن وأقوى من الرغبة أو الإرادة.

فما كاد سليمان الهديب، وهو من أخوال متعب المباشرين، يسأل، وعيناه تدوران في هذه القافلة الصغيرة الحزينة، عن سفرهم ومتى تركوا وادي العيون ولماذا وأين تركوا متعب حتى طفرت الدموع من عيني وضحة. لم يكن السؤال بذاته يستوجب البكاء، خاصة بالنسبة لامرأة بقوة وضحة وجبروتها. وسليمان الهديب الذي بدا خائفاً عصبياً، وإذا نظر مرة أخرى في الوجوه باهتمام، ثم ركز نظراته على هِديب يريده أن يتكلم، أن يقول شيئاً، وهديب بنظراته الحائرة، وكلماته المرتبكة زاد الأمر غموضاً. صرخ سليمان بحدة: :

ـ يا جماعة الخير، ندري أن الدنيا حياة وموت، إذا كان متعب حياً قولوا، وإذا كان قد مات قولوا.

رد هديب بارتباك، وقد خرج صوته من حنجرته:

ـ وكّل الله يا رجل، متعب حيّ وما عليه خلاف.

نظر سليمان الهديب إلى وضحة وقال بقسوة:

ـ ما قولك يا أم ثويني؟

هزت رأسها دلالة الموافقة، مؤكدة ما قاله أخوها، لكن سليمان الهديب لم يقتنع، وجد أن في الأمر ما يفوق طاقته على الاستيعاب، صرخ:

ـ إذا كان الرجل حياً فالبكاء ما له حاجة.

هزت ام ثويني رأسها، مرة أخرى، دلالة الموافقة، قال سليمان الهديب بنزق:

ـ وأنتِ، يا أم ثويني، أخت الرجال.

ومرة أخرى هزت رأسها، ونتيجة هذا الغموض قال بنفاد صبر:

ـ يرحم والديك علمينا.

ومن جديد طفرت الدموع من عينيها.

ذلك الضحى، ولا يُعرف إن كان أواخر الصيف أو أوائل الخريف، عند بئر المسبلة، قبل الوصول إلى الحدرة بمسافة قصيرة، ذلك اليوم البعيد الذي لا يشبه أي يوم سواه، والرجال جاءوا بفرح من الحدرة لكي يستقبلوا عائلة متعب الهذال، وكانوا ينظرون في وجوه هذه القبيلة التي جاءت من مكان بعيد، وبشكل مفاجئ، ومتعب الهذال نفسه، رب العائلة، لا يُعرف ما إذا كان حياً أو قد مات، وحين يُسأل عنه يكون الرد هذه الكلمات غير الواضحة والدموع... فأي حزن يتولد في القلب وأي حيرة تملأ النفس نتيجة ذلك كله؟ ولماذا يكون المشهد ساخراً ومعقداً بهذا المقدار؟

هكذا سأل كل واحد نفسه. وفي ظل هذا الحزن الأسود حاولت وضحة الحمد مرة أخرى، حاولت أن تتكلم، أن توضح، أن تقول شيئاً، ولكن تلك الأصوات التي خرجت من فمها كانت أقرب إلى أصوات الحيوانات، أو إلى الصراخ الساخر الحزين، وتشبه تماماً ارتطام الأواني أو رجع الصدى في وادٍ ضيق.

حاولت مثل قطة مخنوقة أن تتكلم. حاولت مثل طفل صغير أن تتكلم. صمتت فترة ليست قصيرة. استجمعت إرادتها كلها. جمعت

الكلمات في حلقها تريد أن تقذفها إلى الخارج. غيّرت جلستها أكثر من مرة. وسليمان الهديب الذي كان ينقل نظراته في هذه القبيلة التائهة، ويبتسم ابتسامات صغيرة، دلالة الترحيب واكتشاف شبه من نوع ما بين أفراد القبيلة ومتعب الهذال ووضحة الحمد وتلك السلالة العريقة الموغلة في القدم، والتي تمثل امتداداً ما لهذه العشيرة التي ضربت في كل الأنحاء، والتي تاهت في كل الأماكن، وإحساس يراوده أن الدماء لا يمكن أن تتغير، وأن الذين شربوا من وادي العيون ومن مياه الحدرة، ومن عيون أخرى، أياً كان مكانها، فإن هناك مياهاً خفية. مياه العتوم، هي التي أمدّت كل تلك العيون بهذه المقدرة الفائقة على التجوال والضياع ثم العودة، وأن الحياة في هذه الصحراء، مهما تنوعت وتغيرت وامتدت، فإنها، كالموت، لا بد أن تنتهي إلى مكان بعينه، إلى نتيجة بعينها.

في هذا الجو العابق بالحزن والحرارة وانتظار اللحظة التالية، وبعد الدموع التي انهمرت فجأة، ثم اقتراب رضية ودعجة من أمهما ومحاولتهما معرفة سبب هذه الدموع وهذا الحزن، شدت وضحة الحمد وجهها فبدا قاسياً أقرب إلى العداء. وحين حاولت أن تهمس مرة أخرى، أن تقول شيئاً، تبين لها، للجميع، إنها لم تعد قادرة على أن تقول كلمة واحدة، وأن تلك الأصوات التي تعلمتها خلال فترة تزيد على الخمسين سنة قد غادرتها إلى الأبد! لقد فقدت قدرة الكلام، فقدت الكلمات والأصوات التي يعرفها الآخرون وغرقت في الصمت.



في الأيام الأولى قالت عجائز الحدرة اللواتي تحلقن حول وضحة الحمد أن الحمى ربطت لسانها، وهذه الحالة مؤقتة لا تلبث أن تنتهي. بعد ذلك بشهور قالت العجائز أن جنياً أسود دخل إلى جسد وضحة، بين المعدة وأعلى الصدر، دخل مع ماء روضة المشتى، فإذا جاء الشتاء وانقضى فلا بد أن يخرج، لأن عليه أن يعود ويظل مرابطاً قرب ماء الروضة بانتظار القوافل التي ستأتي! أما بعد أن انقضت السنة، وانقضى معها الشتاء، ثم بعده الربيع ووضحة كما هي، فقد قالت زوجة سليمان

الهديب إن حزن وضحة امتزج بالخوف، ولا يمكن أن تعود إلى حالتها الأولى، إلا إذا رجع متعب الهذال، أو إذا وقعت مصيبة أكبر من غيابه. . . ولم تقل زوجة سليمان الهديب أكثر من ذلك.

كان كل من حول وضحة يسمع بعض ما يقال. أما هي فكانت تسمع كل ما يقال. الذين حولها يسمعون ويمتلئون خوفاً وتساؤلاً، وهي تسمع وتمتلئ سخرية ومرارة في وقت واحد. كانت تنظر في وجوه النساء، تسمع كلماتهن، تتابع ما يجري، حتى إذا اقترحت إحدى العجائز نوعاً من العلاج هزت وضحة رأسها دلالة الرفض، ولم تتردد في أن تقوم بخشونة وتخرج إلى الفلاة تاركة النساء اللواتي جئن من أجلها.

نجمة المثقال، عرافة حدرة وما جاورها، قالت لما سئلت عن متعب الهذال إنه لا بد عائد وقالت إنه يتجول في الصحراء، ينتقل من مكان إلى آخر، لكنه ينام في مكان بعيد، وهذا المكان قريب من البحر، وسيبقى هكذا سنين لكنه سيعود، وحين يعود ستكون عودته كريح السموم، قوية كاسحة، لا يمكن لأحد أن يردها أو يقف في وجهها.

هكذا قالت نجمة المثقال، رغم أن الجميع قد يئسوا من عودة متعب الهذال وانقطعت أخباره تماماً، وكف الناس في الحدرة وغيرها عن السؤال، فأي شيء كانت تنتظر هذه العائلة أو ماذا تفعل؟ هديب الذي بقي فترة ثم سافر في الصيف الكبير، رغم أن الكثيرين ألحوا عليه بالبقاء، عدا وضحة، التي هزت رأسها بموافقة كبيرة حين سألها أن يسافر، هل يعود هديب بعد فترة قريبة أم راح كما فعل متعب ولن يعود قبل سنوات مثل عادة الكثيرين من أهل هذه المنطقة؟ وشعلان ألا يزال في وادي العيون أم ذهب يبحث عن أبيه؟ وابن الراشد هل اكتفى بالسخرية مثلما كان يفعل من قبل أم جاءت فرصته الآن لكي ينتقم من متعب الهذال وذريته كلها؟

كان على فواز، باعتباره أكبر أولاد متعب الهذال الذكور، أن يسمع ويفكر وأخيراً أن يتدبر أمر العائلة. كان يترجم نظرات أمه وتصرفاتها، وكان يحس بالعذاب الذي يفيض من هاتين العينين ولا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل.

أما الأقرباء الذين رحبوا بعائلة متعب الهذال، وأصبح ترحيبهم شفقة بعد أن عرفوا ما حلّ بوادي العيون، فكانوا ينظرون إلى هذه العائلة نظرة يمتزج فيها العطف بالتساؤل والحزن، وكانوا يعتبرون أن أولاد متعب لا يزالون صغاراً، وما عليهم في هذه الفترة إلا أن يأكلوا ويشربوا وينتظروا، لعل شيئاً ما بعد ذلك يقع، ولم يقبلوا حزن وضحة بعد أن اضطروا لقبول صمتها، أما الحذر الذي كان يبديه الأولاد، خاصة فواز، فلم يفهموا له سبباً أبداً، كانوا ينظرون إليه باستغراب ويتساءلون.

شعلان ظل في وادي العيون. لا أحد يستطيع أن يجزم هل ظل من أجل التعويض أم من أجل العمل في الشركة، حسب وعد ابن الراشد، في محاولة لاسترضاء عائلة متعب الهذال وكسبها، لأن الأمرين اختلطا إلى درجة أن شعلان، لما سئل بعد ذلك بسنوات، لا يتذكر أيهما حدث قبل الآخر: التعويض أم العمل في الشركة. ولأنه ظل في وادي العيون، الوادي الجديد الذي لا يمتُّ بأية صلة إلى ذاك الذي كان في يوم من الأيام، عدا الإسم، فقد افترض، بعد غياب أبيه، أنه يؤسس قبيلة جديدة بدل تلك التي كانت، ولأن كل واحد من الاثنين عمل بطريقة تختلف عن الآخر، فإن القبيلة الجديدة التي أسّسها شعلان، والتي امتدت وانتشرت، ولا تزال لها بقايا حتى الآن، بدأت من وادي العيون أيضاً، لكن لم تترك مكاناً إلا ووصلت إليه، وإن يكن ضمن نسق مختلف، وظلت تدور في ذلك الفلك الذي يجعل كل الأشياء، مهما ابتعدت عن المركز متصلة به ومحكومة بقواعد قاسية لا فكاك منها.. هذه القبيلة الجديدة تمثل امتداداً ملعوناً لمتعب الهذال، للعتوم! للحياة التي كانت.

انزرع شعلان في وادي العيون ليس كالنخيل الذي كان يملأ الوادي فيما مضى من الأيام، وإنما مثل الأعمدة الحديدية التي تنغرس في كل مكان، وخلال فترة قصيرة تغير شعلان، تغير كثيراً، حتى اسمه في المرحلة الجديدة تغير، أصبح «شعلان الشركة». وفي أحيان أخرى «شعلان الأميركاني» بدل شعلان بن متعب الهذال، لتمييزه عن شعلان أبو الطبيخ، متعهد التموين في وادي العيون وشعلان الأعور حارس البوابة الخلفية في

المعسكر، إضافة إلى شعلان بن متعب تعلّم اللغة الإنكليزية أسرع من الآخرين وقبلهم! ظل الكثيرون، لفترة طويلة، يضحكون من التسمية الجديدة، ويعتبرونها مزاحا لا بد أن ينتهي كما بدأ، لكن والأيام تمر وشعلان يستمر في عمله في الشركة وينتقل من مكان إلى آخر، من قسم إلى آخر، فقد زال تقريباً اسم متعب الهذال، عدا المعاملات الرسمية، واحتل مكانه الإسم الجديد. وإذا ظلت هذه التسمية تثير التساؤل والاستغراب لمن يسمعها لأول مرة، وبعض الأحيان تثير شعلان نفسه، أو أي واحد من أبناء متعب الهذال وأقربائهم، فما لبث أن تعوّد عليها، وتعود عليها الآخرون أيضاً. . . إلاّ إذا استعملت للتعريض أو السخرية.

كيف يمكن للأشخاص والأماكن أن يتغيروا إلى الدرجة التي يفقدون صلتهم بما كانوا عليه، وهل يستطيع الإنسان أن يتكيف مع الأشياء الجديدة والأماكن الجديدة دون أن يفقد جزءاً من ذاته؟

ما كادت الرسالة الشفوية التي بعث بها شعلان إلى الحدرة، طالباً فيها مجيء فواز، وأيّ من الأقارب الآخرين، إلى وادي العيون «لأن العمل في الشركة مضمون» حتى انفجرت زوبعة في رؤوس اثنين من العتوم، وملأتهما بإلحاح لم يستطيعا مقاومته أو التغلب عليه.

ففواز الذي قضى في الحدرة سنة وبضعة شهور، ما كادت تصله رسالة شعلان حتى دوت في رأسه تلك الأغنية القديمة: السفر. أما عندما تمثل له وادي العيون فلم يعد قادراً على الاحتمال أو الانتظار. تدبر الأمر بسرعة، وقرر أن يسافر مع أول قافلة، وصويلح، الابن الأوسط لسليمان الهديب، لم يتردد ولم يطل استعداده ليكون جاهزاً. أما وضحة التي وافقت أسرع مما كان يتوقع الكثيرون، فقد جعلت سليمان الهديب يشفق على هذا الصغير الذي «يضيع كما ضاع أبوه» وإذ حاول معه ليؤخر سفره، في أن يذهب صويلح قبله، حتى إذا وجد له عملاً بعث وراءه، لكن إزاء إصرار فواز، الذي بلغ حدود العناد، وفي محاولة غامضة لإقامة رمز من نوع ما لهذه العائلة التي بدأت تتآكل وتضيع، لم يطل الأمر. . . وهكذا تأهب هذان الشابان للسفر على أن «يعودا في أقرب وقت، وإلا يتجاوزا

وادي العيون» كما أكّد عليهما سليمان الهديب وكرر مرات كثيرة.

لما وصلا إلى وادي العيون بدا المكان لفواز وكأنه لم يره من قبل. لم تعد له صلة بالوادي الذي تركه، لم يبق فيه شيء من الأشياء القديمة، حتى الريح التي كانت تهب في مثل هذا الوقت من السنة طرية منعشة، أصبحت الآن لفحاً قاسياً خلال ساعات النهار كلها، وبرداً ينفذ إلى العظم في ساعات الليل المتأخرة. أما الرجال الذين تجمعوا، لا يعرف من أين، في البيوت الخشبية والخيام، فقد كانوا خليطاً عجيباً من البشر، ولا يشبهون أياً من الذين يمكن أن يلتقي بهم الإنسان. حتى القوافل التي التقى بها فواز في عجرة خلال رحلته الأولى، أو في رحلته الثانية، وأثارت استغرابه وحيرته، تبدو له الآن مخلوقات متجانسة لها ملامحها ونكهتها. هنا في وادي العيون، هذه المرة، يشهد مخلوقات غريبة متنافرة مملوءة بالصمت والحزن، وبدا له كل واحد من العمال أشبه بطير من الطيور ضل سربه وطريقه فلا يستطيع البقاء ولا يقوى على متابعة الرحيل.

كاد فواز أن يرجع خلال الساعات الأولى لوصوله، فبعد أن بقي مثل كلب إلى جانب الأسلاك الشائكة، بانتظار عودة شعلان، لا يعرف من أين، طلب منه ومن الآخرين الذين وصلوا معه أو بعده أن يبقوا بعيدين عن بوابة المعسكر، دون أي توضيح، ودون أية نظرة تحمل معنى من معاني الفهم أو التعاطف، وقد نُحوا أكثر من مرة لما اقتربوا، وفي مكانهم ذاك سفّت عليهم الرمال وغطاهم الغبار، حين بدأت تلك الآلات الكبيرة المجنونة تدخل أو تخرج من المعسكر.

ساعات من العذاب والمعاناة تفوق عذاب الرحلة كلها. لا لم تكن الرحلة، هذه المرة، تشبه رحلتهم الأولى، حتى مياه روضة المشتى كانت أطيب مذاقاً، وكان الناس أكثر رغبة في الحديث. أما هنا، خلال الساعات الواقعة بين الظهر والغروب، فقد شعر أن وادي العيون الذي كان، والذي عاش فيه سنين عديدة واستقبل القوافل والرعايا والطيور، لم يعد مثلما كان. وشعلان الذي وصل ساعة الغروب، بدا غريباً بشكله وملابسه: الخط الأسود الذي كان على شكل زغب خفيف فوق شفته، طفح بقوة

إعلاناً عن شارب تكوّن واكتمل، إضافة إلى لحية أقرب ما تكون إلى شعرات متفرقة نبتت بشكل غير منتظم وكانت شديدة الإثارة، خاصة وأن الغبار وبقع الزيت ملآ وجهه فبدا مضحكاً، تحت ظلال تلك الطاسة الحديدية البيضاء، التي وضعها على رأسه.

بعد أن تعانقوا وتحدثوا وصمتوا عند بوابة المعسكر، لم يستطع شعلان أن يدخلهما إلى الخيمة التي كان يعيش فيها إلا بصعوبة. استغل علاقات كانت له بحارس البوابة، ولجأ إلى الاحتيال والمزاح، إضافة إلى أساليب شيطانية. فوضع الطاسة الحديدية على رأس صويلح، فوق الغترة، وفي مهرجان من الصخب والضحك دخلوا جميعاً الخيمة الكبيرة.

في الخيمة كان عدد من الرجال، كان بعضهم نائماً، وآخرون يهيئون الطعام، وكان غيرهم يلعبون الورق ويتصايحون. تطلع إليهم فواز بعجب يصل حدود الدهشة، أما الخيمة الكبيرة فقد بدت أكبر من أية خيمة رآها، أكبر من مضافة ابن الراشد، وأكبر من مضافة ابن هديب، لكن بدت صغيرة أيضاً إلى درجة لا يمكن أن تستقبل زائراً جديداً. أما الرجال فقد ظلوا بنفس الوضعية، حين دخل هؤلاء الغرباء، بعد أن ألقوا عليهم نظرات عابرة لا تعني شيئاً. ورغم أن شعلان، بدخوله الصاخب، حاول أن يخلق جواً جديداً، ثم حين همس في أذن فواز أن أحد الثلاثة الذين كانوا يلعبون الورق قريب لهم إلا إن كل شيء بقي على حاله.

في كل المرات، في كل الأماكن، لم يحس فواز بالخوف كما أحس في هذه المرة وفي هذا المكان. كيف ينام هؤلاء الناس وأين؟ كيف يأكلون؟ لماذا يختلفون عن الناس في وادي العيون أيام كانوا فيه، وعن الناس في عجرة والمشتى وحدرة؟ بدا له أن كل واحد من هؤلاء يعيش بمفرده، وليس له صلة، من أي نوع، بالآخرين.

كان يريد أن يتحدث إلى شعلان عن كل شيء، لكن الكلمات التي حضرها طوال الرحلة، والتي تضمنت تفاصيل كثيرة منذ أن غادروا وادي العيون، وحتى الآن، غابت من رأسه تماماً. لم يجد عنده القدرة أو الرغبة في الحديث. ابتسم أكثر من مرة حين التقت نظراته بنظرات شعلان، أما

حين سأله عن أمه وأخوته، عن الحدرة، وما إذا كانت تشبه وادي العيون، فقد كانت إجابات فواز مضطربة غير واضحة، وحين التمعت صورة متعب الهذال قال فواز إنهم لم يسمعوا شيئاً عنه منذ إن تركوا الوادي، وكان يريد أن يسأل شعلان، تمنى لو كانا وحيدين. لو كانا في مكان آخر. قال شعلان ليتغلب على هذا الجو:

ـ تعالوا نغسل أيدينا ونحضّر عشانا.

بصمت مشوا. اقتربوا من براميل المياه. كانت الأرض هناك زلقة، مليئة بالمياه الراكدة.. وكانت رائحة المكان كريهة، أما حين لامست المياه وجوههم فقد أحسوا أن لها طعماً غير مستساغ، ربما نتيجة الصدأ، أو نتيجة إضافة مواد غريبة، سأل صويلح ما إذا كانوا يشربون من هذه المياه أم لا. وحين هز شعلان رأسه بالإيجاب تطلع إلى فواز وقال بحزم:

ـ كانت مياه وادي العيون أطيب.

قال فواز، وكأنه تذكر شيئاً زاهياً، أو يريد أن يخلق مشكلة:

ـ لو كان أبي هنا الآن لما شرب من هذا الماء.

نظر إليه شعلان نظرة مليئة بالتساؤل والمرارة، وربما كان يقاوم شيئاً في داخله، بعد لحظات من الصمت الحزين، قال كأنه يكلم نفسه:

ـ احمد ربك إن الماء موجود.

ـ ما هي علوم أبوي يا شعلان؟

وبطريقة بارعة، وكأن أسبابها ولدت في تلك اللحظة، صرخ شعلان على أحد الرجال، كان يمر قريباً من البراميل باتجاه خيمة بعيدة، وحين التفت سأله عن أشياء لم يفهم صويلح وفواز منها شيئاً أو ماذا تعني، ولما فرغ من ذلك قال، وقد بدا على وجهه الحماس:

ـ نلحق على السوالف، هالحين لازم نحضر عشانا.

وانصرفوا إلى تحضير العشاء.

في الفضاء الخارجي، بعيداً عن الخيام، وسط الصحراء، جلس الثلاثة. كان القمر صغيراً، وقد ظهر مبكراً هذه الليلة، لكن دون أن يحس به أحد. كانوا كالخائفين أو كالمتآمرين ينظرون حواليهم إذا سمعوا صوتاً، إذا رأوا شبحاً. لم يرفعوا رؤوسهم نحو السماء ولا أحسوا بالبرودة التي بدأت تملأ الجو، فقد طغت عليهم أحاديث من نمط غريب: كيف كان وادي العيون، وكيف هو الآن. وهؤلاء الأميركان الشياطين الذين جاءوا من أجل الماء، لماذا يحفرون الأرض دون هوادة، دون توقف ولا يخرج منها شيء؟ ومياه وادي العيون ومياه الصبحة ومياه الآبار الكثيرة التي حفرت لماذا كلها تصب في ثقب داخل الأرض، ولا تعطى للناس؟ هل إن في باطن الأرض أعداداً هائلة من الجن تحس بالعطش وتصرخ ليل نهار ولا يسمعها إلا هؤلاء فجاءوا لكي يسقوها؟ هل احترق الجن في باطن الأرض ويريد الأميركيون أن يطفئوا هذا الحريق، ولذلك يصبون الماء؟ هل توجد حياة ثانية تحت الأرض، وفيها بساتين وأشجار وبشر كلهم يحتاجون الماء ويطلبونه؟

كان الشبان الثلاثة يفكرون بهذه الطريقة، ويطرحون على أنفسهم، على بعضهم بعضاً، أسئلة يعرفون أن لا أحد يستطيع أن يجيب عنها، وكانت هذه الأسئلة تتوالد بسرعة ومعها الخوف والحيرة. وإذا كان شعلان يعتبر نفسه أكثر خبرة وأكثر صلة، فقد كان أيضاً أكثرهم خوفاً. لقد نشأ هذا الخوف فجأة قبل عدة أسابيع، حين بدأ يظهر له أبوه. وكان يظهر فجأة في أطراف المعسكر خلال الليل. لم يقل له أحد ذلك وإنما رآه بنفسه. لم يستطع أن يبوح بهذا السر لأحد، كتمه في نفسه وظل يترقب

وينتظر منذ تلك الليلة وحتى الآن.

رآه أول مرة قريباً من بوابة المعسكر، لكن ما إن تأكد منه وركض نحوه حتى ركب ناقته وسار. صرخ يناديه، لكنه أسرع ثم اختفى. ورآه بعد ذلك مرات عديدة، لكن في كل هذه المرات لم يستطع أن يدركه، كان يسرع راكضاً ثم يختفي، ونتيجة لذلك ولد الخوف في قلبه، لم يعد قادراً على كتمان هذا الخوف أو تحمله. كان متأكداً أن أباه هو الذي يتجول حول المعسكر، وبعض الأحيان يدخل إلى داخله، لم يشكّ في ذلك مرة واحدة. القامة هي قامة متعب الهذال والمشية هي مشيته، خاصة حين ينحني أو حين يركض. أما الناقة فهي ناقته العمانية البيضاء ذاتها. ولا يمكن أن يخطئ في ذلك أبداً.

تعمد شعلان بعد أن رآه مرة قريباً من البوابة، أن يذهب في نفس الوقت إلى نفس المكان، لكن لم يأت. بعد عدة أيام رآه قريباً من براميل المياه، في الليل المتأخر، كان تحت الضوء مباشرة، وبدا وجهه مضيئاً وحركاته خصبة، وكانت تصدر منه أصوات فرحة، أشبه ما تكون بالصهيل، لكن ما كاد يتقدم نحوه بضع خطوات، وكانت المسافة بينه وبين البراميل لا تزال كبيرة، حتى التفت قليلاً ثم نهض بسرعة واختفى، تلاشى تماماً... أما في المرات التالية فقد رآه في أماكن أخرى، قرب نقطة الحراسة الخلفية، في ظل الخيمة الكبيرة، وقد تأكد من ذلك حين وجد آثار الناقة أيضاً.

ومنذ الليلة الأولى أصاب شعلان شيء يشبه المرض. إنه يتعدى الخوف ويتعدى الوهم، لأنه متأكد من وجود أبيه، ولأنه يراه. صحيح أنه لم يستطع أن يتحدث معه، أن يوقفه أو أن يسأله، ربما لأن أباه لا يزال غاضباً منه، لكنه مع ذلك لا يشك ولا يتوهم، وإذا كان أبوه لا يزال يهيم في المناطق القريبة من وادي العيون، رافضاً العودة ورافضاً أن يتكلم مع أحد، فسوف يستطيع أن يقنعه، بطريقة ما، في وقت ما، أن يعود..

الآن، حين اختار شعلان هذا المكان، وبوجود اثنين من أقربائه المباشرين، يمكن أن يفصح عما يعذبه، عما يدور في رأسه، ويمكن أن

يسألهما دون خوف ما إذا كان هذا الذي يراه متعب الهذال ذاته، أباه ذاته أم شخصاً آخر. ما إذا كان طيفاً أم حقيقة. وهو حين بعث يريد أخاه فواز أن يوافيه مرة أخرى، وفي وادي العيون بالذات، كان يحترق رغبة لكي يتأكد، كي يشاركه الأقربون، ولكي يعرف أيضاً ما إذا كان أبوه قد رجع، إذا جاءت منه أخبار أو رآه أحد.

في الظلمة التي كانت تتكاثف لتصبح مثل سياج سميك، كانت أصوات العمال في الخيام وضحكاتهم تتناهى إلى الثلاثة، وإن بدت بعيدة متقطعة، وكان المصباح اليدوي الذي يستعمله الحارس بين فترة وأخرى يخط شبحاً طويلاً باهتاً، وهو يمر برخاوة على الرمال قريباً من الأسلاك الشائكة، دون أن ينير شيئاً. كان الحارس يفعل ذلك، أحياناً، لكي يتغلب على ضجره ووحدته أكثر مما يستعين به على الرؤية.

وشعلان الذي اختار هذا المكان بالذات، وبدأ هذه البداية عن وادي العيون والجن، وكان يهيّئ الاثنين إلى اللحظة المناسبة، فإذا جاء أبوه، إذا رأى أباه، مهما كان بعيداً أو رافضاً.. أو حتى لو كان طيفاً، فلا يمكن أن يتركه يفلت منه هذه المرة، لا بد أن يصرخ عليه، أن يركض وراءه، أن يقول له إن فواز معه. المهم أن يصل إلى نتيجة، أن يقتنع بشيء وأن يقتنع معه الآخرون.

كانت عينا شعلان تدوران بنظرة تتجاوز نصف الدائرة. بدأ الأمر غريباً لصويلح، سأل وهو يتلفت:

ـ أتنتظر أحداً؟

هز شعلان رأسه بطريقة لا يمكن أن تفهم ما إذا كانت نفياً أو تأكيداً، وترافقت هزة الرأس مع حركة خائفة، وبعد صمت طويل قال كأنه يهذي:

ـ الله يلعن هذي الأيام.. كل شيء يحيّر في وادي العيون.

قال فواز بانفعال:

ـ كان وادي العيون أفضل ألف مرة.

ـ لو سمع الناس كلام الشايب كان وادي العيون مثل ما تركته، لكن ما أدري ويش دهى الناس.

هكذا رد شعلان، وكان لا يزال يتلفت.

بدأ القمر يميل نحو الغرب. كان لدى الثلاثة أشياء كثيرة يمكن أن يقولوها، لكن الخوف الذي كان يسيطر على شعلان جعلهم جميعاً خائفين أيضاً. إنهم في هذا المكان، ضمن الأسلاك الشائكة، غرباء إلى درجة لا يستطيعون أن يتصوروا أنهم كانوا هكذا في وقت من الأوقات، أو في مكان من الأمكنة، وكانت تدور في صدورهم وعقولهم رغبات وأفكار ومخاوف لا نهاية لها. قال شعلان بنوع من اليأس:

ـ الله يلعن الشيطان اللي يفرّق الناس...

سكت قليلاً ثم زفر وسأل من جديد

ـ ما سمعتم أخبار أبوي.. يا فواز؟

نظر إليه فواز نظرة متسائلة حزينة. كان قد أخبره، منذ اللحظات الأولى لوصوله، وبسرعة، أن أخبار أبيه انقطعت قبل أن يتركوا وادي العيون، وأن لا أحد سمع شيئاً أو جاء بخبر منذ ذلك الوقت. قال شعلان بحزم:

ـ وين يروح؟ يغيب سنة، سنتين، لكن لازم يرجع.

قال صويلح وقد أحس بالحزن الذي استبد بالأخوين:

ـ وكّلوا الله، يا جماعة الخير، الغايب علومه معه، ولازم يرجع.

قال شعلان بشكل مفاجئ:

ـ أول أمس شفت أبوي!

نظر إليه الاثنان نظرة فرحة ومتسائلة، دهش فواز، كان يريده أن يتكلم، أن يتابع، لكن حين سحب وجهه إلى الناحية الثانية، وكأنه لا يريدهما أن يتطلعا إليه، حين غرق في الصمت، دون أن يوضح أو يضيف كلمة واحدة، سأل فواز، وخرجت كلماته خائفة سريعة:

ـ متى رجع؟ وين هو؟

رد شعلان وهو يستدير تماماً، وينظر في عيني فواز:

ـ هذه الساعة ساعته، وكّد، وكّد زين وتشوفه!

تلفتوا جميعهم إلى أكثر من جهة لعلهم يرونه آتياً، لكن حين لم يروا شيئاً سأل فواز بلهفة:

ـ وينه؟ متى تركته؟

وبدأ شعلان يقصّ عليهما كيف رآه، أين رآه، أما حين حاول أن يكلمه، أن يناديه، فكان يختفي فوراً. كان كالبرق يظهر ثم يغيب، لا يريد من أحد أن يقترب منه، أو أن يزعجه. كان يدور في المعسكر طوال الليل، مرة راكباً ومرة راجلاً، وكان يشرب ويغسل يديه من مياه البراميل.

روى ذلك بانفعال ممزوج بالخوف، وكان بين كلمة وأخرى يتلفت لعله يراه آتياً، وما كاد يصل إلى هذا الحد حتى قال بما يشبه الرجاء:

ـ انتبهوا يا جماعة.. هذه الليلة إذا جاء عزّتنا به وما كنا تركناه لو انقلبت السماء على الأرض!

أيـام .... طويلة من الانتظار القاسي القلق. لم ينم الثلاثة خلالها إلا كما تنام الذئاب. لم يعرفوا طعم الراحة ولم يهدأوا في الليل والنهار. انتظروا إلى جانب براميل المياه، عند بوابة المعسكر، عند الأسلاك الشائكة، قرب نقطة الحراسة الخلفية. انتظروا في ساعات الليل الأولى، وفي ساعات الليل المتأخرة. انتظروا عندما اكتمل القمر وصار بدراً ثم بعد أن أخذ يتأخر في الظهور أو لم يعد يظهر...

ولم يأت متعب الهذال!

حتى في ساعات النهار، حين يذهب شعلان إلى العمل، لا يعرف أين أو ماذا يعمل، ويبقى فواز وصويلح وبعض العمال الآخرين الذين عملوا في الليل، كان فواز يتعمد الخروج وإلقاء نظرة طويلة متأنية على المعسكر كله. كان يتفرس في الوجوه، يتطلع باهتمام إلى الزوايا الظليلة قرب الخيام أو قرب البيوت الخشبية لعله يراه، لكنه لم يظهر.

في إحدى المرات، وكانوا قد فرغوا لتوهم من تناول عشائهم، وقد تمددوا على الرمل، زعق شعلان برعب:

ـ هذا هو... هذا هو، ناظروا، بحّروا زين.

التفتا إلى حيث أشار، انقطعت أنفاسهما وانعقدت ألسنتهما من الخوف. نظرا بإمعان، نظرا في أكثر من جهة. كانت الظلمة الخفيفة، ظلمة أول المساء، قد هبطت، والرؤية لا تزال ممكنة، وإن تكن غائمة، مظللة، تحدد الخطوط لكن لا تبرز الملامح. نظرا بإمعان! تطلعا إلى حيث كانت يد شعلان ممدودة، تطلعا إليه، كانت الدهشة الممزوجة تملأ وجهه. هز رأسه مرتين أو ثلاث مرات، وكأنه يزيل عن عينيه غشاوة. أمسك بيد فواز فوق الساعد وضغط بقوة وخرجت كلماته من بين أسنانه:

ـ مرّ من هناك، كان على ناقته ومسرعاً كأنه الطير.

وعبق وجه شعلان حتى بدا أقرب إلى السواد. تطلع إليهما بغيظ وألم. كان يريدهما أن يلتفتا بسرعة أكبر، أن يكونا أكثر انتباهاً.

ومن جديد حين تطلعا إلى حيث أشار شعلان، كان على البعد اثنان يسيران. خرجا لتوهما من خيمة تقابلهم. كان الاثنان واضحين مرئيين حين خرجا، ولما سارا، وهما الآن يتوجهان إلى بوابة المعسكر. هل يحتمل أن يكون ما رآه شعلان طيفاً أو مجرد وهم؟ وهل يمكن أن يمر الإنسان بهذه السرعة وبهذه الخفية دون أن يراه أحد؟

لم يتكلموا خلال فترة بدت طويلة وثقيلة. كان الصمت مثل خيمة حديدية فوق رؤوسهم، وكانت النسمات اللينة الصغيرة وهي تعبر تحمل رائحة الرطوبة وربما المطر. قال شعلان موضحاً:

ـ هذه المرة كان أبعد المرات وأسرعها.

قال صويلح متسائلاً:

ـ يا ولد عمّي.. خاف شفت غيره!

نظر إليه شعلان بعذاب. كان في عينيه رجاء أقرب إلى التوسل، كان يريد أن يوافقه، أن يصدقه. اقترب من فواز، صبّ نظرات حزينة في عينيه. كانت نظرات متسائلة: «وأنت.. شفته مثل ما أنا شفته؟» ظل فواز صامتاً وقد اجتاحته حالة من الخوف، وبكثير من اليأس قام شعلان واتجه إلى الخيمة.

بقي فواز وصويلح فترة طويلة في مكانهما. كانا صامتين كالحجارة، وكانا مسلوبي الإرادة كمياه تهبط منحدراً، لا يعرفان ماذا يفعلان، وليس لديهما أية رغبة لأن يتحدثا، لأن يتحركا. وإذا كان فواز مقتنعاً أن شعلان قد رأى شيئاً، طيفاً أو شبحاً، أو ربما يكون قد رأى أباهما، فقد كان صويلح في شك مما قاله شعلان، أكثر من ذلك بدا مستغرباً!

في إحدى اللحظات قال صويلح وكأنه يحدث نفسه:

ـ أخاف يكون شعلان مسبوع.

توقف لحظة ثم أضاف بتساؤل:

ـ وعسى ما يكون مريض؟

ـ رد فواز بحدة:

ـ ما به شي أبداً.

وبنوع من اليأس قال وهو يمشي:

ـ ولازم نشوفه.

هذه الليلة، الليالي التي قبلها ثم الليالي التي تليها، وطوال أسبوعين وبضعة أيام لم يناموا ولم يعرفوا طعم الراحة. صحيح أن صويلح شاركهما هذه الليالي، كان قرباً منهما، كان معهما، لكنهما، هما، ولدا متعب الهذال، كانا شيئاً مختلفاً، وعاشا حالة مختلفة.

هل قال صويلح لأحد شيئاً؟ هل تحدث عن الموضوع بطريقة أو أخرى؟

إن شيئاً من هذا قد حصل، إذ ما مر يومان إلا وجاء ابن الراشد. لما رآهم في زاوية الخيمة عند الغروب أبدى دهشة لفتت نظر الموجودين كلهم. سأل بطريقة ساخرة:

ـ ها... ما خلصنا من متعب الهذال وبلاياه؟

وحين أبدى شعلان استغرابه، نظر إليه بطريقة قاسية، سأل من جديد وهو يشير إلى فواز:

ـ أنت.. ولد من؟

رد شعلان بحزم واختصار:

ـ تراك نسيت الناس يا أبو محمد...

ومن جديد نظر إلى فواز يتأمله ويهز رأسه، تابع شعلان:

ـ أولاد متعب الهذال، يا أبو محمد، ما وراءهم بلاء!

ضحك ابن الراشد ليتغلب على الحرج، إذ أحس أن الهجوم الذي بدأه لا مبرر له، قال شعلان مواصلاً تعريضه:

ـ وطويل العمر، متعب الهذال، له ردّة

التفت ابن الراشد إلى الناحية الثانية، وقال مخاطباً رجلاً كان يتابع الحديث باهتمام:

- إذا بغيت صاحبك يدوم فحاسبه كل يوم.
رد شعلان وقد بدا منفعلاً:
- إذا كان بيننا حساب، يا أبو محمد، فهذا شليلنا، ويا مائة مرحباً، حنا جاهزين!
ضحك ابن الراشد ضحكة صاخبة وتقدم من شعلان، وبعد أن هدأت ضحكته قال بطريقة مختلفة عن السابق:
- يا ابن أخي، أنتم العتوم بكم خصلة ما تخلصوا منها...
قال هذا وهو ينقل نظراته من وجه لآخر، وقد خيّم الصمت، حتى إذا خلق رغبة لدى الجميع سكت. سأل شعلان بغضب وحدة:
- وما هي الخصلة اللي تقول عليها يا أبو محمد؟
رد ابن الراشد وهو يقهقه:
- هذه هي: الحمق، تغضبون وتثورون من كلمة!
وجلس ابن الراشد على الأرض قريباً منهم وبدأ يتحدث بلهجة أبويّة:
- الله يذكره بالخير، أبوك، يا شعلان، قلنا له اصبر، قال لا، قلنا له الذلول الطيبة تردف اثنين يا متعب، قال لا؛ قلنا له الدنيا اليوم بحال وباكر تصير بحال ثانية، قال لا... وراح...
توقف لحظة، بدا كلامه غير واضح، أضاف:
- العتوم كلهم لا يعرفون إلا طريقاً واحداً، ولا يميزون بين اللي ينفعهم واللي يضرهم، لا يميزون بين الصديق والعدو.
رد شعلان بنفاد صبر:
- إذا كان بينك وبينه سالفة يرجع بالسلامة وتسولفه بها.
- يا وليدي ما بيننا شيء، وإذا رجع نسولف.. لا تخف.
وانتظروا أياماً، أياماً طويلة قاسية. كانوا ينتظرون متعب الهذال وينتظرون العمل. لم يظهر متعب مرة أخرى. لم يره شعلان بعد تلك الليلة، وقد ظل صامتاً أقرب إلى المرض في اليوم التالي لتلك الليلة، ثم في الأيام التي بعده، لكنه بدأ يتحسّن تدريجياً بعد ذلك، وإن لم يزايله السهوم ولم ينم نوماً طبيعياً عميقاً. أما فواز فقد ظل خائفاً شديد التنبه لأية

حركة، لأي صوت، وكذلك لم يستطع أن ينام نوماً متصلاً. وإذا كان شعلان قد تعود أن يخرج إلى الفلاة في بعض الليالي، ربما لانتظار أبيه، أو للبحث عنه، فقد كان فواز يتقلب على فراشه ليشعر أخاه، بطريقة ما، أنه لا يزال بين النوم واليقظة وإنه مستعد لمرافقته في رحلته الغامضة، ومع ذلك ظل متردداً في أن يقول له، في أن يشعره، ولم يعد أيضاً إلى طرح الموضوع بشكل مباشر، ربما تجنباً لأي سوء فهم.

بعد أسبوعين من الانتظار جاء ابن الراشد، وبعد جولة قصيرة، وقبل أن يترك المعسكر قال لفواز وصويلح أن الشركة لم توافق على استخدامهما، ويجب أن يتركا. كان مسرعاً وكأن وراءه أشياء كثيرة تنتظره. قال إن فواز لا يزال صغيراً، وعليه أن ينتظر سنة أو سنتين قبل أن يتقدم بطلب العمل مرة أخرى، وقال إن صويلح عينه كريمة ولا يصلح للعمل في الشركة، قال ذلك بسرعة وأدار ظهره ومشى.

حين رجع شعلان من العمل ونقلا إليه ما أبلغهما ابن الراشد هز رأسه، وخرجت الكلمات بطيئة نازفة من بين شفتيه:

ـ كنت أعرف...

بصق على الأرض وتابع:

ـ منة الله ولا منة ابن الراشد.

تطلع إليهما بحزن، كأنه يعتذر. هز رأسه عدة مرات ثم أضاف يخاطب نفسه:

ـ لما قلت له قال: «أهل العيون أولى من غيرهم».

وأشاح بوجهه إلى الناحية الثانية، وقال بسخرية:

ـ قبل كم يوم قال لي واحد من جماعته: «ابن الراشد يقول: واحد من العتوم عتم علينا، وشعلان بن متعب تعب الدنيا... وهذا يكفينا!»

وخيّم الصمت.

في نفس الليلة، وبإلحاح خفي، غير جارح، غادرا وادي العيون إلى عجرة في طريقهما مرة أخرى إلى الحدرة.

هل هو ماء روضة المشتى يصيب بلعنته واحداً آخر من عائلة هذال أم أن هناك قوة خفية غامضة، قاسية وشديدة العتو، هي التي تلاحقهم واحداً بعد آخر حتى تمحقهم، فلا تترك أحداً أو أثراً منهم؟

في طريقهما إلى الحدرة من وادي العيون، بعد أن مكثا أسابيع عند شعلان، واضطرا إلى قضاء عشرة أيام في روضة المشتى، بانتظار أن يواصلا الرحلة، وفي اليوم الثالث لوصولهما إلى الروضة، جنّت الدنيا: خلال ساعات قليلة لم تبق قطرة ماء واحدة في السماء، أو في الأمكنة الأخرى، من وادي الجناح حتى الضالع، إلا ووصلت إلى روضة المشتى. امتلأت الأودية بماء لا يعرف من أين أتى. وروضة المشتى المتربصة، المطلة، امتلأت بالخوف والفرح معاً. كان الناس ينظرون باستغراب إلى السماء، إلى المطر ينهمر بجنون كما لم يفعل هكذا من قبل، لكن سرعان ما يركزون أنظارهم على الوادي الذي تهدر فيه المياه، وتزداد لحظة بعد أخرى. كان الأطفال إلى جانب الشيوخ، والنسوة على بعد خطوات، وقد أصابت الجميع حالة من الذهول. كان الشيوخ هم الأكثر فرحاً. كانت وجوههم التي عذّبها الزمن الطويل وملأها بالغضون والذكريات ترى شيئاً لم تره من قبل، وكانت الأصوات تترافق مع حركة الأيدي، مع حركة الأجساد، وكأن حياة جديدة تتسرب إليهم مع كل قطرة مطر، مع كل دفقة تهدر في الوادي.

هل يمكن أن تُنسى تلك الساعات والأيام الحافلة البراقة؟ وهل تمحي تلك الأصوات التي تشبه الأدعية الغريبة المفاجئة، أو ربما تشبه الأناشيد، وهي تخرج صاخبة قوية من فم الوادي، من أفواه القرب التي انفتحت من

السماء؟ وهل الأصوات التي تسمع، خاصة أصوات الشيوخ والأطفال، بنغم يشبه صوت الريح، هي أصوات بشر أم أصوات تهبط من السماء أو ترتفع من أعماق المياه؟ كان صوت «لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله» الذي يتفجر من كل مكان يولّد الرهبة، ويخلق حالة من الخوف والقشعريرة. الصغار أخذوا وانفعلوا فامتلأت حركتهم بالرهبة والحرص، وكانت تساؤلاتهم تجد إجاباتها السريعة الواضحة في تصرفات الرجال وأدعيتهم. وحتى النسوة اللواتي كن بعيدات أول الأمر، ما لبثن أن اقتربن واقتربن، وتداخلت أجسادهن بأجساد الرجال، لكي يلقين نظرات مباشرة وأكثر قرباً من الوادي على المياه القوية الهادرة، وكن أكثر فرحاً وأقرب إلى النشوة، وهن يرددن أصواتاً تشبه الأغاني والأناشيد، وكانت تصدر عنهن دون خوف ودون تحفظ.

كان يمكن لهذه الذكرى أن تغيب، أن تتراجع، لو أن متعب الهذال لم يظهر.

كان المطر يملأ الأرض والسماء. كان الوادي الضيق عند بداية روضة المشتى يدفق بجنون، وكان الناس يقفون مذهولين يتطلعون.

في اللحظة الكبيرة، حين وقف الرجال بخوف وقد جاءت الأمواج القوية العاتية، فتراجعوا إلى الخلف خطوات، وطلبوا بانفعال غريزي أن يبتعد الجميع، أن يتراجعوا، في تلك اللحظة وصوت واحد ردده الكبار والصغار، الرجال والنساء، ربما دون وعي «لا إله إلا الله، لا إله إلا الله»، في تلك اللحظة بالذات، ومع التماعة البرق التي شقّت السماء، وخلقت خوفاً فوق الخوف، ظهر متعب الهذال. بدا كبيراً شامخاً، وأقرب إلى البياض. كان يحمل عصاه بيمناه ويشير إلى الناس من الضفة الثانية للوادي. كانت هيئته شديدة القوة والوضوح، حتى لبدا أقرب من الضفة الثانية، أو كأنه في وسط الماء. كان صوته ناصعاً وأقوى من صوت الرعد وتدفق المياه وصراخ الأطفال والنسوة.

قال لكل الذين اجتمعوا في روضة المشتى: «لا تخافوا... لا تخافوا من اللي تشوفوه هالحين».

وحين خيّم الصمت، وقد امتلأ الناس كلهم بالخوف والانتظار جاء صوته مرة أخرى: «هذا هو آخر الخير».

تراجع قليلاً إلى الوراء. بدا تماماً على الضفة الثانية للوادي. دق الأرض بعصاه، نظر إلى الجميع نظرة قاسية، وهز رأسه ثلاث مرات، وقبل أن يلتفت إلى الوراء هدر صوته من جديد: «الخوف من الجايات».

وحين تراجع الناس مرة أخرى إلى الوراء خوفاً من مداهمة السيل، وحين هدرت موجة كبيرة داخلة فم الوادي بقوة جمل هائج، تقدم فواز، اندفع كما يندفع السهم، كما تندفع الطلقة يريد أن يصل أباه.

أثناء حديثه إلى الناس؛ حين تراجع إلى الوراء؛ لما دق عصاه بالأرض، نظر إلى فواز. نظر ولم يبتسم مرة واحدة، كان أقرب إلى الغضب، وكان فواز خائفاً من غضبه. تمنى في تلك اللحظة لو يرضى عنه، لو يمتلئ في عباءته. كان يريد أن يمسك عصاه، أن يهزها، أن يقول له: «بعد غيابك يا أبي تركنا وادي العيون، هم الذين أجبرونا على أن نتركه. شعلان وحده الذي بقي. ذهبنا يا أبي إلى الحدرة. أنت تعرف الحدرة وتعرف الناس هناك. وأمي، يا أبي، لم تعد تتكلم. منذ رحلت يا أبي لم تتكلم، ونحن، كلنا، مرضنا، وانتظرنا أن تعود، كل يوم نقول اليوم. لم ننم ليلة واحدة كما ينام الناس في الأماكن الأخرى. وأنت يا أبي لماذا لا تأتي، لماذا لا تزورنا؟ ألا تحبنا يا أبي؟ ألا تريد أن ترانا؟ من أغضبك يا أبي؟ وإذا كان الكبار قد أذنبوا فنحن الصغار ما ذنبنا؟ أنا كبرت يا أبي، أكبر مما كنت تعرفني. كنت عند شعلان يا أبي. انتظرناك في وادي العيون. انتظرنا عند البراميل، وعند الأسلاك».

وكان يريد أن يقول أيضاً أشياء أخرى كثيرة غيرها، لكن كلمات متعب الهذال القوية، ووجهه القاسي الملامح، ثم خوف الناس وتراجعهم، وتلك الأصوات التي هدرت في لحظة غطت الظلمة فيها كل شيء، جعلت فواز حائراً عاجزاً ومملوءاً بالخوف. أما حين تراجع متعب الهذال إلى الضفة الثانية من الوادي، حين ابتعد قليلاً، فقد أحس فواز أن قوة تدفعه، ولولا أن صويلح، لولا أن ثلاثة كانوا يقفون بجانبه لاستطاع أن يعبر الوادي، أن

يصل إلى أبيه، لكن ما كاد يندفع، ما كاد يصيح بأعلى صوته «يوبه يا يوبه» وينتبه صويلح حتى أمسك به، عقله تماماً كما تُعقل الإبل، حدّده كما تحدد الخيل. أراد أن يفلت منه، صاح بأعلى صوته، رفس، شتم، حاول من جديد أن يفلت، أن يتحرر من القبضات القوية، لكن فجأة وجد صويلح يبطحه أرضاً وينام فوق صدره.

كان متعب الهذال هناك. كان أولاً وسط الماء، وسط الوادي، وبعد أن قال ما قاله، بصوت منادٍ، وأقوى من صوت مؤذن، تراجع إلى الخلف، تراجع بضع خطوات، لكن كانت ملامحه واضحة قوية، وكانت نظراته تدور في الوجوه. دق عصاه ثلاث مرات، كانت الأرض قوية تحت العصا، سمع فواز الدقات رنانة حادة، أحس العصا تنغرز في جنبه. أما حين أمسك به صويلح، كما يمسك السخل، وأدار رأسه كما يدار رأس الخروف وقت الذبح، فقد التقت عيناه بعيني أبيه. إنه متأكد من ذلك. كانت نظراته هذه المرة أكثر رأفة، وقد ابتسم له ابتسامة صغيرة. أما عندما حاول أن ينهض ويندفع بقوة مرة أخرى، ليلحق به، فقد أمسك به صويلح، أمسك به من قدمه وأوقعه، لامس وجهه الأرض، لما وقع، لم يعد يستطيع الرؤية، ولم يسمع الأصوات، ولم ير إلا الأرض الموحلة المالحة الأقرب إلى المرارة. عندما نهض مرة ثانية رأى أهل روضة المشتى جميعهم ينظرون إليه. كانوا كلهم فوقه أو قربه مثل كتلة النار، كانوا يطوقونه وقد بدوا شديدي الخوف. حتى وهم يفسحون له طريقاً واسعاً، تلفت حوله، نظر إلى الضفة الثانية من الوادي، قبل أن ينظر إليهم، بدت له الضفة خالية تماماً، لقد غادر أبوه مكانه. تطلع إلى الوادي كله، من بدايته حتى النهاية، لكن لم يره. تطلع إلى الوجوه حوله لعله يكون قد جاء لنجدته، لمساعدته، ليدفع عنه هؤلاء الذين يريدون منعه من الوصول إليه، تطلع إلى الوجوه بإمعان، تطلع إلى كل وجه، لكنه لم يره.

تطلع إلى صويلح. كانت نظرات صويلح غاضبة وخائفة. كره تلك النظرات. أحس أنه وحيد، وحيد تماماً. جثا على الأرض، ورفع وجهاً حزيناً إلى صويلح:

ـ ألم تره؟ أين هو؟ كان هناك. . . كان هناك.

تطلع إليه صويلح، وتطلع إلى الرجال والأطفال والنسوة، وحين رأى الجميع ينظرون إليه هكذا نهض بسرعة وركض.

بعد أن ابتعد فواز، وصويلح وراءه يتبعه راكضاً، شق برق غاضب لماع السماء كلها، واختلطت أصوات الناس بأصوات الرعد، نظر فواز إلى السماء ومع الأمطار التي كانت تتساقط كانت دموعه تتساقط، وكان يصل إليه صوت كثيف متداخل «لا إله إلا الله. . لا إله إلا الله».

وبعد ذلك هطلت الأمطار بقوة أكبر.

ما كاد السيل ينتهي وتشرق الشمس، حتى ظهرت البادية كأنها طير من طيور القطا: لامعة، طرية، نزقة، وكأنها لم تستقبل بشراهة لا تعرف الانتهاء هذا المطر كله. والفرح الزاهي الذي بدا في وجوه الناس وتصرفاتهم، انتقل إلى الحيوانات فبدت أكثر حدة، ربما تعبيراً عما تحس به في داخلها من قوة جديدة، لكن مقابل هذا الفرح فإن حزناً ممزوجاً بالخوف سرى في جسدي هذين الشابين اللذين كانا في تلك القافلة الصغيرة التي تقطع البادية من روضة المشتى إلى الحدرة. الرعاة وبعض المسافرين اندفعوا دون مبالاة، وبخفة أيضاً، يبحثون عن النباتات المبكرة بعد مطر الأيام السابقة، أما هذان الشابان فكانا يغرقان في الحزن والتأمل. صحيح أن هموماً مشتركة تجمعهما، لكن لكل واحد منهما أيضاً همومه الخاصة. أن يكون فواز بن متعب الهذال فيجب أن يدفع ضريبة ذلك، لأن ابن الراشد لا ينسى، والثأر هو الثأر، سواء أكان هو صغيراً أم لا. حين يطلب العمل يمكن أن يكون صغيراً، أما حين يأتي وقت الثأر فإن لديه من السنوات ما يكفي لكي يُقتل، لكي يدفع الثمن. ابن الراشد يرى ما يلائمه، إنه الآن السيد، يرفض ويقبل، لا أحد يستطيع أن يجبره. وإذا كان متعب الهذال قد أسمع ابن الراشد وغيره ما يجب أن يسمعوا، وكان قوياً كالحصان، لا يخاف ولا يتردد، فمتعب الهذال الآن في جوف الظلمة يظهر ويغيب، لكن دون أن يحس به أحد، وكأنه غير موجود، أو لم يعد حياً، بكلمة أخرى واضحة: لم يعد يخيف أحداً.

أما حزن صويلح الهديب فكان مختلفاً، حتى الصمت الذي يثقل عليه إنه من نوع آخر. حين ترك الحدرة كان متأكداً أنه سيجد عملاً، هكذا أكد

شعلان في رسالته الشفوية القصيرة. قال صويلح لأبيه، لنجمة المثقال، ولآخرين كانوا موجودين، إنه سيغيب فترة في وادي العيون، سنة أو سنتين. حتى إذا عاد تزوج فوراً. أما إذا شرّق، كما فعل الكثيرون من أهل الحدرة والضالع، فقد تمر سنوات قبل أن يعود. لا يستطيع أن يحتمل سنوات أو أن ينتظر، لأن خلال هذي السنين قد تتزوج وطفة؛ بالإضافة إلى ذلك وادي العيون قريب، رمية حجر، كما يقولون. سيعود سريعاً وقد جمع مبلغاً من المال. هكذا فعل عدد من معارفه وأقاربه، وهكذا يتكلم الجميع. إنه مثلهم، أقوى منهم، حتى العين التي قال عنها ابن الراشد إنها كريمة يرى فيها أكثر من الآخرين، يرى كل شيء، أما هذه النقطة البيضاء في وسطها فكانت نجمة المثقال ذاتها تؤكد أنها «نقطة حسد ولا بد أن تغيب مع الأيام» ثم ماذا يفيد ابن الراشد أو غيره أن تكون هذه النقطة أو لا تكون؟ إنه يعمل بيديه، بجسده كله، لا بعينه. وإذا كان بعض أطفال الحدرة قد ذهبوا إلى الجامع وقضوا سنوات يتعلمون القرآن عند عبد العزيز الحوقلي، فإنه لم يفعل مثلهم، يرفض منذ كان صغيراً أن يتعلم، وأبوه لم يلح عليه كثيراً، ولذلك لم يفكر كما فكر غيره أن يشغل نفسه بقراءة رسائل المسافرين أو أن يكتب لأهل الحدرة!

ابن الراشد يقول له أن لا عمل له في الشركة لأنه كريم العين، ذبحه تماماً بهذه الكلمة، لو قال أي شيء آخر لفهمه وتقبله. كان يجب أن يرد عليه، أن يناقشه، لكن المفاجأة، ثم سرعة ابن الراشد في مغادرة الخيمة، لم تمكناه من أن يقول كلمة واحدة. قال في نفسه بنوع من الأسى: «شعلان لا يفوّت كلمة لابن الراشد، لو كنت مثله لما تجرأ على أن يقول ما قاله».

في هذا الجو الشتائي الرائع، والقافلة تخبّ مسرعة حيناً، ورخية متمهلة حيناً آخر، كانت الهواجس والأفكار ومشاعر الانكسار تملأ هذين الشابين، ورغم الاضطراب الذي يحسان به، ورغبة الكلام، وحتى العراك، فإن قوة أخرى كانت تشدهما إلى الخلف، كانا يشعران أنهما مثقلان بذنوب لا يقويان على حملها، وإنهما، بالتجربة، لم يكونا بمستوى

الثقة التي وضعها الآخرون فيهما، وها هما يعودان إلى الحدرة، ليس كما خرجا منها، وإنما ذليلين خائبين. كيف سيواجهان أسئلة الناس وعيونهم؟ وإذا كانت هناك أشياء يمكن أن تقال وتفهم، فإن أشياء أخرى لا يمكن أن تقال، حتى لو رآها الآخرون أو عرفوا بها. ماذا يستطيع فواز أن يقول إذا سئل؟ أليس هو كبير العائلة بعد شعلان، أو هكذا أصبح منذ أن غاب متعب الهذال؟ ألا ينظر إليه الآخرون هكذا؟ هل يجرؤ على القول أنه رفض لصغر سنه؟ وابن الراشد إذا عرفه بعض الناس وفهموا لماذا يمكن أن يرفض فهل يفهم الآخرون؟

وصويلح... أقوى شباب الحدرة، أكثرهم صخباً في المناسبات وليالي القمر، وأجرؤهم على التحدي، هل يتصور أحد أن يرفض لهذا السبب بالذات؟ وماذا تظن وماذا تقول وطفة؟ وفي الأماكن الأخرى ألا يفرّقون بين الحسد والعين المطفأة؟ وهل يمكن أن يرفض الإنسان في العمل نتيجة سبب تافه كهذا؟

طوال خمسة أيام لم يتبادلا إلا كلمات قليلة. لا لم تكن كلمات واضحة إنما أصوات أقرب إلى الريح أو هدير المياه، حتى أن فواز نفسه خاف أن تكون مياه روضة المشتى قد ضربته فأصيب بالخرس كما فعلت بأمه. تراءى له أن عفريتاً سكن جسده، وهذا العفريت هو الذي يمنعه من الكلام، وفي محاولة لأن يحارب هذه الهواجس، لأن يتغلب عليها كان يحرّك لسانه، يتكلم مع نفسه، وبعض الأحيان يصرخ على ذلوله دون حاجة أو ضرورة. فعل ذلك عدة مرات، وفي كل المرات كان صويلح يلتفت إليه مستغرباً متسائلاً، أما إذا تكلم فإن صوته يبدو غريباً وكأنه يصدر عن إنسان آخر، ولذلك ما لبث إن وجد نفسه يغرق في الصمت.

حتى الفلاة التي امتلأت بغناء صويلح وصخبه حين كانا ذاهبين إلى وادي العيون، غرقت في سكون رصاصي ثقيل، وبدت السماء في الليل بعيدة والنجوم مطفأة؛ أما صويلح الذي كان مملوءاً بالحيوية والنشاط في الذهاب فقد أصبح شخصاً آخر في العودة. كان أغلب الوقت في نهاية القافلة، بعيداً، متوحداً، وبدا هزيلاً أقرب إلى المرض. وفي اليوم

الأخير، في روضة المشتى، كاد يرجع إلى عجرة ويشرق، لكن عدل في اللحظة الأخيرة.

قبل أن تنتهي الرحلة بيوم واحد، قبل أن يصلا إلى الحدرة، وحين نظر أحدهم في وجه الآخر بطريقة معينة، بدا أنهما متفقان على المؤامرة. قال صويلح بيأس كامل:

ـ اسمع يا فواز.. إذا وصلنا إلى الحدرة نقول لأهلنا أننا بعد شهر نرجع إلى وادي العيون.. ابن الراشد قال لنا غيبوا شهراً وارجعوا.

ويتذكر فواز أن صوتاً قوياً مفاجئاً يشبه التماع البرق وبداية الرعد ملأ الفلاة عندما بدت الحدرة. أما عندما واصل صويلح الغناء فقد استغرب كل الذين كانوا في القافلة، ونظروا إلى هذين الشابين من العتوم نظرة فيها تساؤل وإعجاب.

مثلما كان يحدث في وادي لعيون حين وصول القوافل حصل هذه المرة أيضاً وهما يصلان إلى الحدرة: تجمع الناس، خاصة الرجال والأطفال، حتى الذين يسكنون في أماكن بعيدة، في الساحة، قرب الآبار، وسيطر ذلك الهرج والانفعال على المقيمين والقادمين. الأسئلة نفسها يوجهها كل واحد لكل قادم من القادمين. أسئلة عن المطر والعشب والغدران والقوافل، حتى إذا تأكدوا تماماً، ودققوا في الإجابات مرة بعد أخرى، سألوا عن أسعار الطحين والسكر والخام في روضة المشتى وفي عجرة، وما إذا كان الناس يتوقعون هناك استمرار هذه الأسعار أم ارتفاعها. فلما فرغوا من ذلك بدأت الأسئلة تأخذ منحى آخر: أسئلة عن الأقرباء والمعارف، عن الناس في الأماكن البعيدة، خاصة في وادي العيون وما حولها.

في الليل، في مضافة ابن هديب، قال صويلح لأبيه، للجميع، بكلمات حازمة إنهما سيعودان إلى وادي العيون مرة أخرى بعد فترة قصيرة، وإنهما سيعملان كما يعمل شعلان، وحين سئل عن عمل شعلان لم يستطع أن يقول شيئاً واضحاً، قال إنه يحفر الأرض ولا شيء غير ذلك! لم يشأ أن يقول لهم إن هؤلاء العفاريت يصبون ماء وادي العيون وماء الصبحة ومياهاً أخرى يجلبونها ببيوت حديدية، يصبّونها كلها في ثقوب يحفرونها في الأرض، لا يعرف لماذا أو إلى متى. وبدأت تلك الدوامة عن الجن وباطن الأرض تدور في رأسه.

كان صويلح يود لو يتحدث عن كل ما رأى وكل ما سمع، إلا أن الآلام التي كانت تسيطر عليه، منذ إن سمع ابن الراشد يقول ما قاله،

ويرجع هكذا خائباً مهزوماً، ثم حين وجد نجمة المثقال قد دخلت في حالة من المرض والهلوسة، وإن أمه وأخته وبعض النسوة القريبات انشغلن بها، وبالتالي فإن وطفة أصبحت الآن في وضع لا يمكن معه التفكير أو البحث في الحلم الذي يقذفه من مكان إلى آخر من أجل أن يظفر بها، فقد بدا شديد التشاؤم وغير راغب في أن يقول أي شيء، ولذلك اكتفى بتلك الإجابات القصيرة الغامضة ولاذ بالصمت يدفن نفسه فيه.

ولما كان الناس في هذه الفلاة الكبيرة القاسية يولدون ويعيشون ثم يموتون في دورة طبيعية صارمة، كما هو حال توالي الليل والنهار، أو تعاقب الفصول، فإن موت بعض الناس، خاصة الذين يبعدون الموت عن الآخرين، أولئك الذين يكشفون خبايا المستقبل، يرتبط موتهم بالذاكرة بطريقة غير عادية، وكأنه خروج على الدورة لكن لتأكيدها أيضاً. فإذا ارتبط هذا الموت بمرض حافل بالآلام والصحو المشرق والنبوءات الخارقة فعندئذٍ يتذكره الناس لفترات طويلة، أو ربما لا ينسونه أبداً، وقد يتناقلونه جيلاً بعد جيل.

لو تركوا وضحة الحمد تتصرف وحدها في المعالجة لعاشت نجمة المثقال سنوات وسنوات. لو تركوا نجمة المثقال دون أن يقترب منها أي إنسان لما ماتت بهذه السرعة. ولو أنهم منعوا صبحة، أم الحميدي، زوجة عبد العزيز الحوقلي، من الاقتراب منها لظلت نجمة المثقال إلى فترة طويلة تدبّ على الأرض وتضرب بعصاها الدجاج والكلاب، حتى إذا فرغت من ذلك رفعت تلك العصا في وجوه الصبية والشباب بتوعد مرغوب تحذّر من الأيام القادمة! لكن أم الحميدي، تلك المرأة القوية المتجبرة، لم تترك لأحد غيرها أن يقترب. كانت وحدها التي تقرر، ووحدها تولت علاج نجمة المثقال، ورفضت أية مساعدة عرضت عليها.

لقد جرى العلاج على مرحلتين؛ في المرحلة الأولى اكتفت أم الحميدي بأن أعطت المريضة أنواعاً من الأعشاب المرة، قالت إنها حضرتها بنفسها، ولم توضح ما هي هذه الأعشاب، لكنها أكدت أنها مجربة ومفعولها سريع. ونجمة المثقال التي وافقت، تحت تأثير الآلام التي

مزقت أحشاءها، على أن تلتهم السفوف الذي حضرته أم الحميدي، ثم على أن تتجرع السوائل المرة التي أرغمتها على شربها، كانت في وضع تريد أن تتخلص من الآلام ليس إلا. أما المرحلة الثانية من العلاج، والتي بدأت بعد الصحوة الأخيرة بيومين، فقد أدت إلى القضاء على نجمة المثقال تماماً.

ووضحة الحمد التي كانت تدور في أنحاء بيت شتيوي العازم، وهي تبحث عن بعض الأعشاب التي خبأتها بنفسها ولا تجدها، كانت تغمغم بأصوات مبهمة، أقرب ما تكون إلى الشتائم، وترفض أيضاً مساعدة أحد، بدت في لحظات معينة شديدة الانفعال وأقرب إلى الغضب. أما لما رأت فواز عائداً، وبدل أن تفرح امتلأ وجهها وعيناها بتساؤل يشبه التأنيب «لما عدت!» وحين أكد لها أن ابن الراشد طلب إليه أن يغيب شهراً أو شهرين ثم يعود ليعمل، هزت رأسها بنوع من المرارة، وربما تذكرت كل ما يعنيه ابن الراشد. تذكرت الأيام الماضية في وادي العيون، خاصة الأيام الأخيرة. وما كاد فواز ينتهي من توضيح كل هذه الأمور حتى هبّت واقفة وأشارت إلى رضية أن ترافقها لتفعل شيئاً من أجل نجمة المثقال.

لما وصلت وضحة الحمد كانت أم الحميدي قد فرغت لتوها من تدليك بطن نجمة المثقال وظهرها بالزيت الساخن. كان العرق يتصبب من المرأتين معاً، وقد استبد بهما تعب شديد، وبدا أن المريضة قد استراحت بعض الشيء أو تخدرت، لأنها أغمضت عينيها وكادت تنزلق إلى النوم، لولا أن شيئاً أفزعها أو ألماً مزق أحشاءها فهبت مثل قطة.

قالت رضية أن نجمة المثقال في الأيام الأخيرة قالت أشياء لا يقولها إنسان، لم تكتف بما قالته عما جرى من وقائع وأحداث، قالت أشياء كثيرة عن الأيام الآتية. طلبت من بعض النسوة أن يقتربن منها، ضحكت في الوجوه، ثم غنت وبكت، لكن في لحظة معينة استبدت بها حالة من الضحك، ضحكت مثل طفلة صغيرة في البداية، وكأن إنساناً يداعبها أو يدغدغها، ثم سيطرت عليها موجة من القهقهة، لم تستطع أن توقفها أو أن تتحكم بها. ظلت كذلك فترة طويلة من الزمن، والنسوة اللواتي كن حولها

استغربن ضحكها ثم قهقهتها، لكن ما لبثن، شيئاً فشيئاً، أن شاركنها الابتسام ثم انخرطن معها في الضحك فالقهقهة، فعلن ذلك لا شعورياً ودون إرادة أو رغبة. كن أول الأمر ينظرن إليها برثاء، لكن ما كادت تغرق بهذه الحالة حتى جارينها ثم أصبحن مثلها. ووضحة الحمد التي نظرت باستغراب وصل حد الاستنكار لم تستطع أن تمنع ذلك أو أن توقفه. كانت حازمة قاسية، أشاحت بوجهها في البداية، ثم نظرت إلى نجمة بخشونة أقرب إلى التأنيب، وهزت بعض النسوة وصرخت في وجوههن، وأخيراً وجدت نفسها تبتسم ثم انخرطت في موجة من الضحك والبكاء معاً. كانت دموعها أسرع من صوتها، ربما أقوى، وما لبثت أن خرجت إلى الحوش، ولما طاردتها الأصوات خرجت إلى الفلاة، وتبعتها رضية. كانت تجهش وتضحك في وقت واحد، وكانت تحمل حفنات من الرمل وتعفر رأسها.

لا يمكن لأحد في الحدرة وما جاورها أن ينسى ذلك، لأن نسوة كثيرات أكدن أن الذي قتل نجمة المثقال لم يكن دواء أم الحميدي الذي أخذته سفوفاً أو سائلاً، كما تحاول وطفة تأكيد ذلك بحزم، ولم يقتلها الزيت الساخن الذي دعكت به أم الحميدي بطن نجمة وظهرها، وفركت كما لا يمكن أن تفعل خبّازة أو غاسلة صوف، وإنما الذي قتلها تلك الموجة من القهقهة، لأن كل امرأة من النسوة اللواتي ضحكن ذلك اليوم، أكّدت أن حالة المرض التي أصابتها لم تقتصر على وجع الأحناك وبداية الرقبة، وإنما امتد هذا الوجع إلى الظهر والكتفين ثم الأحشاء، ولا بد أن تكون هذه الآلام مميتة، خاصة لامرأة مريضة، وفي مثل السن المتقدمة التي كانت عليها نجمة المثقال.

فبعد وصول صويلح وفواز إلى الحدرة ماتت نجمة المثقال، كان الأمل خلال هذه الأيام يعقبه اليأس، وكانت السخرية تترافق مع الحزم القاهر، أما اليوم الذي ماتت فيه فقد بدأ بالضحك الهستيري ثم أعقبته الدموع الساخنة وأخيراً. . جاء الموت.

سيطرت على الناس حالة من الحزن والتشاؤم، ومما زاد في هذه المشاعر الكلمات التي قالتها نجمة قبل أن تموت بأيام قليلة، وقبل أن

توافيها تلك الآلام الحادة، والتي بعدها لجأت أم الحميدي إلى ذلك العلاج.

يتذكر الكثيرون أن من جملة ما قالته نجمة، وتناقله الناس، وإن داخله التحريف، يتذكر الكثيرون أنها قالت:

«من وادي الجناح حتى الضالع، ومن السارحة حتى المطالق، النار تلهم النار، والصغير يموت قبل الكبير. أولها عدّ وآخرها مد، الولد لا يعرف أبوه والأخ لا يعرف أخوه».

«من وادي الجناح حتى الضالع ومن السارحة حتى المطالق كل يوم من الأيام التالية بسنة من هذي الأيام. أولها خير يعم البلاد وآخرها العباد تلهم الجراد. أولها أمطار وسيول وآخرها حاكم جهول. أولها قمح وديباج وآخرها زوان وعجاج. الناس رايحة دايحة ربها الفضة والذهب وحجها للفرج والذنب. الغني يأكل الفقير، والكبير يظلم الصغير وكل يصيح يا نفسي».

«من وادي الجناح حتى الضالع ومن السارحة حتى المطالق تصير الدنيا غير الدنيا، الناس في الفلاة يدوّرون النجم والنجم ما يطلع، ينتظرون القافلة والقافلة ما ترجع، ينشدون وما أحد يجيب ولا أحد يسمع، وهذه علامة الساعة، والساعة ما هي بعيدة، ما دام عاليها انقلب سافلها، وأنذالها تتحكم بإشرافها، وما دامت الدروب صامّة مثل القلوب ما بها حس ولا خبر».

«من وادي الجناح حتى الضالع، ومن السارحة حتى المطالق وأبعد وأبعد، الناس على وجوهها هايمة، ما يندري قايمة أو نايمة، أولها سلاطين بعدّ التراب وآخرها يوم يبشر بالخراب، أولها السوط وآخرها اللوط، أولها النبي المختار وآخرها الأعور الدجال، والناس بطبول وزمور، برايات وبيارق، لكن ما تعرف وين رايحة ومنين جايه. الغريب يتحكم بابن الديرة، والأجنبي يتحكم بابن العشيرة».

«من وادي الجناح حتى الضالع، ومن السارحة حتى المطالق وأبعد منها بكثير، الشريف من الناس ضعيف وحقه ضايع، وابن الحرام يأكل ماله

ومال غيره وما هو جايع. اللي يقول الصدق مهبول ومن الكثيرين مرذول، والكذوب صوته يملأ الدروب وأخباره من ديرة لديرة تجوب، ويقول: جيت يا زماني. وبذاك الزمان عنتر بن شداد يسرح بالغنم ويأكل أصابعه ندم، لأنه قال اعرف ضرب السيف وقلبي ما يعرف الخوف».

«وبآخر ذاك الزمان لا بد وأن الناس تقوم والظلم ما يدوم وتحصل سوالف وسوالف يحكيها الناس لولد الولد».

في الحدرة، هذا المكان النائي، وكأنه نهاية العالم، لا ينتظر الناس المطر، لفرط ما خابت آمالهم، لقد أصبحوا أقرب إلى التسليم، فإذا جاء المطر في سنة من السنين فإنه لا يطول ولا يترك في الحدرة إلا آثاراً قليلة، إنه يتابع انحداره إلى وادي الباشق فالأرض التي وراءه ثم البادية، ومع ذلك فإن المطر، رائحة المطر، تغير حياة الناس وتصرفاتهم.

كانت تلك هي الحال في الأيام الأولى لعودتهما إلى الحدرة، بعد تلك الرحلة الخائبة، فالناس لا ينفكون يتحدثون عن المطر، ولا يكتفون أن تحدثهم مرة أو اثنتين عن السيل في روضة المشتى، ثم العشب على مسيرة يومين من الحدرة، والغدران التي امتلأت بالماء، إذ يريدون أكثر من ذلك، لأن حزناً مفاجئاً بعد كل ما يقال يهجم كعدو، فلا تطول الأحاديث ولا تتنوع، وإنما تمتلئ بمقدار كبير من الترقب، وكأن مصيبة تترصد الحدرة، ولا بد أن تأتي في اللحظة التالية.

الشتاء في وادي العيون كان شيئاً مختلفاً، فالمطر، أو انتظار المطر، يحمل فرحاً من نوع نادر. حتى لو تأخر في سنة من السنين فإن الناس لا يكفون يوماً واحداً عن الانتظار. يسألون القوافل، يسألون الرعيان، يتطلعون إلى السماء، يملأون صدورهم بالهواء يتشممون فيه رائحة المطر، حتى إذا جاء تهللت الوجوه ونظرت العيون إلى العيون بطريقة تحمل معنى صدق الوعد. ومع المطر تخضرّ الأرض لمسافة كبيرة حول وادي العيون، وتمتلئ الغدران القريبة، أما العيون فإنها تفيض وينسرح الماء لمسافات ومسافات، ومع المطر أيضاً تتغير الحياة ويتغير الناس.

والليالي، خاصة ليالي الشتاء، في وادي العيون غيرها في الحدرة.

تهبط الظلمة في الحدرة مبكرة، ومع تلك الظلمة برودة قاسية تولد حالة من الانقباض. ولأن الحطب قليل في هذه المنطقة، فإن الناس يقتصدون في استعماله، تحسباً للأيام التالية أو لحاجة قد تجد دون توقع أو دون انتظار، كمجيء قافلة أو موت أحد. ولأن ليالي الحدرة هكذا فإن الناس تعوّدوا أن يأووا إلى فراشهم مبكرين، وأن تكون أحاديثهم قصيرة ولا تأخذ ذلك التألق الذي يلهب الخيال ويفجّر العواطف، كما كان يحصل في وادي العيون.

إنه شتاء آخر في الحدرة. شتاء السنة الماضية انقضى وحالة من الخوف والتشاؤم تسيطر على الكثيرين، خاصة عائلة متعب الهذال. أما هذه السنة فإنه يحمل إلى جانب الخوف حزناً قاتماً، نتيجة موت نجمة المثقال بهذه الطريقة، وما نقلته النسوة من كلمات ونبوءات قالتها المرأة في أيامها الأخيرة. لقد ولّدت تلك النبوءات خشية أقرب إلى الحذر، واختلفت النسوة في نقلها، إذ كانت تتغير من امرأة لأخرى، وقد فُسّرت بأشكال لا حصر لها، فلما وصلت إلى آذان الرجال ضحكوا بسخرية، واعتبروا أن ما قيل أقرب إلى الهذيان، ولا يمكن أن يحمل على محمل الجد أو حتى مجرد الاهتمام. ولئن استمرت النسوة يرددن ما قالته نجمة المثقال مع إضافات تزداد يوماً بعد يوم، ولأن نجمة المثقال قالت سابقاً أشياء وتحققت، فقد أعمل الرجال عقولهم ليستخرجوا احتمالات وتقديرات تكون أكثر إقناعاً وأكثر إمكانية من غيرها، ولأنهم لم يتوصلوا إلى شيء فقد تناسوا الأمر بعض الوقت، لكن حالة من الترقب دخلت إلى قلوبهم وبدأت تقلقهم.

الحدرة وما تلاها، وما قبلها أيضاً، ولمسيرة أيام من كل ناحية، موجودة هكذا منذ أن خلق الله الأرض. ولأن حياة الناس تتسم بمقدار كبير من الصعوبة والخشونة، نتيجة انقطاع المطر، أو عدم وصول القوافل، وبالتالي ارتفاع أسعار الطحين والسكر والخام، فقد تعوّد الناس على هذه الحياة إلى درجة أنهم لا يتوقعون أفضل منها. فإذا ضاقت الأرض بالذين فوقها فلا بد أن يقع شيء ما. كان الموت يتكفل، أغلب الأحيان، بحل

هذه المشكلة. الموت اما على شكل غزوات ونزاعات، وكانت كثيراً ما تقع، نتيجة الاختلاف على المراعي والمياه، أو على شكل مرض يفتك بالناس والحيوانات. كان الموت هو الذي يخلق توازناً يجعل الناس قادرين على العيش والاستمرار، فإذا ضاق بعض الرجال بالموت، ولم يعودوا قادرين أو راغبين أن يقتل بعضهم بعضاً، ومع وصول القوافل، فإن نداء قوياً ملحاً إلى السفر يدفعهم دون استعداد كبير ودون تفكير سابق، وبرحيلهم تتسع الأرض بعض الشيء للذين بقوا فيواصلون الحياة.

أما ما تقوله نجمة المثقال، وما نقلته النسوة بأشكال عديدة، فإنه يثير التساؤل أكثر مما يثير الخوف أيضاً، ولهذا فإن القتام الذي ينبعث من بعض الكلمات والنبوءات التي بشرت بها هذا المرأة المتجبرة العارفة، والتي ترى ما لا يراه الآخرون، أثار صخباً ازداد واتسع بموتها على تلك الطريقة.

قال سليمان الهديب حين رأى ابنه يلح في أن تفعل أمه شيئاً، لكي يكون ارتباطه بوطفة أكيداً. قال بنفاد صبر:

ـ يا وليدي بعد اللي قالته العجّيزة، نجمة المثقال، يلزم أن الواحد يحضر زهابه ليوم القيامة.

أحس أنه تورط بهذه الكلمات، فقد كان إلى وقت يسخر إذا ذكرت أمامه كلماتها، أما أن يرددها بنفسه، وأن تكون قد ترسبت في وجدانه كقناعة خفية فقد أحس أنه أخطأ. تابع في محاولة لتدارك الخطأ:

ـ اصبر يا وليدي. . أمس ماتت العجوز.

توقف قليلاً ثم تابع بلهجة جديدة:

ـ وكل شيء بوقته زين.

طوي الموضوع مؤقتاً، واشتعلت رغبة السفر من جديد. قال صويلح لأمه:

ـ مع أول قافلة أمشي، وما يحيل الحول إلا وتشوفوني عندكم واعرّس.

قالت العجوز وهي تبتسم:

ـ ابشر يا وليدي. . ووكل الله.

وبدآ من جديد يغزلان فكرة السفر ويستعدان. كان صويلح يلتهب حركة وحماسة من أجل أن يسافر بسرعة، لكي يؤمن مبلغاً من المال يكفي السياق، وكان أكثر حرصاً وخوفاً بعد وفاة نجمة المثقال، إذ قد تجدّ أمور في الحدرة أو غيرها تمنع زواجه أو تؤخره، وقد يأتي أحد أقارب وطفة ويخطفها منه، لكن بعد أن انتقلت إلى بيت خالتها، قالت لأمه «يا عمتي مالي أحد بهذه الدنيا إلا الله وأنتم!» وفهمت هذه العبارة على أنها موافقة كاملة، فقط إذا مرت مدة كافية وعاد صويلح من سفرته.. عند ذاك لا بد أن تحتفل الحدرة بهذا الزواج الذي طال انتظاره.

ولأن الشابين بدآ الكذبة معاً فلا بد أن يواصلاها معاً. بذل صويلح جهوداً كبيرة لإقناع فواز بالسفر معه. صحيح أن فواز كان شديد الضيق بالحدرة، ويريد الخلاص منها بأسرع وقت، لكنه شعر بعد الخيبة التي واجهها في وادي العيون أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً في مواجهة هذا العالم القاسي، ولا بد أن ينتظر سنة أو اثنتين قبل أن يحزم أمتعته مرة أخرى ويذهب إلى وادي العيون، عند شعلان، لكي يعمل هناك، كما وعده ابن الراشد. لكن إلحاح صويلح، وتلك الصور الزاهية التي رسمها للعالم بعد وادي العيون، الأماكن الجديدة والمدن الكبيرة، إضافة إلى الأموال التي يمكن أن يحصلا عليها، أضعفت مقاومة فواز وجعلته حائراً.

كان صويلح لا يتردد في أن يعيد على مسامعه كل يوم القصة إياها. وفواز يسمع ولا يجيب، ينظر إليه ويسافر بعيداً. وإذا كان مقتنعاً في أعماقه بالسفر والرحيل، فإن أحد الأسباب الحقيقية وراء ذلك هو متعب الهذال نفسه. فالمرض الذي رآه في عيني شعلان، ثم ذلك الخوف الذي لاحقه منذ الليلة الأولى في وادي العيون، إلى إن رآه متجسداً قوياً في روضة المشتى، والذي جعله لا ينام ولا يهدأ ليل نهار، ولّد عنده رغبة جامحة لأن يتبعه، لأن يصلَ إليه. لم يستطع أن يتحدث عن ذلك لأحد، حتى أمه أو رضية لم تسمعا منه كلمة واحدة عن أبيه.

هل يمكن أن يخطئ هو وشعلان معاً؟ قال لنفسه «يجوز أخطأ، ويجوز أخطيت، أما أن نخطي أنا وهو فلا!» أصبح متعب الهذال بالنسبة

لهما أكثر من مجرد أب، ولا يمكن أن يغيب هكذا إلى الأبد. لو أن الأمر اقتصر على الغياب لوجد الإنسان تفسيراً واستراح، لكنه كان أكبر من ذلك وأقوى...

كل محاولات صويلح لم تكن لتجدي لو أنه لم يره في روضة المشتى، ومع ذلك كان خائفاً لا يعرف أين يذهب أو ماذا يفعل.

ظل متردداً صامتاً في معظم المرات التي طلب منه صويلح أن يوافق، وكان من الممكن أن يظل متردداً ولا يسافر لو أن الخوش لم يأت.

عندما يستعيد فواز الآن تلك اللحظات يحس أن قوة خفية هي التي تصنع أقدار البشر وتدفعهم من مكان إلى مكان، وهي التي تحدد حياتهم وموتهم.

فهذا الذي غاب سنين طويلة، دون رسالة أو خبر، والذي أدى إلى جنون تلك العجوز ثم موتها في اليوم الأخير بوادي العيون، واعتبر أنه انتهى في مكان ما، ولم يبق أحد إلا وطوى صفحة هذا الذي كان اسمه الخوش، وأصبح مجرد ذكرى، وملامح قديمة تتآكل وتتلاشى يوماً بعد آخر.. هذا الإنسان الذي غاب كل هذه السنين، ومع قافلة ابن الأعسر التي تأتي في مثل هذا الوقت من كل سنة، لكي تبقى شهراً أو أكثر بقليل في الحدرة، تبيع لأهلها ومن جاورهم ما تحمله من الأماكن البعيدة، من الطحين والشاي والمنسوجات، إضافة إلى أشياء أخرى لا تخطر ببال، ثم تحمل من هذه المناطق، في طريق العودة، السمن والصوف وبعض رؤوس الخيل؛ في قافلة ابن الأعسر، وعلى غير توقع من أحد جاء الخوش.

لقد بدّلته الأيام كثيراً، الشاب الصغير، ابن السبعة عشر عاماً، الذي راح في قافلة السالمي، يرجع الآن مكتمل الرجولة، بل أقرب إلى الكهول، أو هكذا بدا في نظر الذين رأوه.

التجاعيد الصغيرة تظهر بوضوح حين يبتسم، وحين يغرق في التفكير والذكرى. السمرة القاسية تغطي الأماكن المكشوفة من جسده، فإذا شمّر ثيابه أو نزع غترته، برزت الألوان متناقضة ومثيرة للتساؤل والعجب، أما الملامح فقد ظلت هي نفسها أو ربما تغيرت تغيراً طفيفاً.

كان مجيء الخوش مفاجئاً حافلاً وأقرب إلى عدم التصديق، وبمقدار الفرح الذي رافق مجيئه فقد ولد ذكريات وأحزاناً وتساؤلات لا نهاية لها. انفجرت الحياة الماضية كلها دون رغبة من أحد، وبدأت تتوالى القصص والذكريات. كيف كان إلحاحه قوياً إلى درجة أنها أقنعت الكثير من الرجال، بمن فيهم متعب الهذال بأن يوافقوا على سفره. كيف كان يتفوق على جميع شبان وادي العيون... ثم ليلة سفره، كيف صنعت له أمه زوادة تكفيه، كما قال متعب الهذال، لأن يصل إلى مصر ويرجع منها!

أما حين جاء ذكر وادي العيون، وقال أنه مرّ هناك فلم يعرف أحداً، ولولا وجود شعلان وابن الراشد لأنكر كل شيء، وحين ذكر العجوز أطرق وصمت تماماً، وكأنه لا يريد أن يتذكر أو أن يقول كلمة واحدة. بدا حزيناً ومقتولاً، حتى لكأنه شخص آخر. كان يتمنى لو أنه جاء قبل هذا الوقت، لو أنه رأى أمه قبل أن تموت. وشعلان الذي ألحّ عليه أن يبقى في وادي العيون، وأن يعمل معه في الشركة، لم يستطع أن يقنعه أو يستبقيه، بعد أن أبلغه بوفاة أمه في الأيام الأخيرة، قبل الرحيل عن الوادي، ثم كيف هجّ متعب الهذال لا أحد يعرف إلى أين أو إلى متى.

مع كل يوم كان الفرح بالخوش يزداد، حتى وضحة التي غرقت في الصمت منذ أن تركوا روضة المشتى، بدت امرأة أخرى، أخذت تصدر عنها أصوات تشبه أصوات الأطفال في بداية تعلمهم الكلام، وأضاءت عيناها بفرح أقرب إلى الرضا، كما أصبحت أكثر حركة ونشاطاً. أما حين استخرج الخوش من تحت ثيابه المغبّرة القديمة تلك المحفظة الجلدية التي كان يعلقها برقبته، وكانت مربوطة بخيط قوي أحسن اختياره وتثبيته، وحين استخرج الخوش المحفظة، وكانت تلتصق على اللحم، قريباً من القلب، ووضحة مقابله تنظر إليه، تتابعه ولا تدري ماذا سيفعل، ثم يفك المحفظة بهدوء ويمد كل ما فيها، بيديه الاثنتين، ويضعه كله في حضنها، عند ذاك تتساقط دموع غزيرة من عينيها. إنها المرة الوحيدة التي تبكي فرحاً وحزناً وألماً في وقت واحد وبطريقة تختلف عن بكائها في عجرة في الليلة الأولى لوصولهم قادمين من وادي العيون.

لقد فعل الخوش ذلك بهدوء مبالغ فيه، وحين رأى الدموع أطرق، لكن دون حزن، وظل كذلك بعض الوقت، ولما رفع رأسه مرة أخرى كانت ابتسامة صغيرة تظهر على زاويتي الفم، وفي العينين، ودون كلمات من أي نوع فهم الاثنان.

كان فواز يتابع هذا المشهد صامتاً مذهولاً، أما رضية التي دخلت وخرجت أكثر من مرة، وبدت شديدة الانفعال، مرتبكة، فقد أدركت بحس الأنثى أن شيئاً خطيراً يجري في تلك اللحظات، وأن الأمر الذي انتظرته سنين طويلة، وحلمت به أكثر مما حلمت بأي شيء آخر، قد تحقق دون كلمة.

بعد ذلك بأسبوعين تزوج الخوش من رضية.

وبعد أسبوع من الزواج قال فواز لصويلح، وكان شديد الثقة:

ـ إذا تهيأت لنا قافلة قبل سفر قافلة ابن الأعسر نسافر معها، وإلا يجب أن نبقى إلى حين سفرها.

أما حين بلغ أمه أنه انتوى السفر، عائداً إلى وادي العيون، عند شعلان، للعمل في الشركة، وأنه لن يكف يوماً واحداً عن البحث عن أبيه، ولا بد أن يجده، وأن يرجعا معاً، فقد بدت الأم فرحة حزينة في وقت واحد، اشتعلت في قلبها الآمال والمخاوف دفعة واحدة، فبان وجهها أقرب إلى القسوة، لكنها نهضت مسرعة وبدأت تهيّئ ما يحتاجه إلى السفر. وحين تساءلت عيناها، وخرجت من فمها تمتمات غير مفهومة تستفسر عن موعد سفره، وما إذا كان عليها أن تهيّئ له زوادة للطريق ابتسم وقال:

ـ إلى حين ما يسافر ابن الأعسر.

ولما استعدت قافلة ابن الأعسر للرحيل كانت وضحة قد هيأت له كمية كبيرة من الأكل، وحين رآها الخوش ضحك وقال نفس الكلمة التي قالها متعب الهذال قبل سنين طويلة:

ـ هذه تكفيه لأن يصل إلى مصر ويرجع منها!

بدت الحدرة وهما يغادرانها أكثر حزناً وأكثر شيخوخة، حتى الأطفال وهم يتجمعون حول القافلة بدوا حزينين متسائلين. كانوا أقل حركة مما تعودوا في مثل هذه الحالات. أما الرجال فقد أظهروا حكمة زائدة، وبالغوا في إحكام ربط الأحمال، وبدا بعضهم غير مكترث. والنسوة، كما هي العادة دائماً، ظللن بعيدات، لكن لم تفتهن أية حركة، ولم تغب عنهن أية كلمة أو إشارة. أما وضحة الحمد، التي أظهرت مقداراً هائلاً من الصلابة، وحضّرت كل شيء بعناية بالغت فيها إلى درجة لفتت نظر الكثيرين، فقد كانت في أعماقها تدرك أن رحلة ابنها، هذه المرة، ستطول. كانت تفعل أشياء لم تفعلها في رحلته السابقة، وكانت تراقب حركاته وتنظر إليه بطريقة لم يرتح إليها، وقد شعر نتيجة ذلك بالاضطراب وما يشبه الحرج، حتى إذا ودع أخوته وأخواته، وتقدم إليها، أمسكت بكتفيه الاثنين وهزته بطريقة معينة، كأنها تختبر قواه، توصيه، تضع ما تبقى من قوة جسدها في جسده، فلما وجدته شديداً قاسي ملامح الوجه، هزت رأسها بصلابة الفرس ثم غمرت وجهها في صدره. فعلت ذلك بقوة وظلت كذلك بعض الوقت، فلما رفعت إليه وجهها كانت دمعتان تجولان في العينين دون أن تقويا على السقوط. كانت الدمعتان تتحركان بطريقة متحدية وحزينة، وفي اللحظة الأخيرة ربتت على صدره وكتفيه وتراجعت خطوة إلى الخلف لتقول له دون كلمات: «يمكن أن تذهب الآن».

أما الخوش الذي كان فرحاً منفعلاً كثير الحركة، فقد رافق فواز وصويلح وظل معهما إلى أن تحركت القافلة، وقد قال أشياء كثيرة، وإن بدت غير مترابطة وليست في سياق واحد، وكأنه يودعهما تجربته في الحياة

كلها، ويريدهما أن يفهما ويستوعبا أكثر مما تدل عليه حركاتهما وهزات رأسيهما.

في الطريق إلى روضة المشتى، والتي استغرقت سبعة أيام، لأن ريحاً قوية عطلت مسيرتهم، واضطرتهم لأن يأخذوا الطريق الشمالي للوصول إلى الروضة، بدأت تعود الصور والذكريات، وعادت معها الساعات واللحظات الأخيرة؛ وفواز الذي تمالك نفسه، وأصرّ على أن يكون أقوى من الصخر، خاصة في مواجهة تلك العجوز التي تركها في الحدرة، كان يحس بحزن ثقيل، الأمر الذي أربك صويلح، فتساءلت عيناه مرات كثيرة ما إذا كان خائفاً أو عادت إليه تلك الهواجس التي ملأته في رحلة العودة من وادي العيون إلى الحدرة، ورغم أنه بذل جهوداً كبيرة من أجل أن يخفف عنه، أن يشغله بأمور كثيرة، فقد ظل بادي الحزن. أما حين أخذ يغني، وفعل ذلك عدة مرات، وأبدى رجال القافلة سرورهم بغنائه، فقد شعر أن غناءه في هذه المرة حزين وأقرب إلى اللوعة.

هل كان يغني فراقه لأماكن لن يراها ولأشخاص لن تتاح له الفرصة، مرة أخرى، لأن يلتقي بهم؟ هل كان يغني فراقه لوطفة وهذه الرحلة المجهولة التي لا يعرف إلى أين يمكن أن تحمله.. ثم هل يعود منها ومتى؟ هل كان يغني حياة وذكريات بدأت تغيب وتتلاشى ما ابتعدت القافلة عن الحدرة؟

إن فراقاً من نوع ما كان يرفرف فوق الرؤوس، كان يصرخ في الظلمة، في ساعات الليل الأخيرة أو في ساعات الفجر. إن هذا المجهول الذي بدآ يغرقان فيه، خطوة بعد أخرى ما ابتعدا عن الحدرة، لن يستطيعا النجاة منه ولن يفارقهما حتى النهاية.

ومع هبات الريح القوية التي تعفّر وجوه الرجال، وتجعل الجمال عصبية سريعة الإثارة، والتي تمنع الرؤية وتحد من السير، مع هبات الريح كانت وجوه تنبعث وتضيء، وهذه الوجوه بمقدار ما تظهر تفجُّر قوى داخلية عاتية في داخلهم، وتدفعهم أكثر وأكثر على السير ونسيان التعب.

قال صويلح، وقد بدت روضة المشتى تظهر:

ـ نمرح في الروضة يوماً واحداً ثم نتابع سفرنا إلى عجرة.

قال هذه الكلمات وهو يتطلع إلى عيني فواز تماماً، وكأنه يمتحن تلك النوايا العاتية التي ملأته في رحلتهما السابقة. ولما ظل فواز صامتاً تابع:

ـ أنت تعرف أنه من عجرة يمكن أن نسافر إلى الأماكن التي نقصدها، يمكن أن نسافر إلى بغداد أو الشام، ويمكن أن نسافر إلى عمان.. وإذا أردنا نقدر أن نصل إلى مصر.

❀ ❀ ❀

الخطأ الآخر الذي ارتكبه فواز أنه وافق صويلح على البقاء فترة قصيرة في روضة المشتى، ثم تابعا سفرهما إلى عجرة.

كان صويلح شديد الخوف من أن يتشبث فواز بروضة المشتى، أن يهيم على وجهه بحثاً عن أبيه، خاصة وهما يعبران الوادي، وبعد ذلك الصوت القاسي المفاجئ الذي انطلق من فمه دون إرادة: «هنا.. هنا يا صويلح» ومثل قط قفز عن ذلوله وهي تخب به وأشار بخيزرانته إلى مكان بذاته.

وبصبر كبير هزّ صويلح رأسه دلالة الفهم والموافقة، أو ربما بيّت في نفسه أمراً آخر، إذ ما كاد يراه هكذا حتى نزل. أمسك بناقته وأناخها، ثم أناخ ناقة فواز أيضاً، وسأل بطريقة قاسية، وربما مؤذية:

ـ ما تقول، يا فواز، لو أمرحنا نهارنا كله هنا؟

هل كان يريد أن يتحداه؟ أن يقول له، بطريقة غير مباشرة، أن ما رآه في رحلتهم السابقة مجرد وهم من الأوهام؟ هل يريد أن يثبت له أن أباه الذي رآه في هذا المكان، على فرض أنه كان هنا فعلاً، قد رحل إلى مكان آخر، ولذلك لا جدوى من البقاء أو البحث عنه في هذا المكان؟

لا بد أن يكون قد توصل إلى قرار نهائي، ويريد الآن أن يجبره على السير معه، بالطريقة التي يشاء. كان فواز متهيجاً خائفاً، وربما كان بحاجة إلى من يفكر ويتخذ القرار نيابة عنه، إذ ما كاد صويلح يقترح ذلك

الاقتراح، بأن ينفصلا عن القافلة ويقضيا اليوم في هذا المكان، حتى شعر فواز أنه يسخر منه، رد عليه بحدة:

ـ قلت لك بهذا المكان شفته، وإنه بهذا المكان كان، ما قلت لك نمرح هنا.

ـ هذا المكان زين وقريّب، وما به شي لو امرحنا.

ـ لا.. نمرح مع الجماعة عند البيار.

ـ القول قولك، يا ابن عمتي، واللي تشوفه.

هذا هو الخطأ الأول في الرحلة. لو أن صويلح لم يقل ما قاله بتلك الطريقة لقضيا يومهما في هذا المكان، المكان الذي أطل منه متعب الهذال وتحدث إلى أهل روضة المشتى، وسمعه الرجال والنساء والأطفال، وطغى صوته على الرعد وهدير السيل، فإذا لم يأت إلى هذا المكان في النهار فلا بد أن يأتي في الليل. وإذا لم يأت فلا بد أن يكون في مكان قريب. أما أن يوافق صويلح ويتابعا الرحلة فيقطعا الوادي ويصلا إلى نهاية روضة المشتى، من ناحية الشرق، على طريق عجرة، قرب الآبار، أن يوافق معه على ذلك، أن يطلبه بنفسه، فقد ارتكب الخطأ.

في روضة المشتى أصبح إنساناآخر. إنها المياه الملعونة التي إن دخلت إلى الجسد تشله، تجعله عاجزاً. إذ ما كادا يقضيان يومهما الأول، وكان من المقرر أن تبقى قافلة ابن الأعسر ثلاثة أو أربعة أيام، حتى قال له صويلح:

ـ الجماعة يبغون البيع والشراء، وحنا ما عندنا ما نشري وما نبيع، ما قولك لو مشينا؟

وبنفس الطريقة السحرية الفتاكة، وربما نتيجة الخوف من المياه الملعونة، وافق فواز على أن يواصلا سفرهما إلى عجرة في اليوم التالي.

وبمقدار الفرح الذي كان يحرك صويلح ويدفعه لأن يواصلا السير بسرعة في قافلة صغيرة إلى عجرة، كانت الهواجس وحالة من الخوف تسيطر على فواز وتشل تفكيره وتجعله يغرق في الصمت.

ظن صويلح أن المرض أو حالة مشابهة لا بد وأن تمنع فواز من مواصلة الرحلة، ولا بد أن تولد مشاكل لم يكن مستعداً لها، لذلك بذل أقصى ما يستطيع من أجل أن يخفف عنه. بدأ يحدثه عن العالم الذي يقودهما إليه الطريق السلطاني، بعيداً عن البادية الميتة القاسية، وهناك سيجدان كل ما يشتهي الإنسان. لن تطول سفرتهما وسوف يرجعان أغنياء. لم يكتف بذلك، أعاد كل القصص التي سمعها عن رجال فقراء ركبوا الطريق السلطاني وسافروا إلى أمكنة بعيدة، وخلال فترات قصيرة أصبحوا مضرب المثل لغناهم وأهميتهم،منهم من عاد ومنهم من بقي إلى الآن. تزوجوا وخلفوا، وبدل المرأة تزوج الواحد منهم زوجتين أو ثلاثاً، ويبعثون إلى أهلهم في الحدرة، في الرحبة، أو عجرة، يبعثون إليهم بالمال والثياب، وهم لا بد عائدون في يوم من الأيام.

لم يترك صويلح قصة سمعها عن الرجال الذين سافروا إلى الأماكن البعيدة إلا وأعادها عليه، وحين وجده صامتاً بعيداً بدأ يغني.

وصويلح حين يغني ينتزع الأحشاء. لقد سمعه مرات كثيرة، لكن هذه المرة، وهما في طريقهما من روضة المشتى إلى عجرة، غنى بطريقة لم يعهدها فيه. كان يصعد وينزل كما لو أن حمامة وصقراً يتحاوران. كان صوته يغيب حتى يتلاشى، ثم فجأة يصرخ ويعلو حتى يصل السماء.

ما كادا يصلان إلى الطريق السلطاني، وعلى مسافة ساعة أو ساعتين من عجرة، حتى شاهدا خيمة، وما كادا يقتربان أكثر حتى شاهدا جمعاً من الرجال، ووسطهم كان ابن الراشد.

لما رآهما ابن الراشد تشبث بهما، لم يتركهما يصلان إلى عجرة إلا في اليوم الثالث، فقط لكي يشتريا ما يحتاجان إليه، لأن «العمل يبدأ من اليوم.. والمعاش يبدأ من اليوم.. ولا يمكن أن ننتظر».

وبهذه الطريقة، ومن حيث لم يقدر أحد، ولم ينتظر، اصطادهما ابن الراشد وذهبا معه إلى: حران.

ما كاد ابن الراشد يلتقي بهما في عجرة، أو قبلها بقليل، حتى قبض عليهما: «جيتوا والله جابكم. أنتم قرابتنا، والواحد ما له إلا قرابته وجماعته، فإذا ما شغّل جماعته ما يصير براسه خير. لازم تروحوا معي إلى حران، رجلي على رجلكم». نسي كل الكلمات التي قالها قبل شهرين في وادي العيون. أما حين حاول فواز أن يذكّره، أن يقول شيئاً، فقد رد لكي ينهي الموضوع:

ـ الله يلعن الشيطان، والبني آدم دائماً عجول.

ثم راح يؤكد لهما أن العمل في وادي العيون شاق ولا يلائمهما، أما في حران، وخلال سنة أو سنتين «الواحد يصير عنده كوم من ذهب». اتبع أساليب شيطانية من أجل إقناعهما، ورغم الكراهية العميقة والمرارة التي تولدت من رفضه السابق، وميل فواز إلى عدم الموافقة، إلا أن صويلح كان رخواً في امتناعه، ثم بدا متردداً، وأخيراً وافق إذا ذهب معه فواز، ولذلك لجأ ابن الراشد إلى الإغراء والضغط، مع الكثير من الوعود، حتى اضطره للموافقة.

بعد بضعة أيام في عجرة، وبعد أن جمّع ابن الراشد العدد الذي يحتاج إليه، بدأوا رحلتهم إلى حران، إلى ذلك المكان المجهول الذي لم يسمع به إلا القليلون، ولم يصله أي واحد منهم من قبل. توقفوا في الطريق عدة مرات، سألوا بعض رعاة الإبل وشيخاً وجدوه قرب أحد الغدران، ليتأكدوا أنهم يسيرون في الاتجاه الصحيح. وبعد مسيرة خمسة أيام أشرفوا على البحر.

حيث توقفوا ونظروا، فوجئوا إلى درجة عدم التصديق: مياه... مياه

لا نهاية لها، مياه على مدى البصر، إنه البحر! البحر كالصحراء بامتداده واتساعه، ومجرد النظر إلى هذه الكمية الهائلة من المياه يُصاب الإنسان بالفرح والخوف معاً.

لم يكن أحد ليفكر أو ليحلم أن في أي مكان من العالم هذا المقدار الهائل المخيف من المياه. من أين أتت؟ هل جاء بها السيل أو نبعت من باطن الأرض؟ وأهل الحدرة والروضة وعشرات الأماكن الأخرى، وراء هذه التلال، هل يعرفون بوجود هذه الكميات من المياه؟ وإلى متى تبقى وإلى أين تذهب أو تصل؟

لم يكن أي من الرجال العشرين قد رأى البحر من قبل. لقد ظهرت الدهشة والاستغراب على وجوههم وهم ينظرون، وفاتهم أن يروا، من هذا المكان، قرية صغيرة لا يمكن للعين أن تميزها من هذا البعد. أما حين قال ابن الراشد «حسب وصف الشايب اللي لقيناه أمس لازم تكون هذه هي حران»، وأشار بإصبعه، التفت الجميع إلى حيث أشار، كانت كتلة من البيوت الطينية الواطئة تبدو من بعيد، وكانت هناك مجموعة من التلال على يمين البيوت وعلى يسارها، وإلى مسافات كبيرة، كما ظهرت بضع أشجار، لم يستطع أحد أن يميز نوعها من هذا البعد.

بصمت أقرب إلى الخفاء أو التآمر بدأوا يهبطون التل متجهين إلى حيث أشار ابن الراشد.

لأول مرة سمع الرجال باسم حران في عجرة، والآن، بعد أن وصلوا، يرون حران ويعرفون ماذا تكون.

سأل فواز صويلح بتهكم وهما ينيخان ناقتيهما:

ـ هذه هي الشام اللي قلت لي عليها يا ابن خالي؟

قهقه صويلح وأجاب بسرعة:

ـ أسكت.. الأماكن كلها مثل بعضها..

وبعد قليل أضاف كأنه يخاطب نفسه:

ـ وهذا المكان أقرب من الشام بكثير.

لم يستغرب أهل حران وصول القافلة، وكأنهم كانوا على علم سابق بقدومها، خاصة وأن اثنين من رجال ابن الراشد كانا قد سبقا الجميع إلى هناك، وربما زيارات سابقة لآخرين قد تمت قبل وصول هذه القافلة. كان أهل حران مثل أهل وادي العيون، كرماء، يحبون المساعدة، وكانوا يفعلون كل ما يطلب منهم، الفرق الوحيد أن أهل حران كانوا شديدي الصمت لا يتكلمون إلا القليل... وحين يسألون فقط.

ومثلما فعل ابن الراشد في وادي العيون فإنه جمع رجال حران وبدأ:

- ابشروا يا جماعة الخير، الخير جاءكم، والله سبحانه وتعالى فتح عليكم أبواب السماء وإن شاء الله بعد تعبكم وشقاكم ترتاحون. طويل العمر وصى بكم وقال أهل حران ما مثلهم رجال، نشامة وأجاويد، وهذه الشركة شركتكم، جاءت لمصلحتكم ولخدمتكم وهي تريد مساعدتكم ولازم تساعدوها، أما بخصوص التعويض المستحق لكل منكم فابشروا إن شاء الله ما تكونون إلا راضين، الواحد يأخذ حقه وزود...

استراح قليلاً، نظر في الوجوه بإمعان ثم أضاف بصوتٍ خفيض:

- الخويا يصلون بعد كم يوم ونريدكم تبيضّون الوجه وتكونون بالشغل مثل النار وبالطاعة مثل المحبس باليد.

بعد ذلك تشعبت الأحاديث والأسئلة، وابن الراشد الذي كان في وادي العيون يجد ويسخر، ويتصرف كأب، ولا يتردد في مناقشة أي إنسان بصبر، أصبح في حران إنساناً آخر: كان شديد الثقة بنفسه، وقد خلت أحاديثه من المزاح، وبدا جاداً وبعض الأحيان قاسياً. كان يوجه أوامر قصيرة حازمة، ويتحدث بطريقة يحار الإنسان في تفسيرها، هل هي نتيجة عداء تجاه الآخرين أم نتيجة عدم ثقة. أما حين قال أحد المسنين أن الحياة التي يعيشونها ترضيهم ولا يريدون أن تتغير كما لا يريدون شيئاً آخر، فقد تطلع ابن الراشد إلى الوجوه باهتمام وكأنه يبحث عن ابن متعب الهذال، وبعد أن التقت أعينهم للحظة خاطفة قال للرجل المسن:

- يا عم بعد كم سنة تقول لنفسك: علواه لو كنت أصغر وأقوى، لأن الخير الجاي يغرق الدنيا، وكل واحد لازم يغرف منه نصيبه.

قال الشيخ بيأس وعيناه تطرفان:

ـ أخذنا نصيبنا من هذه الدنيا، يا ابن أخي، وإنشاء الله حسن الختام!

وبطريقة حازمة لا تتيح أية إمكانية لمزيد من النقاش أكد ابن الراشد على ضرورة التعاون مع الشركة ومساعدتها، وأفهمهم أن البيوت التي يسكنون فيها ستهدم، لأن المنطقة ستتغير خلال فترة قصيرة، ثم غرق في أسئلة تفصيلية حول الأماكن المجاورة، أسمائها والمسافات بينها والطرق إليها، وما إذا كان يوجد فيها ماء كثير أو قليل.

بعد بضعة أيام وصلت مجموعة من الأميركيين عن طريق البحر، وبدا أنهم كانوا في هذا المكان عدة مرات من قبل، لأن معرفتهم بالرجل المسن وببعض الآخرين من أهل حران كانت واضحة، إذ أخذوا يمازحون الرجال، ويربتون على الأكتاف، ثم انصرفوا إلى أوراق استخرجوها من صناديق كانت معهم، وبدأوا يكتبون ويخططون، وقالوا لابن الراشد، عن طريق المترجم، أن باخرة ستصل بعد أيام، وطلبوا إليه أن يستعد العمال للمساعدة في نقل أشياء كثيرة ستصل على الباخرة.

بعد أن وصلت تلك الآلات الجهنمية عن طريق البحر، ولم تكد بضعة أيام تمر، حتى بدأ هدم البيوت في حران. وإذا كان أهل وادي العيون قد أبدوا استغراباً وصل حدود الدهشة ثم الذهول، وهم يراقبون وصول تلك الآلات، ثم عملها، فإن أهل حران كانوا أقل انفعالاً. صحيح أن الباخرة التي وقفت بعيداً عن الشاطئ أفزعت الجميع، حتى ابن الراشد نفسه بدا عليه القلق الشديد، وكان واضح الارتباك عندما سئل عن هذه «البلية» التي تقترب من حران، وقال لجماعته أو للذين سألوه، كلمات غير واضحة ولم يكن متأكداً منها. أما الحديث الهامس الذي جرى بينه وبين المترجم، والذي تخلله الكثير من الإشارات والحركات، فقد جعله في النهاية موافقاً، لكن لم تزايله أبداً الدهشة، وكذلك الرجال الآخرون كانوا شديدي القلق والخوف، إذ ابتعدوا مسافات كبيرة عن الشاطئ وتركوا المساعدة في إنزال الآلات من المراكب الصغيرة التي أنزلت بدورها من الباخرة لأهل حران. وحين أراد ابن الراشد أن يحثهم، أن يقنعهم بضرورة الاقتراب والمساعدة، وقد حاول شرح كل ذلك بطريقته، لم يستجب إليه الرجال، قالوا: «كل شي نفعله إلا الاقتراب من الماء.. الماء غدار» وقد فهم ما قصدوا إليه، فلم يلحّ عليهم بعد ذلك، إذا انشغل بمراقبة كل شيء باهتمام المستطلع الخائف.

شعر أكثر الرجال بألم وحزن وهم يهدمون البيوت الصغيرة الفقيرة، أما أهل حران الذين رحلوا إلى التلال الغربية، فقد وزعت عليهم الخيام وأعطوا مبالغ من المال، لكي يتدبروا أمرهم، على أن يجري التعويض عليهم في وقت لاحق.

قال صويلح في ذلك المساء، بعد أن سويت حران مع الأرض:

ـ لو لم نأت نحن لوجد ابن الراشد غيرنا وقاموا بنفس العمل.

ويكثير من البراعة، وبهدف أن يقنع نفسه قبل أن يقنع أحداً، أكد أن العمل هو العمل، سواء في هدم البيوت أو باستخراج الملح أو في أي مجال آخر، لا فرق، أما ما ذكره فواز عن رطوبة الجو في حران، وعدم قدرته على التحمل، فقد رد عليه برجاء حزين:

ـ الإنسان يتعود يا ابن عمتي. إصبر شهر شهرين وبعدها تتعود.

خلال الأيام الأولى فكر عدد من العمال أن يتركوا حران، أن يعودوا من حيث أتوا، حالما يتسلمون أجورهم، لكن الراتب الأول الذي دفعه ابن الراشد غيّر قناعاتهم ومواقفهم، إذ لم يحلم أحد باستلام مثل هذا الراتب، ولم يدخل جيب أي منهم مبلغ مثله، وقد جرى ذلك بطقوس من الصمت والاهتمام كانت أقرب إلى الجلال.

ففي عصر الخميس الثالث، وبشكل مفاجئ، طلب ابن الراشد من الجميع أن يقفوا صفاً. كان يقف مزهواً وإلى جانبه دحام المزعل، وما كاد الرجال يتنظمون حتى بدأ ينادي عليهم واحداً بعد آخر، ومن كيس خيش صغير، كان ينتزع كمية من النقود الفضية، وبعد أن يتركها تكرج كالسيل من يد إلى أخرى، مع ذلك النغم المنتظم الرنان، يعدها بمهارة وسرعة، لفرط ما تعود على ذلك، ويناولها طالباً من كل واحد أن يعدها مرة أخرى، بعد أن ينتحي جانباً، ويشير إليه أين يذهب، ثم يلتفت إلى دحام ويطلب إليه أن يتأكد من شطب الإسم، حتى إذا هز دحام رأسه أكثر من مرة، دلالة أنه فعل ذلك، يطلب إليه المناداة على الإسم الذي يليه، وهكذا إلى أن انتهى.

لما أتم ابن الراشد توزيع الرواتب، وتأكد أن الجميع قاموا بعدّها، قال إن الراتب سوف يرتفع في الشهور القادمة، لأن الحسومات التي تقتطع الآن ثمناً للأكل، سيعاد فيها النظر، ويترك الخيار لكل واحد ما إذا كان يفضل أكل الشركة أو أن يحضّر أكله بنفسه، بعد أن يشتري ما يشاء من الدكاكين التي ستقام خلال فترة قريبة.

أوضح ابن الراشد هذه الأمور بأساليب عديدة، ثم قال وهو يتطلع في الوجوه:

ـ عندنا سالفة معكم يا جماعة الخير. . .

تطلع إليه الجميع باهتمام:

ـ الأباعر. . من اليوم ما لها فائدة هنا.

وخيّرهم بين أن يبيعوها إليه مباشرة أو أن يكلّف واحد منهم فيأخذها إلى عجرة، وهناك، في السوق، يمكن أن تباع، مع تأكيده أن السعر الذي سيدفعه لن يحصل عليه أحد في عجرة أو في غيرها.

إنها المرة الأولى التي يشعر فيها الرجال أنهم يواجهون موقفاً صعباً وخياراً حاسماً، إذ يطلب منهم أن يتخلوا عن أعز شيء يملكونه! وإذا كان كل واحد منهم قد تعب وركض كثيراً من أجل أن يشتري ناقة أو جملاً، فإنه يعرف أنه إذا باع اليوم فقد لا تتاح له فرصة قريبة لأن يشتري بديلاً، ومعنى ذلك أن يرتبط هنا، أن يظل وقتاً طويلاً، وربما إلى الأبد.

وفواز الذي حارب وتعب حتى حصل من أبيه على تلك الناقة التي رافقته خلال السنتين الماضيتين، وكانت شديدة الطاعة والفهم والاستجابة، وقد بنى عليها آمالاً كباراً، لا يمكن أن يتركها تذهب لا يعرف لمن أو إلى أين. كان مستعداً لترك العمل والعودة من حيث أتى على أن يستغني عن ناقته. أدرك صويلح ذلك دون أن يقول له أحد، ودون أن يشير إليه فواز، فبدا حزيناً ضائعاً، وفي الليل المتأخر، بعد أن نام أغلب العمال، طلب من فواز أن يخرجا إلى الفلاة، لأن النوم لا يأتيه، ولأنه يريد أن يتحدث معه.

في هدوء الليل، في هذا المكان الذي لم يعد له اسم، بعد أن هدمت البيوت وزالت كل المعالم، كان صويلح يريد أن يقول أشياء كثيرة، أن يتكلم دون توقف، لكن بدا مرتبكاً متردداً، وفجأة استعاض عن الكلمات التي كانت تملأ صدره بالغناء.

غنى غناءً حزيناً أقرب إلى النجوى، كان يغني وطفة، يريد أن يطير إليها، أن يراها ولو لثانية واحدة، أن يسمع منها كلمة، ومن أجل ذلك يمكن أن يتحمل كل شيء، يمكن أن يتعذب ويسافر، ويعمل في أي مكان، حتى إذا جمع المبلغ اللازم فلن يبقيه شيء أو أحد، ولا بد أن يعود إلى الحدرة.

بعد أن غنى قال كأنه يحدث نفسه:

- كبدي محروق، والله بلاني، يا ابن عمتي، ولازم تساعدني!

كانت كلماته أقرب إلى التوسل، كان يريد من فواز أن يبقى، أن يتحمل كل شيء، حتى إذا كانا قادرين على العودة عادا فوراً، ولذلك، لا يمكن أن يربط الإنسان مصيره بناقة، عليهما أن يوافقا على عرض ابن الراشد. أن يبيعا الناقتين دون تردد، فإذا حان وقت عودتهما إلى الحدرة يمكن أن يشتريا مطايا جديدة من أي مكان.

لما تكلم صويلح بهذه الطريقة أحس فواز أنه ذهب بعيداً، وأنه من أجل وطفة، ومن أجل تأمين مبلغ معين، مستعد أن يفعل أي شيء، أن يتخلى عن كل شيء. رد في لحظة من لحظات الغضب والانفعال:

- هذا المكان ما يفيدني ولازم أمشي.

هل نظر إليه صويلح في الظلمة؟ هل أطلق زفرة أو اثنتين؟ هل تصرف بطريقة أوحت إليه أن يتخلى عن إنسان أو أن يقتل إنساناً؟ لا بد أنه فعل شيئاً من ذلك، لأنه وجد نفسه فجأة أكثر استعداداً لكي يقف معه. صحيح أنه لم يقل ذلك مباشرة، ولم يصدر عنه أي تصرف يوحي بهذه الموافقة، لكن شعر بانقباض وقهر، وشعر أكثر من ذلك أنه وحيد في هذا المكان الغريب النائي. حتى صويلح، أقرب الناس إليه، أكثر الناس فهماً له لا يهمه سوى تأمين مبلغ من المال لكي يعود ويتزوج. فإذا كان كذلك فيمكن لابن الراشد أن يفعل أي شيء.

في اليوم التالي، ودون نقاش أو مساومات، سلما، مع الآخرين، جمليهما لابن الراشد، فدفع لهما أثمانها، وقال وهو يتطلع في وجوههم:

- . . . وهالحين ما عاد عندكم همّ، خلصناكم من المطايا وهمها.

ولم يتكلم أحد، إذ انصرفوا إلى التفكير في كيفية حفظ النقود الفضية في أمكنة أمينة لكي لا تسرق ولا تضيع، وبعد تفكير طويل وتردد رأى الكثيرون أن أفضل الأمكنة وأكثرها أمناً أن يودعوها مرة أخرى عند ابن الراشد!

وادي العيون، عجرة، الرحبة، روضة المشتى، الحدرة، وغيرها الكثير من القرى والبلدات والدساكر تأتي منها القوافل والأخبار. الناس يعرفون هذه الطرق، يراقبونها، ينتظرون أن يأتي القادمون منها؛ حتى أم الخوش حين كانت تنتظر، وبعد أن تتعب من السؤال والبحث، كانت تنتظر في الظهرة، على كثيب لا تغيره أبداً، لأنه يشرف على الطريق ويكشفها لمسافات بعيدة. وفي الروضة كانت الآبار في محل مرتفع قليلاً، وهناك كانت القوافل تصل، وكان الناس ينتظرون. حتى عجرة التي تصب فيها الطرق من أنحاء متعددة كان الطريق السلطاني هو «الطريق» بنظر الناس إذا سئلوا، إذا انتظروا، وما عداه ليس إلا مسالك تقود إليه بالضرورة.

هكذا هو الحال بالنسبة لمعظم الأماكن في الدنيا، أما أن تتعلق العيون بهذه المياه الرجراجة، أن لا تتوقف عن النظر باتجاه البحر، إذ من هناك سيأتي الرجال والقوافل والأخبار، فأمر لم يألفه الكثيرون، لكن هكذا كان الحال في حران.

البادية من الجهة الثانية أصبحت أغلب الأحيان صماء مقفرة، لا يأتي منها شيء أو أحد إلا نادراً، حتى الطعام الذي يقدمه ابن الراشد للعمال، بدل أن يبعث من يأتي به من عجرة، أوصى عليه وبدأت تأتي به المراكب من أماكن عديدة. أما البدو الذين رفضوا في الأيام الأولى الاقتراب من البحر أو المشاركة في إنزال الأشياء من المراكب الصغيرة، فما لبثوا أن أخذوا باللعبة، بدت لهم طريقة مثيرة وفيها مقدار من المجازفة، ولذلك لم يترددوا طويلاً حتى اقتربوا من البحر. فعلوا ذلك على مراحل متعددة وبنوع من الاختبار الأقرب إلى السرية. كان الواحد منهم يقترب اقتراباً حذراً

طيئاً. يمشي بموازاة الماء مدة طويلة، محافظاً على مسافة لا يغيرها، حتى إذا اطمأن بعض الشيء خطا بسرعة وبخفة قط راسماً خطاً منكسراً مقترباً من الماء إلى أقصى حد ثم مبتعداً مرة أخرى وبنفس السرعة. فعل الكثيرون ذلك مرات لا حصر لها. جلسوا على الشاطئ، تأملوا المياه بإمعان وغرقوا في التفكير، وحين رأوا أهل حران، الصغار منهم والكبار، وهم يخوضون في الماء، يركبونه بتلك السهولة كما لو أنهم يمشون على الأرض، عجبوا أشد العجب، حسدوهم لأنهم قادرون على ذلك، تمنوا في أعماقهم لو كانوا يستطيعون مثلهم، لكن الخوف لم يزايلهم أبداً لأن «الماء غدار يبلع ولا يشبع».

في وقت متأخر بدأوا يخوضون في المياه الضحلة. بدت شديدة الإغراء وهي تداعب أرجلهم ببرودتها وكثافتها، وأصبحوا، مع مرور الوقت، لا يترددون في أن يستحموا في البحر؛ كانوا يقرفصون على الشاطئ تماماً، المياه تغمر أرجلهم وترتفع حتى منتصف الساق، وبأيديهم أو بطاسات معدنية يغرفون ويسفحون الماء على رؤوسهم وأجسادهم، فإذا جاءت موجة صغيرة فزعوا، نهضوا بخوف وتراكضوا متطلعين حولهم خشية أن تفترسهم هذه الوحوش الماكرة.

بين هذه المجموعة من البدو أخوان: مزبان وهاجم، وحدهما كانا يعرفان السباحة، تعلما في بئر في قريتهما. كانا أكثر الجميع فرحاً بالماء، ولم يترددا في أن يساعدا أهل حران، وينزلا إلى البحر بمجرد أن طلب منهما ابن الراشد، بل وكانا يقضيان وقتاً طويلاً في مرح طفولي وهما يتسابقان، وهذان الأخوان أبديا استعداداً وحماسة لأن يعلما الآخرين السباحة، وكانا يؤكدان أن السباحة عملية سهلة يمكن للإنسان أن يتعلمها في يوم واحد.. إذا أراد، لكن لم يستطيعا إقناع أحد.

والآخرون يسمعون، يراقبون، يبدون إعجابهم، وبعض الأحيان يتظاهرون بالتصديق، لكنهم لم يكونوا مستعدين لأن يدخلوا في هذه التجربة الخطيرة، لأن البحر الذي يرونه أمامهم بلا نهاية، والذي يحمل هذه «البلايا» ويحركها رغم ضخامتها، ثم القصص التي بدأت تروى عن

مراكب كبيرة، وعلى ظهرها مئات الناس، كيف ابتلعها البحر في لمح البصر ولم يبق منها أي أثر، خلق في نفوسهم نوعاً من التهيب يصل حدود الفزع.

وإذا كانت الأشياء الجديدة، من ظواهر أو أماكن، تثير في الإنسان الرغبة في الاكتشاف، وتخلق لديه تحريضاً لا يمكن أن يقاومه طويلاً، فإن البحر، خاصة لمن لم يره من قبل، يثير تساؤلاً مستمراً ويولد مخاوف لا يمكن التغلب عليها، فإذا ترافق ذلك مع القصص التي تروى وتلك التي يخترعها الخيال، فإن التساؤل عندئذٍ يصبح دون إجابة. إذ رغم الساعات الطويلة التي يقضيها كل واحد متأملاً غارقاً في أفكار لا نهاية لها، فإن الغموض يزداد يوماً بعد يوم آخر: من أين أتت هذه المياه كلها؟ ولماذا تكون في هذا المكان ولا تكون في الأماكن الأخرى حيث يحتاجها الناس؟ وإذا كانت مياه المطر والغدران والآبار حلوة مستساغة، أو حتى لو كانت مالحة بعض الشيء يمكن أن تشرب، فكيف أصبحت مياه البحر شديدة الملوحة والمرارة ولا يمكن لأحد أن يشربها؟

الذين جاءوا من الداخل، من أعماق الصحراء، تاهوا في دوامة التفكير والحيرة. بدوا شديدي القلق والخوف، وزاد الخوف وتعاظم حين اشترى ابن الراشد الجمال كلها. شعروا أنهم يواجهون حالة من العجز الكامل، وأنهم في هذا المكان المعزول عن العالم، والذي فقد حتى اسمه، مجموعة من الرجال المحاصرين لا يعرفون ماذا يجب أن يعملوا وماذا ستكون عليه الحياة في الأيام التالية، ولذلك استبدّ بهم القلق وانتابتهم الوساوس، حتى الرغبة في الأكل لم يعودوا يشعرون بها. عزوا ذلك إلى نوعية الطعام الذي يقدمه ابن الراشد، وأكد آخرون أن رائحة البحر، والتي تملأ الإنسان بالضيق، تجعله غير قادر على الأكل. وفسر غيرهم الأمر بأن الأميركان ورائحتهم ورائحة البلايا التي جاءوا بها تقطع نفس الكلب، ولذلك لا يجدون في أنفسهم حتى مجرد الرغبة في الاقتراب من الطعام.

حين بلغت الحالة بالرجال هذا الحد لم يستطع ابن الراشد أن يتهرب أو أن يؤجل، فقد مرض بعض الرجال، وجاءه آخرون طالبين استعادة

جمالهم، لأنهم ينوون الرحيل والعودة من حيث أتوا، فبدا غاضباً عصبياً أول الأمر، ثم ما لبث أن طلب من الجميع التحمل والصبر، وأن يمهلوه بعض الوقت، فقط ليصل إلى عجرة ويعود، فإذا عاد فسوف يستجيب لكل ما يطلبون: أن يطبخوا بأنفسهم، أن يطبخ واحد منهم ويأكل الجميع.. فقط ليمهلوه ريثما يذهب ويعود، أو مسافة الطريق كما قال، وحتى ذلك الوقت أمر أن تزاد كمية اللحم والرز.

المراكب لا تهدأ ولا تنقطع، مراكب صغيرة وأخرى بحجم الجبال، ومن هذه المراكب تنزل أشياء وأشياء، لا يدري أحد ما هي أو لماذا! ومع الأحمال التي تتراكم وتزداد كل يوم يأتي رجال لا يعرف أحد من أين أتوا أو ماذا سيفعلون. كانوا ينشغلون ساعات في إنزال الأحمال الثقيلة، كانوا يشدونها بحبال قوية ثم يرفعونها حتى تصبح أعلى من المراكب. من يرفعها؟ كيف ترفع؟ كانت الدهشة تستبدّ بكل الناس وهم يراقبون بخوف هذه الصناديق الضخمة ترتفع في الهواء، دون أن يروا أحداً يرفعها، وحتى الرجل الذي كان على ظهر المركب، وبيد واحدة يدفع هذه الصناديق الهائلة ويحركها من جهة إلى أخرى، بدا للواقفين على الشاطئ، إنساناً أقرب إلى العفاريت. أما حين سماه دحام المزعل بالعفريت فقد وجد الجميع أن هذه التسمية تلائمه تماماً! كانت العيون تتابعه باهتمام، تراقب كل حركة من حركاته وكل تصرف من تصرفاته، فلما نزل إلى الشاطئ كانت العيون لا تتركه لحظة واحدة، كيف وقف، كيف حرك يديه، وكيف نظر إلى الذين كانوا حوله. أما حين نزع ثيابه ولم يبق إلا قطعة صغيرة تستر عورته، ثم رمى نفسه في الماء، فقد تراجع الكثيرون. خافوا أن يكون لنزوله قوة خارقة تشابه قوته حين كان على ظهر الباخرة، بل وتأكدوا، وهو يرفع يداً ويضرب الماء، أن الماء لا بد وأن يرتفع ويرتفع حتى يغطي اليابسة وإلى مسافة كبيرة، وقد حمدوا الله كثيراً لما اتجه من الشاطئ إلى داخل البحر، إذ لو فعل العكس فلا بد أن تقع المصيبة، ولما اقترب من الباخرة التي كان عليها قال دحام المزعل:

ـ ابن الحرام حرك البابور كله ويمكن يقلبه.

ظل بجانب الباخرة وقتاً ليس قصيراً، ولما بدأ من جديد يتجه نحو الشاطئ طلب دحام من الجميع أن يبتعدوا وأن يظلوا شديدي الانتباه والحذر «لأن من يقدر على تحريك بلية مثل الجبل لا يمكن لأحد أن يقف في وجهه». وحين وصل إلى الشاطئ وتمدد على الرمل راقبه الجميع بانتباه وظلوا بعيدين أيضاً، إذ يمكن أن ينهض هذا الوحش في أية لحظة، وقد يتصرف كالوحوش أيضاً، إذا لم تعجبه النظرات أو حتى أشكال البشر؛ أما حين اقترب منه نعيم، المترجم، وبدآ يتحدثان ويضحكان، ثم كيف نزل نعيم إلى البحر وبدأ يغرف الماء بيديه الاثنتين ويلقي به على هذا العفريت، وهو في مكانه يتقي ويصرخ، إلى أن بلغ احتماله حداً معيناً فقام راكضاً نحو نعيم، وما كاد يخوض في الماء مسافة أربعة أو خمسة أمتار حتى سقط، قام من جديد، وبغضب حاول اللحاق بنعيم، لكن الأخير كان قد ابتعد، وظلت المحاولة مستمرة والجمع يراقب مقطوع الأنفاس منتظراً، إلى أن اختفى الاثنان وراء الباخرة من الناحية الثانية.

كان كل شيء عجيباً في هذا المكان النائي، وإذا كان وصول البواخر وعليها عشرات الأشياء يشغل الناس ويدفعهم إلى العمل، فإن دحام، وهو يحث الرجال، لم يكن يكتفي بالصراخ والإلحاح، كان فمه يمتلئ بالشتائم، يوجهها إلى أولئك الذين يبدون أكثر فقراً أو أصغر سناً، أو أولئك الغرباء الذين جاءوا من أمكنة بعيدة، في محاولة لأن يجبر الجميع على العمل بهمة لا تعرف التوقف أو التردد.

رغم وصول البواخر وما يخلقه من اهتمام ورغبة في الاستطلاع، ثم ما يتبع ذلك من تعب يهد الرجال، ويجعلهم غير قادرين على الحركة أو حتى مجرد الحديث النشيط، فإن حالة من الحزن كانت تطغى على الجميع عند هبوط الليل، وكانت هذه الحالة تزداد وتتكاثف مع تناقص حركة البشر ثم انقطاعها، ومع ارتفاع صوت البحر وتلك الرياح التي تهب فجأة. كان الرجال يغرقون في الصمت وشعور المرارة يخيم عليهم تماماً، خاصة وأن كثيراً من الأسئلة التي يستطيع الإنسان الإجابة عنها في أماكن أخرى، لا تجد هنا جواباً، إذ لا يعرفون إلى متى سيبقون وكيف ستكون حياتهم في

الأيام القادمة، في هذا المكان النائي الذي وجدوا أنفسهم فيه.

ففي هذا المنخفض من الأرض، حيث كانت مجموعة بيوت طينية فقيرة، قريباً من البحر، تتشكل الطبيعة على نحو لا تماثله أمكنة أخرى، ففي جانب يمتد رأس صخري طويل داخل البحر، وفي جانب آخر يتكون خليج ضحل المياه شديد التعرج، حتى إذا امتد مسافة معينة انفتح البحر واتسع، وبدل الصخور الكبيرة القاسية يصبح الشاطئ رملياً، وخلف هذا مجموعة من التلال، متفاوتة الارتفاع، وبعد ذلك تبدأ الصحراء.

في هذا المنخفض، والذي يشبه حضن الأم، وفي نقطة التقاء المياه باليابسة، وعلى مسافة كافية من البحر، لتجنب المد والجزر أو غضب الطبيعة الذي يهب فجأة ودون توقع، تكونت في يوم من الأيام تلك القرية الصغيرة، والتي سمّت نفسها، أو سماها أحد الغرباء العابرين: «حران». كانت أكثر حرارة وأكثر رطوبة من الأمكنة الأخرى، ربما لأن الرياح الشرقية، التي كثيراً ما تصل إلى الأماكن الأخرى، لا تصلها بنفس القوة أو بنفس المقدار، إذ تتكسر هذه الرياح حين تصطدم بالرأس الناتئ أو حين تلتف حوله. ورياح الصحراء، التي تكون طرية ناعمة في أوقات معينة من السنة، تجتاز حران مارة فوقها دون أن تتوقف. أما حين تهب العواصف وتحمل الغبار فإن نصيب حران من هذا الغبار الكثير، إذ تسفّ التلال التي حولها كميات هائلة من الرمال، وقبل أن تصل البحر وتصطدم بالمياه يتساقط القسم الأكبر على أطراف الخليج.

حران في الصيف هي الجحيم بذاته: يسكن الهواء تماماً، وتبدو السماء قريبة ثقيلة وكأنها قبة من رصاص، كما يتشبع الجو برطوبة كثيفة، فيصبح التنفس صعباً وتصبح الأجسام ثقيلة لزجة، فتنزّ عرقاً دون توقف. أما الملابس فإنها تتحول إلى عبء لفرط البلل وتلك الرائحة التي تولدها الأجسام. وفي مثل هذا الجو يصاب الإنسان بالعجز والتعب، حتى الجسد يصبح الإحساس بكل عضو منه إحساساً منفصلاً، كما لو أنه رُكّب من مجموعة أعضاء دون تناسق ودون لحمة تشدها بعضها إلى بعض.

وإذا كانت الأماكن الأخرى المشابهة تصبح مقبولة في الليل، فإن ليل حران لا يختلف عن نهارها؛ فما تكاد الشمس تغيب حتى تنعقد في الجو كتلة هائلة من غيوم خفيفة، وهذه الغيوم تجعل الرؤية محدودة والتنفس عسيراً، أما تلك البرودة التي تأتي من غياب الشمس فإنها هنا تصبح مثل الألحفة الرطبة الثقيلة، لا يعرف الإنسان هل الأفضل أن يحتمي بها أو أن ينزعها، وتظل الحرارة الممزوجة بالملوحة هكذا إلى ما قبل شروق الشمس بساعة أو ساعتين، وفي هذه الفترة القصيرة فقط يمكن للإنسان أن يتنفس ملء رئتيه ويشعر ببعض الراحة.انتظاراً ليوم قاس آخر.

هكذا تكون الطبيعة وهكذا يكون الطقس معظم أيام السنة، عدا فصل الشتاء، ففي هذا الفصل، والذي يمتد ثلاثة شهور تقريباً، ترقّ الطبيعة حتى لتصبح خفيّة متوارية وأشبه ما تكون بالطيف، فلا يحس الإنسان بالحرارة أو البرودة، وتنعدم الرطوبة أو تكاد، ويصفو الجو عدا أيام قليلة حين يتساقط المطر غزيراً قوياً، لكن هذا لا يدوم إلا ساعات قليلة، وبعد ذلك تهب على حران من الصحراء رياح مفعمة بالطيب ورائحة الأرض، والأعشاب النادرة، فتخلق في الأجسام قوة وتذكراً حاداً.

من أجل هذه الأيام أو لانتظارها عاشت مجموعة منسية من البشر، عاشت من الصيد ومن المساعدات التي تأتيها من المسافرين، معتمدة على مراكب صغيرة لا تذهب مسافات بعيدة داخل البحر. كانت صلة حران بالعالم محدودة، لكنها غريبة ومتفجرة أيضاً، إذ رغم أنها لا تعرف إلا طريقين أو ثلاثاً في رحلاتها القصيرة المتباعدة من أجل تأمين حاجاتها القليلة، فكثيراً ما يستبد الهوس ببعض الرجال وتغريهم نداءات البحر الغامضة المثيرة، وعندئذٍ يبحرون بمراكبهم الصغيرة إلى أن يصلوا ذلك الميناء الذي لا يبعد سوى يومين، يصلون إلى «منال»، فإذا عاكستهم الريح أو ضربتهم الأمواج القوية فإنهم قد يتأخرون يوماً أو يومين في الوصول، أما إذا كانت الريح أقوى من احتمالهم فلا بد عندئذٍ من أن يعودوا، انتظاراً لوقت آخر. حين تواتي الريح ويصلون إلى منال يتصرفون كالمجانين. أكثرهم يبيعون مراكبهم ويواصلون سفراً طويلاً مجهولاً على واحدة من

تلك السفن التي تكون عادة في الميناء. وفي هذه الأسفار يعملون ويعيشون ويغنون ويتذكرون، وقد تمر سنوات قبل أن يعود الكثيرون، فإذا عادوا إلى حران كانوا يحملون معهم من الأماكن الأخرى القصص والذكريات أكثر مما يحملون الأموال والأشياء، ويعيشون على ما حملوا سنة أو اثنتين، ويرجعون إلى الصيد وحياة حران، وحين يملون أو لم يعودوا قادرين على التحمل عاودوا الرحلة مرة أخرى. لقد فعل ذلك عدد من الرجال، وهذا التصرف الذي يحزن النسوة والصغار، لم يكن موضع احتجاج المسنين، لأن في حران شيئاً يجعل الإنسان يتصرف بهذه الطريقة. حتى المسنون الذين استقروا، ولم تعد نداءات البحر تغريهم أو تحملهم على اتخاذ قرارات مجنونة، فإنهم عاشوا في أيام سابقة حالة أرغمتهم على السفر والإبحار باتجاه منال ثم ما بعدها.

ومثلما كانت نداءات البحر قوية مثيرة تحمل عدداً من الرجال باتجاه منال، كانت نداءات الأرض وراء حران لا تقل إغراء وجاذبية بالنسبة لآخرين، فالرجال الذين دخلوا الصحراء، فوصلوا عجرة، ثم أخذوا الطريق السلطاني وسافروا بعيداً، انقطعت أخبار بعضهم فترات طويلة، لكن ما لبثت الأخبار أن جاءت ورجع بعض الذين سافروا. وإذا كان مسافرو البحر يعودون بالقصص أغلب الأحيان، فإن الذين أخذوا الطريق السلطاني كانوا يعودون بقصص أقل، وتشبه تلك التي يصادفها المسافرون في كل مكان، ويستعيضون عنها بأشياء كثيرة حملوها معهم، وبدا أن الطريق السلطاني أكثر خيراً وخصباً بالنسبة لأغلب الذين سافروا. والذين لم يعودوا، أو طالت أسفارهم أكثر مما قدروا لم ينسوا حران، كانوا يبعثون لمن فيها كل ما يستطيعون، كانت تصل الأرزاق والدراهم والرسائل، مع تأكيدات لا تنقطع أنهم سيعودون في فترة قادمة.

لهذه الأسباب كانت تعيش حران وتنتظر. كانت تحتمل كل هذه القسوة انتظاراً لأيام الشتاء، حتى الناس فيها إذا تذاكروا أيام الشتاء بدوا أكثر قوة وأكثر تفاؤلاً، ولا يتردد بعض المسنين في التأكيد أن جو حران أفضل من أماكن أخرى كثيرة!

فإن زادت الرطوبة عن حد معين وأثقلت الحرارة المصحوبة برياح غربية الجو بطبقة من الغبار الكثيف، وأصبح الناس غير قادرين على الاحتمال، فلا بد أن تكون صور أبنائهم المسافرين هي التي تثبتهم في هذا المكان النائي من العالم وتجعلهم يصبرون ويحتملون. . . وينتظرون.

هذه هي حران منذ أن قامت في هذه البقعة من الأرض، وهكذا كانت حين وصلها ابن الراشد ورجاله. أما رجال الشركة، الذين زاروا أماكن كثيرة قبل حران، فقد استقر رأيهم على اختيارها لتكون مدينة وميناء ومقراً للشركة، ولتكون مدينة اللعنة والنهاية.. أيضاً!

إذ ما كادت البواخر تصل واحدة بعد أخرى، وما كادت تتكدس الصناديق الكبير بأعداد تتزايد مع وصول كل باخرة جديدة، حتى سيّجت رقعة كبيرة من الأرض بأسلاك شائكة، وكانت هذه الأرض تبدأ من وسط الخليج وتمتد باتجاه الشرق والشمال حتى تصل التلال البعيدة. وطُلب من ابن الراشد ورجاله أن يكونوا في الجهة الأخرى من حران، وعلى مسافة لا تقل عن ألف متر من الأسلاك. وخلال فترة قصيرة، وبعد وصول عدد من الرجال الغرباء، في مركب مختلف عن المراكب التي وصلت إلى حران من قبل، بدأت حركة لا تعرف التوقف أو البطء، حركة أقرب إلى الجنون أو السحر، حيث يتراكض الرجال من مكان إلى آخر، وتتراكض معهم تلك الآلات الصفراء العاتية التي ترفع التلال وتردم البحر، وتدك الأرض، تفعل ذلك دون توقف ودون رحمة. ورجال ابن الراشد الذين جُمعوا بعد أيام من وصولهم وقسموا إلى مجموعات صغيرة، كل مجموعة من ثلاثة إلى أربعة رجال، فإنهم وسط الركض المجنون والآلات التي تهدر وتتحرك كالجمال الهائجة، كانوا شديدي الحيرة والارتباك، لا يعرفون على أي وجه يمكن أن يساعدوا وأن يكونوا مفيدين. كانوا يحملون الألواح الخشبية، قضبان الحديد، العوارض الإسمنتية، كانوا يفعلون ذلك لكن بخوف وارتياب كثيراً ما أديا إلى وقوعهم، إلى اصطدامهم بالصناديق، أو إلى وقوع الأشياء.

كان الأميركيون ينظرون إلى وجوه الرجال بتساؤل محايد، حين كان نعيم يحدد لهم ما يجب أن يعملوا، لكن هذا الحياد ما لبث أن تحول إلى نوع من الدهشة حين بدأ هؤلاء الرجال يتحركون وينتقلون من مكان إلى آخر حاملين الألواح والقضبان، تحولت الدهشة إلى قهقهة وإشارات لما اصطدم بعض العمال بالصناديق، وحين وقع واحد منهم؛ وهذه الضحكات العالية المصحوبة بالإشارات ولّدت خوفاً ومرارة في نفس الوقت، وزادت في وقوع الأخطاء، الأمر الذي أدى بأحد الأميركيين، وكان ينتقل بين المجموعات ويراقب الجميع، إلى الطلب من نعيم أن يصرف العمال العرب في وقت مبكر.

كان العمال وهم يعودون إلى المكان الذي خصص لهم في الجهة الغربية، يمشون مثل قطيع، ورغم الشمس التي كانت تنصبّ كشلال غزير من السماء، إلا أن حالة من السواد غشيت عيونهم وقلوبهم. كانت حلوقهم جافة وفيها تلك المرارة التي تجعل لكل شيء طعم العلقم، كما انتابتهم حالة من التعب جعلت الخطوات قصيرة والصمت كاملاً. كانوا يريدون أن يصلوا بأسرع وقت إلى خيامهم، أن يلقوا بأجسادهم على الأرض، أن يغيبوا في نوم عميق لكي لا يعودوا إلى تذكر أو استعادة تلك الحركات البلهاء والابتسامات الساخرة والنظرات التي كانت تلاحقهم وتراقبهم في كل خطوة من خطواتهم.

ودحام الذي كان في الصباح الباكر مثل ديك، وهو يمشي بين العمال، إذ كان يتحرك حركة نشيطة زائدة، لم يستطع أن يفهم لماذا طلب إليه أن يأخذ العمال ويعود في هذا الوقت بالذات؟

إنه الآن يسير باتجاه الخيام في الجهة الغربية مثل الآخرين: صامتاً حائراً، بل وبدا مليئاً بالقهر. قال في نفسه «لو كان ابن الراشد موجوداً لما دخل لسانه إلى حلقه، ولخلق لنا ألف مشكلة!».

ولما كانت عادة دحام أن يتدخل في كل الأمور، إن يتكلم كثيراً، ولا يتردد في أن يشتم، فقد كان يريد أن يصل قبل الرجال، أن يتوارى، لأن الخطأ، إذا كان هناك خطأ من نوع ما، لا بد أن يكون مسؤولاً عنه. لو

استطاع أن ينقل إلى الرجال التعليمات بدقة، أن يفهمهم ما يجب أن يعملوا لسارت الأمور بشكل أفضل، «ونعيم لماذا صوته منخفض هكذا ويشبه صوت النساء؟ لماذا لا يتكلم بطريقة أخرى؟» وشعر بحقد تجاهه. إنه المسؤول الوحيد عن الأخطاء، إنه يقول الأشياء في اللحظة الأخيرة وبتلك الطريقة الرخوة غير المفهومة.

حين دخل صويلح وفواز إلى الخيمة كان هاجم ومزبان قد سبقاهما، لم يستطيعا أن يميزا شيئاً خلال اللحظات الأولى، خاصة وأن الصمت كان مخيماً. أما حين ألفت عيونهم الظلمة الخفيفة، بالمقارنة مع الوهج خارجها، فقد قال مزبان كأنه يخاطب نفسه:

ـ الله كتب لي عمراً جديداً.. اليوم.

سكت قليلاً ثم أضاف:

ـ ولولا الأسود اللي لجم البلية لطاحت بعظامي.

كان معظم العمال قد رأى كيف كادت تلك الآلة الجهنمية الصفراء تسحق مزبان، خاصة بعد تلك الصرخة التي ندّت عن الأسود الذي كان يسوقها، ولفتت نظر الموجودين كلهم، فقد كان يروق لكل واحد منهم أن يسمع من جديد، أن يستعيد تلك التجربة المريرة ويفهم لماذا حصلت وكيف.

ومزبان الذي روى من جديد «القصة» بصوت خافت ومتعب، وبدا حزيناً وسعيداً في وقت واحد، لم يستطع أن يفسر ما حدث. كان بعيداً عن تلك «البلية». كان يحمل لوحاً من الخشب، وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه أمامها. لماذا لم يسمع صوتها الذي كان يصم الآذان؟ لماذا لم يرها تقترب وهي بهذا الحجم الذي لم ير مثله من قبل؟

وبكثير من الحنق، الذي تخللته الشتائم، بدأ صوت صويلح يهدر:

ـ أولاد الحرام يتراكضون مثل العفاريت. الواحد منهم ظرف ويتدعبل من هنا من هنا ما تعرف وين رايح ومنين جاي. وهذه البلايا تتراكض، تتناطح، تشبّ فوق بعضها، فوق الناس، وصوتها يهدر ويصمّ.

زفر بحرقة وأضاف بصوت حزين:

ـ منين جاءت هذه البلايا وكيف نقدر عليها؟

قال هاجم بحدة:

ـ الله يلعن اليوم اللي رافقنا ابن الراشد ووصلنا إلى حران.

وضحك بسخرية. تطلع إلى الوجوه وقال بلهجة مختلفة:

ـ هذه البلايا إذا ما قتلتنا اليوم تقتلنا باكر.

وغرقوا في الصمت من جديد، أحسوا أن حالة من القهر تفتك بهم، وأن الأيام الصعبة، الأيام السوداء، ليست تلك التي مرت، وإنما هي التي ستأتي. وأحسوا أيضاً أن ابن الراشد لم يخدعهم فقط وإنما وضعهم في حالة لا يستطيعون معها أن يتحركوا، أن يتصرفوا بحرية، وها هو قد سافر وتركهم في هذا المكان الملعون، ومع هؤلاء البشر الذين لا يفهمون شيئاً منهم، ولا يعرفون كيف يتصرفون أو ماذا يفعلون.

أما حين نادى حميدي داعياً الجميع إلى الغداء فقد قال صويلح بسخرية:

ـ من له خبزة في هذي الدنيا لا بد ياكلها.

ولما ظل فواز في مكانه لا يتحرك ولا يجد في نفسه رغبة للأكل، فقد قال صويلح مخاطباً الجميع:

ـ الله يلعن الأميركان وأبو الأميركان... جاءوا وجاء معهم كل البلاء.

❀ ❀ ❀

بين العصر والغروب من ذلك اليوم جاء نعيم، جاء على غير توقع، رغم أن إحساساً غامضاً راود الجميع بأن شيئاً ما لا بد أن يحصل.

الرجال في ظلال الخيام أو إلى جانبها يجلسون في تلك العصرية. كانوا يفكرون ويسافرون، ينظرون إلى البحر وإلى التلال القريبة، يحتسون الشاي، بعد أن برد، على غير عادتهم.

بدا من بعيد مثل شبح أسود لكنه لم يلفت نظر أحد. إنه واحد من المعسكر الآخر. وبشر المعسكر الآخر، كعادتهم كل يوم، يفعلون أشياء غريبة: يهرولون، يسبحون، يتلاحقون كالكلاب، يتهارشون كالأطفال.

بكلمة إنهم يفعلون كل شيء لا يخطر ببال. أما وهو يتحرك، وظله يمتد خلفه، ويقترب خطوة بعد أخرى من معسكر العمال، ومثلما كانوا يفعلون دائماً، فقد تراهنوا: من يكون؟ ودون تردد كبير خرج أكثر من صوت: الشعيرة... الترجمان.

حتى لما وصل إلى مسافة قريبة لم يرفع نعيم رأسه، كان يمشي ونظره إلى الأرض، وكأنه يفكر، أو لا يريد أن يتطلع إلى وجوه الرجال، أو لا يريد أن يكتشف أنهم يراقبونه ويتابعون خطواته.

ودون تردد، بعد أن رفع وجهه مرة واحدة فقط، وتأكد من خيمة دحام، توجه مباشرة نحوها.

كان دحام قد خصص لنفسه الخيمة الأولى، لأنه يريد أن يكون الأول، الأقرب في مواجهة معسكرهم، وأقرب ما يكون إلى الطريق التي تنزل من جهة التلال الغربية، طريق عجرة. قال الرجال في نفوسهم: «لدى الرجل سالفة، وهي التي حملته إلى هنا!» كان كل واحد يفكر ويقدّر الأسباب التي حملت نعيم على المجيء في هذا الغروب، وإنه لا بد أن يكون لها علاقة بعمل اليوم، خاصة وإنه لم يصل إلى هذا المعسكر إلا مرتين أو ثلاثاً، وبعدما ألحّ ابن الراشد عليه كثيراً، وبعث إليه بأكثر من رسول مؤكداً له أن لديه أشياء هامة يريد أن يبلغه بها.

الآن وهو يقطع المسافة مطرقاً مفكراً، وبعد يوم عصيب، لا بدّ أن يكون حاملاً رسالة. إذ ما كاد أحد الرجال يراه آتياً ويبلغ دحام بالأمر، حتى خرج هذا الأخير لملاقاته، خرج مرحباً بصوتٍ عالٍ وبشكل استعراضي مبالغ فيه، ولذلك ازدادت مخاوف الرجال وتساؤلاتهم. أما حين دخل الخيمة بسرعة، دون أن يلتفت، دون أن يتوقف، فقد تأكد الجميع أن في الأمر خطورة غير عادية.

لما وقف بباب الخيمة ونادى: «فواز.. يا فواز» شعر فواز، للحظة خاطفة بالاضطراب، لكن شعور التحدي كان أقوى وكان هو المسيطر، بدا ذلك شديد الوضوح، حتى أن صويلح، الذي كان يجلس مقابله ووجهه نحو البحر، التفت بانفعال لما سمع النداء، وحين لاحظ علامات الغضب

على وجه فواز قال بطريقة أبوية:

ـ احرص.. إذا غلطوا عليك لا تغلط عليهم.

كان فواز في تلك اللحظة مستعداً لكل شي، رغم صغر سنة، وإذا كان قد استطاع أن يفرض نفسه، وأن يتعامل مع الآخرين بطريقة تفرض الاحترام، فإن دحام يتعامل معه بطريقة لا يحظى الكثيرون بمثلها، ربما قال له ابن الراشد أن يتجنبه، وربما بسبب تلك المسافة التي حرص هو عليها منذ إن كانوا في عجرة وحتى الآن. أما الكلمات التي تبادلها مع دحام خلال الأسابيع الماضية فلم تزد عن تحية أو سؤال.. الآن في ظل هذا الغروب، أي شيء يريد منه دحام بعد أن جاءه الترجمان؟ ولماذا اختاره بالذات؟ هل الأمر متعلق بخطأ ارتكبه أم بالخطأ الذي وقع فيه مزبان؟

إن في الأمر شيئاً لا يريح، لكنه رغم ذلك كان مستعداً لمعركة، لمجابهة أي إنسان. لم يلتفت لكلمات صويلح ولم يتطلع إلى وجوه الرجال الذين كانوا يجلسون بالقرب من الخيام. وما كاد يصل الخيمة ويحيي دحام حتى قال هذا الأخير بصوت خافت كأنه لا يريد أن يسمعه نعيم:

ـ الترجمان يريدنا نقرأ على رؤوس الجماعة، نفهّمهم كيف يشتغلون.

ظال نعيم جالساً حين دخل فواز، وحتى التحية لم يكلف نفسه بالرد عليها. هز رأسه قليلاً، ونظر إلى فواز نظرة أقرب إلى العداء، وكأنه لا يثق به، وبعد فترة صمت سأل:

ـ أتعرف القراءة والكتابة؟

هز فواز رأسه دلالة الإيجاب. لم يكن حتى هذه اللحظة متأكداً، ومن جديد سأل:

ـ أين تعلمت؟

ـ في وادي العيون؟

ـ أتوجد مدرسة في وادي العيون؟

ـ تعلمت عند الشيخ.

كانت عينا نعيم تتفرسان في وجه هذا الفتى، تراقبان حركاته، تكتشفان أي إنسان يكون. وإذا كان فواز قد تعلم الكثير من أبيه، فإن أحد الدروس التي أتقنها، وكثيراً ما كان يُختبر فيها حين كان في وادي العيون، أن يتطلع إلى وجوه الذين يتحدث إليهم، لأن الإنسان إذا عجز لسانه تتكلم عيونه، وربما لم ترق لنعيم هذه النظرات المحددة الصلبة، والتي تحمل عداء مقابلاً، أو على الأقل عدم التقدير الذي كان يتوقعه، سأل بسخرية:

ـ ما هو الشيخ؟ وماذا تعلمت؟

ـ الشيخ مناور إمام مسجد وادي العيون هو الذي علم الأولاد القراءة والكتابة والحساب!

لا يعرف فواز لماذا شعر نحوه بعداء أكبر، فالأسئلة لا تحمل أي مقدار من البراءة، بل هي أقرب إلى عدم الثقة والسخرية. أما طريقته ثم نظراته الرخوة، وهذا الشكل من الرجال، الأقرب إلى صغر الحجم، والذي تخرج كلماته من بين أسنانه، وكأنها تخرج من جسد آخر، فقد جعله يحس بالكراهية. قال دحام لينقذ الموقف وينهي هذا النقاش العقيم:

ـ فواز يكتب الرسائل للجميع.

رفع نعيم يده في الهواء دلالة عدم الاهتمام أو عدم الثقة، وقال بتعالٍ:

ـ المهم، أنتم، الاثنين، تقع عليكم المسؤولية. نحن كتبنا التعليمات التي يجب أن يتقيد بها العمال، ويجب أن تفهموا هؤلاء البشر.

ومد إلى دحام ورقة كبيرة مطبوعة فاستلمها منه بلهفة واحترام. تطلع إليها، هز رأسه دلالة على الاهتمام الكبير، تابع نعيم بنفس الطريقة الرخوة:

ـ أولها شرط آخرها سلامة.

قال هذه الكلمات غير الواضحة، تطلع إليهما متسائلاً، فظلا صامتين، أضاف وهو يضحك بسخرية:

ـ غداً لا يأتون إلى العمل. غداً تقرأون عليهم هذه التعليمات. تقرأونها مرة.. مائة مرة، حتى إذا فهموا نبدأ العمل بعد غدٍ بدون مشاكل...

وبعد قليل أردف بلهجة حازمة:

ـ غداً قبل الظهر ترسل لنا ثلاثة لاستلام الملابس الجديدة ليلبسها العمال بدل هذه الخرق والبهدلة.

وضرب الفراش إيذاناً أن مهمته أوشكت على الانتهاء، وسأل:

ـ مفهوم؟

وبكل الخنوع الذي تعرفه الحيوانات الذليلة الجائعة عبّر دحام عن فهمه المطلق، وعن استعداده غير المعهود لكي ينفذ التعليمات بدقة. عبر عن ذلك بالكلمات والحركات وهذا الانفعال المبالغ فيه، وهو ينقّل نظراته بين الورقة التي ظلت مفتوحة وبين وجه الترجمان.

أما فواز فقد شعر بالانقباض وما يشبه الكراهية لهذا الرجل القصير، لدحام، وهو يتذلل بهذه الطريقة، ثم لهذه المهمة التي لا يعرف كيف وجد أنها مفروضة عليه. أما محاولات دحام في أن يستبقي نعيم على العشاء، فقد قابلها الرجل بابتسامة تحمل معني الرفض أكثر مما تحمل معنى الاعتذار. قال وهو يهز فنجان القهوة دلالة أنه اكتفى، وكان يقف في باب الخيمة ويتطلع بنظرة واسعة وكأنه يختبر نفسه ويختبر الآخرين. قال كلماته الأخيرة وهو يمشي:

ـ بعد غدٍ سنرى!

خلال أقل من شهر بدأت تنشأ مدينتان: حران العرب وحران الأميركان.

العمال الخائفون المرتبكون، الذين أثاروا سخرية الأميركان ثم قهقهاتهم في البداية، هم الذين بنوا المدينتين. هم الذين ثبتوا الألواح الخشبية البيضاء ببراغي قوية، وهم الذي حملوا العوارض الحديدية الثقيلة ووضعوها فوق الألواح ثم شدّوا بعضها إلى بعض، وهم الذين ثبتوا الزجاج وعاكسات الشمس، ثم قاموا بالطلاء. كانوا بعد كل بضع ساعات ينفضون أيديهم ويتراجعون قليلاً إلى الخلف لكي يلقوا نظرة على بيت آخر فرغوا منه. والمهندس الأميركي الذي يشرف ويراقب، ما إن يفرغ العمال حتى يلقي نظرة، ثم يختبر الجدران والسقوف باليدين، بالآلات، فإذا تأكد من كل شيء تطلع إلى الوجوه السمراء بإعجاب يمازجه الدهشة، وذات الكلمات تتردد: o.k.

لقد حصل هذا مرة بعد أخرى في حران الأميركان، وخلال أقل من شهر كانت نواة مدينة كبيرة ومنظمة قد بدأت تتوضح وتتكامل: شوارع متصالبة عريضة وأخرى ضيقة، لكن باستقامة حادة، وكلها دكتها الآلات الملعونة الثقيلة، ثم فرشت بمواد سوداء لزجة. بيوت تشبه الأوز الذي يمر فوق وادي العيون أيام الشتاء، بيوت صغيرة وأخرى لا يدري أحد من سيسكنها لفرط كبرها واتساعها. عدد من برك السباحة في أمكنة متعددة ومتباعدة، وإلى جانبها تماماً بيوت من القش وسعف النخيل، وطريق طويل يربط التل الشمالي الشرقي بالبحر، وقد وضعت مئات الأنابيب على الطريق وظلت مثل سر لا أحد يعرف ماذا ستكون..

وخلال هذه الفترة لم تتوقف البواخر عن الوصول. كانت تحمل مواد

لا يمكن لأحد أن يحزر لأي أمر ستُستعمل: حتى بعد أن تفك عنها الصناديق الخشبية وتخرج من الأوراق الخشنة أو من العلب، وينكب عليها واحد أو اثنان من الأميركيين، وتبدو مثل تلال حديدية متألقة، لا يمكن لأحد أن يقول كلمة واحدة عن هذه «البلايا» الجديدة.

كان العمال العرب، والذين بدوا مثل الدمى في الأيام الأولى، بعد أن دكوا أجسادهم الناحلة في الأوفرهولات ووضعوا على رؤوسهم تلك القبعات البيضاء الصلبة، كان هؤلاء قد قسموا إلى مجموعات ووزعوا في أنحاء متعددة ومتباعدة من المعسكر، ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى أصبحوا مخلوقات أخرى. كلمات الإطراء تترافق مع ضربات خفيفة على الأكتاف دلالة الإعجاب والتقدير. كانوا لا يترددون عن القيام بأي عمل أو تقديم أية مساعدة إذا طلب منهم ذلك. إنهم الآن مستفزون إلى درجة يمكن معها أن يفعلوا أي شيء، إذ بعد الذي وصل حدود الخوف، خاصة بعد أن قرئت عليهم تلك التعليمات الميتة، شعروا بتحدٍ وصل درجة القهر، وبطريقة مكابرة، ودون اتفاق، بدأت الأمور تأخذ شكلاً جديداً، إذ أصبحت الأيدي تتحرك بطريقة مختلفة عن السابق، ومعها بعض الأسماء والكلمات. ولفرط ما تكررت ترسخت في الذاكرة دون أن يعرف أحد كيف، وبدأت معها تتكون العلاقات، وتترافق مع ابتسامات وإشارات أكثر، فزال الخوف أو تراجع.

وعلى نفس البواخر التي حملت «البلايا» كان يأتي رجال يتزايد عددهم مع كل باخرة جديدة. رجال لا يُعرف من أين أتوا أو ماذا سيعملون. كانوا يتدفقون كالجراد، ينتشرون في جميع أنحاء المعسكر. وخلال يوم واحد ترتب إقامتهم وسكنهم، حتى الطعام الذي يقدم في تلك الغرفة الطويلة، والتي لم يعرف أحد لماذا أعدت حين اكتمل بناؤها، كان جاهزاً لكل واحد منهم.

ومع كل بناء يكتمل يندفع العرب خطوة إلى الوراء، إذ بعد أن تبنى الجدران تركب السقوف، وبعد أن يوضع الزجاج والعاكسات يبدأ الأميركان بأعمال غامضة، إذ يمدون حبالاً سوداء قوية داخل الجدران، ويضعون في

الشبابيك كتلاً حديدية وأشياء تنفث ريحاً باردة، حتى إذا جاء البشر على ظهور البواخر أُعطيت لكل واحد منهم تجهيزات كاملة من الملابس والأغطية والأدوات، وخصص له مكان بذاته ينام فيه، وبعد يوم أو اثنين يختلط هؤلاء بعضهم ببعض، وكأنهم على معرفة سابقة، ويندفعون في أعمال لا نهاية لها. كانت مهمة بعضهم في البحر، ومهمة آخرين أن يمدوا تلك الأنابيب من مكان إلى آخر، وكانت مجموعة تنصب الآلات التي فكت من الصناديق. كان الجميع يتراكضون مثل القطط المذعورة من مكان إلى آخر، وهم عراة تقريباً، إذ عدا السراويل القصيرة والقبعات البيضاء، كانوا لا يضعون شيئاً على أجسامهم أغلب الوقت. كانت البقع السوداء تغطي الأجسام والوجوه، وكانت بعض الجروح الصغيرة تظهر في الأصابع وعلى أماكن أخرى من الجسم، والعرق يسحّ كأنه المطر من الصدور والوجوه، فإذا اختلطت هذه الأشياء معاً يبدو الإنسان مضحكاً، لكن لفرط ما تكرر مثل هذا المشهد لم يعد يثير أحداً أو يلفت نظر أحد.

❀ ❀ ❀

وخلال أقل من شهر عاد ابن الراشد محاطاً بعدد من الرجال. لا أحد يعرف من أين، ما عدا سبعة من أبناء المنطقة، من عجرة والروضة، فإن الآخرين جاءوا من أماكن بعيدة ومختلفة.

ولما كان ابن الراشد قد ترك حران أرضاً عراء، لا بيت فيها ولا علامة تدل عليها، عدا مجموعة من الخيام في الجهة الغربية، ومجموعة من الصناديق الخشبية الكبيرة التي جاءت بها «البلية»، فقد أبدى دهشة بلغت حدود الإعجاب الشديد حين رأى من بُعد تلك الأشياء الخارقة الي قامت في فترة غيابه. عبّر عن ذلك بصوت عالٍ وأمام المجموعة التي كانت معه. أما حين وصل ورأى الرجال، وقد عادوا من حران الأميركان، وهم يلبسون الأوفرهولات ويضعون على رؤوسهم تلك القبعات، فقد رفع يديه الاثنتين بدهشة أقرب إلى الخوف وصرخ:

ـ يا سبحان الله.. ويش سويتم بأرواحكم يا اولاد الحلال؟

أغلب الرجال لم يفطن لحقيقة استغراب ابن الراشد في الوهلة

الأولى، نظر بعضهم إلى بعض، ثم نظروا إلى ابن الراشد متسائلين، أما هو فقد تابع وكان يقهقه:

ـ قلت لنفسي: الأميركان ما يُغيّرون اولاد العرب ولو طلعت بروسهم نخلة.

واقترب من دحام الذي بدا مضحكاً بملابسه الضيقة، بكرشه الكبير قليلاً، ومؤخرته الناتئة، وقال وهو يربت على كتفه:

ـ ابن آدم كل يوم يطلع له قلب.

ورغم أن الدهشة لم تزايل ابن الراشد، فقد أثنى، بصوت عالٍ، وبمبالغة كبيرة، على كل شيء رآه أو سمع به. أثنى على دحام وعلى الرجال الآخرين؛ أثنى على البيوت الجميلة التي أقامها الأميركان، وقال إن العرب يجب أن يفعلوا مثلهم؛ ثم بدأ يستفسر عن كل شيء بلهفة، عن المنشآت متى أقيمت، ومن أقامها، وكم احتملت من الوقت، وعن الملابس متى حصلوا عليها، ثم امتدت يده إلى إحدى القبعات فلتمسها باهتمام دلالة الإعجاب، ولم ينس أن يسأل ما إذا كان الرجال كلهم قد حصلوا على هذه الملابس والقبعات، وما إذا كان توجد منها أعداد أخرى. كان شديد الانفعال، حتى أن الأسئلة كانت تتلاحق، ولم يكن ينتظر ليستمع إلى كل التفاصيل، لأن لهفته وانفعاله، ثم رغبته في أن يعرف كل شيء فوّتت أكثر التفاصيل التي حرص دحام على ذكرها.

في غمرة الدهشة والانفعال فات ابن الراشد تقديم الرجال الذين جاءوا معه، وهؤلاء الذين أُخذوا أيضاً بهذا الجو، ظلوا في جهة، قريباً من الجمال، صامتين، ثم لما غرق ابن الراشد بالأسئلة قام بعضهم بإناخة الجمال والبدء بفك أحمالها، حتى إذا التفت واكتشف إنهم لا يزالون بعيدين، وفي محاولة لأن يقدّم ادهاشاً موازياً لما رآه تحرك بسرعة وصخب طالباً من الجميع أن يعاونوا في إنزال الأحمال وإدخالها إلى خيمته.

وبجو من الحماسة والمشاركة تمت العملية في فترة قصيرة، وقد تخللتها أسئلة وكلمات مازحة، ونظرات تبادلها الذين كانوا من قبل مع الذين جاءوا، وفي لحظة من الحزم، وكأنه تذكر شيئاً، قال ابن الراشد مع الأحمال الأخيرة التي أنزلت:

ـ ابشروا يا جماعة الخير.. كل شيء راح يصير مثل ما تريدون.

أما حين تجمع أغلب الرجال وجلسوا في تلك الفسحة بين الخيام، في مواجهة البحر، بعد أن انتزع أكثرهم الملابس الضيقة التي كانوا يلبسونها، أو فكوا أزرارها التي كانت تجعلهم مثل القوالب، وانتزعوا أيضاً القبعات وتركوها في الخيام أو وضعوها جانباً على الأرض، في لحظة من لحظات الصمت التي تعمدها وخلقها ابن الراشد، أبلغ الرجال أن أحد الذين جاءوا معه سيتولى القصابة، وقال عنه أنه قصاب أباً عن جد، وسوف يبيع اللحم للذين يشاؤون. وقال إن آخر، وأشار إلى رجل مربوع أو أميل إلى القصر، وشديد السمرة، سيتولى بيع الحاجات لجميع أهل حران، وستكون هذه الحاجات كثيرة ومتنوعة، مثلما هو الحال في عجرة أو أمكنة أخرى. ثم التفت إلى أكثر من جهة حتى التقت عيناه بعيني ذلك الرجل الصغير الضامر، قال وهو يضحك فتبين أسنانه الفارغة:

ـ أنا أعرف البدوان.. تعودوا على خبز ما يغيرونه، والخويا يعرف كيف كيف يسويه..

وضحك بصوت عالٍ وهو يضيف:

ـ وكُلوا يا عربان وادعوا لطويل العمر!

ولم يفهم من يقصد بطويل العمر، هل هو الخباز أم ابن الراشد ذاته أم أحد غيرهما! أما ذلك الشاب الخجول الذي كان يلبس بنطالاً وسترة، وقد ظل بعيداً وصامتاً، وكأنه في حلم أو يشهد مسرحية غريبة، فقد قال ابن الراشد أنه «المهندز» الذي سيبني للعرب بيوتاً يغار منها الأميركان.

هكذا أبلغ ابن الراشد الرجال. وإذا كان قد بدا عليه التعب من الرحلة الطويلة، فقد كان شديد التوقد والحركة، يريد أن يرى كل شيء، أن يسمع عما حدث أثناء غيابه: عدد البوابير التي جاءت والأشياء التي حملتها، والأشخاص الذين وصلوا خلال هذه الفترة. ودحام الذي تولى الإجابة، وبعض الأحيان باستفاضة، لاحظ أن الرجل تشغله أمور أخرى، وكان يفكر بأشياء مختلفة، إذ ما لبث إن رآه يقوم ويطلب منه أن يرافقه إلى حران العرب.

مع أهل حران كان ابن الراشد إنساناً مختلفاً. أبدى الكثير من اللطف

والتبسط في الحديث. سأل كل واحد منهم. سأل ما إذا كانوا بصحة جيدة، وسأل عن مساكنهم الجديدة وهل هم مرتاحون فيها أم بحاجة إلى شيء آخر، وقد أبدى اهتماماً خاصاً «بالشايب»، كما كان يسمي ابن نفاع تعبيراً عن الاحترام، حتى إذا فرغ من هذه الأسئلة، بدأ يسأل عن أراضي حران، هل هي أرض مشاع أم مقسمة، وإذا كانت مقسمة من هم الذين يملكونها، والأراضي التي بجوارها هل هي مراعٍ أم أراضٍ مملوكة، وقد كان شديد الاهتمام والدقة بكل ما قالوه، وطلبَ من دحام أن يسجل كل شيء، ثم عاد وأكد عليه مرة أخرى، أثناء عودتهما أن «يضبط هذه الأمور لأنها مهمة» ولم يقل شيئاً آخر.

ابن الراشد وحده الذي يفكر ويقرر، لا يعطي سره لأحد ولا يستشير أحداً. لقد حرص على أن يذهب إلى عجرة بشكل مفاجئ، وكأنه يدبر مؤامرة، إذ لم يعرف بسفره إلا الذين رأوه يركب ويمشي. طلب من الرجال أن يمهلوه «مسافة الطريق» كما قال وأكد أكثر من مرة، وبعد أن غاب شهراً ها هو يعود، وبدل أن يحل مشكلة السابقين جاء برجال جدد، وبمشاكل أخرى.

كل هذه أسراره الخاصة، حتى عندما وصل سأل عن نعيم قبل أن يسأل عن أي إنسان آخر، ولما قال له دحام المزعل «الخويا وصل عدد كبير منهم، ونعيم مشغول معهم» طلب ابن الراشد من أحد رجاله أن يذهب إلى معسكر الأميركان، وأن يبلغ نعيم بوصوله، وأنه يريد أن يراه لأمور هامة. فلما ذهب الرجل وعاد، دون أن يرى نعيم أو يعرف عنه أي شيء، قال ابن الراشد يخاطب دحام:

ـ يلزم تشوفه باكر من كل لزوم وبد. . .

وابتسم وهو يضيف، لكن بصوت خافت:

ـ هو المفتاح. . . ولازم ندبره.

ولم يفهم دحام شيئاً مما قاله ابن الراشد، لكن هز رأسه دلالة الموافقة!

حران الأميركان تنمو وتتسع كل يوم، ومع نموها واتساعها تزداد غرابة وتغيراً، أما في عصر ذلك اليوم الذي صُرف فيه العمال باكراً، ولم يسمح لهم أن يقتربوا من بعض الأماكن، رغم أنهم لم ينجزوا العمل فيها، خاصة البركة الكبيرة.. عصر ذلك اليوم بدت حران الأميركان غير عادية، وكأنها تستعد لشيء ما، وإذا كان ابن الراشد قد قرر أن يخصص عصر اليوم نفسه، واليوم الذي يليه، وكان يوم عطلة، من أجل الانتهاء من بناء الدكاكين الثلاثة التي ستخصص للمخبز والقصابة وبيع الحاجات، إلا أن السفينة الكبيرة التي بدأت تظهر في الأفق غيّرت كل شيء في حران العرب وحران الأميركان معاً، وغيرت كل ما كان فيه الكثيرون.

لما وصلت السفينة الكبيرة عند الغروب أدهشت الجميع. فشكلها يختلف كثيراً عن السفن التي وصلت من قبل، إذ كانت تتلألأ بأنوار ملونة، وقد حوّلت البحر إلى كتلة من اللهب، أما حجمها الهائل وهي تتقدم فقد جعل الناس في ذهول شديد. لم ير أهل حران ولا العمال الذين جاءوا من الداخل شيئاً مثلها من قبل، عجبوا وتساءلوا كيف يمكن لشيء مثل هذا الحجم أن يطفو فوق الماء.. وكيف يسير.

ما كادت الباخرة تقترب حتى بدأت الأغاني والطبول والأصوات تنبعث من كل مكان، من على ظهر الباخرة ومن اليابسة، حيث اصطف كل الأميركيين الذين كانوا في المعسكر. وباحتفال صاخب بدأت المراكب الصغيرة، بعد أن توقفت الباخرة: تنقل الذين كانوا على ظهرها. نقلت المراكب عشرات الناس، مئات الناس. وكانت مع الرجال أعداد كبيرة من النسوة. كانت النسوة: طريات، لامعات، باسمات، أو كالخيول بعد شوط

طويل من الركض. كل واحدة مغسولة، قوية، مستعدة وكأنها خارجة لتوها من حمام ساخن. كانت الأجساد لا تسترها إلا قطع صغيرة من أقمشة ملونة. السيقان شامخة ظاهرة وأقوى من الصخر. الوجوه والأيدي والصدور والبطون.. كل شيء، نعم كل شيء، كان يشتعل، يرقص، يطير. وكان الرجال يشتبكون مع النسوة على ظهر الباخرة، ثم في المراكب الصغيرة، أما على ظهر اليابسة فقد حصل شيء لا يمكن لأحد أن يصدقه.

إنه منظر لا ينسى، ولا يمكن أن يتكرر أيضاً. أصبح الناس كلهم كتلة واحدة، وأقرب ما يكونون إلى جسم جمل عملاق، لم يبق أحد إلا واشتبك بالآخرين، التحم بهم.

وأهل حران وهم يقتربون خطوة بعد خطوة، دون شعور منهم، وكأنهم منومون، يزدادون دهشة وعجباً. كانوا لا يصدقون ما ترى أعينهم، وما تسمع آذانهم. هل يوجد شيء مثل هذا، سفينة مثل هذه، بهذا الحجم، بهذه الروعة؟ هل يوجد في العالم هذا النوع من النسوة اللواتي يشبهن الحليب والتمر معاً ببياضهن المحروق؟ وهل يتصور أحد أن يقمط الرجال النساء دون خجل، دون خوف من الآخرين؟ والنسوة.. هل هن زوجات أم عشيقات أم شيء آخر؟

كان رجال حران يتطلعون، يتابعون بأنفاس لاهثة، وكانوا إذا رأوا شيئاً لا يصدقونه، ينظر بعضهم في وجوه بعض متسائلين، ومع النظرات ابتسامات وشهوة، وبعض الأحيان صرير حاد بالأسنان أو ضربات قوية على الأرض. والأطفال سبقوا الجميع ووصلوا في وقت مبكر. جلسوا قريباً من الماء، ولم يتردد عدد منهم في النزول إلى البحر والاقتراب من الباخرة. أما الكثيرون فقد فضلوا البقاء على اليابسة لكي يتحركوا بسرعة وسهولة، ولئلا يفوتهم أي شيء.. حتى النسوة تابعن كل شيء من بعيد ولم تجرؤ أية واحدة منهن على الاقتراب.

إنه اليوم الذي يؤرخ لحران: متى قامت وكيف قامت، لأن الكثيرين لا يتذكرون حران قبل هذا اليوم. حتى أبناء حران ذاتها الذين كانوا في هذا

المكان منذ وقت بعيد، والذين خافوا حين وصلت المجموعة الأولى من الأميركيين، وخافوا أكثر حين رأوها تزرع الشاطئ والتلال؛ أهل حران الذين ولدوا وعاشوا هنا، والذين حزنوا كثيراً حين أبلغوا أن بيوتهم سوف تهدم، فاستعادوا أحزاناً قديمة، كما تذكروا الموتى والمسافرين، إن هؤلاء أنفسهم يتذكرون يوم وصول تلك الباخرة أكثر من أية أيام أخرى، بمزيج من العجب والدهشة، حتى ليكاد يصبح التاريخ الوحيد الباقي في ذاكرتهم.

أما العمال الذين زحفوا مجموعة بعد أخرى، والذين رأوا كل شيء بأعينهم، فقد كانوا في حالة من العصبية والقهر واللوعة أكثر مما كانوا فرحين. لأول مرة يتملكهم شعور ساحق موجع بأنهم جاءوا إلى هذا المكان بطريق الخطأ، ويجب أن لا يبقوا طويلاً. وابن الراشد الذي تظاهر بعدم الاهتمام أول الأمر، وطلب من واحد أو اثنين أن يستطلعوا «البلية الآتية»، وكان يهيّئ العمال لكي يبدأ حملة ببناء حران الجديدة، حتى ابن الراشد لم يستطع أن يصبر طويلاً أو أن يظل بعيداً، إذا ما كادت الباخرة تتقدم وتطلق دوي صفارتها مرتين، ثم وقوف الرجال والنساء على شرفاتها، وكانوا يلوّحون بأيديهم ويتحركون، ومع الأضواء والموسيقى، حتى هبّ ابن الراشد وهو يقول لدحام وآخر ظلاً معه:

- إذا جن قومك عقلك ما ينفعك.

وضحك بصوت عالٍ ثم تابع:

- كل طارش بعثناه لا رجع ولا رجّع خبر، ولازم نشوف اللي صار بهذه الدنيا!

مشى مشياً بطيئاً هادئاً، لكن كلما اقترب نحو البحر، وكلما أخذت المعالم تبين والصورة تتكامل، كان يحس إن قوة في داخله تدفعه لكي يسرع. أما حين جلس وسط العمال، قريباً من الماء تماماً، وبدأت تظهر النسوة وتسمع الضحكات، وفي اللحظة التي أعقبت زفرة قوية كاوية من أحد العمال، وقد خيم الصمت، فقد قال بنزق أقرب إلى الانفعال:

- يا خويا.. هذا هو بلاط نبيّ الله سليمان.. اللي قالوا عليه.

علت الضحكات وترافقت مع تعليقات كثيرة صدرت عن أشخاص عديدين، حتى بعض الصبية صدرت منهم تعليقات أو أصوات معينة، ولم يعترض عليها الكبار.

مقابل الصمت الذي كان يملأ حران العرب، والمتابعة الدقيقة الملهوفة التي كانت تحكم كل واحد من الرجال الذين جلسوا على الشاطئ، بلغت الضجة على الباخرة وعلى اليابسة، في حران الأميركان، حداً لا مثيل له. وإذا كان العمال لم يروا ولم ينتبهوا، حين وصول الأميركان السابقين لوجود آلات موسيقية من أي نوع، فقد أبدوا دهشة كبيرة لما رأوا الطبول والمزامير وآلات أخرى، وقد تجمعت على الشاطئ. وحالما وقفت الباخرة، وهدأت أصوات الموسيقى التي تنبعث منها، بدأت موسيقى الشاطئ أقوى وأوضح، خاصة وقع الطبل الكبير، والذي كان يقود حركات المحتفلين وأصواتهم، ويجعل لكل شيء لوناً وطعماً مميزاً.

قال أحد العمال بحرقة:

ـ اولاد الحرام الأميركان.. إذ دخنوا عمونا وإذا حنّنوا ما أطعمونا.

رد هاجم:

ـ أكلهم أكل الشيوخ يا مبارك، والمستريح اللي من «ذاك» خالي.

كان لدى الكثيرين كلمات أو تعليقات يمكن أن يقولوها، لكن الحركة النشيطة والموسيقى الصاخبة القوية، وهذه المشاهد التي تتوالى بسرعة لم تترك لأحد أن يتكلم، حتى لو أراد. فالآخرون كانوا غارقين في متابعة هذا الحلم المستحيل. كانوا، أول الأمر، يشيرون بخوف أو بخجل إلى بعض المشاهد التي يرونها تجري. يلفت بعضهم نظر بعض بكلمات قصيرة، بوخزة كوع، لكن مع تزايد المشاهد، ومع تواليها السريع، ووقوف رجال ونساء، عراة أو أشبه بالعراة، على ظهر الباخرة، أو في تلك المراكب الصغيرة، وقيامهم بتلك الأدوار المسرحية: أيدٍ ممدودة على طولها متباعدة، ثم هجوم سريع وعناق وقبل، أو يحمل أحد الرجال امرأة أو اثنتين على ظهره وصدره، أو أن تجلس امرأة في حضن أحد الرجال.. حين بلغت الأمور هذا الحد لم يعد يخشى أو يتردد في أن يشير بيدٍ

ممدودة، في أن يصدر أصواتاً أو كلمات واضحة الدلالة. أما التعليقات فقد بلغت الذروة مع وصول المركب الأخير قادماً من الباخرة. كان في المركب رجل واحد وسبع نساء. كان الرجل في وسط المركب بلحيته الكثيفة وصدره المليء بالشعر، والنساء السبع حوله نصف مضطجعات، وهو يدور دورة كاملة، يداعب هذه، يداعب تلك، ينحني فوق واحدة، ينحني فوق أخرى، يمسك امرأة بيد ويمسك أخرى باليد الثانية، يدور، يضحك بصخب، يقفز، يهز المركب، ترتفع أصوات الطبل، يدور مرة أخرى، ينحني، ويرفع واحدة حتى تقف أمامه، يدور معها ثلاث أو أربع دورات، يتوالى صوت الطبل قوياً منتظماً، حتى إذا اقترب المركب من الشاطئ، قفز الرجل قفزة قوية فأصبح في الماء، وأخذ بيده يدفع المركب حتى وصل، مع وصوله ارتفعت أصوات البشر في غناء سريع مرح. قال عبد الله الزامل:

ـ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، الجواري والغلمان فيها مخلدون.

رد حماد الزين:

ـ والله مثل ما قال أبو محمد: نبي الله سليمان وألف بلقيس.. وموتوا بغيظكم يا اولاد الكلب.. يا عربان.

لم يصدق أحد شيئاً مما جرى أمامه أو رآه رأي العين، لأن ما جرى يفوق الوصف ولا تكفيه أية كلمات، ولا يمكن أن يحدث أيضاً. حتى الصبية والأطفال الصغار الذين كانوا كثيري الحركة ولا يتوقفون عن التعليق والضحك بصوتٍ عالٍ، بدأوا في لحظات معينة مأخوذين تماماً بما يشاهدون فصمتوا. والرجال الذين داروا نصف دورة، والذين تحركوا قليلاً وأخذوا مواقع وأمكنة جديدة لكي يتابعوا هذا الموكب في رحلته الجديدة إلى داخل حران الأميركان، كانوا مأخوذين أكثر من الصبية والأطفال. صحيح أنهم كانوا أميل إلى الصمت ولم تصدر عنهم تعليقات كثيرة، إلا أنهم شعروا بنوع من الدوار، وأحس أكثرهم بآلام حادة تمزق أجزاء معينة من أجسامهم، بل ووصل الأمر ببعضهم إن صدرت منهم أصوات حادة

تعبيراً عن هذا الألم، وتمنى آخرون لو أنهم لم يأتوا ولم يشاهدوا هذا الذي يجري أمامهم.



أغلقت البوابة بعد دخول ركاب الباخرة إلى حران الأميركان، ووقف جمعة الأسود، مثل ملك الموت، إلى جانب البوابة، وبيده كرباج صنع من ذنب الفيل. وأخذت الضجة والأصوات تبتعد وتتداخل إلا أنها لم تتلاش أبداً. وحتى وقت متأخر من الليل ظلت أصوات الموسيقى تُسمع من أماكن بعيدة، وفي اللحظات التي تنقطع كان الرجال المرابطون على الشاطئ يتوقعون شيئاً ما في اللحظة التالية، لأن كل مرة يخيم الصمت فيها ويمتد لدقائق قليلة، كان ينفجر بعده الصخب والضحك عنيفاً قوياً، ثم تتبعه موسيقى أقوى من المرات السابقة، ولأن هذه اللعبة تكررت فقد أصبح انتظارها ومراقبتها لذيذاً وقاسياً معاً.

لم يحس أي من الرجال الجالسين على الشاطئ بالبرودة التي أخذت تملأ الجو، ولم يجد أحد منهم الرغبة في أن يقول شيئاً محدداً أو جدياً، ورغم أن وقتاً طويلاً قد مضى على وصول الباخرة ودخول الأميركيين إلى المعسكر، إلا أن الزمن في هذه الليلة كان مختلفاً عن الليالي السابقة. وأهل حران الذين تعودوا النوم مبكراً، ولا يشذ عنهم إلا بعض العمال الذين يلعبون الورق، فإن أحداً لم يحس بالزمن الذي مر، أو الرغبة بمغادرة المكان. حتى الأطفال والصبية الذي أُخذوا بما رأوا فإن الأمر لم يستمر طويلاً، إذ ما لبثوا أن تحركوا، تراكضوا وتفوهوا، بهمس مسموع، بكلمات لم يتصور الكبار أن الصغار يعرفونها! ووصل بعضهم إلى الخيام، وربما نقلوا للنسوة ما شاهدوه بتفاصيل دقيقة، لأن النسوة اللواتي ظللن بعيدات طوال الفترة التي وصلت فيها الباخرة والتي أعقبتها، عرفن أشياء كثيرة، وكأنهن شاهدن كل شيء بأنفسهن. حتى التيس، كما أطلقن على الملتحي الذي وصل بالمركب الأخير، روين بالتفصيل كيف كان يدور وينحني، وكم امرأة كانت معه في المركب، ثم لما قفز في البحر؛ روين كل شيء بخجل أول الأمر، ثم بوضوح بعد ذلك. وإذا كانت النسوة قد

طلبن من الصغار أن يذكّروا آباءهم لكي يأتوا لتناول العشاء، فقد فعلن ذلك دون وضوح كافٍ ودون إلحاح، كما أن الأطفال والصبية في غمرة الانفعال والركض والانتظار نسوا أو أهملوا نقل هذه الرسائل.

لو أنها ليلة من ليالي الصيف، لو أن القمر كان يملأ السماء، أو لو أنها ليلة من ليالي عودة المسافرين الذين طالت غيبتهم، لأمكن تفسير هذا السهر الذي ملأ هذه الليلة في حران، ولرافقت السهر أحاديث لا تنتهي، عن الأيام والأماكن البعيدة، ولتخللت ذلك ضحكات صاخبة تعبيراً عن الفرح والشوق، ثم ما يعقبها من الأسئلة عن المسافرين الآخرين والأماكن الأخرى، وعن المطر والعشب. أما أن يمتد السهر والرجال أقرب إلى الصمت، عدا أسئلة عجولة ولا تنتظر إجابات، فقد تفجرت في الصدور أحزان وأسئلة لا نهاية لها.

كان يمكن لكل واحد أن يقول الكثير، حتى الرجال الذين تعودوا الصمت فإن لديهم أشياء يمكن أن يقولوها. ولربما غنى بعضهم، لو أن قلوبهم لم تكن مثقلة بهذا الحزن كله. لكن حين هجم الحزن هكذا وسيطر على الحواس، فقد أصبح العجز يربط الألسنة، والألم يهد الأجساد، وانتشرت حالة من المرارة مع جفاف الحلوق وتوتر الأعضاء، فساد الصمت، حتى ابن الزامل الذي كان سريع الحركة وصدرت منه تعليقات كثيرة، وذهب عدة مرات إلى البوابة، ووقف إلى جانب الأسلاك الشائكة لعله يدخل أو يقترب، وكان إذا سمع شيئاً ينقله بسرعة إلى الآخرين، حتى أن ابن الزامل ما لبث أن خمد شيئاً فشيئاً بعد أن تعذر عليه الوصول إلى أية نتيجة، فنهض بعصبية وقال وهو يمشي:

ـ اذكروا الله يا جماعة.

توقف قليلاً، حتى إذا انتبه إليه بعض الرجال تابع:

ـ الأميركان اولاد الحرام ما من وراهم إلا التعب ووجع الراس، هم باللحم وجماعتنا على العظام ما تحصل.

وبعد أن مشى بضع خطوات التفت وقال:

ـ اتركوهم، يا جماعة، الله يخزيهم ويخزي اليوم اللي وصلوا فيه.

كان يجب أن يفعل أحد ذلك لأن حالة الخدر التي عمّت الجميع، والتي بدت من الصمت والانتظار، ثم ذلك الرحيل إلى أماكن مظلمة، قريبة وبعيدة، وهذا الخيال الذي اشتعل دفعة واحدة، لم يترك لأحد أن يفكر أو يتصرف. وابن الزامل الذي حاول مثل ذئب جائع، والذي انتقل من مكان إلى آخر، ثم حرّض الصبية على أن يذهبوا إلى أقصى الناحية الشرقية ويقفزوا فوق الأسلاك، لكي يروا وينقلوا إلى الآخرين، رغم محاولاته التي فشلت كلها، أدرك بغريزته أن الاستمرار في هذا المكان، وبهذا الوضع، سيولد المزيد من التعب والعذاب لكل واحد، ولذلك حين قرر أن يذهب وقال للرجال هذه الكلمات بدأت حركة غير عادية، ترافقت مع مجموعة من الشتائم والزفرات والتحدي.

قال ابن الراشد وهو ينهض ويتنحنح:

ـ القول قولك يا ابن الزامل. الجماعة سالفتهم طويلة وهمهم أطول.

رد أحد أبناء حران:

ـ أيام السرور قصار!

قال ابن الزامل الذي ابتعد قليلاً:

ـ ولياليه أقصر.

قال أحد الرجال ولم يبِنْ وجهه في الظلمة كما لم يتميز من صوته:

ـ قولوا اللي تقولوه، لكن أخاف أننا ضيعنا الدنيا والدين، لا نحن مع الأميركان باللحم ولا مع غيرهم بالمرق!

وضج الجميع بالضحك، لأنهم أدركوا ما يرمي إليه الرجل، أما ابن حران الذي اشتعلت مخيلته بكل هذه الرؤى، والذي سافر من قبل إلى أمكنة بعيدة، وربما رأى وعاش أياماً تختلف عن أيام الناس في هذا المكان المجهول من العالم، فقد كان لا يرضى أن يعود هكذا. قال بعد أن هدأت ضحكات الرجال:

ـ آخر الليل تأتيك العلوم.

ربما لم ينم أحد في حران كلها تلك الليلة. الأميركان ظلوا يصخبون

ويغنون طوال الليل، وقد أكد عدد من الرجال، في وقت لاحق، أن الشمس أشرقت وكان صوت الغناء أقوى من بداية الليل، كما أكد آخرون أن الباخرة صفرت صفيراً عالياً مع شروق الشمس، وقد حرّض هذا الصفير الناس فبدأوا من جديد.

والناس في حران العرب لم يناموا أيضاً؛ حتى الصبية، بعد أن عاد الرجال، ظلوا يحوّمون على الشاطئ مقابل السفينة، وقريباً من الأسلاك الشائكة، فلما تعبوا أو ملّوا اقتربوا من الخيام وبدأوا يغنون ويمزحون ويتبادلون النكات البذيئة. وقد صاح حماد الزين أكثر من مرة على الكلاب والصبية طالباً السكوت «لإن الناس تريد أن تنام!» ولكن أحداً لم يسمع ولم يستجب.

أما الرجال الذين عادوا متأخرين فقد شعروا بالجوع لكن لم يبدوا رغبة بالأكل، وحين قال عبد الله الزامل أن أباه كان دائماً يروي حديثاً للنبي يؤكد أن الطريقة الوحيدة لتجنب الفتنة والغواية هي الصيام، ولذلك يقترح على الرجال أن يناموا دون عشاء، فقد لاقى هذا الاقتراح هوى في نفوس الكثيرين، أو أن الكثيرين لم يجدوا في أنفسهم القوة، في هذا الوقت المتأخر، لإعداد الطعام، فاكتفوا بالشاي، إذ جلسوا في الفسحة بين الخيام وأخذوا يرشفون من الأقداح وهم صامتون.

ومثلما كان الحال على الشاطئ فإن حالة المرارة استمرت وزادت، حتى الأحاديث التي تبدأ لا تلبث أن تخبو وتتراجع، في الوقت الذي كانت الفلاة كلها تضج بأصوات الموسيقى والضحكات العالية، لقد حصل هذا عدة مرات، وحتى النكات البذيئة التي رواها هاجم وحماد، وكان من الممكن أن تثير ضحكاً صاخباً لو رويت في وقت آخر، أو في ظروف أخرى، فإنها قوبلت بابتسامات شاحبة صغيرة متكلفة.

وكانت الحال نفسها أيضاً في منازل أهل حران، إذ اكتفى الرجال بأكل خفيف، وذهبوا إلى النوم مباشرة، لكنهم لم يناموا حتى وقت متأخر!

لقد انفجرت في هذه الليلة الأحزان والرغبات والأشباح والمخاوف. لم يبق أحد إلا ومرت في رأسه زوبعة من الرؤى، وشعر الناس كلهم أن

عصراً جديداً قد بدأ هذه الليلة. فحران التي كانت بعيدة منسية، والتي لم تكن تستقبل الغرباء إلا في أوقات متباعدة، خاصة أولئك الذين يأتون حاملين معهم بعض البضائع والمواد لكي يبيعوها أو يبادلوها ثم يقفلون راجعين، ما عدا هؤلاء الغرباء، لم يكن يأتي إلا رسول بعث به أحد أبناء حران المسافرين وتكلف بمصارفه كلها من عجرة أو أبعد منها لينقل بعض الأرزاق والرسائل والدراهم للعديدين.

أما أن تتحول حران إلى هذا الشكل وبهذه السرعة، وأن تصلها البواخر وهذه الأعداد المتزايدة من البشر، وأن تبنى فيها تلك الأبنية في الجهة الشرقية، فأمر لم يقدره أحد، ولم يخطر ببال. ومع أن الناس بدأوا يألفون الأبنية الجديدة، وتعودوا يوماً بعد آخر على الوجوه التي وصلت، فإن أقصى درجة من درجات الخيال لا تبلغ بإنسان أن يتصور وصول مثل هذه الباخرة. وإذا كان ابن الراشد قد سماها باخرة سليمان، لأن النساء اللواتي جئن عليها يشبهن بلقيس أو أجمل منها، فلا يمكن لأحد من أهل حران أن يصف لآخرين ما وقعت عليه عيناه وما رآه.

أي عصر يبدأ الآن وماذا ينتظر حران في الأيام القادمة؟ وماذا يستطيع الرجال أن يتحملوا وإلى متى يمكن أن يصبروا؟ وهذه الليلة إذا مرت، فكيف ستكون الليالي القادمة؟

الأسئلة التي لم يطرحها أحد، والتي مرت في كل الرؤوس، حملتها الأشباح في الغفوات القصيرة القلقة حين ذهب الرجال إلى النوم، وحتى الرغبات المكتومة التي لا يصرح بها الإنسان لنفسه انبعثت مرة أخرى في الليل المتأخر وعند الفجر. فالذين ذهبوا إلى الفراش، دون أن يشعروا بالنعاس، والذي أخذتهم تلك الغفوات القصيرة، ما لبثوا أن هبوا فزعين بعد أن طاردتهم الأطياف وملأتهم بالرغبة واللذة والخوف والانتظار!

لم يكن وصول باخرة نبي الله سليمان، أو باخرة الشيطان، كما أطلق عليها ابن نفاع، ثم مغادرتها بعد غروب اليوم التالي، السبب الوحيد في أن يمتنع الرجال عن البدء بإنشاء المدينة الجديدة. فابن الراشد الذي فكر أكثر من مرة في أن يعرض على الرجال البدء بالعمل، تردد ثم أجّل الأمر، لأن الحالة التي كانوا عليها لم تتح إمكانية من أي نوع لبحث الموضوع. فمن لا يشكو من سهر الليلة الفائتة، لا بد أن يدعي مرضاً أو تعباً، ومن كان أكثر جرأة أو صراحة لا يتردد في أن يقول إنه يريد البقاء على الشاطئ، مقابل «البلية» لكي يرى كيف يتنا (. . .) الأميركان! أما أهل حران الذين يعرفون من أين تقطع الحجارة وعندهم الأدوات التي تساعدهم في ذلك، فلا بد أن يعتبروا صلاة الجمعة سبباً كافياً لعدم تلبية أي طلب. ولذلك فضل ابن الراشد أن يطوي الموضوع، خاصة بعد أن لاحظ في صباح وظهيرة اليوم التالي أن الرجال في حالة عصبية شديدة الوضوح. كانت وجوههم صفراء، وتصرفاتهم تتسم بذلك المقدار الكبير من الحدة. ورغم أن الصمت لا زال مسيطراً، قال ابن الراشد لنفسه بنوع من التسليم: «الإنسان إنسان، وإذا كان العمال قد تركوا أهلهم منذ وقت طويل وصبروا دون أن يصدر عنهم أي خطأ فإنهم بعدما رأوا هذه العجائب أمس لا بد أن يتحولوا إلى وحوش، ولذلك فالأفضل أن يتركوا إلى أن يبردوا».

كانت عادة أكثر الرجال أن يصلّوا الجمعة في المسجد، المكان الذي تُرِك دون أن يطرأ عليه أي تغيير، كما طلب ابن الراشد من الأميركيين عن طريق المترجم، خاصة بعد أن سوَّت الآلات الأرض. أما في هذا الصباح فقد بدوا شديدي الحرج، وتنازعتهم الأفكار والآلام والآثام معاً. فالذين

كان يجب أن يذهبوا إلى البحر لكي يغتسلوا وجدوا صعوبة وحرجاً، لأن الناس انتشروا منذ الصباح الباكر على شاطئ البحر. كان بعضهم يراقب الباخرة، وآخرون يمشون بعصبية، قاطعين ـ مسافة كبيرة وهم ساهمون، حتىَ إذا ابتعدوا عادوا مسرعين خوف أن يفوتهم شيء، وغيرهم شغلته أسئلة وهموم لا يفكر بغيرها!

قال ابن الراشد لدحام، حين سأله الأخير، ما إذا كان قد حان وقت دعوة الرجال إلى العمل:

ـ اترك السالفة يا ابن مزعل، العربان بالها ما هو معها. . .

وحين تظاهر دحام بعدم الموافقة ضحك ابن الراشد وخرجت الكلمات مبعثرة من فمه:

ـ يا ابن مزعل. . أنت تعرف أن من جامع المصلين صلى ومن جامع المغنين غنى.

توقف لحظة وهو ينظر في وجه دحام، دون أن يراه:

ـ والخويا أمس ما خلوا غناء في رؤوسهم، طلعوا الزايدة والناقصة.

وفهم دحام ولم يلح بعد ذلك.

وحران التي لم تنم في الليلة الفائتة، لم ترف لها عين لحظة واحدة منذ أن أشرقت الشمس. انتشر الناس في كل مكان. حتى النسوة اللواتي ظللن بعيدات في اليوم السابق، أصابتهن جرأة مفاجئة، كانت تراودهن الرغبة في أن يتقدمن نحو البحر، في أن يراقبن كل شيء بأنفسهن. والصبية الذي أطالوا النوم في هذا الصباح، أفاقوا مذعورين حين لاحظوا شروق الشمس وتقدم النهار، ودون أن ينتظروا، ودون أن يسألوا، انطلقوا مثل الطيور الخائفة نحو البحر لكي يروا أي شيء حصل خلال هذه الساعات. أما الرجال الذي أرقتهم الليلة الفائتة وملأت رؤوسهم بالأسئلة والمخاوف والرهبة، إضافة إلى عشرات الرغبات الخفية، فأبدوا نوعاً من التردد في أن يذهبوا إلى البحر مباشرة، لكن ما لبثوا أو وجدوا أسباباً كثيرة تدعوهم إلى ذلك، وخلال فترة قصيرة انطلقوا.

كان أهل حران كلهم على الشاطئ، عدا بعض المسنين أو المتدينين،

إذ رابطوا في المسجد أو ظلوا بعيدين. صحيح أن الذين كانوا على الشاطئ لم يتجمعوا في مكان واحد كالليلة السابقة، لكنهم كانوا جميعاً هناك، وكان من السهل أن يكونوا في أي مكان دون دعوة ودون تحريض، لكي يشهدوا كل شيء بأنفسهم. حتى ابن الراشد ودحام اللذان ظلا يتحدثان بطريقة مليئة بالحكمة والتعقل كانا مشغولين تماماً، كانت آذانهم تتابع الأصوات البعيدة، أما حين صفرت الباخرة فقد تظاهر ابن الراشد بالانتباه قال لدحام وهو ينهض:

ـ ترى الجماعة رحلوا.

وبنفس طريقة اليوم السابق سارا باتزان وبطء، إلا أن قوة داخلية كانت تدفعهما إلى السرعة، وحين وصلا إلى الشاطئ كانت السفينة لا تزال في مكانها مثل جبل أبيض، ومجموعة من البحارة يلمعون الحديد وينتقلون من مكان إلى آخر. قال ابن الراشد موجهاً الحديث إلى أكثر من ابن الزامل:

ـ ها... اشوف الجماعة بمكانهم.. ما قولك عرسهم خلص أو بعده؟

ـ اولاد الحرام عرسهم ما يخلص، يعرسون في كل وقت، في الليل والنهار، وجماعتنا وصلت أرواحها لحلوقها.

ـ مثل ما قال الخويا أمس: أيام السرور قصار.

ـ أيامنا القصيرة، يا أبو محمد، وانت الصادق.

ـ اشوفك حنّيت واشتهيت.

ـ من هو اللي ما يحن ويشتهي بعد شوفات البارحة؟

توقف ابن الزامل لحظة، زفر بحرقة وابتسم بحزن ثم تابع كأنه يحدث نفسه:

ـ طقّت خصاوي الرجال من شوفات الأمس، يا أبو محمد؛ كل نثية ولا حورية جنة، كل فخذ كأنه تنور، وهات صبارك واصبر، وهات حبالك واعقل الرجال، يا أبو محمد، بعد هذا اليوم.

ضحك ابن الراشد ودحام، ضحكا بصخب، وكأنهما بحاجة إلى هذه

الكلمات ولم يجرؤ واحد منهما على أن يقولها بصوتٍ عالٍ، وفي محاولة من ابن الراشد لكي يجعله يتابع باستفزاز:

ـ الحريمات ما هن بمزيونات، الواحدة مثل النعجة: بياض ورخاوة وما بيها شي خلافه.

ـ يا أبو محمد، يا طويل العمر، عطني النعجة واعطاك الله الجنة. :

ـ النعجة ما هي واقعة بأيدينا يا ابن الزامل، لو وقعت لهانت مصيبتنا كلنا.

قال دحام وهو يصرّ على أسنانه:

ـ لو وقعت واحدة بين يدي... والله لأخليها تتشاهد، تقول: أشهد أن لا إله إلا الله!

لما حانت صلاة الظهر لم يذهب إلى المسجد إلا عدد قليل من الرجال، أقل من أية مرة سابقة، وكان لدى الذين لم يذهبوا أسبابهم! أما حين غادرت الباخرة عند الغروب، وقد جرت أثناء المغادرة أشياء لا يمكن لأحد أن يذكرها، ولا يمكن لأحد أن ينساها، فقد ذهب الرجال تلك الليلة إلى النوم مبكرين. لكن قبل أن يناموا سافروا بعيداً، سافروا إلى آفاق لم يروها من قبل. وحين ناموا التقوا في تلك الأماكن بنساء كثيرات. نساء بيضاوات مكتنزات، مشدودات الأجساد، والتقوا بأخريات لا يعرفن للشبع معنى وقد فرح الرجال في نومهم وكانوا أقوياء وكانت النسوة أكثر فرحاً وأكثر رغبة، وظل هذا الفرح يتكرر مرة بعد أخرى، إلى أن طلع النهار، وحين فتح الرجال أعينهم شعروا أن حلوقهم جافة وأعضاءهم متوترة، وأن تعباً غير عادي يهدهم. أما حين تذكروا الأشياء التي مرت في الليلة الفائتة وفي اليوم الفائت، وحين تذكروا الأحلام التي ملأت ليلتهم ثم تطلعوا حولهم فقد شعروا فجأة بالخيبة والحزن الشديد.

في صباح اليوم التالي، وعلى غير عادة، سمعت ضجة عالية وحركة مضطربة بين الخيام، ترافقت مع نداءات وأسئلة، وما كاد العمال يخرجون لاستطلاع الخبر حتى أحسوا أن شيئاً غير عادي قد حصل. ومن الأسئلة، من الإجابات القصيرة والسريعة، ثم من ركض دحام المضطرب ونظراته التي لا تستقر، عرف أن ثلاثة من العمال قد غادروا المعسكر، وقد كان اثنان منهم أخوين، والثالث يمت لهما بصلة القرابة. ومما جعل الأمر خطيراً بنظر ابن الراشد أنهم سرقوا أربعة رؤوس من الجمال، ولم يكتشف ذلك إلا بعد ساعات طويلة من مغادرتهم، ومما يؤيد أنهم غادروا في أول الليل، وبمجرد أن ذهب الرجال إلى خيامهم، العثور على ملابس العمل ممزقة وقد تركوها في بداية طريق عجرة، لكن الريح نثرتها، كما تعمدوا إرسال «تحية» مباشرة إلى الشركة وإلى ابن الراشد بالذات، إذ خروا في القبعات الثلاث، ويبدو أن واحداً منهم لم تساعده أمعاؤه فملأ القبعة الخاصة به بالبعر!

ومن خلال المناقشة وبعد اختبار الأثر تبيّن أنهم غادروا حران مبكرين، وقد اختاروا أطيب الإبل وأقدرها على المشي السريع، ولذلك فإن مسألة اللحاق بهم أو إدراكهم بدت غير ممكنة، ومع ذلك فإن ابن الراشد لم يسلّم، إذ اصطحب معه دحام وثلاثة آخرين من العمال ولحقوا بهم.

وإذا كان العمال قد استغربوا وتساءلوا فإن صور الرجال الثلاثة، وهي تتراءى أمامهم مرة أخرى، تثير الإعجاب، كان الثلاثة، خاصة الأخوين، يتمتعون بهمة عالية لا يترددون في تقديم المساعدة للجميع، وجوههم

أنيسة وتصرفاتهم تتسم بذلك الحد الكبير من الاحترام للآخرين. وكان واحد منهم محدثاً بارعاً يحفظ قصصاً كثيرة يرويها بأسلوب ساحر، وكان الرجال، أغلب الأحيان، يبحثون عنه، ويذهبون إلى حيث يكون لكي يستمعوا إلى أحاديثه وقصصه.

الآن بعد أن تركوا بهذا الشكل، بدا كل واحد من الرجال يستعيد تصرفات الثلاثة في اليومين الأخيرين. وإذا كانت الوقائع قد غابت أو لم يتذكرها الكثيرون، لكن لم ينس الجميع أن محيسن هو الذي رتب بعض المقالب أثناء وصول الباخرة، ثم عند مغادرتها، ورغم أن بعض المقالب نفذها الأطفال فإنه كان هو وراءها أيضاً! فهزاع المجول، الطفل اليتيم في حران، والذي كان عمره تسع سنين، هو الذي رمى قطة في المركب حين كان الأميركيون يغادرون، وقد سببت ذعراً، خاصة بالنسبة للنساء، وكاد أحد الرجال أن يرمي القطة في البحر للتخلص منها، لكن اختباءها تحت المقاعد، ثم الهرج الذي وقع بعد ذلك، نتيجة ارتفاع دقات الطبل، شغلت الجميع، وقد عاد المركب بالقطة، بعد أن وصل الركاب إلى الباخرة، وما كادت تقترب من الشاطئ حتى قفزت وسقطت في البحر، لكنها استطاعت النجاة، وكانت موضع قهقهات صاخبة من الذين كانوا يرقبون.

وهزاع المجول، الذي بعص امرأة من الأميركيات، حين كانت تهمّ بالصعود إلى المركب، فعل ذلك بتحريض من محيسن، أما حين أمسك جمعة حارس الباب، بإذن الصغير وشدها فقد أحس هزاع أن أذنه طارت فصرخ ثم شتم الأميركيين كلهم، وما كاد يفلت حتى بدأ يشتم بأعلى صوته ثم بدأ يقذف الحجارة.

وهزاع المجول هو نفسه الذي جمع الحصى وبدأ مع أطفال آخرين يرجمون البشر والمراكب، وقد صرخ به حماد الزين، فلما لم يتوقف ركض وراءه، وكاد يمسك به، لولا أن حماد تعثر في اللحظة الأخيرة وسقط، وقد سبب سقوطه ضحك الجميع، وظل الكثيرون يتذكرون هذه الحادثة بعد وقوعها بفترة طويلة، أما حماد فلم يأت على ذكرها أبداً، رغم أن خنصر يده اليسرى قد انكسر وظل مربوطاً لمدة ثلاثة أسابيع.

هذه الوقائع التي جرت كان محيسن وراءها. وإذا كانت قد فهمت على أنها مداعبات، وربما دون تدبير من أحد، فإنها تبدو الآن شيئاً مختلفاً، خاصة تلك التحية التي تركها للشركة ولابن الراشد. أما هروبه وهروب الأخوين، دون أن يحس أحد، ودون أن ينبئ أي تصرف من تصرفاتهم عن ذلك، فإنه يكتسب معنى إضافياً ويدل على تدبير سابق، وكأنهم كانوا يستعدون منذ وقت طويل. تمنى الرجال أن تضيع آثارهم، أن لا يستطيع ابن الراشد اللحاق بهم، إذ لو أدركهم فلا بد أن تقع معركة، وابن الراشد الذي يعتز بالبارودة الإنكليزية، والتي كانت تنتقل ما بين كتفه وظهر الناقة بشكل مبالغ فيه، وللتظاهر أغلب الأحيان، أثناء الرحلة من عجرة إلى حران، واستعملها مرتين، الأولى بعد أن طلب إلى أحد الرجال وضع نيشان في بداية الرحلة وبعد مغادرة عجرة مباشرة. والمرة الثانية حين جرها بانفعال وصوّبها نحو حصيني لكنه أخطأه، واختفى الحصيني تماماً، في هاتين المرتين كان يريد أن يعطي الرجال درساً، وأن يدخل الخوف إلى قلوبهم. الآن، إذا أدرك الثلاثة فلا بد أن يستعمل بندقيته لكي يخلق الهيبة التي يريدها لنفسه، خاصة وأن الثلاثة لن يسلموا ولن يرجعوا.

كان الرجال يستعيدون الوجوه والوقائع بانفعال ظاهر، ويحسون في أعماقهم أن مجموعة من المصائب تنتظر الجميع. ويحسون أيضاً أن وصول باخرة الشيطان، بما تحمله من غواية، بداية لفترة من الشدة، وإلا لماذا هرب الثلاثة في هذا الوقت بالذات؟ وهل كانوا مضطرين لسرقة الجمال وتعريض أنفسهم إلى مخاطر لا أحد يعرف إلى أين ستصل؟ قال ابن الراشد وهو يتسلم الجمال، بعد أن اشتراها، إنه مستعد لإعادة أي جمل لصاحبه إذا أراد، فلماذا يعرض الرجال الثلاثة أنفسهم وحياتهم للخطر؟ والهروب.. لماذا هربوا؟ كان يكفي أن يحزم الواحد منهم أمتعته ويقول لابن الراشد إنه لم يعد راغباً أو مستعداً للاستمرار، وابن الراشد مهما حاول لن يستطيع أن يرغم أحداً على البقاء أو العمل. لقد كان شديد اللين حين سافر إلى عجرة، طلب من الرجال أن يمهلوه ريثما يذهب ويعود، وبعد عودته سوف تتغير الأمور. صحيح إنه لم يف بوعده، وقد

مضى على وصوله فترة، لكن الأمور ستتغير بالتأكيد.

هكذا كانت الأفكار والتساؤلات تملأ الرؤوس، أما القناعة الحقيقية التي سيطرت على الجميع، وجعلتهم متأكدين، فهي أن الباخرة، النساء اللواتي في الباخرة، كنَّ السبب الوحيد في هروب الرجال.. لم يحتملوا فاختاروا هذا الطريق الذي لن يجدوا غيره.

أما عندما وصل الرجال إلى المعسكر الآخر، إلى حران الأميركان، فقد بدأوا ينظرون إلى كل شيء نظرة جديدة. كانوا يريدون أن يكتشفوا آثار تلك الليلة واليوم الذي تلاها. ماذا صنع الأميركيون وكيف هم الآن بعد أن أفرغوا هذا العذاب الذي يملأ أجسادهم؟ وتلك الباخرة اللعينة، والنساء اللواتي وصلن عليها...

هل رحلن جميعاً أم لا تزال مجموعات منهن باقيات؟

بدا الأميركيون في هذا الصباح أكثر مرحاً وأكثر نشاطاً، وصدرت عن الكثيرين ابتسامات وتصرفات لم تكن مألوفة من قبل، وحين تساءلوا عن العمال الآخرين ولم يجدوهم أبدوا استغرابهم، ولما جاء نعيم لكي يستفسر ويترجم بدا نصف نائم، كانت عيناه حمراوين، وكان التعب ظاهراً عليه، وبشفاه لا تكاد تنفتح سأل عن دحام، ثم عن ابن الراشد، ولما قدم العمال معلومات مشوشة صرخ:

ـ هؤلاء البدو لا تنفع معهم إلا العصا!

ثم مرة أخرى وقال بغضب:

ـ حسبنا أنكم صرتم بشراً، وتعرفون أن العمل هو العمل، لكن الظاهر أن الخطأ ما هو خطأكم، الخطأ على من يضع ثقته ببشر مثلكم!

ولما ظل العمال صامتين سأل بحدة:

ـ الخرا ابن الراشد والأخرا منه دحام.. وين صاروا؟

ولما وجد العمال صامتين لا يجيبون، ربما لأنهم لا يدرون ماذا يجب أن يقولوا، أو احتجاجاً على الكلمات التي قالها وطريقته في التعامل، قال بلهجة مختلفة:

ـ طيب.. طيب إذا جاءوا نتفاهم.

وتمتم بكلمات لم يفهمها أحد. ثم وزع العمال من جديد وبدأوا يعملون، لكن حالة من الغيظ وصلت حدود القهر سيطرت عليهم. وإذا كانوا يعتبرون أنفسهم غير مخطئين فإن مشاعرهم تجاه ابن الراشد، وتجاه النصّيص، الإسم الجديد الذي أطلقوه على نعيم، كانت مزيجاً من الكراهية والاحتقار والحقد، لكن مع هذه المشاعر كان حقدهم على أنفسهم يزداد، لأنهم قبلوا وجاءوا إلى هنا، وكانت تتردد في صدورهم رغبات كثيرة في أن يتركوا، في أن يحطموا، في أن ينقضوا على ابن الراشد بالذات الذي ورطهم في هذه الورطة.

في غروب اليوم التالي عاد ابن الراشد، عاد خائباً، أما محيسن والاثنان الآخران اللذان كانا معه فقد واصلوا سفرهم، ولا أحد يعرف إلى أين.

لما عاد ابن الراشد عاد إنساناً آخر، حتى شكله تغير. المرح الذي كان يتظاهر به انتهى، التبسط في الحديث الذي بدا منه في اليومين الماضيين والاستماع إلى الجميع، حل مكانهما التجهم والصمت، كما أصبح يثور لأقل الأسباب، ولا يتردد في استعمال كلمات قاسية أقرب إلى الشتيمة، وأصبح أيضاً شديد الارتياب بكل من حوله. بدأ يراقب كل شيء بنفسه، ويسأل عن أدق الأمور، أما حين نقل إليه العمال ما قاله نعيم، وقد تعمدوا أن ينقلوا الكلمات التي استعملها، فقد هزّ رأسه ولم يعلّق. كان العمال يتصورون أنه سيثور، وأنه سيهدد ويشتم، لكنه سمع كل شيء وصمت. قال الكثيرون أن الغيظ الذي يملأ صدره، بعد أن فشل في العثور على الهاربين وإعادتهم، أو على الأقل إعادة الجمال، لا بد أن يفرغه في النصّيص. لا بد أن يرد على كل شتيمة بأقسى منها، وسوف يضع حداً لغرور هذا القزم الرخو، ويفرض طريقة جديدة في التعامل.

في اليوم التالي، والرجال يستعدون للذهاب إلى العمل، بدا دحام أكثر ارتباكاً وخوفاً. كانت نظراته زائغة وفكه مرتخياً، وبدا أقرب إلى الحيرة. أما ملابس العمل التي يرتديها فقد بدت غريبة أكثر من أي يوم سابق، أو كأنه يلبسها لأول مرة، وحين حانت لحظة انطلاقهم إلى المعسكر ركض نحو ابن الراشد وتشاور معه، وقد بدا من حديثهما أنهما قلقان وأقرب إلى الخوف.

كان الجميع ينتظر اللحظة التي يلتقي بها دحام بنعيم، سوف يقف الرجلان في مواجهة بعضهما مثل الديوك: كلمة من هذا، كلمة من ذاك ثم يتماسكان، يتضاربان، ولا بد أن يشهد المعسكر أولى معاركه الكبرى؛

سوف يقف الجميع مبهورين حين يلوي دحام رقبة نعيم ويلقي به إلى الأرض، وإذا لم يشترك العمال الآخرون في هذه المعركة فسوف يكوّنون سداً لحماية دحام من الأميركيين، إذا تقدموا لمساعدة نعيم. سوف يصفقون له، يشجعونه. والأميركيون، ماذا سيفعلون! وماذا يظنون؟ آه لو يشترك أحد منهم في المعركة، سوف يكتشفون في هؤلاء الرجال الذين كانوا يسخرون منهم أنهم أقوى وأشد مما توحي به أجسامهم الضامرة. وسوف يقلبون المعسكر رأساً على عقب. إنها الفرصة لكي توضع الأمور في نصابها، لكي يُعرف الرجال. لن تنتهي المعركة بسهولة، وأياً كانت الأسلحة التي توجد لدى الأميركيين فسوف يدفعون ثمناً لتدخلهم. الأفضل أن يبقوا على الحياد، أن لا يتدخلوا، ولا بد أن يدفع النصيص ثمن الكلمات التي قالها بالأمس، فإذا كان شجاعاً وقوياً فقد حانت الساعة التي يتم فيها الحساب.

مرت هذه الخواطر والصور في رؤوس الرجال وهم يمشون نحو المعسكر، وكان يمكن لهذه الخواطر والصور أن تتحول إلى كلمات، إلى قبضات تشدّ على يدي دحام، تدفعه وتحرضه، لكن مشيته في مؤخرة الجماعة، على غير عادته وهذا الوجوم الذي سيطر عليه جعل الرجال يترددون ثم يصمتون.

مع الخطوات الأولى في حران الأميركان، وما كاد دحام يشاهد نعيم من مسافة بعيدة، وكان يقف مع أحد الأميركيين، قريباً من المطعم، حتى اندفع نحوه. ركض بهرولة مضحكة، وكاد يتعثر ويقع. أما حين اقترب وأراد أن يتكلم معه، فقد أشار إليه نعيم بيده أكثر من مرة أن يصمت وأن ينتظر، ومثل طفل صغير وقف على مسافة خطوتين أو ثلاث خطوات. استمر نعيم يتكلم مع الأميركي، حتى إذا ضحكا بقهقهة عالية وربت الأميركي على كتف نعيم ثم انصرف وهو يشير بيده، التفت نعيم نحو دحام، وتبادلا بعض الكلمات، هز بعدها رأسه واقترب منه، وظلا يتحدثان بعض الوقت ثم انصرف باتجاه الإدارة.

أي شيء قاله دحام ولماذا ظل هادئاً بعد تهديدات الأمس؟ هل نقل

إليه أخبار الرجال الذين هربوا وكيف أنه ذهب وراءهم هو وابن الراشد وأبلغه أنهم فقدوا أثرهم وعادوا خائبين؟ والرجال إذا أخذوا الجمال وسافروا هل يعني ذلك، بنظر نعيم، سرقة كبيرة وخطيرة؟

لا بد أن يكون شيء خطير قد نقل إلى نعيم، استنتج الرجال ذلك من هزات رأسه ثم توجهه إلى الإدارة. كانت العادة أن يأتي كل صباح لكي يشرف على إحصاء الرجال وتوزيعهم، وكانت تترافق هذه العمليات مع نظرات مملوءة بالكراهية وعدم الثقة. أن يتخلى عن هذه العادة، خاصة بعد أن جاء جميع الرجال، عدا الثلاثة الذين تركوا المعسكر، وما يتطلبه ذلك من إعادة توزيع العمال، ثم وجه دحام الذي تغير خلال هذه الدقائق القليلة، إذ زالت منه الحيرة وبدت نظراته أكثر ثباتاً، إن هذه التغيرات تؤكد أن حديثاً خطيراً قد جرى. أما حين جاء نعيم مرة أخرى وأشار من بعيد إلى دحام أن يتبعه فقد تأكد الجميع أن الأمر أكثر جدية وخطورة مما قدروا في البداية.

ابن الراشد جاء إلى المعسكر قبل الظهر بقليل، كان يمكن أن يأتي قبل هذا الوقت، لكن اختياره لفترة الظهيرة معناه أن زمناً طويلاً قد انقضى على بداية العمل، وأن فترة الغداء لا بد أن تكون أحسن الفترات لكي يوضح لنعيم جميع الملابسات، ومعناه أيضاً أن الغيظ الذي يملأ صدر الرجل قد زال أو تراجع كثيراً.

بإشارات أكثر من الكلمات أوضح دحام لابن الراشد كل شيء، ويبدو أن ما نقله إليه كان خطيراً إلى درجة أنه هزّ رأسه عدة مرات دلالة الفهم والاهتمام. أما حين التقى الرجلان، وقد وصل نعيم فجأة، فقد فتح ابن الراشد يديه الاثنتين وبدأ الترحيب بصوت عالٍ وبكلمات حارة وودية للغاية وكأنه لم يره منذ وقت طويل، والرجال الذين رأوا المشهد وسمعوا الكلمات، لم يتمالكوا أنفسهم من الابتسام وتبادلوا فيما بينهم نظرات ماكرة.. وتذكروا أيضاً الكلمات التي قالها نعيم أمس الأول!

في ذلك اليوم، بعد الغداء مباشرة، أُخذت للعمال صور شمسية، وقد كانت هذه الصور موضع اهتمامهم إلى درجة أثارت الدهشة والاستغراب،

وظلت موضوعاً لأحاديثهم حتى بعد انقضاء فترة من الزمن. أما حين أخذت بصمات الأيدي فقد داخلهم الخوف وسيطرت عليهم الشكوك، ورغم أنهم وافقوا بنوع من التسليم، إلا أن أحد لم يستطع أن يفسر الأمر بشكل مرض، وقد تحدثوا في ذلك مع أهل حران، ومع الذين وفدوا في الأسابيع الأخيرة، إلا أن أحداً لم يستطع أن يقدم تفسيراً واضحاً أو مقبولاً، وأظهر اثنان أو أكثر من العمال رغبتهم في ترك العمل والعودة إلى عجرة لأن «أغنية الشيطان بدأت، وهذه الأغنية حين تبتدئ لا تنتهي» إلا أن محاولات دحام، والتي اتسمت باللين والمكر، وببعض التهديد أيضاً، مشيراً إلى أن تركهم العمل في هذا الوقت بالذات من شأنه أن يثير حولهم الشبهات، انتهت هذه المحاولات إلى الموافقة على البقاء مؤقتاً، لكن الخوف لم ينته والشكوك لم تتراجع، واعتبر الجميع أن ابن الراشد هو المسؤول عن كل ذلك. وإنه يرتب أموراً رديئة سوف تؤذي الجميع، خاصة بعد أن أصبح شخصاً مختلفاً وشرساً، وبعد أن وضع حاجزاً بينه وبين الآخرين.

قال هاجم لأخيه تلك الليلة قبل أن يناما:

ـ قلت لك: نبقى في ديرتنا، قلت: لا، نسافر، سافرنا ووصلنا إلى هنا.. وشفت. وإذا كان اليوم مثل ما شفنا.. لا أحد يعرف باكر ويش يصير.

رد مزبان وهو يشدّ الفروة ليغطي رأسه:

ـ نم.. نم يمكن تحلم بواحدة أميركانية!

ـ الأميركانيات سافرن، وهذا الحين دور الأميركان، فإذا ما كنت حصان طاحوا بك وشقوا طيزك!

قال فواز وهو يقهقه:

ـ يا جماعة الخير: ظني اليوم أحسن من باكر، وباكر أحسن من اللي عقبه.

قال هاجم بمرارة:

ـ ابن الراشد مثل ما قال النصّيص: خرا.

توقف لحظة ثم أضاف:

ـ هذا النصّيص لعنة ويعرف الرجال.. وانتم شفتم ابن الراشد اليوم.

قال صويلح:

ـ اصبروا.. يا جماعة الخير.. الصبر طيب.

وظل الرجال فترة طويلة قبل أن يناموا، أما حين غرقوا في النوم فقد رأوا أشياء كثيرة، لكن لم يجرؤ أي واحد منهم أن يحدّث الآخرين في اليوم التالي بما رأى!

في الأسبوع التالي لوصول باخرة الشيطان، ولهرب الثلاثة، بدأ تشييد حران العرب. فبعد ذلك الغيظ الذي استبد بالرجال، والمصحوب بالمخاوف والشكوك، إضافة إلى عدة حوادث متعلقة برفض الأكل الذي قدمه ابن الراشد للعمال، خاصة وأن الرجال الذين جاء بهم من أجل أن يقوموا بتحضير الخبز وبيع اللحم والحاجات الأخرى، خلقوا جواً من التحريض. كما تم الاتفاق على أن يقوم أهل حران بقطع الحجارة، خلال أيام الأسبوع، وأن تنقلها جمال ابن الراشد، على أن يتم البناء عصر الخميس ويوم الجمعة، حتى لو لم يشارك فيه أهل حران. وهذا ما حصل فعلاً.

فمن بقايا الصناديق الخشبية الكبيرة وألواح الزنك، إضافة إلى مجموعة من الحجارة غير المنتظمة، والمتفاوتة الحجم، وقد جمعت على عجل، أقيمت الدكاكين الأولى في حران العرب. أما السقوف فكانت خليطاً من الزنك وأقمشة الشوادر والكرتون وبقايا الأغصان التي تخلفت بعد قطع الأشجار التي كانت تميّز حران عن غيرها. أقيمت هذه الدكاكين على عجل، وقد انشغل العمال كلهم بإقامتها، لأنهم كانوا يريدون أن يروا الفرن، وأن يشتروا اللحم من القصاب مباشرة، كي يعودوا إلى تحضير الأكل الذي يلائمهم، وكانوا يطمحون أيضاً، وإن ظل هذا الشعور غامضاً لم يفصح عنه أحد، في أن يقيموا شيئاً خاصاً بهم، بعد أن أقام الأميركيون مدينتهم على التلال الشرقية وحتى البحر.

عند عصر الجمعة فرغ العمال من البناء، وقد ذبح ابن الراشد بهذه المناسبة خروفين. ذبحهما أبو شايع، وأثناء السلخ التهم قسماً كبيراً من

الكبد، أما الإلية فقد اقتطع بالشبرية أجزاء منها، وبعد أن تذوقها عرض على الآخرين أن يشاركوه في هذه المتعة وأن يتذوقوا، وحالما انتهى من تحضير الخروفين، التفت إلى أبي كامل وقال بلهجة المنتصر «هذا ذبح عربان، وباكر نشوف ذبح أهل المدن!» وابن الراشد الذي كان يدور من مكان إلى آخر بحماس، وقد علق طرف ثوبه بسرواله، كي لا يعيقه عن الحركة، قدم توجيهات كثيرة في كيفية إنجاز البناء وأين يجب أن توضع بعض الأحجار، ثم تأكد بنفسه أن الألواح الخشبية ثبتت بقوة، فلما انتهى كل شيء تراجع إلى الوراء وألقى نظرة أخيرة ليطمئن أن كل شيء في مكانه، حتى إذا بدا راضياً نفض يديه وأنزل ثوبه، وقال للرجال الذي كانوا حوله:

ـ هذا من فضل ربي.

ومع أقداح القهوة والشاي التي قدمت بعد الأكل تحدث الكثيرون عن كيفية بناء البيوت وعن المدن التي رأوها، وكيف أن مفلح وصل إلى مصر وهناك رأى بيوتاً لا يمكن للجن أن تصل إلى أعاليها، وأكد أن أهل مصر هم أحسن البنائين في العالم، وأنه لم ير مثل بنائهم في الأماكن الأخرى التي مرَّ فيها. وابن الراشد الذي كان بادي السرور، على غير عادته، وإن لم يتحدث كثيراً، أعطى توجيهات للذين سيعملون في الدكاكين، كيف يجب أن يحافظوا عليها، وأن يبلغوه بكل شيء، ووعدهم أيضاً أن يلبي جميع ما يحتاجون إليه وقال وهويقوم إيذاناً بأن السهر قد انتهى وعلى الرجال أن يناموا لكي ينهضوا نشيطين:

ـ بعد سنة أهل حران لن تعرف حران!

عبده محمد فرّان حران الماهر، يدندن وهو يدخل الأرغفة إلى بيت النار، ويدندن أكثر وهو يخرجها. بالإضافة إلى صنع الخبز يحضّر أشياء عديدة: اللحوم المشوية، الصواني، المعجنات، وبعض الأكلات التي يخترعها في اللحظة وحسب توافر المواد. يحب الحياة والغناء، ويهمسون أنه يحب «الكيف». بعد أن ينتهي من العمل يصبح إنساناً آخر: الوزرة الزرقاء التي يضعها على وسطه من الفجر وحتى بعد الظهر، لا أحد يتصور أنه كان يلبسها حين يراه بعد العصر في تلك الملابس الباهية، وكأنها ملابس حلاق! الكلمات القصيرة، وبعض الأحيان العصبية، خلال ساعات العمل، تتحول عند الغروب أو في أول الليل إلى عذوبة فياضة، وكثيراً ما يتخللها الغناء والمزاح. لكن هذا لا يدوم طويلاً، لأن حجة عبده دائماً جاهزة: «الفجر لا ينتظر ولا يتأخر!» يقولون إنه يذهب مبكراً لكي يعمّر رأسه، والدليل على ذلك أن عينيه دائمة الحمرة! وهو رغم الطيبة التي تميز سلوكه وعلاقاته سريع الإثارة، عصبي المزاج. كلمة واحدة تكفي لأن تغيّر عالمه وتجعل منه إنساناً آخر، يؤكد عبد الله الأبيض، صاحب الفرن الثاني الذي قام في حران بعد سبعة شهور، أن «في رقبة عبده قتيلين» وهذا الذي جاء به من تهامة أو سومطرة، ولهذا السبب أيضاً لم يرجع إلى أهله منذ سنوات طويلة. وحين يُسأل عبده متى سيرجع إلى وطنه ويزور أهله لا يجيب إجابات واضحة، وقد عزز هذا الشكوك حوله، لكن مع ذلك لم تتغير علاقات الناس به.

لما أقام ابن الراشد الفرن كان عبده مجرد صانع يتقاضى أجراً، وقد استمرت هذه الصيغة طيلة السنة الأولى، لكن حين اتسعت مشاريع ابن

الراشد وتكاثرت جاء من نصحه أن يشارك الذين يعملون معه «لأنه تصبح لهم مصلحة في أن تزداد الأعمال، والأعمال إذا زادت تعطي أرباحاً أكبر» وقد وجد ابن الراشد في هذه النصيحة حكمة، خاصة وأن «دحام غير قادر على ضبط الدفاتر، وابن هذال صغير ويمكن يورطنا، والإنسان إنسان، ينسى، تفوته بعض الأمور، لأن عقلة ما هو دفتر» وهكذا أصبح عبده محمد شريكاً بالثلث.

منذ اليوم الأول زيّن عبده الفرن بمجموعة من الصور انتزعها من المجلات الإفرنجية التي حملها العمال من حران الأميركان، وقد اختارها بعناية، ثم اختار أمكنة مناسبة فعلقها فيها، مستعملاً العجين في لصقها.

حين شاهد الكثيرون هذه الصور دهشوا أشد الدهشة، وظلوا يتأملونها فترة طويلة، وعلقوا على كل صورة. أما أهل حران، خاصة بعض المتدينين، فقد اعترضوا، لأن الأطفال، بمن فيهم البنات الصغيرات، كثيراً ما يترددون على المخبز، ومن شأن هذه الصور أن تفسدهم، فطلب ابن الراشد من عبده أن يقتصر على «صور الخيول والقصور والمناظر المحتشمة» وقد استجاب له عبده في الفترة الأولى، لكن استجابة شكلية ماكرة، إذ علق فوق الصور التي اعترض عليها صوراً أخرى، علقها من أعلى فقط، بحيث يستطيع بنفخة من فمه، أو بحركة من أصابعه الماهرة، أن يجعل الصورة العليا «تطير» قليلاً وتظهر ما تحتها، وقد أوحت له هذه الطريقة بفكرة جهنمية، إذ ما كادت تقع في يده مجلة مليئة بصورة نساء أشبه بالعاريات حتى تفنن في لصقها ثم في ترتيبها وعرضها. كان يرفع ببطء وإثارة الصورة العليا، فما تكاد الأجزاء السفلى من السيقان تظهر حتى يبدأ تدريجياً برفعها، ومع كل حركة صغيرة، بطيئة، تزحف الكلمات والتأوهات، كان يفعل ذلك حين يكون وحيداً، لكن مع الأيام بدأ يتساهل، وسمح لبعض الذين يعرفهم ويثق بهم أن يطلعوا عليها. كان يفعل ذلك بعد أن يغلق باب الفرن بإحكام ويتأكد أن لا أحد يراقب.

في وقت لاحق طوّر عبده هذه الطريقة، بحيث وضع صور نساء ورجال بأوضاع وأشكال يمكن أن تعطي دلالات واضحة، وأصبحت هذه

القضية تشغله، كما أصبح لا يكتفي بذلك، بدأ يضع إضافات هنا وهناك بالفحم، وأعطى النساء أسماء من عنده كما أعطى لوضعيات معينة تسميات خاصة. ثم بدأ يقص ويركب كما يوحي له خياله، وكان في كل مرة يفعل شيئاً يرضى عنه يبدو شديد السرور والانفعال.

العمل يتزايد ويتسع كل يوم، والبشر يتكاثرون. أبناء حران بدأوا ببناء بيوت خاصة بهم في أقصى مكان نحو الغرب، قريباً من التلال. الدكاكين الثلاث التي قامت في الأيام الأول بدأت تتضاعف وتزداد كل شهر، أما الطريق إلى عجرة الذي كان يضيع فيه المرّي فقد أصبح سالكاً بحيث تصل منه قافلة أو أكثر كل أسبوع. أما ابن الراشد الذي لا يُعرف ما إذا كان مقيماً أو مسافراً، لأنه كثير الحركة سريع التنقل، ولا يبوح لأحد بما سيفعل، فكان كل مرة يغيب فيها أسبوعين أو ثلاثة يرجع مصطحباً معه مجموعة من الرجال، مجموعة متنوعة إلى أقصى حد، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يقدر من أين جاءوا أو ماذا سيعملون، إذ إضافة إلى العمال الذين سيعملون في الشركة، كان يأتي آخرون يقضون أياماً في حران وهم يذرعون الأرض من الشاطئ وحتى التلال البعيدة، يقيسون بأرجلهم أو بحبال المسافات بين مكان وآخر، ثم يضعون رجوماً صغيرة من الحجارة هنا وهناك لتعليم الأمكنة وتمييزها، حتى إذا فرغوا من ذلك أخذوا يطيلون التأمل وبعض الأحيان إعادة القياس. لما تنتهي هذه العمليات ويسافر هؤلاء الناس يستريح أهل حران من أولئك الصامتين الغامضين الأقرب إلى السحرة في حركاتهم وتصرفاتهم. لكن ما يكاد يمر شهر أو اثنان حتى يعودوا، وبعودتهم تضجّ حران وتنقلب، وخلال فترة قصيرة تقوم مجموعة من الدكاكين الجديدة، واحدة تصبح مطعماً، وثانية مخزناً للمواد، وثالثة لبيع القماش والحبال وأشياء أخرى، ورابعة تصبح مركزاً لابن الراشد وللذين جاءوا معه لكي يستقبل في هذا المركز المراجعين والذين يريدون أعمالاً، وفيه توزع الرواتب أيضاً.

وعبده الذي يجد وقتاً ليغني ويمزح مع الأصدقاء أثناء العمل، وكان يفرغ من العجين في وقت مبكر، بدأ يواجه أفواهاً تزداد يوماً بعد آخر،

وكان عليه أن يطعم هذه الأفواه، فبدل الشوال الواحد من الطحين كان يكفي حران كلها، بدأت الكمية تزداد أسبوعاً بعد آخر. أما صواني اللحمة التي كان يتفنن فيها أول الأمر، وكذلك المعجنات، فلم يعد مستعداً لأن يمد يده إليها إلا بعد أن تنتهي آخر قرصة عجين، وبعد أن يخرج آخر رغيف من بيت النار، هكذا كان يقول بحدة. أما علاقاته مع أبو كامل اللحام، رغم المودة في البداية، فقد أصبحت أكثر برودة ودائمة التوتر، لأنه وراء الاقتراحات التي يأتي بها الكثيرون من أجل تحضير غداء في الفرن، وهو عبارة عن كمية من الخضر مع قطع اللحم، أو بعض رقائق العجين باللحم، كان عبده يعرف أن اقتراحات من هذا النوع أوصى بها أبو كامل لكي يخلص من لحمته بسرعة ويستريح.

وإذا كان الكثيرون قد تعودوا على رفض عبده الصلب في البداية، إلا أن نقاط الضعف التي يعرفونها فيه، حين يسألونه عن «ولعة» و«راكبة السيف» و«الشقرة». أو حين يبدأون بنفخ الصور فتتطاير السيقان وتتساقط الأرداف.. عندها يحس عبده أن ذهنه تشتت ومقاومته ضعفت، فإذا ذكّره أحد بحادثة أو نكتة فعندئذٍ يصبح أكثر استعداداً لأن يسمع وينتبه. وهكذا يتراجع خطوة بعد أخرى، فبعد الرفض القاطع يصبح الأمر ممكناً «ليس الآن... بعد ساعة أو ساعتين، إلى أن أفرغ من هذه الأقراص» فإذا وجد إلحاحاً أو وجد في نفسه رغبة يتنازل عن كل اعتراضاته ويقول بصوتٍ حادٍ:

- أعرف.. أنتم في قلوبكم تقولون أن عبده مثل حمار العرس، ظهره قوي ويحمل... لكن في يوم من الأيام تطلع برأس عبده... وعندها الله يستر.

وبطريقة لا تخلو من المكر يقولون له إنه أعظم رجال حران وأكثرهم كرماً، ولذلك هم يطمعون به، يحبون الأكل الذي يخرج من بين يديه، ثم إن ساعة معه، وفي هذه الجنة: الأنهار والجبال والحور العين، هي التي تجعل الحياة ممكنة في حران. وتبدأ أصابعهم الخشنة تمتد إلى الصور تقلّبها، فما يكاد يرى العبث وقلة الدراية بتقليب الصور حتى يصرخ:

ـ النار. . . النار. . .

وحين يتطلعون نحوه مذعورين يضيف بلهجة ساخرة:

ـ يا جحاش أنت وهو. . هذا الرزق لازم الواحد يتعامل معه مثل ما يتعامل مع الجفن والعين: رقة ونعومة. . . وإلاّ راح. . .

يتوقف لحظة يتطلع إليهم، يهز رأسه ثم يضيف:

ـ الواحد منكم يتصور نفسه يعقل ناقة أو يقطع حجراً. اتقوا الله. قولوا الحمد للّه، ربنا أنت وحدك المعبود لأنك خلقت لنا مثل هذا الحسن. . إنك جميل وتحب الجمال.

وبعض الأحيان، إذا رق مزاجه، يسترسل، يقول شعراً خالصاً، وقد يغني. إن ذلك يتوقف على حالته النفسية، على مدى التعب، وبعض الأحيان يتوقف على ردود الأفعال التي تصدر عن الذين حوله.

هكذا كان عبده محمد. . . وهكذا ظل لفترة طويلة.

وإذا كانت حران قاسية خانقة حتى بالنسبة للذين كانوا فيها من قبل، فإنها بالنسبة للذين يأتون إليها أكثر قسوة، إذ تولد في صدورهم حالة من الانقباض يشعرون بها منذ الساعات الأولى لوصولهم، إلا إذا وصلوا في الشتاء، وتظل هذه الحالة تزداد يوماً بعد آخر، مع ما تجره من الضيق والحدة في الطبع، وبعض الأحيان الهياج الذي يؤدي إلى العراك.

ورغم أن الفرن باللهب الذي ينبعث من بيت النار شديد الحرارة في الصيف والشتاء، في النهار ومعظم ساعات الليل، ولا يقوى أحد على تحمله، خاصة عندما يتوقف الهواء وتصبح السماء ثقيلة فوق حران، فقد كان بالنسبة لعبده مكان العمل ومكان النوم، والمكان الذي يقضي فيه أغلب الوقت، حتى لو لم يكن يعمل أو لم يكن نائماً. فسر بعض الناس الأمر بأن عبده «يكيف» خلال هذه الساعات ولا يريد أحداً أن يراه أو يعرف ذلك. كان يغلق الباب بإحكام ولا يردّ على الطرقات التي قد يطرقها من يبحث عن الخبز، إذا فاته الحصول عليه. وقد يطرقها بعض معارفه، أو من يعتبرون أنفسهم أصدقاء. فإذا توالى الطرق واستمر فترة طويلة فكان يخرج صوته كما لو أنه صادر من بئر عميقة:

ـ يفتح الله.. نفّقنا وأغلقنا.

فإذا استمر الطرق أكثر من ذلك وترافق مع أصوات تطلب منه أن يفتح كان يتقدم حتى يصبح في مواجهة الباب من الداخل ويصرخ:

ـ يا عباد الله.. اتقوا الله، اتركوا الناس بهمومها ومصائبها.. اتركونا نستريح.

لقد تكررت مثل هذه الحالة مرات، وتكررت إجابات عبده وتكرر موقفه.

ولذلك تأكد الكثيرون أن الأمر أمر «الكيف» لكن أحداً لم يقل ذلك بصوتٍ عالٍ أو بقصد الإساءة أو الوشاية، لأنهم يحبون عبده، ولا يتصورون أنفسهم قادرين على العيش بدونه، فقد أصبح جزءاً من حياة حران الجديدة.

وقال آخرون «لا كيف ولا حاجة من هذا الكلام الفاضي.. عبده عابد الصور، يظل يقلبها ويتفرج عليها حتى يغفو فوق صدر واحدة... وينام!».

ولم يعرف أحد على وجه الحسم واليقين لماذا عبده هكذا. وحين يسأل يجيب بأسئلة من نوع آخر:

ـ لازم أعرف من هو إبن الجربة، إبن الحكاكة الي ما خلاني أنام...

ويتطلع بعيون متهمة لعل من يسأله يكون هو ذاته الذي طرق عليه هذا الطرق في الليلة الفائتة، لكن أحداً لا يعترف، فيهز عبده رأسه ويتابع:

ـ يمكن أحد دفع له قرشين وقال له عكّر مزاج الناس، بعبص كيفها!

ويتباطأ كأنه يكلم نفسه:

ـ أولاد الحرام بالدنيا لا بد أن ينكشفوا، لأن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

وفي محاولة أن يطيبوا مزاجه، يوافقونه على ما قاله، ثم يغيرون مجرى الحديث، حتى إذا صار طبيعياً طلبوا منه أن يريهم آخر الصور التي حصل عليها، وكيف رتبها وما هي الأسماء الجديدة التي أعطاها للحسان

الجديدات. كان يستجيب بعض الأحيان، وكان يرفض أغلب الأحيان. وكطريقة لقطع الطرق على الذين يسألون ولا يريد أن يجيبهم لطلبهم يقول ساخراً:

- اتركوا قصص الشيطان يا جماعة...

ويتطلع في وجوههم ويسأل:

- ما عندكم شغل؟ ها.. احكوا...

ولا ينتظر إجابة، يضيف وهو يضحك:

- مثل ما قالوا: اللي ما عنده شغل يلعب بخصيانه.

وبعد أن يستريح ويتنحنح ويذهب بعيداً في أفكار وذكريات كثيرة متداخلة يقول كأنه يحدّث أشباحاً:

- يا جماعة.. خلوا الناس تشتغل.. بعد ساعة كل واحد منكم جوعان وهات خبز يا عبده.

أما إذا راق مزاجه تماماً فكانت دائماً لديه صور جديدة! فما يكاد يرى الجو قد أصبح مناسباً حتى يجرّ من مكان خفي مجموعة من الصور «يا دين النبي.. شوفوا.. شوفوا يا جماعة الخير: الشعر شعر فرس، الجبين يضوّي، العيون ولا عيون غزال والفم لوز، أحلى من اللوز، الخدود حمرا.. تفاحة، يا صلاة النبي، الصدر مرجوحة. سلامي عليك يا سيدنا الخضر، وألف تحية لك يا من كنت في بطن الحوت. والبطن.. البطن يا جماعة.. آخ... آخ!» ويتوقف، يلتفت إلى الذين يسألون، يتطلع إليهم لكن لا يراهم، حتى إذا عاد من رحلته وتطلع إلى الصورة من جديد، قال: «لو واحد شدّ على الخصر ينقطع» ويضرب على الدكة العالية حيث يضع العجين ويجيب نفسه: «ينقطع نفسه، تنقطع رقبته قبل ما يقطعه، يموت قبل ما يفعل فعلة اللئام...».

فإذا سأله أحد أن يتابع وصفه، أن يذهب أبعد وأعمق. ينظر بحزن ويقول «عند الخصر أدركت شهرزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح».

في مرات قليلة، وأمام أصدقاء قليلين جداً تابع، قال أشياء شديدة الجمال والرقة، وكانت مع الكلمات تخرج من الأعماق زفرات حارة، أشد

حرارة من لهب الفرن، وكان الرجال يسافرون، فإذا عادوا من أسفارهم شعروا بآلام حادة في أجزاء عديدة من أجسامهم، ومع الآلام كانوا يشعرون بالتعب أيضاً.

استمرت الحال هكذا شهوراً طويلة. حران تكبر والبشر يتكاثرون. عبد الله الأبيض أقام فرناً جديداً بالتعاون مع الدباسي. التنافس بين الفريقين يزداد، ومع التنافس الإشاعات والخصومة. لكن عبده لا يأبه كثيراً لما يقال، يسمع وينسى. الحرب بين ابن الراشد والدباسي تتسع وتتشعب، والفرن ليس إلا أحد الميادين، وربما أصغر الميادين وأقلها أهمية. حران تغرق في الحرارة والرطوبة والوجوه الجديدة والمفاجآت. وعبده يروق مزاجه يوماً ويعتكر في يوم آخر. الناس تعودوا عليه وبدأوا يعرفون كيف يتعاملون معه بشكل أفضل. وإذا كان عبء الخبز لا يزال يقع القسم الأكبر منه على عاتق عبده، فقد تخلص من عبء الأكل، إذ قامت في حران مطاعم من مختلف الأنواع: صغيرة.. تقدم أنواعاً محدودة من الأكل، تناسب العمال، وأخرى أكبر منها وأعلى سعراً، ثم مجموعة من الدكاكين التي تبيع المعلبات وبعض الخضر والفواكه، إضافة إلى باعة الحلوى.

وعبده الذي شغل الكثيرين في بداية الأمر، وكان الناس يتتبعون أخباره وأخبار الصور التي وصلت إليه، بدأت أمور أخرى تشغلهم، ولم يعد أغلبهم يتذكر عبده وصوره إلا إذا رآه، إذا مر لشراء الخبز، وخلال الدقائق القليلة التي يستغرقها الشراء. ـ فيما لو كان الجو ملائماً ـ فإن الأسئلة ذاتها تتكرر: «ما هي أخبار الصور الجديدة؟ متى نراها؟» وعبده الذي لا يجيب، أغلب الأحيان، ويظل منهمكاً في العمل، يعرف متى يظهر صوره ومتى يخفيها، ويعرف أكثر من ذلك أمام من يفعل ذلك.

وفي دوامة الحياة اليومية ومشاغلها التي تزداد وتتعقد يوماً بعد آخر يغرق الناس في همومهم. ورغم كثرة البشر وتزايدهم بلا حدود، ولا توقف، فإن كل إنسان يصبح عالماً مغلقاً. والتعامل بين الناس الذين جاءوا من أماكن كثيرة ومتنوعة وربما متنافرة، يصبح حذراً ومحفوفاً بالمخاوف. وفي خضم هذه الدوامة لا يحس الكثيرون بالتغير الذي يجري حولهم،

لأنهم يرافقونه يوماً بعد يوم، ويصلهم دفعة بعد أخرى، حتى إذا تراكم وتضخم فاجأ الكثيرين.

وعبده الذي ظل يمارس عمله في الفرن، لم يلحظ الكثيرون، وهم يتناولون الخبز من يديه، التغيرات لتي بدأت تنسحب على وجهه. خاصة العينين، وعلى جسده ثم على تصرفاته. فالوجه الساهم، الأقرب إلى الشحوب، ثم العينان اللتان غارتا إلى الداخل كثيراً، واليدان المرتجفتان، واللتان تزدادان ارتجافاً كل يوم، بالإضافة إلى الصمت والغرق في حالة من الذهول، هذه التغيرات التي بدأت تزحف إليه لم تلاحظ فجأة، أو دفعة واحدة، حتى هو نفسه لم يفطن إلى ذلك. صحيح أن رجفة اليد بدأت تضايقه، خاصة عندما يكون مع آخرين، لكن عزا الأمر إلى التعب وكثرة العمل. أما الملابس التي كان يحرص على ارتدائها بعد العصر وفي أول المساء، وكانت دائماً نظيفة، فقد بدأت تصبح أقل نظافة وأقل أناقة.

في وقت متأخر، ربما نتيجة خطأ وقع فيه، أو نتيجة مكر أوقعه فيه الآخرون، بدا اللغز الذي كان أول الأمر شديد الغموض يتضح، إذ بعد تردد طويل اعترف للذين يثق بهم، إعترف بأنه يحب، ولم يضف كلمة أخرى! من هي المرأة؟ كيف تعرف بها وأين؟ لم يعرف أحد شيئاً.

ويوماً بعد آخر يغرق عبده في العشق والعذاب، ويغرق في الصمت والعزلة أكثر.. أيضاً. وإذا كان بعض الذين قالوا في بداية الأمر أن عبده «كيّيف»، وفي وكره لا يفعل شيئاً إلا أن يعمّر رأسه، فقد تأكدوا الآن، أكثر من قبل، من صحة استنتاجهم. أما الخصومات التي نشأت بين ابن الراشد والدباسي، وطول لسان عبد الله الأبيض، فقد ذهبت ببعض الناس إلى تفسير العزلة، أن عبده بدأ يخاف أن يؤخذ بثأر قتلاه، إذ ربما جاء أحد أقربائهم، ولا بد أن يصطاده بشكل أو آخر، ولذلك أخذ كل الحيطة وابتعد لعله.. ينجو.

والذين افترضوا منذ البداية أن عبده عابد للصور ومشغول بها، فقد ذهبوا بعيداً في سوء الظن، خاصة بعد رجفة اليد، التي أصبحت شديدة الوضوح، قالوا إن عبده غارق في العادة السرية، وإنه يمارسها عدة مرات

في اليوم، ولولا ذلك لما تدهورت صحته هكذا.

وعبده الذي تصله بعض الأقاويل، ولا تصله أخرى، في عالم آخر، مشغول بقضية لا يعرفها الناس. وإذا كان قد صمت وتحمل طويلاً وحده، ومثلما وقع في الخطأ، المرة الأولى، أو نتيجة مكر أوقعه فيه الآخرون... واعترف، فإنه يواصل اعترافه مرة أخرى.

فبعد الكثير من الإلحاح، وفي لحظة من الضعف لم يستطع أن يصمد، أخرج صورة من جيبه، أدارها في وجوه الذين كانوا حوله، واعترف بخشوع أقرب إلى الخوف، وقد كان صوته باكياً:

ـ هذه هي...

ولما استغرب الرجال واستنكروا ثم بدأوا يسخرون قال بصوت متهدج:

ـ كانت في الباخرة التي وصلت إلى حران.. ذاك اليوم!

وفهموا أنه يقصد باخرة الشيطان، الباخرة التي وصلت في الأيام الأولى، فلما تأكد أنهم فهموا أية باخرة يعني تابع:

ـ أول ما وصلتْ تطلعتْ إليّ. تركت الجميع وتطلعت إليَّ.. ولم تتركني!

وبعد قليل أضاف وكأنه يحدّث نفسه:

ـ كانت تبتسم بفرح، كانت تضحك. وفي اليوم الذي سافرت الباخرة تركت الجميع وظلت تتطلع إليَّ وتبتسم.. حتى لما ابتعد المركب ظلت تلوح وتبتسم.

سمع الرجال ولم يعلقوا.

وانتابت الجميع مشاعر الشفقة والخوف، خاصة وهم يرونه في حالة من العذاب الشديد، وبعد فترة ليست قصيرة قال:

ـ وجدت صورتها في مجلة، وإذا جاء من يقرأ سوف يقرأ عنوانها ويكتب لي رسالة وأرسلها إليها... وسوف تأتي!

القرابة غير الواضحة التي تربط الدباسي بأهل حران تجعل الجميع ينادونه: يا عم. حتى من كانوا في مثل سنه أو أكبر قليلاً، كانوا ينادونه بهذه الطريقة، دلالة على الاحترام. جاء إلى حران في الشهور الأولى، وربما بعد وصول «باخرة الشيطان» بأسبوعين أو ثلاثة. يقول ابن الراشد إن «أهل حران مهابيل، قالوا اللي ما عنده كبير لازم يدوّر على كبير، لازم يشتري له كبير، بعثوا طارش ليبحث لهم عن عزوة، عن وتد، فجاء لهم بعفريت، جاء لهم بزاوية ومحراث».

ويبدو أن خوفاً دخل إلى قلوب الناس وهم يرون الغرباء يأتون أفواجاً بعد أفواج، ورأوا الأميركيين ثم تلك الباخرة ـ اللعنة التي غيّرت حياة الكثيرين، وكانت قبلها التراكتورات قد بدأت تحرث الأرض وتهدم البيوت وتطمر البحر. ولما بدأ ابن الراشد يلتقط الشباب ليبعث بهم إلى حران الأميركان، فقد وصل الخوف بأهل حران درجة لم يعرفوا معه كيف يتصرفون. . كانوا يريدون لهم إنساناً كبيراً وقوياً، لعله يحميهم ويقف في وجه هذه الموجة التي تتقدم نحوهم يوماً بعد آخر. . وجاء الدباسي.

لا يدرى أي شيء قيل للدباسي، وما الذي حفزه على المجيء بهذه السرعة، فقد كان خلال فترة طويلة مقيماً في عجرة، أو بكلمات أدق كانت له دكان في عجرة، وفيها يقضي وقتاً من السنة، لكنه كان كثير الأسفار على الطريق السلطاني، ولم يصل إلى حران إلا منذ مدة طويلة، وصلها مرتين، الأولى في أول شبابه والمرة الثانية قبل خمس سنين. وإذا كان بحكم أسفاره والدكان التي له في عجرة على صلة بأهل حران، سواء بحمل الرسائل خاصة رسائل المسافرين أو الدراهم التي يرسلونها، فقد

كان أيضاً يرسل قافلتين أو ثلاثاً سنوياً إلى حران لتأمين ما تحتاجه من مواد. وكان بحكم القرابة، أو ربما لأسباب أخرى، كريماً بنظرهم، وإن ظل متشدداً في معظم عمليات البيع والشراء، وقد تعوَّد عليه أهل حران، المقيمون منهم والمسافرون، فكانوا يودعون لديه أموالهم ويستلفون منه، وكان الواحد منهم أول وصوله إلى عجرة يسأل عنه ويزوره.

لم يستغرب أهر حران، إذن، مجيء الدباسي بهذه السرعة، بل فرحوا بذلك فرحاً شديداً، لكن الأمر بدا غريباً لابن الراشد وفألاً سيئاً. فما كادت أيام قليلة تنقضي، والدباسي باقٍ، ويطيل التشاور مع أهل حران، حتى دبّت بين الرجلين خصومة صامتة. وإن ظلا يحافظان على المودّة الظاهرة والاحترام، وبدا واضحاً أيضاً أن كلاً من الرجلين يرتب أموره ويهيّئ نفسه للمرحلة القادمة.

فأهل حران الذين اختاروا الجهة الغربية، وبدأوا يبنون منازلهم هناك، تراجعوا عن أكثر ما قالوه لابن الراشد حول الأراضي، وأخذوا يماطلون ويؤجلون، وإذا كان بعضهم قد تصرف ببيع الأراضي التي كانت عليها بيوتهم، فقد أخذوا يتشددون في أية عروض جديدة تقدم إليهم، حتى الأرض التي قامت عليها حران الأميركان قالوا إنها كانت مراعي لماشيتهم، ولأنهم حرموا من هذه المراعي فلا بد أن يتلقوا مقابل ذلك، وأشاروا بغموض إلى أنهم بعثوا إلى المسؤولين لكي ينصفوهم قبل أن تتطور الأمور.

والدباسي الذي قضى شهراً أو يزيد في حران، وأشرف بنفسه على تأسيس بعض البيوت في الجهة الغربية، قفل عائداً إلى عجرة، على أن يعود مرة أخرى، وفي أقرب فرصة ممكنة. وأكد أنه سيطلب من جميع الحرانيين الذين سيلقاهم، أو يستطيع الاتصال بهم، أن يعودوا إلى حران بأسرع وقت. وهو الذي أشار على أهل حران أن «يمسكوا الأرض بأسنانهم، لأنها رأسمالهم الوحيد». ولذلك ذهبت محاولات ابن الراشد، والاتفاقات الأولية التي أجراها معهم في متاهات جديدة ومعقدة من المفاوضات والانتظار. لكن ابن الراشد لم يتوقف ولم يسلم، إذ بدأ حرباً

من نوع آخر، فقد طلب من البعض أن يبلغوا أهل حران أن «الأرض كلها للحكومة، والحكومة هي التي تعطي وتأخذ، ثم إن الأرض لا تطعم ولا تسقي، والأفضل أن يأخذوا ما يعرض عليهم الآن... لأنه قد يأتي يوم تؤخذ منهم الأرض ولا يحصلون على أي شيء ويصبحون مثل معايد القريتين».

وأهل حران الذين سمعوا من الدباسي وهزوا رؤوسهم، ثم سمعوا ما نقل إليهم عن ابن الراشد، عاشوا في حيرة مريرة. فهم لا يعرفون هل يبيعون أم لا يبيعون. وإذا باعوا هل ما يعرضه عليهم ابن الراشد هو ثمن مجزٍ أم لا؟ وإذا لم يشتر هو فمن سيشتري غيره؟ من يملك المال ويشتري أرضاً لم يفكر أحد من قبل ببيعها أو شرائها؟ وهل الأراضي هي لهم فعلاً يستطيعون أن يتصرفوا بها دون أن تحاسبهم الحكومة؟

ابن الراشد يذهب إلى حران الأميركان، يقضي هناك الساعات الطويلة، وبعض الأحيان يسهر، أو يعود ببعض الأميركيين لكي يسهروا عنده، وهؤلاء الذين يأتون، قبل أن يدخلوا خيمته يتمشون على الشاطئ، يصلون إلى التلال الغربية، يتأملون وجوه الناس، ولا يترددون في أن يتبسطوا مع الكبار والصغار. كان عدد منهم يعرف العربية، لكنهم ينطقون الكلمات بطريقة مضحكة، فإذا انتهت هذه الجولة، مع ما يتخللها من أحداث تبدو بنظر الناس على جانب كبير من الأهمية والدلالة، يدخلون خيمة ابن الراشد فيذبح لهم ويولم وليمة كبيرة، حتى إذا انتهت السهرة، لا ينتظر طويلاً لكي يبعث برسول أو اثنين إلى أهل حران، عارضاً عليهم أن يشتري الأرض منهم، أن يسعدهم إذا اعتمدوا عليه، إذا وثقوا به، ومع الوعود السخية تهديدات غير مباشرة.

وتزداد حيرة أهل حران ويزداد خوفهم. ماذا يفعلون وإلى متى ينتظرون؟ والدباسي الذي سافر وتأخر في عجرة لا يعرف ما إذا كان سيعود أم لا. وحتى لو عاد فهل هو بقوة ابن الراشد أو يستطيع مقاومته؟

كانت الأفكار والشكوك تتكاثر وتزداد بزيادة الحركة وتكاثر البشر، فإذا طال انتظار أهل حران أو استمر ترددهم يبعث ابن الراشد من يقول لهم:

ـ ابن الراشد لم يرسلني... جيت وحدي.

وحين يظلون صامتين وعيونهم معلقة بفمه يضيف:

ـ لا بد إنكم سمعتم ما صار بوادي العيون، ما بقي فيها بيت ولا بقي فيها أحد. رحل أهلها كلهم. صار كل واحد منهم تحت نجم: جماعة في الشرق وجماعة في الغرب.. وهنا، في حران، بين العمال، عدد من أهل وادي العيون...

يتوقف قليلاً حتى يستوعب الجميع الدرس، حتى يستعيدوه في ذاكرتهم وقلوبهم، ويتذكروا معه أبناءهم المسافرين، فيتابع كأنه يخاطب مجهولاً:

ـ العقل للإنسان زينة، والعاقل اللي يعرف كيف يتصرف، يأخذ ويعطي، يبيع ويشتري، أما إذا عاند يضيّع الأول والتالي.

فإذا استقر هذا النغم في وجدان الناس تركهم هذا الرسول وأتى غيره في اليوم التالي، وبطريقة تراوح بين الإغراء والتهديد يسأل:

ـ ها... ما قول النشامة؟

وتتساءل عيونهم فيتابع:

ـ ابن الراشد يقول: الأرض من المقبرة حتى التل الأخير لأهل حران، لهم وحدهم، لا يشاركهم فيها أحد، ومن المقبرة حتى السوق تباع لمن يشتري، والسعر سعر السوق، وابن الراشد، إذا بعتموه يدفع كوماً فوق سعر السوق.

وباع بعض أهل حران واشترى ابن الراشد. اشترى من عدة أشخاص. وأثناء عمليات البيع والشراء تعمد أن يحضر عدداً من الناس، وأن يفتح كيسه بسخاء، كما كتب أوراقاً، كتبها له دحام وابن هذال، وقد أخذ بصمات الذي باعوا وأشهد على ذلك عدداً من الناس الحاضرين. استغرب أهل حران هذه الطريقة في البيع، إذ لم يتعودوا أن يكتبوا أوراقاً، أما البصمات التي أخذت فقد أثارت الكثير من الارتياب والخوف، ورفض أحدهم أن يضع بصمة إبهامه على الورق، وقال إن لديه خاتماً كان قد

صنعه في الشام قبل سنوات، وابن الراشد الذي وافق على الخاتم وبصمات الشهود قال وهو يبتسم:

ـ يا جماعة الخير الرجل باع وأنا اشتريت، وهذا القرطاس ما له قيمة، كلمة الرجال فوق كل ورقة وكل مال، لكن الدنيا حياة وموت، والأرض التي باعها الخويا، هي من شرق المقبرة حتى الجامع.. وأنتم شهود.

وبطريقة بدائية مقصودة حددت الأراضي التي اشتراها ابن الراشد، حددت برجوم من الحجارة في الزوايا، بعد أن استعمل حبلاً في قياسها، وقد أقام في بعضها مخزناً للأخشاب التي حملها من حران الأميركان، ووضع في قطعة كبيرة أخرى أكواماً من الحجارة جلبها على الجمال من المحاجر الواقعة غرب حران، كما نقل مربط الجمال من طريق عجرة إلى مكان قريب من السوق.

كان ابن الراشد يتحرك بسرعة وثقة، وهذه الحركة السريعة بمقدار ما كانت تثير الإعجاب كانت تثير الحسد والمخاوف، خاصة وأن الأميركيين الذين يأتون إلى حران العرب، ويزورون ابن الراشد، بدأوا يقضون وقتاً أطول بين الناس، ووقتاً طويلاً مع ابن الراشد ذاته، دون أن يرافقهم النضّيص، كما كان يحصل من قبل، كما أنهم لا يفعلون شيئاً سوى الحديث مع الناس وسؤالهم عن كل شيء.

قال الكثيرون إن هؤلاء الذين يتكلمون العربية مسنون، ولذلك لا يستطيعون العمل. وقال آخرون إنهم كفرة ويريدون أن يصبح الناس مثلهم. وهم مثل الشياطين يتحركون من مكان إلى آخر، وابن الراشد معرّف الشياطين.

ما كادت ثلاثة شهور وبضعة أيام تنقضي حتى عاد الدباسي. جاء ومعه إثنان من أبنائه وثلاثة من أقاربه. جاء هذه المرة لكي يبقى في حران، ليسكن فيها ويستقر، بعد أن ترك ابنه الأوسط في عجرة. وبمجيئه بدأت مرحلة جديدة في حران.



بالرغم من تأخر الدباسي، فقد كان شديد الثقة وهو يصل. كان ذلك واضحاً منذ الليلة الأولى، ثم جاءت تصرفاته بعدئذٍ لتؤكده. فالأسفار التي حملته إلى أمكنة بعيدة، حتى أنه وصل إلى مصر، وركب البحر ثلاث مرات، مرة من بور الإسكندرية إلى حيفا أثناء الحرب، ومرتين من بيروت إلى غزة وبور سعيد بعد الحرب بسنوات قليلة، ثم أسفاره في الطريق السلطاني، والتي كانت تتكرر مرتين إلى ثلاث مرات كل سنة، فيصل إلى العراق والشام وشرق الأردن وفلسطين، إضافة إلى روح المغامرة التي كانت تميزه في عمليات البيع والشراء، هذه الأسفار وتلك الروح جعلته يقرر، دون تردد، اختيار حران موطناً جديداً، وقد استعد لذلك، وجاء مصحوباً بأولاده وأقربائه.

كان في أعماق نفسه قد قرر أن يعمل دون اعتبار لابن الراشد أو غيره «الأرض كبيرة، تسع الجميع، الشاطر وذراعه. والأيام بيننا!» هكذا قال لمجبل الخرسا، شريكه في عجرة، والذي رفض أن تمتد الشراكة بينهما إلى «هذه المقبرة التي لا تصلها حتى العفاريت» واعتبر الخرسا أن شريكه يغامر أكثر مما ينبغي، وأن هذه المغامرة تصل حدود المخاطرة. فإذا كانت مغامرات سابقة للدباسي قد نجحت، حين اشترى رعية غنم، ذات مرة، دون أن يكون في جيبه ثمن رأس واحد، وكيف أنه باع الرعية في اليوم التالي وربح مبلغاً لم يحلم به؛ وحين اشترى قافلة تموين كبيرة من الطحين والسكر والقماش، ودفع ثمنها كل ما عنده ثم هبوط الأسعار في عجرة، نظراً لوصول قوافل أخرى من أمكنة متعددة، وكيف أصر على أن لا يبيع بخسارة، متحملاً الانتظار، مع ما يجره ذلك من احتمال أن يدوّد الطحين، ثم السيل الذي جاء فجأة فأعاق القوافل وأدى إلى ارتفاع الأسعار مرة ثانية، والأرباح التي حققها الدباسي في تلك السنة؛ هذه الحوادث وغيرها كثير تدلل على الروح التي يتمتع بها، واستعداده لأن يغامر ويبدأ من جديد. لكن تلك المغامرات إذا كانت قد نجحت فليس معنى ذلك أن مغامرة من النوع الذي يقدم عليه الآن يمكن أن تنجح. ومع ذلك، وإبقاء للشراكة، وتعبيراً عن الثقة واستمرار العلاقة بين الشريكين أبقى الدباسي

ابنه، جاسر، في عجرة، وجاء مع ابنيه الآخرين: صالح الكبير وحميدي الصغير.

وصل دون ضجة، ودون مظاهر، ونزل عند أهل حران، مثلما فعل في المرة الماضية. وخلال الليلة الأولى فهم ما حصل منذ غيابه وحتى يوم وصوله. أبدى أسفه لأن بعض أهل حران باع أرضه، لكن لم يلحّ كثيراً ولم يتوقف عند هذه النقطة. اعتبر أن ما حصل قد تم ولا حاجة للحسرة أو الندم، قال في نهاية السهرة:

ـ أهل حران أولى من الغرباء بهذا الرزق، فإذا كان الغرباء فتحوا حلوقهم وبطونهم ووصلوا إلى هنا، مثل ابن الراشد وغيره، فيلزم أن نكون أحرص من النمل وأخبث من أبو الحصيني!

ولم ينتظر. . . بدأ منذ اليوم التالي.

ركز على العقارات أولاً، ثم على التجارة. وقال لابن الراشد في اليوم الثالث، أثناء الدعوة التي أقامها له:

ـ نحن أبناء الطريق السلطاني لا نعرف غير التجارة. نبيع ونشتري. نخسر مرة ونربح مرتين، ومرة تحمل مرة، أما غير ذلك فأنت أولى به.

ارتاح ابن الراشد لهذه الكلمات، لكن لم يفهم القسمة. ماذا يستطيع أن يعمل وماذا يعمل الدباسي؟ وإذا كان الدباسي يبدو متواضعاً ودوداً هكذا فإلى متى يستمر كذلك؟ وحران هل تحتمل اثنين، مثله ومثل الدباسي؟

قال الدباسي لأهل حران:

ـ يا جماعة الخير: أهل حران هم العصب، هم عظم الرقبة. . لا تخافوا. . .

وحين صمت أهل حران، على عادتهم، أضاف بنوع من النزق:

ـ أنتم لا تحتاجون إلى الناس، الناس يحتاجون إليكم. صحيح أنكم فقراء اليوم، لكن كل الناس يقولون الذهب تحت أرجلكم. . . اصبروا. . .

وظل أهل حران صامتين. نظروا إليه نظرات أقرب إلى المسكنة ولم يتكلموا. قال مثل أب:

ـ القضية سهلة وصعبة وما هي مثل قبل. امسكوا الأرض، عضوا عليها بأسنانكم، اعتبروا أن كل شيء مثل ما كان. لا تبيعوا حتى لو انقلبت السماء على الأرض. ظلوا في مكانكم.

وبعد كثير من الجهد فهم أهل حران أن الدباسي يريدهم أن يصبروا، أن ينتظروا، وفهموا أكثر من ذلك أن يتركوا له حرية التصرف، لكن مع ذلك ظلوا صامتين، فقد شعروا أنهم يدخلون معركة لا يعرفون إلى ما ستنتهي. كان أمامهم هذان الرجلان فقط: ابن الراشد والدباسي. وإذا كانوا قد عرفوا الدباسي من قبل، من خلال المعاملات التجارية فقط، من الرسائل والقوافل التي تأتي كل سنة، فإنهم منذ شهور وحتى الآن لا يرون أمامهم سوى ابن الراشد. يعرف كيف يتكلم. كيف يبعث الرسل، ويعرف أكثر من ذلك كيف يرغمهم على أن يقدموا له ما يريد. الآن، والدباسي يتكلم بهذه الطريقة، لا يعرفون ماذا يريد منهم. صحيح أنهم رحلوا من المكان الذي كانوا فيه، وبدأوا مرة أخرى، وأنهم يرون حولهم الحياة كيف تموج وتتغير، وإن الغرباء يزدادون كل يوم، ولم يعد أي شيء مثلما كان من قبل، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون، وأي شيء يطلبه الدباسي.

قال له أحد الرجال المسنين:

ـ يا عم صبرنا طويل. أولادنا سافروا، رحلوا من سنين، قلنا الحركة بركة ويرجعون. إذا لم يرجعوا هذه السنة يرجعون السنة التالية، نحن، ولله الحمد، اصبر من الجمال، لكن من يوم ما جاءت العفاريت الدنيا تغيرت، ومن يوم ما جاءت البلية حتى أولادنا تغيروا علينا، وأنت تشوف، ما ظل أحد إلا وجاء. ما عسانا نفعل اليوم وباكر والدنيا صارت خراب؟

هكذا قال الرجل المسن، وقال غيره أشياء أخرى. والدباسي يسمع، يهز رأسه، يوافق، حتى إذا انتهوا قال وهو يعبث بلحيته الصغيرة:

ـ حران القديمة، التي تخبروها، راحت، اندرست، ما بقى منها غير الجامع والمقبرة، ويجوز باكر أو عقب باكر يجي ابن الراشد أو غيره وبدل الجامع يعمر تياترو، وبدل المقبرة يسوي كرخانة، لأن من كان من غير هذه الأرض، من غير هذه الديرة، كل أرض بالنسبة له أرض، والبشر مثل

بعضهم، ابن الديرة مثل الغريب، والمسلم مثل اليهودي.

كانوا يتابعون، ينصتون إليه باهتمام، وإن لم يفهموا بعض الكلمات التي استعملها، وبدا له أنه ذهب بعيداً، غيّر جلسته وقال:

ـ هالحين أهم شيء كل واحد من أهل الديرة، يأخذ حقه ونصيبه، وإذا الناس أكلت وشبعت وزاد شيء فأهل حران أكرم منهم ما تلقى، وبعدها أهلاً بابن الراشد. وغير ابن الراشد.

وفهم أهل حران تلك الليلة أن حرباً قاسية ستقع، وإن الخصم سيكون ابن الراشد. لكن لم يفهموا تماماً هل هو خصمهم أم خصم الدباسي، وناموا تلك الليلة حائرين، وانتابتهم المخاوف.

مـن أوائل الأعمال التي أقدم عليها الدباسي، دون تردد، ولا بد أن يكون قد فكر في الأمر منذ كان في حران المرة السابقة، واتخذ قراراً بذلك: الزواج بحرانية!

إذ ما كاد الأسبوع الأول ينقضي، والحياة تموج وتتغير كل يوم، والدباسي يخلق نوعاً من التماسك والاستقرار بين الحرانيين، وفي إحدى الليالي التي ضمت أكثر الرجال، وبين الجد والمزاح، أو كطريقة لخلق المزيد من الثقة والارتباط بين المقيمين وهذا الوافد لجديد، قال الدباسي في لحظة هيأ لها جيداً:

ـ اسمعوا. . يا جماعة الخير. . .

انتبهوا ونظروا إليه. كان بوجهه المستدير ولحيته الصغيرة في لحظة من لحظات القوة والثقة، عبّر عن ذلك بابتسامة واسعة وهو يشد لحيته، فلما تأكد أنهم يستمعون تابع:

ـ إذا اكنتم تريدونا اربطونا.

ولم يفهم أحد من أهل حران. ضحك بصوتٍ عالٍ، وكانت ضحكته أقرب إلى القهقهة:

ـ من يوم آدم. . الطريقة اللي تربط الرجل هي المرا. إذا تزوج الرجل يرتبط بالأرض والعشيرة، يصير واحداً من الأرض والعشيرة.

تطلع الرجال في وجوه بعضهم بعضاً وتطلعوا إلى الدباسي. بدا الموقف واضحاً أو قريباً من الوضوح، لكن لم يتكلم أحد منهم. فلما وجدهم صامتين سأل:

ـ ما قول الرجال. . . تريدوننا أم نرحل. . نرجع لأهلنا؟

وفهمت ضحكات الرجال ونظرات التساؤل التي تبادلوها فيما بينهم على أنهم موافقون، لكن من سيكون نسيب الدباسي. وكيف سيتم الأمر؟

قال أحد المسنين:

ـ أنت منا... يا أبو صالح.. والرجعة شيلها من بالك.

رد وهو يقهقه:

ـ خير البر عاجله.. اليوم قبل باكر.

وعلت ضحكات الرجال وهم يتبادلون نظرات التساؤل، من سيكون المرشح، وأية فتاة هي المناسبة؟

حتى تلك اللحظة، وبعد أن تأكد الرجال مما قصده الدباسي، لم يكن واضحاً ما إذا كانت الفتاة ستكون زوجة لصالح أم لأحد الرجال الثلاثة الآخرين الذين جاءوا مع الدباسي، وهم جميعاً في سن الشباب تقريباً، عدا واحد كان بين الأربعين والخمسين. والدباسي، باعتباره الكبير الذي يقرّر، يقوم بدور لا يمكن للآخرين أن يقوموا به مباشرة. قال أحد الرجال وهو ينظر إلى صالح ويبتسم:

ـ يا عم، يا أبو صالح، وليدك وليدي. وعسى يكون أخوه ابني الثاني.

اعتدل الدباسي، وقد تغير وجهه تماماً. أخذته الدهشة، ولكي يضع حداً للخطأ غيّر جلسته أكثر من مرة، تقدم بجسده كله رافعاً يده، فلما بدا بتلك الهيئة أخذت المفاجأة الجميع، حتى ظن الكثيرون أن الأمر كله لا صلة له بالزواج، أما الرجل الذي قال تلك الكلمات فقد بدا مذعوراً وانكمش تماماً. قال الدباسي::

ـ اسمع يا ولد العم، صالح يلحق، إذا ما كان اليوم اللي بعده، هالحين أبو صالح هو اللي يريد يعرّس!

وضجّ الرجال في ضحك عالٍ أقرب إلى القهقهة، إذ لم يكن أحد منهم يتوقع أن يكون الدباسي الأب هو الذي يريد الزواج. كانوا يظنون أنه يريد زوجة لابنه صالح، وظن الآخرون إنه جاء ليخطب لأحد الثلاثة الذين جاءوا معه، أما أن يكون هو الذي يريد أن يتزوج، وقد بلغ الخامسة

والخمسين أو يزيد قليلاً، فقد بدا الأمر غريباً بعض الشيء، أو بالأحرى مفاجئاً.

بعد أسبوعين من تلك الليلة، في يوم الخميس، مساءً، تزوج الدباسي. تزوج ابنة محمد الزمال، الرجل الذي ذعر وانكمش في تلك الليلة، وكان يتصور أن ابنته يمكن أن تكون من نصيب صالح، ابن الدباسي.

إنه أول زواج في حران الجديدة... ويبدو أن الأمر كان هاماً ومثيراً بالنسبة لأولئك الأميركيين الذين كانوا يترددون على حران العرب، إذ ما كادوا يسمعون أن زواجاً سيتم في يوم الخميس، حتى أرسلوا منذ يوم الاثنين يطلبون أن يحضروا هذا الزواج، وأبدوا رغبتهم في أن يأتوا مبكرين.

كان فرح الدباسي بحضور الأميركيين يوازي فرحه بالزواج، فقد بالغ بالاحتفاء بهم وتكريمهم، وكان شديد الحرص على أن يبقى ابنه صالح إلى جانبهم طوال الوقت، وقد طلب من أهل حران أن يكرموهم ويهتموا بهم، وأن يلبوا جميع طلباتهم. وهؤلاء الأميركيون الذين كانوا كالأطفال الصغار، في حركاتهم وتصرفاتهم، أبدوا دهشة وإعجاباً تجاوز التصور وفاق الحدود. سألوا عن كل شيء، عن الأسماء والملابس والطعام، كما سألوا عن اسم العريس والعروس، وما إذا كان الاثنان يعرفان بعضهما من قبل، وما إذا التقيا أم لا. وسألوا عن العمر وعدد الأولاد، وأبدوا استغراباً بلغ حد الدهشة حين قال لهم أحد المسنين أن الذي يجلس إلى جانبهم طوال الوقت، والذي تحدث إليهم كثيراً هو ابن إبراهيم الدباسي، وقد استأذنوا الدباسي نفسه لالتقاط بعض الصور، وتمنوا لو استطاعوا تصوير الدباسي مع عروسه، وتصوير النساء، لكن مثل هذه الأفكار التي طرحوها، دون أن يتشبثوا بها، كانت بمثابة اختبار ليعرفوا ما إذا كانت أفكار من هذا النوع يمكن أن تقبل أم لا.

كانت ليلة كبيرة في حران تلك الليلة. الخراف التي ذبحت كثيرة حتى أن العديدين اختلفوا وتراهنوا. أمام الأميركيين الخمسة وضعت خمسة

رؤوس، وأمام ابن الراشد وضع رأس، أما في المناسف الأخرى، حيث جلس العمال وأهل حران وعدد من الغرباء، فقد اختلطت الرؤوس مع الأجزاء الأخرى من الذبائح وقد أبدى الكثيرون براعة فائقة أمام الأميركيين في تقطيع اللحم، وفي استخراج الأجزاء الداخلية، خاصة النخاع، ثم في تكوير الرز باليد وقذفه في الفم دون أن تبقى بالكفّ حبة رز واحدة!

كانت دهشة الأميركيين تزداد وتقوى مع كل حركة، وقد التقطوا عدداً كبيراً من الصور أثناء الأكل، وحاولوا أن يتغلبوا على الحرج، وعلى عجزهم في أن يأكلوا مثلما يأكل الآخرون، رغم المساعدات الجمة والمبالغ فيها، أو ربما لعدم استساغتهم هذا النوع من الطعام، حاولوا أن يتغلبوا على ذلك بالأسئلة الكثيرة التي يوجهونها، بالمراقبة، في تبادل الحديث فيما بينهم، وأخيراً بالتقاط الصور.

والدباسي الذي كان يلبس حلّة أنيقة أول الليل، وكانت أثقل من أن تحتمل في مثل هذا الوقت، أو في مثل هذا الجو، ما لبث أن تخفف من الكثير من الملابس؛ فعل ذلك بطريقة مسرحية، وقبل أن يدعو الناس إلى الطعام، ومن أجل مساعدتهم أيضاً. أما ابن الراشد الذي حاول كثيراً أن يبدو طبيعياً، بالابتسام والحديث، فما لبث أن تراجع شيئاً فشيئاً، فمال إلى الصمت أو إلى أحاديث جانبية هامسة مع الذين حوله، وكان واضح الضيق.

حين انتهى العشاء قال مزبان بصوت عالٍ، وربما بشكل مقصود:

ـ بيتك عامر وعزك دايم يا أبو صالح.

فهز الدباسي رأسه دون أن يتطلع في الوجوه، ربما خجلاً أو تواضعاً؛ أما حين قال سليمان الزامل:

ـ أكل الرجال، يا أبو صالح، على الرجال دين. . وعلى اللئام صدقة.

فقد فهم كلامه على أنه نوع من التأييد والتعاطف، وربما ضد ابن الراشد بالذات! هكذا فهم أهل حران الكلمات، أو هكذا فسروها، إذ بدت الابتسامات واضحة على الوجوه، ونظر الكثيرون نحو ابن الراشد، وربما تذكروا الدعوة التي أقامها قبل فترة ليست طويلة، حين انتهى من بناء الدكاكين.

لم يكن الدباسي وحده هو الذي أراد أن تبقى هذه الليلة محفورة في ذاكرة الناس، فقد كان أهل حران كلهم كذلك، وشاركهم العمال أيضاً، فالحلقات الصغيرة المتباعدة، أول الليل، والتي هي مزيج من الأحاديث والنكت وبعض الدندنات القصيرة المتفرقة، ما لبثت أن انتظمت وتقاربت، ثم احتدمت وأصبحت أقرب إلى النزال. بدأت هكذا قبل العشاء، أما بعده، وبعد أن دارت فناجين القهوة وأكواب الشاي، وبدا بعض الناس يريدون الانصراف، أو كما قال ابن الراشد ضاحكاً وهو يتحرك في مجلسه وينظر في وجوه الرجال:

ـ أبو صالح بقلبه يقول: عشاء تعشيتم، وقهوة تقهويتم، ورحم الله من زار وخفف، خاصة في هذه الليلة.

لما سمع أبو صالح هذه الكلمات انتفض مثل ذئب، قال وهو يهدد بمودة:

ـ اللي ببالك، يا أبو محمد، نلحق عليه، وانت تعرف أن في السنة عيدين واليوم هو الثالث!

وبطريقة بارعة فيها من العفوية بمقدار ما فيها من التدبير، جنّت حران تلك الليلة. لم يبق أحد إلا وغنى، حتى المسنون غنوا! كانت الأغاني، رغم محاولات الفرح التي يتعمدها كل واحد، مليئة بالحزن، وكأن حران تغني أياماً ماضية، تغني حياة توشك أن تنتهي. أما حين بدأ صويلح، ولم يكن أحد قد توقع ذلك أو قدره، فقد خيم الصمت وامتلأ بتلك العذوبة الجارحة، ولم تتردد بعض النسوة من الاقتراب. أما الأطفال الذين كانوا كثيري الحركة شديدي الصخب، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر، فقد جلسوا في الوسط وانتابتهم حالة من الدهشة سيطرت عليهم تماماً. وبمقدار ما غنى صويلح للآخرين غنى لنفسه. كان صوته يخفت بعض اللحظات إلى درجة أن كثيرين كانت رؤوسهم تمتد وتتطاول ليتأكدوا أن هذا النغم الخافت، الذي لا يكاد يسمع إلا بصعوبة، صادر عنه، وفجأة يدوي الصوت مرة أخرى، كأنه الهدير أو كأنه أمواج البحر، وبين الأوج والقرار كان الناس يتابعون، يرددون، يشاركون، وكانت النشوة تستبد بهم

إلى درجة أنهم يصرخون دون وعي ودون إرادة. أما تلك الأغاني التي تتطلب الترداد والمشاركة فقد كان انفعال الناس بها ومشاركتهم فيها تبلغ درجة من الحماسة لا تترك أحداً. حتى ابن الراشد، الذي وافق على البقاء مضطراً أو مجاملاً، لم يتصور أن يشهد ليلة مثل هذه في حران، ولم يتصور أبداً أن «كريم العين» الذي طرده من وادي العيون، لأنه لا يصلح للعمل في الشركة، والذي وافق على أن يأتي به إلى حران، لأنه كان محتاجاً لأي عامل؛ لم يتصور ابن الراشد أن صويلح يمتلك مثل هذا الصوت، ويغني مثل هذا الغناء.

أية أشواق تثوي في قلوب الرجال في هذا المكان النائي من العالم، وأية أفراح يمكن أن يفجرها الغناء؟ وهذا الحزن كله من أين يأتي ولماذا هو كثيف طاغٍ هكذا؟

مع كل صرخة كان الليل ينتفض، يتمدد بلا انتهاء ثم يتجمع لكي يصبح جمرة سوداء، ومع ارتفاع النغم أو انحداره، كانت القلوب تهتز حتى تكاد تنخلع، وكانت تسافر أسرع من البرق إلى أمكنة بعيدة وتعود. والرجال الذين أتقنوا الحزن حتى أدمنوه، كانوا يتقنون الصمت بنفس المقدار. كان النَفَس إذا تردد خشناً محزوناً يجرح الصمت، يلونه بذلك اللون الأغبر المغبّش فيبدو نابياً، وكان الذي يصدر عنه يدير عينيه في الآخرين مشفقاً معتذراً، قائلاً، دون كلمات، إن الألم وصل إلى درجة الحرقة، وأن الحزن طغى على كل شيء!

لو أن الرجال كانوا في غير هذا المكان، ولو كانوا أقل عدداً، أو لم يكن معهم هؤلاء الغرباء، لعرفوا كيف يعبرون عن هذا الحزن كله، عن هذه اللوعة كلها، لكن شيئاً ما كان يشدهم، يثقل عليهم ويمنعهم، فكانت عيونهم وحدها تجول في المدى الضيق من العيون المحيطة، تماماً كما يجول أو يدور أسير في زنزانة، أو كما يفعل حيوان مربوط. كانت عيونهم وحدها تتكلم، وفي لحظات معينة تصرخ صراخاً فاجعاً مدوياً. كانت حين تتقلص وتضيق، أو حين ترف رفيفاً مفاجئاً موصولاً تستنجد، تتلوع، تحس الألم كاوياً وتريد من الآخرين أن يقتربوا، أن يمدوا يداً أو حبلاً لكي

ينقذهم. وصويلح الذي يغني لنفسه، للآخرين، يزيد العذاب، يعمقه، يجعله كثيفاً، فيحس الرجال أنهم يغرقون أكثر من قبل، وأنهم الآن أكثر حزناً مما كانوا في بداية الليل!

والدباسي الذي استبدت به النشوة، وحملته إلى أماكن بعيدة، بدا مثل طفل ثقيل الحركة، مرتبك، وشديد الانفعال، يردد بعض المقاطع، يغني، يطلب من الآخرين الغناء والمشاركة! وفي إحدى اللحظات، وصويلح يستعد لصرخة تشق ليل حران، وكان الصمت مسيطراً، ارتفع صوت الدباسي قوياً متحشرجاً، فبدا أقرب ما يكون إلى صوت جمل هائج، فأثار موجة عالية من الضحك وصلت حد الصخب، وقد شارك هو نفسه الآخرين في هذا الصخب.

ومثلما كان صوت صويلح مفاجئاً غنياً كان صوت عبده محمد. إذ ما كاد صويلح يتوقف، وقد استبد به التعب، وبدأت قطرات العرق تتساقط بغزارة ويمسحها بكمه، أول الأمر، ثم براحتي يديه الإثنتين، حتى صرخ عبده محمد. صرخ بطريقته وبأنغام مختلفة فتغير الجو فجأة وأصبح أكثر مرحاً.

المغنون هم الذين سيطروا على الجو وانتزعوا الإعجاب تلك الليلة، لكن الأميركيين لم يقلّوا عنهم أبداً، فقد استبدت بهم الدهشة، دهشة الغناء ودهشة الناس الذين تحولوا فجأة إلى مخلوقات من نوع آخر. وإذا كانوا قد سألوا في بداية السهرة تلك الأسئلة الصغيرة التفصيلية عن الأشياء والأسماء، ودونوا ذلك كله في دفاتر كانوا يحملونها، فقد أخذوا بالجو والانفعال اللذين سيطرا على الناس، فأصبحت أسئلتهم قليلة متباعدة، ولم تتعد الاستفسار عن الموضوع الذي تدور حوله الأغنية، والمنطقة التي تغني هذا اللون من الغناء. كانوا كذلك عدا الفترة التي غنى فيها عبده محمد، فنتيجة المرح الذي غيّر الجو بعد صويلح، ولأن الناس، أخذوا يقهقهون بصوتٍ عالٍ، قدروا أن الرجل لا يقتصر على الغناء في أدائه، إذ يضمّن الأغاني بعض النكات أو التوريات أو أشياء أخرى مشابهة، لكنهم لم يفهموا إلا أقل الكلمات قال سنكلر لأحد رفاقه بصوت هامس:

ـ لا يمكن لأحد أن يفسر الحزن الذي يعيشه هؤلاء إلا إذا عرف الصحراء وعاش فيها. هذه الصحراء الملعونة لا تلد إلا مثل هؤلاء البشر ومثل تلك الحيوانات التي رأيناها ونحن آتون.

وحين هز ذلك الأميركي رأسه دلالة أنه فهم تابع سنكلر:

ـ والبكاء يخفف عنهم، لكنهم قساة، عنيدون، ولذلك يبكون في داخلهم، تنزل دموعهم إلى الداخل، وهذه الدموع الحزينة تطفو مرة أخرى على شكل صرخات وتوجع يسمونه غناء، وهم يفعلون ذلك في أعراسهم. . وهم يفرحون!

وبعد قليل أضاف بسخرية:

ـ هذا هو الغناء الوحيد الذي يتقنونه!

مط الأميركي الآخر شفته وقال وهو ينقّل نظراته في الوجوه التي حوله:

ـ ما أعجب هؤلاء الناس، ولشد ما يبدون غامضين، لا يعرف الإنسان هل هم فرحون أم حزانى. كل شيء فيهم مغلف، طبقات فوق طبقات، تماماً مثل الصحراء التي يعيشون فوقها!

أما حين صرخ صويلح بنغم جديد، وسرت همهمة بين الرجال مع حركة واضحة في الأجساد والوجوه، فقد وخز سنكلر زميله وقال بسرعة:

ـ انتبه. . انتبه، الآن يريدون أن يعبروا عن فرحهم!

وبعد أن استمعا قليلاً علق من جديد:

ـ إنهم مثل الحيوانات يدفع بعضهم بعضاً، ويتحركون بهذه الطريقة البدائية تعبيراً عن الفرح. . . فتصور!

واستمر الأميركيون مدهوشين مأخوذين. . ولم يتوقفوا عن التقاط الصور!

وحتى وقت متأخر ظل الناس في حران يتذكرون هذه الليلة، ليلة زواج الدباسي!

غافل السويد أمير حران منذ زمن لا يتذكره أحد، أمير وليس كالأمراء، لا يزعج أحداً ولا يحب لأحد أن يزعجه. قليلون هم الذين رأوه، وأقل منهم الذين عرفوه عن قرب. لا يحب السلطة ولا يحب حران، قدر ما يحب القصيد والبادية. يحفظ الكثير من الشعر، يتذوقه وبعض الأحيان يغنيه، ومن أجل قصيدة يذهب إلى أقصى مكان في البادية، ليرى قائلها أو يسمعها من الثقات. يذكر أحد المسنين في حران أنه حينما سُمّي غافل السويد أميراً لحران وما جاورها من البادية، ووصلها في ظهيرة يوم من أيام الصيف، أنه امتنع عن الكلام تماماً، حتى ظن الذين جاءوا للسلام عليه أنه أخرس. أما لما بدأ يتكلم، وقد حدث هذا بعد أيام، فلم يجد شيئاً يقوله «لهؤلاء المهابيل الذين يجلسون مقابل البحر صافنين ولا يفعلون شيئاً آخر!» إذ بعد أن سألهم أسئلة عديدة ولم يجد لديهم شيئاً مهماً، روى لهم بعضاً من القصيد الذي يحب، لكن أحداً لم يتجاوب، فترك خادمه الأسود، ميمون، ليحكم «هؤلاء العجّز المساكين ويتبالش معهم فإما أن يقتلهم أو أن يقتلوه..» وسافر عائداً من حيث أتى، وقد اصطحب معه عدداً من رجاله.

القصص التي تروى عنه قليلة ويناقض بعضها بعضاً. تقول إحدى القصص أنه يتوغل في البادية، وينتقل من مكان إلى آخر يسمع الشعر. وتؤكد أخرى أنه يبحث عن طير أبيض كبير خطف له امرأته الجميلة في الليلة السابقة لزواجه منها، خطفها في الليل، وكان القمر بدراً، وقد رآه غافل السويد بنفسه وهو يضعها تحت جناحه الأيسر! وتروى قصص غير هذه أن الأمير أحب امرأة وأرادها، لكن ابن عمها، عندما أحس برغبة

الأمير ومحاولاته، حملها في ليلة ظلماء ودخل الصحراء، ولم يسمع أحد بعد ذلك عنهما خبراً، وإن الأمير الآن في رحلاته الطويلة المجهولة داخل البادية لا يفعل شيئاً سوى البحث عن هذه المرأة!

هذه بعض القصص التي تروى، ومما يؤيدها ويجعل الناس ميالين إلى تصديقها أن الأمير، رغم تجاوزه الأربعين، لم يتزوج ولم يفكر في الزواج. وفي إحدى المرات، أثناء إحدى زياراته إلى حران، وفي محاولة من ابن نفاع أن يتبسط معه ويقيم صلة سأله ما إذا كان يفكر أو ينوي الزواج، ابتسم الأمير بسخرية حين سمع السؤال ولم يجب وظل وقتاً غير قصير يهز رأسه.

كانت العادة أنه إذا انقضى شهران أو ثلاثة جاء الأمير في زيارة إلى حران، ومن أطراف شفاهه يسأل ميمون ما إذا حصل شيء هام أثناء غيابه. هل وصلت قوافل أو جاء مسافرون. ويسأله عن أهل حران ألا يزالون مثلما تركهم مهابيل أم رجعت إليهم عقولهم، فإذا انتهى من سؤاله طلب القهوة والربابة معاً وبدأ القصيد. حين يروي يهز الرجال رؤوسهم، يبدون إعجابهم، وحين يسمع يستعيد، يطرب، يسافر بعيداً، ويروي الكثيرون أنه في ليالي القمر يكون شديد الحزن وقد يبكي بعض الأحيان.

إذا جاء أهل حران للسلام عليه لا يُسرّ برؤيتهم، ويظل أغلب الأحيان صامتاً، كان يعتبرهم خصومه، وإلا لما جاء إلى هذا المكان «الذي لا يصله حتى الطير». وأهل حران الذين لا يجدون شيئاً يقولونه للأمير، وليست لهم مطالب أو شكاوى، ما إن يشربوا القهوة ويبتسموا مرتين أو ثلاث مرات ويفركوا أيديهم حتى يستأذنوا، ويأذن لهم الأمير بسرعة، ودون تردد، وحالما تبتعد خطواتهم يطلب من جديد أن تبدأ الربابة، وبعض الأحيان يُجلس الذي يعزف عليها مقابله وقريباً منه لكي يكون الأداء رقيقاً وجميلاً.

ظل غافل السويد هكذا سنين عديدة. ولم يقض في حران من هذي السنين سوى بضعة شهور، ولو طالت الفترة أكثر من ذلك لسمى ميمون

أميراً بدلاً عنه ودخل الصحراء دون عودة؛ أما حين وصل الأميركيون فقد كان في سفرة من سفراته، ولما عاد ورأى الدنيا وقد تغيرت فوجئ تماماً، وارتبك بعض الوقت، أما بعد الزيارة التي قام بها اثنان من الأميركيين، وكان نعيم معهم يترجم لهم، فقد قرر في نفسه قراراً خطيراً: أن يسافر ولا يعود.

قال أمام عدد من رجال حران:

- كنا بمصيبة واحدة، هالحين وقعت علينا كل المصايب.

والتفت إلى ميمون وتابع وهو يضحك ساخراً:

- وكدتهم؟ شفت وجوههم؟ مثل الجرابيع أو مثل الخبز الفطير: مبقعين وعيونهم خرز، وإذا تحملوا الشتاء ما أظنهم يتحملون الصيف.

وبعد قليل، وفي جو من الصمت والحيرة قال يخاطب نفسه ويريد الآخرين أن يسمعوا:

- باكر... إذا شدّت عجاجهم يسابق ضراطهم!

وبعد بضعة أيام شُدّت على الرواحل الخيمة الكبيرة والخيام الأخرى التي ظلت منصوبة منذ فترة طويلة ورحل الأمير وجماعته، بمن فيهم ميمون، ولم يعرف ما إذا كانوا سيرجعون أم لا.. لكن ما إن مرت أسابيع حتى جاء أمير جديد، أما غافل السويّد فلم يسمع عنه أحد شيئاً بعد ذلك.

❁ ❁ ❁

بعد غافل السويّد جاء خالد المشاري وأصبح أميراً لحران. كان الأمير خالد متوسط العمر، قوي البنية، شديد السمرة، وربما أقرب إلى السواد. جاء بضجة كبيرة واحتفاء أكبر؛ إذ بعث بعدد من رجاله قبل وصوله، وقد أبلغ هؤلاء الرجال بكثير من الاهتمام أن الأمير خالد، أمير حران الجديد، سيصل بين يوم وآخر، وبطريقة مليئة بالقسوة والتهديد، أثناء الأحاديث التي جرت، ذكر الذين جاءوا أشياء كثيرة عن الأمير. ذكروا كيف أنه يقتل لأبسط الجرائم، وأنه لا يرحم أحداً، حتى لو كان أخاه، وأنه يأتي إلى حران لكي يجعلها ساكنة كمقبرة، بعد أن سمع الكثيرون عما يجري فيها

من تعديات وأخطاء وفوضى، وأكّدوا أنه إذا تُركت حران هكذا فسوف يقتل الناس بعضهم بعضاً.

حين ذُكر كل هذا دخل الخوف في نفوس الكثيرين، أما الذين لم يخافوا فقد شغلهم الترقب والانتظار، فحران التي عاشت سنين طويلة لم تعرف أميراً ولا تحتاج إلى أمير، والتي رأت غافل السويّد نصف النائم خلال الفترة القصيرة التي يقضيها في حران، لا تتصور أنها قادرة على احتمال أمير. ماذا يريد وماذا تصنع به؟ وهل ستتغير حياة حران إذا جاءها الأميركان وأعداد كبيرة من الغرباء، إضافة إلى ابن الراشد والدباسي، ولا يعرف من سيأتي غداً أيضاً؟ وما دامت حران تتغير فهل إذا جاءها أمير ستكون حالها أفضل أم ستزداد مشاكلها ومصائبها؟

الأميركان بعثوا بنعيم لكي يكون في استقبال الأمير، وربما تم هذا التدبير بالاتفاق مع ابن الراشد، إذ ما كاد يُعرف اليوم الذي سيصل فيه حتى تهيأ ابن الراشد ودحام فأخذا معهما عدداً من الرجال وبصحبة نعيم ذهبوا إلى طريق عجرة، ذهبوا منذ الصباح الباكر، وقبل غروب ذلك اليوم وصل الأمير.. ووصلوا معه إلى حران.

كان الأمير بشكله وتصرفاته وعدد الرجال الذين يرافقونه يختلف عن الأمير السابق، وأهل حران الذين وصل تحسبهم حدود الخوف، لأنهم وقعوا في خطأ لم يكن مقصوداً، بتخلفهم عن استقباله كما فعل ابن الراشد، أحسوا أن شراً جديداً لا بد أن يقع، لكن الدباسي قال في تلك الليلة كلمات خلقت نوعاً من الراحة في قلوب الرجال. قال: «الأمير أمير حران، ونحن أهل حران من يوم ما خلق الله الدنيا. والأمير يعرف أن كل واحد من اللي يركضون حوله هذه الساعة يقول: أنا تميمي، لكن باكر إذا استراح يعرف الناس، ولكل حادث حديث».

لم يكتف الدباسي بذلك، اتفق مع الرجال على أن يذهب عدد منهم في اليوم التالي للسلام على الأمير، وسوف يكون معهم، ولأنه لم يكن متأكداً ما إذا كان قد رأى الأمير أو سمع عنه، فقد تريث في أن يقول شيئاً

مؤكداً عن المستقبل، لكنه مع ذلك كان واثقاً أن هذه المعركة الصغيرة التي كسبها ابن الراشد لن تغير في النتائج... وسوف يعرف كيف يرد عليه.

حين ذهب أهل حران في اليوم التالي، كان ابن الراشد خارجاً لتوه من عند الأمير، وخلال اللحظات التي استغرقها الوقوف معه، وتبادل بعض كلمات المجاملة، بدا الرجل شديد الثقة وأقرب إلى الزهو، وكأنه صاحب حظوة عند الأمير، أو يريد أن يقول لأهل حران أنه سبقهم لزيارته، وأنه يعني شيئاً لديه. لم يشأ الدباسي أن يفوت الفرصة، قال وهو يضحك:

ـ هذه السروة ما هي للّه، يا أبو محمد، تراك بايت عند الأمير؟

وحين ضحك ابن الراشد وهز رأسه، لكي يترك الأمر غامضاً، أضاف الدباسي:

ـ خلي ببالك: سبوع الطفرة عقبة نفرة.

رد ابن الراشد:

ـ سلطان النهار أوله.. يا أبو صالح!

بدا الأمير بعيون أهل حران أقرب إلى النفور، إذ بعد كلمات مجاملة قليلة عن الرحلة والطريق، قال إنه جاء إلى حران لضبط النظام ومنع التعدي والسرقة، وسألهم، فجأة، ما إذا كانوا يعرفون الثلاثة الذين سرقوا الإبل، وما إذا كانت لهم شكاوى أو مطالب.

كان يمكن أن يأخذ الحديث هذا المجرى وحده، وأن تبقى العلاقات أقرب إلى البرود، لكن حين رأى الدباسي من بعيد أحد رجال الأمير حاملاً صقراً ويداعبه، قدّر أن الأمير من هواة الصيد؛ وبطريقة مليئة بالمكر التفت إلى أحد المسنين من أهل حران وسأله عن طيور الحباري هل تصل إلى أماكن قريبة ومتى، وفجأة، وعلى غير توقع، ظهرت على الأمير علامات الاهتمام! وإذا كان رجال حران قد ذكروا بعض الأماكن، فإن المعلومات التي خزنها الدباسي في ذاكرته طوال السنين السابقة حول الصيد: أماكنه ومواسمه، وكيف أنه رأى في مصر طيوراً لا تقدّر بعدد، وإنها كانت تملأ السماء كأنها الغيوم السوداء، وكيف أنه في إحدى سفراته إلى غزة كان

يجمع الطيور قريباً من الشاطئ، ثم تحدث عن القطا والغزلان والحباري. كانت المعلومات التي قدمها تثير الإعجاب والدهشة.

يتذكر أهل حران أن الدباسي كان شيطاناً في ثياب بشر، لأن الأمير منذ اللحظة التي بدأ يتحدث الدباسي فيها عن الصيد، تغير تماماً، أصبح مثل الطفل الصغير وهو يستمع بدهشة إلى الأحاديث التي تروى. فبعد الجفاء والقسوة اللذين ميزا نظراته وكلماته خلال الفترة الأولى رقّ وطلب من الدباسي أن يقترب منه، وفي إحدى اللحظات سأله الدباسي ما إذا كانا قد التقيا من قبل وأين. وفي محاولة لأن يعفي نفسه من مشقة التذكر حول لقاء مثل هذا أكد له أن أسفاره الكثيرة، والوجوه التي التقى بها في هذه الأسفار تجعله غير قادر على أن يتذكر بوضوح، لكنه مع ذلك، «أي وجه أراه لا يمكن أن أنساه أبداً.. غير أنني لا أستطيع أن أتذكر متى وأين!» والأمير الذي سرّ من ملاحظة الدباسي، التفت إليه وتمعن في وجهه جيداً، لعله يتذكر ويساعد في تحديد الزمان والمكان، لكن أياً منهما لم يواصل هذه اللعبة، لأنهما لم يستطيعا ذلك.

بعد هذا تحدث أهل حران كيف أنهم غادروا منازلهم وأقاموا بيوتاً بدلاً عنها في الجهة الغربية، من أجل مساعدة الشركة وبناءً لأوامر الحكومة. وكيف أنهم يخافون المستقبل، خاصة بعدما جاءت تلك البلية وعليها النساء العاريات، وأن الشباب، منذ ذلك اليوم، أصبحوا شرسين حاذي الطبع. والأمير الذي ابتسم أكثر من مرة، واستفسر بدقة عن تلك السفينة التي وصلت إلى حران، وعن عدد النساء وماذا فعلن وكم بقين أكد أن شيئاً مثل هذا لن يتكرر، وأن المحافظة على الدين والأخلاق مهمته الأساسية، ولن يتردد في اتخاذ الإجراءات الضرورية.

ومرة أخرى تسلم الدباسي الحديث، فطلب من الأمير «أن يشمل بعطفه أهل حران، وأن ليس لهم أحد إلا الله وهو» وأشار إلى أن بعض الغرباء الذين جاءوا في الأيام الأخيرة يهددونهم من أجل إجبارهم على بيع أراضيهم. وأن هؤلاء الغرباء استأثروا بكل شيء ولم يحصل أهل حران على شيء، لم يذكر ابن الراشد بكلمة واحدة، ولم يشر إليه بالإسم، لكن

كلامه فُهم من أهل حران تماماً. والأمير الذي أكد مجدداً أنه جاء للمحافظة على الدين والأخلاق أضاف: «الحق حق، وابن الديرة أولى من الغريب»، وقبل أن تنتهي تلك الجلسة طلب الدباسي باسم أهل حران أن يحدد لهم الأمير يوماً لكي يعبروا عن سرورهم بدعوته. والأمير الذي ضحك ولم يحدد يوماً ولم يعط وعداً، قال للدباسي ولاثنين من المسنين اللذين كاناإلى جانبه، وهو يقف في وسط الخيمة الكبيرة ليودعهم:

ـ إذا دخل الشتاء وربّعت نروح للحباري.. وللأماكن اللي ذكرتم.

تبادل الأمير والأميركيون الزيارات خلال الأسابيع الأولى.

أثناء زيارة الأمير إلى حران الأميركان، والتي تمت في طقوس من الأبهة والاهتمام، جرت مسابقة للرماية بين ثلاثة من الأميركيين بحضوره. وقد أبدى إعجابه الكبير بكل ما رأى، وعبّر عن ذلك بكلمات لم يستطع نعيم أن يترجمها بدقة، لأنه لم يفهمها تماماً. أما بعد انتهاء المسابقة فقد طلب أن يطلع على بنادق الصيد، فعرضت أمامه، وفي جو من المرح والألفة طلب منه ابن الراشد أن يجرب واحدة منها. أبدى تردداً، أول الأمر، أما حين وضع دحام إحدى خراطيش الصيد الفارغة نيشاناً، على بعد عشرة أو خمسة عشر متراً، فقد أبعد الأمير بنادق الصيد وطلب من مرافقه مبرد الحويزي أن يناوله بندقيته الموزر. وبكثير من البراعة والدقة أصاب الخرطوشة، فارتفعت صيحات الإعجاب مع التصفيق، ودون أن يأبه انتزع الطلقة الفارغة من بندقيته وناولها لمبرد طالباً منه أن يضعها نيشاناً مكان الأولى، وبنفس البراعة والدقة، مع شيء من التمهل، إذ رفع رأسه أكثر من مرة ليتأكد من مكانها، صوّب وأطلق.. فأصابها، وهنا لم يكتف الأميركيون وغيرهم من الموجودين بالتصفيق أو بترديد صيحات الإعجاب، فقد صفّر عدد منهم، وتقدم إثنان وربتا على كتف الأمير! وبعد ذلك، وفي جو من المرح والإعجاب، دُعي الأمير إلى نادي الأميركيين لتناول الطعام.

إنها المرة الأولى التي يدخل العرب إلى هذا المكان، لم يدخل إلا عدد منهم، فقد أبلغ دحام العمال «أن يظلوا بعيدين ومؤدبين لوجود الأمير والغرباء... وإن الغداء سيصلهم إلى عندهم». اقتصرت الدعوة على

الأمير ومرافقيه ومعهم ابن الراشد ودحام وصالح الدباسي، أما الآخرون فقد هيئت لهم علب وضعت فيها أنواع من الأطعمة لم يستطع أي من العمال أن يعرف ما هي أو أن يعطيها إسماً محدداً، وقد أبدى الأمير إعجابه الكبير بكل ما رآه وما قدّم إليه. وحين تحدث عن اتساع المطعم وحسن ترتيبه ونظافته، قال له ابن الراشد أن العمال الذين شاركوا في بنائه استغربوا هذه السعة ولم يعرفوا لأي أمر سوف يستعمل، حتى هو نفسه، رغم أنه اقترب منه عدة مرات لم يظن أنه بهذه السعة وبهذا الجمال! أما بعد انتهاء الغداء فقد جرت جولة الأمير ومرافقيه في الأماكن القريبة: برك السباحة، نادي الاستراحة، المكاتب، ورغب الأمير أن يرى أحد البيوت السكنية، فأجيب لطلبه. وفي كل هذه الأماكن كان شديد الإعجاب إلى درجة الانفعال، وقد عبّر عن ذلك بطريقته، الأمر الذي اضطر نعيم عدة مرات للاستفسار من ابن الراشد عن كلمات معينة أو تعابير معينة.

أما حين عرض على الأمير أن يقوم بجولة بحرية فقد أبدى تردداً ظاهراً، قال إنه لم يركب البحر من قبل، وإنه يخاف الماء كثيراً، ولا يعرف السباحة، وحين أكد له الأميركيون أن الأمر في غاية البساطة والأمن لأن «المراكب التي يستعملونها مصممة بعناية كبيرة، ويمكن أن تبحر إلى أقصى مكان في العالم دون أن يُخشى وقوع حادث من أي نوع، يضاف إلى ذلك أن كل مركب من هذه المراكب مزود بزوارق للنجاة وبوسائل أخرى» بعد أن قام نعيم بترجمة عبارات رئيس المعسكر، ولكي لا يظهر الأمير بمظهر الخائف أو الجبان وافق، شرط أن «تكون الجولة قصيرة، وأن لا نبتعد عن الشاطئ» وقد وافق الأميركيون على هذه الشروط.

إنها المرة الأولى التي يركب فيها هؤلاء الرجال البحر. كانت قلوبهم تضرب بعنف، وقد اصفر وجه ابن الراشد، وود الأمير في أعماقه لو أنه لا يتعرض لهذه التجربة. وتردد دحام في الصعود إلى ظهر المركب، لكن ابن الراشد جره بشدة وهو يضحك، وقال له بعصبية: «إذا متنا، يا ابن مزعل، فأنت مثلنا» أما حين جلسوا على تلك المقاعد الواسعة والمريحة فقد ظلوا صامتين، ولم ينظروا حولهم، حتى الابتسامات القليلة التي تبادلوها كانت

شاحبة وتبعث في القلوب الخوف أكثر مما تولد الثقة. وحين دوى صوت الموتور وأقلع المركب بقوة سمع الجميع ابن الراشد وهو يقول «بسم الله والحمد لله، قل لا يصيبكم إلا ما كتب الله لكم» ورغم أن الأميركيين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر، دون أن تظهر على أي واحد منهم مظاهر الخوف أو التهيب، فقد ظل الآخرون مضطرين لأن يبقوا مسمرين في أماكنهم، وكأنهم جزء من المقاعد! حتى الحركات الصغيرة، كانوا يقومون بها بكثير من الاقتصاد والحذر؛ ولما التفت الأمير إلى الشاطئ ورآه يبتعد سأل بصوت خافت: «ما قولك يا ابن الراشد لو نرجع ونموت بديرتنا.. ما هو أخير؟» هز ابن الراشد رأسه دون كلمة، أما حين دار المركب متجاوزاً الخليج إلى عرض البحر فقد أصبح الأمر أكثر من أن يحتمله الرجال، قال الأمير، مخاطباً نعيم، بحزم:

- قل لجماعتك.. هذا الكثر يكفينا، والاخيَرَ أن نرجع.

لما أبلغ الأميركيين بطلب الأمير أبدوا استغرابهم، وظنوا أن في الأمر خطأ من نوع ما، وحين استفسر نعيم مرة ثانية أكد الأمير بحزم على ضرورة العودة، فعاد المركب.

وبنفس الأبهة والاهتمام اللذين استقبل بهما الأمير جرى وداعه أيضاً قبل الغروب.

ظل موضوع الزيارة مجالاً للأحاديث والتعليقات في حران كلها فترة من الزمن. ومع مرور الوقت، ومن خلال تناقل الأخبار والتعليقات جرت تحريفات كبيرة. فقد أكد بعض العمال أن الأمير أصاب في النيشان إبرة صغيرة وضعت على مسافة بعيدة، لا تكاد تُرى، في الوقت الذي عجز الأميركيون عن إصابة زجاجة كبيرة! أما في المطعم وحول بركة السباحة، فقد كان هناك عدد من النساء العاريات وقد تطلع الأمير نحوهن أكثر من مرة وابتسم! أما الرحلة البحرية فقد تخللها الكثير من المخاطر، ولولا شجاعة الأمير بالذات لما تمت الأمور بسلام.

هكذا تحدث الكثيرون، وهكذا نقلت بعض الوقائع، أما حين وصلت

إلى الأمير في اليوم التالي لزيارته بندقية صيد، وقد قام بنقلها نعيم وابن الراشد، فقد تشاءم الدباسي وقال أمام الكثيرين:

ـ تالي اللعب أخير من أوله، وابن الراشد يأتيه الخبر.



لما بدأ الأمير يعدّ من أجل دعوة الأميركيين طلب من ابن الراشد والدباسي أن يعاوناه، طلب من كل منهما أولاً على انفراد، ثم اجتمع بهما معاً. وإذا كان الرجلان قد أبديا استعداداً كبيراً، فقد كانا يتباريان حين اجتمعا معاً، وخلال فترة قصيرة تمت الاستعدادات، وقد ارتأى الجميع أن تكون الدعوة عند الغروب ثم يعقبها العشاء.

اختار الأمير يوم الخميس، وقد بذل ورجاله جهداً غير عادي من أجل أن يكون الاحتفال كبيراً والدعوة حدثاً مهما؛ أما ابن الراشد والدباسي فقد عاونا في التحضير بتفانٍ يفوق الوصف، واستبقى كل منهما شيئاً حتى اللحظة الأخيرة.

جاء الأميركيون كلهم، عدا ثلاثة، قال رئيس المعسكر إنه لا يستطيع أن يأتي بهم لوجود أمور تقتضي بقاءهم هناك. وكان لوصولهم بعد عصر الخميس إلى حران العرب ـ وكان بعضهم يصل إلى هذا المكان لأول مرة ـ رهجة كبيرة، إذ رغم توقع وصولهم قبل الغروب، وكان الجميع بانتظارهم، إلا أن حالة من الصمت القاسي الأقرب إلى الرهبة خيمت على أهل حران وهم يرونهم يتقدمون جماعات جماعات. كانوا يمشون بفوضى، ويشيرون بأيديهم، وحين اقتربوا بدأت تسمع أصواتهم. وعيون أهل حران، وعيون العمال، تتابع كل خطوة، ترقب الضيوف. حتى النسوة خرجن عن المألوف وأردن رؤية هؤلاء الذين يتحدث عنهم الرجال بهذا المقدار... وكل يوم، أن يعرفن أي نوع من الرجال هم. أما الصبية والأطفال فقد انتظروا في أمكنة أقرب، ثم ساروا مع الأميركيين، لكن على مسافة منهم، وذهبت محاولات أولئك الذين يتكلمون العربية عبثاً، لأنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا في أي حوار مع الصبية، ولم يستطيعوا إغراءهم بالاقتراب.

لما اقترب الأميركيون كثيراً من الخيمة الكبيرة التي نصبت للأمير، وكانت في مكان وسط تقريباً بين أهل حران والسوق، خرج إليهم. تقدم بضع خطوات وحوله رجال كثيرون. وحين تقدموا أكثر، ولم تبق بينه وبينهم إلا خطوات تقدم مرحباً وصافح كل واحد منهم. ونعيم الذي قام بالتعريف والترجمة في بداية الأمر، تعذر عليه الاستمرار في ذلك، نتيجة الهرج ثم التداخل، وبعض الكلمات التي كان يسمعها، ربما لأول مرة، ولم يستطع أن يقدر معناها بدقة.

بعد أن أديرت فناجين القهوة وتبادل الأمير الحديث مع رئيس المعسكر، وتحدث مباشرة إلى بعض الذين يتكلمون العربية من الأميركان، قال إنه حضّر لهم عرضاً لسباق الهجن، وطلب من الجميع الانتقال إلى الفسحة وراء الخيام، وهناك كان ابن الراشد قد حضّر، بالاتفاق مع رجال الأمير، أطيب الجمال، وزيّنها، وكان ينتقل بخفة وحماسة بين المضارب والساحة حتى إذا اطمأن غمز للأمير.. فدعا الضيوف.

كانت مفاجأة كبيرة للأميركيين. كانوا يتصورون أن الجمال خُلقت للأحمال فقط، وأنها إذا ركضت تركض ببطء، ولمسافات قصيرة؛ أما حين رأوا ركضها السريع، وهي تتسابق، فقد تملكهم العجب، فأخذوا يصوّرون ويصفقون ويتطلع بعضهم في وجوه بعض. ولما انتهى السباق أصرّ الكثيرون على أن يقتربوا من الجمال، أن يتصوروا معها. وقد أبدى اثنان رغبة في الركوب عليها. جرى ذلك في جو من الانفعال والحماسة، وقد لبيت مطالبهم جميعاً.

المفاجأة الثانية حضرها الدباسي، وقد حضرها بدهاء وتكتم، وبالاتفاق مع صخر الذي كان يرعى صقور الأمير.

إذ ما كاد ينتهي سباق الهجن، وقد حاول صخر كل جهده من أجل إنهائه، مبكراً، بالاتفاق مع بعض الرجال الذين شاركوا في السباق، حتى تقدم الدباسي وأسرّ في أذن الأمير شيئاً أدى إلى تغيير الجو بسرعة، انفعل الأمير، وقد فاجأه الأمر تماماً، وقال لنعيم أن يطلب من الأميركيين الهدوء

التام، لأن ما سيرونه الآن سيدهشهم، وأكد على الهدوء مرة أخرى. وبخفة ساحر تقدم صخر واثنان من الرجال وعرضوا الصقور في جو من الجلال، حتى ظن الكثيرون أن الأمر سيقتصر على ذلك، لكن حين طُيّرت حمامات، لا يعرف من أين أتى بها الدباسي، وأطلقت وراءها الصقور وجرت تلك المعركة في الجو، استبدت الدهشة الممزوجة بالخوف بالجميع، حتى ابن الراشد، الذي لم يكن يتوقع مفاجأة مثل هذه، ولما عرف أن الدباسي وراءها، شعر أنه خسر أمام هذا الخصم الذي لا يعرف كيف انشقت الأرض وأخرجته! وبنفس القدر الذي دهش ابن الراشد دهش الأميركيون، فصوروا صخراً عشرات الصور، واقتربوا كثيراً من الصقور، ومدّ أحد الأميركيين يده إلى ظهر واحد منها، وكادت تقع أكثر من حادثة، لولا أن صخراً والرجال الذين معه أخذوا الصقور بعيداً وبذلوا جهداً من أجل تهدئتها.

وكانت مفاجأة الأمير خالد المشاري للأميركيين أثناء تقديم العشاء: رأس جمل، وضعه أمام رئيس المعسكر، في منتصف المناسف، ثم رؤوس الخراف، وقد ذبح عدداً منها مساوياً لعدد الضيوف، ولأن ثلاثة لم يحضروا فقد وضعت رؤوس الخراف التي ذبحت لهم أمام الآخرين!

بعد العشاء أعد الأمير للضيوف «رقصة السيف»، وقد قام بها رجاله بشكل جميل للغاية، حتى أن الأمير ذاته، في لحظة انفعال، قام وشارك، وكان لمشاركته تأثير قوي غيّر الجو، الأمر الذي دفع عدداً من الأميركيين إلى طلب المشاركة، وإذا كان رجال الأمير قد استجابوا لهذه الرغبة، وقدموا الكثير من المساعدة، إلا أن الأميركيين أفسدوا كل شيء، إذ كان التقاط الصور بالنسبة لهم أهم من أي أمر آخر، وكانت حركاتهم وتغليقاتهم بدل أن تحفّز وتقوّي الرقص تضعفه وتؤخره، حتى إذا انتهت تلك الرقصة اتضح أن السهرة ذاتها قد انتهت. وابن الراشد الذي اقترح على الأمير، في محاولة لأن يرد على الدباسي ويخلق جواً جديداً، اقترح عليه أن يغني بعض الرجال، كما حصل في عرس الدباسي، إلا أن غضب الأمير وتلك الكلمات التي قالها جعلت كل شيء يطوى. قال الأمير بحدة:

«بعدما صرنا قرباط يا ابن الراشد!» وحين حاول ابن الراشد أن يوضح أو أن يبرر أضاف بنفس اللهجة الغاضبة:

- إذا غنينا اليوم باكر يريدونا نرقص لهم مثل السعادين، وهذه ما هي شغلتنا يا ابن الراشد.

وبعد أن دارت فناجين القهوة عدة مرات، وتحدث الأميركيون الذين يعرفون العربية مع أكثر الناس، وسألوا عن أشياء كثيرة، قال رئيس المعسكر أن أمامهم مشواراً طويلاً لكي يصلوا إلى المعسكر، ولذلك يجب أن يتحركوا. وبكثير من الهرج والتحيات المبالغ بها والابتسامات خرج الجميع لوداعهم، وبعد أن غادروا ورافقهم عدد من رجال الأمير، ظلت أصواتهم تسمع، حتى بعد أن ابتعدوا.

وحتى وقت متأخر ظل الناس يتذكرون هذه الليلة في حران.

لم تعد زيارات الأميركيين الذي يتكلمون العربية تقتصر على ابن الراشد، بدأوا يزورون أيضاً الدباسي وابن سرور والسلامي وآخرين، وفي كل مرة يأتون للزيارة يصطحبون معهم آخرين لم يأتوا من قبل، ويتولى القدامى إدارة الحديث وشرح أمور كثيرة لهؤلاء الذين يرافقونهم، ثم يتولون الترجمة بعد ذلك.

هذه الزيارات التي كانت تمتد وتطول في الغالب، وتتخللها أشياء كثيرة وطريفة، تتحدث عنها حران فترة طويلة، ثم يتذكرها الناس بعد ذلك. كانت هذه الزيارات، في بداية الأمر، تحدث بشكل عفوي، إذ ما يكاد يصل هؤلاء الأميركيون بيوت حران، أو بالقرب من المعسكر، ويراهم سكان حران أو العمال حتى يدعو إلى فنجان قهوة أو كأس من الشاي، فيلبوا الدعوة، وخلال الساعة التي يقضونها في مثل هذه الزيارة تجري الأحاديث على رسلها. كان يشترك فيها الجميع، حتى الصبية الذين لا يتكلمون عادة بوجود الكبار، لم يكونوا ليترددوا طويلاً، كانوا يندفعون إلى المشاركة في الحديث، خاصة للإجابة عن الأسئلة. والأميركيون الذين يستمعون وينظرون في وجوه الناس، وينظرون إلى كل ما حولهم، لا يترددون بعض الأحيان من لمس الأشياء، سواء أكانت منسوجات أم جلوداً، ووقفوا مرة ساعة أو تزيد لمراقبة أحد المسنين وهو يدبغ جلداً، وقد أخذوا له صوراً كثيرة. ووقفوا مرة أخرى لمراقبة حذو الحمير وصوروا فلماً كاملاً، وصوروا ضمنه واحداً منهم وهو يرفع رجل الحمار وآخر وهو يحذوه أو يتظاهر بذلك!

هكذا كانت تتم الزيارات في البداية، وكان يرافقها الكثير من الهرج،

حيث يتراكض الأطفال والصبية، ويتجمع عدد كبير من الناس.

في وقت لاحق أصبح الأميركيون يأتون مباشرة من معسكرهم إلى بعض بيوت حران، إلى بيت ابن الراشد أو الدباسي، أو إلى بيوت أخرى. كانوا يأتون ومعهم بعض الكتب، إضافة إلى كميات كبيرة من الورق. كانت الأوراق، أغلب الأحيان، ملونة ومقواة ومتفاوتة المساحة، منها الصغير الصغير، ومنها الكبير ومنها المتوسط، وكانت هذه الأوراق تستهوي الكبار والصغار، فلا يتردد الكبار في لمسها وتقليبها، ويحاول الصغار محاولات لا تنتهي للحصول على عدد منها. وإذا كان الأميركيون قد أعطوا الصغار أوراقاً في بعض الحالات، فقد طلبوا إليهم أن يأخذوها ويذهبوا، وما يكاد يذهب الصغار ويهدأ الجو حتى يفتحوا الكتب التي يحملونها، يقلبون صفحاتها ثم يبدأون الأسئلة.

أهل حران الذين عجبوا أشد العجب لأن في هذه الكتب أشياء كثيرة يعرفونها، من أسماء الأمكنة والعشائر، إضافة إلى مواعيد الأمطار والرياح وهجرة الطيور، شعروا لأنفسهم بأهمية لا توصف حين بدأ الأميركيون يكتبون ما يسمعونه منهم. كانوا يستوقفون الرجال عند بعض الأسماء، يطلبون إليهم أن يكرروها أكثر من مرة، حتى إذا أعادوها بعدهم كتبوا ذلك على تلك الأوراق الملونة.

كانت الكتب التي يحملها الأميركيون تثير الدهشة والخوف معاً. كتب من كل لون، من كل حجم. كان بعضهم يحمل عدة كتب، وكان بعضهم يحمل كتاباً أو اثنين. وأهل حران الذي أدهشتهم هذه الكتب وأخافتهم، راقبوا بعناية ما إذا كان الأميركيون حملوا الكتب ذاتها في المرات اللاحقة أم استبدلوا بها غيرها، فلما وجدوا أن بعض هذه الكتب ذهب وعاد مرات عديدة، وأن بعضها لم يأت مرة أخرى، قال بعض المسنين: «هذه كتب سحر، ولكل إنسان نوع من الجن يختلف عن الباقين، والأميركان يجربون كتاباً بعد كتاب، فإذا تمكنوا قضوا على حران وأهلها!» وفي بعض المرات تجرأ الرجال والتقطوا بعض هذه الكتب، قلّبوها لكن لم يفهموا شيئاً أبداً. قال ابن نفاع ذات مرة، بعد أن اشتدت الحمى على ابنه الصغير، وقد

حصل هذا في اليوم التالي لزيارة الأميركيين لبيت السلامي، وكان جاراً له: «إن الجن دخل بيته» وقد تأكد من ذلك، إذ وجد ورقة صفراء مقواة تحت مخدة الصغير، ولم يشف الولد من الحمى إلا بعد أن أحرقت هذه الورقة!

وقال آخرون أن عبده محمد تعلم السحر من الأميركيين، وفي خلواته الطويلة يمارس السحر، وهذا ما دعا عدداً من أهل حران لأن يتحولوا إلى فرن عبد الله الأبيض، وربما هم الذين دفعوا الدباسي لأن يفتح لهم فرناً جديداً «لأن الخبز المسحور لا يمكن أن يشفى منه الإنسان إلى أن يموت».

الرجال الذين سألوا الأميركيين عن هذه الكتب، لماذا يحملونها معهم دائماً وأية أشياء مكتوبة فيها، تلقوا إجابات مختلفة وغير واضحة، الأمر الذي زاد لديهم الشكوك والمخاوف. كان كل واحد من الأميركيين يجيب إجابة مختلفة عن الآخر، وكان كل واحد يقول شيئاً يختلف عن المرة السابقة.

قال الأميركيون: «كتب تاريخ» لكن تبين أن في كل مرة يقولون «تاريخ» كانوا يحملون كتباً تختلف عن المرة السابقة. كان بعض هذه الكتب الأسود كأنه الليل، وفيها الأحمر القاني، وفيها الأزرق والأخضر، وكلها مغلفة بجلود قوية تشبه جلود الحجب التي كتبها قبل سنوات الشيخ سالم العتيبي حين زار حران وبقي فيها شهرين، وقد صنع خلال إقامته لأكثر أولاد حران نوعاً من الحجب لمقاومة الدود والهرار والخوف، وغلفها كلها بالجلد. هذه الكتب تشبه تلك الحجب، ولا بد أن يكون هؤلاء الأميركيون قد حملوها من سحرة كفار، ولا بد أن يصيب شرها الجميع في يوم من الأيام.

وفي أوقات أخرى، حين سئلوا عن أسماء الكتب التي يحملونها وعما فيها، ذكروا أشياء غير «التاريخ» قالوا: «الجغرافيا» ثم عادوا وذكروا أنها تبحث في تكوين الصحارى والرياح وطرق القوافل. ثم في وقت لاحق قالوا إن هذه الكتب تبحث في الآثار؛ وسألوا باهتمام عن بعض المواقع، وما إذا كان أحد من أهل حران قد زارها ويمكن أن يدلهم عليها.

هذه الكتب وهذه الأسئلة بمقدار ما تثير الاستغراب والتعجب تثير المخاوف أيضاً. ماذا يريد هؤلاء العفاريت ولأي غرض جاءوا؟ وإذا كانوا قد قالوا إنهم جاءوا من أجل مساعدة الناس وتأمين المياه، وأن الذهب تحت هذه الرمال، وسوف يقومون بإخراجه لكي يوزعوه على الناس، فما علاقة هذا كله بالكتب التي يحملونها؟ ما علاقته بالأسئلة التي يسألونها؟ وهل الذهب في حران وحدها أم يوجد في الأمكنة الأخرى أيضاً؟ وفي تلك الأماكن، إذا كان الذهب موجوداً وذهبوا لإخراجه، فما عسى أن يدفع هؤلاء للبحث عن إدلاء والذهاب إلى هناك؟

أسئلة كثيرة من هذا النوع بدأت تتردد بين الناس، وكانت ترافقها أسئلة أخرى يطرحها الذين لم يلتقوا مباشرة بالأميركيين، بل وأخذ أهل حران يسألون الآخرين الذين جاءوا من عجرة، من روضة المشتى، أو من الأماكن، الأخرى ما إذا كان الأميركيون قد وصلوا إلى هناك وأية كتب يحملون وهل هي كتب سحر أو كتب كفر؟

ذات يوم جاء مع الذين تعودوا المجيء أميركي بلحية حمراء كبيرة كأنها محناة، وكان يغلب على هذه اللحية اللمعان والكثافة، بحيث أن أهل حران لم يروا لحية مثلها. كان يحمل كتاباً كبيراً، وما كاد يجلس في مضافة ابن الراشد، وكان ابن نفاع موجوداً، وبعد مجموعة من الأسئلة حول الرياح والرمال والمسافات، بدأ هذا الرجل يطرح أسئلة غريبة، سأل ما إذا كان أهل حران يمارسون أنواعاً من السحر، وهل لديهم معتقدات أخرى غير الإسلام، وهل سمعوا عن جماعات في أماكن قريبة يعبدون الشجر والرياح والشمس أو غير ذلك.. فوجئ الرجال بهذه الأسئلة ونظر بعضهم في وجوه بعض. فتح الرجل كتابه الكبير وبدأ يشير إلى بعض الصور. تقدم بعض الرجال وأمعنوا النظر فوجدوا أشكالاً غريبة، رأوا صور أصنام وحيوانات لم يروا مثلها من قبل ففزعوا، ارتدت أيديهم عن الكتاب وصمتوا.

ومن جديد بدأ الرجل يسأل واحد الأميركيين يترجم. فلما وجدهم صامتين قال المترجم أن «زميله يبحث في معتقدات الشعوب وتطور الأديان» ويريد أن يعرف أية معتقدات سائدة.

خرج ابن نفاع منفعلاً غاضباً وهو يصرخ:

ـ الآن تأكدنا أنهم كفار، كلهم كفار، وكافر كل من يجلس معهم.

أثناء زيارة أهل حران للأمير كان ابن نفاع هائجاً شديد الغضب. قال إن الأميركان جاءوا ليحولوا الناس عن دين الإسلام، وإنهم يمارسون السحر، فإذا تركوا فلا بد أن يخربوا حران، ولا بد أن تقع مصائب كثيرة. والأمير الذي استمع باهتمام لما قاله ابن نفاع وغيره، هز رأسه عدة مرات، لكن لم تفهم هذه الهزات على وجه محدد، ولم يتكلم إلا كلمات عامة غامضة! وحين استأذن أهل حران أذن لهم الأمير واستبقى الدباسي، ولا يعرف ما دار بين الاثنين، لكن الأميركيين بعد ذلك تغيروا، أصبحت زياراتهم لحران العرب أقل، ولم يعودوا لحمل الكتب، وإن ظلوا يحملون معهم الأوراق الملونة ويكتبون ما يسمعون، أما الأسئلة التي يوجهونها إلى الناس فقد أصبحت أكثر بعداً عن الدين والسحر. وفي وقت لاحق كفوا عن الكتابة، بدأوا يحملون معهم صناديق سوداء، وحالما يبدأون الحديث يضغطون على هذه الصناديق، وقد قال ابن نفاع، لما وصله خبر هذه الصناديق «إن العفاريت داخلها ولا بد أن تخرج منها وتستقر في البيوت على شكل قطط أو حيات وربما بأشكال أخرى» وطلب من الناس أن لا يدخلوا هذه الصناديق إلى بيوتهم، فإذا لم يستطيعوا منع ذلك عليهم أن لا يتكلموا أمامها، لأن العفاريت بمجرد أن تسمع الأصوات تتابع أصحابها حتى لو وصلوا إلى أبعد مكان، ويمكن أن تتبعهم حتى لو عبروا البحر إلى مصر».

وإذا كانت زيارات الأميركيين إلى حران العرب قد قلّت في هذه الفترة فقد بدأت زيارات ابن الراشد وصالح الدباسي والسلامي وغيرهم تزداد إلى معسكر الأميركيين، وقال بعض العمال أنهم شاهدوا ابن الزيان ذات ليلة عائداً من معسكر الأميركيين!

الخيام السبع التي نصبها ابن الراشد في الأيام الأولى، وسكن فيها العمال طيلة ستة شهور، ظلت في مكانها، بعد أن أصبحت محطة لاستقبال العمال الجدد. أما العمال الذين كانوا فيها فقد بنيت لهم قرب معسكر الأميركيين، وراء الأسلاك الشائكة، المدينة الجديدة، بعد أن زاد عددهم وحتمت طبيعة العمل أن يكونوا في مكان أقرب إلى المعسكر، خاصة أثناء تعميق البحر وبناء الميناء.

المدينة الجديدة، الواقعة بين حران العرب وحران الأميركان، قريباً من التلال وفي مواجهة البحر، بدأت بثلاثة بركسات كبيرة بنيت على عجل من الخشب والصفيح، أما الأرض فقد فرشت بالإسمنت، وأكد دحام ونعيم وهما يشرفان على انتقال العمال وتوزيعهم على البركسات «إنها مؤقتة، وبعد فترة سوف تبنى للعرب بيوت مثل بيوت الأميركان».

انتقل العمال إلى البركسات بعواطف متباينة أشد التباين، إذ نتيجة خصومات عديدة وقعت بسبب الخلاف على جلب الماء من الآبار، أو تنظيف الأرض تحت الخيام، إضافة إلى الضجة التي كان يحدثها لاعبو الورق، والتي كانت تمنع الكثيرين من النوم، لقرب الخيام بعضها من بعض، فقد رأى بعض العمال «إن البركسات مكان نظيف والماء على بعد خطوتين والبركس غير الخيمة». أما آخرون فقد رأوا أن مجرد الانتقال من الخيمة، من هذا القبر، وبعدها لو عاش الإنسان في الفلاة، تحت السماء، يمكن أن ينقذهم من حالة الضيق التي بدأت تسيطر عليهم وتجعلهم متوتري الأعصاب سريعي الغضب. كانوا بحاجة إلى تغيير، ولا يهم بعد ذلك إلى أين. ورأى غيرهم أن المكان الذي اختاره الأميركيون وبنوا فيه

البركسات هو أسوأ الأمكنة تماماً، «لأن الإنسان لا يعرف هل هو في الجنة أو في النار، هل هو مع جماعته وبين أهله أم مقطوع في الفلاة». إذ رغم الضيق الذي يعاني منه الجميع فإن العودة كل غروب إلى حران العرب، والمرور بين البيوت والدكاكين، والحديث مع الناس، ورؤية الأطفال والكلاب والحمير والجمال، من شأن ذلك التخفيف من العذاب والصمت اللذين يسيطران طيلة ثماني ساعات في معسكر العفاريت. ليس هذا كل شيء «إن رؤية عبده محمد وهو يتمشى على شاطئ البحر ويدندن بتلك الألحان ويذكر أسماء الحبايب يفك المعدوم من المشنقة!» كما كان يقول عبد الله الزامل. أما إذا جلسوا مع ابن نفاع وسألهم، وهو يتطلع إلى وجوههم بتحديد، أما إذا رأوا ذلك اليوم الأمريكيين يسحرون وأي شيء فعلوا، وهو بعد السؤال وأثناء الإجابة يردد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فإذا قالوا شيئاً لم يعجبه انتفض، اقترب من محدثه، تطلع إليه بإمعان، ثم عاد من جديد بلهجة أكثر انفعالاً وسرعة: أعوذ بالله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

إن رؤية عبده أو الجلوس قليلاً مع ابن نفاع، ثم سماع أخبار الدنيا من هؤلاء الذين قدموا حديثاً من عجرة أو من أمكنة أخرى، إن هذا يعادل، بنظر الكثيرين، ملكوت الأميركيين كله، خاصة وإن هذا المكان المعزول، وحوله الأسلاك، يجعل الإنسان يحس أنه في سجن حقيقي. لماذا يضعون الأسلاك الشائكة حولهم؟ ولماذا يريدونهم أن يدخلوا ويخرجوا من تلك البوابة بالذات، وبعد أن يبرزوا البطاقة الصفراء، وكأنها الشيء الوحيد الذي يدلل على وجود الإنسان؟

هكذا كانت عواطف ومواقف العمال وهم يحملون حاجاتهم القليلة وينتقلون إلى «منازلهم» الجديدة. وابن الراشد الذي لم يظهر خلال الأيام الثلاثة الأولى، وربما كان في إحدى سفراته، جاء في اليوم الرابع، وبعد أن تفقّد البركسات وامتدح نظافتها وحكمة توزيع العمال فيها، قال وهو يقف وسط مجموعة من العمال:

ـ منازل عامرة ودايمة.

هز رأسه وهو يضحك ثم أضاف:

ـ الله يخزيه ابن مزعل.. أكيد ما ذبح...

وبعد قليل تابع بلهجة فيها بقايا الضحكة:

ـ مثل عادته.. لا طبخ ولا نفخ.

وتلمس أحد الجدران بيده، ودق عليه ليختبره، ثم أمسك باب البركس، فتحه وأغلقه أكثر من مرة، فلما تأكد قال يواصل حديثاً:

ـ إذا قصّرنا معكم هذه المرة، يا شباب، إن شاء الله نعوضكم مرات ومرات.

المدينة الجديدة التي بدأت بثلاثة بركسات، وتضم ثلاثة وخمسين عاملاً، وكانت مصدر فرح لبعض العمال، ومصدر ضيق لآخرين، وربما نوعاً من أنواع التغيير بالنسبة للأكثرية، أخذت تتسع وتكبر. فبعد أقل من شهر بني بركس جديد، وما كادت السنة تنقضي حتى أصبح عدد البركسات سبعة عشر واحداً. والبركس الذي كان يضم حوالي خمسة عشر رجلاً في بداية الأمر، أصبح يضم في فترة لاحقة بين العشرين والخمسة والعشرين. أما الذين فرحوا بالانتقال فقد شعروا بالخيبة، لأن الهواء الذي كان يلعب بالخيام، والذي يصبح عذباً رقيقاً في الليل المتأخر، وعند الفجر، لم يعد له وجود في هذه العلب التي تصبح كأنها الأفران الخانقة، حيث تعبق بالحرارة ورائحة العرق والنوم. أما الجدران الخشبية البيضاء فقد تحولت خلال أسابيع قليلة إلى ألوان لا يمكن تمييزها، بعد أن اختلطت وتداخلت بسبب الدخان والأيدي المعروقة والغبار، وأشياء أخرى. وأقسى شيء واجه العمال وسبب لهم ضيقاً لا يمكن مقاومته: سقوف الصفيح. لقد أصبحت هذه السقوف هي العدو الحقيقي، لأنها لم تكن تمطر حرارة فقط، كانت تصب موتاً رمادياً مصهوراً ومستمراً منذ ساعات النهار الأولى وحتى أواخر الليل، وكانت أشد قسوة وأكثر عداء من وجوه الكثيرين من الأميركيين وتصرفاتهم؛ وحتى فترة متأخرة كان العمال لا يكتفون بالنظرات الحاقدة التي يوجهونها إلى هذه السقوف، كانوا يبصقون إلى أعلى لعل بصاقهم يصلها، وكثيرون كانوا يقذفونها بالأحذية أو أية أشياء تصل إلى أيديهم. كانت حفلة الأحذية تقع أكثر من مرة في الأسبوع، وكانت تجري في البركسات كلها، إذ ما تكاد العملية تبدأ في

واحد منها حتى تباريه البركسات الأخرى، وخلال دقائق قليلة تنتشر الأحذية على الأسرة أو بينها، بعد أن تكون قد تعبت في رحلتها بين الأيدي والسقوف، وقد تنتقل بين البركسات عبر النوافذ أو من المشاركين في الخارج.

وكل شيء كان في السابق مصدراً للإزعاج أو الخصومات أخذ شكلاً معاكساً تماماً، فالذين كانوا يشكون من لاعبي الورق، ويتعاركون معهم في أواخر الليل، حين كانوا في الخيام، ولأنهم مصدر صراخ وإزعاج يمنع النوم، أصبحوا في وقت من الأوقات ينامون بين لاعبي الورق وعلى أصواتهم! وحين يخرج هؤلاء اللاعبون إلى الهواء الطلق، كان الآخرون لا يترددون في أن يفرشوا إلى جوارهم، لكي يواصلوا النوم بعد أن تعذر عليهم في الداخل.

أما الذين كانوا يتعاركون من أجل تنظيف الأرض فقد اكتشفوا في البركسات أنهم أكثر استعداداً للمعارك والخصومات، رغم أن ثمة من يقوم بتنظيف البركسات، بعد أن أعفي العمال من هذا الواجب.

ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن المياه، وعن ساعات النوم واليقظة، وعمن ينام في هذه الناحية وعمن ينام في تلك.

لكل أمر وكل شيء سبب كافٍ لوقوع خصومات لا نهاية لها، وقد أحس الكثيرون، لكن بشكل غامض، أن الخلافات التي تقع، والشتائم التي تتردد ليست دائماً نتيجة أخطاء أو سوء نية، كما أنها أبعد من الكلمات التي تقال، خاصة وإن الضيق والحنين «وأشياء» ملعونة أخرى تظل في الصدر وتمزقه قبل الخصومات والشتائم بعدها، ولولا التعب الذي يهدّ الأجساد ويساعد على فض الخصومات ويدفع الرجال إلى الغرق في النوم، لحصلت أمور كثيرة. ومع ذلك فإن يوماً واحداً لم ينقض دون وقوع مشاكل. صحيح أن رغبة خفية كانت أقوى من الإرادة هي التي تحكم تصرفات الرجال وعلاقاتهم فيما بينهم، وكانت هذه الرغبة تتمثل في التحدي وفي عمل شيء غير عادي. ورغم الندم، وتلك الأيمان التي تخرج دون رغبة، والقرارات الحازمة التي تصدر عن الرجال أن لا

يتعاركوا، أن لا يفعلوا، فقد كانت الخصومات تتكرر، والحوادث لا تتوقف يوماً واحداً.

وكان الضيق أقوى ما يكون حين يُنقل العمال نظراتهم من جهة إلى أخرى، فيرون في جهة الشرق حران الأميركان: مضيئة، لامعة، ضاجة، وبدأت تكتسي بالخضرة، ويسمعون عن بعد أصوات الأميركيين وهم يصخبون في البرك، وهم يضجون بالغناء أو المرح، وفي بعض الليالي يطلقون الأسهم النارية الملونة فتملأ السماء، خاصة أثناء استقبال مجموعات جديدة. فإذا نظروا إلى جهة الغرب ورأوا بيوت أهل حران وقد انبعث منها الدخان عند الغروب، وامتلأت بأصوات البشر والحيوانات، وأخيراً إذا نظروا إلى البركسات التي يعيشون فيها، وإلى هذه الحياة الجافة القاسية المعزولة، فعندئذٍ تدفق الذكريات ويزحم قلوبهم الحنين، ويجدون أسباباً لا حصر لها للخصومة والحزن، وبعض الأحيان للبكاء.

أما تلك السهرات التي كان يقيمها العمال، ويتخللها الغناء والنكات وبعض المفاجآت، من أجل أن يخففوا عن أنفسهم، فقد كانت تنتهي، أغلب الأحيان، بجروح جديدة. فالأغاني بدل أن تفرح الرجال تغرقهم في حالة من الكآبة الشديدة. والنكات التي يضحكون لها بصخب حين تروى، لا تلبث أن تصبح عادية جداً بعد ذلك. وكثيراً ما يستغربون إنهم ضحكوا بسببها! أما المفاجآت التي كان يدبرها البعض، وبدل أن تدخل السرور وتغير الجو، فكانت تؤدي إلى معارك جديدة في الغالب، خاصة إذا لم يتم اختيار «الضحايا» بدقة وعناية كبيرتين.

صويلح «مغني الحي» كما أطلق عليه ابن الزامل، ولم يعترض هو على ذلك، والذي فتن الجميع في عرس الدباسي لم يتغير، وصوته لم يضعف، لكن ما عاد يخلق في النفوس الزهو والتألق اللذين خلقهما في الرجال تلك الليلة، رغم أنه في كل مرة يغني يصل انفعاله إلى درجة البكاء والتحطيم.

في إحدى الليالي، أوائل الصيف، قال ابن الزامل بصوت يهدر بالغضب:

ـ يا جماعة. . إذا سكتنا متنا مثل ما يموت فأر السجن، وما دام الموت هو الأول والأخير فالموت عند الأهل أخير من الموت بين العفاريت الزرق. .

توقف قليلاً وسأل:

ـ إذا غرَّبت من يغرب معي؟

نظر في الوجوه بتساؤل أقرب إلى التوسل. كان يريد صوتاً، موافقة، فلما وجد الرجال صامتين حائرين، قال كأنه يكلم نفسه:

ـ باكر تندمون، لكن ما تنفع الندامة.

ولم يثنه عن السفر إلا الوعد الذي قطعه ابن الراشد على نفسه بأن يجد طريقة لكي «يدبر السقوف ويمنع الموت النازل منها».

وبوسائل هي بين الإرهاب والإغراء، مع الكثير من الوعود، وُضع عدد من رجال الأمير بين العمال، وسموا «مراقبين» ووضعت ألواح خشبية بين العوارض والسقف، كما وضعت طبقة من التراب فوق الألواح. وفي البركسات الأربعة القديمة، ومن الجهة الجنوبية، فتحت نوافذ إضافية، وقد قال ابن الراشد، لما تقرر فتح هذه النوافذ «إن الهواء سيلعب مثل الخيّال في هذه المنازل الفسيحة»! أما البركسات الجديدة فقد تولت الشركة مباشرة بناءها، ولم تعط لابن الراشد، كما حصل بالنسبة للأربعة الأولى. كانت البركسات الجديدة أصغر، وقد بنيت من مواد عديدة: من الإسمنت والتراب والحجر، فكانت أقل حرارة، وبدأت معارك من نوع آخر: من يسكن في البركسات الجديدة ومن يبقى في القديمة؟

وإذا كان العمال الأوائل قد اكتسبوا قوة نظراً للقدم ثم للقرابات التي تجمع الكثيرين منهم، فقد بدأ الأميركان يضعون مقاييس جديدة في تصنيف العمال؛ فأولئك الذين يظهرون أكثر وعياً من غيرهم، أو أكثر قدرة على فرض إرادتهم، وكانوا يتكلمون ويطالبون، بدأت النظرة إليهم تتسم بالخشونة والعداء. أما الذين يبدون مسالمين وأقرب إلى الرخاوة، فأصبحت توجه إليهم عناية خاصة، فعبد الله الزامل مثلاً، الذي لا يدخل

لسانه إلى حلقه، بالمزاح والتعليقات، ثم تلك المشكلة التي خلقها في السكن، لم يطل انتظاره حتى أرسل إلى المركز رقم ٤. كان العمل في ذلك المركز، بالإضافة إلى بعده، بحيث لا يرجع العمال من هناك إلا مرة كل ثلاثة أيام، يتصف بالخشونة والقسوة. وقد وافق ابن الزامل على العمل في ذلك المركز مضطراً بعد التهديد الذي وصله من الأمير، ومع ذلك لم يكن ليخفي رغبته في الهرب ذات يوم، لكن قبل أن يفعل لا بد أن لا يقتل اثنين أو ثلاثة من الأميركيين، وابن الراشد... وكلبهم دحام». ومزبان الذي ضرب دحام ذات يوم لم تُنس له هذه الإساءة، فقد اختير هو وأخوه هاجم واثنا عشر رجلاً من العمال الذين جاءوا في الدفعات الأخيرة، اختيروا بحجة أنهم يعرفون السباحة، لكي يشاركوا في قطع الصخور البحرية من أجل توسيع الميناء. وإذا كان الأخوان والعمال الآخرون الذين كانوا معهم لم يعترضوا على هذه المهمة، بل وبدأوا راغبين في مغامرة جديدة، إلا أن الأحداث التي وقعت بعد ذلك جعلت الجميع ينظرون إلى الأمر نظرة تختلف عن تفسير ابن الراشد وغيره.

فمزبان وهاجم اللذان لم يتوقفا يوماً واحداً عن محاولات تعليم العمال السباحة، وكانا يقضيان وقتاً طويلاً في الماء، حتى أطلق عليهما ابن الزامل اسم «الحيتان» استطاعا بمثابرتهم إقناع الكثيرين الاقتراب من البحر أولاً، ثم في وقت لاحق النزول إلى الماء، وأصبح الكثيرون يخوضون في المياه الضحلة حتى يبلغوا مسافة معينة يكون الماء قد بلغ وسطهم، وبهدوء وحذر ينزلون أجسامهم فلا تبقى إلا رؤوسهم وحدها عائمة. كانوا يفعلون ذلك بحذر شديد، ولم يبالغوا في ذلك، خاصة وأن سلمان الجرف كاد يغرق ذات مرة أثناء محاولته تعلم السباحة. كان الإخوان إلى جانبه، وقد ضحكا كثيراً وهما يشاهدانه يصعد ويهبط ويعب الماء. كانا يضحكان لأن الماء في المكان الذي يسبح فيه لا يصل إلى الصدر، لكن حينما شاهدا الأمر أكثر خطورة مما قدرا أخرجاه. كان بين الحياة والموت. هذه الحادثة جعلت الكثيرين يترددون في النزول إلى الماء فترة طويلة، ثم جعلتهم شديدي الحذر.

كان اختيار الأخوين يرضي رغبتهما، لكن يبدو أن المهمة التي كلفا بها مع الآخرين كانت من الخطورة إلى درجة جعلت الحادث يقع.

فبعد البدء بتوسيع المنطقة البحرية وتعميقها، وكانت مقابل معسكر الأميركان، والرجال يذهبون ويرجعون كل يوم، وقد اكتسبت أجسامهم هذا اللون المحروق، فبدوا مختلفين عن العمال الآخرين، وأخذوا ينقلون أحاديث وقصصاً عن المركب الذي يأخذهم، وعن الأدوات التي يستعملونها، ثم عن التفجيرات التي كانت تهز البحر وتجعل الأمواج الهائلة تتلاطم، ويروون ماذا يأكل الأميركان وكيف يأكلون، كانت الأحاديث التي ينقلها عمال البحر إلى عمال البر تجعل ليالي حران في هذا الصيف المتأخر أقل قسوة.

يتذكر الكثيرون أنه في الليلة التي كان القمر بدراً، وكان صويلح في حالة من الوجد، فغنى غناءً خافتاً أقرب إلى البوح الحزين، ورفض أن يرفع صوته أو أن يغير نبرته، رغم الإلحاح، ورغم المقاطع الأولى التي حاول العمال إغراءه بها، يتذكر الكثيرون أن مزبان كان صامتاً وحزيناً، وأنه لم يتكلم إلا مرة واحدة طوال السهرة التي امتدت ساعات، قال «يا جماعة.. والله هالبحر كله ما أبدله بالبير اللي بديرتنا، والليلة ابن هديب فتح جروح مالها تالي» قال هذه الكلمات في لحظة صمت وفي لحظة لوعة، وما كان الرجال ليتذكروا هذه الكلمات لولا الحادثة التي وقعت.

ففي فجر اليوم التالي، حيث تعوّد عمال البحر أن يذهبوا قبل غيرهم، وبعد أن غادر هؤلاء المعسكر وركبوا البحر، وحين طلب إلى ثلاثة من العمال الغوص لكي يثبتوا حبلاً في إحدى الصخور تمهيداً لقلعها، وكان مزبان واحداً منهم، في هذه النزلة التي أخذت الثلاثة إلى حيث حدد لهم، وبعد فترة قصيرة عاد الاثنان ولم يعد مزبان. عاد إبراهيم الصقار وسعد الراجح ولم يعد مزبان. ولما مرت دقيقتان و ثلاث دقائق ولم يظهر نزل وراءه عدد من العمال، لكنهم عادوا ولم يعد.

بعد بحث طويل وجدوا مزبان: كانت رجلة في فجوة صخرة، كانت

الفجوة كأنها السوار، وقد علق هناك، ويبدو أنه ناضل كثيراً من أجل أن يفلت منها، إذ وجدت جروح في جسده، لكنه لم يستطع.

كان يوماً صعباً مشؤوماً يوم عادوا بمزبان جثة هامدة. انتشر الخبر بسرعة في المعسكر، في حران الأميركان وحران العرب.

وبكثير من الحزن والغضب دفن مزبان في ظهيرة اليوم ذاته. ولم يبق أحد إلا وشارك في الدفن ثم في الحزن، وظل الكثيرون، وحتى وقت متأخر، يتذكرون تلك الضحكة المدوية التي كانت تميّز الحوت الكبير، كما كان يسميه عبد الله الزامل.

لم يتوقف العمل في تعميق البحر وتوسيع الميناء يوماً واحداً، وهاجم الذي لم يُطلب منه الذهاب إلى العمل في اليوم التالي، ثم في الأيام التي بعده، ولم يفعل هو أيضاً، بدا منذ الساعة التي وضع فيها مزبان في القبر وأهيل عليه التراب إنساناً آخر: زاغت نظراته وارتخى فكاه وبدا غائباً. صحيح أنه لم تسقط من عينيه دمعة واحدة، ولم تخرج من فمه كلمة، لكنه كان مذهولاً. كان ينظر في الوجوه وكأنه يبحث عن أحد. حتى إذا تأكد أن الذي يبحث عنه غير موجود أخذ يبتسم ثم يقهقه، ويضرب ساقه براحة يده. كان يفعل ذلك دون وعي ودون إرادة. والعمال الذين أشاحوا بأنظارهم لكي لا ينظروا إليه في البداية، ما لبثوا أن أصيبوا بالحزن الشديد، وشعر بعضهم بالإعياء و ما يشبه الدوار. لم يكن مزبان مجرد واحد من العمال. كان شهماً ومحبوباً، وكان يتصرف مثل أب أو مثل أخ كبير. أطلقوا عليه عدة أسماء. سموه «الجمل»، وسموه «الحصان»، أما عبد الله الزامل.. فقد سماه «الحوت الكبير»، وكان هذا الاسم الأخير أكثرها انتشاراً وتداولاً. كان يلجأ إليه الكثيرون في ساعات الضيق أو عند الحاجة. وهو بمقدار ما يبدو طفلاً كبيراً كان قوياً، وفي لحظات معينة قاسياً. كان يمسك من يسأله من يده عند الساعد ويجره نحو البحر لكي يسمع منه بانتباه، حتى إذا عادا مثل أخوين وبشكل مختلف أيضاً. أما إذا اختلف اثنان فكان مزبان الحكم الذي يفصل ويُقبل بحكمه.

الآن، بعد أن دفنوه، بعد أن وضعوه تحت التراب، صدقوا أنه مات وانتهى. فإذا نظروا إلى وجه هاجم وهو يلتفت، وهو ينظر في الوجوه بذهول ويبتسم تلك الابتسامة البلهاء، عندئذٍ يتأكدون أنهم فقدوا عزيزاً. أما إذا تذكروا كلمات ابن نفاع عند القبر وهو يصرخ «الرجل ما مات، قتلوه

بالسحر قبل ما يقتلوه بالبحر» فإنهم يجدون معنى مختلفاً لهذه الكلمات.

لماذا هم منبوذون ويدفعون إلى الموت في كل لحظة؟ وإذا كانوا قد جاءوا من أجل العمل فإنهم في هذا المكان يعملون ويُقتلون في وقت واحد. أما الدراهم التي حصلوا عليها فإنها لا تعادل يوماً واحداً تحت وطأة هذه السقوف التي تصب فوق رؤوسهم رصاصاً مصهوراً. وكلمات ابن الراشد؟ ودحام؟ ونعيم؟ ووجوه الأميركان القاسية؟ كان الأميركان في البداية يضحكون، يربتون على أكتافهم. في الشهور الأخيرة أصبحوا لا ينظرون إليهم، فإذا نظروا خرجت من أفواههم كلمات لا يمكن أن تكون إلا شتائم. هكذا قدروا وكانوا متأكدين من ذلك، لأن «الشتائم بأية لغة لا تخفى»، كما يقول ابن الزامل. حتى أطفال حران وهم يقتربون من الأميركان ويرفعون أيديهم بتحية مع كلمة مثل «يا ابن الكلب»، كان يعرفها الأميركان، كانوا يرفعون أصابعهم محذرين، ولم يتردد واحد منهم في أن يضرب طفلاً بقدمه ويوقعه. لقد تغير الأميركان؛ ليس هذا كل شيء، أصبحت العلاقة بين الطرفين محدودة وتتم فقط عن طريق «إدارة الأفراد». وإدارة الأفراد أصبحت تعني نعيم والدباسي الصغير ودحام، إضافة إلى اثنين من رجال الأمير.

عصر اليوم الذي مات فيه مزبان جاء ابن الراشد. كان يبدو أكثر وقاراً من أية مرة سابقة. لبس عباءته السوداء الجديدة، التي لا يلبسها عادة إلا إذا زار الأمير أو جاء بزيارة لمعسكر الأميركان. كان يمشي ببطء. رآه الكثيرون وهو يدخل بوابة المعسكر ومعه اثنان من جماعته. ظل العمال في أماكنهم صامتين. كانوا يعرفون أنه جاء ليقول كلمتين لهاجم، ليعزيه، وفي تلك اللحظات شعروا أن ابن الراشد عدو حقيقي. هو الذي جاء بهم إلى هذا المكان وسلمهم كالغنم إلى هؤلاء. كانوا حاقدين عليه ويعتبرونه مسؤولاً ليس عن موت مزبان وإنما عن قتله.

في ظل أحد البركسات، ناحية الشرق، كان هاجم ومجموعة من العمال جالسين، وقبل أن يصل ابن الراشد بمسافة ليست قصيرة تنحنح، لكن أحداً لم يسمع ولم يتطلع نحوه، حتى إذا اقترب تماماً، بخطواته

القوية الواثقة، قال من تلك المسافة.

ـ العوض بسلامة الرجال.

تقدم نحوه بعض العمال، صافحوه ومشوا معه. كان هاجم يتطلع إلى الوجوه، يتلفت في أكثر من ناحية ثم يبتسم. اقترب منه ابن الراشد حتى إذا صار فوقه، تطلع إليه هاجم وابتسم. قال ابن الراشد:

ـ سلامة راسك يا وليدي، وعسى تكون نهاية الأحزان.

وهبط فقبّل كتفي هاجم وجلس بجانبه. تطلع إليه هاجم أكثر من مرة وابتسم. تطلع ابن الراشد في وجوه الرجال الصامتين، هز رأسه وقد أدرك الحالة، قال ليغير الجو:

ـ الموت مكتوب على ابن آدم من يوم ما الله خلقه، ومثل ما يولد الإنسان لا بد أن يموت، هذه سنة الحياة، والإنسان لا يعرف في أي مكان يولد وفي أي مكان يموت. إن الله حق والموت حق، ولا يدوم إلاّ الحيّ القيوم.

كان ابن الراشد يتكلم وحده، يتكلم لنفسه. بدت كلماته جافة لا تعني شيئاً أو أحداً، وحين رأى نظرات الرجال الباردة، وأحس بالصمت يحاصره سأل:

ـ من كان مع المرحوم؟

لما ذكرت بعض الأسماء، وتحرك بعض الرجال بطريقة عفوية، لأنهم كانوا مع مزبان، قال ابن الراشد لأحد الرجال:

ـ تعال... تعال يا وليدي، تقرب، وسولف لي كيف صارت «القصة».

ورغم أن ابن الراشد وجميع الرجال قد سمعوا «القصة» عدة مرات، ورواها عدة أشخاص، فإن الصمت قد خيم والرجل يروي من جديد، بتفصيل وارتباك، كل شيء، منذ لحظة مغادرة المعسكر عند الفجر وحتى وقوع الحادثة.

كان الوحيد الذي يسمع القصة، وكأنها تروى لأول مرة، هو هاجم. كانت عيناه تحملقان في وجه الرجل. كان يقترب منه ويبتسم، حتى إذا

انتهى ضرب ساقه براحة يده، وبانفعال رفع رأسه بسرعة وأداره في عدة اتجاهات كأنه يبحث عن أحد. أمسك به ابن الراشد وأجلسه. قال له بصوت حزين:

ـ اصبر يا وليدي، لا حول ولا قوة إلا بالله.. وإنا إليه راجعون.

لما خيم الصمت مرة أخرى، وبدا الجو ثقيلاً مشحوناً قال ابن الراشد بارتباك:

ـ دم الرجل لا بدّ يتعوض.

غيّر جلسته وأضاف بلهجة مختلفة:

ـ لا بد إنه صار بعلمكم: من مدة العمال كلهم صاروا بذمة الشركة. الشركة هي المسؤولة، هي اللي تدفع المعاشات، وتدفع الأرزاق.. ومسؤولة عن السكن...

قال دحام وقد ظل صامتاً منزوياً:

ـ لازم إدارة الأفراد تعوض...

كان ابن الراشد بحاجة إلى مساعدة، إلى من يقف معه في تلك اللحظة، وما كاد دحام يقول هذه الكلمات حتى رد ابن الراشد بحزم:

ـ اسمع يا دحام، انت وابن هذال، هذا اليوم، نعم هذا اليوم، تكتبون معروضاً للشركة وتقولون فيه كل شيء. نعم.. كل شيء: الحادث كيف وقع. متى. وتطلبون التعويض، تسمعني يا دحام؟

وهز دحام رأسه دلالة الفهم والموافقة. وحين رفع رأسه ليبحث عن ابن هذال من أجل أن يعاونه في هذه المهمة، التقى بعيني هاجم، كان هاجم يتلفت، ينظر في الوجوه، وحين التقت عيناه بعيني دحام ابتسم. وابن الراشد الذي مال على هاجم وقبّل كتفيه مرة أخرى قال وهو ينهض:

ـ العوض بسلامة الرجال. وإنا لله وإنا إليه راجعون..

وحين غادر رافقه بعض الرجال إلى مسافة معينة. أما دحام فقد ذهب معه إلى حران العرب!

وحين هبط الظلام في تلك الليلة شعر الرجال بحزن شديد، ولا يتذكر أحد منهم أنه رأى القمر الذي كان يملأ السماء.

في أواخر أيام الخريف انشغلت حران ببناء دار الإمارة وبيت الأمير. فإلى جانب الخيام، على التل الشمالي الأوسط، الواقع بين حران العرب وحران الأميركان، إلى الغرب من معسكر الأميركان، أخذت تتكدس أكوام الحجارة والرمل، إضافة إلى القضبان الحديدية والعوارض وألواح الخشب، وبدأت حركة غير عادية، بانتظار الشروع بالبناء. وخلال هذه الفترة زار الأمير عدد من الأميركيين، يرافقهم نعيم، وعرضوا عليه المخططات والرسوم، وقد تريث الأمير في إعطاء موافقته لمدة ثلاثة أيام، ويبدو أنه سأل ابن الراشد والدباسي وآخرين حول المكان المقترح للبناء وعدد الغرف، وعرض أمامهم المخططات والرسوم، لكن أياً منه لم يميز شيئاً. اكتفوا بأن أوصوا، وبكلمات عامة «أن يكون البناء قوياً مثل بيوت الأميركيين وأن يكون واسعاً». وحين عاد الأميركيون لزيارة الأمير بعد أيام، ومعهم نعيم، وعرضت المخططات والرسوم مرة أخرى، قال الأمير خالد المشاري وبصوت خافت وحازم:

ـ خلص وافقنا... وعلى بركة الله.

وحين سئل الأمير عن أي المخططات يباشر به، أجاب:

ـ خلص.. أعطينا موافقتنا.. وتوكلوا على الله.

ولما ارتبك نعيم ولم يستطع أن يقول شيئاً، وظل ينقّل نظراته بين الأمير والأميركيين، قال الأمير لينهي كل شيء:

ـ قل لهم أن يكثروا الحديد... والشبابيك جنوبية.

وأفهم نعيم الأميركيين أن الأمير يترك لهم اختيار المخطط المناسب، وأشار أن تكون النوافذ واسعة وباتجاه الجنوب. وحين سئل الأميركيون عن

المدة التي يحتاجها البناء أجابوا أنها تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر.

لما بدأت الحفارات تعمل لم يطق الأمير سماع هديرها، أما حين جاءت القلابات لكي تحمل الأتربة فقد قال للدباسي:

- حلّ وعدنا يا أبو صالح.

فلما ابتسم الدباسي وهز رأسه وأجاب وهو يضع أصبعه بالقرب من عينه:

- ببطن عيني يا طويل العمر.

ابتسم الأمير ثم بدأ يقهقه، والدباسي يشاركه الابتسام، حتى إذا هدأ قال:

- الظاهر أنها فاتتك يا أبو صالح.. أو نسيت.

وبعد جهد، وبكثير من المكر والمداورة، فهم الدباسي أن الوعد الذي يعنيه الأمير: رحلة الصيد، خاصة وأن «هذه البلايا التي جاء بها الأميركان تطوّش الرأس وتعمي العيون!» وإذا كان الدباسي قد أبدى استعداداً لمرافقة الأمير في هذه الرحلة، ووعد أن يصطحب معه بعض الذين يعرفون أماكن الصيد، فقد استأذن ببضعة أيام ريثما ينتهي من بعض الأشغال الطارئة التي لا تحتمل التأجيل، فوافق الأمير على أن يتم اختيار المرافقين بعناية.

أما حين عرض الأمير على ابن الراشد أن يرافقه في هذه الرحلة فقد فرك يديه وبدا غير قادر على الرفض أو الموافقة، وظل صامتاً، فلما استفسر منه قال وهو يضحك:

- يا طويل العمر المربى قتال.

وفهم الأمير أنه يريد البقاء في حران، فقال ساخرا:

- لا تخف يا ابن الراشد، حران بمكانها، وما نرجع إلا وتكون أزين.

هز ابن الراشد رأسه ورفع يديه الاثنتين ورد:

- حران لأهل حران، للدباسي وغيره، وانت، يا طويل العمر، تعرف إن اللي ما يصل أهله ما يجيه ولد، وابن الراشد حنّ للولد.

كان يمكن لابن الراشد أن يذكر الأمير ذاته، وكيف أنه اصطحب معه

أهله، وإنه لا يستطيع أن يعيش بدونهم، لكنه فضّل أن يذكر الدباسي، وأن يشير بصورة أو أخرى إلى زواجه من حرانية، وبعد وصوله ببضعة أيام فقط، قال الأمير خالد مداعباً:

- الحق عليك، يا ابن الراشد... والفلوس تعمي.

- أخطأنا يا طويل العمر... والفلوس راحت ببطون الناس.

- إذا رجعنا ولقيناك بهذه الديرة، مثل ما أنت، زكرتي، زوجناك أو رحلناك.

- القول قولك يا طويل العمر.

وخلال بضعة أيام تهيأت رحلة الأمير، وصحبه في هذه الرحلة عدد من رجاله، بالإضافة إلى الدباسي واثنين من حران، أحدهما رجل مسن لا يكاد يتكلم، والثاني أقرب إلى سن الشباب، لكن يبدو من هيئته أنه كثير الأسفار، وكان سريع الحركة، ذكياً، والابتسامة لا تفارق شفتيه.

كانت وصية الأمير خالد لنائبه أن يراقب بنفسه البناء، وأن يشرف على كل مراحله، وأكد من جديد أن تكون الشبابيك جنوبية وواسعة، كما أشار إلى أنه لن يغيب فترة طويلة، لكنه لا يعرف أيضاً متى سيعود لأن «كل شيء يعتمد على القنص. يجوز نرجع بعد كم يوم، ويجوز نبطي» وأضاف بلهجة أبوية «البركة فيكم، واعتمادنا على الله وعليكم».

وتأخر ابن الراشد في حران، بعد سفر الأمير خالد، ثلاثة أسابيع، كان عليه أن يؤمن جميع كميات الحجارة والرمل لدار الإمارة وبيت الأمير، إضافة إلى تأمين اليد العاملة، وكان عليه أن يتفق مع الأميركيين حول تأمين المواد لمطعم العمال، خاصة وإن التنافس بينه وبين صالح الدباسي قد تطور إلى مايشبه التحدي الأقرب إلى الخصومة المكشوفة. كانت هذه الأعمال، بالإضافة إلى قرار غامض وقلق، ولم يحسم بعد، حول بناء بيت في حران... هل يشرع فيه الآن أم يرجئه إلى وقت لاحق.

كانت هذه هي الأسباب الظاهرة في تأخر ابن الراشد، إضافة لسبب آخر لا يعرفه سواه ودحام: كان عليه أن يخلص من هاجم. إذ بعد

المعروض الذي قُدّم في الأسبوع الثالث لوفاة مزبان، وقد وضع ابن الراشد كل «عبقريته» في صياغة هذا المعروض، إذ عدله وأضاف إليه عدة مرات، وقرر أخيراً أن يكتبه فواز الهذال لأن «خطه على السطر، مثل السيف، وكلماته واضح وقوية، عكس دحام اللي يكتب بالميل، كلماته واحدة كبيرة وواحدة صغيرة». ملأ ابن الراشد المعروض بكلمات الاستعطاف التي كان يحفظها ويتذكرها، وقد قضى وقتاً حتى رتبها بشكل يرضى عنه.

قُدم المعروض إلى «إدارة الأفراد»، وعن طريقها رفع إلى المقر العام، ومن المقر العام أحيل إلى اللجنة القانونية، لتقرر ما إذا كان ابن الراشد هو المسؤول عن التعويض، باعتبار أن إجراءات المصادقة على انتقال العمال إلى مسؤولية الشركة لم تتم إلا بعد عشرة أيام من الحادث. وقد زاد في تعقيد الموضوع أيضاً الحالة التي وصل إليها هاجم، إذ لم تفارقه الهواجس وظل غارقاً في حالة من الذهول، الأمر الذي أدى إلى صرفه من العمل، بعد إحالات عديدة على أطباء كان واحد منهم هندياً، ويبدو أن هذا الطبيب كان له رأي يختلف عن الطبيبين الآخرين. وقد أدى الخلاف إلى تأخير صدور التقرير أولاً ثم تأخير قرار الصرف من الخدمة بعد ذلك؛ وترافق هذا مع مداخلات وإشاعات كثيرة ساهم بتغذيتها، كما يؤكد ابن الراشد، صالح الدباسي، بهدف «إضعافه أمام الأميركان وتحريض العمال ضده».

كان ابن الراشد يريد حسم هذه القضية قبل أن يتحرك، خاصة وأن الأمير بدا غير متحمس للتدخل، وحين طلب منه ابن الراشد ذلك رد: «البشر برقبتنا يا ابن الراشد، والأحسن إن تشوف جماعتك، وارضوا الناس بقريشات وخلصونا من الطلايب». ولذلك قدر ابن الراشد أنه إذا لم تنته القضية الآن فلا بد أن تتطور وتجر ذيولاً كثيرة، خاصة وأن الدباسي مع الأمير الآن في هذه الرحلة «وما عنده سالفة إلا ابن الراشد. ابن الراشد فعله، ابن الراشد تركه، وكلمة وراء كلمة، في الليل والنهار، والأمير مثل الحريمة والولد الصغير لا بد يسمع ويصدّق، وعندها نكون بشغلة نصير بشغلة ثانية».

المحاولات التي بذلها ابن الراشد مع الأميركيين، من أجل إنهاء القضية بأسرع وقت، اصطدمت بالإجراءات القانونية والطبية «لأن النظام هو النظام، وهو فوق الأفراد وأقوى من إرادتهم أو رغبتهم!» أما محاولاته غير المباشرة، مع هاجم فقد اصطدمت بالابتسامات الساخرة، واصطدمت أيضاً بالتحريض الذي يمارسه العمال. لذلك اتخذ قراراً بنفسه ونفذه في إحدى الليالي دون أن يحس به أحد.

عند الظهر بعث دحام ليأخذ هاجم إلى اللجنة الطبية، هكذا قال دحام، وهكذا قال دحام للعامل الذي كان مناوباً مع هاجم، بعد أن قرر العمال فيما بينهم أن يبقى واحد منهم معه؛ وبدل أن يؤخذ هاجم إلى اللجنة الطبية جيء به إلى حران العرب، إلى خيمة ابن الراشد، وهناك كان قد هيأ أحد رجاله لكي يسافر بعد الغروب مصطحباً معه هاجم، ليوصله إلى أهله. وهذا ما حصل فعلاً، فقد وضعت بعض «القريشات» في خرج الجمل الذي حمل هاجم، ولم توضع في جيبه لأنه قد «يرميها» أو يعطيها لأي بدوي» هكذا قال ابن الراشد للذي رافق هاجم إلى عجرة، ثم إلى أم السعف «لأن له خالاً هناك، سلمه لخاله وقل له التعويض يصلكم!».

في اليوم الثالث حين سئل عن هاجم قال: «الحكيم الأميركاني كظّه، وإن شاء الله يرجع طيب» أما بعد اليوم الخامس فقد قال دحام، وكان مرتبكاً وخائفاً:

ـ هاجم عند أهله.. وإذا ما وصلهم اليوم يصلهم باكر!

امتلأ العمال حقداً أسود عندما سمعوا كلمات دحام، وقرروا ألا ينسوا أبداً.

بعد سفر الأمير بأيام وصل إلى حران محمد السيف وعبد الله السعد، وهما من أهل حران، وكانا قد تركاها منذ وقت طويل. عبد الله ظل يبعث إلى أهله الرسائل، وبعث لهم أرزاقاً ودراهم عدة مرات، أما محمد فقد انقطعت أخباره في السنين الثلاث الأولى، ثم جاءت منه عدة رسائل ومعها بعض الدراهم، وقال أحد الذين حملوا رسالة من رسائله أن «محمد السيف فوق الريح، ومن الأغنياء المعروفين في البصرة».

الآن، وهما يعودان، وحينما وقفا في المطالع، بداية طريق حران ـ عجرة، ظنا أنهما أخطآ الطريق، وفي لحظة من اللحظات ظن عبد الله أنه في حلم، وحين فرك عينيه جيداً وتطلع بإمعان لم يميز سوى النخلتين اللتين كانتا قرب الجامع منذ وقت طويل، وما عدا ذلك تغير. حران التي كانت هناك، في المنخفض، عند الآبار، لم تبق منها أية علامة من العلامات القديمة. ومكان البيوت التي كانت، تقوم الآن كتل من الأبنية الصغيرة المتناثرة والملونة ثم مجموعة من الخيام، وعلى التلال من الشرق والغرب قامت أشياء عجيبة لم يكن لها وجود في السابق.

ظلا يتأملان بصمت، تلفتا أكثر من مرة، إذ ربما يكون هناك خطأ من نوع ما، وحين تأكدا أنهما وصلا، وإن هذا الشيء العجيب الذي يريانه هو حران ذاتها، وإن تكن حران أخرى، فقد شعرا بالخيبة وما يشبه الكراهية. لماذا دمّرت حران التي كانت في يوم من الأيام؟ وأهلهم، أين صاروا وماذا حلّ بهم؟ وهل يستطيعان أن يعيشا في هذه الحران التي لا يعرفانها ولم يعيشا فيها من قبل؟

كان يمكن للرجلين أن يقولا الكثير، لكن المفاجأة، وتلك الرغبة

بالاكتشاف والتعرف جعلتهما أقرب إلى الصمت والحيرة. فما عدا كلمات التعجب والدهشة، وحتى عدم التصديق التي صدرت عنهما في المطالع، ظلا يخبّان على ناقتيهما ضمن هذه القافلة التي أثارت في نفسيهما العجب منذ اللحظة الأولى في عجرة. كانت القافلة كبيرة وفيها بشر لا يمكن أن يجتمعوا أبداً في قافلة أخرى، وكانت تحمل أشياء كثيرة ومتنوعة أيضاً. وإذا كانا قد تبادلا أحاديث عامة مع عدد من المسافرين فلم يقولا أنهما من أهل حران، أو أنهما غابا عنها فترة طويلة، وهما يعودان إليها الآن. أما حين سألهما أحد البدو في القافلة ما إذا كانا مثله يقصدون حران للعمل، فقد هز محمد رأسه بالإيجاب.

الآن وهما يقطعان المسافة باتجاه الجامع يحسان بخيبة الأمل، ويشعران بالإحراج أيضاً. كيف سيصلان إلى أهليهما؟ هل يسألان الغرباء والذين جاءوا بالأمس لكي يدلوهما ويقولوا لهما أين أصبح أهلهما؟ وأهلهما هل يعرفونهما بعد هذي السنين وبعد هذا التغير الكبير الذي حصل في كل شيء؟

قال عبد الله بطريقة مازحة:

ـ يا محمد.. ما لنا إلا الجامع، هناك نصلي ركعتين ونلقى الشيّاب اللي بعدهم ما ماتوا، ولا بد يعرفوننا، أو يعرفون علوم أهلنا.

رد محمد وهو يضحك بصوتٍ عالٍ:

ـ بمصر يقولون: قولوا لي يا جدعان هو بيت أبوي فين.

ـ وكّل الله نلقاهم.. لا تخف.

ـ ما أنا بخايف.. لكن...

وهز محمد رأسه وتطلع إلى عبد الله بإمعان، ثم تابع وهو يبتسم:

ـ قبل عشرين ثلاثين سنة، كنا نركب الحمير ونشد عيوننا من تل الذيب إلى حران ونتسابق ونصل!

قهقه عبد الله وعلق:

ـ «الحمار» دائماً يدل مربطه.

لم تغير حران عاداتها، إذ ما كادت القافلة تصل حتى كان الناس في لقائها. وبأسرع مما قدر الرجلان، ومن النظرات الأولى غرقا في جو الأهل والأصدقاء. كان الناس حولهما وكأنهما لم يغادرا حران هذه السنين كلها. صحيح أن الزمان ترك آثاره وعلاماته على الوجوه، لكن هذه الآثار ما لبثت أن تراجعت بسرعة لتظهر العواطف التي كانت، ولتظهر القوة الداخلية التي تلغي الزمن والمسافات، وتعيد الأشياء إلى لحظة مجدها الأول.

كانت لقاءات الرجلين بالأهل والأصدقاء مؤثرة، وفي بعض اللحظات قاسية، فالمقيمون أظهروا فرحاً جامحاً، وعبروا عن ذلك بصور شتى، لكن ظل في عيونهم أيضاً لوم لا يخفى، وكأن هذه العيون تقول: لماذا تركتمونا هكذا كل هذه السنين؟أو تقول: هل يمكن للإنسان أن ينسى أو يتخلى عن جذوره؟ والعائدان اللذان تلفتا في كل الأنحاء وسألا عشرات الأسئلة، دون انتظار إجابات كاملة أو دقيقة، كانا في قلق: أين أصبحت الأمهات والأخوات والعمّات والخالات، أين هن نساء حران؟ وهل يعيش الناس في رضا بعد هذا التغير الذي لم يبق شيئاً من حران الأولى؟ وأين يسكنون الآن؟

وبطريقة لا تخلو من الارتباك، بين صخب الأطفال وضجيجهم، إضافة إلى هياج الحيوانات بسبب الاضطراب والضجة والنداءات، وصل محمد السيف وعبد الله السعد إلى حران الجديدة. وقد رأى الكثيرون عبد الله السعد يمسح دموعه حين التقى بأمه. كانت امرأة عجوز لا تستطيع المشي إلا بصعوبة،،وقد أصبحت عمياء أيضاً. حين التقت به دفنت وجهها في صدره وظلت هكذا فترة طويلة، وحتى لما تراجعت قليلاً ورفعت رأسها ظلت ممسكة به. أمسكت به بقوة أول الأمر، وكأنها تخاف أن يفلت منها أو أن يهرب مرة أخرى، وتساقطت من عينيها دموع غزيرة، وظلت بين لحظة وأخرى تدفن رأسها في صدره، تشمه وتبكي، وقد رأى الناس عبد الله يبتسم لكن بطريقة أقرب إلى البكاء، ثم بعد فترة ارتخت

إحدى قبضتيها، وظلت الأخرى بنفس القوة، وبدأت تجوس وتتلمس باليد الطليقة وتستقر أكثر ما يكون على وجهه.

لحظات قاسية عاتية ليس بالنسبة لعبد الله وأمه فقط، وإنما لجميع الذين كانوا. والأم إذا ظلت صامتة، ويدها فقط ترحل من مكان إلى آخر، وكأنها بهذه اليد تسأل، تتفحص، تتأكد، حتى اللحية الصغيرة التي تلمسها بكثير من الحنان وما يشبه المتعة، وأخذت تقبل يدها، ثم ترتفع وتقبل اللحية ذاتها، فلما اطمأنت، أو ربما ثملت، ارتخت يداها، أسبلتهما، لكن بين فترة وأخرى تمتد إحداهما أو الاثنتان معاً لتتلمس المخلوق الغريب الذي انفجر فجأة، كانت تفعل ذلك وكأنها تتلمس طفلاً رضيعاً.

فوجئ عبد الله أن أمه فقدت بصرها، لم يقل له أحد ولم يتوقع، لكن وهو يراها هكذا شعر بالتعاسة، أحس أن خطأه كبير إلى درجة لا يمكن أن يغفره لنفسه؛ أما حين أقبلت عليه أخواته فقد أحس بثقل الزمن ومرور الأيام. حتى أخته الصغيرة التي تركها ابنة عشر تزوجت وجاءها ولدان، كانت تحمل الأولى وتجر الثاني! كيف انقضت كل هذه السنين، ولماذا كان قاسياً بهذا المقدار؟

وإذا كان عبد الله فوجئ بهذا الذي يراه أمامه فإن محمد الذي لم يفاجأ بأمّ فقدت بصرها، لأنها غادرت هذه الدنيا منذ كان صغيراً، فقد فاجأه كل شيء آخر، وحتى بعد انقضاء أيام وتعرف الاثنين على الصغار، وسؤالهما عن كل واحد من الكبار، ثم تجولهما بين بيوت حران الجديدة على التل الغربي، ونزولهما إلى السوق ووقوفهما عند الآبار، ثم التجول الطويل على الشاطئ، رغم كل هذا فإن حران التي يريانها الآن لا تجعلهما يشعران براحة من أي نوع، ليس عدم الشعور بالراحة فقط، وإنما الشعور بالخوف أيضاً.

وبطريقة غريزية تختلط فيها المحبة بالخوف طوّق أهل حران هذين العائدين لمحاربة أية فكرة أو رغبة تحملهما على السفر مرة أخرى. فقد أحس أهل حران، وهذا الإحساس ملأ النسوة قبل الرجال، أن الرجلين يمكن أن يفلتا، يمكن أن يتذرعا بأية حجة، وقد يقولان أي شيء من أجل

أن يسافرا مرة أخرى، أحس أهل حران بذلك من النظرات ومن ذلك السهوم الذي كان يسيطر على الرجلين في لحظات معينة، رغم أنهما لم يقولا كلمة واحدة تشي بذلك.

وإذا كان أهل حران جميعهم قد تكفلوا بمحمد السيف، دون أن يتفقوا على ذلك بكلمات واضحة أو نتيجة خطة، فإن تلك العجوز العمياء وحدها تكفلت بابنها عبد الله وساعدت أهل حران أيضاً في أن يحاصروا محمد السيف، ويمنعوهما من السفر. فالشعور الذي سيطر على الناس أنهم متروكون، وبحاجة إلى حماية من نوع ما، وإن هذه الحماية لا يمكن أن تولد من داخلهم، لا من الأمير ولا من غيره، هذا الشعور هو الذي جعلهم يتصرفون ويتكلمون بطريقة معينة مع الرجلين، وهو الذين امتص تلك الرغبات التي تراودهما بين فترة وأخرى. وبمرور الأيام، وما كاد شهر ينقضي حتى أبلغ عبد الله أمه أنه سيبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة ليأتي بأهله وسوف يبعث معه رسالة إلى شريكه هناك يخبره أنه سيتأخر عليه في العودة. وهزت العجوز رأسها وانحدرت من عينيها الدموع ولم تقل شيئاً.
وبعد بضعة أيام كان إبراهيم قد هيأ نفسه وسافر. أما محمد السيف فقد قال ليلة سفر إبراهيم: «قريشاتي بعبّي وحران مثل غيرها. إذا ما سافرت هذه السنة أسافر السنة اللي بعدها».

في البركسات بدأ الحقد مثل طير ينتقل من صدر إلى آخر. كان ينتقل كل لحظة ولأي سبب أو حتى دون سبب. ودحام الذي كان قوياً بصوته العالي ومشيته الواثقة، والذي كان لا يتردد في الشتيمة، ويعتبرها أحد الفنون التي يتقنها، أصبح بعد غياب هاجم ثم سفر ابن الراشد، دقيقاً شديد الحذر، بل وكان كثير الغياب عن المعسكر بحجة وجود أعمال وأمور يجب أن يلاحقها في حران العرب أو في معسكر الأميركان. أما نعيم فلم يره العمال منذ وفاة مزبان، إذ بعد أن اشترك في التشييع، ممثلاً للإدارة، كما قال أكثر من مرة، غاب تماماً. قال بعض العمال إنهم رأوه عن بعد، وقال آخرون أنه سافر سفرة طويلة وربما لا يعود. أما «إدارة الأفراد» كما أطلق على هذا الشبح فلا يعرف إن كان موجوداً أو غير موجود، فقد أبلغت العمال بأمور عديدة، عن طريق مراقبي العمل، خاصة رجال الأمير، ثم تمّ التراجع عنها.

في هذه الفترة أيضاً وصلت وجبات جديدة من العمال، وقد تم جلبهم من قبل الدباسي، وليس عن طريق ابن الراشد. وأبدى صالح الدباسي اهتماماً غير عادي أثناء استقبال العمال ثم توزيعهم على البركسات الجديدة التي تم تشييدها في هذه الفترة، كما تم تسليفهم نصف راتب إذ ربما «يحتاجون لشراء بعض المواد من دكاكين حران، أو لشرب كأس من الشاي في المقهى». يضاف إلى ذلك أن الملابس والحاجات الأخرى التي سُلّمت للوجبات الجديدة كانت أفضل من تلك التي سلمت للعمال القدامى. وظل صالح يتردد كل يوم ويسأل ليتأكد.

الوجبات الجديدة التي جاءت من أمكنة عديدة حملت انسام العالم

خارج حران، وذكرت الكثير من القصص والوقائع، والتي كانت مزيجاً من الأحلام والرغبات مع بعض الأكاذيب. ففي عجرة فُتح مكتب للتوظيف، وفي السماعنة، وعلى الطريق السلطاني أيضاً، ورجال ابن الراشد الذين رابطوا في هذه المكاتب أو رحلوا إلى الداخل بحثاً عن عمال، ذكروا الكثير الكثير من المزايا التي يحصل عليها من سيعمل في الشركة. لم يتركوا شيئاً إلا وقالوه: الأكل الجيد، المعاشات الكبيرة، العمل لساعات قليلة ثم يصبح العمال أحراراً ويمكن أن يعملوا أي شيء يريدونه، إضافة إلى السكن المجاني، والسكن في بيوت وحول هذه البيوت الحدائق والمياه...

عيون العمال الجدد تجوس كل الأنحاء وتتطلع برغبة التعرف والاكتشاف، وإذا كانت هناك أكاذيب يمكن أن تدوم فترة طويلة، فإن السكن في البركسات الجديدة رغم أنها أفضل وأقل حرارة، كان يفضح كل شيء ويجعل الحياة صعبة قاسية.

و«إدارة الأفراد» التي ظلت شبحاً خلال الفترة الماضية قامت في هذه الفترة بإبلاغ العمال أن مقابلات سوف يتم إجراؤها خلال أيام من أجل التصنيف. أبلغ أحد رجال الأمير العمال بذلك وطلب منهم أن يستعدوا! أن يستعدوا؟ أي معنى لمثل هذه الكلمة وماذا سيفعلون وماذا يعني تصنيف العمال وإلامَ سيؤدي؟

كان يمكن لبلاغ من هذا النوع أن يمر دون أن يخلف أثراً ويثير قلقاً، لكن في اليوم الثالث أُبلغ العمال أنهم سيقسمون إلى مجموعات، المجموعة الأولى ستتوجه للمقابلة والمجموعات الأخرى تواصل عملها كالمعتاد. ودون انتظار قرأ دحام أسماء مجموعة المقابلة، وطلب من الآخرين أن ينصرفوا إلى عملهم، وخلال فترة قصيرة توجه العمال إلى معسكر الأميركان.

لقد انقضت فترة طويلة، بضعة شهور، منذ أن كانوا هنا آخر مرة، وبعضهم لم يأت من قبل.

بدت حران الأميركان شيئاً جديداً بالنسبة للجميع. حتى الأماكن والأبنية التي عملوا فيها واستراحوا في ظلالها تبدو الآن شيئاً مختلفاً. لقد أضاف إليها الأميركان أشياء كثيرة جديدة: أشجار لا يعرف من أين جيء بها، وقد حُفر لها في الأرض وخلطت التربة بتربة أخرى أو بمواد غريبة، ولقد كبرت هذه الأشجار. نباتات كثيرة مختلفة في أوانٍ كبيرة وصغيرة. حتى البراميل، بعد أن دُهنت بلون أبيض، امتلأت بالخضرة وانتشرت في أمكنة كثيرة. وكذلك الشوارع التي كانت من التراب ثم فرش عليها سائل أسود أثناء العمل في الأيام الأولى، أصبحت الآن شيئاً مختلفاً! كما أضيفت أبنية جديدة للأبنية التي قاموا بإنشائها، وكانت هناك صفوف من البيوت الصغيرة غير بعيدة عن «الإدارة العامة».

الأشياء الجديدة والغريبة التي يراها العمال في حران الأميركان تولّد في نفوسهم التهيب ثم الحذر، خاصة وهم يشاهدون الأميركان ينتقلون من بناء إلى آخر ويتطلعون إليهم بتعجب وتساؤل وكأنهم فوجئوا بوجودهم: ماذا يفعل هؤلاء هنا ومن جاء بهم؟

كان الصمت مثل ظل ثقيل يخيم على هذه المجموعة التي تزيد على العشرين. لم يكن يُسمع إلا وقع الخطى وذلك الصوت الذي يتولد من الاحتكاك أو من الأنفاس والسعال. لم يكن عندهم شيء يمكن أن يقوله بعضهم لبعض بصوت عالٍ. حتى الأسئلة التي تبادلوها في اللحظات الأولى، وهم يغادرون معسكرهم باتجاه معسكر الأميركان، ولّدت في نفوسهم قلقاً ووسواساً تزايدا مع كل خطوة جديدة.

قال لهم أحد الأميركيين، بإشارة من يده، أن يقفوا. وقفوا قبل أن يصلوا مقر الإدارة العامة بثلاثين أو أربعين خطوة. كان المكان عبارة عن أعمدة وفوقها سقف، ولم يكن كافياً لكي يتسع لهم جميعاً، فظل عدد منهم تحت الشمس، لكن رغم ذلك كان المكان يتيح لهم أن يتطلعوا إلى كل الاتجاهات. رأوا ناحية الشرق البركة الكبيرة وصفين من البيوت، وفي الناحية الثانية المطعم، حيث تغدى الأمير، وإلى جانبه طرف من البركة الثانية، ورأوا صفاً من البيوت الصغيرة أيضاً. أما في مواجهتهم تماماً، إلى

جانب المقر، فقد قام بناء كبير يقارب بمساحته المطعم، لكن على شكل مستطيل، وإلى جانبه غرف صغيرة.

كانوا ينظرون بصمت. لم يجرؤ واحد منهم على السؤال، ولو تجرأ وسأل فلن يستطيع أحد أن يجيب. كانوا يتجنبون، أول الأمر، أن ينظروا في وجوه بعضهم بعضاً، لكي لا يكتشفوا صفرة الوجوه والخوف، لكن بعد أن تملّوا المنظر كله، وبعد أن تلتفتوا في كل الاتجاهات وطال انتظارهم، في هذا المكان، بدأوا يتبادلون النظرات، وكانت النظرات مزيجاً من التساؤل والرهبة، وكانت عيونهم تتكلم دون توقف، أما الصمت الذي سيطر في البداية فقد تحول إلى همهمات غامضة متداخلة.

فجأة وهم كذلك، وكما تخرج الأشباح من القبور خرج لهم نعيم. خرج من مقر الإدارة العامة وتوجه نحوهم. لم يكن ينظر إليهم طوال المسافة الواقعة بين المقر والمكان الذي يقفون فيه. كان ينظر إلى الأرض، ورغم القوة التي ميزت ملامحه حين وصل قريباً منهم ورأوه، فقد كانت قوة أقرب إلى الحقد أو الكراهية. كان يلبس ملابس واسعة خلافاً للمرات السابقة، حيث كانت تبدو ملابسه أقل اتساعاً ومختلفة أيضاً. وخلال اللحظة القصيرة التي استغرقتها نظراته الواسعة، وهو يحدد أين تبدأ هذه المجموعة البشرية وأين تنتهي في هذا المكان، قال لدحام بحزم:

ـ يدخلون خمسة خمسة.. وحسب الحروف الأبجدية.

وأخرج من جيبه ورقة عليها الأسماء، وقرأ الأسماء الخمسة الأولى وقال لهم:

ـ اتبعوني.

❀ ❀ ❀

في الدهليز الطويل نصف المعتم هبّت فجأة على العمال الخمسة ريح باردة جعلت أجسامهم تنكمش وتقشعر. أنها تشبه الريح الشتوية، أو هواء أواخر الليل. التفتوا في أكثر من اتجاه ليعرفوا من أين تأتي هذه الريح، لكن لم يشاهدوا شيئاً. كانت الغرف على جانبي الدهليز مغلقة وصامتة،

ولم يكن يسمع سوى وقع أقدامهم وهم يمشون بارتباك وراء نعيم. مشوا مسافة طويلة حتى إذا وصلوا نهاية الممر تقريباً توقف نعيم فجأة، فتوقفوا. نظر إليهم بطرف وجهه ثم فتح باباً كان يقف عنده ودخل. ولم يعرفوا هل عليهم أن يدخلوا أم أن ينتظروا، نظروا في وجوه بعضهم بعضاً، نظروا إلى الباب المفتوح، وكانت بضع خطوات لا تزال تفصله عنهم، أخرج نعيم رأسه مثل ساحر وقال: ادخلوا.

حين دخلوا الغرفة وجدوا أنفسهم أمام رجل شديد السمرة، يجلس وراء طاولة. كانت مجموعة من الكراسي على جانبي الغرفة. نظر إليهم الرجل نظرة محايدة وباردة. تحدث مع نعيم ثم قام الاثنان معاً. فتحا باباً جانبياً ودخلا وأغلقا وراءهما. سُمعت أصوات من الداخل. كان العمال يقفون في منتصف الغرفة، كانت الغرفة أقرب إلى البرودة. لا، كانت باردة، بل باردة جداً. التفتوا، نظروا إلى الجدران والمقاعد ثم نظروا في وجوه بعضهم بعضاً. كانوا صامتين تماماً، وكانت حلوقهم جافة، وقلوبهم تخفق بقوة.

فتح الباب ذاته مرة أخرى وخرج الرجلان معاً؛ قال نعيم لواحد منهم: «تعال معي»، وقال للآخرين: «اجلسوا هنا»، وأشار إلى المقاعد جهة اليمين، مقابل الباب، وفي محاولتهم الجلوس اصطدم اثنان أحدهما بالآخر وهما يحاولان الحركة والتوجه نحو الكراسي، وكاد واحد منهم أن يجلس على نفس الكرسي الذي توجه إليه آخر. أما حين جلسوا فكانت نظراتهم مصوبة إلى الرجل الأسمر الذي جلس من جديد وراء الطاولة وإلى الباب الذي دخل منه نعيم وإبراهيم الفالح.

الرجل الشديد السمرة، والذي لم يروا سمرة قاسية حادة مثلها من قبل، كان نظيفاً براقاً وكأنه مدهون بالزيت. بعد أن استراح وراء طاولته نظر إليهم نظرة طويلة، بدت نظرته أقل قسوة من المرة الأولى، حين التقت نظراته بنظراتهم ابتسم. ظهرت أسنانه شديدة البياض، أو ربما بدت هكذا لأنه كان شديد السمرة، سحبوا نظراتهم بسرعة، غرقوا في الصمت، حركوا أرجلهم وأيديهم دون إرادة، تحرك واحد منهم، وحين التقت

نظراتهم بنظراته مرة أخرى ابتسم أكثر من المرة السابقة، وبسبابة يده اليسرى دق مرتين على صدره وقال وهو يبتسم:

ـ مسلمان. . . مسلمان. . علي إقبال.

ابتسموا له ابتسامة مرتبكة خائفة ولم يتكلموا. لم يفهموا شيئاً مما قاله. نظر بعضهم إلى بعض بتساؤل. ماذا تعني كلمات الرجل وماذا يريد منهم؟ هل سألهم وينتظر إجابة من نوع ما؟ تطلع إليهم وهز رأسه ثم براحة يده كلها دقّ على صدره مرة وقال:

ـ الهمد للّه رب العالمين. الرهمان الرهيم.

وكانت ابتسامته هذه المرة كبيرة، ومن جديد نظر بعضهم في وجه بعض، وصمتوا. قرب الرجل سبابتي يديه الاثنتين من بعضهما وحركهما بشكل متوازٍ، ثم دق على صدره، إشارة إليهم وقال:

ـ مسلمان.

كانوا خائفين ومرتبكين. فهموا ولم يفهموا في وقت واحد. صمتوا.

❀ ❀ ❀

حين دخل إبراهيم الفالح وجد الغرفة كبيرة جداً وباردة. أكبر من الغرفة الأولى بثلاث مرات أو ربما أكثر. والبرودة فيها كما في الغرفة السابقة. رأى في صدر الغرفة طاولة كبيرة بيضوية لا يجلس أحد وراءها، ورأى ثلاثة من الأميركيين. عرفهم من النظرة الأولى: اثنان كانا يترددان باستمرار على حران لعرب ويعرفان العربية، أما الثالث فكان صاحب اللحية الكبيرة الحمراء. كانوا يجلسون في وسط الغرفة تقريباً، على شكل دائرة غير كاملة، وكانت مقاعد عديدة فارغة. لم يجد شيئاً يقوله لهم، كان يريد أن يسلّم، أن يقول شيئاً، لكن وجد نفسه مرتبكاً، حرك يده بتحية ولم يتكلم، نظروا إليه من رأسه حتى قدميه وهو يتقدم نحوهم. ابتسم له أحد اللذين يتكلمان العربية وطلب منه الجلوس، وأشار إلى مقعد. جلس، وجلس نعيم قريباً منهم، وإن ترك كرسياً أقرب إليهم فارغاً.

تطلع بعضهم في وجوه بعض، قالوا فيما بينهم كلمات لم يفهم منها شيئاً، قال نعيم موجهاً إليه الكلام:

ـ سنقوم بتوجه مجموعة من الأسئلة ونريد أن تجيب عنها بدقة . .

وحين رأى الخوف في عينيه، قال بلهجة ودية:

ـ الأسئلة بسيطة، عادية، ويمكن لأي إنسان أن يجيب عنها.

كانوا يتكلمون بالإنكليزية ونعيم يترجم، لكن قبل أن يوجه إليه أي سؤال انتقل واحد من اللذين يعرفان العربية إلى الطاولة البيضوية، جلس وراءها استعداداً للكتابة، وبعد فترة صمت قصيرة بدأت الأسئلة:

ـ الإسم. . الإسم الكامل، اسم الأب والجد؟

ـ إبراهيم الفالح الإبراهيم

ـ الإسم بعد الجد؟

ـ إبراهيم الفالح الإبراهيم المحمد

ـ جد الجد؟

ـ إبراهيم الفالح الإبراهيم المحمد الإبراهيم

ـ من أية قبيلة؟

ـ العتوم

ـ الفخذ؟

ـ حرب

ـ اسم الأم؟

ـ نظر إبراهيم الفالح إلى نعيم بدهشة وصلت حد الاستغراب ثم تطلع إلى الأميركيين الثلاثة، فلما وجدهم بانتظار إجابته سأل:

ـ ما عليكم من الأم؟

نظر إليه نعيم بتحديد أقرب إلى التأنيب. ثم التفت إلى الأميركيين وترجم ما قاله. ضحك الأميركيون الثلاثة بصوت أقرب إلى القهقهة، وقال أحد اللذين يعرفان العربية:

ـ المعلومات المطلوبة بسيطة وضرورية. . .

توقف لحظة، ابتسم له. وقام، اقترب منه حتى حاذاه، سأله وهو يربت على كتفه:

ـ عندك أم؟

هز إبراهيم رأسه بالإيجاب

ـ الأم عنده إسم؟

ومن جديد هز رأسه بالإيجاب

ـ ما هو اسم الأم؟

زفر إبراهيم مثل ذئب جريح، هز رأسه بلوعة ونظر إلى الأميركي الذي يقف فوقه، ثم نظر إلى نعيم وقال بنفاد صبر:

ـ اسم الأم مزنة

ـ تعيش أم ماتت؟

رد وهو يبتسم:

ـ ماتت

ـ والأب؟

ـ الأب حي

ـ هل تزوج عدة زوجات؟

قال بنفاد صبر:

ـ ما بال القوم ما عندهم سالفة إلا أبوي وأمي؟

ومن جديد ضحك الأميركيون الثلاثة وشاركهم نعيم، بعد أن ترجم ما قاله له. رجع الأميركي الذي كان يقف بالقرب منه. تكلم مع الاثنين الآخرين، ثم توجه إلى نعيم بالكلام فقال له بعض الأشياء أثارت ابتسامات الآخرين. هز نعيم رأسه عدة مرات دلالة الفهم أو الموافقة ثم تكلم:

ـ مثل ما قلت لك في البداية: المعلومات المطلوبة بسيطة وضرورية، وهي أيضاً سرية، لا يمكن لاحد أن يطلع عليها، ولذلك يمكن أن تجيب بحرية ودون خوف.

توقف لحظة ثم أضاف بلهجة مختلفة:

ـ كل هذه المعلومات ضرورية من أجل زيادة الراتب، من أجل الترقية، ويمكن أن تساعدك في السفر إلى أميركا من أجل التدريب.

قلب إبراهيم الفالح شفته دلالة على عدم الاهتمام.

ومن جديد بدأت الأسئلة:

ـ هل تزوج أبوك غير أمك؟

ـ نعم تزوج اثنتين غيرها

ـ ما ترتيب أمك بين الزوجات؟

ـ ما ترتيب أمي؟

ـ هل هي الأولى؟ الأخيرة؟

ـ الأولى.

ـ والزوجات بعدها، أثناء حياتها أم بعد وفاتها؟

ـ واحدة قبل والأخيرة قبل ثلاث أربع سنوات

ـ أي بعد وفاتها؟

ـ أي نعم؟

ـ كم أخ لك؟

ـ ثلاثة وأنا الرابع.

ـ هل هم أكبر منك أم أصغر؟

ـ أنا الكبير، كلهم أصغر.

ـ كم عدد الأخوات؟

ـ أعوذ بالله من الشيطان، اتركونا يا جماعة الخير!

قال نعيم بحزم:

ـ قلنا لك: هذه المعلومات ستبقى سرية ولن يطلع عليها أحد، وهي ضرورية بالنسبة للشركة!

همهم إبراهيم الفالح فخرجت من فمه أصوات غير واضحة

ـ عدد الأخوات؟

ـ خمس

ـ هل أنت متزوج؟

ـ لا

ـ وأخواتك وإخوانك هل فيهم متزوج؟

ـ الأخوات ثلاث متزوجات

ـ هل تزوجن غرباء أم أقرباء؟

ـ أقرباء.

قال أحد الأميركيين وهو يبتسم:

ـ الآن انتهينا من الأسئلة عن الأهل، طبيعي هناك عشرات الأسئلة الأخرى التي كان يفترض أن تُسأل، لكن هذه المرة يكفي هذا القدر.

توقف قليلاً، نظر إليه ليعرف ردّ فعله، فلما وجد صامتاً وعلامات الضيق تظهر على وجهه، التفت إلى ذي اللحية الحمراء، تكلم معه قليلاً ثم عاود الأسئلة من جديد:

ـ أنت مسلم أليس كذلك؟

هز إبراهيم الفالح رأسه دلالة الإيجاب ولم يتكلم.

ـ هل تصلي؟

ـ بعض الأوقات.

ـ لماذا بعض الأوقات؟

ـ نلحق على الصلاة!

ـ نريدك أن تجيب بدقة، لماذا لا تصلي كل الأوقات؟

ـ يا جماعة الخير الصلاة للّه. الصلاة ما هي للعبد.

ـ ماذا تقصد؟

ـ إذا كنا مع المصلين صلينا.

ابتسموا وأدار بعضهم النظرات في وجوه بعض. سأل ذو اللحية الحمراء:

ـ ماذا تقوم به غير الصلاة من الواجبات الدينية؟

ـ أصوم.

ـ هل تصوم لأن أهلك طلبوا منك الصيام أم لأسباب أخرى؟

ـ لأن رب العالمين قال: صوموا.

ـ هل تصوم في غير شهر الصيام؟

ـ لا

ـ هل زرت الكعبة؟

ـ لا

ـ ألا تريد زيارتها؟

ـ إن شاء الله أزورها.

ـ وغير ذلك من الواجبات الدينية؟

ـ قال بانفعال موجهاً الكلام إلى نعيم:

ـ علّم جماعتك، هذه السوالف ما منها فائدة، والأحسن يتركوها!

لما ترجم نعيم ما قاله إبراهيم الفالح هزّ ذو اللحية الحمراء رأسه دلالة التعجب والاستغراب، ثم تبادل مع الاثنين الآخرين بعض الكلمات، فتولى واحد غيره توجيه الأسئلة:

ـ ما عدد أفراد عشيرتك؟

ـ إذا ما بها حسد.. عدّ التراب.. وازود!

ـ هل تحب الشيخ؟

إذا ظل الشيخ شيخ، يحب الناس ويحارب معهم، ومثله مثلهم أحبه.

ـ هل توجد خصومات بين عشيرتك والعشائر الأخرى؟

ـ هذه السالفة سالفتنا ما هي سالفة غيرنا، وهالحين لا

ـ قال «لا» وضحك وهو يهز رأسه، تظاهروا أنهم لم يروا، تابع نفس الشخص

ـ هل تحب الأمير؟

ـ نعم!

ـ هل تحدثت معه؟ هل زرته؟

ـ لا

ـ هل تحب العمل الذي تعمل فيه الآن أم تريد أن تغيره؟

ـ البحر ما اروح. اروح أهلي وما أروح البحر، وبعده كله مثل بعضه،

حملت الحصو بهذا المكان أو بذاك المكان، حفرت بهذا المكان أو بذاك المكان، ما تغير شيء.

ـ كم عدد أصدقائك من العمال؟

ـ كلهم خويا.

ـ الأصدقاء. . الأصدقاء؟

ـ وكّلوا الله يا جماعة الخير، كل الناس فيهم الخير والبركة.

ـ هل تحب السفر إلى أميركا للتدريب؟

ـ لا

ـ لماذا؟

ضحك ضحكة عالية ولا يدري لماذا قال:

ـ أبو الحصين في بلاده سبع.

ضحكوا كثيراً لما ترجم لهم نعيم هذه العبارة، بعد أن استفسر من إبراهيم الفالح عن معنى كلمة «أبو الحصين»! وما كادت الضحكة تتراجع حتى نظر بعضهم في وجوه بعض وكأنهم يكتفون ضمناً، هذه المرة، بهذه المجموعة من الأسئلة، خاصة حين نظر أحدهم إلى الساعة ورفع رأسه كأنه يحسب كم من الوقت قد مرّ أو كم استغرقت هذه المقابلة. تكلموا فيما بينهم ثم قال أحدهم لنعيم بعض الأشياء، هز نعيم رأسه أكثر من مرة دلالة الفهم والموافقة، وقال له:

ـ كما أوضحنا لك، الأسئلة التي وجهت إليك والإجابات ستبقى سرية ولا يمكن لأحد أن يطلع عليها، لذلك نطلب منك أن لا تذكر أي شيء للعمال الآخرين إذا سألوك.

وبعد أن أوصله إلى الغرفة الثانية طلب منه أن يرجع مباشرة إلى المعسكر، أي لا يتوقف عند العمال الآخرين، وطلب من عامل من العمال الأربعة الآخرين الذين كانوا ينتظرون أن يرافقه.

عند العصر، حين عاد العمال إلى المعسكر، كان عدد الذين جرت مقابلتهم خمسة عشر، أما الآخرون فقد أجلوا إلى وقت آخر لم يحدد. وبرغم أن الكثيرين صمتوا في البداية، فلم يتكلموا ولم يسألوا أو يُسألوا، فإن حالة من الاضطراب الأقرب إلى الهياج، سيطرت على المعسكر كله. كان الدوي الداخلي يدفع الكثيرين لأن يتصرفوا بخشونة، لأن يصرخوا دون سبب واضح، ولم يتردد بعضهم في أن يذهب إلى النوم مباشرة، رغم أنهم لم يتعودوا النوم في مثل هذا الوقت!

عند أول المساء، وبعودة العمال الآخرين، الذين لم يدعوا إلى المقابلة تغير جو المعسكر، بدأت الأسئلة وبدأت التعليقات. الذين سألوا كانوا مدفوعين برغبة المعرفة، ولم تساورهم أية شكوك أو مخاوف، لكن ما كادت تلك الكلمات العمياء تتطاير حتى قال بعض الذين جرت مقابلتهم كلمات معينة أثارت في نفوس الآخرين الحيرة. قال إبراهيم الناصر:

ـ اولاد الحرام يريدون معرفة كل شيء، حتى ليش أبوي طلق وما تزوج نوبة ثانية. ويريدون أن يعرفوا إذا كنت جُنُباً لأني لا أصلي الأوقات كلها. وسألوا هل أستحلم كثيراً وضحكوا... اولاد الحرام يريدون أن يعرفوا القمحة من زرعها والبيضة من باضها.

ويصق باحتقار وغضب.

أما فواز بن متعب الهذال فلم يستطع أن يصبر طويلاً فيبقى صامتاً، إذ ما كاد واحد من العمال يطلب منه أن يكتب له رسالة يبلغ أهله أنه سيعود قريباً ويترك عمل الشركة، حتى قال له بحدة وتكلم بصوت عالٍ سمعه الكثيرون:

ـ يمكن قالوا لك مثلي: انت أحسن العمال ولك مستقبل، ولا بد نرسلك إلى أميركا للتدريب، وهناك تتعلم اللغة الإنكليزية وتدخل المدارس وتصبح في يوم من الأيام رئيساً للعمال. . .

توقف لحظة، تنفس بعمق ثم أضاف:

ـ ولو كان متعب الهذال أبوك لسألوك: نريد منك تعلمنا وتقول ليش تخاصم أبوك مع ابن الراشد، وين هو هالحين!

وصويلح طلبوا منه أن يغني لهم فلما رفض بإصرار قال له ذو اللحية الحمراء إنهم فقط يريدون أن يسجلوا كلمات هذه الأغاني، لأنها أعجبتهم كثيراً حين سمعوها في عرس الدباسي، وحين أبدى تردداً وصل حدود الامتناع، ما لبث أن تراجع نتيجة الإلحاح الذي مارسه نعيم بشكل خاص، قال له «إن الجماعة يحبون غناءنا ويريدون أن يسمعوا الكلمات فقط لكي يفهموا المعنى».

الكلمات القليلة المتناثرة التي قيلت خلقت حالة من الاستغراب، والمحاولات التي جرت من أجل إقناع الآخرين بالكلام، ماذا سئلوا وماذا يريد الأميركان، لم تتواصل ولم تنجح، وقد أحس الكثيرون أنهم أخطأوا حين تكلموا، إذا لم يكن من الضروري أن يتدفقوا بهذه الطريقة وأن يقولوا ما قالوه بعد التنبيهات المشددة التي صدرت عن نعيم.

وإذا كانت عادة العمال أن يذهبوا إلى حران العرب بين يوم وآخر لشراء بعض الحاجات أو للجلوس في المقهى الذي افتتحه أبو أسعد الحلواني، قريباً من الشاطئ، والذي سماه «مقهى الأصدقاء» فإن رغبة مغادرة المعسكر هذه الليلة كانت قوية إلى درجة أن الكثيرين استجابوا بحماس وسرعة.

كانوا بحاجة لأن يمشوا، فالمسافة بين المعسكر وحران العرب طويلة، ويمكن لرحلة من هذا النوع أن تنسيهم، فإذا لم تكف فلا بد أن يكون سيرهم في السوق، التقاؤهم بالناس أو الجلوس في المقهى كافياً، أو ربما يخفف عنهم. لم يكونوا قادرين على البقاء في المعسكر في مواجهة

بعضهم بعضاً، صامتين، ولم يكونوا قادرين على الكلام أيضاً. فالصمت أقسى عليهم من تلك المعارك التي تجري بينهم فترة وأخرى. أما إذا تكلموا فلا بدّ أن تكون آذان المراقبين وأعينهم ترصدهم، تتابعهم، وعند ذاك قد يستدعيهم الأميركان مرة أخرى، وتبدأ كلمات نعيم الرخوة: «قلت لكم ألف مرة: النظام هو النظام. الواحد لو تكلم مع الحجر، مع الحيطان لكان الحجر فهم والحيطان فهمت، وأنتم سمعتم من هنا وخرجت الكلمات من هنا، وإذا سكتنا عنكم في المرات الماضية فهذه المرة لا يمكن السكوت!» وتبدأ الأسئلة من جديد، وقد تجرّ الأسئلة إلى أشياء أخرى هم في غنى عنها.

في حران العرب، في السوق، لاحظوا أن عدداً جديداً من الدكاكين قد قام، حتى أنه لم يبق إلا فراغ واحد أو اثنان بين الدكاكين التي قامت، وقد وضع ابن الراشد كميات كبيرة من الحجارة والرمال في هذه الفراغات وبدأ يستعد للبناء. ولاحظوا أيضاً أن أعداداً كبيرة من العمال والغرباء قد وصلت وانتشرت في أمكنة عديدة، إلى جانب الخيام، قرب الجامع وفي الدكاكين. أما حين أخذوا يصلون إلى مقهى الأصدقاء فقد ابتسم أبو سعيد الحلواني ابتسامات واسعة، وكان ينظر في وجوههم وينظر إلى الأماكن القليلة الفارغة في المقهى، ولا يكف عن ترديد عبارة واحدة: «أهلاً بالشباب، أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً» وكان ينتقل بسرعة هنا وهناك لعله يوفر أمكنة جديدة لهؤلاء الذين جاءوا دون انتظار وبأعداد كبيرة.

وفي حران العرب أيضاً التقوا بابن نفاع وعبده محمد، وسمعوا أن بعض رجال حران الذين كانوا في أمكنة أخرى قد عادوا.

ابن نفاع أحس أن مجيء العمال بأعداد كبيرة إلى حران العرب يحمل معه ريحاً شريرة، فهؤلاء الذين يقابلون الأميركان كل يوم، ويعيشون قريباً منهم لا بد أن تكون العفاريت قد لبستهم، وإذا كانت عادته أن يحرص على سماع أي شيء جديد فقد خاف هذه الليلة؛ وبعد أن مدّ يده مرتين أو ثلاثاً ليصافح هؤلاء الذين جاءوا فوجاً وراء آخر، ما لبث أن تشاغل بمسبحته، وتجنّب أن تلتقي نظراته بنظراتهم فور دخولهم المقهى، لكن من

خلال الكلمات التي بدأت تتسرب إليه، تصله، على أن الأميركان استدعوا العمال إلى معسكرهم، وسألوهم عن أشياء كثيرة، فقد تحرك بعصبية وانفتحت عيناه وأذناه معاً. ومع دعائه الذي لم يتغير «أعوذ بالله، أعوذ باللهمن الشيطان الرجيم» كانت تتخلل الدعاء كلمات متقطعة «أي.. أي، يا وليدي، ويش قالوا؟ ما عساهم يريدون؟ وأنتم.. قلتم شي، سولفتم معهم؟ اولاد الحرام كل واحد منهم إبليس» وبين الأسئلة والإجابات يرتفع صوته وينخفض، يزداد استغرابه ليصبح أقرب إلى اللوعة. والعمال الذين كان بعضهم يتحدث إلى بعض، كانوا يحبون أن يرفعوا أصواتهم قليلاً، أن يسمع ابن نفاع بعض الذي حصل. أما حين قال إبراهيم الناصر أنهم سألوه إذا كان يستحلم أم لا فقد وقف ابن نفاع وأخذ يصرخ ويهذي:

ـ «اقطعوا زبابكم يا أهل حران وارموها للكلاب؛ الأميركان دخلوا بين الرجّال وحرمته، الأميركان ركبوا ظهورنا وبكرة يسحرونا ويبدلون الرجال والنساء.. يسوّون الجميع قرود؛ أبوهم وأبو اليوم اللي جاءوا فيه.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وبهياج وصل حدود الاحتقار وقف، نظر في الوجوه نظرة واسعة حاقدة، ثم بصق أكثر من مرة بصوت عالٍ وخرج.

قال أبو أسعد الحلواني ليخلق جواً من الطمأنينة:

ـ الحاج راح للجامع ليصلي العشاء!

عبده محمد كان يجلس في زاوية بعيدة، وقد أدار ظهره للمقهى كله لكي يمنع أي واحد من الجلوس معه، أو الدخول في حوار أو أسئلة، خاصة عن الصور الجديدة. والعمال إذا كانوا قد تعودوا عليه وبدأوا يحافظون على هذه المسافة التي فرضها وأرادها، خاصة بعد أن عرفوا أنه عاشق، فقد كانوا مشغولين الليلة بهذا الهم الجديد الذي دخل حياتهم فجأة فخضها وخلق فيها اضطراباً لا يعرفون كيف يواجهونه، لذلك لم يقتربوا من عبده محمد. تعمد بعضهم أن يلقي عليه التحية بصوتٍ عالٍ ومن بعيد، لكي يقولوا له أنهم رأوه، وأنهم لا يريدون إزعاجه. وكطريقة لرد

هذا الجميل وللاستمرار في المحافظة على المودة فقد التفت عبده في كل المرات التي سمع تحية موجهة إليه، ولم يتردد من الوقوف للتعبير عن المزيد من المحبة والاحترام أثناء الرد.

رأى بعض العمال، في لحظات معينة، أن عبده كان يلتفت التفاتة الخائف أو المتردد، لكي يرقب الجو ويتأكد، حتى إذا اطمأن أن الآخرين يغرقون في همومهم ومناقشاتهم، وكان صوت ابن نفاع يصل إليه رتيباً منتظماً، رأى البعض عبده أكثر من مرة يخرج من جيبه صورة، ينظر إليها فترة غير قصيرة، كان يفعل ذلك ويهز رأسه هزات بطيئة وكان يكلم نفسه همساً وهو يبتسم. وبعد ذلك يعيد الصورة إلى جيبه ويلتفت إلى هذه الجهة، إلى تلك، كي يتأكد أن أحداً لم يره. لقد فعل ذلك عدة مرات، ولو أن العمال كانوا في ظرف آخر لربما علّقوا أو سألوا، أو ربما لفتوا نظر بعضهم البعض إلى ما يفعله عبده محمد، لكن الذين رأوا هزوا رؤوسهم وصمتوا. أما حين بلغ ابن نفاع الحد من الهياج فقد أدار عبده محمد كرسيه تماماً، فأصبح في مواجهة الآخرين. ومن زاويته بدأ يتابع ويسمع، حتى إذا ذكر ابن نفاع تلك الكلمات التي أثارت ضحكات العمال وصخبهم وضع يده على عضوه التناسلي وكأنه يتأكد أنه لا يزال في مكانه! وبعد أن خرج ابن نفاع بقليل، وعاد الهدوء إلى مقهى الأصدقاء قام، مشى بين الطاولات الصغيرة الحديدية، يريد الخروج والكلمات القليلة التي وجهت إليه رد عليها بسرعة، أما حين طلب منه بعض العمال أن يجلس معهم لأنهم مشتاقون إليه وقد قطعوا مسافة كبيرة من معسكرهم لكي يروه فقد ردد نفس العبارات:

ـ الفجر لا يتأخر ولا ينتظر، وبكره كل واحد منكم جوعان وهات خبز يا عبده!

وصلت أصداء الشتائم والمخاوف إلى «إدارة الأفراد» بسرعة، ومن «إدارة الأفراد» إلى المقر، وكان رد الفعل: الصمت وتوقف المقابلات.

لم يصدر عن الإدارة أي فعل يشي بالغضب، أو حتى عدم الرضا، بل وأصبحت معاملة الأميركيين، خاصة أولئك الذين يتكلمون العربية، أكثر رقة وأكثر مكراً، إذ بدأ هؤلاء يزورون حران العرب، لكن لم يعودوا يلبون الدعوات التي توجه إليهم إلا في حالات نادرة. وحتى في هذه الحالات التي استجابوا فيها وزاروا بعض البيوت، أو بعض الأشخاص، اقتصرت الأحاديث على الطقس وعلى معنى بعض الكلمات والأسماء.

في إحدى المرات، لما قاموا بزيارة عبد الله السعد، صدف أن كان ابن نفاع موجوداً، وبعد أن نظر في وجوههم طويلاً وهو يهز رأسه، سألهم ما إذا كانوا يريدون التفريق بين الرجل وزوجته، بين الأخ وأخيه، ثم سألهم عن المكان الذي يضعون فيه الجن، وهل يريدون أن يجلبوا عدداً من العفاريت يوازي عدد أهل حران وعدد القبائل التي حولها. . حين سألهم بهذا الشكل المفاجئ والقاسي، نظر بعضهم في وجوه بعض، وضحكوا كثيراً، وبدأوا يرددون بعض الآيات القرآنية! وقال واحد منهم «إن اتهام أهل الكتاب بالكفر معصية عند الله» وابن نفاع الذي فتح فمه دهشة وهو يسمع الآيات القرآنية لم يصدق أول الأمر، وحين ردّدوا آيات أخرى قام بانفعال من المجلس وهو يصرخ:

ـ إبليس له ألف وجه وألف لسان.

ورغم أن عبد الله السعد بدا محرجاً ومتضايقاً من حديث ابن نفاع،

فقد ظل يكظم غيظه، لكنه لم يستطع حين قال ابن نفاع هذه الكلمات، فبدا غاضباً شديد الانفعال، فلما حاول أخوه راشد استرضاء ابن نفاع وإعادته إلى المجلس، وابن نفاع يصرخ، يريد أن يفلت، ويردد بعض الشتائم، فقد قال، مخاطباً أخاه ويريد أن يسمع الآخرون:

ـ خل الباب مفتوح يا راشد وهو يسع البعير، مرحباً بالضيف واللي ما يبغانا أرض الله واسعة!

رجع ابن نفاع حين سمع هذه الكلمات. وقف في بوابة المضافة، حيث يجلس ابن السعد وضيوفه، كان منفعلاً قاسياً:

ـ أي والله الأرض واسعة، والله يرحم ذاك النايم بالوطا، أبوك، كان يقول اللهم ابنِ سداً من نار بيني وبين اولاد الحرام.

توقف قليلاً، تطلّع في وجوه الأميركيين، الذين أصيبوا بالذعر، ابتسم بسخرية ثم تابع:

ـ يا وليدي الديار الغريبة تخرب، والناس الغرباء يخربون. . والفلوس تخرب.

مطّ عبد الله السعد شفته السفلى ساخراً ولم يجب. خيم الصمت. وابن نفاع في الباب ينتظر أية كلمة لكي يرد، فلما وجد أنه غير قادر على الاستفزاز أكثر من ذلك، استدار حتى أصبح يواجه القوم بنصف وجهه وقال:

ـ باكر تعضون أصابعكم. . لكن ما تنفع الندامة.

وزار الأميركيون معسكر العمال، جاءوا أول الأمر بحجة الكشف على موتور الماء، ثم جاءوا من أجل تحديد مواقع البركسات الجديدة، وفي المرتين قضوا فترات أطول مما يتطلب الكشف على الموتور أو تحديد مواقع البركسات. وفي المرتين تبادلوا الإشارات وبعض الكلمات مع العمال.

في المرة الثالثة لما جاءوا كان عددهم أربعة، وكان ضمن الأربعة واحد يتكلم العربية، ورافقهم نعيم أيضاً. جاءوا يوم الجمعة، يوم عطلة العمال، قبل الظهر. قالوا إنهم يريدون بناء مسجد ونادٍ للعمال، وإنهم

يفكرون باختيار لجنة للإشراف، وقد سألوا العمال ما إذا كانوا يفضلون انتخاب هذه اللجنة أم يترك تحديدها «لإدارة الأفراد». وسألوا إذا كان لدى العمال اقتراحات أخرى. والعمال الذين كانوا شديدي الحذر ولم يتكلموا إلا أقل الكلمات، وعندما سئلوا مباشرة، قالوا لنعيم إنهم يفضلون انتخاب اللجنة من قبلهم.

كان الأميركيون، رغم الود الذي عبرت عنه تصرفاتهم والكلمات التي قالوها، يتطلعون إلى وجوه العمال، يدققون بتصرفاتهم وردود أفعالهم تجاه أي اقتراح أو أية فكرة يتقدمون بها. كانوا يرغبون لو أن الحديث معهم يمتد ويطول، أو لو يعبرون عما يريدون بصراحة ودون خوف، لكن إزاء الوجوه المغلقة، والكلمات القصيرة، لم يكن من الممكن أو من السهل مواصلة الحديث.

في إحدى اللحظات قال الأميركي الذي يتكلم العربية، والذي كان في لجنة مقابلة العمال، إنه يريد أن يوضح للجميع أن الشركة جاءت لخدمة العمال ومن أجلهم، وإنها ستكون أقدر على خدمتهم فيما لو توافرت المعلومات التي تساعدها: ماذا يرغبون من الأكل؟ أي عمل يرتاحون فيه؟ أما عندما تسأل الشركة العمال هل يصلّون أم لا فلكي تقدّر إذا كان بناء مسجد ضرورياً أم يكفي مسجد حران، مثلاً.

تحدث الأميركي عن هذه الأمور بطريقة منفعلة ومضحكة في آن واحد، إذ بالإضافة إلى لهجته التي لم تكن مفهومة بالمقدار الكافي، فقد استعان بنعيم مرتين من أجل كلمات معينة! ولما انتهى كان شديد السعادة لأنه رأى العمال يبتسمون ويلفت بعضهم نظر بعض. كان يدرك أن طريقته في الكلام هي السبب، ومع ذلك فقد كان يهدف إلى خلق جو من الألفة وإعادة الثقة.

بعد أكثر من ساعة في أحاديث وأسئلة متنوعة، ابتسم العمال وتغامزوا خلالها عدة مرات، قال الأميركيون أنهم يغادرون الآن بعد أن وقفوا على رأي العمال ومطالبهم، وأنهم سينقلون إلى المقر كل ما سمعوا، وخلال فترة قصيرة سوف تتخذ الإجراءات من أجل البدء بإنشاء المسجد والنادي.

لم يقتصر تحرك الأميركيين على هذه الزيارات فقط، إذ أرسلوا بعض الهدايا إلى حران العرب وإلى المعسكر. كما أبلغوا العمال عن طريق «إدارة الأفراد» أن المقابلات قد توقفت واستعيض عنها باستمارة خضراء دوّنت فيها أسئلة متعلقة باسم العامل وعمره والمنطقة التي جاء منها، أما الخانة الخاصة بالوضعية العائلية، أي هل هو متزوج أم لا، وعدد الأولاد، فقد أوضح نعيم قبل توزيع الاستمارة أن الغاية من هذا السؤال هي إعطاء علاوة للمتزوجين وللذين عندهم أطفال، وهذه العلاوة تتناسب مع عدد الأطفال. أما حين سأله عبد الله الزامل ما إذا كانت العلاوة تقتصر على عدد الأطفال فقط أم على عدد الزوجات أيضاً فقد بدا السؤال مفاجئاً تماماً لنعيم، قال بنوع من الحيرة:

ـ الإدارة لم تفكر بهذه القضية وسوف نسأل القسم القانوني!

بعد أربعة شهور من العمل المتواصل تم تعميق البحر وتوسيع الميناء مقابل معسكر الأميركان، وفتحت عدة شوارع، أحدها يربط الميناء بالمعسكر مباشرة؛ وآخر إلى جانبه ثم يتجه غرباً، قريباً من شاطئ البحر، حتى يصل إلى حران العرب؛ أما الشارع الثالث فكان يبعد قليلاً عن الميناء ويصل بين الشارع الثاني ومعسكر العمال.

وبتوسيع الميناء وبناء هذه الشوارع تغيرت حران مرة أخرى: بدأت تصل، بين يوم وآخر، بواخر صغيرة وكبيرة، وهذه البواخر تحمل الناس والبضائع والمخاوف وأشياء غريبة في صناديق كبيرة الحجم، ومع وصول كل باخرة جديدة تهتز حران، تمتلئ بالمخاوف، ترقب كل شيء وكل حركة من خلال عيون أطفالها ورجالها المسنين. وإذا كان الأطفال قد تعودوا عدّ البشر الذين ينزلون من البواخر، فإن المسنين كانوا يراقبون ويتأملون ويتساءلون ثم تزحمهم المخاوف والهواجس فينكفئون عائدين إلى السوق أو إلى مقهى أبو أسعد الحلواني، فيتبادلون الأحاديث والأخبار في جو من المرارة والخوف، حتى إذا حان وقت صلاة المغرب انتهت إقامتهم في المقهى فذهبوا إلى مسجد حران الذي لم يتغير، وهناك قبل الصلاة، أو بعدها، يغرقون لحظات طويلة في الصمت والتأمل، فإذا استفاقوا مرة أخرى هبوا بأجسام قوية، لكن بأرواح مثقلة بالهمّ، كي يبدأوا رحلتهم باتجاه حران الجديدة على التلال الغربية.

البشر الذين يصلون إلى حران لا نهاية لتنوعهم وأشكالهم، ولتصرفاتهم أيضاً. كان قسم منهم يذهب إلى معسكر الأميركان مباشرة. وهؤلاء تنقطع أخبارهم، فلا يعود الناس إلى رؤيتهم إلا في وقت متأخر.

وكان قسم آخر يتولى الأميركان تأمين الخيام لهم قريباً من الشاطئ، ولقد حصل عدة مرات أن أقيمت وهيئت قبل وصول هؤلاء، فما تكاد البواخر تصل حتى يذهب الذين يأتون عليها إلى هذه الخيام، وخلال فترة تبنى لهم بركسات جديدة أو ينتقل قسم منهم إلى معسكر الأميركان ذاته. وكان آخرون يأتون ولا يدرون إلى أين يذهبون، فلا المعسكر يستقبلهم ولا الخيام جهزت لهم، كما لا يكون أحد بانتظارهم. وهؤلاء الذين يقضون وقتاً غير قصير، إلى أن ترسو سفنهم، يتباطأون في النزول، وتبدو عليهم الحيرة ويملؤهم التردد، إذ ما يكادون ينزلون إلى الشاطئ ويكومون أمتعتهم وأشياءهم حتى يجيلوا النظر فيما حولهم ويفترضوا أنهم أخطأوا بشكل ما في اختيار المكان، فيغيرون مكانهم مرة بعد أخرى، حاملين معهم الأمتعة والأشياء، وتسيطر على تصرفاتهم وحركاتهم الفوضى والضوضاء.

وخلال فترة قصيرة ينتشرون في كل مكان: في السوق، في مقهى أبو أسعد، وفي المسجد وقرب المعسكر.

أغلب الذين يأتون في بواخر من هذا النوع فقراء خائفون، ولا يترددون في قبول أي عمل يعرض عليهم، إذ ما يكاد دحام أو الدباسي، أو أي شخص آخر من حران، يطلب منهم أن يأتوا ليعملوا في المعسكر أو في قطع الحجارة أو في بناء البيوت حتى يوافقوا، وبهمة كبيرة لا تعرف التردد، ومن أجل أن يكسبوا الثقة والبقاء كانوا يوافقون على أي شيء سواء من حيث الأجر أو نوع العمل.

وحران ذاتها تفور، تتغير وتكبر كل يوم.

بيت الإمارة ارتفع، وأصبح كبيراً عالياً على التل الشمالي، وإلى الشرق منه، على مسافة مائتين أو ثلاثمائة متر ارتفع بيت آخر هو بيت الأمير، ويمكن لأي إنسان على الشاطئ، أو في أي مكان آخر من حران أن يشاهد البناءين وهما يرتفعان ويتكاملان يوماً بعد يوم.

عبد الله السعد لم ينتظر ولم يتردد، كما فعل ابن الراشد، ليقرر بناء بيت على التل الغربي. جنّد عدداً من أهل حران ليساعدوا في بناء البيت،

وأهل حران اندفعوا بقوة وهمة كبيرة للمساعدة، وكأنهم مدفوعون بقوة خفية لتحدي بيت الإمارة وبيت الأمير من ناحية، ولكي يثبتوا للأميركان أنهم قادرون على عمل شيء لا يقل عن أعمالهم وبيوتهم من ناحية أخرى. ولهذه الغاية استدعي من عجرة أبو عبده التلي للقيام بهذه المهمة، فجاء ومعه عدد من مساعديه، وبعد أن قضى عدة أيام في حران يتجول ويختبر الأرض والحجارة، وقد اقترب كثيراً من معسكر الأميركان لكي «يناظر» البيوت التي يسكنون فيها، بعد أن منع من دخول المعسكر، ولم تجد المحاولات التي بذلت في هذا المجال... بعد هذه الإختبارات و«المناظرة»، والتي رافقها همس كثير وتردد واضح، اندفع أبو عبده التلي ومساعدوه إلى العمل بثقة عالية، وقبل دخول فصل الشتاء من تلك السنة كانت المداميك الأخيرة، فوق عقود الشبابيك، قد انتصبت بلون حجارتها الرمادية، واستمر العمل متواصلاً بعد ذلك.

حتى ابن الراشد الذي سافر لم يغب طويلاً، إذ عاد قبل عودة الأمير بأسبوع. وقد جاء معه، مثل كل مرة، عدد من الأشخاص. ورغم أن أحداً لم يعرف ماذا سيفعل، إلا أن دحام لم يخف عزم ابن الراشد على إقامة بناء حديث وسط السوق. قال إن البناء سيكون أعظم الأبنية في حران كلها، وربما في الأماكن الأخرى أيضاً. إذ سيكون من ثلاثة طوابق، الأول سيكون سوقاً تجارياً كبيراً، فيه مجموعة من الدكاكين الواسعة، وستكون أوسع هذه الدكاكين مركزاً لابن الراشد. أما الطابقان الثاني والثالث فسوف يسكن فيهما ابن الراشد نفسه، لأن كل زوجة من زوجتيه تحتل طابقاً خاصاً بها. وابن الراشد الذي لم يتكلم في الأمر مباشرةً، أجاب عندما سئل ذات يوم، وكان يجلس في مقهى أبو أسعد الحلواني، أجاب وهو يبتسم ويتجنب النظر في عيون الذين حوله:

ـ الملك لله يا جماعة الخير...

ولما نظروا إليه وابتسموا قال ضاحكاً:

ـ البشر في حران صاروا مثل التراب، والسكن في الفلاة ما عاد يجوز، خاصة إذا كان الواحد معه حريمه...

لم يكتفِ بذلك، قطب وجهه وقال كأنه يكلم نفسه:

ـ ومثل ما تلاحظون. . السوق ما عاد يكفي وحران يلزمها أكثر من سوق.

وفهم الناس أن ابن الراشد سيأتي بأهله بعد أن يشيد البناء، وإنه سيفعل ذلك في وقت قريب.

وخلال الأيام الأولى لوصوله رآه الكثيرون يتجول في السوق، قريباً من المسجد، وكان بصحبة بعض الذين جاءوا برفقته، وقد بدا عليه الانفعال والانشغال معاً. أما في يوم آخر فقد رآه بعض الناس، في الصباح الباكر، يضع طرف ثوبه في وسطه، تحت الحزام العريض الذي يلبسه، ويمسك حبلاً أو ما يشبه الحبل، مقابل رجل كان يقيس الأرض ويسجل على ورقة يحملها أشياء لم يعرف الناس ما هي، لكن تأكد الجميع أن ابن الراشد لن ينتظر طويلاً حتى يبدأ البناء.

وفي هذه الفترة أيضاً قيل إن صالح الدباسي سوف يتزوج أخت محمد السيف، فالعلاقة القوية التي قامت بين الرجلين، والساعات الطويلة التي يقضيانها معاً، ثم بعض ما تسرب من النساء، خاصة زوجة الدباسي ذاتها، من أن القرابة التي تجمع العائلتين، الدباسي والسيف، لا بد أن تؤدي إلى زواج جديد لكي يدعم هذه القرابة ويجددها، لكن كل شيء ترك وأُجل إلى حين عودة الدباسي الأب من السفر.

أما هاجم الذي سافر في ذلك الغروب، أو سُفِّر على وجه أكثر دقة، دون أن يحس به أحد، فقد عاد أيضاً بصحبة رجل مسن، وقبل عودة الأمير بيومين.

كان لوصول هاجم وقع يشبه الصاعقة، خاصة على ابن الراشد، فبعد أن اعتبرت هذه المشكلة قد انتهت، ويمكن أن تُنسى بمرور الأيام، فإن وصول هاجم في ذلك الغروب جعل تلك الليلة من ليالي حران صعبة قاسية.

كان هاجم يبدو شديد النحول، كأنه لم يذق نوماً أو أكلاً من أيام،

وكان ذاهلاً ذهولاً كاملاً، حتى لا يكاد يسمع الأصوات حوله؛ ولا يرى الوجوه والعيون التي تنظر إليه. وفي المرات التي كان الرجل المسن يريد أن يخاطبه، أن يقول له شيئاً، كان يهزه، يمسكه من يده عند الساعد ويهزه هزاً قوياً، فينتفض كأنه يستعيد نفسه من مكان قصي أو يستيقظ من نوم عميق، فيتطلع إلى الرجل بعيون شديدة الحزن، وكأنها عيون حيوان جريح، فترفّ أجفانه عدة مرات مع حركة عصبية من الرأس. حتى إذا تأكد الرجل من انتباهه سأله بصوتٍ عالٍ: هاجم.. تسمعني يا هاجم؟» فإذا هز رأسه بالإيجاب تابع «قل لي، يا وليدي، تأكل؟ تشرب؟ ما جعت؟ ما عطشت؟» فيحرك هاجم يديه ورأسه دلالة أنه لا يعرف.

ما كاد ابن الراشد يسمع بوصول هاجم، ومعه ذلك الرجل الغاضب، حتى امتلأ بالخوف والحيرة، وخلال اللحظات الأولى اختفى عن الوجود تماماً. لا يدري أحداً أين اختفى أو كيف، إذ ما كاد خبر القافلة يصل، وإنها قرب المسجد، وكان ابن الراشد في مقهى أبو أسعد، حتى جاء من حمل له خبر وصول هاجم، وإن معه رجلاً غاضباً يشتم ويهدد ويسأل عن ابن الراشد. الذين رأوا ابن الراشد يدخل المقهى، الذين رأوه في المقهى عند الغروب، لم يعرفوا متى خرج أو كيف. أما محاولات البحث عنه في الخيام، ثم في السوق أو معسكر العمال، فقد انتهت إلى الفشل تماماً.

ومع كل دقيقة تمر، وبعد البحث في كل الأمكنة التي يحتمل وجوده فيها ولا يعثر عليه، يزداد الرجل المسن الذي يرافق هاجم غضباً وتندفع كلمات الشتيمة والتهديد:

ـ وين يروح ابن الراشد؟ والله.. والله لو كان بآخر تلفات الدنيا لازم أصله، لو كان في السماء أجّره وأنزله، وحتى لو رجع لـ.. أمه اطلعه.

يتوقف الرجل لحظة، يزفر، يتطلع في الوجوه ويتابع:

ـ يظن أولاد الناس مقطوعين من شجر؟ ما لهم أحد؟ لا يا ابن الراشد، الآدمي ما هو كلب، الآدمي آدمي، وإذا بعثت هاجم مع بدوي وقلت خلصت ما تخلص. هاجم وأخو هاجم، مزبان، وين صار مزبان؟ دفنته وقلت خلصنا؟

لا ما تخلص يا ابن الراشد. . . أنا وياك والزمن طويل.

وينظر الرجال إلى هاجم، إنهم لا يعرفونه لفرط ما تغير، حتى الذين مدوا أيديهم لكي يصافحوه، ورأوه يتطلع إليهم ولا يراهم. امسكوا باليد دون أن يمدها. هزوها، سألوا: «عساك طيب، عساك بخير يا هاجم؟» ولم تتغير نظراته، لم يقل كلمة، حتى شفتاه لم تتحركا. شعر الرجال بالحزن يسحق عظامهم، وشعروا أنهم غير قادرين على أن يواصلوا النظر إلى وجهه، خاصة العينين. وزاد حزنهم أنهم تذكروا كيف كان الحوت الصغير، أما عبد الله الزامل الذي جاء راكضاً حين سمع بوصول هاجم، فقد دفن رأسه في صدره، وظل كذلك فترة غير قصيرة، وحين رفع رأسه لم يتطلع إلى الذين حوله، ويقول الكثيرون أنهم رأوا عينيه حمراوين، ويؤكد آخرون أنهم سمعوا صوت بكائه وهو يدفن رأسه في صدر هاجم.

وحران التي شعرت بالحزن إلى درجة التعاسة لم تستطع أن تخفف من غضب الرجل، أما الدعوات التي وجهها إليه أهل حران، أن يذهب معهم، أن يستريح ويتعشى، حتى إذا جاء اليوم التالي لا بد أن يجدوا ابن الراشد، وأن يجدوا حلاً لهذه المشكلة، فإن الرجل رفض الدعوات بحزم أقرب إلى الخشونة، وبعد أن انتظر وتعب، وبعد أن ذهب إلى أكثر من مكان بحثاً عن ابن الراشد وعاد إلى مقهى أبو أسعد، قال لهاجم وهو يمسك به من ذراعه لينهضه:

ـ قم يا وليدي، وابن الراشد يشوف. . .

ولما نهضا يريدان الخروج ابتسم هاجم. لأول مرة، من ساعات، يبتسم. تطلع إليه الرجل المسن، ثم تطلع إلى كل من في المقهى، وقال قبل أن يخرج:

ـ أنا وراه. . وراه والزمان طويل.

ابن الراشد الذي عوّد الناس في حران على أن يظهر ويغيب بشكل مفاجئ، لم يكن أحد يتصور أنه قادر على الاختفاء بهذه السرعة ولا يُعرف أين. إذ بعد أن جرى البحث عنه في كل الأماكن التي يحتمل وجوده فيها، ولم يعثر عليه، قال بعض الناس أنه سافر، وقدّر آخرون أن سفره قد تم قبل وصول القافلة، لأن بعض الذين جاءوا معه إلى حران لم يبقوا فيها أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام ثم سافروا، ولا بد أن يكون قد سافر معهم. وذكر غيرهم أنه في حران، لم يغادرها، لكن لا أحد يدري أين.

اثنان من الذين صلوا في مسجد حران صلاة العشاء، وكانا قد شاهدا وسمعا ما قاله الرجل الذي كان مع هاجم، قال هذان الرجلان وهما يجتازان السوق في طريقهما إلى حران الجديدة، أنهما شاهدا دحام ونعيم، وهما يتجهان إلى مضارب الأمير، ولم يكن الرجلان متأكدين، ما إذا كان مع دحام ونعيم ثالث أم لا، فالظلمة كانت كثيفة، ودحام وحده رد السلام، أما الآخر ونعيم فقد عجلا في السير لكي لا يلتقيا بأحد.

وحران التي نامت متسائلة حزينة تلك الليلة، بعد أن تركت هاجم والرجل الذي معه لكي يناما في المسجد، لم تعرف ما حصل بعد ذلك. حتى الرجال الذين تعودوا السهر في مقهى أبو أسعد الحلواني لم يروا ولم يسمعوا، لأنهم غرقوا في لعب الورق أو في تعلّم الألعاب الجديدة التي جاء به أبو أسعد الحلواني من الشام إلى المقهى لكي يشجّع الناس على المجيء وقضاء أوقات طويلة في مقهاه دون ملل.

بعد العشاء بساعة أو أقل وصل ثلاثة رجال أرسلهم نائب الأمير إلى المسجد، والظاهر أنهم جاءوا مباشرة إلى هذا المكان لأنهم عرفوا أو

قدروا أن الذين يطلبون ابن الراشد موجودون فيه. ودون خطأ أو سؤال أحد اقتادوا هاجم والرجل الذي معه، فقد كان أحد رجال الأمير يعرف هاجم. اقتادوا الرجلين بهدوء، بل وبدا على الرجل الذي مع هاجم ما يشبه الفرح، إذا أضاءت عيناه واستراح وجهه حين سأله الرجال إذا كان يبحث عن ابن الراشد. وما كاد يهز رأسه بالإيجاب ويبين على وجهه التحفز، حتى طلبوا منه أن يرافقهم وهاجم، وخلال فترة قصيرة كان الجميع أمام نائب الأمير سأل نائب الأمير الرجلين بحزم أقرب إلى القسوة:

ـ من أنتم وما هو اللي جاء بكم إلى حران؟

أجاب الرجل بهدوء، لكن بحزم أيضاً، إنه جاء إلى حران ليصل إلى حقه، ليعرف كيف قتل ابن أخته ومن قتله، وليعرف أيضاً كيف انهبل الثاني. وأشار إلى هاجم الذي كان يقف إلى جانبه.

ـ وعلام تسبسب على ابن الراشد؟

ـ ابن الراشد غريمي!

ـ وتعرف ابن الراشد؟

ـ شوف ما شفته، لكن سمعت عنه.

ـ ومن قال لك إنه فعل وترك؟

ـ كل الناس تدري.

ـ تدري؟ والحكومة.. وين هي الحكومة؟

ـ أريد من الحكومة أن تأخذ لي حقي.

ـ وعلام ما تروح للحكومة وتطالب وتقول؟

توقف نائب الأمير قليلاً، تطلع إليه بقسوة وهز رأسه ثم تابع:

ـ إذا كنت تظن أنك تأخذ حقك بذراعك، أو إذا سبسبت الناس تخاف منك، فذاك يوم راح. الحين الحكومة فوق الجميع. الحكومة لا تخاف من أحد، وهي اللي ترجع الحق لأصحابه، لكن أنتم البدو ما تتعلمون إلا بالدبوس.

ودون أن ينتظر جواباً قال للرجال الذين يقفون في مقدمة الخيمة:

ـ خذوهم.

كان الرجل وهو يصعد التل، ممسكاً بهاجم، يتصور أن حقه سيصله فوراً، وأن الأمير لا بد أن يكون قد أمسك بابن الراشد، وربما ربطه، إلى حين وصوله، وحالما يسمع القصة كيف وقعت، ثم كيف أرسل إليه هاجم مع بدوي.. وقريشات، ويخرج الدراهم من جيبه ويضعها أمام الأمير ويقول له «هذه هي القريشات» حتى يأخذ الغضب الأمير، فيشتم ابن الراشد ويؤدبه، ثم يحدد كيف يجب أن تحل المشكلة.

الآن والرجال يقودونه إلى خارج الخيمة، لا يعرف إلى أين، وبعد أن سمع ما قاله الأمير، لا يصدق أذنيه، ولا يتصور أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يقع. هل هناك خطأ لا يفهمه؟ ألم يدرك الأمير ما حصل أولم يسمع به؟ والقصة من حيث الأساس، التي وقعت هنا، في حران، والتي سمعها الكثيرون، حتى في أماكن بعيدة، في عجرة والروضة وأم السعف ووادي العيون، ولم يكف الناس عن السؤال.. هذه القصة التي عرفها الناس في الأماكن البعيدة، ألا يعرفها الأمير؟ وهاجم.. ألا يكفي دليلاً على مدى شناعة ما فعله ابن الراشد؟

وابن الراشد... كيف استطاع أن يصل إلى الأمير بهذه السرعة؟ وأين هو الآن؟ لماذا لا يظهر ويتكلم أمام الأمير إذا كان يعتبر نفسه غير مسؤول أو غير مذنب؟

لم يعرف رجال الأمير إلى أين يجب أن يأخذوا الرجلين، فحران لا تعرف السجون، ولا يوجد فيها سجن، والأمر كله لا يستوجب هذه القسوة في المعاملة، خاصة وإنهم يعرفون كيف مات مزبان، وهم الآن يرون هاجم: بقايا إنسان، زائغ النظرات، في حالة من الذهول عن كل ما حوله. وحتى لو كان في حران سجن هل يمكن أن يحبس رجل مثل هذا؟

كان رجال الإمارة ينظرون إلى وجوه بعض، وإلى وجهي الرجلين، في نصف العتمة داخل الخيمة الصغيرة التي علق في وسطها فانوس ينشر ضوءاً ضعيفاً. كانوا شديدي الحيرة والحزن، فإذا نظروا إلى وجه هاجم تصبح حيرتهم خوفاً: «المهبول يعمل كل شيء، يمكن أن يحرق أو يقتل،

ويمكن أن يبول على الآخرين وهم نيام» هكذا فكر بعض الرجال، وهكذا كانوا ينظرون إلى المسلوبين ويتعاملون معهم بدوافع الخوف والشفقة معاً. . الآن. . ماذا يفعلون بهذا المهبول؟

وسط الحيرة والمرارة صرخ نائب الأمير، ركض رجل ليلبي نداءه، وما كاد يرجع بعد دقيقة أو اثنتين حتى قال بحقد أقرب إلى الشتيمة:

ـ الناس مات بقلوبها الله. الواحد منهم صار مثل الصلّ.

ولما استفسر منه الآخرون، قال وهو يعطي ظهره لهاجم والذي معه، لعلهما لا يسمعانه، إن نائب الأمير طلب إليه أن يُربط الرجلان إلى الجمال المعقولة. أبدى رجال الإمارة استغرابهم واستنكارهم، أما الرجل الذي كان مع هاجم، والذي افترض في لحظة وهم أخيرة، حين نادى الأمير مستدعياً أحد رجاله، إن شعور الأمير بالخطأ لا بد أن يدفعه الآن إلى تصحيح هذا الخطأ، وعمل شيء يجعل كلماته أقل قسوة، وربما لها معنى آخر. أما حين سمع ما قاله لأحد رجاله فقد ضحك بسخرية وودّ في تلك اللحظة لو يبكي أو يصرخ. كان يجب أن يفعل شيئاً لئلا يسقط ميتاً، وحين نظر إلى هاجم ورآه ينظر إليه بتينك العينين الضاحكتين المسكينتين ويبتسم، أمسك بذراعه وشد عليه، وقال بصوت يسمعه الجميع، وربما كان يريد أن يسمعه الأمير أيضاً:

ـ الواحد. . . إذا ما أخذ حقه بذراعه، يموت ولا يحصل على شيء. . .

ناموا جميعاً تلك الليلة قريباً من مربط الجمال. كان يفصل بينهم وبين الجمال سور منخفض، بارتفاع نصف القامة، مبني من حجارة صغيرة غير منتظمة. أما الحبال التي كان يفترض أن تستعمل فقد ألقيت بإهمال وغضب، دون أن يكلف أحد من رجال الإمارة نفسه بأن يقوم بهذه المهمة المستحيلة، إذ بعد أن نظر بعضهم إلى بعض، وبعد أن نظروا في وجهي الرجلين، وحين قرروا أن يناموا قالوا للرجلين: «ننام هنا» وأشاروا إلى تلك الفسحة التي توضع في جانب منها أكياس التبن، ولم يضيفوا كلمة واحدة.

بدت حران في تلك الليلة ثقيلة قاسية، رغم أن البرودة التي ملأت الجو آخر الليل اضطرت الرجل المسن أن يسهو قليلاً، لكنه لم ينم نوماً عميقاً متصلاً. أما حين نظر إلى الرجال الخمسة، بمن فيهم هاجم، الذين كانوا ينامون حوله، فقد بدا له على ضوء الفجر أنه يعرف هؤلاء الرجال، وأنه رآهم من قبل. وحين استدار واحد منهم، وأصبح يقابله تماماً، ظن للحظة أنه يرى مزبان ذاته! كان وجه مزبان هكذا حين رآه مرة قبل ثلاث سنوات. أما الجمال التي كانت لا تتوقف عن المضغ، وكان يرى رقابها ورؤوسها، وهي تتحرك وتستدير بين فترة وأخرى، فقد بدت أكثر حزناً من أية جمال أخرى، كانت تدير ألسنتها وحلوقها وكأنها تشتم وتنظر إلى كل ما حولها بحقد. كان الرجل يمتلئ غضباً، لا، ليس الغضب فقط، إنه يمتزج بشيء أسود يشبه القطران، وشديد الكثافة مثل الدم الذي مضى عليه الوقت لكنه لم يجف بعد. قال في نفسه وهو يجلس في فراشه مع أضواء الفجر الأول «هل وصلت النذالة إلى درجة أن يصبح القتيل هو المخطئ؟

وأن يحبس الذي يطالب بحقه؟ وهل يمكن أن يحتمل الإنسان كل هذا ويسكت؟» تلفت حواليه. رأى عدداً من الخيام ورأى بناءين كبيرين شديدي القسوة، قال في نفسه «ابن الراشد ما يفلت مني حتى لو كان طيراً، ولو كان معه كل الناس» وهز رأسه أكثر من مرة وتطلع إلى الرجال الذين ينامون حوله، فبدا له انه يعرفهم أكثر من قبل. أما هاجم الذي كان ينام على ظهره، وجهه نحو السماء ويداه ممدودتان على اتساعهما، وشفته السفلى مرتخية، وكأنه يبتسم، فقد ظهر كطفل. كان مثل الأطفال الآخرين لكن أكبر حجماً، قال في نفسه «لو عرفتْ أمهم لقتلت نفسها».

إذا حصل خطأ في الليلة الفائتة، نتيجة الغضب أو نتيجة كلمات قالها وفهمت على أنها تهديد مباشر لابن الراشد، وإنه جاء لينتقم ويقتل، ولم يجيء من أجل أن يطالب بالحق ويعرف كيف وقعت الأمور، إذا حصل خطأ في الليلة الفائتة فلا بد أن يتصرف الأمير بشكل مختلف في هذا اليوم. هكذا قال الرجل المسن في نفسه، لكن حين جاء الصباح وارتفعت الشمس ثم بدأت الحركة والضجة، خاصة في البناءين، وحين طلب إليهم دخول الخيمة الصغيرة والبقاء فيها، فقد بدأت الشكوك تساوره مرة أخرى. كانت أكثر من شكوك، إذ لو أراد الأمير أن يعرف الحقيقة، أن يسأل الآخرين، لانتهى إلى نتيجة في وقت مبكر، أما أن يترك هكذا، مسجوناً، مربوطاً، دون أن يعرف لماذا أو إلى متى، فقد بدأ الغضب مثل بخار يرتفع شيئاً فشيئاً إلى رأسه. وهاجم الذي طال نومه، ولم يفق إلا حين زحفت الشمس عبر السور ووصلت إلى وجهه، ظل في الخيمة صامتاً؛ كان ينظر باستمرار إلى الفانوس، حتى لما وضع أمامه رغيف الخبز وكأس الشاي لم ينتبه، أما لما أمسك به الرجل المسن وهزه فقد ظهر عليه الخوف أكثر من المرات السابقة، ولم يأكل من الرغيف الذي قدم إليه إلا قطعة صغيرة وشرب الشاي بارداً.

عند العصر، والرجال يتحرّكون هنا وهناك، وهاجم والرجل المسن يجلسان في ظلال الخيمة الصغيرة، مرّ ثلاثة رجال. كان أحد الثلاثة يمشي مسرعاً وباضطراب، والاثنان الآخران يمشيان خلفه ويحاولان أن يلحقا به.

نظر الأول بطرف عينه نحو الرجلين الجالسين، ثم أصلح عباءته السوداء ومشى بانحراف، أما اللذان كانا وراءه فقد تبادلا كلمات وهما يمران. نظر الرجل المسن إلى الثلاثة الذين مروا فلم يعرف أياً منهم ولم يميّز شيئاً، أما حين التفت إلى هاجم، ورآه يبتسم ابتسامة واسعة، ولم يبتسم هكذا منذ أيام، فقد ارتجف قلبه وساورته الشكوك، لكن حركة العمال وهم يغسلون أيديهم ووجوههم من مياه البراميل القريبة، بعد أن انتهوا من العمل، شغلته وجعلته يراقب ويتابع ما يجري حوله.

قبل الغروب، حين طلب إليه أن يمثل أمام الأمير، أحس أنه مضطرب، ولما دخل ورأى الرجال الثلاثة جالسين، أدرك أن ابن الراشد هو الذي يجلس إلى جانب الأمير. لم ينظر إليه ابن الراشد أول الأمر، أما الآخران فقد نظرا إليه بإمعان، لكن بخوف أيضاً، والأمير طلب منه الجلوس هو وهاجم، خلافاً لليلة الفائتة، وبدا أكثر استعداداً للاستماع.

بعد فترة صمت طويلة سأله الأمير:

ـ أتعرف غريمك؟

تطلع في الوجوه وتنفس بعمق، ثم قال بسخرية:

ـ غريمي يعرف نفسه.

ـ تقول ابن الراشد غريمك.. بحّر زين، تشوف ابن الراشد بين الرجال؟

ـ إذا ما كذبني ربي هذا هو!

وأشار إلى الرجل الذي يجلس بجانب الأمير.

انتفض ابن الراشد، ابتسم ابتسامة هي بين السخرية والثقة بالنفس، وقال بصوت عالٍ ومتلجلج:

ـ ابن الراشد الي تقول عليه، ابن الراشد اللي ما خليت شينة إلا وقلتها فيه، واللي ما شفته أبداً وهو اللي يريد يحصّل لك حقك من حلق السبع، لكن لا تعمل خيراً شراً ما تلقى.

تأكد في تلك اللحظة أنه في مواجهة خصمه، قال بتحدٍ:

ـ اسمع يا ابن الراشد، إذا أنت ابن الراشد، الحق حق ومنة الله ولا منتك أنت أو منة غيرك. الرجال ما هي قريشات، ودم الرجال ما يدفن بليل، وأنت ابن عرب وتعرف كيف يحصّل الرجال حقوقهم.

ـ تهددني؟ بعثوك عليَّ، ابن هذال وغيره؟

ـ اسمعني وافهمني: الحق حق.. هذا كل شيء.

ـ حقك ما هو عندي.

وبانفعال بدأ ابن الراشد يروي القصة، مرة أخرى، أمام نائب الأمير، ونائب الأمير يهز رأسه دلالة الفهم، وفجأة التفت ابن الراشد إلى الرجل وقال بحدة:

ـ الجماعة شهود، هم كتبوا المعروض، هم ركضوا هنا وهنا حتى يحصّلوا لك على التعويض، والفلوس اللي وصلتك.. ابن الراشد بعثها. الفلوس من كيس ابن الراشد.

أخرج الرجل من صدره خرقة قديمة ملفوفة ورماها وسط المجلس وقال:

ـ القريشات منك، يا ابن الراشد، أو من غيرك، هذه هي، وإذا كان عندك شهود فهذا هو شاهدي.

وأشار إلى هاجم الذي كان جالساً يتطلع إلى ابن الراشد ويبتسم.

ربما لأول مرة يتطلع ابن الراشد إلى هاجم، وإذا كان قد رآه من قبل، فقد بدا مذعوراً وهو يراه الآن. تحرك في جلسته أكثر من مرة، وقال مخاطباً نائب الأمير:

ـ الأميركان قالوا: هذا الرجّال ما له عندنا دواء. شوفوا غيرنا. وتعرف، يا طويل العمر، إن دواء العربان أحسن من دواء الأميركان، إذا انكوى، إذا انفصم، يمكن العلة تطلع منه.

ـ ومزبان.. يا ابن الراشد؟

هكذا سأل الرجل المسن.

ـ مات موت الله.

ـ أخذته للبحر وغرّقته وتقول مات موت الله؟

ـ انطح فالك يا رجال، الحياة والموت من الله.

ـ لو ما أخذته للبحر ما مات. . .

ـ أنا ما أخذت أحداً.

ـ أنا أخذته؟

ـ الشركة، الأميركان هم أخذوه وهم مسؤولون، ويقولون التعويض يصلكم.

انفعل الرجل المسن، قال وهو يرفع أصبعه مهدداً:

ـ اسمع يا ابن الراشد، الرجال دمها ما يروح بالتراب، وأنا لا أعرف غيرك، أنت كنت تركض من مكان لمكان تجمع الناس وتسوقها، واليوم تقول إنك غير مسؤول؟

وبطريقة مرتبكة بدأ دحام يروي كيف أنه وابن هذال، وأشار إلى بعيد، عملا كل شيء من أجل التعويض، وإنهما راجعا «إدارة الأفراد» وتحدث هو شخصياً عدة مرات مع نعيم، أما المعروض الذي قدم إلى الشركة، إلى «إدارة الأفراد» والذي رفع من «إدارة الأفراد» إلى المقر، فقد تعاون هو وابن هذال في كتابته، وإن الشركة وعدت أن يدرس الموضوع «وحتى الآن لم تبلغ إدارة الأفراد بأي جواب».

كان كلام دحام بارداً ومتأخراً، ولم يزد أية إضافات هامة أو جديدة على ما قاله ابن الراشد. والرجل المسن الذي سمع ونظر إلى دحام وإلى الرجل الأسود المتجهم الذي كان معه، قال مخاطباً الأمير:

ـ أولادنا مثل ما تشوف، يا طويل العمر، واحد تحت التراب وهذا الثاني.

وأشار إلى هاجم، كان هاجم يبتسم، ونظراته مشتتة زائغة. هز الرجل المسن ذراعه وصرخ:

ـ هاجم. . . تسمعني يا هاجم؟

رفع هاجم إليه وجهاً مسكيناً حزيناً وخالياً من التساؤل. صرخ من جديد:

ـ ها، يا وليدي... كيف أنت؟

ظل هاجم ينظر إليه ولا يتكلم. قال الرجل المسن مخاطباً ابن الراشد:

ـ هل كان الرجل لما أخذته من عجرة بهذا الشكل؟

ابتسم بسخرية وتابع

ـ وأخوه مزبان.. له قبر أو أكله السمك؟

رد ابن الراشد بحدة:

ـ حقك على الشركة، والشركة ذاك بابها

ـ أنا أعرف باباً واحداً.. وهذا هو الباب.

وأشار إلى ابن الراشد، الذي بدا عليه الغضب. رد ابن الراشد منفعلاً خائفاً:

ـ تسمع يا طويل العمر؟

قال نائب الأمير، وقد بدا عليه التفكير والهم، مخاطباً الرجل المسن:

ـ حقك يصلك.

وأضاف بلهجة حازمة:

ـ كل واحد له حق يصله، وأنتم ضيوفنا ثلاثة أربعة أيام.. ونشوف.

وظل الرجل المسن وهاجم يوماً آخر «ضيوفاً» عند نائب الأمير، أما ابن الراشد فقد تأخر بعض الوقت ثم غادر مع الرجلين اللذين جاءا معه.

كان وصول الأمير، عائداً من رحلة القنص، مفاجئاً، إذ لم يتوقع الكثيرون عودته بمثل هذه السرعة. وأكثر الذين فوجئوا، بل أصيب بالاضطراب، كان ابن الراشد ذاته. فبعد الزيارة التي قام بها نعيم لنائب الأمير، وكان معه دحام، تم «توقيف» أو التحفظ على هاجم وخاله «لئلا يتولد الاضطراب نتيجة الاتهامات والتهديدات، وتتأثر أعمال الشركة» كما توقع وأكد ابن الراشد في حديث للأميركان تلك الليلة، حيث قضى ليلته هناك، وكما قال نعيم لنائب الأمير. أما التعويضات التي يمكن أن تصرف عن الوفاة، فما زال أمرها معلقاً، إذ يعتبر المكتب القانوني في الشركة أن «الشركة غير مسؤولة وغير ملزمة، باعتبار أن المصادقة على نقل العمال إلى مسؤولية الشركة قد تمت بعد الوفاة». أما التعويض المستحق لهاجم فسوف يتم صرفه في «غضون بضعة أيام.. شرط أن يكون الوضع عادياً وهادئاً». لذلك كان استمرار التحفظ على هاجم وخاله من شأنه أن يقطع اللغط والإثارة من ناحية، وأن يمنع تهديد ابن الراشد من ناحية ثانية، فإذا تم دفع التعويضات لهاجم عن طريق الإمارة يعتبر الموضوع منتهياً في الوقت الحاضر.

هكذا خطط للأمر، وهكذا كان يجري تنفيذه. وإذا كانت وفاة مزبان قبل بضعة شهور قد خلقت حالة من الاضطراب الصامت بين العمال، فإن المقابلات التي تمت في الفترة الأخيرة ولدت لدى الجميع مخاوف وشكوكاً كبيرة، ولم يخف الكثيرون هذه المخاوف والشكوك، بل وانتقلت إلى حران ذاتها، لذلك لا يحتمل الوضع، كما أكد نعيم، بأساليب عديدة، أية هزة أو اضطرابات جديدة.

الآن وهاجم يصل إلى حران بهذه الصورة دليل شديد الوضوح والقسوة على نوع المعاملة والنظرة إلى هذه المخلوقات البشرية. فإذا أضيف إلى هذا الدليل الحي المتحرك: تهديدات الخال والغضب الذي أخذ ينتشر ويتسع بين العمال «فلا بد وأن تؤدي الأمور إلى نتائج لا تريدها الشركة».

لما أشرف الأمير على حران أخذ بالبناءين قبل أن يصل، إذ شاهدهما من مسافة بعيدة، وقد تظاهر، أول الأمر، أنه لم يستطع معرفتهما وتساءل ما إذا كانا تابعين للشركة أم لا، رغم أن أبنية الشركة تبدو واضحة وبعيدة. وحينما تأكد أنهما بيت الإمارة وبيت الأمير لم يخف فرحه بذلك. قال مازحاً يخاطب الدباسي الذي كان يسير إلى جانبه:

- إذا فاتنا لحم الطير، يا أبو صالح، فالعوض باللي تشوفه!

وأشار إلى البناءين، وكان يبدو شديد الفرح متشوقاً أن يصل في أسرع وقت. أما حين وصل عند العصر، وكان العمال على وشك الانصراف، فقد توجه فوراً لتفقد الأبنية والتأكد من المراحل التي وصلت إليها. ونائب الأمير الذي هبّ لاستقباله، وكان واضح الانفعال، أكد له وهو يسير إلى جانبه، بكلمات متقطعة، أنه أشرف على كل شيء بنفسه، وإن الوصايا التي حرص عليها نفذت بدقة، مشيراً إلى النوافذ الكبيرة، ناحية الجنوب، وضارباً بكفه بين لحظة وأخرى على الجدران السميكة ليؤكد قوتها. والأمير الذي استفسر باهتمام عن استمرار العمل طوال الفترة الماضية سأل عن عدد العمال الذين شاركوا، وعن توافر المواد، وعن أمور أخرى مشابهة. والدباسي الذي رافق الأمير وتجول معه، أبدى إعجابه الكبير وأثنى على جودة المواد والبناء وقال إنه «مشغول بحق ورب» وأكد أن البناء إذا تم بهذا المستوى من الدقة والعناية يمكن أن يعيش مئات السنين، وأضاف أكثر من ذلك «إن الأبنية في مصر تشبه هذا البناء، وبعضها قام منذ أيام سيدنا يوسف عليه السلام ولا يزال!».

كان الأمير فرحاً مثل طفل، وقد أثنى على العمال بكلمات كبيرة،

وقال لهم إنه لولا جهودهم وإخلاصهم لتأخر البناء، أو لما أصبح بهذا الشكل القوي. والعمال الذين سرّوا لكلمات الأمير أبدوا بعض الملاحظات السريعة، بخصوص عقود الشبابيك واتساعها، إضافة إلى أن «الشمينتو سُقي عدة مرات حتى شبع، ولا يمكن أن ينفطر بعد ذلك» وقد تفهم الأمير هذه الملاحظات، وأثنى على الجهود التي بذلت مرة أخرى، ثم سأل عن المدة التي يحتاجها البناء لكي يكتمل، وما إذا كانت الضجة أو الغبار الآن مثل الأيام الأولى، فلما أكد له نائبه أن ما يتذكره مرحلة مبكرة، وأن لا وجود للآلات الكبيرة التي تخلق الضجة وتولد الغبار قال بصوت عالٍ وأمام العمال الواقفين على بعد خطوات:

ـ البلايا التي حفرت الأساس كانت تطوّش الراس وتعمي العيون. . .

توقف لحظة ثم أضاف وهو يضحك:

ـ الحمد للّه، خلصنا منها.

والدباسي الذي أصرّ على مرافقة الأمير حتى النهاية قال حين عرض عليه الأمير أن يبقى عنده تلك الليلة، وأن يتعشى ويتعلل ثم يذهب إلى أهله:

ـ الأحسن، يا طويل العمر، إن تشوف غيرنا. .

توقف قليلاً، ابتسم وأضاف:

ـ وغيري، يا طويل العمر، ينتظرك!

رد الأمير وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ ما تترك سوالفك يا أبو صالح، كل كلمة عندك لها ألف معنى.

وضحكا معاً، وبعد أن شربا القهوة غادر الدباسي إلى أهله، أما الأمير فقد سأل نائبه عن الأشياء التي حصلت أثناء غيابه، عن القوافل التي وصلت والناس الذين وصلوا، وبعد أن استمع إلى بعض الإجابات، دون أن يستوعبها، قال وهو ينهض لكي يذهب إلى أهله في خيمة أخرى:

ـ نلحق على هموم الخلق.

وأضاف وهو يمشي بخطوات بطيئة ويضحك:

ـ هموم الخلق، يا أبو رشوان، ما تخلص.

أضاف نائبه وهو يشاركه الضحك:

ـ في حران، يا طويل العمر، هموم الناس ما تخلص، والناس ما تخلص... حتى الموت ما يخلصها!

قال الأمير:

ـ وكّل الله.

كان ابن الراشد أول زوار الأمير في صباح اليوم التالي لوصوله، جاء مبكراً أكثر من العادة. كان الأمير في هذه الساعة يتفقد البناء، كان فرحاً منشرح الصدر، وقد ضرب بكفه الجدران عدة مرات ليختبرها، كما فعل نائبه في اليوم السابق، أما حين رأى ابن الراشد مقبلاً في هذا الوقت المبكر فقد راوده الشك: هل جاء ليكون في استقبال العمال وتوجيههم؟ هل يفعل هذا كل يوم أو عرف بوصوله وجاء هذه المرة فقط لكي يدلل له على مدى إخلاصه وحرصه؟ إذا جاء ليسلم عليه فإن الوقت لا يزال غير ملائم لمثل هذه الزيارة. قال الأمير وابن الراشد على بعد خطوات يخبّ مستعجلاً ليصل:

ـ سروتك ما هي للّه يا ابن الراشد.

ـ صارت الدنيا الظهر، يا طويل العمر!

هكذا رد ابن الراشد وهو يتقدم مرتبكاً ومسرعاً، وكان يحاول الابتسام. ردالأمير:

ـ لا توصي الحريص.

ولم يفهم ابن الراشد ما قصد إليه الأمير، هل يمدحه أم يذمه، وبعد أن سلّم بحرارة وسأله باهتمام إذا كانت رحلة القنص ممتعة والصيد وافراً، رافق الأمير في تفقد البناءين، وقد أبدى ملاحظات كثيرة بخصوص قوة البناء والعناية التي بذلت من أجل أن يكون هكذا. وأكد للأمير أنه لن ينقضي شهر إلا ويكون البناءان قد انتصبا، ولا تبقى إلا الإكمالات الداخلية، وهذه الإكمالات، إذا رأى الأمير أن يحث الأميركيين فلا بد أن تتبع نفس الطريقة التي اتبعوها في بناء المساكن الخاصة بهم، حيث كانت

الأبواب والشبابيك وأشياء أخرى كثيرة جاهزة، فما أن تفك من صناديقها وترفع عنها الأوراق حتى تثبت في أماكنها. أبدى الأمير اهتماماً كبيراً للحصول على هذه الأشياء، وتساءل عما إذا كان الأميركيون سيقومون بذلك دون طلب، وأشار إلى أنه يخجل أن يطلب ذلك بنفسه.

قال ابن الراشد وقد أدرك نقطة الضعف:

ـ أنا لا أقبل أن تطلب منهم يا أبو مسفر. . .

ابتسم، غير لهجته وهو يتابع:

ـ إذا وافقت، يا طويل العمر، إترك الشغلة عليّ.

توقف قليلاً ثم أضاف وهو يتكلم من منخريه:

ـ أنا أظل وراءهم، ألاحقهم في الليل والنهار، أقول لهم لازم بيت الأمير يكون مثل بيوت الأميركان: الشبابيك، الأبواب، كل حاجة، نعم كل حاجة لازم تكون مثل الأميركان.

وبكثير من الدهاء والبراعة تعهد ابن الراشد للأمير أن يتولى، نيابة عنه، البحث مع الأميركيين من أجل إنجاز دار الإمارة وبيت الأمير بنفس الطريقة التي اتبعوها في إنجاز بيوتهم. وهذه الفكرة التي تقبلها الأمير برضا، وإن ظلت عيناه وملامحه تتساءل بشك؛ وفي محاولة لأن يتغلب على الشكوك ويعطي ابن الراشد الفرصة قال وهو ينظر إلى عينيه بتحديد:

ـ توكل على الله يا ابن الراشد، ألحّ عليهم، نشّف ريقهم، بس لا تذكر أبداً أنني أنا اللي طلبت.

ودون كلمات هز ابن الراشد رأسه عدة مرات، مع ابتسامة صغيرة واثقة، وبعد لحظات ضرب بكفه المفتوح على صدره مرتين، وقال:

ـ ما يصير إلا اللي تريده. . يا طويل العمر.

وواصل جولته برفقة الأمير، أما حين رأى اثنين أو ثلاثة من العمال قادمين فقد صرخ بصوت حازم وساخر:

ـ الله. . الله. . الدنيا صارت الظهر يا اولاد الحلال. . .

ولما رأى العمال الأمير بدا عليهم الخوف والارتباك وظلوا صامتين.
تابع ابن الراشد بطريقة أبوية:

ـ يا الله يا نشامة.. خفّوا رجليكم.. وكل واحد وشغله.

ولكي يزيد حماستهم ويحرضهم على الإسراع نزع عباءته السوداء وألقى بها على كومة من الحجارة، ووضع طرف ثوبه تحت حزامه العريض وقال بانفعال:

ـ يا الله يدي بأيديكم.

وفي جو من الصخب والانفعال والحركة الزائدة بدأ ملء البراميل ونقل أكياس الإسمنت وتحضير الرمل، وكانت مشاركة ابن الراشد وحركته والأوامر التي يصدرها تؤكد الارتباك أكثر مما تفيد في المساعدة، والأمير الذي كان يراقب من بعيد، وترتسم على شفتيه ابتسامة لا يمكن لأحد أن يكون متأكداً هل هي ابتسامة رضا أم إشفاق، قال لابن الراشد بعد فترة من الوقت:

ـ شيل عباتك وروح نتقهوى يا ابن الراشد.

وكأن ابن الراشد كان ينتظر هذه الإشارة إذ ما لبث أن غسل يديه وتناول عباءته وركض وراء الأمير الذي سار قبله، فلما أدركه قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ إذا ما كان الواحد فوق رؤوسهم، يا طويل العمر، ينامون.

❀ ❀ ❀

كان ابن الراشد شديد القلق والحيرة، فهو بمقدار ما يريد تدعيم ثقة الأمير به، كان يخشى أن تنهار هذه الثقة لو بحث موضوع هاجم وأخيه مزبان دون تحضير دقيق ودون تهيئة الجو المناسب. إذ لا يزال يتذكر كلمات الأمير التي قالها قبل فترة طويلة حين جرى بحث هذا الموضوع. كان قاسياً وأقرب إلى العداء. قال له: «ما نريد طلاييب يا ابن الراشد، ارض جماعتك وخلّصنا». فإذا قال للأمير إن هاجم ومعه أحد أقربائه هما الآن في خيمة لا تبعد عن مكانهما أكثر من عشرين أو ثلاثين خطوة،

وإنهما مسجونان، لأن هذا القريب يهدد، وقد رمى الفلوس التي أرسلت إليه، لو قال شيئاً مثل هذا فلا بد أن يثور الأمير ويقلب الدنيا على رأسه، أما إذا قال له إنه اتفق مع الأميركان ونائب الأمير على السجن فلا بد أن يشعر الأمير بالمهانة، وربما تساءل بسخرية: من هو الأمير؟ أنا أم أنت؟ والأميركان ما دخلهم في هذه السالفة؟ أكثر من ذلك إذا رأى الأمير هاجم مسلوباً فاقداً فماذا سيقول؟ ونائب الأمير كيف سيبرر موقفه وماذا سيقول؟

كانت الأفكار والصور تتراكض في رأسه، فيشعر أنه محاصر وأنه مهدد. أما الابتسامات التي يراها الآن على وجه الأمير فإنها ستار خادع، خاصة وأن «ابن الحرام الدباسي طلّع الزايدة والناقصة في رحلة القنص!» ولا بد أن يكون قد أوغر صدر الأمير عليه، فإذا رأى هاجم والرجل الذي معه، ومن هذا كلمة ومن هذا نظرة مجانين فلا بد أن تنقلب الأمور عليه.

قال الأمير وهو يتطلع في وجه ابن الراشد بتحديد:

ـ أشوفك صافن يا ابن الراشد؟

توقف لحظة ثم تابع وهو يضحك بصوت عالٍ.

ـ وكل الله.. نصف الألف خمسمائة.. يا ابن الراشد.

انتفض ابن الراشد وكأنه يستعيد علاقته بما حوله، فلما رأى الأمير يتطلع إليه بهذه الطريقة قال وهو يتصنع الابتسام:

ـ القول قولك يا طويل العمر.

ـ وانت تعرف: الهمّ ياكل القلب، يقتل.

ـ اللي ما يدري يقول قبضة عدس.

ـ أشوف قلبك ورمان يا ابن الراشد.

ـ الناس ورّمته يا طويل العمر.

ـ الناس أو الفلوس؟

ـ الفلوس ما تورم القلوب يا مبارك.

ـ الفلوس هي العلة وهي السبب.

زفر ابن الراشد زفرة قوية حارة وكأنه يريد أن يمهد لما سيقوله، فلما رأى الأمير يبتسم ويهز رأسه قال بلهجة مسكينة:

ـ أريدك، يا طويل العمر، تسمع سالفتي وبعدها تحكم، واللي تحكم به على العين وعلى الراس.

استغرب الأمير هذا الكلام، أما حين بدأ ابن الراشد بانفعال أقرب إلى الحيرة والخوف يعيد قصة هاجم، والأمير الذي انتفض وارتد جسده قليلاً إلى الخلف، ما لبث أن أخذ يهز رأسه وكأنه تذكر ما قاله سابقاً، وكيف أنه أراد أن تحل المشكلة بالتراضي وأن تنتهي. أما كيف جاء هاجم مرة أخرى ومعه أحد أقربائه، والتهديدات التي صدرت عنهما ثم احتجازهما، وأن المشكلة لا تزال تتفاعل يوماً بعد آخر في معسكر العمال ولدى الأميركان، وابن الراشد لا يعرف ماذا يفعل، والأميركان يرفضون دفع التعويض، حين بلغ ابن الراشد في قصته لهذا الحد، قال الأمير وهو يحرك يديه بطريقة غاضبة:

ـ قلت لك، يا ابن الراشد: الفلوس هي السبب...

وبعد عدة هزات من رأسه أضاف بلهجة ساخرة:

ـ بينك وبين الأميركان ضاعت حقوق الناس يا ابن الراشد.

ومن جديد حاول ابن الراشد أن يشرح كيف بذل أقصى الجهود من أجل الحصول على تعويض لمزبان، وإن الأميركان ما زالوا يرفضون، أما بالنسبة لهاجم فإن تعويضاً سيدفع له، لكن الإجراءات لم تنته بعد، وكيف أنه أرسل من كيسه الخاص مبلغاً من المال ترضية له وتعبيراً عن حسن نيته، وأنه لا يزال يحاول إنهاء الموضوع في أسرع وقت ممكن، لكن الأميركان اشترطوا أن لا يدفع التعويض إلا إذا هدأت الأمور تماماً، وكفّ الرجل المرافق لهاجم عن التوعد والتهديد.

كان ابن الراشد وهو يتكلم يحرك يديه وينتظر رد فعل الأمير. كان ينظر بعينين خائفتين، لأن رد الفعل يحدد، ويعني أشياء كثيرة بالنسبة له، إذا استجاب له الأمير ولانَ قلبه يمكن أن تنفتح أمامه الأبواب كلها،

ويمكن أن يبقى قوياً، أما إذا عاند ورفض الاستجابة فسوف يواجه مصاعب لا نهاية لها. قال في محاولة ماكرة:

ـ إذا وافقت، يا أبو مسفر، الآن، بوجهي، من مجلسك إلى الأميركان، وما أتركهم حتى يحلوا المشكلتين: مشكلة الشبابيك والبيبان ومشكلة اولاد جازي.

قال الأمير بصوت يائس:

ـ إخلع شوكك بيدك يا ابن الراشد. . وباكر نشوف.

المحاولات التي جرت من أجل إنهاء المشكلة لم تنته إلى نتيجة. رفضت الشركة بإصرار أن تقدم أي تعويض، حتى لو كان رمزياً، لأن «القانون هو القانون، والنظام هو النظام»، أما الحجة دائماً فهي أن مسؤولية العمال انتقلت إليها بعد الوفاة و«الشركة قبل هذا التاريخ لا تعترف لأحد بأية حقوق أو تعويضات، لأن الاتفاق مع ابن الراشد يلزمه بتقديم العمال المياومين، وهو وحده المسؤول» أما محاولات الأمير في أن «يقسم الكوم قسمين، الشركة النصف وابن الراشد النصف» فقد فشلت أيضاً، لأن هاملتون الذي زار الأمير يرافقه نعيم، أكد بإصرار لا ينفك يتزايد أن «المشكلة الأساسية ليست المبالغ التي يجري الحديث عنها، المشكلة هي المبدأ، الجانب القانوني، وعلى هذا الأساس لا توافق الشركة أن تناقش التفاصيل» وأضاف هاملتون أن أية حوادث لاحقة: فقدان الحياة، العجز الكامل أو الجزئي، فقد أو إصابة أي عضو من الأعضاء، سواء كان العين أو الساق أو الأذن، وحتى الإصابات الأقل شأناً، ستقوم الشركة بالتعويض عنها، وستكون التعويضات كبيرة، كما لو أن العمال العرب مثل غيرهم!

أما ابن الراشد فقد كان مستميتاً من أجل إلقاء عبء التعويض على الشركة «لأن فلوسي، يا طويل العمر، كلها راحت ببطون الناس وبالحديد والحجارة» أما حين ارتأى الأمير تحميل ابن الراشد التعويض كاملاً، بعد أن رفضت الشركة، فقد صرخ كالملسوع:

ـ أجرة العمال ما هي بجيبي يا طويل العمر.. توسطوا مع الشركة، فإذا وافقت على أن تسلفني، وتنتظر عليّ سنة.. أدفع.

رد الأمير بنفاد صبر:

ـ أنا لا أتدخل، وأنت أعرف منا بالشركة، رح تسلّف منها أو من العفاريت.

والتفت الأمير إلى الناحية الثانية، حيث يجلس نائبه وقال بحدة أقرب إلى التهديد:

ـ خلصونا من هذه السالفة يا جماعة الخير.

قال ابن الراشد في محاولة واضحة للتأثير على الأمير، مستغلاً وجود نائبه:

ـ على كل شيء وافق الأميركان، يا طويل العمر. قالوا الأبواب والشبابيك مثل بيوت الشركة، وأحسن من بيوت الشركة...

توقف لحظة سحب خلالها نفساً عميقاً مهموماً وأضاف:

ـ وثلاثة أو أربعة أبواب كبيرة ما عندهم شيء منها جاهز، لكن باكر، يا طويل العمر يأخذون قياسها، ويفصلونها، وما يمر كم يوم إلا وهي جاهزة.

لانت ملامح الأمير، لكن لم ينظر مباشرة إلى ابن الراشد، وتظاهر أنه لم يسمع أو لا يملك تعليقاً على ما قاله، خاصة وأن ابن الراشد قد قال كلاماً قريباً من هذا بعد زيارته الأولى للأميركان، لكن لم يكن الكلام واضحاً ونهائياً كما هو الآن. فقد هز الأميركيون رؤوسهم وتطلع بعضهم في وجه بعض وقالوا في حينها، كلما ذكر ابن الراشد، أن إمكانية من هذا النوع ستجري دراستها للتأكد من وجود الأبواب والشبابيك المطلوبة. أما الآن، وفي ظل هذا الحصار الذي يتعرض له ابن الراشد فقد حاول أن يضغط على الأمير، أن يحمله على تغيير موقفه، أو أن يتساهل في الشروط في أسوأ الأحوال.

قال نائب الأمير، في محاولة لاقتراح تسوية تكفل تأمين المال المطلوب من مصدر غير الشركة، وأن تبقى العلاقة مع الأميركان هادئة وجيدة:

ـ إترك الشركة، كلّم الدباسي أو السيف، أو كلم ابن السعد، عسى أن واحداً يسلفك.

قال الأمير ساخراً:

ـ إترك هذه السالفة.. يا رجل.

والتفت إلى ابن الراشد بنظرة سريعة وأضاف مخاطباً نائبه:

ـ هذا عظمه ذهب، لا تخف، وهو يعرف كيف يدبر الفلوس.

وكاد ابن الراشد يبكي في محاولة لإثبات عجزه عن تأمين المبلغ. قال إن كل ما يملكه أنفقه، وأنه أخطأ في ذلك خطأ لا يمكن أن يغفره لنفسه الآن «الأرض لا قيمة لها ولا يوجد في حران مجنون مثله يضع ماله كله في الأرض أو في بطون الناس» وأكد أن أموره إذا استمرت بهذا الشكل فترة قصيرة فلا بد أن يهرب من حران، لأنه لا يستطيع أن يواجه الحلوق المفتوحة التي تطالبه بالمال في الليل والنهار.

قال الأمير وقد بدأ يضعف:

ـ من يسمعك، يا ابن الراشد، يقول: يستحق الصدقة.

رد بيأس:

ـ الناس مالها إلا الظاهر، وما لها شغلة إلا السوالف.

ـ مثل ما قال أبو رشوان: كلم الدباسي، شف ابن سيف.

ـ أنت أعرف مني بهم، يا طويل العمر...

هكذا رد ابن الراشد، توقف لحظة ثم تابع بعدها بسخرية:

ـ ابن السيف ما يبول على يد مجروح، والدباسي يتمنى اليوم اللي أبيع فيه عباتي واشحذ!

❀ ❀ ❀

كان الدباسي يتمنى فعلاً اللحظة التي يستطيع أن يوجه فيها ضربة قاضية لابن الراشد، فإن لم تكن قاضية تماماً فلا أقل من أن تتعبه وتذله، لذلك ما كاد يسمع في اليوم الأول لوصوله بقضية هاجم وعودته حتى بدأ.

عند ظهر اليوم التالي كان في زيارة الأمير. كان المجلس عامراً

وضيوف الأمير كثيرين، وقد جاء أغلبهم للسلام. بدا الأمير منشرح الصدر وأقرب إلى المرح، خاصة حين يعاد عليه السؤال ذاته حول رحلة الصيد، ففي كل مرة يحيل السائلين إلى الدباسي مع ابتسامة ذات معنى، وحركة من يده تطلب إليه أن يتولى الرد على الذين يسألون، لكن ما كاد يخلو المجلس قليلاً حتى اقترب الدباسي من الأمير وهمس في أذنه ببضع كلمات، فرد الأمير بصوت عال وهو يتلفت إلى هذه الناحية وإلى تلك قائلاً:

ـ أدري.. أدري يا أبو صالح.

أما عندما خلا المجلس تماماً، ولم يبق إلا الأمير ونائبه، فقد سأل الأمير بنوع من التعريض:

ـ ها... يا أبو صالح. ما هي سوالف الناس؟

ونظر بطرف عينه إلى نائبه وأضاف:

ـ رجعتنا كانت رحمة للناس وللطير يا أبو صالح.

قال نائب الأمير في محاولة لأن يدافع عن نفسه:

ـ للطير.. أي والله يا طويل العمر، أما للناس فما أدري، لأن الناس غارقة بأشغالها وهمومها، ولولا الشامي وديوان إبليس اللي فتحه، كان الناس بألف خير.

قال الأمير بنبرة صلبة:

ـ سولف يا أبو صالح.

ـ السوالف كثيرة يا طويل العمر، لكن السالفة اللي سمعتها البارحة، ساعة وصولي، واللي سمعتها اليوم في السوق، هي سالفة البدوي اللي انهبل، زلمة ابن الراشد.

ولم يكن أي من الثلاثة بحاجة إلى تفاصيل كثيرة حول الموضوع، إذ ما كاد ابن الراشد يترك الأمير ذاهباً إلى معسكر الأميركان من أجل متابعة بناء دار الإمارة وبيت الأمير، وما كاد نائب الأمير يصل مبكراً حتى استدعي هاجم والرجل الذي معه، وبعد أن استمع إليه الاثنان قال له الأمير:

ـ حقك يصلك. . ولسانك إبلعه.

وبعد أن نظر الأمير طويلاً في وجه الرجل وفي وجه هاجم، وبدا عليه للحظات الحزن الممزوج بالألم، أضاف بصوت هادئ لكنه قاسٍ.

ـ تسمعني؟ تفهم ما قلت؟

ولما هز الرجل رأسه دلالة أنه سمع وفهم، واطمأن إلى وجه الأمير، وإلى كلماته، قال له الأمير:

ـ إذا بغيت تكون ضيفنا مرحباً بك، وإذا بغيت تنزل إلى السوق فهذا درب السوق.

قال الرجل المسن كلمات سريعة متداخلة، لكن فهمت على أنه يريد الذهاب، فصاح الأمير على أحد رجاله وقال له:

ـ وصفه طريق السوق. . وعطه شي.

الدباسي في طريقه إلى مضارب الأمير لم ير هاجم وخاله، لكن كثيرين قالوا إنهم رأوهما في السوق، قرب المسجد، ثم في مقهى أبو أسعد، ورغم أن الرجل المسن لم يجب عن الأسئلة التي وجهت إليه، إلا أن عينيه كانت تشتعلان، وصمته كان قاسياً معبراً أكثر من كل الكلمات؛ أما هاجم الذي كان يسير بجانبه، وينظر في الوجوه بتساؤل واستغراب، وبين لحظة وأخرى يبتسم بطريقته، فقد كان يثير الشفقة والسخط في آن واحد، وكانت تصدر عنه أصوات أقرب إلى حمحمة حيوان متألم.

تأثر الدباسي لما سمعه، وجاءت أيضاً الفرصة لكي يوجه ضربته. قال للأمير بطريقة ماكرة:

ـ لو سمع كلامك، يا أبو مسفر، كات السالفة كلها ما صارت.

رد الأمير بنفاد صبر:

ـ المال يفتن والطمع يعمي. . يا أبو صالح.

هز الدباسي ونائب الأمير رأسيهما وصمتا.

في الأيام التالية تولى ابن نفاع المهمة. إذ ما كاد يرى الرجلين قرب المسجد، عصر اليوم التالي لوصول الأمير، حتى بدأ يصرخ بغضب. فعل

ذلك دون تحضير سابق، ودون تحريض من أحد، إذ ما كاد يسلم على الرجل المسن بحرارة، حتى سمعه الجميع يهدر:

ـ هذا الرجل ـ وكان يمد بسبابته حتى تكاد تلامس وجه هاجم، وهاجم يبتسم ويتطلع في وجوه الناس ـ هذا الرجل ما به خلاف، الموت حق ولا يخاف منه أحد، الموت أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وهذا مشكلته ما هي الخوف. لا. الخوف سالفة. هذا الرجل دخله عفريت. الأميركان جاءوا وجاءت معهم العفاريت، وكل من يشرب ماءهم، كل من يأكل زادهم.. يدخله عفريت، إذا ما كان اليوم عقبه، وإذا ما ظهر اليوم يظهر بعده.

ويتطلع ابن نفاع في وجوه الرجال ليرى أثر كلماته فيهم، وحين يجدهم صامتين مطرقين يتابع بصوت أقوى:

ـ ابن الراشد شرّق وغرّب. جمع الناس من كل مكان وساقهم للأميركان. ساق الغنم للذيب، على كل ذبيحة، على كل رأس، يتسلف من الأميركان، والأميركان يعطونه ويقولون: هل من مزيد؟ ويركض ابن الراشد ويجمّع ويقول لهم: خذوا! ومثل جهنم لا يشبع ولا يشبعون.

وزفر زفرة قوية. أمسك بكتف هاجم، هزه بقوة ثم أضاف:

ـ يا وليدي داك ودواك منهم وفيهم.

ويلتفت من جديد إلى من حوله ويضيف وهو يشير إلى هاجم:

ـ هذا اليوم، وبعده حران كلها. ومثل ما قال صاحبنا العتيق: «أرى العفاريت تدخل من أظفاركم لتلبس أجسادكم وتستقر في أمخاخكم».

وتتوالى هزات رأس الخال ويظهر الغيظ قوياً جامحاً في عينيه وفي ملامح وجهه، فإذا سأله أحد إن كان رأى ابن الراشد، أو كيف استقبله الأمير وقبل ذلك نائبه، فكان ينظر في وجوه سائليه فترة طويلة ويهز رأسه، ويغرق في الصمت. ولما ترتد الأسئلة دون إجابات، دون توضيح، كان ابن نفاع يصرخ من جديد:

ـ الأميركان هم العلة وهم السبب.

ولما يرتفع السؤال، ولا يُعرف ما إذا كان موجهاً إلى خال هاجم أو

إلى ابن نفاع، للاستفسار عن ابن الراشد، كان ابن نفاع يرد بسخرية، بعد أن يشير بيديه إشارات بذيئة:

ـ من هو ابن الراشد؟ ابن الراشد زق.

ويتابع وهو يضحك:

ـ تسعين إبرة ما يصيرن مخرز، وابن الراشد أصغر من إبرة، لكن الأميركان هم المخرز، وباكر واللي عقبه يفوّتون بحلوقنا إبر أو يطلعونها من هنا مخارز.

ويشير إلى مؤخرته!

وكلمات ابن نفاع التي تثير الضحك لا تلبث أن ترتد كالزوابع لتخلق التساؤل والخوف، فتتابع التعليقات والهمسات والنظرات، وتبقى الصلابة ذاتها الأقرب إلى الصخر مرسومة على وجه العجوز، وكأنه لا يرى ولا يسمع ما يدور حوله، فإذا استعاد نفسه ونظر من جديد إلى الذين بقربه يركز نظراته في وجه هاجم ويهز رأسه.

الدباسي الذي لم يكن يفوته شيء، فيسمع ويعرف كل ما يجري، بما في ذلك اقتراح الأمير ونائبه أن يستلف ابن الراشد منه، لم يكن في عجلة من أمره. كان يقول كلمة تبدو بسيطة أقرب إلى البراءة، لكن لا تلبث، وهي تنتقل من فم إلى آخر، أن تصبح مثل سيخ النار. فلما سمع ما قاله ابن نفاع قرب المسجد من أن ابن الراشد مجرد إبرة، فقد قال في مقهى أبو أسعد في نفس الليلة:

ـ سبحان الله يا جماعة الخير... من به طبع ما تركه!

قال ذلك وصمت فترة غير قصيرة ثم أضاف، وكان حوله عدد من أهل حران:

ـ اللي ما يخاف من الله خف منه.

وهز رأسه ثم قال لأحد الجالسين إلى جانبه بصوت عالٍ يريد للآخرين أن يسمعوا:

ـ لا تتركوا الجماعة بدون عشاء، ولزّموا عليهم ينامون فوق.

وفهم من كلامه أنه يعني هاجم وخاله.

حين بعث نائب الأمير دحام في اليوم الثالث لكي يطلب من الدباسي تسليف ابن الراشد مبلغاً يعادل ما اتفق عليه كتعويض لهاجم وأخيه، قال الدباسي:

- المبلغ كله موجود، والموعد العصر، عند الأمير...

توقف لحظة، ابتسم ثم أضاف:

- وقل لابن الراشد يلزم يكون موجود، لأن الدنيا حياة وموت.

ورغم أن الدباسي كان مستعداً لتقديم المبلغ، وابن الراشد يماطل ويؤجل، لعل الشركة تتولى أداءه، لكنه بدا في النهاية مستعداً للموافقة. أما الشيء الذي لم يفطن إليه أحد إلا بعد ظهر ذلك اليوم فهو أن هاجم وخاله كانا قد تركا حران في الليلة السابقة. لم يقولا لأحد أنهما سيسافران، ولم يحس بهما أحد. أما المحاولات التي جرت في غروب ذلك اليوم للبحث عنهما في المسجد، في المقهى، في السوق، وحتى في معسكر العمال فقد انتهت إلى الفشل.

قال الأمير لما بلغه خبر سفرهما:

- ورّطنا ابن الراشد... والله يستر.

ونظر إلى نائبه بأسف، كأنه يلومه. أما حين أقبل ابن الراشد يريد أن ينقل إليه الخبر الذي سمعه لتوه حول سفر هاجم وخاله، فقد رد عليه:

- الفلوس ترفع وتذل، والناس إما أسياد أو عبيد.

وخيم صمت ثقيل، وتوقع الكثيرون أن تحدث أشياء وأشياء.

بانقضاء الربيع، أو الأيام المعتدلة والليالي التي تتخللها البرودة بعض الأحيان، بدأ الصيف الثقيل القاسي. والناس الذين تعودوا في السنين الماضية على دخول الصيف بتمهل، معلناً عن نفسه بتزايد الحرارة والرطوبة، فوجئوا أن صيف هذه السنة هجم هجوماً سريعاً مبكراً، وتميزت بدايته برياح لافحة وبزوابع رملية، حتى كادت حران تختفي تحت هذه الزوابع التي تهب من الصحراء، وتحت أكوام الأتربة والأوساخ التي تنبع من كل مكان والتي تذروها الريح ليل نهار. حتى الليالي التي كانت في أواخر كل ربيع لينة سخية ببرودتها، بحيث تُنسي الناس حرارة النهار، كانت في هذه السنة خشنة ثقيلة وأقرب ما تكون إلى ليالي أواسط الصيف. قال الكبار: لم نر ربيعاً مثل هذا منذ سنين طويلة. وقال آخرون: إن جفاف هذه السنة لم يمر مثله من قبل، وهذا الجفاف سيرفع الأسعار، خاصة الحنطة والشعير، ويجعل حياة الناس شديدة الصعوبة، أما الدواب فسوف تهلك لا محالة قبل دخول الصيف الكبير. ابن نفاع وحده لم يوافق على ما يقوله الناس، وأكد أن الحرارة التي تملأ الجو ليست من الشمس وإنما هي تنبع من الأرض ومن داخل النفوس معاً «لأن العفاريت التي وصلت تعيش تحت أرجل الناس، ثم لا تلبث أن تنتقل إلى أجسام البشر والحيوانات، ولن يمر وقت حتى تتعشق كل شيء، لأن في داخل كل مخلوق عفريتاً صغيراً أسود، وهذا العفريت يكبر ويمتد ما لم يبادر الإنسان إلى قتله».

والناس في حران الذين تعودوا في مثل هذا الوقت من كل سنة على وصول قافلة أو اثنتين، وكانت هذه القوافل تحمل معها الأخبار والرسائل والدراهم، إضافة إلى الأقمشة والسكر والطحين، كانت هذه القوافل بوصولها تغير حياة حران، تولد فيها فرحاً ملوناً أو هواجس ومخاوف

بسبب وصول الأخبار والرسائل أو انقطاعها. هذه السنة تختلف عن السنين السابقة جميعها، إذ لم يعد أحد ينتظر قافلة بذاتها، لأن القوافل أصبحت من الكثرة لدرجة أنها لم تنقطع أسبوعاً واحداً، ولأن الأشياء الجديدة لم تعد تأتي من جهة عجرة فقط، وإنما أصبحت تأتي من جهات كثيرة، خاصة من جهة البحر. كما أن وصول هذه القوافل يحمل معه مخاوف جديدة وبشراً يزيدون يوماً بعد يوم، ولا يدري أحد كيف سيعيش هؤلاء الناس أو ماذا سيفعلون.

كان انقطاع القوافل في السنين الماضية، أو مجرد تأخرها، يثير هموماً كبيرة، خاصة في نفوس المسنين، أما وصول القوافل الآن، مع ما تحمله من أخبار وهواجس وبشر فقد جعل الجميع يحسون أن حران لم تعد ملكاً لأحد أو مدينة لأحد. أصبح الناس فيها من الكثرة والاضطراب إلى درجة أن كل واحد يسأل وكل واحد يجيب، لكن لا أحد يفهم ولا أحد يسمع. فالرجال الذين يقضون وقتاً طويلاً في السوق، ويذهبون عدة مرات في اليوم إلى مقهى أبو أسعد الحلواني، ويراقبون الأبنية الجديدة بكثير من العناية، وينظرون باهتمام مشوب بالحذر إلى القادمين الجدد، وهؤلاء الرجال يرون ذلك كله ويسمعون ويسألون ويراقبون، لكنهم لا يعرفون كيف يفسرون ما يجري حولهم، ولا يعرفون كيف ستكون الحياة في الأيام القادمة. لذلك كانوا يغرقون في الهموم والصمت، فإذا عادوا إلى بيوتهم، وحاولوا أن ينقلوا للنساء بعض ما رأوا وبعض ما سمعوا، وجدوا أنفسهم يتكلمون وحدهم، فلا النساء يسمعن ولا هن ينظرن، لأن عندهن من المتاعب والمشاغل الكثير، فإذا سمعن أو نظرن لم يفهمن شيئاً مما يقوله الرجال، بل وتظهر على وجوههن مظاهر الاستغراب لهذه الهموم التي يراها غيرهم، ولهذا الخوف الذي يظهره الرجال دون سبب واضح مفهوم. فإذا هبّ ذلك الغضب الخفي المفاجئ، أو صدرت عن الرجال تلك الصرخات القصيرة الحادة منذرة أن كل شيء يمكن أن ينتهي في لحظة خاطفة، فتنقلب الأرض وتزهق الروح، عرفت النساء أن الحياة حولهن لا تسير سيراً محموداً، وأن لدى الرجال من الهموم الكثير، لكنهن لا يدركن

ذلك، وخلال لحظات قصيرة، وبطريقة شديدة الخفاء والدهاء، ولا تتقنه إلا الأمهات والنساء المجربات، يُهرب الأطفال، وتتصرف كل امرأة بشكل من المسالمة والحنان، تعرف استحضاره في اللحظة، ويبلغ من الاتقان درجة أن أقسى الرجال وأكثرهم غلظة لا يلبث أن يبرد ويتراجع ثم يندم، ويحل محل ذلك الغضب حزن هادئ اقرب إلى اليأس، وكأن الإنسان في مواجهة قدر لا يقوى على دفعه أو تغييره.

هكذا بدت الأيام التالية لغياب هاجم وخاله، ذلك الغياب الغامض المفاجئ. وبعض الذين فسروا الضيق الذي شعروا به هذه الحادثة، وذكروا ذلك بصوت عالٍ أمام الكثيرين، ما لبثوا أن نسوا السبب، لكن الضيق لم يفارقهم، بل وأخذ يزداد يوماً بعد يوم. حتى الأمير الذي قسا على ابن الراشد وأغلظ القول له، وبدا شديد الضيق إذا ذكر أمامه شيء له علاقة بما حدث، ما لبثت قسوته أن تحولت إلى سخرية مُرّة، وحل التعريض مكان اللوم والعتاب.

وابن الراشد ذاته الذي لم يصدق شيئاً مما جرى، وكأنه مجرد حلم، ما لبث أن أصبح رجلاً مختلفاً. امتلأ أول الأمر بالاستغراب ثم تحول استغرابه إلى ذهول وصمت، ثم حل مكان ذلك الخوف. أصبح رجلاً شديد الارتياب والخوف من كل شيء ومن كل شخص. أخذ يتلفت كل لحظة، يفزع من أي صوت، ينظر في الوجوه بتساؤل أقرب إلى الاتهام. لقد جرى هذا التحول خلال فترة قصيرة.. صحيح أنه جرى ببطء، ولم يفطن إليه الكثيرون أول الأمر، لكن القلق الذي أخذ يميز تصرفاته وسلوكه، وتلك العلاقات المضطربة بالآخرين، ثم التردد الذي أصبح يطبع كل حركة وكل تصرف، جعل الكثيرين ينظرون ثم يتساءلون.

قال ابن نفاع لما سمع الرجال في مقهى أبو السعد يتحدثون باستغراب عن ذهول ابن الراشد وصمته:

ـ بلّش العفريت ينقب....

وهز راسه وهو يضحك.. ثم أضاف:

ـ إذا عشنا نشوف.

أكثر اثنين لاحظا وعرفا بالحالة الجديدة لابن الراشد هما دحام والدباسي. دحام من خلال علاقته المباشرة واليومية به، والدباسي من خلال الحدس والتقدير، إضافة إلى مجموعة من الملاحظات المتفرقة والأقوال والمعلومات التي تصل إليه من هنا وهناك، حول تصرفات أو كلمات تصرفها أو قالها الرجل. وكل واحد من الاثنين، دون أن يدري بما يفكر الآخر، قرر أن يجهز عليه، وأن يرغمه على دفع ثمن كبير.

فبعد تلك المفاوضات والمساومات الطويلة الشاقة لإرغام ابن الراشد على دفع التعويض، وافق مضطراً، ولأنه لم يكن يملك المبلغ المطلوب فقد وافق الدباسي على إقراضه، أما حين سافر هاجم وخاله ذلك السفر المفاجئ، فقد اعتبر ابن الراشد أن لا حاجة لهذا القرض في الوقت الحاضر، أما الدباسي فقد قال للأمير بنوع من المكر:

ـ الفلوس في جيب راعيها تدفي.. يا طويل العمر...

توقف لحظة، نظر إلى ابن الراشد ثم أضاف:

ـ لكن باكر إذا طلبتم يجوز ما تلقون..

وتغيرت لهجته تماماً وهو يوجه حديثه من جديد للأمير:

ـ يجوز، يا طويل العمر، أن البدوي راح هنا.. هنا، يريد عارفة، يريد فزعة حتى يحصل على قرشين أزود.

وعاد إلى لهجته الأولى مخاطباً ابن الراشد:

ـ باكر إذا جاء لا تقولوا تعال يا دباسي، هات فلوس يا أبو صالح.

بهذه الطريقة المحكمة اتفق على أن تبقى الفلوس لدى الأمير وديعة إلى حين مجيء البدوي أو الوصول إلى حل لهذه المشكلة. ولأن الفلوس

تبقى وديعة ولن يتمكن ابن الراشد من تسديدها في فترة قريبة، هكذا افترض الدباسي، لذلك قال ليخطوا إلى الأمام:

ـ الله يصلحه أبو محمد حطّ قريشاته كلها بالقاع وببطون الناس. . .

وأضاف بعد أن ملأ صدره بالهواء فجاء صوته مختلفاً:

ـ القاع يا جماعة الخير مثل البير، كل شيء ينحط فيها تبلعه!

لم ينقض أسبوع على هذا الكلام حتى قال الدباسي في المقهى أنه سلّف ابن الراشد، وأنه يريد أن يتبايع وإياه، فيترك له القرض ويأخذ الأرض غرب المسجد «لأن هذه الأرض لا تساوي شيئاً، ولا أحد يفكر بشرائها في يوم من الأيام» وابن الراشد الذي وصله هذا الكلام محرفاً، اكتفى بأن هز رأسه ولم يقل شيئاً. أما حين جاءه رسول من الدباسي مستفسراً ما إذا كان «بحاجة إلى الأرض غرب المسجد، لأن أبو صالح ينوي بناء بيت، والتلال الغربية بعيدة بالنسبة له، وهو مستعد لأن يدفع أي مبلغ تطلبه» حين جاء هذا الرسول وتحدث بهذه الطريقة، تأكد ابن الراشد أن الأرض غرب المسجد لا بد وأن تؤخذ منه بطريقة أو أخرى، لكنه لم يكن قادراً على أن يقول نعم أو أن يقول لا. قال للرسول:

ـ ما يأمر به أبو صالح على العين والراس.

وأضاف وهو يتنهد ويتطلع إلى وجه الرجل:

ـ إذا التقينا يصير خير.

اعتبر الدباسي ما توصل إليه مرضياً وإيجابياً في الوقت الحاضر، فلم يلح ولم يعد إلى ذكر الموضوع، لكن من خلال ما بدأ يظهر على ابن الراشد من قلق وخوف، بدأت الأخبار والإشاعات تتردد في مقهى أبو أسعد وفي السوق أن عدداً من المسافرين شاهد هاجم وخاله في عجرة، ولم يكونا وحدهما هذه المرة، كان معهما متعب الهذال ذاته وبرفقته عدد من البدو المسلحين. وذكر بعضهم أنهم سمعوا أن متعب الهذال سيصل بين يوم وآخر إلى حران؛ بل وانتشرت أخبار أخرى أن بعض الذين وصلوا حران فعلاً خلال الفترة الأخيرة أقرباء مباشرون لهاجم وإنهم جاءوا بقصد الثأر والانتقام.

هل كانت هذه الأخبار تصل لابن الراشد؟ هل نقلها إليه أحد واعترف بذلك؟ لا أحد يستطيع أن يزعم ذلك أو ينفيه، لكن عبده محمد الذي يسمع بعض ما يقال، ويظل أغلب الأحيان بعيداً في زاوية المقهى، يقهقه حين يسمع تساؤلات من هذا النوع ويعلق:

ـ يا جماعة اسألوني أنا عن ابن الراشد. . .

يتوقف قليلاً يهز رأسه يتذكر أو يستعرض في مخيلته القصص الكثيرة التي يعرفها. . ويضيف:

ـ ابن االراشد ألعن من إبليس، يعرف القمحة من زرعها والبيضة من باضها.

وحين يسمع الناس هذا الكلام، يتطلع بعضهم في وجوه بعض بتعجب، كيف يستطيع هذا الإنسان معرفة كل شيء، ومن ينقل إليه ذلك كله؟ وحين لا يجدون جواباً يزدادون قناعة أن ما وصل إليهم لا بد أن يكون قد وصل إلى ابن الراشد، وربما قبل أن يعرفوا. فإذا سمعوا أن ابن الراشد لم يخرج من بيته في الأيام الأخيرة، وإنه لم يسافر، كما لم يزر معسكر الأميركان ولم يزر الأمير، رغم أنه في حران لم يغادرها. . . إذا سمع الناس ذلك أدركوا أن شيئاً جديداً قد حصل، وما قيل عن وجود هاجم وأقربائه في عجرة، وأن متعب الهذال معهم وإنهم سيصلون إلى حران في أول قافلة، أمر مؤكد، وهذا ما دفع ابن الراشد إلى الاختباء، كما فعل في المرة السابقة.

وفي الوقت الذي يظهر ابن الراشد في السوق ـ ولم يعد يرى إلا ومعه اثنان أو ثلاثة من جماعته ـ كان يبدو شديد القلق، وقد تغير شكله كثيراً: حركته سريعة، وعيناه شديدتا التنبه والفزع، وكان دائم الالتفات إلى هذه الناحية وإلى تلك، دون سبب ظاهر وبطريقة عصبية. أما الأصوات المفاجئة، حتى لو كان أحد ينادي على آخر، أو سقوط شيء من الأشياء، كانت هذه الأصوات تفزعه، كما حصل في المقهى، لما جاء بعد انقطاع طويل، إذ ما كاد محماس قهوة يسقط من يد بدوي كان يحمله حتى هب ابن الراشد بشكل مفاجئ، وقد ظهرت على وجهه علامات الخوف وأخذ

يتلفت. ولما اطمأن تهاوى على كرسيه مثل الشوال، وقد انحدرت من جبينه حبات العرق البارد الغزير.

لما رأى الناس ابن الراشد على هذه الصورة أصبحوا متأكدين أن شيئاً جديداً بدأ يتكون ويكبر تحت أبصارهم، ولا بد أن يصبح خطيراً في الأيام القادمة.

ودحام الذي يراقب ذلك كله بعين ذئب، ويسمع كل ما يقال بدأ يحضّر ويستعد أيضاً. فما أن انقضى أسبوعان أو ثلاثة أسابيع، وبدأت هواجس ابن الراشد تظهر واضحة، ودحام يراها أوضح من غيره، حتى أخذ ينوب عنه في جميع الاتصالات مع الأميركان، بما في ذلك متابعة بيت الإمارة ودار الأمير، خاصة وأن نعيم أبدى ضيقه الشديد نتيجة إلحاح ابن الراشد في اعتبار الشركة مسؤولة عن التعويض، وتهديده بالامتناع عن إحضار العمال في المستقبل.

لكي يؤكد دحام دوره الجديد، ونتيجة اضطراره إلى مقابلة الأمير بالذات بين فترة وأخرى، فقد قرر أن يتخلى بصورة نهائية عن الأوفرهول والقبعة، فعاد إلى الملابس العربية يلبسها في كل الأوقات. وإذا كان دحام قد أثار الدهشة ثم السخرية في بداية الأمر، لما تخلى عن الملابس العربية قبل الآخرين، وليكون قدوة لهم، فقد أثارت عودته إلى ملابسه القديمة، ثم تلك العباءة السوداء التي اشتراها على عجل، استغراباً وتساؤلاً. قال لابن الراشد لما اتخذ القرار، ولكي يوضح له الأمر:

ـ حياتك، يا أبو محمد، أغلى عندي من أبوي وأخوي. وملابس الأميركان تبين تحتها النملة، ولا يمكن إخفاء هذا...

وحرك المسدس في راحة يده المفتوحة، وكأنه يختبره أو يداعبه.

وحين أبدى ابن الراشد عجبه من وجود المسدس، ولم يفهم العلاقة بينه وبين الحديث عن ملابس الأميركان، تطلع بارتياب إلى دحام، وللحظات داخله خوف غامض. قال دحام وهو يبتسم لكي ينتزع الشكوك:

ـ لازم واحد، في الليل ولنهار، يكون معك، يا أبو محمد.

حرك ابن الراشد رأسه ولم يجب، لكن تنهد بحرقة، خاصة وقد بلغه ما يتناقله الناس. تابع دحام بثقة:

ـ هذه الملابس ـ وأشار إلى ملابسه العربية ـ تخفي عشرة من هذا.

وبطريقة بارعة وسريعة وضع المسدس تحت الحزام وهمس:

ـ والعباية فوقه.. وإبليس ما يعرف ما انت شايل.

أبدى ابن الراشد تفهماً، وفي محاولة لأن يبث الشجاعة في نفسه ويرد على ما يقال في المقهى وفي السوق، ابتسم وهو يقول من منخريه:

ـ اليد اللي تمتد لابن الراشد ما خلقها الله.. يا رجل.

رد دحام لينهي المناقضة:

ـ تحزم للواوي بحزام الأسد.. وبعدها كل شيء يهون.

وبهذه الطريقة بدأ يظهر دحام في كل وقت وفي كل مكان بملابسه العربية، والتعليقات التي أثيرت حوله في معسكر العمال أولاً ثم في حران الأميركان بعد ذلك، ما لبثت أن تراجعت وانتهت، وأخذ الناس يتعودون عليه بهذا الشكل، ولم يعودوا قادرين على تصوره بشكل آخر.

لم تتغير ملابس دحام وحدها، تغيرت تصرفاته، وأساليبه في التعامل أيضاً، حتى حركاته بدأت تتغير. أصبحت مشيته سريعة تماماً مثل مشية ابن الراشد حين يكون مشغولاً أو لا يريد الدخول في مناقشات طويلة مع الآخرين. وبدأ ينزع عباءته إذا اقتضت ضرورات المساعدة ذلك، لكي يثبت للعمال القدرة التي يتمتع بها. أما إذا رآه أحد يضع طرف ثوبه تحت الحزام فيمكن أن يظن لأول وهلة أنه ابن الراشد ذاته.

كيف تغير بهذه السرعة وبهذا القدر؟

قال الأمير لما جاءه دحام أول مرة يعرض عليه وضع قضبان حديدية على نوافذ الطابق السفلي من بيت الإمارة، وكان لديه نائبه والدباسي واثنان آخران:

ـ ها.. يا وليدي تريد تدفنا وحنا بعد ما متنا؟

فلما ظهر الارتباك على وجه دحام ولم يستطع أن يجيب بكلمة، أضاف الأمير وهو يضحك:

ـ قل لجماعتك الحديد يوفرونه.. لغيرنا...

وأضاف وقد تغيرت لهجته:

ـ وقل لابن الراشد غيباته طالت ولازم نشوفه.

وبعد أن خرج دحام تساءل الأمير باستغراب:

ـ ها.. يا جماعة الخير... ما هو هذا العوج اللي كان معبي روحه ببنطرون؟

وحين ضحك الموجودون وهزوا رؤوسهم للتأكيد، رد الأمير وهو يضحك ويحرك يده بسخرية:

ـ سبحان الله.. صار يحكي بالحديد والخشب، اللي يصير واللي ما يصير.

قال الدباسي بمكر:

ـ هذا وكيل ابن الراشد، يا طويل العمر، وهذا العوج اللي ما يعجبك، ابن الراشد ما يشيل حجر إلاّ بشوره، بموافقته.

قلب الأمير شفته وحرك يده، أضاف الدباسي:

ـ خبل.. لكن قلبه طيب.

ودار الحديث مرة أخرى حول ابن الراشد. والدباسي الذي كان يتكلم بطريقة معينة في المقهى، أمام الآخرين، حول ما سمعه من وجود هاجم وخاله في عجرة، ووجود المسلحين، وهذا ما يمنع ابن الراشد من الخروج، فإنه أمام الأمير يؤكد أن امتناع ابن الراشد نتيجة هواجس وليس نتيجة مخاوف، وقد يكون بسبب المرض.

وفي معسكر العمال أيضاً لم يغب طيف ابن الراشد يوماً واحداً. فالأحاديث التي تروى، والأخبار التي تنتشر في حران العرب، في السوق، وفي المقهى، لا تلبث أن تنتقل بسرعة إلى المعسكر. وفي رحلتها القصيرة

من مكان إلى آخر تضاف إليها تفاصيل كثيرة ويدخلها تحريف كبير. فعدد من العمال يؤكد أن ابن الراشد منذ وصول هاجم وخاله أصيب بحالة من الخوف بحيث أصبح يبول على ثيابه، ولهذا السبب امتنع عن مغادرة بيته. ويقسم هؤلاء الذين يروون هذه القصة إنهم لم يستطيعوا الجلوس بقربه في المقهى، لأن رائحته كانت رائحة جثة. كانت تفوح منه روائح البول مختلطة بالعطور والرطوبة فتتولد في رؤوس القريبين حالة من الصداع، وقد سأل أحد الموجودين أبا سعد بصوت عالٍ ما إذا كان عنده بخور أو عطور.

ويؤكد غير هؤلاء أن ابن الراشد أخذ يتنكر بملابس متسولين، وروى اثنان أنهما شاهداه وقد طلى وجهه بالسواد تماماً! وقال آخرون أنهم رأوه مرة في الليل المتأخر يضع قبعة على رأسه فوق الغترة في محاولة للتخفي.

وإذا كان التحريف أو الخيال قد داخل الكثير من هذه الروايات، فإن الشيء المؤكد هو أن الخوف قد دخل قلب ابن الراشد، وأكد ابن نفاع أن «الخوف لا يخرج من الرجل إلا إذا خرج مزبان من القبر» أما الحديث عن الكي والفصام «فإنه يفيد هاجم ولا يفيد ابن الراشد» حسب قول ابن نفاع أيضاً.

وإذا جرى الحديث عن البدو المسلحين الذين سينتقمون لهاجم ويثأرون له ولأخيه مزبان، فإن جميع العمال متأكدون أن هذا سيجري اليوم أو غداً، ويخفضون أصواتهم وهم يضيفون أن ابن هذال والبدو الذين معه إذا جاءوا فسوف تهيأ لهم المنامة، وسوف يتم إخفاؤهم في أمكنة لا يستطيع أحد الوصول إليها، وبالتالي لن يعرف ابن الراشد.

أما دحام الذي كان يختلف حوله العمال، ويميزون بينه وبين ابن الراشد، فما لبث أن أصبح ابن الراشد ذاته، وحين جاء بملابسه العربية إلى معسكر العمال أول مرة قال عبد الله الزامل وهو يضرب كفاً بكف:

ـ الله.. الله.. راح منير وجاءنا مناور!

وضحك بصوت عالٍ وأدار ظهره وقال يخاطب الذين حوله قبل أن يصل دحام:

ـ خذوا بالكم يا جماعة الخير.. مثل حمير ابن غيتار: المطلق أخبث من المربوط!

وحين بدأ دحام يطلب من العمال بعض الطلبات، وأخذ يوجههم، كما كان يفعل في كثير من الحالات، همس عبد الله الزامل بأذن أقرب الناس إليه، وضحك الإثنان عالياً. فبدا الانفعال على وجه دحام، لكنه تحول بسرعة إلى الجهة الثانية وقال بطريقة قاسية، لكن يريد من ابن الزامل أن يسمع:

ـ العاقل.. وابن الحلال ما يغتر ولا يتغير.

توقف لحظة، نظر في وجوه الجميع ثم أضاف:

ـ ولازم تعرفون: البارح ما هو مثل اليوم، واليوم ما هو مثل باكر.. ونشوف.

وبعد أحاديث طويلة ومتشعبة حول ورديات العمل والبركسات والعمال الجدد غادر دحام المعسكر. وحين سأل العمال عبد الله الزامل لماذا ضحك، وماذا قال أجاب:

ـ مثل ما قال الشيخ: البارح ما هو مثل اليوم.. واليوم ما هو مثل اللي وراه.. ونشوف.

وهز رأسه عدة مرات ثم تابع بحقد:

ـ الخبل يظن أنا ما نعرفه.. مثل الأعمى يخرأ فوق السطح ويظن الناس غافلين!

ولما ألح العمال يسألون ابن الزامل، أجاب الذي شاركه الضحك:

ـ سألني: هذا الشيخ اللي نشوف هو دحامنا، صاحبنا اللي نعرفه؟ قلت: من أكل تمرهم يقوم بأمرهم.. وهذا ابن الراشد الثاني.

❀ ❀ ❀

خلال الفترة ذاتها، وأثناء زيارة من زيارات ابن الراشد القليلة للمقهى، بدا أصفر الوجه مضطرب الحركات وكانت نظراته زائغة، وقد ولّد مجيئه مواقف متناقضة إلى أقصى حد، وأثار من العطف بمقدار ما أثار من

التساؤل. أما محاولات بعض الموجودين في فتح حديث معه، فقد قابلها بابتسامة حزينة وإجابات قصيرة مبتورة.

وإذا كان مجيء ابن الراشد إلى المقهى، وجلوسه هناك وقتاً غير قصير، ما كان يثير أية أحاديث أو تعليقات ذات أهمية، فإن ما حصل في إحدى اللحظات قد أثار الاهتمام إلى أقصى حد، وعلق في ذاكرة الناس فترة طويلة. فما أن صرخ أبو أسعد بانفعال على الصبي الذي يساعده في المقهى:

ـ البدوي.. ناد على البدوي.

ما إن سمع ابن الراشد ذلك النداء حتى هب كالمجنون، لم يقف وحده وقف الآخرون الذين كانوا معه، وأخذ ينظر إلى الجهة التي ركض الصبي نحوها، وهو يشير بيده ويصدر أوامر قصيرة، لكن ما إن عاد الصبي ومعه ذلك البدوي، ثم الحديث الذي جرى بينه وبين أبو أسعد، حتى جلس البدوي على الأرض وفتح صرة صغيرة، أخرج منها قطعة نقدية أعطاها لأبو أسعد.. ما كاد هذا يجري ويراه ابن الراشد، كما رآه كل من كان في المقهى، حتى أحس الجميع، وأولهم ابن الراشد، بنوع من الهبوط الأقرب إلى الخجل، الأمر الذي جعله يخرج من المقهى بعصبية، لكن عينيه لم تتحولا عن ذلك البدوي لحظة واحدة.

وهذه القصة ما إن وصلت إلى معسكر العمال وإلى مسامع عبد الله الزامل، بالذات حتى استفسر عدة مرات عن الكلمات التي قالها أبو أسعد، وكيف قالها، ثم هز رأسه عدة مرات وهو يبتسم، ولم يفهم أحد لماذا فعل ذلك!

الصيف مقيم مستمر، ولذلك فهو بنظر الجميع أقسى صيف مر منذ سنين لا يتذكرونها. الأيام تطول والليالي تقصر، مع تزايد لهب الشمس وقسوتها، وتأكد الكثيرون أن هذا الصيف سيهلك البشر والدواب ويقضي على كل شيء قبل أن ينتهي. وابن نفاع لا يتوقف ولا يهدأ يبشّر الناس بنوع من الفرح أقرب إلى الشماتة أن العفاريت سوف تنفر من بين أرجلهم كما تنفر الفئران، وأن جهنم التي تغلي تحت الأرض، سوف تنتفض في يوم قريب إلى خارجها فتحرق كل شيء. والناس الذين تضيق صدورهم من الحرارة والرطوبة، ثم من حديث ابن نفاع، فيعافون الأكل، ويصابون بالارتخاء والشرود والنسيان، فلا يتذكرون إلا الساعة التي يعيشونها، ولا يرون إلا ما يمر أمام أعينهم من أحداث وأشياء.

وحران التي انشغلت وتغيرت منذ الساعة التي وصل إليها الأميركيون، عرفت كيف تشغل الناس، فتجعلهم يركضون كالكلاب، لا يعرفون إلى أين أو لماذا، وأغرقت الجميع في هموم لم يتصوروا أنهم سيتعرضون لها.. ومع ذلك فإن حران لم تكفّ يوماً واحداً عن أن تفاجئ الآخرين، المقيمين والذين جاءوا في الشهور والأيام الأخيرة.

ففي السوق، حيث يتكوم البشر الذين جاءوا مع القوافل، أو الذين قذفتهم البواخر، لا يخلو يوم من الأيام من عشرات الأحداث الصغيرة والكبيرة، من المنازعات إلى المساومات، إلى عمليات البيع والشراء التي لا تنتهي، إضافة إلى الدكاكين الخشبية وبيوت الطين التي لا يُعرف متى شيدت ومن شيدها، ولأي شيء ستخصص. وفي المسجد حيث يخلو الإنسان إلى ربه، لم يتوقف الدعاء ولم تتوقف الشكوى. ومع الدعاء

والشكوى كان الناس يتبادلون الأخبار والإشاعات، ويهزون رؤوسهم وأكتافهم انتظاراً للأيام القادمة.

أما معسكر العمال الذي يعرف أياماً هادئة رضية في الشتاء، والشهور الأولى من الربيع، فإنه يصبح في الصيف جحيماً لا يحتمله أحد. حتى الأميركان الذين يبدون متشددين قساة، وكذلك رجال الأمير ورجال إدارة الأفراد، فما تكاد الأيام الأولى من حزيران تبدأ حتى تقل زياراتهم، ثم تنقطع. ونتيجة ذلك ترتخي قبضة رجال الأمير وإدارة الأفراد، فلا يُعرف ما إذا كانت قائمة ومستمرة أم أنها انتهت إلى الأبد. أما حين يسافر أكثر الأميركيين في إجازة طويلة، وتكون عادة خلال شهري تموز وآب، فإنهم في الأيام الأخيرة قبل السفر يبالغون في التعبير عن مشاعر الرضا والغضب حتى أنهم يتصرفون كالأطفال.

البركسات التي كانت لها ميزة في الصيف الماضي، حيث كانت تمنع أشعة الشمس من الوصول مباشرة، أصبحت هذه السنة خانقة إلى درجة أن لا أحد يستطيع أن يبقى فيها أكثر من دقائق قليلة، الفترة التي تكفي لاستخراج حاجة من الحاجات، بعد أن تحولت إلى مجرد مستودعات، إذ وضعت فيها الملابس والأحذية ومعدات العمل، إضافة إلى كميات من المؤونة، وحين تختلط روائح هذه الأشياء معاً، وفي جو من الحرارة القاسية والرطوبة فعندئذٍ لا يمكن للإنسان أن يبقى فيها. وإذا أصرّ بعض العمال على تنحية الأكياس والمعدات من الممرات الطويلة لتأمين مكان للقيلولة، وهرباً من الشمس الحارقة، ومن الأمكنة الضيقة تحت الخيام أو إلى جانبها، إن الذين يفعلون ذلك، ويرمون أنفسهم على الأرض الإسمنتية داخل البركسات، لا يلبثون أن يخرجوا شاحبي الوجوه، غارقين في العرق، وشديدي الخوف والعصبية، لأن كثيرين منهم لامست أجسادهم الحيات، أو لدغتهم عقارب صغيرة صفراء، زحفت إليهم من تحت الأسرة؛ والذين نجوا من اللدغ فلا بد أن تكون حشرات من أنواع لا يعرفونها قد سببت لهم أوراماً وحكة في أماكن عديدة. أما الفئران السوداء الكبيرة فقد أصبحت البركسات مأواها خلال ساعات النهار كلها، فإذا جاء

الليل زحفت لتنتشر في كل مكان، بين الخيام، وقرب البراميل، وكثيراً ما خرجت من المراحيض أيضاً. كانت تقفز قفزات سريعة ذكية، حتى إذا ابتعدت مسافة كافية توقفت ونظرت إلى الخلف، نظرت إلى الذين أفزعوها، وأغلب العمال يقولون إنها كانت تنظر إليهم وتضحك.. وأكد هؤلاء أنهم كانوا يسمعون ضحكها الذي يشبه ضحك الأطفال!

لقد أدرك الأميركيون بالحدس، أو ربما نتيجة أسباب أخرى، إنه إذا أمكنت السيطرة على العمال وترويضهم في الجو البارد أو المعتدل فإنهم يصبحون وحوشاً كاسرة إذا دخل الصيف، وتزداد وحشيتهم ما ازدادت الحرارة، ولذلك يجب أن يقترب منهم الإنسان بمقدار، وأن يبتعد عنهم بمقدار أكبر، تماماً مثل سمك القرش إذ كلما اقترب لوجود الدم فإنه يصبح من الصعب تماماً أن يهدأ أو يروض أو حتى أن يقضى عليه.

وأبنية البركسات التي تلقت الضربات والإهانة المباشرة في الصيف الفائت، وعرف الأميركان بذلك وضحكوا ونظروا باستغراب، ففي هذا الصيف لم يعترض الأميركيون وكذا رجال الأمير، كما لم تعترض الإدارة حين فرد العمال حاجاتهم وفراشهم في الهواء، خارج البركسات، في بداية الربيع، أما في شهر مايس، حين اشتدت الحرارة، وطالب العمال بالخيام فقد وُعدوا أن تُوفر لهم، دون مناقشات طويلة، وقد حصل ذلك فعلاً، لكن مع بعض التأخير. ولجأ كثير من العمال إلى البحث عن أسباب للتحدي المباشر والاحتكاك من أجل خلق المشاكل والعراك.

الأميركيون الذين سافروا هذا الصيف أكثر من الذين بقوا. سافروا فوجاً بعد آخر. وما كاد الصيف الكبير يبدأ حتى أحس العمال أن الأميركيين الباقين ليسوا مثل الذين رحلوا، بل وليسوا مثلما كانوا في أوقات أخرى. فالرقة التي ميزت تصرفات المسافرين، خاصة في الأيام الأخيرة، والفرح الذي ارتسم على وجوههم وهم يستعدون، وأخيراً وهم يمدون أيديهم بقبضات قوية ويسلمون بحرارة، جعلت الجميع يشعرون أن الذين بقوا أقرب إلى الخشونة والعداء. إذ بعد أن أعيد توزيع العمال،

نتيجة توقف بعض الأعمال، وإغلاق بعض الأقسام، بدا كل شيء مرتبكاً ومؤقتاً، مثلما كان الأمر في الأيام الأولى.

كان العمال يتحركون بحذر، وكل حركة من حركاتهم، مهما بدت دقيقة حذرة، تستوجب التوبيخ والصراخ من هؤلاء الرؤساء الذين يعلو صراخهم وضجيجهم ساعة بعد ساعة، ويتراكضون في بعض الحالات بغضب، مع كلمات كثيرة ينثرونها هنا وهناك، ولا يحتاج الإنسان إلى ذكاء كبير ليعرف معنى هذه الكلمات! والعمال الذين ينظرون بعيون متسائلة عما يجب فعله لإرضاء هؤلاء الرؤساء، يردون على الشتائم بشتائم أقسى منها، مع نظرات التحدي والغضب.. لكن لا شيء يستقيم، ولا شيء ينتهي إلى ما يريده هؤلاء الأميركيون الأجلاف.

وبتقدم ساعات النهار تزداد الحالة سوءاً والعلاقات توتراً وعداء. حتى إذا حان وقت العصر، ساعة انصراف العمال، يكون كل شيء قد بلغ نهايته. فالمراقبون الذين يبدون نشيطين في الصباح، ويركضون أكثر مما يتطلب العمل، يصبحون في نهاية اليوم أكثر ضيقاً من الذين عملوا بأيديهم، فتصبح أصواتهم مبحوحة، خافتة، ونظراتهم خابية، ويصبح أي سؤال أو تصرف يثيرهم إلى أقصى حد. والرؤساء الأميركيون الذين كانوا في ساعات الصباح مثل الديوك، حين ينتقلون من مكان إلى آخر بسرعة ونشاط، لا يلبثون أن يشعروا بالتعب والإحباط فتضعف حركتهم ويتراجع حماسهم، أما ألسنتهم التي كانت لا تكف عن الشتيمة والصراخ، فإنها في نهاية اليوم تندلق إلى الخارج، كالكلاب العطشى، أو تنبلع إلى الداخل وكأنها انزلقت إلى أجوافهم، حتى الأسئلة التي يوجهها العمال أو المراقبون فإنهم يجيبون عنها بعيونهم، أو بحركات رخوة من أيديهم، ويبدو الأميركيون في مثل هذا الوقت وكأنهم يستعجلون نهاية تلك الساعات التي تحدد بداية الدوام ونهايته.

فإذا انتهى الدوام وانشق الجمع إلى جزءين، كما تنشق السيول في المنحدرات، واحد صغير والآخر كبير، فذهب الأميركان إلى

معسكرهم، وعاد العمال العرب إلى معسكرهم، فإن الأميركيين يغرقون في برك السباحة، حيث تصل أصوات ضجتهم إلى البركسات القريبة من الأسلاك، أو يخيم الصمت فيقدر العمال أن الأميركان دخلوا إلى تلك الغرف المبردة وراء الستائر التي تصد كل شيء: ضوء الشمس والغبار والذباب والعرب.

أما حين يصل العمال إلى معسكرهم، فهناك ينتظرهم تعب آخر، وتنتظرهم هموم أخرى: تحضير الأكل، غسل الملابس، تنظيف الخيام، جلب الماء، ويجب أن يصل بعضهم إلى السوق لجلب الخبز والمعلبات وبقايا اللحم، بعد أن يكون اللحم الجيد قد بيع من ساعات الصباح الأولى.

كل أمر، في كل خطوة، يثير متاعب وخلافات لا تنتهي. ورغم أن الكثيرين قد اتفقوا على القيام بهذه الواجبات منذ وقت مبكر، منذ بداية الأسبوع أو قبل ذلك أو بعده، فإن كل شيء يعرض من جديد للنقاش ثم الاختلاف. فإذا تعبوا أو سئموا من هذا الحديث الذي كرروه عشرات المرات، انصرفوا بصمت، دون أن يعترف واحد للآخر، إلى الأعمال يؤدونها بكثير من السأم والكراهية.

لقد تكرر هذا مرات لا نهاية لها. وعلى هذا المنوال كانت تجري الأمور أغلب الأيام. فإذا دخل الليل يبدأ نوع من الارتخاء أقرب إلى الخدر يسري في الأجساد فيمتص التعب شيئاً بعد شيء، ومع السيجارة الأولى التي تعقب العشاء، يحس الرجال بنوع من الراحة، فتتغير طباعهم وتصرفاتهم، حتى أصواتهم تكتسب ذلك الجرس الودود الذي يشعر الآخرين بقرابة من نوع معين. أما إذا دارت الأحاديث فإنها تكون في البداية أقرب إلى المزاح أو الأخبار، حيث تعكس حياة النهار نفسها. فإذا ذكر أحد الرؤساء أو المراقبين، يتلفت المتحدث أكثر من مرة، لئلا يكون أحد من أصدقاء هؤلاء موجوداً، فإذا اطمأن بدأت التعليقات، والتي تتخللها الشتائم، ثم تلك الأوصاف التي تصبح وحدها المتداولة.

لا يعرف العمال اسم هاملتون، إنه أبو لهب، وقد انتقل هذا الإسم إلى حران العرب ذاتها، ويقال أن هاملتون نفسه يعرف ذلك. أما جيمس الذي كان رئيس فريق تعميق البحر فكان يُسمّى أبو جنيب، ورئيس المعسكر أطلق عليه العمال المرّي الأعوج، لأنه كثيراً ما كان يقف عند بوابة المعسكر وينظر إلى الآثار على الأرض وإلى أقدام الداخلين والخارجين، وكأنه يبحث عن أثر ما!

لا تقتصر الأوصاف على الأميركيين، فنائب الأمير إسمه البرميل، وإن كان العمال يتناقلون هذا اللقب بخفاء وحذر، وقد أطلقوه عليه لسمنته، لأنه كان يحرص على أن يملأ العمال البراميل، أثناء بناء بيت الإمارة، قبل أن ينصرفوا. أما صالح الدباسي فقد كان اسمه صالح المطّوط، ربما لارتفاع صوته أثناء الحديث، أو للطريقة الرخوة التي ينطق بها بعض الحروف والكلمات.

كانت أحاديث أول الليل أقرب إلى المزاح والتورية، أما إذا امتدت مع تقدم الليل وظهور القمر أو التماع النجوم فإنها ترحل إلى الأماكن الأخرى وإلى الفترات الماضية. وإذا كان لكل إنسان ماضٍ، فإن الذين يحسنون الحديث عن هذه الأمكنة وتلك الفترات قليلون، وهؤلاء كانوا هم عصب المعسكر وأهم أفراده، إذ حول هؤلاء يتجمع العمال وتبدأ الأحاديث. ومع كل قصة جديدة أو تعليق طريف أو ذكرى ترحل القلوب والعقول، فيحس الكثيرون في هذا المكان أنهم بعيدون وأنهم يتعبون دون جدوى، فيمتلئون بالحزن والندم، ويشعرون أكثر من ذلك أنهم وحيدون ومنسيون. ولما يبلغ الشعور هذا الحد لا بد أن يرتفع صوت بالغناء، فيرحل الرجال مرة أخرى إلى أماكن بعيدة، إلى الذكريات والأحلام معاً، لأن الشجى يجر الشجى، فالغناء الذي يبدأ ناعماً خجولاً لا يلبث أن يتحول شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح ندباً شجياً حزيناً للنفس والحياة ولكل شيء. وهذا الغناء الذي تخصص فيه عدد محدود جداً من الأفراد، لا يأتي دائماً أو كما يريد الآخرون، إذ لا بد أن تشتعل نفس الذي يغني، ولا بد أن ينصهر قبل أن يصل إلى تلك

اللحظة التي يندفع بها بقوة لكي يطغى صوته على جميع الأصوات، ولكي يصرخ في جوف الظلمة، فيقول أشياء ما كان هو نفسه يتصور أنه سيقولها، لكن الألم الذي يحز في القلب كالسكين لا يجعل لأحد خياراً، ولا يجعل الإنسان يقرر بوعي أو إرادة.

هكذا كانت تجري الليالي في حران، لكن حران التي تتغير كل يوم، والتي تحمل جديداً كل يوم، لا تترك لليلة أن تكون مثل ليلة أخرى، ولذلك كان هناك دائماً شيء جديد.

لا شيء في حران ينتظر، ويبقى ثابتاً لا يتغير، البشر والأشياء، حتى الطبيعة، بما فيها من ماء وهواء تتغير وتتبدل. فالناس الذين انشغلوا أياماً بهاجم، فحزنوا وراقبوا وانتظروا، ثم تساءلوا ماذا سيحصل بعد أن سافر بشكل مفاجئ، لم تلبث الحياة، بتدفقها الذي لا يتوقف، إن أنستهم الرجل، وحتى إذا تذكروه في سهرة من السهرات فإن ذكريات أخرى تندفع بقوة فتطغى على هذه الذكرى أو تجعل لأحداث أخرى بريقاً يخطف أبصارهم وقلوبهم.

وقبله عبده محمد الذي شغل الناس وقتاً من الأوقات ما لبث أن انزوى في فرنه، فما عاد أحد ليتذكره أو ليتحدث عنه إلا كذكرى قديمة موغلة في القدم.

حتى ابن الراشد الذي شغل الناس فترة طويلة من الوقت بأخباره وتحركاته، وكان شديد الحضور بإقامته وسفره، يراه الناس يقفز مثل قط من مكان لآخر، يذرع الأرض، يتأمل الأبنية، يقلب الأخشاب والحديد، يجمع أشياء لا أحد يتصور أنها يمكن أن تجمع.. ابن الراشد ذاته، بعد الذي حصل، وتحدث الناس كثيراً وانتظروا، ما لبث أن حمل الجميع على نسيانه، أو على الأقل حملهم على ألا يتذكروه مثلما كانوا يفعلون من قبل. فالعزلة التي فرضها على نفسه، وحالة الاكتئاب التي اضطرته للبقاء أياماً متوالية دون أن يرى أحداً أو يراه أحد، هذه العزلة غيبته تماماً، فإذا عادوا إلى تذكره فلأنه خرج إلى مقهى أبو أسعد في عصرية من العصاري، أو تمشى على شاطئ البحر ومعه اثنان أو ثلاثة من جماعته. لقد تغير كثيراً في هذه الفترة، فالمشية السريعة انتهت لتحل مكانها مشية ثقيلة حذرة،

والجسم القوي المملوء أصبح متعباً أميل إلى النحول، ولولا تلك النظرات القلقة السريعة التي ظلت تميزه مثلما كان من قبل لأنكره أقرب الناس إليه.

البواخر تحمل رجالاً يزيد عددهم كل يوم. الحاجات تتزايد ويتسارع وصولها ويُحمل أكثرها إلى معسكر الأميركان. الأبنية تقوم هنا وهناك وترتفع يوماً بعد آخر. الدكاكين تتراصّ وتتزاحم. الناس يتراكضون ويصرخون وينادون. وذاكرة الناس يعاد ترتيبها بصورة مستمرة. والقلق والهم يتزايدان لأن أحداً لا يعرف ماذا يخبئ الغد.

حران العرب التي انتبذت مكاناً قصياً في محاولة لأن تبتعد وتهرب مما يراد لها، لم تستطع أن تقاوم طويلاً، فالأبنية الطينية التي تتراكم بجانب بعضها، فتسد الطرقات أو تجعلها ملتوية شديدة التعرج، لم تعد قادرة على استيعاب الناس، ولم يعد الناس راغبين أو قانعين أن يبقوا مثلما كانوا، فانتشرت أبنية جديدة في أمكنة عديدة ومتفرقة، وأصبحت مثل الدمامل في اليد أو مثل الرقع في ثوب كبير قديم. والسوق الذي بدأ بثلاث دكاكين، ما لبث أن أصبح شيئاً عجيباً. كانت الدكاكين الجديدة تقوم كل يوم، دكاكين من كل شكل ومن كل حجم: أبنية قوية راسخة وأخرى عبارة عن صناديق خشبية كبيرة تقوم في التو واللحظة، وقد أصبح دحام متعهداً لهذا النوع من الدكاكين، إذ كان يجلب الصناديق الخشبية الكبيرة من معسكر الأميركان، ومن يريد دكاناً من هذا النوع يلتزم بتقديم البضاعة والقيام بالعمل لقاء «أن يجد دكاناً جاهزة بالأرض والبناء.. وبعد ذلك الربح مناصفة» وهذا النوع الذي كان يرضي الكثيرين ويلبي حاجات كثيرة أصبح ينتشر في كل الأمكنة: في السوق الرئيسي، قرب المسجد، بجانب معسكر العمال. وفي حران العرب ذاتها، على التلال الغربية، أقيمت أيضاً دكاكين كثيرة بهذا الشكل.

إلى جانب هذا النوع من الدكاكين بدأت تنشأ بيوت مماثلة، وإن كانت أكثر اتساعاً أغلب الأحيان، وتتناولها تحسينات يجريها كل واحد حسب ما يتخيله أكثر جمالاً وأقدر على تلبية حاجاته. وكانت هذه البيوت تتوزع في كل مكان، إلى جانب البحر، بين الدكاكين، على سفوح التلال. بكلمة

أخرى، في كل بقعة أرض فارغة تتسع لبيت من هذه البيوت ولا يعترض أحد على ذلك اعتراضاً جدياً.

ومثلما كان يقوم هذا النوع من الدكاكين والبيوت، فإن نوعاً آخر من البيوت المبنية من الحجر الرمادي الأقرب إلى السواد، الذي أحسن قطعه وتجهيزه، بدأ يرتفع أيضاً. كان أول هذه البيوت وأكبرها بيت عبد الله السعد، ثم تلاه الدباسي وقد أقام بيته في تلك الفسحة من الأرض غرب المسجد، بعد أن وافق ابن الراشد على التنازل عنها، وجرى إقرار ذلك أمام الأمير. ولم يتردد آخرون مثل السلامي والمرزوق وغيرهم من تشييد بيوت من نفس النوع، وإن ظلت أصغر وأكثر تواضعاً.

دار الإمارة وبيت الأمير انتهى تشييدهما أواخر الصيف وبداية الخريف، لكن الأمير استمر مقيماً في الخيام التي رفعت من أماكنها ونصبت وسط الساحة الكبيرة التي أحيطت بالأسلاك، والتي تحدد دار الإمارة وبيت الأمير معاً. وكانت الحجة التي استند إليها الأمير في تأخير الانتقال «رائحة الأصباغ تدوخ الرأس وتعمي العيون» إضافة إلى «أن النوم تحت السماء أحسن من أن يحبس الإنسان روحه في هذه القبور» كما قال وأكد لأكثر الذين زاروه أو سألوه.

ومثلما جاء عبد الله السعد ومحمد السيف ليستقرا في حران، فإن اثنين آخرين وصلا ورافق مجيئهما الكثير من الاهتمام في هذه الفترة. جاء الأول مع إبراهيم السعد من البصرة، ولم يتوقع عبد الله السعد نفسه أن يجيء، لأن محيي الدين النقيب، شاه بندر التجار، كما كان يطلق عليه في البصرة، لعظم تجارته واتساعها، ولأن له علاقات مع الهند والسند ومانشستر. جاء محيي الدين النقيب مستطلعاً ثم ما لبث أن قرر البقاء وبقي. أما الثاني فكان حسن رضائي، ورافق مجيئه الكثير من الحفاوة والاهتمام أيضاً، وقد جاء على باخرة ليست مثل بواخر الأميركان بحجمها، لكنها ليست مثل تلك البواخر الفقيرة البائسة التي كانت تحمل عشرات المسافرين التائهين. جاء حسن رضائي بأبهة وفخامة، ورغم أن أحداً لم يكن يعرفه في حران، إلا أنه قام بزيارة الأمير فور وصوله، ولقد

جرى الحديث أثناء الزيارة حول أمور كثيرة. أما في تفسير مجيئه فقد قال إنه بدافع التعرف «ولا مانع لديه من تقديم أي نوع من المساعدة تحتاجها حران، اليوم أو في أي يوم آخر». أما الهدية التي قدمها للأمير، وهي عبارة عن منظار مقرب، فقد أبدى الأمير تردداً في قبولها أول الأمر، لكن ما لبث أن سُرّ بها سروراً كبيراً حين وضع المنظار على عينيه وأخذ ينظر في هذا الاتجاه وفي ذاك الاتجاه وبدأ يشير بيده ويضحك فرحاً ودهشة!

لم يبق حسن رضائي خلال هذه الزيارة إلى حران سوى ثلاثة أيام «لأن أشغاله ومواعيده لا تسمح له بأكثر من ذلك، على الرغم من سروره ورغبته في البقاء واعتزازه بالتعرف على سمو الأمير». أما عرض الأمير في أن يكون ضيفه وينزل في دار الإمارة فقد اعتذر عنه حسن رضائي بتهذيب كبير، وقال إنه سيقضي أغلب الوقت «في رحاب صاحب السمو وبين يديه، لكن الفراش الذي تعوّد عليه، نتيجة المرض، يلزمه أن يعود إلى الباخرة». وفي نطاق تبرير هذا الموقف وإقناع الأمير بالموافقة على هذا الاقتراح، قال إن وجوده على ظهر الباخرة وباستعمال كل منهما منظاره المقرّب، سوف يجريان حديثاً طويلاً وشائقاً، كما يفعل عادة البحارة على ظهور السفن، وراهن أن الأمير سيسر من هذه الطريقة في الحوار، وإنه سيتقنها بسهولة!

لقد تحدث الناس كثيراً عن هذا الرجل الذي لا يعرفون من أين أتى، وكيف استطاع بسهولة أن يصل إلى قلب الأمير، وكيف أنه تحدث معه في أمور شتى، وكان الحديث يجري بينهما، في بعض الأحيان، وحين يفترقان، من هذه المسافة الكبيرة!

حين سمع ابن نفاع بهذا الذي يتناقله الناس عن المنظار المقرب، الذي يتيح لمن يقف على شاطئ البحر أن يرى القمحة في أبعد مكان من التلال الغربية، وكيف يمكن النظر إلى النجوم في الليل وكأنها معلقة فوق الرؤوس، حين سمع ابن نفاع بهذا صرخ بغضب:

ـ صارت الدنيا بآخرتها. وما عاد الإنسان يخاف من كتاب وحساب أو من رب العباد.

فلما سأله بعض الناس لماذا يفكر بهذه الطريقة هز رأسه بحزن يبلغ حد الأسى وأجاب:

ـ منذ إن جاء الأميركان جاءت معهم العفاريت والمعاصي والمصائب، ولا أحد يعرف ماذا سيحصل في الأيام الآتية...

يصمت قليلاً، ويخرج صوته متهدجاً:

ـ اللهم يا رب، يا مالك الملك، يا قوي، يا رحيم.. أمتني على دين آبائي وأجدادي، على دين نبينا محمد، ولا تجعلني عاصياً كما عصى قومي. أسمعني يا ربي واستجب لدعائي.

وفي غمرة الدعاء والابتهال يقول رجل لآخر:

ـ اترك الشايب هالحين.. الباخرة وصلت.

ـ أية باخرة؟

ـ مثل اللي تذكرها...

وما يكاد خبر باخرة الحريم يصل إلى عبده محمد حتى يجنّ، يريد أن يخلص من الأقراص التي بين يديه، أن يخرج من الفرن ومن جلده ومن حران كلها. تبدو الأقراص أمامه أكثر من أية مرة سابقة، كثيرة إلى درجة أنه لم ير بعددها يوماً من الأيام؛ ليست كثيرة فقط، إن النار تعاديه، لا تستجيب له، وإلاّ لماذا تبقى الأرغفة صماء هكذا؟ لماذا لا تنضج وتخرج بسرعة؟ والباخرة، هناك، هل تنتظره؟ لماذا يظل يحترق في هذا الجحيم، والآخرون، هناك، يجلسون برخاوة على الشاطئ، يدلون أرجلهم في الماء وعيونهم تحلق، ترافق ذلك المركب الصغير في رحلته الرائعة، فإذا عاد بسرب من الحسان ظلت العيون تتابع هذه الرحلة الخطرة اللذيذة حتى اللحظات الأخيرة من الماء، فإذا طارت طيور القطا وحطت على الشاطئ، بتلك الضحكات الصاخبة، بذلك الصوت الذي يشبه البلابل، وظهرت تلك الأجساد البيضاء.. البيضاء.. البيضاء الرطبة، القريبة، الشهية، التي تتدافع وكأنها غزلان حطت على غدير، وحاصرتها الأيدي وتابعتها العيون.. يا الله هل يمكن أن يحصل كل هذا وهو بعيد.. بعيد.. بعيد؟

وماذا إذا طال انتظار الناس لكي يحصلوا على الأرغفة التي يحتاجونها من أجل أن يذهب عبده ويكون هناك مثله مثل الآخرين؟ وحتى لو لم يأكل الناس يوماً واحداً . . هل يتغير شيء في هذا الكون؟

الجميع ضد عبده محمد. هذا شيء مؤكد يعرفه أكثر من أي إنسان آخر. إنه يطعم الجميع، يقدم إليهم الأرغفة كل يوم، يحرص إلى أقصى حد على أن يقدم أحسن الأرغفة وأكثرها نضجاً، لكن لا أحد، نعم، لا أحد، ينظر إليه، يتعاطف معه، يعرف أي حريق يشتعل في قلبه، خاصة الآن، وقد علم بوصول الباخرة. لماذا لا يأتون الآن، في هذه اللحظة، من أجل أخذ أرغفتهم؟ أين ذهبوا ولماذا تركوه وحيداً هكذا؟

حين استخرج عبده الأرغفة، رغيفاً ثم آخر ووجدها قد احترقت بالكامل، تطلع إلى الأرغفة الثلاثة أو الأربعة الباقية وقال في نفسه «لقد احترقت قبل أن تحترق» ولم يستطع أن يواصل.

ذهب إلى شاطئ البحر، إلى نفس المكان الذي وقف فيه السنة الماضية.

اقترب أكثر. اقترب إلى أقصى حد. لامس وجهه الأسلاك، لم يستطع أن يرى من هذا المكان إلا باخرة بعيدة بيضاء. حتى العلم الذي كان يخفق عليها لم يستطع أن يميز ألوانه. حاول كثيراً مع جمعة. قال له أن الأميركان في المعسكر أرسلوا وراءه وطلبوا إليه أن يأتي، لكن جمعة لم يسمع ولم يستجب، كأنه لم يأكل مرة واحدة من خبز عبده! ذهب بعيداً عن البوابة، تطلع في كل الاتجاهات لعله يستطيع أن يجتاز هذه الأسلاك، أن يصل إلى مكان قريب، لكن محاولاته انتهت إلى الفشل. رأى حوله بعض الصبية، سألهم ما إذا كانوا قد رأوا أحداً يسأل عنه. تضاحكوا وهم يجيبون إجابات غير واضحة. أما عندما بدأوا يسبحون مجتازين حد الأميركان وهم يتصايحون فقد شعر بالندم الشديد لأنه لا يعرف السباحة.

وتذكر ما سمعه في الأيام الأخيرة عن المنظار المقرب، الهدية التي حصل عليها الأمير. قالوا إن الأمير منذ حصل على هذا المنظار، وهو

مبطوح على بطنه والمنظار منصوب يراقب من خلاله كل شيء. تمنى عبده لو يحصل على هذا المنظار لدقيقة واحدة، سوف يتمكن خلال هذه الدقيقة من رؤيتها. تكفي نظرة واحدة ليعيش عليها سنة أخرى. حين يراها لا بد أن يجدها تبحث عنه، تراقب كل قادم وتنظر إلى كل وجه.

وفي هذا اليوم، عند الغروب أو بعده بقليل، انتشرت شائعة قوية أن عبد محمد غرق في البحر. صحيح أن بعض الناس رآه قرب الشاطئ، لكن أحداً لم يشاهده بعد ذلك. أما الفرن فقد ظل مغلقاً طوال اليوم، ولم تجد كل محاولات الطرق والنداء التي حاولها الكثيرون، حتى أصدقاؤه الذين يعرفون متى يطرقون الباب، وأية كلمات يقولونها، وكيف كانوا يستخرجونه من وكره في أصعب ساعات التجلي والعزلة، حتى هؤلاء لم يتوصلوا إلى نتيجة، وخامرهم شك قوي أن عبده ليس موجوداً في الفرن، وربما يكون قد مات فعلاً، وقد فكر بعضهم بكسر باب الفرن، لكن تركوا كل شيء لليوم التالي «لأن الصباح رباح، والرجل مثل عادته، ركبته السودا، ولا يريد أن يرى أحداً».

وفي هذا اليوم أيضاً باع فرن عبد الله الأبيض كما لم يبع في يوم سابق، ومع الأرغفة التي توضع بين أيدي الناس كانت تنسكب في آذانهم أخبار غرق عبده!

لكن لا شيء في حران ينتظر أو يثبت، فعند ساعات الليل المتأخر، قبل الفجر بساعة، رأى الذين خرجوا من مقهى أبي أسعد، وعلى شاطئ البحر، ليس بعيداً عن المقهى، رأوا عبده. كان يدندن بأغانٍ حزينة، وكان في بعض المقاطع ينشج ويبكي بصوت عالٍ!

في الأيام التالية كان عبده شديد النحول، شاحب الوجه، وكانت يداه ترتجفان ارتجافاً شديداً، حتى أنهما لا تقويان على إدخال الأرغفة إلى بيت النار أو إخراجها منه، وكان لا يكلم أحداً ولا ينظر في وجوه الناس.

لكن ما كادت بضعة أيام أخرى تمر حتى انتشرت معلومات قوية أن عبده الذي لم يعرف السباحة ولا نزل إلى البحر من قبل، لكنه قد نزل في

ذلك اليوم، وظل يضرب بيديه ورجليه والماء يحمله حتى وصل إلى الباخرة الراسية بعيداً، وإنه صعد إلى ظهرها بحبل مدته إليه المرأة ذاتها، وأنه قضى هناك ساعات طويلة حافلة، ولما رجع إلى الشاطئ مرة أخرى كان يسبح على ظهره ويحمل بيدٍ لم تمس الماء صورة امرأة. وأكد بعض الذين خرجوا من المقهى متأخرين تلك الليلة أنهم رأوا مع عبده صورة تلك المرأة. كانت الصورة جافة لامعة، لم يمسها ماء، وكان يقلبها وهو يبكي!

راجت إشاعات قوية، في منتصف الصيف، أن سفر دحام إلى عجرة له علاقة قوية بقضية هاجم، فقد قيل ان الأموال التي كانت مودعة عند الأمير قد سحبت، لأن ابن الراشد قرر أن يبحث في كل الأمكنة عن هاجم وخاله، لكي يدفع لهما التعويض؛ وحتى المبلغ الذي قرره الأمير، إذا لم يكن كافياً أو مرضياً، يمكن أن يزيد عليه مقداراً إضافياً. ومما أكد قوة الإشاعة أو صحتها أن ابن الراشد، على خلاف الفترة الماضية، أخذ يظهر للناس. وهو الذي لم يكن متعبداً تقياً، حتى أنه لم يكن يذهب إلى المسجد إلا مضطراً، شوهد عدة مرات في المسجد، بل وأكد الكثيرون أنه كان يغرق في الصلاة والدعاء والتهدج، فيغمض عينيه نصف إغماضة ويتمتم بأدعية طويلة، وهذه عادة غير مألوفة في حران، كما لا يمارسها البدو، أو سكان المناطق المجاورة، بل وينظر هؤلاء إلى الذين يغرقون في التعبد نظرة شك وتوجس.

ومما زاد في رواج هذه الإشاعات وقوتها أيضاً أن ابن الراشد بدأ يستعيد صحته شيئاً فشيئاً، وبدأ يطيل الجلوس في المقهى أو التمشي على الشاطئ. صحيح أنه لم يعد لأي من الأعمال التي شغل بها نفسه في المدة الماضية، لكن الكثيرين فسروا الأمر باعتلال المزاج، وإنه لن تمر فترة من الوقت إلا ويعود مثلما كان. ومع أنه ظل كعادته كثير الصمت وغير راغب في الحديث مع الآخرين، عدا التحيات السريعة والأسئلة العابرة، فإن رجلين أو ثلاثة من رجاله كانوا يرافقونه باستمرار، ومع هؤلاء كان يجلس ويتحدث.

الدباسي الذي بلغه أول مرة أن ابن الراشد قضى ساعة أو أكثر في

المقهى، وبدا منتعشا، قال وهو يتصنع الحزن:

ـ صحوة موت... يا جماعة.

وبعد قليل أضاف كأنه يكلم نفسه:

ـ يتوهم، يظن أنه إذا قرّب من الخوف يأمن.

استراح قليلاً ثم تابع:

ـ ورطته ما هي سهلة ابن الراشد، ومع من؟ مع ابن هذال والبدوان، الواحد منهم يأخذ ثأره بعدأربعين سنة ويقول: والله استعجلت.

ولكي يتأكد الدباسي من الوضعية الجديدة لابن الراشد أرسل ابنه صالح لزيارته وليدعوه أيضاً إلى حضور حفلة زواجه من أخت محمد سيف، لكن ما عاد به صالح من رأي وانطباع كان مشوشاً للغاية، فتارة يقول أن الرجل مثلما كان من قبل، وتارة أخرى يقول إنه رأى في عينيه شيئاً غريباً لم يفهمه، لكن الأمر المؤكد أن «الرجل لا يريد أن يتكلم!» وقد دفع بالدباسي الأب لأن يقوم بزيارته ليتأكد بنفسه، وقد تم الاتفاق أن يلتقيا في المقهى.

قال الدباسي ليبرئ نفسه:

ـ هو اختار المقهى، بعثت أقول له: أريد زيارتك يا أبو محمد. قال: في القهوة عصرية نلتقي، والتقينا، وبعدها صار اللي صار.

ما كاد الرجلان يلتقيان، وقد أوعز ابن الراشد، بخشونة، للرجال الذين كانوا معه أن يبتعدوا، وقال بطريقة احتفالية، وهو يقف بقوة، أثناء ما كان الدباسي يتقدم نحوه:

ـ مثل ما تشوف.. يا أبو صالح: حصان، أقوى من الحصان.

ـ الحصان بدون فرس أو ثنتين.. ما يساوي شيء يا أبو محمد!

هكذا رد الدباسي وهو يضحك بصوت عالٍ. قال ابن الراشد وقد أحس بالتعريض:

ـ نلحق على الفرس يا أبو صالح...

توقف لحظة ثم أضاف هامساً وهو يتلفت:

ـ إذا خلصنا يا رجل.

ودون أن يسأله الدباسي اندفع يحدثه عن وجود مجموعة مسلحة تريد قتله ووراء هذه المجموعة متعب الهذال بالذات، وإنها تتربص به في الليل والنهار، لكنه احتاط لكل شيء، وسوف يفوّت عليها هذه الفرصة؛ ودون تردد وبانفعال أخرج من وسطه مسدساً وقال:

ـ قبل ما يجرّون سلاحهم، بهذا أبطحهم واحداً بعد واحد.

كان شديد الانفعال والحدة أثناء الكلام، والدباسي الذي فوجئ بهذا الانفعال ابتسم، تصنع الهدوء وعقّب:

ـ وكّل الله يا أبو محمد، المسألة كلها بسيطة ولا توجب القتل والبارود.

ـ توجب أو لا... المسألة صارت، لكن قبل ما أموت أموّت عشرة.

قال الدباسي بخبث:

ـ سمعت أنهم رضوا. أخذوا القريشات وسكتوا.

ـ كانوا موافقين ومستعدين، لكن الناس، الناس يا أبو صالح.. وخاصة ذاك اللي ما ينسى وما يتعب، متعب الهذال...

توقف ابن الراشد قليلاً، تنهد بألم ثم أكمل:

ـ وكل واحد، من اولاد الحلال، يرمي كلمة، كل واحد يقول ابن الراشد، والجماعة كل يوم برأي.

توقف مرة أخرى، مسح العرق الذي تساقط من جبينه وأضاف بنبرة جديدة:

ـ القريشات كوم وهذا كوم، واللي ما يرضى بذاك يرضى بهذا.

وهز المسدس بين يديه بثقة والتفت حواليه أكثر من مرة.

في هذه اللحظة دخل صبي إلى المقهى بسرعة وصرخ بشكل مفاجئ وبصوت عالٍ:

ـ البدوي.. البدوي.

وفجأة دوّت بضع رصاصات، وامتلأ جو المقهى بالفوضى والصراخ

ورائحة البارود. وما كادت الضجة تتراجع ويتلاشى دوي الرصاص، حتى تداعى ابن الراشد على كرسيه، وقد أصيب بحالة من الهبوط والانهيار.

لقد تراءى لابن الراشد أن أشخاصاً سيدخلون المقهى وأنهم سيقتلونه، لذلك بدأ قبل أن يبدأوا، هكذا قال بعد أن استراح، لكن حالة الذهول المصحوبة بالفزع، والتي عمت الجميع، أكدت أن ابن الراشد وصل إلى درجة تثير الشفقة.

كان يمكن اعتبار ما حدث مجرد صدفة، وقد يزول من ذاكرة الناس، كما زالت أشياء كثيرة. لكن تلك النداءات التي أصبحت تطارد ابن الراشد في كل مكان، والتي تصله إلى بيته، كما يؤكد هو نفسه، خلال ساعات الليل والنهار، يطلقها الصبية بعض الأحيان، ويطلقها الكبار في أحيان أخرى، جعلت ابن الراشد يعتصم في بيته يوماً بعد آخر، ليلة بعد أخرى. فإذا كان يغفر للصغار، فماذا يقول عن تلك الأصوات الخشنة التي تأتيه فجأة في الليل المتأخر؟ كان يهب من نومه مرعوباً. أو ينتفض في فراشه كما ينتفض ديك مذبوح. كانت الأصوات تطلب منه أن يخرج، إن كان شجاعاً، فإذا صمت أو توارى تعالت الأصوات أكثر من قبل، أما إذا خرج فلا يرى أحداً. وحين يسأل الآخرين يبدون استغرابهم وينفون أنهم سمعوا صوتاً أو رأوا أحداً!

قال بعض الناس في تفسير صرخات الصبية أن الصدفة وحدها هي التي أوقعت ابن الراشد، إذ ما إن عرفوا بما حصل في المقهى حتى تعلقوا بهذه التسلية، أما الكبار الذي يطلقون تلك الصرخات في جوف الليل فلم يؤكدها أحد سوى ابن الراشد.

أما حين عاد دحام من عجرة، ومعه عدد من العمال، وسمع ما حصل أثناء غيابه، ثم لما رأى ذلك الهوس الذي استبد بابن الراشد فقد قال أمام كثيرين:

ـ هذه شغلة أبو صالح. أبو صالح هو أبوها وهو أمها.

سمع الدباسي ما قال دحام، لكنه تظاهر أنه لم يسمع، فالاستعدادات للزواج استمرت، وباشر أكثرها بنفسه. جرى التأكيد مرة بعد أخرى على

الكثيرين بأن يحضروا. والخراف التي ستذبح عُلفت جيداً، وأخذت إلى البحر مرتين فغسلت هناك لتكون بيضاء نظيفة. أما «التريكات» ذات الأضواء القوية فجلبت خصيصاً من عجرة، وقد جرّبت عصر يوم وصولها، ثم في الليلة التالية، فبدت حران العرب في الليل على التلال الغربية مشعة مضيئة، حتى أن الكثيرين من العمال في المعسكر شاهدوا الأضواء وظنوا أن هذه الليلة هي ليلة الزواج، لكن آخرين أكدوا لهم أن الأمر خطأ، فالزواج سيكون ليلة الجمعة، وأما ما يرونه الآن فلا يعدو أن يكون مجرد استعداد لليلة الزواج.

وحران التي استعادت ذكرى زواج الأب في السنة الماضية، توقعت أن يكون زواج الابن الأكثر أهمية «لأن صالح هو الابن الأكبر، ولأن الدباسي الآن أقوى وأهم مما كان في السنة الماضية، ولا بد أن يثبت للجميع ذلك» أما الأمير الذي وجهت إليه الدعوة، وجرى تأكيدها مرة بعد مرة من قبل الدباسي نفسه، فإنه لم يعد وعداً أكيداً قاطعاً بالحضور، لأنه كان تواقاً لمراقبة الزواج بالمنظار، وسوف تكون مناسبة مهمة لأن يرى كل ذلك في الأضواء القوية ومن هذا البعد الكبير! وبدا مشغولاً في النظر إلى أعواد الثقاب أو إلى بعض الصور، كان يضعها له أحد رجاله على مسافات متفاوتة، مرة بعد أخرى، والأمير يأخذ وضعيات مختلفة، فمرة ينبطح على الأرض، بعد أن يثبّت المنظار على وسادة، ومرة يجلس واضعاً ركبته تحته، ومستنداً باليد التي تحمل المنظار على الأخرى، لكي يصل إلى «وضعية الرمي» كما كان يطلق على الحالة المثلى للرؤية. ونتيجة إلحاح الدباسي، والأهمية التي يعلقها على حضوره فقد قال الأمير دون أن يلتفت:

ـ أمرّ عصرية... أتقهوى وأمشي.

واستمر يصدر الأوامر لتثبيت العيدان، لمسكها بالملقط، لوضعها بشكل منتظم، وفي كل مرة ينظر إلى العيدان مباشرة، ثم من خلال المنظار، تتوالى هزات رأسه دلالة التعجب والاهتمام. قال الدباسي وهو يستأذن:

ـ المهم تصلنا يا طويل العمر . . وإذا وصلت ما نتركك .

وواصل الدباسي إرسال الرسل لإبلاغ المدعوين، فلما بعث لابن الراشد كان جواب دحام، بعد صمت طويل «ما أظننا بحاضرين» وبعد قليل أضاف بصوت بطيء منخفض: «إحذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة» لم يكتف بذلك قال وهو ينهض مدعياً أن وراءه أشغالاً يجب أن يقوم بها: «أيام السرور قصار» فلما بلغ الدباسي ما قاله دحام ضحك بغيظ وعلق بكلمة تناقلها الناس، قال:

ـ اركب الحمار ولا يهمك ضراطه، وأنا إذا ما ركبت هذا الجحش وسمّعت أهل حران كلهم ضراطه ما أكون أبو صالح!

يوم الخميس صباحاً طلب الدباسي من الأمير، مجدداً، وهذه المرة على شكل رجاء، أن يشرفه بالحضور، لكن الأمير الذي كان يراقب باخرة وصلت لتوها، انشغل تماماً، حتى أنه لم يفطن لوصول الدباسي ولم يسمع كلامه، ولما بدا الضيق على الدباسي، ولأن وراءه بعض الأشغال يجب أن يقوم بها، فقد قال لنائب الأمير الذي كان يهز رأسه هزات رثاء وحزن:

ـ الاعتماد عليك يا أبو رشوان.

وهز نائب الأمير رأسه، وفهمت على أنها موافقة وأنه سيبذل جهده.

أما في معسكر العمال فقد قام صالح نفسه بزيارة أخيرة، وقال بصوت عالٍ وبتفاخر ظاهراً

ـ الجميع ضيوفنا الليلة، الحاضر يبلغ الغائب، وما نقبل عذراً من أحد.

إلى الظهر ظل الأمير مشغولاً بالباخرة، أحصى عدد الرجال الذين نزلوا منها، لكن ظل متردداً حول الرقم النهائي، لأن خمسة رجال أو ستة من الذين صعدوا إليها مرة أخرى سبق أن نزلوا منها، وربما فعل واحد مرتين أو ثلاث مرات، فالأمير غير متأكد من ذلك، نتيجة اختلاط الناس ببعضهم وتشابه الملابس وحتى الملامح، إضافة إلى اهتزاز المنظار ثم سقوطه أثناء ما كان أحد رجال الأمير يقدّم الشاي! هذه المراقبة الدقيقة الصبورة أوحت للأمير بأفكار كثيرة، وسرح عدة مرات بذكريات أيام

بعيدة، تمنى لو أن المنظار كان معه! ثم علّق على أهمية هذا الاختراع لنائبه، وذكر أن عقل الإنسان لا بد أن يصل في يوم من الأيام إلى تركيب مجموعة من المناظير يمكن أن تساعد في رؤية الناس في أماكن بعيدة، في مصر والشام وربما أبعد. وغرق في تصوراته وأحلامه ولم يفق إلا لما دعي إلى الطعام.

بعد قيلولة قصيرة تخللها نوم متقطع، بسبب الرطوبة الشديدة والحر الشديد، وحين مالت الشمس قليلاً نحو الغرب، تطلع الأمير نحو التلال الغربية، فرأى أناساً كثيرين وحالة غير طبيعية،فخمن وقدر أن اليوم هو يوم زواج صالح الدباسي، فلما سحب المنظار لينظر من خلاله سأل نائبه الذي وصل لتوه، وكان يلبس ملابس جديدة نظيفة تفوح منها رائحة البخور، سأله إذا كان اليوم هو يوم الزواج، فلما ضحك نائبه بصوت عالٍ قبل أن يجيبه، رفع الأمير المنظار عن عينيه وتطلع إليه لكي يفهم سبب الضحك، فقال نائبه بنوع من السخرية المبطنة:

ـ الرجل نشف ريقه يا أبو مسفر، وقال: عمره ما أحد تزوج إذا أبو مسفر ما جاء.

هز الأمير رأسه كأنه يتذكر أنه رأى الدباسي في الصباح. قال يخاطب نفسه:

ـ الواجب واجب.

وقبل أن يصلا إلى الفسحة الكبيرة وسط حران العرب قال الأمير لنائبه:

ـ حدي المغيب وارجع...

وأضاف بعد قليل وقد تغيرت نبرة صوته:

ـ وأنت، يا أبو رشوان، تبقى، لأن أبو صالح به عرق عبيد.. وزعول!

❀ ❀ ❀

رغم جميع الجهود التي بذلت فإن عرس الدباسي الأب كان أكثر

أهمية وروعة، ولو سئل أي إنسان لماذا خرج بهذه النتيجة لما استطاع أن يعطي جواباً واضحاً أو يشبه أجوبة الآخرين. فالخراف التي نُحرت هذه المرة كانت أكثر من المرة السابقة، بل ثلاثة أضعافها على وجه الدقة. وعدد الذين حضروا هذه المرة يفوق عدد الحاضرين في عرس الأب مرات كثيرة. أما التريكات التي عُلقت في أماكن عديدة فحوّلت الليل إلى نهار، فكان يقابلها في المرة السابقة تريك واحد وضع في الوسط، وكان يؤذي العيون أكثر مما ييسر الرؤية الواضحة. وكذلك الغناء والرقص وأشياء أخرى كثيرة، إذا أخذت بقياس الحجم أو العدد، فإن حجمها وعددها الآن أكبر وأكثر، لكن مع ذلك فقد شعر الناس أن عرس الدباسي الأب مختلف. قال بعض العمال أن الأميركان لم يحضروا هذه المرة، لكن رد عليهم آخرون أنهم لو حضروا لحوّلوا العرس إلى مجموعة من الأسئلة والصور ولا شيء غير ذلك. وقال غيرهم: لو كان صويلح موجوداً لشعل الدنيا، لكن صويلح سافر قبل أسابيع، ولا بد أن يكون قد عرّس وأعجبته الحياة هناك فتأخر أو لا يريد العودة. وهز الكثيرون الذين سمعوا الكلام رؤوسهم بنوع من الموافقة، لكن لم يعلقوا.

كان يمكن للعرس أن ينتهي ببعض الوخزات من مسلات يحملها أصدقاء وأعداء صالح الدباسي، وبعد ذلك يتفرق الجميع، لكن الدباسي الأب أصر على أن يبقى الناس أطول فترة، وأن يجعل العرس مناسبة يتذكرها الجميع لوقت طويل. إضافة إلى رغبته في إثبات القوة والنفوذ اللذين يتمتع بهما الآن. لذلك ما كاد واحد يقترح أن يختتم العرس بجولة في حران كلها، مع الأضواء والمشاعل، ما كاد هذا الاقتراح يقدّم حتى ووفق عليه بحماس كبير، ودون اعتراض من أحد تقريباً، عدا بعض المسنين. قال ابن نفاع بنوع من التأنيب غير الشديد:

ـ الليلة ما هي بليلتكم، الليلة ليلة غيركم... يا جماعة الخير.

ولما لم يسمعه أحد أضاف يخاطب نفسه:

ـ إذا رنت الطاسة طلعت ألف رقاصة... وهذه هي العفاريت طلعت.

كان يمكن للعرس أن ينتهي بالطواف في السوق، والوقوف عند

المسجد، وربما الوصول إلى مقهى أبو أسعد الحلواني، ثم يعود أدراجه إلى التلال الغربية؛ وخلال هذا المشوار تكون جنبات صالح الدباسي قد تلقت وخزات عديدة كافية لإثارته لكي يقوم بمهمته تلك الليلة على أحسن وجه واطمئنان كامل، فيترك بعد أن يصل وينصرف الناس، لكن شيطاناً ملعوناً يقدر ويدبر، أو ربما حصل كل شيء نتيجة الصدفة، دون تقدير ودون تدبير. إذ ما كاد يصل موكب العرس بالقرب من بيت ابن الراشد، حتى دوّت طلقات رصاص. لم يُعرف من أطلق النار أولاً، لكن خلال لحظات اشتعلت حران. أطلقت نيران كثيفة. صحيح أنه تخللها الخوف والتحسب أول الأمر، لكن لم تلبث أن تحولت بعد قليل إلى نوع من الفرح والتحدي والمباهاة، فطال وقوف الناس، وخلال الفترات القصيرة، بين طلقة وأخرى، بين صلية رصاص وأخرى، كانت تسمع أصوات منغّمة حادة «البدوي» «البدوي».

ورغم أن صوتاً لم يسمع من بيت ابن الراشد، وأن ضوءاً لم يظهر، إلا أن الجميع كانوا متأكدين أن ابن الراشد ورجاله داخل البيت، وأنهم سمعوا كل كلمة وراقبوا الموكب، وربما كانوا في حالة الجاهزية الكاملة للرد لو تعرضوا للعدوان، لكن لأن شيئاً مثل هذا لم يفكر فيه أحد ولم يقع، واقتصر الأمر على تلك النداءات التي كانت تخرج من حناجر الصبية، وربما بمشاركة بعض الكبار أو تحريضهم، فقد استمرالموكب وابتعد قليلاً، وفي لحظة من لحظات الصمت، سمع وراء الموكب صوت قوي، وكأنه يأتي من فوق، كان الصوت خشناً ممدوداً قوياً، وكان واضحاً أيضاً

ـ المطّوط.. المط... وَ... وَط.. صالح المطّوط.

نظر بعض الرجال إلى وجوه بعض ونظروا إلى صالح الدباسي. كانت وجوه الرجال متسائلة: صوت من يكون.. صوت دحام أم صوت ابن الراشد أو أحد ثالث؟ وكان وجه صالح الدباسي الذي تنعكس عليه الأضواء والمشاعل والظلال يتغير، يصفّر، يسودّ، يصبح بين الصفرة والزرقة، وما دام الصمت مخيماً والرجال يتبادلون النظرات كان الصوت

يصلهم طويلاً ممدوداً، كأنه صوت كلب جريح: المطّوط.. صالح المطّوط.

صرخ رجل من وسط الجمع ولم يعرف من يكون:

- اتركونا، يا جماعة، من هذا المهبول.

قال رجل آخر:

- ترانا بطينا، والعريس ما به صبر.

قال الرجل الأول بنفس الصوت القوي

- باكر إذا جاءه البدوي يطلّع مرجلته...

ومن جديد سار الموكب، لكن سيره هذه المرة بدا ثقيلاً مرتبكاً، وخيمت حالة من المرارة. ورغم أن الدباسي الأب بلغه ما حصل، وسمع الرصاص ينطلق وسط السوق، فقد حاول أن يعيد جو المرح، فرقص وطلب من بعض المسنين أن يرقصوا، وأطلق ناراً غزيرة وشاركه عدد في إطلاق الرصاص. وغنى عدد من الرجال، كما اقتربت النسوة كثيراً من مواقع الرقص والرجال وتضاحكن بصوت مسموع. رغم أن هذا كله قد حصل، وعاد الجو إلى طبيعته تقريباً، وبعد أن أصرّ الدباسي على أن يبقى الرجال أطول فترة ممكنة، ورد على الذين اقترحوا الانصراف، مع غمزات وابتسامات ذات معنى، رد عليهم مثلما رد في عرسه:

- يلحق يا اولاد الحلال، يلحق، وباكر يزهق.

قال هذا بصوت عالٍ وهو يضحك ويغمز لابنه يريده أن يوافقه على ما قاله.

في وقت متأخر، وقبل أن يغادر الرجال، زفّ صالح الدباسي إلى عروسه، وفي اليوم التالي تناقلت النسوة، بسرية كاملة وبخوف، أخباراً غير سارة، لكن هذه الأخبار دفنت في مهدها، وبدت زوجة الأب شديدة الخشونة والعنف حين قالت بتورية قريبة من الوضوح:

- التعب اللي تعبه الرجال، من التلال إلى السوق، ومن السوق إلى التلال يهدّ الجمال!

ولم يعد أحد بعد ذلك إلى ذكر الموضوع.

بعد شهر من عرس صالح الدباسي، مات عبد العزيز الراشد. كان موته مفاجئاً، خاصة أن أحداً لم يره منذ ليلة المقهى، فشعر الجميع بالحزن، وشعروا أنهم مسؤولون بشكل أو آخر عن موته. حتى الدباسي حين بلغه موت عبد العزيز الراشد صرخ بأسف وتوجع:

- لـه... لـه... لـه. لا إلـه إلا الله... لا إلـه إلا الله.. وحـده الباقي.. ووحده الدائم.

وشيعت حران ابن الراشد بحزن وصمت، ولم يتخلف إلا القليلون عن المشاركة في التشييع.

موت ابن الراشد في أواخر الصيف، وعلى هذه الشاكلة، أثار مقداراً كبيراً من المرارة والتساؤل. إذ رغم الكراهية التي كان يحس بها الكثيرون تجاهه، لخشونته وطمعه، ورغم الحسد الذي كان يولده في صدور عدد من الرجال الذين يناقسونه، فقد أحس الجميع أنه ظلم أكثر مما ينبغي، وإن هذا الظلم هو الذي أودى به.

ففي معسكر العمال، ما كادت بضعة أيام تنقضي على موته، حتى وجد من قال: «الله يرحمه، لأنه أحسن من غيره وارحم. . والأيام بيننا» وقال آخر «على الميت لا تجوز إلا الرحمة، وابن الراشد تصور أنه سيخلد، وطمعه هو الذي قتله». أما عبد الله الزامل فقد قال بصوت عالٍ وأمام عدد من العمال بعد ثلاثة أيام من وفاة ابن الراشد:

ـ يا جماعة الخير، هالحين ابن الراشد راح، مات، صار تحت التراب، والواحد لازم يكون منصف ويقول اللي في قلبه، يقول الحقيقة. . .

توقف قليلاً، تطلع في الوجوه وأضاف:

ـ أتعرفون من قتل ابن الراشد؟

فلما انشدّت إليه العيون قال وهو يهز رأسه:

ـ الأميركان هم اللي قتلوا ابن الراشد. . .

تطلع إليه العمال باهتمام واستغراب «الأميركان هم الذين قتلوا ابن الراشد؟ كيف؟ لماذا؟» بدا الأمر غير قابل للتصديق، أو على الأقل غير واضح وغير منطقي، تابع ابن الزامل:

ـ نعم الأميركان. الأميركان هم قتلوه. . .

وابتسم بسخرية وهو يتطلع في الوجوه مستمتعاً بالدهشة لتي ظهرت عليها:

ـ أكثر من ثلاث سنين وهو يركض مثل كلب، يمنة ويسرة، هنا وهنا، كل شيء يريده الأميركان «من هذه العين ومن هذه العين» ولا فائدة. لما راح، الله يرحمه، مزبان قالوا: «ابن الراشد!» من غرّق مزبان؟ ابن الراشد ما هو بمسؤول، ابن الراشد ما له علاقة. الأميركان هم أخذوا مزبان وهم غرقوه و«يا ابن الراشد ادفع، يا ابن الراشد دبّر راسك» هم يقولون قوانين؟ طيب اللي يغرقون ما لهم قوانين؟ ما لهم حقوق؟ مزبان ما له عندنا شيء، حتى قشة ما له عندنا، ما شفناه ولا عرفناه» وابن الراشد، الله يرحمه، الطمع عمى عيونه، هبله، وصار اللي صار.

تطلع العمال في وجوه بعض، وتطلعوا إلى عبد الله الزامل، إنهم الآن يفهمون الكلمات التي يقولها، يرونها واضحة، لكنهم لا يعرفون ماذا تعني بالضبط. قال أحد العمال، وكانوا يسمونه الجرادة، لصغر حجمه

ـ الأميركان ما لهم صاحب، مثل الذيب والغنم.

رد عليه آخر وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ لا. . ما هم مثل الذيب والغنم، وانت الصادق. . مثل الزاد والجراد.

ـ لا. . مثل الذيب والغنم. الجراد يأكل إلى حين ما يشبع، وخويك الذيب، يقتل ويجدع.

هكذا رد عليه الأول بعصبية.

قال ابن الزامل مازحاً:

ـ الأميركان الذيب وابن الراشد الجرادة.

وضحك بصوت عالٍ أقرب إلى القهقهة، وأضاف:

ـ وأنتم تعرفون ذيك السالفة: لولا الجرادة ما وقع العصفور.

قال أحد العمال بحدة:

ـ انت، يا ابن الزامل، قتلت ابن الراشد، ظليت وراه حتى دفنته.

ـ أنا؟

وتغيرت لهجته تماماً:

ـ اخزِ الشيطان يا رجل.

ـ لا. انت، نعم انت اللي قتلته.

ضحك عبد الله الزامل بصوت عالٍ، لكن ضحكته كانت جافة باهتة، فلما استمر ذلك العامل ينظر إليه بتحدٍ أقرب إلى الاتهام، قال عبد الله الزامل:

ـ اسمع يا ابن الحلال...

قال ذلك ونظر إلى الوجوه بتحديد، ثم نظر إلى الرجل وتابع:

ـ أنت تعرف، وكل واحد في المعسكر يعرف: أنا وابن الراشد كنا مثل الشحم والنار، يكرهني وأكرهه، لكن الحق حق...

وتغيرت لهجته:

ـ يمكن غلطت بحق ابن الراشد، لا أقول لا، لكن، الله يرحمه، غلط بحق نفسه أكثر مما غلط الناس بحقه. ما ترك أحداً يحبه، وما ترك شينة إلا وسواها. ركّب الأميركان على اكتافنا، وفوق العلة زودة.. هذا هو ابن الراشد.

ـ وتقول الله يرحمه؟

ـ قلتها واقولها.

ـ والله يا ابن الزامل حيرتنا!

ـ إذا كنت تريد الكلام الصحيح: ابن الراشد كلب وابن كلب: طماع، يحب نفسه، لا يحلل ولا يحرّم، لكنه مسلم، ابن عرب، يعرف الصحيح والغلط، وهذا اللي هبله، هذا اللي قتله.

توقف عبد الله الزامل لحظة، تنفس بعمق وبصوت واضح، أقرب إلى الحدة أضاف:

ـ الأميركان ما لهم رب. الأميركان ما لهم صاحب، ما يعرفون إلاّ: «شغل.. شغل، عرب كسلان، عرب كذاب، عرب ما يفهم» وابن الراشد

اللي ما وقف لحظة، ودائماً يقول لهم: نعم. . نعم، على العين والراس، رموه مثل كلب، تركوه يناطح وينهبل ويموت، ولا ابن كلب منهم، حتى الشعيرة، النصّيص، جاء بجنازته، ما أحد قال الله يرحمه.

توقف. أخذ نفساً عميقاً مقهوراً، ثم تابع:

ـ الواحد منا عنده شرف، يعرف حرمة الموت، يعرف. . .

ولم يستطع أن يتابع، لم تسعفه الكلمة المناسبة. قال أحد العمال، وكان بعيداً صامتاً، كأنه لا يسمع ولا يتابع:

ـ إذا مات الميت طالت عراقيبه. . .

فلما وجد أن كلمته وصلت إلى الجميع في جو الصمت الذي سيطر، وقف. مشى خطوتين وأضاف متسائلاً:

ـ لما ابن الراشد راح، وصار تراب، صار أحسن منه الله ما خلق؟

نظرت إليه العيون باستغراب متسائلة، تابع:

ـ والله ما لكم ذمة، يا اولاد العرب، كل يوم بوجه وكل ساعة برأي.

وخرج من الخيمة. وبخروج مفلح العرجة انقسم العمال في الرأي مرة أخرى. قال ابن الزامل بصوت أقرب إلى الصياح في نهاية المناقشة التي تحولت إلى الهرج:

ـ المسألة أوضح من الشمس. الأميركان قتلوه وباكر تجيئكم علومه وعلوم غيره.

مثل هذه المناقشة جرت مرات كثيرة في المعسكر، وإذا كان الأميركان قد اعتبروا المسألة ليست من التعقيد إلى الدرجة التي يفترضها ابن الزامل أو ابن نفاع، فإن الأميركان لو «كانوا أعقل وفيهم شرف ونخوة لما تركوا الرجل بعد الخدمات الكثيرة التي قدمها» هذه هي مسؤوليتهم، أما غير ذلك، أما كلام ابن الزامل أو ابن نفاع فكله مبالغة وهذر.

ومثل المناقشات التي جرت في المعسكر جرت مناقشات أيضاً في المقهى وفي السوق، حتى النسوة في حران العرب، اللواتي كن يشعرن بالمرارة والحقد على ابن الراشد، لأنه هو الذي جاء بالمصائب، فهدم

البيوت، وشيّل الناس، ما لبثن أن شعرن بالأسف والندم، ودخل الوسواس إلى قلوب عدد منهن، لأنهن تذكرن أدعية واستغاثات وجهنها للسماء، أن ينتقم من هذا «الجبار».

الآن، وقد رحل ابن الراشد إلى الأبد، وليس مثل رحلاته القصيرة الغامضة، يشعر كل واحد في حران أنه بطريقة ما مسؤول عن موت هذا الإنسان، أو على الأقل مسؤول عن تركه يموت هكذا دون أن يفعل من أجله شيئاً، حتى قطرة الماء لو قدمت إليه في الساعات الأخيرة، أو نظرة فيها العطف والتشجيع، لجعله ذلك يموت مستريحاً، أو أقل حقداً على نفسه، وأقل شعوراً بالذنب. وهذا الشعور الذي راود الناس منذ اللحظة التي سمعوا فيها بموته، فرفضوا أن يصدقوا أول الأمر، ثم تبادلوا فيما بينهم نظرات التساؤل، ولما تأكدوا هبوا مثل رجل واحد، وقد سيطر عليهم شعور حاد بالأسى والقهر، إلى المشاركة بدفنه، وظل طيفه يحوّم فوق الرؤوس، فلا يعرفون هل هو طيف خيّر أم طيف شرير، ولا يعرفون لماذا حصلت هذه الأمور بهذا الشكل.

أما الدباسي الذي أذهلته المفاجأة وظهر عليه الحزن والأسف، فقد شعر بمرور الأيام بالندم يسحقه، فتمنى لو كان أكثر رأفة وأوسع صدراً، وتمنى أكثر من ذلك لو أن الأمور لم تصل بينهما إلى هذا الحد من الكراهية والحقد، وتذكر ما قاله للأمير وما قاله للآخرين، فشعر أنه مسؤول عن نهاية الرجل. أما حين جاءه ابنه صالح بعد أيام من وفاة ابن الراشد وقال «إن باب الرزق انفتح والعلة راحت» مشيراً إلى غياب ابن الراشد نهائياً، فقد رد بمرارة ظهرت شديدة الوضوح على وجهه «يا وليدي الرزق من الله والموت من الله.. وعدوك إذا مات لا تشمت». لكن صالح الدباسي الذي لم يأبه كثيراً للكلمات التي سمعها من أبيه، انصرف بهمة كبيرة ونشاط لا يعرف التردد من أجل ترتيب أموره وأشغاله بعد غياب ابن الراشد.

وظلت عواطف الدباسي الأب مختلطة فترة طويلة، فلم يستطع أن يشارك الآخرين في أي حديث عن ابن الراشد، بل وكان يحاول بذل

جهوده كلها لصرف الذين يتحدثون عن الموضوع، فإذا سمع أحداً يعرّض «بالمرحوم»، هكذا أصبح يطلق على ابن الراشد منذ اللحظة التي سمع بموته، كان يقول:

ـ اذكروا حسنات موتاكم يا أهل حران، وإلا أكلكم الندم.

وظلت هذه القصة في قلب الدباسي، حتى عندما جاءته الوفاة بعد ذلك بسنوات. أما ابن نفاع فلم يكن يحتاج إلى إقناع أو تحريض، كان واثقاً متأكداً أن ابن الراشد مات منذ اللحظة التي وضع يده بيد الأميركيين، وإن الله أمهله ولم يهمله، لكنه لم يتعظ ولم يرعو، فلذلك عندما مات فقد مات على دين الكفر.

وحتى سنوات متأخرة، وعندما حصلت تلك الأحداث المدوية الكبيرة في حران وما حولها، ظل ابن الراشد موجوداً، وظل الكثيرون يتذكرونه، وإن اكتسبت الذكرى ملامح جديدة ومختلفة عما كانت عليه في البداية، بل وأصبحت لا تمتّ إلى الوقائع الكثيرة التي حصلت بأية صلة.

لم يكن الصيف وحده قاسياً هذه السنة، فالخريف كان كذلك أيضاً. فما كادت تحل الأيام الأخيرة من أيلول، وكانت أشد حرارة من أيام كثيرة مرت خلال هذا الصيف، حتى بدأ الأميركيون يتدفقون من جديد. جاء الذين سافروا، أو معظمهم، وجاء آخرون غيرهم. وكان الجدد أكثر عدداً. وقد اضطربت الحياة في معسكر الأميركان لأول مرة، تماماً كما كانت في الأيام الأولى، فنصبت خيام كثيرة في عدة أمكنة، وظلت بعض البواخر راسية لأيام مقابل المعسكر، وكان عدد من الأميركيين ينامون ويأكلون في هذه البواخر. والأمير الذي بدا شديد الانفعال والحركة، لمواجهة المرحلة الجديدة، بلغت به الدهشة حداً كبيراً عندما شاهد تلك الآلة العجيبة التي كانت محمولة على إحدى البواخر، ثم أنزلت، إذ ما كادت تستقر على الأرض لحظات حتى انطلقت إلى داخل المعسكر بسرعة رصاصة. رأى الأمير ذلك بعينه المجردة أول الأمر، ولما استعمل منظاره المقرب بسرعة ومهارة ليتعرف على ماهية هذه الآلة، بدأ يصرخ ويشير بيده وينادي، خاصة عندما شاهد هاملتون، نائب رئيس المعسكر، يمتطي الآلة ذاتها ويحركها. لقد ظهرت على وجه الأمير علائم الغبطة والاضطراب معاً. صحيح أنه رأى من قبل تلك الآلات الكبيرة التي تتحرك إلى أمام وإلى خلف، وتميل إلى هذه الجهة وإلى تلك، وحدثه نعيم وآخرون من الأميركيين أن هناك آلات صغيرة من نفس النوع، وهي مخصصة للبشر، إذ يركبونها وتنطلق بهم بسرعة كبيرة، رغم أنه سمع ذلك، وأبدى اهتمامه وإعجابه، إلا أنه لم يتصور بدقة كيف يمكن أن تكون هذه الآلات. الآن وهو يشاهدها بالمنظار، وهو يراقب حركتها

السريعة مقطوع النفس خائفاً، وحين تأخذ الطريق الأوسط، كأنها متجهة نحو التلال الشمالية، فإن دهشته وخوفه يصلان إلى درجة أن المنظار يضطرب بين يديه، وتصبح قدرته على المتابعة الدقيقة أقل بكثير مما لو كان يرقب أناساً يهبطون من الباخرة، وأقل مما لو كان يرقب هدفاً ثابتاً.

هذه الآلة السريعة الغريبة شغلت الأمير وجعلته يفكر بقلق، خاصة وأن هذه الأشياء التي جاءت فجأة ودفعة واحدة، بمقدار ما تثير من الإعجاب والتساؤل فإنها تثير الخوف أيضاً.

أما عندما شاهد الأميركيون الذي يضطربون على الباخرة، ويمكن رؤيتهم بوضوح من خلال المنظار، ويكونون أغلب الوقت عراة أو أقرب إلى العري، فقد بلغ الاستغراب بالأمير حدود الخوف والاضطراب الشديد، إذ اكتشف أن معهم عدداً من النسوة، وإن هاته النسوة مثل الرجال عاريات أو أقرب إلى العري. لم يصدق عينيه أول الأمر، وتصور أن ما رآه مجرد وهم أو تغبيش في العيون نتيجة استعمال المنظار فترة طويلة، وقد حصل له مثل هذا من قبل، أما بعد أن فرك عينيه عدة مرات، وتركهما مغمضتين بعض الوقت لتستريح، ثم عاد إلى المنظار ونظر إلى الباخرة، وإلى الناس فوقها، فقد صرخ، وكان حوله، أول الأمر، بعض رجاله، وكانت أكثر كلماته، خاصة عندما ينطقها ببطء، واضحة تماماً:

ـ أواه.. يا اولاد الحرام، يا أميركان.. مصاليخ، كلهم مصاليخ، ربي كما خلقتني.

وحين يتطلع الرجال نحو الباخرة، إلى حيث يتطلع الأمير، لا يستطيعون من هذه المسافة أن يميزوا شيئاً. صحيح أنهم يرون الباخرة، لكن الذين عليها لا يظهرون، وإذا دقق الإنسان طويلاً، وفي ساعات معينة من النهار، يمكن أن يميز من هذا البعد نوعاً من الحركة، يرى أشباحاً، لكن لا يعرف إن كانوا رجالاً أم نساء. الآن، والأمير يقول بتأكيد مملوء بالحرارة والشبق إنهن نساء، ونساء عاريات، ويمكن رؤيتهن بوضوح، فإن الأفكار والشهوات تتفجر، تطير في هذا المدى المتطاول حتى إذا وصلت

الباخرة ولامست أجسادهن ارتدت مثل كرة النار فخضت القلوب والعيون وولدت اضطراباً لا يعرف كيف يمكن أن يدارى!

إن هذا الذي يقوله الأمير شيء لا يصدق، ولا يمكن للإنسان أن يتخيله: نساء حقيقيات عاريات يتجولن بين الرجال على ظهر الباخرة؟ والرجال. . كيف يمكن أن يتحملوا مرورهن أو اقترابهن دون أن يحترقوا؟ دون أن يتحولوا إلى بارود وينزرعوا كالأوتاد في كل ناحية من هذه الأجساد الدافئة الشهية؟

كان الخيال يشتط بعيداً بكل رجل من الرجال، فيتمنى لو يقترب، أن يرى، أن يلامس، فإذا تعذر عليه ذلك فلا أقل من أن ينظر بالمنظار ولو للحظة واحدة. حتى رؤيتهن من هذه المسافة يمكن أن تشفي، أن تبرد القلوب التي اشتعلت، لكن الأمير القابض على المنظار كما تقبض الأم على طفلها الرضيع، وتلك التعليقات المصحوبة بأصوات من نوع معين، لم يكن أحد يتصور أن الأمير يعرفها أو يتقنها بهذا القدر؛ والمرات التي فتنته الأجساد، وفتكت به أوضاع معينة، أعطى المنظار إلى نائبه لكي ينظر إلى الوضيعة أو إلى تلك المرأة التي يحس أنها جعلته ينفجر ويتلاشى في هذا الفضاء. كان يصرخ كالملدوغ ويضرب رأسه بيده اليسرى ضربات ليست قوية وليست خفيفة، وكأنه يندب:

ـ راحت علينا يا أبو رشوان، عيني يا أبو رشوان، تعال وناظر. الله. . الله. مبطوحة مثل المهرة، تلمع، تضوي، تشتعل يا أبو رشوان، وأنا اشتعلت، وما عاد بي صبار. تعال. . بالله عليك تعال وناظر، هالحين انبطحت، مدّت رجلها، قلبت، يا أبو رشوان، مثل البرق تضوي، قتلتني، يا أبو رشوان، تعال وناظر. . .

وحين يمسك نائب الأمير بالمنظار، ويوجهه نحو الباخرة، فلا يرى بوضوح، حتى الباخرة لا يراها واضحة يقول برخاوة:

ـ ما أشوف شي يا أبو مسفر!

ـ ناحية اليسار، إذا أخذت الباخرة من غرب ومشيت، قبل ما تصل إلى الوسط تشوفها مبطوحة مثل الفرس. . شفتها؟ وكّدتها؟

وحين تتوالى حركات رأس نائب الأمير دلالة النفي، يصرخ بحدة ولهفة:

ـ عطني.. عطني.. يا أبو رشوان وما عليك.

ويتناول الأمير المنظار من نائبه، يتلفت حواليه يريد واحداً من رجاله، فلما لا يجد أحداً، يقول نائبه بنوع من الحزن الممزوج بالخوف:

ـ أنا قلت لهم يتركونا.. يا طويل العمر.

والتفت الأمير يبحث بنفسه عن ركاب قريب، عن مجموعة من الوسائد، فيتابع نائبه بنفس اللهجة:

ـ إذا عرف الناس، إذا عرف الأميركان انفضحنا يا أبو مسفر.

وبحركة متقنة طالما رددها الأمير من قبل، بلسانه ويده اليسرى: يلقف مثل حرباء ويدير يده نصف دورة دلالة أنه لا يخاف ولا يهتم. ثم مثل امرأة مسنة، طالما تعوّدت على الجلوس، ينهض فيبدو قصيراً متعثراً في مشيته، وبعد أن ينتزع ركاباً من صدر الخيمة ويسير به خطوتين أو ثلاث خطوات يرميه عند باب الخيمة ويبركِ مثل جمل. يثبّت الركاب أولاً ثم يثبت المنظار فوقه بعد ذلك، وبعد حركات عديدة وتغيير مستمر لوضعه أو لوضع المنظار يصرخ:

ـ تعال... تعال يا أبو رشوان.

ويتمسك أكثر بالمنظار، ويتغير صوته، يصبح مختلطاً أقرب إلى الهذيان:

ـ هالحين ما هي وحدة، ثنتين، ناقة وفلو، ووحدة أزين من الثانية. الله.. الله مثل البرحي يلمعن ومثل القطا يدرجن، وإذا الأولية ما ذبحتني ما أظن أن الثانية تترك بي روح.. تعال يا أبو رشوان، ناظر زين.

من رأى الأمير ونائبه يتبادلان الانبطاح وهما يصرخان، وهما يفركان أيديهما، وهما يتبادلان التعليقات والمعلومات يظن أن خبلاً أصابهما، فالعيون كانت تقدح شرراً وقد احمرت احمراراً ظاهراً من الشهوة ومن شدة التصاقها بالمنظار، والشفاه ارتخت وبدأت ترتجف ارتجافاً عصبياً، أما

الكلمات والصرخات الحادة التي تخرج دون إرادة بين فترة وأخرى عن واحد منهما، فإنها تضطر الآخر لأن ينحيه، لأن يطلب منه بلهفة ومذلة أن يخلي له المكان بسرعة لئلا تفوته تلك اللحظة الباهرة.

وفي وقت من الأوقات، وبعد محاولات تميزت بالتردد والخوف تنحنح أحد رجال الأمير، قبل أن يتقدم، إنذاراً بوجوده، وإعلاناً عن تحركه، فأصاب القلق الرجلين، إذ ربما جاء غريب ورآهما بهذا الوضع، لكن ما كادا يعتدلان، وينحي نائب الأمير الركاب حتى دخل أحد رجال الأمير وأشعرهما أن الغداء جاهز.

وخلال فترة الغداء، وأثناء القيلولة لم يستطع أي من الرجلين أن يهدأ أو أن يغمض عينيه لحظة واحدة. ظلا صامتين، وكان يبدو أنهما بعيدان.

ورغم أن الأمير، مثل عادته عند كل غروب، يجلس على تلعة مطلة، بعد أن تُحضّر وترش بالماء، ويستمر في مجلسه هذا إلى ما بعد صلاة العشاء، ويتخلل هذه الأمسيات الكثير من الأحاديث والطرائف والمعلومات، يتبادلها مع زواره، فقد كان هذا اليوم مختلفاً تماماً. تأخر في الجلوس، تمشى على طول المنحدر، تطلع من خلال المنظار بتحديد واهتمام جهة البواخر! وفي محاولة للتمويه تطلع جهة حران العرب على التلال الغربية وإلى معسكر الأميركان، لكن أكثر النظرات طولاً وتركيزاً كانت مصوبة نحو البواخر! ورغم أنه رأى أكثر من رجل عاري الصدر، إلا أنه لم ير أية امرأة. أما الأحاديث التي دارت في أول المساء حول الصندوق الحديدي الذي جاء به مدير الشركة. وكيف أن هذا الصندوق الذي كان لونه أصفر ضارباً إلى خضرة. أو بلون الحرباء في أوائل الربيع، كان يمشي بسرعة دون أن يدفعه أحد، دون أن يجرّه أحد، وكيف أن اثنين أو ثلاثة من الأميركان دخلوا إلى جوفه مع المدير واختفوا تماماً. رغم أن هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية، ويثير الاستغراب والتعليقات والتساؤل، وكان من الممكن جداً أن يثير الأمير ذاته فيتصدى إلى شرح وتوضيح طبيعة هذه الآلة للآخرين، وكيف يمكن أن تسير مسافات كبيرة دون أن تتعب، إلا أن حالته النفسية لم تكن رائقة أو مشجعة لكي يتصدى

لهذا الأمر، إضافة إلى أن المعلومات التي سمعها من قبل، حينما جيء بآلات من أجل البدء ببناء دار الإمارة، لا يتذكر الآن شيئاً منها، فقد سمعها على عجل ودون اهتمام، وضاعت من باله تماماً، ومع ذلك كان مضطراً أن يتكلم، أن يقول شيئاً. قال في لحظة من اللحظات، وهو يهز رأسه ويفكر في أمور كثيرة:

ـ الصندوق. . وغير الصندوق، يلزم أن يناظره الواحد، يقلّبه، قبل ما يقول فلاني وتركاني.

قال نائب الأمير وقد أدرك ما يرمي إليه الأمير:

ـ والأحسن ان يركبها يا أبو مسفر!

ـ القول قولك يا أبو رشوان، نعم يركبها، يجربها!

وحين قام الأمير ورجاله إلى العشاء، اقترب منه نائبه، قال وهو يضحك:

ـ الخوف، يا أبو مسفر، أن نصير مثل ذاك السومطري.

رد عليه وهو يشاركه الضحك:

ـ صرنا يا رجّال. . وخلصنا.

وفي تلك الليلة لم يستطع الأمير أن ينام حتى ساعة متأخرة، وكان بادي القلق واضح الهم، أما المحاولات التي جرت لاكتشاف ما وراء ذلك فقد انتهت دون نتيجة. وفي ذلك اليوم، ثم في الأيام التالية، فسرت النسوة هذا الصمت بأنه نتيجة التعب والحرارة وهموم الحياة، خاصة بعد أن جاءت البواخر.

ويتذكر الأمير أنه في الليلة الأولى ثم في الليالي التي بعدها رأى نفسه على ظهر الباخرة الكبيرة البيضاء، وأنه كان يقلب النساء واحدة واحدة، كما يقلب الإنسان خروفاً لكي يتأكد، وكان بمجرد أن يضع يده على الإلية أو الفخذ ويحملها قليلاً في الهواء، يسمع ضحكاً فياضاً مكتوماً، أما حين يرفع يده بسرعة عن الإلية أو تاركاً الفخذ يسقط فكان يحس بكثافة رجراجة تملأ روحه وتحرك كل عضو من أعضائه. لقد فعل ذلك مرات لا حصر لها، وكان شديد الحيرة، يركض من مكان إلى آخر لا يعرف أيهن الأجمل

وأيهن الأكثر سمنة! أما حين سقط على واحدة، وكانت لا تتوقف عن الضحك وكأنها قطة تموء، فقد استيقظ ووجد نفسه غارقاً في العرق وأشياء أخرى، وأحس أنه أقرب إلى التعب والحمى، وكان تنفسه سريعاً ودقات قلبه تملأ أذنيه وصدره.

ومثلما حدث في اليوم الأول حدث في الأيام التالية، وانتشرت إشاعة قوية أن الأمير ونائبه وقعا فريسة مرض غامض، وإنهما يقضيان كل الوقت منفردين، ولا يستطيعان أن يتكلما أو أن يستقبلا أحداً! لكن ما كادت تلك الباخرة البيضاء تغادر حران، حاملة معها المسافرين، وبعد أن نزل منها الآخرون وسكنوا في المعسكر، وبعد أن حصلت أمور أخرى في حران، حتى بدا الأمير ونائبه يعودان إلى وضع طبيعي، لكن الأمر الجديد الذي ميّز الأمير أكثر مما ميز نائبه: الشرود الذي بدأ يغرق فيه.

حين بلغ ابن نفاع أن الأمير مرض مرضاً غامضاً لم تجدِ معه الأدوية التي تجرعها، قال عند باب المسجد، والناس يخرجون بعد صلاة المغرب:

ـ ولّم نفسك يا مفضي، لأن المبارك ما بقى له إلاّ الكيّ.

واختلفت نبرة صوته تماماً وهو يضيف كأنه يكلم نفسه:

ـ وإذا الكي ما أفاده يكون مديوس، جاءته العفاريت من حدر.

ابن نفاع الذي تجرأ وقال هذا الكلام لم يجرؤ غيره أن يقول كلاماً واضحاً، أو بصوت عالٍ، وحتى الذين تساءلوا فيما بينهم، بصوت منخفض، أقرب إلى الهمس، لم يعرفوا كيف يصلون إلى إجابة من أي نوع يمكن أن تقنعهم أو أن تهدئ مخاوفهم. قال الكثيرون بنوع من التسليم أن قسوة الأمير على ابن الراشد، ثم موته، بذلك الشكل، أدى إلى المرض الذي حلّ به.

أما الدباسي الذي بلغه أن الأمير لا يستقبل أحداً ولا يرغب بزيارة أحد، فقد وجد في ذلك مخرجاً له، إذ هو ذاته في حالة نفسية سيئة أقرب إلى التشاؤم، ولا يرغب أن يراه الأمير على هذه الحالة. لكن ما كادت بضعة أيام تنقضي حتى أرسل وراءه نائب الأمير وطلب منه أن يعدّ لرحلة صيد، مثل السنة الماضية، لأن ذلك وحده يمكن أن يشفي الأمير. ورغم أن الوقت ما زال مبكراً لمثل هذه الرحلة إلا أن الفكرة لاقت هوى لدى الدباسي، وأحس أنها إذا تمت فسوف تشفي الاثنين معاً، ففي أعماق الصحراء، حيث يجد الإنسان نفسه في هذا المدى اللامتناهي مع الصمت ومع الطبيعة في حالتها البدائية البكر، لا تتاح الفرصة فقط من أجل أن يعيد

الإنسان تقييم ما جرى، وإنما تتم عملية شاقة تمارس بهدوء وصمت من أجل أن يتشكل الإنسان على نحو جديد.

أما حين استفسر عن مرض الأمير وما إذا كان يستطيع أن يراه فقد قال نائبه وهو يهز رأسه بألم:

ـ العلة في أكثر من مكان... يا أبو صالح.

وبعد فترة صمت أضاف:

ـ واليوم قال: ما أريد أحداً، لكن إذا جاء الغد أو عقبه تشوفه!

ولم يلح الدباسي ولم يكرر السؤال. انطلق يعد لرحلة الصيد لكن دون استعجال كبير.

في ذلك اليوم وبذلك الشكل المفاجئ حين غادرت الباخرة استبد بالأمير نوع من النزق ما لبث أن تحول إلى غضب، إذ يمكن لأية كلمة، لأي تصرف، أن يخرجه عن طوره، ويمكن لأي إنسان أن يصبح بنظره خصماً. لقد شعر أنه خدع، وأن رحيل الباخرة وترحيل الذين كانوا عليها مؤامرة ضده. إذ ربما وصل إلى علم الأميركان ما كان يفعله، ولا بد أن يكون هناك من نقل إليهم أن الأمير ليس لديه ما يفعله سوى مراقبة الباخرة، خاصة النساء اللواتي كن عليها؛ وذهبت به الظنون درجة أن الذي أوصل الخبر للأميركان، لا بد أن يكون واحداً من رجاله، ولذلك اتخذوا هذا القرار المفاجئ والعاجل بالرحيل.

بدأ الأمير يشك بمن حوله، وأصبح كل واحد من رجاله متهماً. كان ينظر إلى الوجوه، خاصة العيون، نظرات مليئة بالشك والتساؤل، فإذا ارتبك أحدهم، إذا ظهر عليه الخوف، كان يقول، فتخرج الكلمات من بين أسنانه: «انت... ها؟» فإذا حاول أحد أن يسأل أو أن يستفسر كان يصرخ وقد بلغ به الغضب مبلغاً كبيراً:

ـ هالحين رح من وجهي، امش، ما أريد أشوف وجهك، بعدين نتفاهم.

وينقلب الرجل خارجاً لا يعرف ماذا فعل ولماذا يخاطبه الأمير بهذه الطريقة. وهكذا يوماً بعد آخر أصبح لا يريد أن يرى أحداً من هؤلاء الذين

لا يفعلون شيئاً سوى التجسس عليه ونقل أخباره إلى الآخرين. وهذا ما أدى إلى انتشار الإشاعات حول ضيق صدره ثم مرضه.

وإذا كانت القصة كلها قد بدأت أقرب إلى المزاح ولا تتعدى تزجية الوقت، فإن نائب الأمير أدرك في وقت من الأوقات أن الأمر وصل درجة من الخطورة يمكن أن يؤدي إلى نتائج غير مريحة، لذلك أبعد الرجال وتكتم على الأمر. أما عندما أبحرت الباخرة وانتهت تلك اللعبة فقد ظن أن كل شيء عاد إلى طبيعته، لكن ما لاحظه من انفعال الأمير وغضبه، ثم تلك الشتائم والشكوك التي أخذت تميز تصرفاته ومواقفه تجاه الآخرين، جعله يخاف ويتحسب، فاتصل بالدباسي لكي يعدّ لرحلة الصيد الجديدة، وأرسل وراء نعيم يطلب إليه الحضور لكي يتكلم مع الأميركيين من أجل دعوة الأمير لمشاهدة الصندوق الحديدي عن قرب والتعرف على هذه الآلة الجديدة. أما محاولاته لحماية الرجال، ودفع أذى الأمير عنهم فقد أخذت أشكالاً عديدة وماكرة. حين رآه قاسياً يشتم ويهدد جوهر، الذي كان أقرب الناس إليه، قال له بعد أن خرج جوهر متعثراً:

ـ تسمع مني كلمة يا أبو مسفر؟

فلما نظر إليه الأمير متسائلاً دون أن يجيب استمر:

ـ اسمع واترك يا طويل العمر.

توقف قليلاً، رسم على شفتيه ابتسامة وتابع:

ـ الحق حق يا طويل العمر ولازم الواحد يقوله...

ظل الأمير يتطلع إليه دون أن يتكلم، لكن بدأ يظهر الضيق على وجهه. قال نائب الأمير:

ـ رجالنا هم رجالنا يا أبو مسفر، تقطع رأس الواحد وما تخرج منه كلمة...

وجر نفساً ثم أضاف بحزن:

ـ لكن ما عندنا عندهم، ومثل ما شفتهم شافوك... يا طويل العمر.

وأمسك نائب الأمير بالمنظار، هزه عدة مرات وقال بحدة:

ـ هذه هي البليّة!

لأول مرة انتبه الأمير وكأنه فوجئ بهذا الكلام يسمعه. هز رأسه وفتح عينيه على اتساعهما.

تابع نائب الأمير:

ـ ومثل ما سمعت، يا أبو مسفر، الحريم اللي شفناهم كلهن قحاب، سراويلهن محلولة ويفلّتن، والأحمر والأبيض اللي تشوفه ديرم وصبغ وما يساوي التعب والهم.

شعر الأمير أن قوته تلاشت، وأن الطريقة التي يتكلم بها نائبه لا تعجبه بل وشعر أنه ضعيف إلى درجة أن أي إنسان يمكن أن يسحقه. انتفض شيء في داخله، لكنه وجد نفسه عصبياً وغير قادر على أن يقول ما يفكر فيه، أو كأن أفكاره تضيع منه قبل أن تتبلور وتستقر. قال في محاولة أخيرة لأن يفك عن نفسه الحصار الذي يحس به:

ـ يا أبو رشوان.. اللي تقوله صحيح، لكن النفس خضرا.



كانت هذه بداية الشفاء.

خلال يومين أو ثلاثة جاء هاملتون ونعيم في زيارة إلى الأمير، وخلال هذه الزيارة جرى الحديث عن أعمال جديدة وكبيرة ستقوم بها الشركة ما بين وادي العيون وحران، وضرورة أن تُبذل الجهود من أجل تأمين أعداد إضافية من العمال، وأن الشركة ستبدأ في حران أيضاً بإقامة أبنية ومنشآت أخرى.

وفي نهاية الزيارة عرض على الأمير أن يزور حران الأميركان، وأن يطلع بنفسه على المنشآت والأعمال التي قامت. وجرت الإشارة إلى السيارة الخاصة بمدير الشركة، وسوف يكون الجميع سعداء إذا قام الأمير بالزيارة والتعرف على جميع الأشياء مباشرة.

كان الأمير طوال الزيارة صامتاً يسمع ويهز رأسه، وبين فترة وأخرى، وبشكل مفاجئ، يركز نظراته على هاملتون ثم يتطلع فجأة وبسرعة إلى نعيم. كان تواقاً لاكتشاف ما يعرفونه عنه، خاصة في الأيام الأخيرة ورغم أن هذه الطريقة قد أدخلت الخوف إلى قلب نعيم، فبدأ مرتبكاً أكثر من

مرة، إلا أن أفكاره انصرفت إلى أمور أخرى، ربما إلى هاجم ومزبان، وربما فكر بابن الراشد أيضاً. أما عندما وجهت الدعوة للأمير لزيارة المعسكر، فقد وافق، لكن لم يحدد موعداً، وأضاف بنوع من التعريض:

ـ قلت لأبو رشوان، والبوابير تقف مقابلنا، هنا...

وأشار بيده وهز رأسه:

ـ لا تتركوا الجماعة، شوفوهم، اسألوا إذا كانوا محتاجين أي شيء...

توقف قليلاً ثم أضاف بطريقة تقريرية، وهو يتطلع إلى هاملتون مباشرة:

ـ إذا جاءت البوابير مرة ثانية لازم اشوفها بنفسي!

كان يمكن لفترة النقاهة أن تطول أو أن تأخذ نسقاً آخر لولا مجيء حسن رضائي في هذه الفترة. قال يشرح الأسباب التي دعته إلى المجيء:

ـ إذا شرب الواحد من ماء حران لا بد أن يرجع إليها...

بدأ الصوت منخفضاً كأنه يحدث نفسه، فلما وجد الجميع ينصتون إليه استمر:

ـ من يوم ما تركت حران، وكل يوم بمكان، كل يوم بديرة جديدة، لكن حران ظلت هنا.. وهنا.

ودق بجمع يده على صدره، ثم بالسبابة والوسطى دق على صدغه بعد ذلك وهو يبتسم ويتطلع إلى الأمير. رد الأمير ليدفعه إلى مواصلة الحديث:

ـ إذن ما تركت مكاناً إلا وشفته؟

أجاب بسرعة:

ـ العالم، يا صاحب السمو، لا نهاية له، ومهما تجول الإنسان ومهما زار من أماكن، تبقى هناك أمكنة كثيرة يجب أن تشاهد، أن تزار. وإذا كان لكل شيء في هذا الكون نهاية وحدّ، فإن شوق الإنسان إلى التعرف والاكتشاف لا يحده حد وليس له نهاية.

توقف قليلاً وهو يهز رأسه متذكراً أماكن وأشياء كثيرة رآها في أسفاره،

فلما رأى الأمير مصغياً متابعاً أضاف بنبرة جديدة:

ـ لا بد، يا صاحب السمو، أن نسافر معاً، وأن نتجول في هذا العالم لنتعرف عليه.

دوت ضحكة الأمير وتطلع إلى نائبه وسأله:

ـ ما قولك يا أبو رشوان؟

قال حسن رضائي:

ـ ركوب البحر مضجر في البداية، لكن إذا تعود الإنسان عليه لا يجد مكاناً أفضل منه.

رد الأمير:

ـ خلينا بأرضنا أحسن.

ومن جديد تطلع إلى نائبه وأضاف بتورية:

ـ طرف البحر، هنا، مقابلنا، قتلنا، فما بالك لو رحنا أو وصلنا أبعد؟

قال حسن رضائي بحماسة وانفعال:

ـ يبقى يا طويل العمر، البحر العالي غير الجرف، البحر العالي عالم ثاني.

وبضحكة مدوية رد الأمير:

ـ الجرف أحسن، الجرف آمن وقريّب.

في غمرة الحديث والضحكات المدوية دخل ثلاثة من بحارة حسن رضائي، من الذين يعملون معه على الباخرة. كان العرق يتصبب من وجوههم الحمراء المحروقة، والتي تشبه نحاساً قديماً. كان اثنان منهما يتعاونان على حمل كيس متوسط الحجم، ويبدو أن ما في الكيس ثقيل وثمين، لأن طريقتهما في حمله، ثم عندما أنزلاه على الأرض أوحت بذلك، أما الثالث فكان يحمل قطعة مكعبة من حجر أسود يشبه الفحم.

وفي جو من الصمت الذي خيم، وقد رافقه الترقب والانتباه نهض حسن رضائي بثقة، أخرج من جيبه سكيناً صغيرة وفتح الكيس، وطلب من أحد رجاله أن يخرج ما بداخله. جرت العملية بحذر بالغ وانتباه شديد، فلما وضع ذلك الصندوق اللامع، والذي كان في طرف منه مغطى بقماش

يشبه الصوف، أمام الأمير، نظر إليه باهتمام، لكنه ظل صامتاً. إنه يرى لأول مرة شيئاً مثل هذا، فلم يستطع أن يخمّن لأي أمر يمكن أن يستعمل، فلما أُخرجت بعض الحبال، أو ما تشبه الحبال، من الجانب الخلفي للصندوق، ورُبطت إلى القطعة المكعبة السوداء التي كانت إلى جانب، وبعد أن تأكد حسن رضائي بنفسه أن كل شيء وضع في مكانه، فرك يديه وابتسم ابتسامة واسعة، وجلس قرب الصندوق، وقبل أن يبدأ المرحلة الجديدة من عمله، نظر إلى الأمير ونظر إلى الآخرين أيضاً. كانوا صامتين وقد ظهرت على وجوههم علامات الخوف والتساؤل معاً، تنحنح وقال:

ـ هذه الهدية التي حملتها إليك من مكان بعيد، يا صاحب السمو، سوف تنقل إليك العالم، وسوف تنقلك إلى العالم، حتى أبعد نقطة... وأنت في مكانك.

انفتحت عيون الأمير دهشة واهتز رأسه اهتزازاً موصولاً دلالة أنه فهم واستوعب تماماً ما قاله حسن رضائي. وظل صامتاً مترقباً الخطوة التالية.

قال حسن رضائي، وقد تغيرت لهجته:

ـ وهذه الآلة، يا صاحب السمو، شديدة الحساسية والدقة، بحيث لا يجوز أن يمدّ أحد يده إليها غيرك.

ازدادت الدهشة على وجه الأمير وخالطها نوع من الخوف، وتبادل الرجال النظرات فيما بينهم. قال حسن رضائي، وهو يفرك يديه ويبتسم بثقة:

ـ الآن نبدأ...

وحرك يده على الصندوق، من أحد الجوانب، وانتظر قليلاً، وعيناه مثبتتان على وسطه، ووجهه شديد القرب منه، كأنه يوشوشه. أضاء شيء أخضر وسط الصندوق، فتبادل الأمير نظرات سريعة مع الآخرين. كانت نظرات تساؤل وخوف، لكنه حاول أن يتماسك. أما في اللحظة التالية، وعندما حرك حسن رضائي بعض الأجزاء البارزة من الصندوق، ودوّت أصوات قوية منبعثة من حيث لا يدري أحد، فقد أجفل الحضور جميعاً، تراجع عدد من الرجال، واختبأ واحد وراء اثنين من رفاقه. أما الأمير فقد

غير جلسته والتفت إلى الآخرين وكأنه يطلب إليهم أن يكونوا أقوياء ومستعدين. حرك حسن رضائي الأجزاء البارزة أكثر من قبل، فأضاء اللون الأخضر بقوة ثم تلاشى، مع وشّة قوية صاخبة. حرك من جديد، وفجأة انبعث صوت موسيقى. كانت الموسيقى واضحة، وكأن الصوت يصدر من الخيمة ذاتها. نظر الرجال بعضهم في وجوه بعض باستغراب، أما الأمير فقد تحرك بجسده كله واقترب من الصندوق، وكانت ابتسامته تملأ وجهه. ثبت حسن رضائي الصوت أكثر من قبل ورفعه فامتلأ المكان.

وباستمتاع ممزوج بالرهبة استمع الرجال إلى الموسيقى صامتين. بعد دقائق، وبطريقة خفية شديدة المهارة وبحركة لم يرها الكثيرون، لسرعتها، أوقف حسن رضائي الموسيقى، فبان الصمت عميقاً مديداً، حتى ليستطيع الإنسان أن يلمسه بيديه، وفي هذا الصمت جاء صوت حسن رضائي مرة أخرى:

ـ هذه موسيقى، يا صاحب السمو، هذه مجرد محطة، وهناك أشياء كثيرة غيرها!

وبنفس المهارة والخفة حرك حسن رضائي يديه فانبعث من بعيد صوت، كان الصوت يظهر ويغيب، وكان اللون الأخضر وسط الصندوق يلتمع ويتلاشى، فعندما يظهر الصوت ويلتمع اللون الأخضر يسمع الرجال «وإذا مات الملك في بلاد سرنديب صرّ على عجلة قريبة من الأرض وعلق على مؤخرتها مستلقياً على قفاه، يجر شعر رأسه التراب على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثّ التراب على رأسه وتنادي: أيها الناس هذا ملككم بالأمس قد ملككم وكان أمره نافذاً فيكم، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا وأخذ روحه ملك الموت، فلا تفتروا بالحياة من بعده. وكلاماً نحو هذا ثلاثة أيام، ثم يهيّئ له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به ويرمى رماده في الريح[1]» هكذا سمع الرجال فنظر بعضهم إلى بعض لا

---

(١) ابن السيرافي، أحد جغرافيي القرن الرابع الهجري/ عن كتاب. د. شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي صفحة ٨٨، وهذا النص من كتاب أخبار الهند والصين.

يصدقون ما يسمعون، أما حين اختلط الصوت بالأصوات الأخرى، وغاب اللون الأخضر، فعندئذٍ لم يستطع أحد أن يسمع شيئاً.

كان بعضهم ينظر إلى بعض بدهشة تصل حدود عدم التصديق: كيف يمكن لهذا الصندوق أن يخرج الموسيقى وأن يتكلم؟ من يعزف؟ أين يجلس وكيف يأكل وينام وكيف يسعه هذا المكان؟ وهذا الذي يتكلم، كما يتكلم ابن نفاع او الامام، هل هو نفسه الذي عزف الموسيقى ام احد غيره؟

قال حسن رضائي بفرح:

- واحد... اثنان... والآن ثلاثة.

ومن جديد حرك يده على الصندوق فخرج صوته يغني:

أيـهـا الـفـلـك عـلـى وشـك الـرحـيـل
إن لـي فـي ركـبـك الـسـاري خـلـيـل
رقـرقـت عـيـنـاي لـمـا قـال لـي صـار الـوداع
وبـكـى قـلـبـي مـمـا ذاع فـي الـكـون وشـاع
غـــابـــت الـــشـــمـــس وراء الأفـــق
لـهـف نـفـسـي كـاد يـغـفـو رمـقـي
حـيـن حـيـانـي حـبـيـبـي وتـبـادلـنـاالـوداع
وانـطـوى مـنـه نـصـيـبـي عـنـد تـصـفـيـق الـشـراع

ما أن انتهت الأغنية واعقبها: «هنا محطة الشرق الأدنى» حتى اقترب الأمير كثيراً من حسن رضائي، ومثل طفل لا يستطيع ان يخفي فرحه وعجبه قال بصوت عال.

- هالحين انا اسويه.. بس علمني.

- الأحسن أن يستريح. لازم يستريح!

- مرة واحدة... وبعدهايستريح.

- مرة واحدة...ها؟.

- أي مرة.. مرة واحدة!

ومثل طفل يقترب من نار سبق ان عرف معناها اقترب الأمير. وبصبر وانتباه وضع يده حيث أشار حسن رضائي، وبدأ يحرك حسب إرشاداته،

فلما وصل إلى موسيقى قوية انبعثت فجأة رفع يده بسرعة وكأنه خاف أو جفل، فلما ملأت الموسيقى بصوتها القوي الخيمة وما حولها تراجع الأمير قليلا إلى الوراء، نظر في وجوه الرجال الصامتين الذين كانوا يرقبون كل حركة بكثير من الانتباه والحذر، وكأنه يقول لهم إنه يعرف أكثر منهم، ويعرف ما لا يعرفون. بعد دقائق والأمير يهز رأسه باهتمام وطرب، وكأنه هو الذي جاء بهذه الموسيقى من حيث لا يعرف أحد ولا يستطيع أحد، وبعد أن خيم، للحظات، جو من الصمت قال حسن رضائي بنوع من القلق:

ـ يا صاحب السمو... لازم يستريح.

ومثلما بدأ بانفعال وصمت، وبمهارة أيضاً، أخذ الآن يحرك يديه على الصندوق، من هذه الجهة ومن الجهة الثانية، ثم فك الحبال عن الحجر الأسود وأعادها إلى مكانها، حتى إذا انتهى من كل شيء فرك يديه وتطلع في الوجوه، خاصة وجه الأمير، يسألها دون أن يتكلم، رأيها فيما رأت وما سمعت. كانت الوجوه صماء أقرب إلى الاستغراب وعدم التصديق، أما الأمير فقد قال ورأسه يهتز كما لو أن ريحاً لا ترى هي التي تهزه:

ـ العالم اللي حولنا عالم عجيب وكله أسرار. والله، سبحانه وتعالى، علم الإنسان ما لم يعلم. المهم أن تسلم نيته وينفتح قلبه وعند ذاك ينشرح صدره والله سبحان وتعالى يلهمه ويعلمه.

بدا كلام الأمير غامضاً لا يعني شيئاً، أضاف وهو يتوجه بالكلام إلى نائبه:

ـ الدربيل يشوّف الشعرة من مسافة بعيدة. صندوق الحديد الأصفر يركض مثل الغزال ولا يتعب، وهذا الصندوق ساعة يحكي وساعة يشكي وساعة يصلي على النبي!

وأضاف بعد قليل بنوع من العجب:

ـ سبحان الله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم!

خبر وصول الآلة العجيبة إلى الأمير انتشر أسرع من أي خبر آخر. حتى «الصندوق الحديدي»، الذي وصل إلى حران الأميركان، كما سمّاه الكثيرون، وسماه غيرهم «حصان الجن» وتحدثوا عنه أياماً عديدة، بالرغم من أن الذين رأوه كانوا قلة محدودة، وقد رأوه من مسافة بعيدة؛ حتى حصان الجن لم يثر من الاهتمام والتساؤلات والخوف ما أثارته الآلة الجديدة. لم يستطع أحد أن يصفها أو أن يقول شيئاً محدداً عنها. أما عندما بعث الأمير ببعض رجاله إلى المقهى والسوق ليدعو عدداً من الوجوه، دون أن يوضح سبب الدعوة أو ما سيجري خلالها، فقد كان الناس في كل مكان يتحدثون عن «العجيبة الجديدة»، وأكد ثلاثة أو أربعة من الرجال أنهم سمعوا أصواتاً خلال النهار، وكأنها تهبط من السماء أو تنبع من الأرض. وقال واحد من هؤلاء أنه سمع صوتاً خلال النهار يناديه، فلما التفت حواليه لم يجد أحداً. ورغم أن الكثيرين حاولوا مع رجال الأمير لكي يفهموا منهم شيئاً عن هذه الآلة، وما إذا كانوا قادرين على وصفها لهم، أو أن يعطوهم فكرة عنها، إلا أن هذه المحاولات كلها انتهت إلى الفشل، فلا الذين سألوا في المقهى أو السوق عرفوا كيف يسألون، ولا رجال الأمير أجابوا إلا إجابات زادت الموضوع غموضاً وحيرة. كانت الإجابات شديدة الاختصار تماماً ومبهمة: «شيء لم يسمع الناس بمثله من قبل» «اللي شاف ما هو مثل اللي سمع» وقال أحد رجال الأمير، وكان اسمه شهاب، وقد كُلّف أن يبلغ دعوة الأمير إلى ابن نفاع والسيف والدباسي، قال وهو يهرول لكي يتخلص من الناس:

ـ باكر.. إذا شفتم، يا أهل حران، تنهبلون!

أبلغت الدعوة إلى الجميع مبكراً، قبل الغروب بساعتين تقريباً، وبعض الذين لم توجه إليهم الدعوة، لم يستطيعوا أن يقاوموا الفضول الذي أحسوا به، ولم يستطيعوا أن ينتظروا لكي ينقل إليه الآخرون، فصمموا على أن يذهبوا، أن يكونوا قريبين بشكل ما، حتى إذا واتتهم الفرصة بشكل أو آخر اندفعوا متذرعين بحجة ما لكي يشهدوا هذه الآلة العجيبة، ولكي ينقلوا إلى أهل حران، قبل غيرهم، ما شاهدوه.

أما الأمير فقد كان طوال فترة بعد الظهر شديد التهيج والانفعال، فلم ينم ولم يبرح الخيمة. وكانت عيناه لا تفارقان هذا الجهاز العجيب. أما المرات التي وقف وتمشى خلالها فلكي يلقي نظرة متأملة، ومن قريب، أو لكي يرى هذا الجهاز من جميع جوانبه، وقد جسّه أكثر من مرة بأصابع خائفة مختبراً صلابته. وكان يمتلئ تصميماً ساعة بعد أخرى على أن يتولى بنفسه تشغيل الجهاز دون أية مساعدة من حسن رضائي، ولذلك كان يتخير الوقت المناسب لكي يطلب منه أن يعلمه الحركات كلها: كيف يبدأ ومن أين، ثم ما هي الخطوة التالية ثم الخطوة التي بعدها، حتى إذا أصبح متأكداً من جميع الحركات والمراحل يطلب من حسن أن يكون مع الآخرين ومثلهم أثناء قيامه بتشغيل هذه الآلة العجيبة. سوف يدهش أهل حران جميعهم، سوف يجعلهم يشعرون أن هذا اليوم هو بدء حياتهم أو أهم يوم في حياتهم! سوف يصرخون كالأطفال، وسوف يخافون ويفرحون ويعجبون، كيف لا وهو لا يزال شديد العجب والاستغراب من هذه الآلة التي لم يسمع بها أحد ولم يرها أحد؟

في لحظة من اللحظات، وقد أوعز الأمير بأن يهيأ «المجلس» مبكراً، ساوره نوع من الخوف أن يتعذر نقل الجهاز إلى الخارج، فسأل حسن رضائي بارتباك:

ـ نسيت اسألك.. اليوم.. مجلسنا بالفلا، هنا، قريّب، نقدر نشيل الماخوذ ويانا؟

أكد له حسن رضائي أن ذلك أمر ميسور جداً، وإنه يستطيع أن ينقله إلى أي مكان آخر، فقط يحتاج الأمر إلى عناية زائدة أثناء النقل، فلا

يتعرض للاهتزاز، ولا يُرمى بقوة، ولا يوضع عليه أي شيء. حين أكد له ذلك بدا شديد الانفعال والفرح، فتصور أشياء كثيرة وأماكن كثيرة، ولكي لا يفوت الفرصة قال بلهجة صادقة حميمة:

ـ هالحين أريدك تعلمني عليه، وتقول لي كل شيء

ـ رد حسن وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

ـ من حقك، يا صاحب السمو، أن تعرف كل شيء، وأن تجرب كل شيء، لأنني إذا كنت اليوم موجوداً هنا، وأستطيع أن أقدم بعض المساعدة، فغداً لا أكون.

سر الأمير جداً من هذا الكلام. إن الرجل يضع كل أسراره بين يديه، ويقوي مركزه أمام الآخرين، حين يجعله متفوقاً عليهم. قال بلهجة الصداقة الحميمة ذاتها:

ـ الله يبارك فيك ويكثر من أمثالك.

واندفع حسن رضائي يشرح للأمير طبيعة هذا الجهاز وخطورته. تكلم كثيراً وبتدفق. قال إن الدول الأخرى تهتم بالراديو، وتخصص له مبالغ كبيرة وعناصر كثيرة، وهو كالمرآة للوجه، يظهر قوة الدول وأهميتها، وأن هذا الجهاز موجود في بيوت الأغنياء، ومن خلاله يفهمون ماذا حصل في العالم من أحداث وأخبار، فإذا انتهت الأخبار بدأ الطرب: الموسيقى، والغناء، ثم بعد ذلك الأحاديث المفيدة والقصص والأشعار وغير ذلك.

لم يستطع الأمير أن يفهم أو أن يتابع معظم ما قاله حسن رضائي، لكن كلمة «راديو» التي كررها عدة مرات، انحفرت في رأسه. كان الأمير يتحرق شوقاً لأن ينتهي الرجل بأسرع وقت من هذا الحديث، لكي يتفرغا معاً من جديد إلى تشغيل هذه الآلة العجيبة، حتى إذا جاء الرجال لا يكون بحاجة إلى أية مساعدة أو إلى أية إرشادات. قال الأمير مازحاً:

ـ التجربة ما هي مثل السالفة، وهالحين نقول بسم الله.

ودون انتظار اندفع إلى قرب جهاز الراديو وجلس منتظراً أن يتبعه حسن رضائي. مسّد على الجهاز بيد ناعمة حنونة، كما يمسّد الإنسان على وجه طفل صغير، ونقر نقراً خفيفاً بسبابته، وكأنها إشارة البدء.

وبنفس الخفة والبراعة والسرعة بدأ حسن رضائي. ربما كانت البداية أسرع مما توقع الأمير، أو لم يستطع أن يستوعبها بدقة، فقال بما يشبه الرجاء:

ـ يرحم والديك خطوة خطوة وعلى مهلك.

ـ أمرك يا مولاي!

هكذا رد حسن رضائي مع ابتسامة، وهذه الطريقة في الخطاب التي يتقنها حسن رضائي جيداً بمقدار ما تبدو غريبة، غير مألوفة في حران وما حولها، فقد كانت تدخل السرور على قلب الأمير، وتشعره بأهمية إضافية؛ لقد لفتت هذه الطريقة نظره منذ الزيارة الأولى، ووجد نفسه أنه يحبها. الآن وهو يقول له «يا مولاي» قال في نفسه: «الناس في الأماكن الأخرى أكثر أدباً من جماعتنا، ويعرفون كل شيء، بما في ذلك كيف يخاطبون الإنسان على قدر منزلته» أما عندما قال حسن رضائي:

ـ من جديد... وخطوة خطوة.

فقد رد الأمير:

ـ أي نعم، من جديد خطوة خطوة.. وعلى مهل!

وخلال فترة قصيرة دوى صوت الراديو فملأ المكان: الخيمة الكبيرة والفلاة المحيطة بها، ووصل إلى الخيام الخاصة بالحريم، فلما خفف حسن رضائي صوته قال بثقة:

ـ الآن، يا صاحب السمو، تقوم بكل شيء وحدك!

وحاول الأمير، لكن بدا مرتبكاً وخائفاً من الوقوع في الخطأ، وفي محاولة لأن يسهل حسن رضائي المهمة إلى أقصى حد قال:

ـ أحسن طريقة، يا سمو الأمير، هي طريقة العد.

توقف لحظة، هز رأسه عدة مرات وكأنه توصل إلى طريقة مثالية في التعليم، تحرك قليلاً وقال:

ـ واحد، اثنان، ثلاثة.. وهذا أربعة...

وضع يده بسرعة على البطارية، معتبراً إياها الرقم واحد، ثم على

مفتاح التشغيل واعتبره الرقم اثنين، ثم مؤشر المحطات وهذا هو رقم ثلاثة، أما الرقم أربعة فكان مؤشر الصوت. فعل ذلك ببعض السرعة، الأمر الذي دفع الأمير لأن يقول:

- العدّ طريقة زينة، لكن ما هو مثل صلاة البدو!

ضحك حسن رضائي، لكن لم يفهم ما يعني الأمير بصلاة البدو، وحين شرح له ذلك ضحك كثيراً، وقال كأنه يعلّم طفلاً:

- واحد.. هذا واحد.. زين؟

وحين يهز الأمير رأسه دلالة الفهم والموافقة يتابع وهو يشير إلى مفتاح التشغيل:

- بعد الواحد اثنين، وهذا اثنين.

ويهز الأمير رأسه أنه فهم، يسأل حسن من جديد:

- مشينا؟

ويرد الأمير بصوت فخم:

- توكل على الله

- هذا ثلاثة، وثلاثة يا صاحب السمو، أصعبهم.

ويهز الأمير رأسه أنه فهم وإنه يقدر الصعوبة التي يشير إليها حسن رضائي، فيتابع:

- وهذا أربعة. هذا سهل: إذا كنت تريده عالياً يسمع حران كلها على اليمين، وإذا كنت تريده لنفسك على اليسار.

بعد عدة محاولات، تخللتها شروح إضافية، خاصة فيما يتعلق بالبطارية ومؤشر المحطات، قال الأمير، وقد ظهر على وجهه السرور:

- هذه آخر مرة، وبعدها نتركه يستريح، حتى إذا جاء الجماعة انقلبت الدنيا.

توقف لحظة، ضحك بصوت عالٍ ثم أضاف:

- والله لأخلي صوته يلعلع ويصل النجم.. وإلى الصبح...

❀ ❀ ❀

أعد المجلس أبكر من الأيام الأخرى، أما الراديو فقد نقل من قبل رجال الأمير، لكن بإشرافه مباشرة، وقد أعطى تعليمات حازمة قبل النقل وأثناءه، فلما اطمأن إلى كل شيء، ولكي يضفي على العملية مزيداً من الأهمية والتشويق، ألقى عباءته على الراديو وغطاه تماماً!

حاول الأمير أن يكون بتصرفاته وكلامه طبيعياً بل أقرب إلى البساطة، إذ تكلم مع بعض رجاله بطريقة رقيقة أبوية، خلافاً للأيام السابقة، وبدا ذلك غريباً منه، إلا أن حالة التوتر الداخلية التي كانت تسيطر عليه جعلته كثير الحركة، سريع التنقل، خائفاً أو أقرب إلى الخوف. إنه الآن أمام تجربة جديدة، ورغم أنه كان متأكداً وواثقاً، إلا أن بعضاً من الشك ظل يراوده: «ماذا لو مات الجهاز دفعة واحدة أو أخطأ في تشغيله وإدارته؟ ماذا لو أخطأ في العد أو معرفة المفاتيح، كما سماها حسن رضائي؟ أي خجل سيحس به إذا فشل، ثم جاء بعد ذلك حسن رضائي لكي يبعده ويحل محله، وما فشل فيه، استطاع هو أن ينجزه ببساطة، وبعد أن يفعل ذلك ينظر إليه بطرف عينه، وينظر إلى الآخرين ويبتسم! إذا حصل هذا ألا يعتبر بنظر نفسه، على الأقل، غير كفؤ أو عاجزاً؟» هكذا مرت الأفكار والتساؤلات، وقد زادت في توتره. كان يود في هذه اللحظة، لو يستطيع أن يقوم بتجربة أخيرة: «كان يجب أن نجرب الجهاز في مكانه الجديد» لكن ماذا يقول عنه حسن رضائي لو حاول ذلك؟

قبل الغروب بقليل جاء الرجال، جاء أولاً الدباسي، وقد تعمد أن يأتي مبكراً، وقبل الآخرين، لأنه لم ير الأمير منذ أيام طويلة، ولأنه كان يشعر بنوع من الذنب لا يعرف سببه بشكل واضح ومؤكد. يمكن أن يكون السبب هو موت ابن الراشد، أو ربما انقطاعه عن زيارة الأمير، أو شعوره باللاجدوى. المهم أن شعوراً مثل هذا كان يسيطر عليه، أما ما سمع الناس يتناقلونه في مقهى أبو أسعد عن الآلة العجيبة فلم يكن ليشغله كثيراً. فقد سمعه أكثر من واحد في المقهى يقول «لو سافرتم ورأيتم العالم، يا أهل حران، لكانت الدنيا بالنسبة لكم غير الدنيا»، ولم يضف إلى ذلك شيئاً، ولم يستطع الذين سمعوا كلامه على أي وجه يفسرونه.

وجاء عبد الله السعد ومحمد السيف معاً، وجاء الذاووي وابن نفاع معاً أيضاً، وقد تكلما كثيراً وهما يصعدان التل الشمالي، تكلما عن الفساد الذي انتشر، والشر الذي عمّ، وعن خراب الذمم واقتراب نهاية العالم. أما ما يحاوله الأمير، وما يحصل في حران تحت سمعه وبصره، وسكوته الذي لا يجدان له سبباً أو كيف يفسرانه على المفاسد وتساهله مع الأميركان، فإنها أمور تحيرهما وتثير من الشكوك أكثر مما يتوقع الإنسان أو مما يمكن الموافقة عليه أو احتماله. أما حول ما سمعاه عن الآلة العجيبة، المفاجئة، فقد قال ابن نفاع بصوت تمنى لو يسمعه الآخرون:

ـ اللي شفناه، يا أبو محسن، يكفينا وزود، وإذا كان هذا التكروني اللي شاف شفار أمه وانهبل، يريد يهبل الناس فلا هو ولا يومه.

لما انحدرت الشمس وراء التلال الغربية، ولم يعد يظهر منها إلا شعاع برتقالي يزداد قتاماً لحظة بعد أخرى، وكان الذين دعاهم الأمير قد حضروا جميعاً، بمن فيهم ثلاثة من معسكر العمال، أحدهم ابن الزامل، وكان آخر الحاضرين دحام المزعل، إذ جاء مهرولاً بعرقه وتعثر حين دخل الخيمة. لما تأكد الأمير من حضور المدعوين ورأى أيضاً اثنين أو ثلاثة من أهل حران، لا يعرف كيف حضروا أو ماذا يريدون قال وهو ينهض:

ـ تحت السماء، يا اولاد الحلال، أطيب وأرحم.

وقام الرجال، كان لقيامهم وحركتهم ضجة مسموعة لكن لم يرافقها أي كلام. الأمير الذي مشى متقدماً خطوة أو اثنتين عن الآخرين، وبدا واثقاً، كان في أعماقه مرتبكاً وفي عجلة من أمره. طلب بإشارة من يده إلى حسن رضائي أن يكون قريباً منه، وقد ألحّ عليه أن يتقدم أكثر، فاستجاب الرجل بحركة عفوية متقنة. أما ابن نفاع فلم تفارق عيناه تصرفات حسن رضائي وحركاته لحظة واحدة. لقد ترك الجميع وركز نظراته عليه منذ أن وصل. وحسن رضائي الذي التقت عيناه بعيني ابن نفاع أكثر من مرة، كان يبتسم في كل مرة، لكن ابن نفاع لم يستجب لهذا الإغراء، ولم يسحب نظراته عنه. الآن والأمير يعامله بتلك الطريقة، ويلح عليه ذلك الإلحاح، قال ابن نفاع في نفسه: «ما يندري إذا كان الرجّال ضيف رحمان أم ضيف

شيطان، لكن مثل ما يقولون إذا جاءت العلة من البطن العافية تجي منين؟ ويظهر أن ابن الحرام، هالقرباطي، دخل تحت إبط الأمير وما أظنه إلا لاعن أجداده وأجدادنا».

ما كاد الرجال يجلسون، ونظراتهم مركزة حول العجيبة الراقدة إلى جانب الأمير، ناحية اليسار، ومغطاة بعباءته، وقد أقضّ قلوبهم التساؤل، حتى قال الأمير بصوت بدا مرتجفاً قليلاً:

ـ الدنيا، يا جماعة الخير، ما هي مثل قبل، تغيرت، تغيرت كثيراً، صارت صغيرة، هي تجي لبني آدم، تجي لحضنه، بدل ما هو يروح إليها.

لم يفهم أي من الرجال ما يرمي إليه الأمير، بل إن كلامه هذا زاد الغموض الذي كانوا يحسون به. تململ الأمير في جلسته وتابع، فبدا صوته أكثر ثقة:

ـ والواحد ما يصدق إلا إذا شاف بعينه، إلا إذا جرب بنفسه.

والتفت صوب حسن رضائي وقال وهو يبتسم، كأنه يتبادل معه سراً:

ـ إذا شافوا بعيونهم يصدقون.

ودون انتظار قفز مثل هر. نحّى العباءة وسأل بطريقة استعراضية:

ـ تشوفون هذا الماخوذ؟

وحين هزوا رؤوسهم مؤكدين أنهم يرون الجهاز الذي يشير إليه تابع:

ـ هذا يجوب الدنيا كلها في طرفة عين ويقول لكم كل شيء.

ظل الرجال ينظرون صامتين، قال الأمير، وهو يفرك يديه، تماماً كما فعل حسن رضائي حين استعد لتشغيل الراديو:

ـ هذا اللي تشوفونه: ساعة يحكي وساعة يبكي وساعة يصلي على النبي!

توقف لحظة، نظر إلى الراديو، ثم نظر إلى الرجال، قال وهو يهز رأسه:

ـ وهذه الساعة نتوكل على الله.. ونبدأ.

وبصوت يكاد يكون مسموعاً بدأ الأمير: واحد، ووضع يده على البطارية، انتظر لحظات، وأضاف: اثنين. قعد مقابل الراديو، معطياً ظهره

للآخرين، حتى إذا ظهر اللون الأخضر تنحى جانباً ومال بجسده كله، وبدأ يحرك مؤشر المحطات، فلما استقر ذلك المؤشر على محطة، وتأكد من ذلك، حين سمع بعض الكلمات ورأى اللون الأخضر قوياً زاهياً التفت إلى الرجال وقال بصوت قوي:

ـ اسمعوا. . اسمعوا.

ولما رفع مفتاح الصوت سمعوا: «وجاء في الخبر أن ابن الخطاب بكى لما فتحت عليه كنوز كسرى وقال: إن هذا لم يفتح على قوم قط إلا جعل بأسهم بينهم».

ما كادوا يسمعون هذا الكلام حتى غاب الصوت تقريباً، وحلّت مكانه ونّة قوية موصولة، فنظر الرجال بعضهم إلى بعض ونظروا إلى ذلك الجهاز الذي حركه الأمير باستغراب، وقد ارتخت أفواههم وحملقت عيونهم، وما كادت الونة تغيب قليلاً حتى سمعوا من جديد: «ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» وقال الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

كان الأمير يتطلع إلى الوجوه واحداً واحداً ليرى الأثر، فلما وجدهم صامتين ينظر بعضهم إلى بعض، ثم ينظرون إلى ذلك الجهاز بحيرة، قال وهو يفرك يديه ويضحك:

ـ هذه واحدة.

وخفض الصوت كثيراً حتى لم يعد يُسمع وقال:

ـ بعيونكم شفتم وبآذانكم سمعتم، وهالحين خذوا غيرها.

ومال مرة أخرى بجسده كله، حتى كاد ينبطح، وأخذ يحرك مفتاح المحطات ورأسه ملتصق بالراديو تماماً، فلما سمع صوتاً اطمأن إليه، وضع يده على مفتاح الصوت وقال وهو يضحك:

ـ وهذه الثانية. . .

وهدر صوت موسيقى قوياً صاخباً فملأ المكان، تطلع إليهم، هز رأسه مرات كثيرة وهو يضحك، ومن جديد رفع الصوت أكثر من قبل فضجت

الأصوات أكثر من قبل، دخلت الرعشة إلى الأجساد، وجعلت العيون معلقة والنفوس واجفة، والرجال لا يجرأون أن ينظر بعضهم في وجوه بعض نظراً مباشراً وإنما يسرقون من زوايا العيون نظرة إلى هنا ونظرة إلى هناك. كانوا يخافون أن يخرج من هذا الصندوق فجأة بشر فيقتلوا الناس جميعاً. والأمير الذي كان شديد السعادة، وقد تبادل نظرات طويلة مع حسن رضائي، وغمزات أيضاً مشيراً إلى التأثير القوي الذي حصل، تمنى في تلك اللحظة لو أنه دعا أهل حران جميعاً، ولم يقتصر على مجموعة صغيرة منهم؛ «لو كانوا جميعاً موجودين لرأينا العجب» لكن هذه الفكرة ما لبثت أن تلاشت، «لأن الأسرار يجب أن تبقى بين الكبار، الذين يفهمون ويقدرون!».

بعد هذه الموسيقى الصاخبة سمعت كلمات لم تفهم أبداً، وبخفة، مثلما فعل حسن رضائي ضحى هذا اليوم، أخرس الأمير الصوت تماماً وقال:

ـ هذه الثانية.. وبعد كثير.

ومثلما انبطح في المرة السابقة انبطح من جديد، ظل يحرك وينظر إلى اللون الأخضر فلما استقر على صوت اطمأن إليه اعتدل في جلسته، وقال:

ـ إليكم الثالثة.

«زعموا[1] أن طائراً من طيور البحر يقال له الطيطوى كان وطنه على ساحل البحر ومعه زوجة له، فلما جاء أوان تفريخهما قالت الأنثى للذكر لو التمسنا مكاناً حريزاً نفرخ فيه فإني أخشى من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا. فقال لها افرخي في مكانك فإنه موافق لنا والماء والزهر منا قريب، قالت له: يا غافل ليحسن نظرك فإني أخاف وكيل البحر أن يذهب بفراخنا، فقال لها: افرخي مكانك فإنه لا يفعل ذلك، فقالت له: ما أشد ثقتك، أما تذكر وعيده وتهديده إياك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك؟ فأبى أن يطيعها. فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له: إن من لم يسمع قول

---

(١) كليلة ودمنة.

الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين، قال الذكر: وكيف كان ذلك؟

قالت الأنثى: زعموا أن غديراً عنده عشب وكان فيه بطتان وكان في الغدير سلحفاة بينها وبين البطتين مودة وصداقة، فاتفق أن غيض ذلك الماء فجاءت البطتان لوداع السلحفاة وقالتا: السلام عليك فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه، فقالت إنما يبين نقصان الماء على مثلي فإني كأني السفينة لا أقدر على العيش إلا بالماء، فأما أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما فاذهبا بي معكما، قالتا لها: نعم، قالت كيف السبيل إلى حملي؟ قالتا نأخذ بطرفي عود وتقبضين بفيك على وسطه ونطير بك في الجو، وإياك إذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقي، ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو، فقال الناس عجب سلحفاة بين بطتين قد حملتاها، فلما سمعت ذلك قالت فقأ الله أعينكم أيها الناس، فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت.

قال الذكر: قد سمعت مقالتك فلا تخافي وكيل البحر... فلما مد الماء ذهب بفراخهما، فقالت الأنثى: قد عرفت في بدء الأمر أن هذا كائن، قال الذكر سوف أنتقم منه، ثم مضى إلى جماعة الطير فقال لهن: إنكن أخواتي وثقاتي فأعنني. قلن: ماذا تريد أن نفعل؟ قال تجتمعن وتذهبن معي إلى سائر الطير فنشكو إليهن ما تعبت من وكيل البحر ونقول لهن إنكن طير مثلنا فأعنّنا، فقالت له جماعة الطير، إن العنقاء هي سيدتنا وملكتنا فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها، فتظهر لنا فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر ونسألها أن تنتقم لنا منه بقوة ملكها، ثم إنهن ذهبن إليها مع الطيطوى فاستغثن إليها وصحن بها فتراءت لهن فأخبرنها بقصتهن وسألنها أن تصير معهن إلى محاربة وكيل البحر، فأجابتهن إلى ذلك، فلما علم وكيل البحر أن العنقاء قصدته في جماعة الطير خاف من محاربة ملك لا طاقة له؛ فرد فراخ الطيطوى وصالحه فرجعت العنقاء عنه!».

كان الأمير فرحاً وقلقاً معاً، فالرجال الذين أنشدّوا تماماً يسمعون ويتابعون وقد انعقدت ألسنتهم، وسيطر عليهم العجب، كان منظرهم

الصامت الخائف يولد الفرح، لكن حين طال الحديث وتداخلت قصة بأخرى وفاتته بعض الكلمات وهو يتلفت ويراقب، فقد استبد به القلق أن يكون الجهاز قد تعب، فما كادت الكلمات الأخيرة تصل إلى مسامع الرجال فترتاح وجوههم قليلاً حتى هجم بخفة قط على الجهاز وسمعه كثيرون يقول: أربعة، ثلاثة، اثنين، واحد!

لما أطفأ الجهاز رجع إلى مكانه متعباً فجلس وسحب نفساً عميقاً ونظر إلى السماء، ولما وجد الصمت قوياً مسيطراً جاءت كلماته من جديد:

ـ مثل ما تشوفون، يا جماعة الخير، إن الله علّم الإنسان ما لم يعلم!

كان لدى كل رجل من الرجال أشياء كثيرة يمكن أن يقولها. فالذين سافروا ورأوا العالم كانوا يريدون أن يتكلموا ويسرفوا في الكلام. صحيح أن الدباسي رأى الراديو من قبل، رآه في مصر عند صديق ابن البارح، لكنه لم يثر ولم يعجب «لأن كل شيء في مصر لا يصدقه العقل» هكذا كان يلخص أغلب الأحيان انطباعاته دون قدرة على الدقة أو التفصيل، أما عبد الله السعد فقد مال على محمد السيف وقال بهمس: «ابن النقيب، خوينا بالبصرة، عنده واحد، وأنا شفته!» أما الآخرون الذين لم يسافروا أبعد من عجرة فإنهم كانوا في حيرة وخوف، وتمنى أكثر من واحد لو أن الأمير يغطي هذه البلية أو يبعدها «لأن كل شيء يمكن أن يحصل في هذه الدنيا» وأكثرهم لم يكن مستعداً لأن يسمع أي شرح أو تعليق لأن هذا الجهاز العجيب يمكن أن يتكلم ويغني وينقل القصص وربما يفعل أشياء كثيرة خرى، إنه يفعل ذلك رغم صغره، وقد يكون الناس الذين فيه مخلوقات عجيبة مسحورة أو ممسوخة. الوحيد الذي تجرأ على السؤال هو ابن نفاع، لكن رغم جرأته كان متوجساً وخائفاً، قال موجهاً الكلام إلى حسن رضائي:

ـ هذه البلية مَنْ سوّاها؟

رد حسن رضائي ببعض الارتباك نتيجة النظرات المعادية التي لم يكف ابن نفاع عن توجيهها إليه طوال السهرة، رد بسرعة:

ـ الإنسان اخترعها

ـ قل لي. . قل لي: الألمان أو الأميركان؟

ـ هذا الراديو صنع هولندي

ـ هولاندي؟

ـ نعم. . هذا مصنوع في هولندا.

ـ وهناك يعرفون العربي؟ يصلون ويصومون ويقولون أشهد أن لا إله إلا الله؟

قال الدباسي وقد شعر أن ابن نفاع سيكون قاسياً مع الرجل:

ـ إذا أبو مسفر يوافق، نريد من الخويا، بسفرة من سفراته لحران، أن يشتري لنا واحداً. . وإذا يريد هالحين ندفع فلوسه!

رد ابن نفاع وقد أصابه الرعب:

ـ وتحطه ببيوتنا يا دباسي؟

ـ وكل الله يا رجّال، طوّل بالك!

هكذا رد الدباسي وهو يبتسم، ومن جديد سأل ابن نفاع.

ـ وتحطه ببيوتنا؟ تجيب الذيب لغنمنا؟

قال الأمير:

ـ والله يا ابن نفاع انت ما ترضيك إلا حزوم نجد، كل شيء ما يعجبك، وكل شيء تقول عليه حرام.

وتغيرت لهجة الأمير وقال موجهاً الكلام إلى الجميع:

ـ يا جماعة الخير، أنتم، بآذانكم سمعتم اللي قاله عن النبي ﷺ، واللي قاله عن ابن الخطاب. . وغيرهم وغيرهم؟

قال ابن نفاع وهو ينهض محتجاً:

ـ يا جماعة الخير. إياكم وخضراء الدمن.

توقف قليلاً ثم أضاف بسخرية:

ـ مثل إبليس له عين واحدة، عين خضراء، وهذه هي التي نهى عنها الرسول وسماها خضراء الدّمن.

وأضاف بلهجة تهديد:

ـ وباكر يجركم إلى جهنم.

قال الذين سهروا في مقهى أبو أسعد تلك الليلة، وظلوا منتظرين يترقبون، أنهم سمعوا أصواتاً غير عادية تنبعث من التل الشمالي، وأكد هؤلاء أن هذه الأصوات يمكن أن تسمع، دون وضوح كافٍ، حين يهدأ البحر ويتقدم الليل. وقال عبده محمد، الذي سهر تلك الليلة أكثر مما تعود أن يسهر، أنه سمع ألحان أغان يعرفها، وإن هذه الألحان كانت تهبط إليه مباشرة من التل الشمالي. أما عثمان الأصقى، الذي يشكو من إحدى أذنيه، فقد صمم على الذهاب إلى بيت الأمير دون دعوة، لأنه لم يستطع أن يقاوم الفضول الذي أحس به عندما «سمع الناس يتحدثون عن هذه الآلة العجيبة»، ويؤكد بعض الذين يحبون المداعبة أن عثمان لم يذهب إلا من أجل أن يتعشى.

كان الأصقى أول الذين وصلوا إلى المقهى بعد زيارة الأمير والاطلاع على تلك العجيبة. للحظات طويلة التزم الصمت، كان فقط يهز رأسه ويديه دلالة الإعجاب والدهشة. أما حين سئل عن تلك الآلة وطلب منه أن يصفها فقد حرك يديه بطريقة فهمت أنه لا يمكن أن يفعل، لأن ما رآه لا يقال ولا يوصف. أما حين حاول، وقد حصل هذا بعد إلحاح وانتظار، وبعد تردد طويل أيضاً، فقد قال إن لدى الأمير شيئاً عجيباً: صندوق لكن ليس كأي صندوق. مثل سحارة الشاي، أصغر أو أكبر، فهو ليس متأكداً، وهذا الصندوق إذا ضرب على رأسه صرخ وأخذ يتكلم، ولهذا الصندوق أيضاً عين واحدة فقط، عين لونها أخضر، مثل عشب الربيع، فإذا ضرب مرة أخرى، ويجب أن تكون ضربات غير قوية، تخرج منه دقات طبل ومزمار. فإذا ضرب مرة ثانية، وعلى جنبه بالذات فإنه يخرس ويموت.

حين استفسر أبو أسعد بصوت عالٍ وإشارات كثيرة من يديه ما إذا كان لهذا الصندوق رقائق صغيرة سوداء تشبه الأرغفة التي يخبزها عبده محمد، لكن أرق منها، وما إذا كان له محقان كبير يشبه محقان السمن أو أكبر، ويحتاج الإنسان إلى أن يحرك عموداً في طرف منه، بعد أن شرح أبو أسعد واستعان بأكثر من واحد لكي يصرخ في أذن الأصقى، وعثمان ينفي أن يكون كذلك، أو أنه لم ير ما يقول عنه أبو أسعد، إذ كان بعيداً، سأله أبو أسعد إذا كان لهذا الصندوق مفاتيح صغيرة وفي وسطه لوحة من الزجاج، وعليها شعرة تتحرك، حين أجاب عثمان أن الأمر ليس بعيداً عن ذلك، وإن كان يختلف عن هذا الوصف، فقد جلس أبو أسعد على الكرسي الذي كان يستند إليه وقال بنفاد صبر:

ـ احكِ هذا الكلام من أول مرة.. يا ابن الأوادم!

وهز رأسه وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ هذا راديو.. يا جماعة.

والتفت إلى عثمان يسأله.

ـ راديو... ما هيك؟

وقلب عثمان شفته وهز كتفيه دلالة أنه لا يعرف.

قال واحد، وكان بعيداً بعض الشيء، يرقب المناقشة والإشارات ويتلهف لمعرفة هذه الآلة العجيبة، قال وهو يتوجه إلى عثمان والآخرين:

ـ الأصقى كان يسمع ويشوف ببطنه.

قال أبو أسعد، وقد شعر أنه يعرف أكثر من الآخرين:

ـ لو كان في حران كهرباء لكان الراديو موجود من زمان.

وانصرف بعد ذلك يشرح للجميع كل ما يعرفه عن هذا الجهاز، وكيف أن أعداداً كبيرة منه موجودة في بيروت وحلب والشام، وأماكن كثيرة عاش فيها أو زارها، وأكد أنه لا يخلو بيت من بيوت الوجهاء والأكابر من راديو، وأكد أكثر من ذلك أن مقهى النديم في ساحة البرج يحوي على راديو وعلى كرامافون، ثم شرح للرجال حوله ما هو الكرامافون، وكيف

أن الاسطوانات التي تشبه الأرغفة الرقيقة تنقل الأغاني، ولا تتعب من الدوران ليل نهار. وأن كثيرين من الذين يرتادون مقهى النديم يأتون من أماكن بعيدة فقط لكي يستمعوا إلى الأغاني، وصاحب المقهى، وجيه الحلبي، يضع الأغاني حسب طلبات المستمعين، وردد كلمة «المستمعين» أكثر من مرة. وأكد من جديد أنه حالما تصل الكهرباء إلى حران، فإن أول راديو سيكون في مقهى الأصدقاء. لكن أضاف وهو يرفع يده مهدداً مازحاً:

ـ اسمعوا.. إذا جاءت الآلات لا يمكن لأحد أن يمد يده.

توقف قليلاً وهو يضحك:

ـ والشيء الثاني: ما في كل دقيقة: يا أبو أسعد حط هذي، يا أبو أسعد شيل هذي.

وفي هذه الليلة أكد الكثيرون أن حران لم تنم. فسهرة الأمير طالت أكثر مما قدر وأكثر مما أراد. وصوت الراديو الذي سُمع مثل حداء بعيد في أول الليل ما لبث أن قوي وصفا، فسمعه الكثيرون. أما عندما أعلن حسن رضائي، بأدب جم مبالغ فيه، عن رغبته في أن يغادر، وأنه سيكون بين يدي صاحب السمو في أية ساعة من ساعات الصباح يشاء سموه، عندما أعلن حسن رضائي عن تلك الرغبة استجاب الأمير، وكانت إيذاناً بانتهاء السهرة. ولما خرج الجميع، وقد ودعهم الأمير على مسافة كبيرة من الخيام، أكثر مما يفعل عادة مع ضيوفه، قال الجميع أن صوت الراديو كان يتابعهم وكأنه يمشي وراءهم، حتى بعد أن هبطوا التل واقتربوا من السوق، كان الصوت واضحاً مسموعاً، وقد ضحك الكثيرون حين سقط الذاودي في إحدى الحفر على الطريق. قال الدباسي وهو يساعده على النهوض:

ـ هذه البلية يا أبو محسن فتحت آذاننا وعمت أبصارنا.

والأمير الذي ظل بعض الوقت، بعد انصراف ضيوفه، ورفع صوت الراديو أكثر من مرة، وكانت هزات رأسه تتوالى دلالة الإعجاب والطرب،

ما لبث أن نقل الراديو من مكان إلى آخر. نقله أول الأمر إلى خيمته، ثم نقله إلى القسم الخلفي، حيث ينام، وهناك سُمع يتحدث بصوت عالٍ عن هذه الآلة العجيبة، ثم بعد ذلك سمع صوت الراديو قوياً صاخباً، وقد رافق صوته في البداية صرخات النساء، وكانت مزيجاً من الخوف واللذة والاستغراب، وأكد الذين سهروا في المقهى أنهم سمعوا صوت الراديو. كان صوتاً متقطعاً يغيب ويظهر، حتى أبو أسعد، وهو يجمع الكراسي، قال لآخر اثنين كانا يغادران المقهى:

ـ إن شاء الله ما يمر كم شهر إلا والراديو منصوب، وصوت يا ليل يا عين واصل إلى السماء!

وابن نفاع الذي غادر مبكراً، وتوجه إلى حران العرب مباشرة، رفض أن يقول شيئاً عن هذه العجيبة، وظل صوت دعائه يسمع حتى ساعة متأخرة، ولهذا السبب، أو لبعد المسافة، لم يسمع أحد من أهل حران صوت الراديو. أما حين غادر الآخرون، والذين كانوا يسكنون على التلال الغربية، فقد ذكروا أشياء كثيرة عن هذه العجيبة، لكن أياً من الذين سمعوا لم يستطع أن يحدد صورة هذه الآلة أو طبيعتها.

وفي اليوم التالي، قبل شروق الشمس، شوهد الأمير يطلب من مسعود ورجل آخر أن ينقلا الراديو، وقد رافقهما خطوة خطوة، ورفع بنفسه طرف باب الخيمة ليسهل دخولهما دون أية صعوبة. وفي وقت متأخر ذكر بعض الخبثاء أن الأمير ظل أياماً عديدة لا ينام في نفس المكان الذي كان فيه الراديو، وعلى غير عادته كان يعمر بندقيته الموزر ويضعها بالقرب منه تحسباً لأية مفاجأة قد تأتي من هذه «البلية». وروى ابن السيف أنه في إحدى زياراته للأمير، شاهد اثنين من رجاله يرفعان الراديو إلى أقصى حد، والأمير ينظر بالمنظار إلى أسفله، وحين لا يرى شيئاً يتقدم ويدق براحة يده وكأنه يدق باباً، فإذا لم يسمع صوتاً يستدير لكي ينظر إلى الراديو من النواحي الأخرى، بالمنظار أولاً ثم يدق بأصابعه أو براحة يده.

وفي معسكر العمال، وفي السوق والمسجد ظل الناس يتحدثون عن

هذه العجيبة، وكان الكثيرون يتمنون لو تتاح لهم الفرصة لكي يلقوا عليها نظرة أو يسمعوا صوتها. والأمير الذي انشغل بهذه القضية إلى أقصى حد، ولم يترك لأي من رجاله أن يمد يده إلى الراديو، أو يقترب منه أثناء غيابه، بدأ يعيش مرحلة جديدة، وقد بدأت هذه المرحلة بالصدفة، بعد سماع مجموعة من الأغاني، لكن أثرت عليه كثيراً وظل يتذكرها فترة طويلة وظل الكثيرون يتذكرونها أيضاً.

أثناء زيارة الأمير لمعسكر الأميركان، كان برفقة نائبه وحسن رضائي، وقد تفقد السيارة بكثير من العناية. وسأل ما إذا كان الأميركان مثل العرب يطلقون الأسماء على الآلات التي يستعملونها للركوب، فالعرب مثلاً يطلقون على كل حصان إسماً، وحين أكد له هندرسين أن لهذا السيارة إسماً، وهو «فورد» بدا شديد السرور، فالتفت إلى نائبه وقال بثقة: «قلت لك!» وبعد ذلك حرص على توجيه أسئلة أخرى دقيقة: كم تعيش الفورد؟ وهل يستعمل البارود في دفعها أم لا، وهل يمكن أن تستجيب لغير سائقها، وهل هي مروضة من الأساس أم تحتاج إلى ترويض. بعد أن سأل الأمير هذه الأسئلة وغيرها، وكان لا يتوقف عن هز رأسه، أثناء الإجابة وبعدها، عرض هندرسين أن يركبوا جميعاً السيارة، فأبدى الأمير نوعاً من الامتناع الخفي، إذ سأل نائبه وحسن رضائي بطريقة معينة ما إذا كانا يرغبان في هذه التجربة أم لا، لكن إزاء البساطة التي تصرف بها هندرسين، ثم استجابة حسن السهلة، لم يكن أمام الأمير إلا الموافقة!

كانت رحلة حافلة تخللها الكثير من المفاجآت والصرخات والتعليقات. فحين انطلقت السيارة بسرعة صرخ الأمير: «عوذة.. عوذة» وبدا شاحب الوجه خائفاً، وبعد قليل امتدت يده إلى ساق هندرسين، وكان يجلس بجانبه، يريد أن يتمسك بها لئلا يقع، فلما ضحك هندرسين بصوت عالٍ سحب الأمير يده وقد شعر بالخجل، وتمسك بطرف الكرسي. وفي إحدى اللحظات قال يخاطب نائبه وحسن رضائي دون أن يلتفت:

ـ لو شدينا أرواحنا يا جماعة الخير كان أحسن.

أما حين استدار هندرسين بالسيارة فقد خاف الأمير خوفاً كبيراً فتشبث بالسكان، وكادت أن تقع مشكلة لولا أن هندرسين تصرف بسرعة وأزاح يد الأمير! وكادت تقع مشكلة أخرى حين توقف هندرسين فجأة أثناء مرور أحد الكلاب. أما التعليقات والصرخات فكانت تتوالى وظل الكثيرون يتذكرونها حتى وقت متأخر. وهندرسين حين يتذكر السيارة الأولى التي وصلت إلى المعسكر يتذكر وجه الأمير: «كان شديد الخوف والارتباك، وكان يتمتم بكلمات غير مفهومة، وكأنه يوجه أدعية إلى الله أو يتوسل، وكاد يخلق لنا أكثر من مشكلة، أثناء السير وأثناء الوقوف. وفي إحدى اللحظات كاد يرمي بنفسه، إذ أمسك مفتاح الباب أثناء انطلاق السيارة، ولولا انتباهي وسرعتي لقالوا أن الأميركيين قتلوا الأمير».

أما حين مرت السيارة أمام مجموعة من العمال، ورفع هؤلاء أيديهم وأصواتهم لتحية الأمير ومن معه، فقد ظل الأمير جامداً وظلت يداه تمسكان طرفي الكرسي، وقد استغرب أن هندرسين أخرج يده من الشباك وحيّ الواقفين ببساطة.

قال الأمير وهم يصعدون التل بعد الزيارة:

ـ هذه البلية مثل الجرادة تقمّز تقميز وما يعرف الواحد متى يطيح.

رد نائبه:

ـ مطايانا، يا طويل العمر، أحسن منها وآمن.

ـ هذه أسرع بس مالها أمان.

قال حسن رضائي، بعد أن وقف قليلاً:

ـ الاختراعات التي توصل إليها الإنسان لا نهاية لها، كل يوم آلاف الاختراعات، وكل يوم أشياء جديدة، لكن أصل الاختراعات البارود.

هزّ الأمير رأسه موافقاً، لكن الأفكار كانت مضطربة متداخلة إلى درجة لا يستطيع أن يؤكد شيئاً محدداً، وفجأة وجد نفسه يقول:

ـ لو استعملوا البارود بدفعها كان أحسن وأقوى.

ولم يستطيعوا مواصلة النقاش، ولم يجد الأمير كيفية أوضح للتعبير عن الأفكار التي تخطر بالبال فجأة. أما حسن رضائي فكان يرى أن المسافة التي تفصله عن الجماعة كبيرة إلى درجة لا يستطيع أن يكون جاداً، أو أن يتكلم في موضوع جدي.

ما كاد الأمير يصل حتى تطلع أول الأمر إلى الراديو ثم تطلع إلى رجاله الذين ظلوا في دار الإمارة. كان يريد أن يكتشف ما إذا اقترب أحد منهم أو عبث بالراديو أثناء غيابه، فلما لم يلمس ذلك، إذ كانت ردات فعلهم طبيعية هادئة، قال ليبدأ جواً جديداً:

ـ أحسن ما الواحد يركض هنا وهنا جاء العالم لحضنه.

وبكثير من الثقة توجه إلى الراديو. وقبل أن يبدأ قال لحسن رضائي.

ـ صارت الشغلة بسيطة!

وما إن هدر صوت الموسيقى قوياً حافلاً حتى هز الأمير رأسه وأنشد:

«إن عدت عدنا وإن وافيت وافينا وإن هجرت فإنا قد تكافينا

وبعد قليل أضاف بصوت حزين:

«لما خفيت ضنى ووجدي قد ظهر والنومُ من عيني تبدّل بالسهر
ناديت وجداً قد تزايد بي الفكر يا وجد لا تبقِ عليّ ولا تذر
ها مهجتي بين المشقة والخطر

صفق حسن رضائي طرباً، وبدا على وجهه الاستغراب أن الأمير يحفظ الشعر ويردده، دون أن يعرف ذلك من قبل أو أن يقدر، قال الأمير في محاولة تبرير هذه النشوة:

ـ روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، إن القلوب إذا كلّت عميت!

وفي جو من الفرح والشعور العميق بالراحة. وبعد أن دارت القهوة، قال حسن رضائي، بعد أن خفّض صوت الراديو بنفسه، ولم يعترض الأمير:

ـ أريد أن أستأذن بالسفر، يا صاحب السمو.

رد الأمير محتجاً:

ـ اتق الله يا رجل، بعدنا ما شفناك:

ـ لكن أعمالي، يا صاحب السمو تلزمني بالسفر.

توقف لحظة، ابتسم، ثم تابع:

ـ وفي أي وقت تأمر بعودتي سأعود يا صاحب السمو.

قال الأمير وهو يتطلع إلى نائبه، ولكن الكلام موجه إلى حسن رضائي:

ـ سفر يوك. . يفتح الله.

رد حسن رضائي بانكسار مصطنع:

ـ كما تأمر يا مولاي.

قال الأمير بعد فترة صمت وبلهجة مختلفة أقرب إلى الحزم:

ـ ونحن بحاجة إليك هذه الأيام. .

ـ أنا بالخدمة يا صاحب السمو.

وما كاد يغيب صوت الموسيقى حتى مال الأمير قليلاً وطلب من حسن رضائي ومن نائبه أن يقتربا وهمس في آذانهم:

ـ قلت للأميركان يرسلون لنا الترجمان عصرية، نريد نشوف طلباتهم وكيف نساعدهم.

ـ قال رضائي بتواضع ماكر:

ـ الأفضل أن لا أكون موجوداً في الأشغال الخاصة بينكم، يا صاحب السمو!

ـ قلت لهم إنك من جماعتنا ويمكن تساعدهم كثيراً.

وبقي حسن رضائي أياماً امتدت إلى أسابيع، إلى حين توقيع عقد بينه وبين الشركة لمدة ثلاث سنوات، وبموجب هذا العقد يتولى حسن رضائي تأمين الأيدي العاملة من أجل بناء خط أنابيب وادي العيون ـ حران، ويتولى تأمين التموين، إضافة إلى تعهد تعبيد الطريق بين عجرة وحران، وتوفير كافة المواد اللازمة، على أن تتعهد الشركة بتأمين الأسفلت وبعض المعدات والآلات.

بعد توقيع العقد، وفي إحدى السهرات، حين خلا الجو تماماً وأنفض جميع الذين كانوا، قال حسن رضائي كأنه يحدث نفسه، لكن يريد الأمير أن يسمع:

ـ لا بد من سماع إذاعة لندن. . .

أخرج من جيبه ساعة مربوطة بسلسلة ذهبية، نظر إليها وأضاف:

ـ بقي للأخبار ثلاثة أرباع الساعة.

وتحرك بمكر كأنه يستعد للمغادرة من أجل أن يصل إلى الباخرة، وهناك يسمع نشرة الأخبار.

سأله الأمير:

ـ هذا الراديو يأخذ لندن؟

ـ بكل تأكيد يا صاحب السمو.

ـ إذن نسمعها جميع.

ـ أخشى أن أثقل عليك يا صاحب السمو.

وابتسم ثم تابع:

ـ ويجب أن ترتاح.

رد الأمير وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ الراحة نلحق عليها، والليل بعده بأوله!

قال حسن رضائي وقد تغيرت لهجته تماماً:

ـ أريدك، يا صاحب السمو، أن تسمع أخبار لندن كل ليلة.

وخفت صوته وهو يضيف:

ـ لا شيء في هذا العالم يحصل إلا وتكون هذه المحطة أول من يعرف وأكثر ما يعرف!

صمت قليلاً كأنه يتذكر حادثة. . وبعد قليل أضاف:

ـ أول مرة سمعت بحران، يا صاحب السمو، من راديو لندن. راديو لندن هو الذي جاء بأخبار حران كلها: ميناء بترولي، مصافي، مستودعات

تموين للمنطقة وللسفن وأشياء أخرى. قلت لنفسي: يجب أن تزور هذه المنطقة، أن تتعرف عليها، ويمكن للإنسان أن يخدم، ويساعد.

وباندهاش لم يستطع الأمير أن يخفيه، سأل:

ـ هذا كله بحرّانا راح يصير؟

ـ أي نعم يا صاحب السمو.. كل هذا واكثر.

ـ الملاعين الأميركان ما علموني، ما قالوا لأحد.

ـ خبثاء لا يعطون سرهم.

ـ حتى هذا الطقوع، اللي جاءنا ذاك اليوم، الترجمان اللي شفته، ما قال لي شيء أبداً!

وهز الأمير رأسه دلالة الاستغراب والأسف، وبعد قليل أضاف:

ـ وهذه البلايا متى تصير؟

ـ لقد بدأوا يا صاحب السمو، فإذا تم خط الأنابيب من وادي العيون إلى حران يكون كل شيء قد انتهى.

وقهقه الأمير وقال:

ـ حضّروا روسكم يا قرعان.

وشاركه حسن رضائي الضحك. فلما هدأ قال حسن رضائي بنبرة فيها رجاء:

ـ لدي طلب.. يا صاحب السمو.

ـ سم.

ـ في المرة القادمة، بعد شهر أو شهرين من الآن، إذا عشنا، أريد مساعدتك، يا صاحب السمو، في اختيار قطعة أرض لأقيم عليها منزلاً، وكلما كان المنزل أقرب إليكم أكون أكثر سعادة.

ـ حلت البركة، اختر أية أرض وهي لك.

ـ الأرض التي تختارونها.

ـ حلت البركة.

وبعد قليل وبلهجة مسكينة تماماً قال حسن رضائي:

- قبل فترة لم أسمع بحران ولم أفكر بها.. والآن كما ترى، يا صاحب السمو.. فسبحان الله.

وانصرفا إلى الراديو، حتى إذا عثر حسن رضائي على محطة لندن قال بثقة:

- في هذا المكان، ليلاً، تكون لندن مسموعة وواضحة، أما في النهار فلها مكان آخر.

وبدآ يسمعان نشرة الأخبار باهتمام.

قبل أن ينتهي تعبيد الطريق بين عجران وحران بسنة وبضعة شهور، بدأت تصل بين فترة وأخرى إلى حران سيارتا شحن كبيرتان. الأولى يسوقها الأرمني آكوب «مدبرها» والثانية راجي «أبو عقلين». لم يكن إسماهما هكذا، لكن الكثيرين لا يعرفونهما إلا بهذين اللقبين. حتى في الأوراق الرسمية التي نظمت في وقت متأخر لراجي، كان يضاف إلى جانب اسمه: راجي سليمان النونو، كلمة الملقب، بأبو عقلين.

لم يكن للسيارتين مواعيد ثابتة أو برامج منتظمة سواء في الوصول أو في المغادرة، وإنما تعتمدان على تقديرات آكوب وراجي للسوق في حران، أو على مزاجهما. أما في عجرة فإنهما تخضعان تماماً لما يفرضه عبود السالك.

كانت السيارة الواحدة، إذا سافرت من عجرة، تحمل بين العشرين والخمسة والعشرين رجلاً مع أحمالهم وأحمال أخرى. أما الرحلة بين البلدتين، والتي لا تزيد المسافة بينهما على المائتين وعشر كيلومترات، فكانت تستغرق أكثر من ثلاثين ساعة في الغالب، لأن السيارة لا بد أن تغرز في الطريق أو قد تتعطل، وفي الحالتين يجب أن تفرغ من حمولتها، ويجب أن يشترك الجميع في تفريغها ودفعها ثم في إعادة تحميلها مرة أخرى، وهذا يستغرق بضع ساعات في العادة، وقد يتكرر مرتين أو ثلاث مرات في كل رحلة. يضاف إلى ذلك أن السيارة لا بد أن تستريح مرة أو اثنتين، في المائة وعشرة على وجه التأكيد، وهي محطة على الطريق بين البلدتين منذ وقت طويل، وكانت تتوقف فيها القوافل أيضاً، لأن فيها بئراً. وفي أحيان كثيرة بدل المحطة الواحدة اثنتان، وكانت الثانية في الكيلو مائة

وستين، وهي محطة نشأت أثناء تعبيد الطريق. وهاتان المحطتان عبارة عن مقاهٍ صغيرة، يقدم فيها الشاي والقهوة وبعض الأحيان الأكل، وقد اكتسبتا هذين الإسمين بالتداول المستمر، لذلك لا يستغرب أحد إذا استغرقت الرحلة يومين متتالين. فإذا لم تتأخر السيارة في الطريق فلا بد أن تتأخر في إحدى المحطتين. أما ما يتكلفه المسافر قبل ذلك من انتظار فلا يمكن أن يقدره أحد. فبعد أن افتتح عبود السالك «مكتب سفريات البادية» في عجرة أصبح الجهة الوحيدة التي تؤمن السفر والنقل بين البلدتين، فالشخص الذي يريد السفر، أو صاحب الحاجة الذي يريد أن يؤمن نقل حاجة من حران أو إليها، ما عليه إلا أن يذهب إلى عبود السالك، إلى مكتب سفريات البادية، وهو عبارة عن دكان عادية في عجرة، وهذه الدكان تقوم بجميع الأعمال والخدمات، لكنها الوحيدة التي تتولى القيام بنقل البضائع والمسافرين.

على باب مكتب سفريات البادية كان عبود يقف مثل ثعلب مسن منتظراً الفريسة، وما يكاد يرى واحداً من أولئك البدو، أو من الباحثين عن عمل، وبفراسة مدربة ملعونة يقدر أنه يريد السفر إلى حران، حتى يطلب إلى الصبي الذي يستخدمه أن يصرخ: «حران، مسافر واحد إلى حران، راكب واحد إلى حران» أما عبود نفسه فإنه ينزلق مثل سمكة إلى داخل الدكان، يجلس وراء طاولة قديمة فوقها ميزان وينكبّ على الدفتر الكبير المفتوح أمامه، متظاهراً أنه شديد الاستغراق في الكتابة أو مراجعة الأرقام والحسابات، والبدوي، أو ذلك الغريب، اما أن يسقط رأساً في أحضان عبود، حيث يأتي مباشرة، مستجيباً لنداء الصبي، أو يتظاهر، بمكر بدائي، إنه لا يريد السفر، فيتجاوز الدكان، لكنه لا يستعجل. فإذا سقط المسافر مباشرة، وأعلن عن رغبته في السفر إلى حران، وإنه جاهز ومستعجل، كان عبود لا يرفع رأسه عن الدفتر إلا بعد فترة، وحين يرفعه يتظاهر بالتعب والضجر، فإذا رأى البدوي متلهفاً يريد أن ينتهي بسرعة قال له بلهجة آسفة: «الله يصلحك.. لو جيت قبل ساعة يا ابن الحلال، قبل ساعة السيارة قامت» وينتظر لحظات ثم يضيف: «لكن ولا يهمك... أنا أدبرك» وبعد مفاوضات فيها الكثير من المشقة بين الطرفين، يشترط عبود

أن يدفع البدوي فوراً لأن «باكر تقوم السيارة بإذن الله» والبدوي الذي يبدي تردداً ظاهراً في دفع الأجرة، متذرعاً أنه أودع فلوسه عند جماعته، يجيبه عبود بأن يهز يده في وجهه بنوع من الاحتقار طالباً منه أن يذهب عنه ويتركه لأعماله، فيوافق البدوي على دفع نصف الأجرة، أما النصف الثاني فسوف يدفعه حالما يركب السيارة، وبحزم، لكن دون قسوة، يرفض عبود هذا الاقتراح. وبعد أن يخيم الصمت ويستغرق عبود مرة أخرى في دفتره الكبير يجد البدوي نفسه مضطراً للموافقة، لكن يطلب من عبود أن يسجله، ريثما يذهب هو ويأتي بالأجرة، فيقول عبود بعدم اهتمام، وهو ينهض لكي يلقي نظرة على الخارج:

ـ التسجيل بعد الدفع.

فلما يمر بالبدوي الجالس على الأرض يقول له:

ـ تدفع تاخذ وصلك بيدك... ورجلك تصير بالسيارة!

ويخرج البدوي، ويكون عبود جالساً على سحارة، مستنداً إلى الجدار، فيقول له بصوت عالٍ:

ـ إذا تأخرت يا ولد تنتظر السيارة التالية، بعد أسبوع، أسبوعين.. الله أعلم.

يغيب البدوي ساعة وحين يعود يمد عبود يده بصمت، يحرك أصابعه دلالة أن يدفع له بسرعة، دون تردد أو تأخير، فإذا حاول البدوي من جديد دفع نصف الأجرة، على أن يدفع النصف الآخر في الغد، يغضب عبود، أو يتظاهر بالغضب إلى درجة أن يصرخ في وجهه، بعد أن يقترب منه:

ـ مالك سفر من عندنا، تسمعني؟ ولا انت من الناس اللي يركبون سياراتنا.

ولا يتأثر البدوي من هذا الكلام، كأنه لم يسمعه، ومع ذلك لا يزال حائراً متردداً، لكنه في النهاية يمد يده إلى صدره فيخرج صرة مربوطة بعناية، وقبل أن يشرع بفكها، وقد جلس على الأرض، يسأل:

ـ باكر نسافر؟

ويهز عبود رأسه مؤكداً، ويحرك يده طالباً منه أن يستعجل في تسليم الأجرة، لكن البدوي ما زال متأنياً هادئاً خائفاً، وهنا يتركه عبود لأن «الدوسة القوية تكسر» كما يقول في وصف شطارته. يتركه ويذهب إلى طاولته، يفتح الدرج، يخرج قطعة حديدية مستديرة تشبه قطعة النقد القديمة الممسوحة، وإن كانت أرق وأكبر، ويخرج قطعة من الورق بمساحة نصف راحة اليد، فيوقع على الورقة توقيعه الطويل المعقد وينتظر، فإذا أخرج البدوي النقود، وعدّها مرتين أو ثلاث مرات وسلّمها، فإن عبود في لحظة خاطفة يعدها، وبعض الأحيان يحزرها لأنه اختلس النظر وراقب عدها. ويدفع إلى البدوي القطعة المعدنية والورقة:

- الحديدة ترجعها للمكتب قبل ما تسافر، والورقة تسلمها للسائق.

وبعد أن يأخذ البدوي القطعة المعدنية والورقة، ويلقي عليهما نظرة طويلة، ولا يفهم منهما شيئاً البتة يضيف عبود:

- إذا ضيّعتهم ما تركب، ولا لك عندنا شيء.. تسمع؟

ويهز البدوي رأسه، ومن جديد يفك الصرة، التي ربطها قبل قليل، ويضع فيها القطعة المعدنية والورقة. وبعد أن يصرهما بحرص وعناية يسأل بطريقة جديدة:

- ومتى نسافر؟

- إذا عشنا السفر يكون باكر أو اللي عقبه.

وحين يرى الخوف في عيني البدوي يضيف:

- باكر، بعد صلاة العصر. مرّ بنا، والله كريم.

- بعد صلاة العصر؟ باكر؟

- تعال الظهر.

- والسفر متى؟

- نريد بعد كم راكب، إذا جاءوا نسافر اليوم.

ويرى الخوف يزداد في عيني البدوي الذي يحس أنه وقع ضحية، بعد أن دفع الفلوس، ولا يعرف متى يسافر، ولكي يبدد مخاوفه يسأله:

ـ إذا كان عندك خويا يريدون السفر إلى حران هاتهم وتعال.

ولكي ينهي عبود مناقشته يقول وهو خارج من الدكان:

ـ تعال الصبح ونشوف.

فإذا أبدى البدوي مزيداً من التردد والخوف يأمر له عبود بكأس من الشاي، ويبدأ يسأله عن المكان الذي جاء منه، ومن أية قبيلة هو، ولماذا يريد السفر إلى حران، ولا ينتظر إجاباته كلها، يبدأ يحدثه كيف أصبحت حران منطقة عامرة، والأشغال فيها كثيرة ويختم حديثه:

ـ وباكر إذا وصلتها، إن شاء الله، تتوفق، وما أظنك تتركها.

هذا هو النمط الغالب من مسافري «مكتب سفريات البادية». فبعد أن يجمعهم عبود واحداً واحداً، ويؤجل سفرهم يوماً بعد آخر، وقد يمتد هذا التأجيل إلى أسبوع أو عشرة أيام، متذرعاً مرة «أن السيارات انكسرت» أو «راحت تحمل» ومرة أخرى أن «الأرمني جاءته السودا وما يريد يتحرك، فإذا سافر بدون رضاه يمكن يذبح الركاب» فإذا تجمع ما يعتبره كافياً من الركاب والحمولة، ورجعت إحدى السيارتين من حران، واستراحت يوماً أو يومين، بدأ الاستعداد للسفر. إنه يوم غير عادي في عجرة، ولا يقل أهمية عن وصول قافلة من قوافل الحج. إذ يبدأ الهرج والمرج في السوق كله، من عمليات بيع سريعة، إلى السؤال عن بعض الركاب، إلى نقل المواد، وغير ذلك. فإذا تجمع المسافرون، وبدأ كل واحد منهم يحاول التقدم على الآخرين، أو أن يحتل مكاناً يعتبره أهم من الأمكنة الأخرى، وترافق ذلك مع صياح عبود وشتائمه، وتهديده أن يوقف السفر، وآكوب الذي كان يدور حول السيارة ويتفقد أجزاءها بعناية وصمت، لا بد أن تخرجه عن طوره تلك الفوضى والأخطاء التي يرتكبها عبود والركاب، فإذا استجاب الجميع لما يطلبه، بوضع الأحمال الثقيلة في أمكنة يحددها، بشكل يضمن توازن السيارة وإمكانية تفريغها في حالة التغريز، فعندئذٍ يواصل إعطاء تعليماته باختصار شديد ويشارك مشاركة فعالة في وضع الأشياء في أماكنها. أما إذا لم يستجب للتعليمات التي يصدرها، أو انشغل عبود بالقطع المعدنية التي وزعها على الركاب يجمعها مرة أخرى، تاركاً

هؤلاء يفعلون ما يشاءون، فلا بد أن يتصرف آكوب بطريقة أخرى، يقول لعبود وقد اشتعل غضباً:

ـ اتعبوا. . اتعبوا حبيبي، لكن الحمل كله لازم ينزل.

ويستدير آكوب ذاهباً إلى المقهى، فإن أدركه عبود قبل أن يصل واسترضاه فعندئذٍ يمكن أن يسافر ذلك اليوم، أما إذا وصل إلى المقهى، وجاءت الأخبار عن الفوضى التي تجري هناك، وأن عبود يرفع وينزل، والدنيا قائمة قاعدة، فعندئذٍ لا يمكن أن يرضى بسهولة، وقد يمتد غضبه يوماً أو اثنين، ولا بد أن ينزل الحمل كله، وأن يرفع من جديد حسب التعليمات التي يعطيها. وفي هذه الحالة يعتصم عبود داخل الدكان، ويكون شديد الانفعال سريع الإثارة، وقد تحصل حوادث كثيرة أيضاً، كأن يرفض تسفير أحد الركاب بحجة أنه أضاع القطعة المعدنية، أو يطلب مبالغ إضافية عن الأحمال التي يعتبرها زائدة. ومن شأن هذه المناقشات أن تطول وأن تتعقد، وقد تأخذ مجرى لا يمكن التحكم به!

إذا انتهى كل شيء وأصبحت «الفورد» القديمة جاهزة للسفر، وعلى ظهرها هذه الأحمال كلها، ولا يعرف كيف أمكن حشدها وتنظيمها، لا بد من أن يلقي آكوب نظرة أخيرة، وحين يطمئن لكل شيء يقوم بحركات غامضة. . ويبدأ. فإذا كان الوفاق بينه وبين عبود كاملاً فعندئذٍ يرافق عبود الرحلة راكباً على الجناح قاطعاً الطريق حتى المفرق، وخلال هذه المسافة يصرخ على الركاب منبهاً محذراً، كما يوزع تحيات كثيرة على كل الذين يمر بهم. وعند المفرق يترك عبود السيارة، لتبدأ رحلتها الطويلة الشاقة إلى حران.

هكذا بدأت السيارات تصل إلى حران، ومعها البضائع والبشر، فإذا وصل آكوب وتجمع حوله الكثيرون قرب المسجد، إلى جانب سوق الدواب، لا يمكن للإنسان أن يميز الرجال الذين يهبطون من السيارة. يكون الغبار الكثيف قد لفهم وغطاهم تماماً، حتى أجفانهم أثناء انفتاحها وانطباقها تبدو كما لو تنفخ في طحين أو رماد، ومع الرجال الذين يهبطون تنزل الأحمال ترافقها الصيحات والتحذيرات والأسئلة، وآكوب الذي

يشرف على كل شيء بصمت، عليه بعد ذلك واجبات أخرى كثيرة: الأشياء التي يحملها إلى دار الإمارة، أو إلى دحام وإلى آخرين كثيرين كانوا قد أوصوه عليها في سفراته الماضية، أو أرسلها أحد من عجرة، بما في ذلك الرسائل وبعض المبالغ، كل ذلك لا بد أن يصل إلى أصحابه.

هذا الكهل المتين، الذي لا يمكن لإنسان أن يحزر عمره، الصامت أغلب الوقت، إلا عندما تنتابه لعنة الغناء، فيخرج صوته من منخريه، ولا يعرف ما إذا كان غناؤه تعبيراً عن فرح أم حزن، ولا يُميز في هذا الغناء سوى كلمة واحدة تتردد باستمرار: آمان آمان.

هذا الإنسان لا أحد يعرف على وجه الدقة لماذا جاء أو من أين. قال مرة إنه من حلب، وقال مرة أن أصله من مكان أبعد بكثير. وقال ذات مرة، في إحدى لحظات النشوة والتحدي، إنه جاء من أجمل مكان في الدنيا، وإنه لا بد أن يعود إليه في يوم من الأيام.

آكوب أصبح جزءاً من حران. إذا لم يكن في حران نفسها فهو في طريقه إليها، ولا بد أن يصل بين يوم وآخر. ومثلما كانت تصل القوافل من قبل ومعها المؤن والأقمشة والرسائل، أصبحت «سفينة نوح» كما أطلق الأمير على سيارة آكوب، تصل مرتين أو ثلاث مرات في الشهر، وعليها كل شيء. الناس ينتظرونها بلهفة واهتمام، إذ إضافة إلى ما تحمله من المؤن والأقمشة والرسائل، كان آكوب يحمل معه أشياء جديدة باستمرار، وهذه الأشياء هي التي لفتت نظر الأمير وجعلت آكوب شخصاً مقرباً إليه. فبعد أن ضعفت بطارية الراديو، ولم يأت حسن رضائي بواحدة جديدة، لأنه كان مسافراً، وأصبح صوت الراديو لا يكاد يسمع إلا في الليل المتأخر، وعلى شكل حشرجة غير مفهومة، كان آكوب هو المنقذ. إذ شحن البطارية وأبدى استعداده أن يفعل ذلك كل مرة، وقال إن البطارية، حتى لو ماتت، يمكن إعادة الحياة إليها، وقد أدهش هذا الأمر الكثيرين، خاصة الأمير، ولم يصدق في البداية، لكن حين سمع صوت الراديو يهدر، أثنى على هذا الأرمني «الإبليس». أما بابور الكاز الذي كان يستعمله آكوب في إعداد طعامه، فقد كان شيئاً عجيباً في بداية الأمر، وعندما أبدى

استعداده أن يحضر إلى حران ثلاثة أو أربعة من هذه البوابير، وأن يبيعها بأسعار معقولة، فقد رغب الكثيرون في اقتنائها. ولكي يكون صادقاً قال إنه لا يستطيع أن يؤمن في سفرته اللاحقة سوى ثلاثة، وما تبقى يمكن جلبه بعد شهرين أو ثلاثة من حلب! في وقت آخر أحضر آكوب مصابيح تعمل بالبطارية الجافة. وكانت صغيرة الحجم تحمل باليد، وقد كانت نافعة جداً، خاصة للذين يسهرون ويعودون متأخرين إلى بيوتهم، بعد أن حُفرت طرقات حران كلها وتكومت الحجارة والرمال في كل مكان. أما حين أحضر آكوب ماكنة يدوية لفرم اللحم، وبدأ أبو كامل استعمالها في حران، فقد أدهشت الجميع وهم يراقبون آكوب يثبتها على دف قوي أولاً، ثم وهم يراقبون أبا كامل يضع قطع اللحم الكبيرة في ناحية، وتخرج قطعاً صغيرة من الناحية الثانية.

و«الترمس» الذي كان آكوب يشرب منه ظل سراً مستعصياً على الكثيرين، لأن أحداً لم يستطع أن يفسر الحرارة التي تنبعث منه، كما لم يشأ هو أن يتكلم عن ذلك، لأن هذا الترمس إذا عرف به الأمير فلا بد أن يطلبه أو يأخذه بشكل ما، ولأن آكوب لا يستطيع أن يستغني عنه أبداً، فقد كان يخفيه عن الجميع! كان يحتفظ به في مكان صعب الوصول إليه، وهذا ما فسر الإشاعات أن آكوب يشرب «بول إبليس»، أي إنه يشرب الخمر.

وعشرات الأشياء المتنوعة المثيرة كانت تصل أيضاً على سيارة آكوب: أمشاط العظم القوية المصقولة، المرايا، المحاقين الصغيرة، الأحذية المصنوعة من مطاط السيارات، ثم المسلات والخيوط القوية، ما تكاد هذه الأشياء تصل ويراها الناس حتى تنهال الطلبات عليها. كل واحد يريد حاجة أو أكثر، وفي حالات كثيرة لم يكن في ظن آكوب أو تخطيطه أن يبيع هذه الحاجات. فالمصباح الذي يعمل على البطارية الجافة كان يستعمله في تفقد محرك السيارة، أو حين ينزل تحتها لمراقبة بعض أجزائها، لكن ما إن يراه الناس، فيبدأوا بإشعاله وإطفائه، حتى يروق لهم، وإذا بكل واحد منهم يرغب بالحصول على مثله. وآكوب الذي يستجيب لهذه الرغبات ويهز رأسه، لم يكن قادراً على رد الكثير من الطلبات، فما

يكاد يوافق حتى يجر من وراء أذنه قلماً، وعلى كرتونة موضوعة في باب السيارة، من الداخل، يخط خطوطاً تثير الدهشة والعجب معاً. والذين كانوا يراقبون بمقدار ما يحرصون على تأكيد طلباتهم، يعجبون لهذه الخطوط الغامضة المتداخلة التي يخطها. إنهم لا يحسون أبداً أن ما يفعله آكوب هو الكتابة، إنها أقرب إلى الرسوم البدائية المضحكة. فإذا سألوه عنها يجيب بعصبية: «العسكر العصملي لا يسأل مثلكم» فإذا صمتوا وهدأ آكوب يقول بلهجة لا تكاد تفهم «حبيبي.. انت بدك حاجة أو بدك شي تاني؟» فإذا هز صاحب الحاجة رأسه أو قال إنه يريد الحاجة يضحك آكوب ويضيف: «خلي آكوب يعمل اللي في راسه!».

هكذا كانت تجري الأمور مرة بعد أخرى، وبات آكوب ضرورة لحران تزيد يوماً بعد يوم، وأصبح أصدقاؤه يتكاثرون باستمرار. فالذين جاءوا على سيارته إلى حران، وبالرغم من كل ما حصل من تأخير وشتائم، ثم التعب الذي حل بهم أثناء الطريق، خاصة وهم يفرغون السيارة من حملها أثناء التغريز، كل هذا يمكن نسيانه. الشيء الوحيد الذي يبقى عالقاً في أذهانهم ولا يمكن أن ينسوه أبداً، إن آكوب هو الذي حملهم إلى حران. لقد أصبحوا مقيمين بمعنى ما، وللمقيم قوة أو ميزة يحسها لنفسه خلافاً لأي مسافر. والذين لم يسافروا مع آكوب لا بد أن يكون قد قدم لهم خدمة من نوع ما، بحمل رسالة، ببيع حاجة من الحاجات، أو تلك المساعدات التي تعود تقديمها. فابن نفاع مثلاً كان يخشى «هذا الكافر» لكن ما كاد البابور الذي اشتراه بشكل غير مباشر يتعطل، وجاء آكوب حتى دفعه إليه بنوع من القسوة لكي يريه الحاجات الرديئة التي يحملها ويبيعها، ما كاد يحصل حتى هب آكوب إلى إصلاح البابور، فوضع له جلدة جديدة من عنده، ونفضه نفضاً جيداً، وبعد أن أشعله وتأكد منه أعاده إلى ابن نفاع، وحين حاول هذا الأخير أن يدفع له أجراً على ذلك رفض آكوب بإصرار.

❀ ❀ ❀

ومثلما كان آكوب يعمل على «الخط» ـ هكذا أصبح يسمى طريق

عجرة حران ـ كان راجي أبو عقلين. وراجي طويل، ضامر، أصلع، أو بالأحرى يشكل شعره هلالاً حول رأسه. عصبي المزاج كثير الشتائم، وفيه الكثير من الصفات المناقضة لآكوب، لكنه مع ذلك شديد الطيبة سريع النسيان، خاصة نسيان الإساءة. كان إذا وصل إلى حران يتوجه مباشرة إلى المقهى، تاركاً «المعاون» يشرف على تفريغ السيارة «لأن دق طاولة مع أبو أسعد يُنسي الإنسان أنه في هذي الزفت اللي اسمها حران». فإذا وجد أبا أسعد مشغولاً، أو غير راغب في اللعب، فإنه يجلس في المقهى، بعد أن يعمر نفس أركيله، ويشرف على ذلك مباشرة، ليبدأ الشتائم والتعريض، وخلال ساعة يكون قد تعارك مع الجميع، وأسمع الكثيرين كلمات قاسية دون مبرر. يظل هكذا لا يصمت ولا يهدأ إلى أن يوافق أبو أسعد على اللعب معه. وما تكاد «المباراة» التي يتخللها الكثير من التحدي والصراخ وضرب الأحجار بقوة، إضافة إلى رمي الزهر بطريقة تؤدي إلى خروجها من الطاولة، وحرب الأعصاب التي يلجأ إليها راجي لتجعل اللعب ساخناً مستفزاً، ما تكاد المباراة تبدأ وتتطور حتى يتجمع الكثيرون، ومع المراقبة تبدأ التعليقات والهمسات.

راجي عالم خاص، رجل لا يمكن أن يتكرر. فما يكاد يضم الزهر بين أصبعيه، بعد أن يكون قد خضه كثيراً، حتى يتطلع في وجوه الذين حوله، أو يرفع رأسه وكأنه يبحث عن أحد، وحين تلتقي عيناه بعيني ذلك الشخص الذي يفترض أنه صاحب حظ يقول بصوت عالٍ: «العيونك!». فإذا جاء الزهر مواتياً أو كما يريد يلتفت إلى من تطلع إليه ويقول له وهو يهز رأسه: «حظي وحظك يفلقان الصخر.. تعال وابق قريباً مني». فإذا اقتنع من وُجّه إليه الكلام واقترب، أو راقب اللعبة وكأنه أصبح شريكاً فيها، فالربح دائماً لراجي والخسارة لذلك المنكود، فلا بد أن يوجه له راجي بين رمية وأخرى نظرة، وبعض الأحيان كلمة. كان إذا جاء الزهر قوياً يقول: «تسلم إيدك يا راجي، المسألة ما هي حظ. لا. رمية الزهر هي الأساس، وهذه رمية المعلم راجي» أما إذا جاء الزهر ضعيفاً أو على غير ما يشتهي يصمت قليلاً. ثم يلتفت بكليته إلى ذلك الشخص الذي

راهن عليه وبشكل مفاجئ يصرخ: «تفضل، شوف حظك» ويصمت قليلاً ثم يضيف فتخرج الكلمات من بين أسنانه «وجه يقطع الرزق»، ويغير صوته مرة أخرى حتى يتحول إلى همس مسموع مشيراً إلى ذلك الشخص: «لا تُحول عينك فينا يا أخ، لفّ وجهك والأحسن تفرقنا». كان الكثيرون لا يفهمون الكلمات التي يقولها، لكنهم يقدرون معناها. وأبو أسعد الذي يحرص على شيئين معاً، وبنفس المقدار: أن يربح الدق، وأن لا يخسر الزبائن، كان يحاول كل شيء من أجل أن يسيطر على اللعب، أن يبقيه ضمن حدود معقولة، ففي لحظة من اللحظات يتصنع الغضب، ويصرخ في وجه راجي

- اسمع. . الناس ما لهم علاقة. . أنا وأنت وهذه.

مشيراً أولاً إلى نفسه، ثم إلى راجي، وأخيراً إلى الطاولة التي بينهما. ويهز راجي رأسه دلالة عدم الاقتناع ويرتفع صوته.

- اسمع يا أبو أسعد، لا تحطني وسطاني وتقول لي طاولة.

ويلتفت إلى الناس الذين يتابعون اللعب:

- كلهم جماعتك، كلهم مع أبو أسعد، وراجي كلب ابن كلب، خليه ينغلب مائة مرة.

بعد مناقشة عصبية، يؤكد خلالها أبو أسعد أن اللعب نزيه، وأن لا أحد تدخل فيه، وما يعتبره راجي تحيزاً مجرد مزاعم لإخفاء ضعفه وإنهاء اللعب قبل أن يُغلب، بعد هذه المناقشة يوافق راجي على الاستمرار، شريطة أن لا يراقبه الآخرون، أن لا يتابعوا كل لعبة وكل رمية زهر، فيعتبر أبو أسعد أن راجي هو الذي لفت نظر الآخرين وجرهم إلى المراقبة من خلال عربدته وصياحه. لذلك فإن الطريقة العملية لصرف الناس عن المتابعة والمراقبة هي أن يكف الإثنان عن كل تعليق، أن يلعبا بهدوء، وسوف يكتشف بعد فترة قصيرة أن لا أحد يتابعه أو يراقبه. ويوافق أخيراً ويعاودان اللعب، لكن ما يكاد يتحسن مركز راجي قليلاً أو يسوء حتى تبدأ المشكلة من جديد، لأنه لا يستطيع أن يستمتع بالغلب منفرداً، ولا يجد اللعب جميلاً إلى درجة الروعة إذا لم يشاركه الآخرون الاعتراف. أما

الخسارة فلا بد أن تكون نتيجة خطأ أو أن «الزهر ميت، عظم كلب» ويؤكد أن عيناً تتابع كل حركة، وتنفث أنفاسها مع كل رمية زهر.

ـ المرات التي غُلب فيها راجي لا حصر لها. لكنه ينساها بسرعة، يتذكر فقط المرات التي فاز فيها. يتذكر من كان موجوداً وكم كانت النتيجة. ويتذكر أيضاً الوقت والجو وما أعقب اللعب.

ومثلما كان آكوب مهماً لحران كان راجي كذلك، لكن كل بطريقته. فراجي سريع التقلب، كريم، يحب التدخل في كل قضية من أجد تقديم المساعدة أو النصح. حتى لو لم يطلب منه، ولا يتردد عن حمل بعض المسافرين الفقراء مجاناً، فإذا وصل ذلك إلى علم عبود فلا بد أن تقع مشادة بين الاثنين، لكن ينتهي كل شيء حين يوافق راجي على أن يُخصم من أجرة النقلة الجديدة الكومسيون الذي يستحقه عبود عن الراكب. وعبود الذي يوافق بسرعة، لا يريد أن يغضب راجي إلى درجة تخرجه عن طوره، لأن هذا إذا حصل لا يمكن أن ينتهي على خير «راجي أبو عقلين، مجنون، يده والضرب، يضرب بأي شيء، بمناويل السيارة، بالمفك الكبير، بأي شيء يضرب.. ويعوّر!» ولذلك فإن جميع الذين يعرفونه لا يتمادون إلى درجة كبيرة في إثارته أو استفزازه.

لم يكن آكوب وراجي يلتقيان في مكان واحد إلا لفترات قصيرة، على الطريق غالب الأحيان، فواحد منهما في حران والآخر في عجرة. واحد في هذا الاتجاه من الطريق والآخر في الاتجاه المعاكس. فإذا صدف والتقيا في المابة وعشرة أو المابة وستين، أو في غيرهما من الأماكن، وبعد أن يتبادلا أسئلة عادية وأخبار الطريق والسوق لا يجدان الكثير ليقوله الواحد للآخر، فإذا افترقا فإن لدى راجي دائماً ما يقوله عن آكوب: «طوله طول الشبر، طول الفتر، الدركسيون أطول منه. مساكين الركاب، يمكن في كل لحظة يقتلهم، لأنه قصير ولا يرى الطريق. قصير وأعمى، وإذا عتّمت العين.. خطوتين ما يشوف قدامه. مساكين الركاب».

هكذا يبدأ راجي التعريض، فإذا أبدى المعاون اهتماماً بما يقول، أو أصغى بعيون مفتوحة فإن راجي يتابع: «صحيح إن الطول والنظر من الله،

هذا الشيء معروف، الله سبحانه وتعالى خلق واحد طويل وخلق الثاني قصير، لكن المصيبة أنه لا يعرف السواقة. سواقته شيش بيش، وعامل نفسه أبو السواقة ورب المكانيك.. هذه هي المصيبة» وحين ينظر إليه المعاون بطرف عينيه يدرك راجي أن معنى هذه النظرة عدم الثقة أو عدم الموافقة فينفعل ويهدر صوته:

ـ لا تحول عينيك... اسأله هو نفسه كم مرة غرّز السفرة قبل الماضية. اسأل جماعة المية وستين كم مرة سحبه التراكتور؟ لو كان سواق مثل الخلق والأوادم لبان وظهر لكن الأعور بين العميان ملك.

وحين يجد أن كلامه غير مقنع يتحول إلى جانب آخر:

ـ اتركنا من هذا التشوتشوك اللي ما يبول على يد مجروح. للرغيف السخن ما يضحك، يأكل وحده، يشرب وحده، وكلام لا يتكلم، كله شغل.. حتى شغله زعبرة. طول النهار حامل العدة ومبطوح تحت السيارة يفك ويشد، كل هذا زعبرة. بده يضحك على الناس، لكنه مكشوف مثل قفا السعدان.

إذا وصل هذا الكلام أو بعضه إلى آكوب يبتسم ابتسامة صغيرة ولا يتكلم. إنه شديد الثقة بنفسه وبإمكانياته. وحتى الأشياء التي لا يعرفها يقول إنه لا يعرفها، ومع ذلك يحاول، وكثيراً ما انتهت محاولاته إلى النجاح. فالمدحلة التي توقفت عند الكيلو مائة وستين، وفشل حتى المهندس الأميركي في إصلاحها، وقال إنها تحتاج إلى قطعة غيار، وما لم تتأمن هذه القطعة لا يمكن أن تتحرك من أرضها. ظل آكوب يحاول ويعالج إلى أن أصلحها. وكذلك ماتور الماء في الطريق أصلحه بعد أن رفع الجميع أيديهم وأعلنوا عجزهم، ونفس الكلام يقال عن التراكتور.

أما إذا بالغ راجي في الحديث عن آكوب، خاصة ما يتعلق ببخله، وأنه يأكل ويشرب وحده، فكان آكوب يتأثر أشد التأثر، لكنه يخفي ذلك، يكتفي بأن يقول: «بسيطة.. بكرة نشوف» ولم يكن أبداً مستعجلاً. والناس الذين يراقبون هذه الحرب، دون أن يجدوا لها مبرراً معقولاً أو سبباً، كانوا ينظرون إلى آكوب بتعاطف، ويعتبرون راجي متجنياً قاسياً.

ظلت الأمور هكذا فترة طويلة من الزمن. الطريق يتكامل تعبيده شهراً بعد آخر، والركاب الذين انتقلوا عن إحدى السيارتين بدأوا يستقرون في حران بعد أن وجدوا عملاً. الأشياء الجديدة لا تزال تصل مع آكوب، وكذلك الرسائل والخدمات الأخرى. وراجي في لحظات معينة يتذكر آكوب فيثير شجونه ويبدأ. وآكوب يسمع ويصمت.

كان يمكن لهذه الحرب الغامضة أن تنتهي بشكل عنيف ذات يوم، حين تستبد بآكوب ثورة من ثوراته التي تغيب فترة لكي تنفجر على حين فجأة فتدمر وتحرق. وكان يمكن لهذه الحرب أن تتراجع وتهدأ حتى تخمد من تلقاء ذاتها. كان يمكن أن يحدث مثل هذا، لكن الأمور حصلت بشكل آخر تماماً.

فبعد أن طالت غيبة راجي عن عجرة أكثر من أية سفرة سابقة، وكان سوقها ساخناً، بحيث يمكن تحميل سيارة كل يوم، عكس سوق حران الذي كان ميتاً تماماً، وكان الاتفاق مع عبود أن تصل السيارة وترجع بأقصى سرعة ممكنة، في هذه السفرة التقى آكوب راجي عند الكيلو مائة وستين، الأول في طريقه إلى عجرة والثاني ذاهب إلى حران، وبعد أن حمّل آكوب وعاد مرة أخرى، وجد راجي في الكيلو مائة وستين لم يتحرك: السيارة مكسورة.

كان يمكن لآكوب أن يتوقف قليلاً، أن يتظاهر بتقديم المساعدة ثم يمضي، وكان يمكن أن يسخر وهو يرى راجي وقد تحول إلى قطعة من السواد نتيجة الدهون والزيوت التي غرق فيها، بعد أن استمرت محاولاته في إصلاح السيارة بضعة أيام وانتهت إلى الفشل، لكن ما كاد يرى ذلك حتى اندفع مثل ثور، اندفع بتصميم لا يعرف الهدوء أو التردد، وراجي الذي كان يدور مثل نحلة، يعرض على آكوب كل ما فعله، ويضع احتمالات معينة، فيسمع آكوب ولا يسمع، ينظر إلى راجي ولا يراه، وبعد أن يغمض عينيه فلا تبينان إلا كخطين أسودين، يطلب أن يناوله المفتاح رقم ستة، أن يناوله المفتاح خمسة، وبعد أن يحاول ويحاول يطلب مفتاحاً آخر، ثم مفتاحاً غيره، وبعد أن يفك وينفخ وينظف يطلب من راجي أن

يشغّل المحرك، وبعد عدة محاولات، خلال ساعة أو أكثر قليلاً، يقول آكوب بثقة:

ـ خلص.. كل شيء تمام، شغّل وامش وأنا وراءك.

وهكذا بعد أن قضت السيارة عدة أيام في الكيلو مائة وستين سارت بقوة حصان، ورغم التعب الذي حل بالجميع فإن راجي كان أكثر الناس رغبة في مواصلة المسير، وخلال بضع ساعات وصلت السيارتان، لأول مرة، معاً إلى حران.

هذه الواقعة التي جرحت راجي جرحاً بالغاً لم تغيّر في سلوكه تجاه آكوب إلا تغييراً بسيطاً، إذ لم يتوقف عن التعريض به كلما وجد مناسبة لذلك، وآكوب يسمع ويصمت، فلا تحدث عن الكيلو مائة وستين ولا أشار إليه مجرد إشارة، كل ما قاله «إن من وجد صديقاً بحاجة إلى مساعدة ولا يساعده يكون مثل العقرب، فالعقرب يموت عندما يلدغ نفسه».

لكن رغم أن راجي لم يغير موقفه من آكوب، ولم يتوقف عن التعريض والشتم، فإن شيئاً جديداً قد حصل: أصبح يثور إذا سمع أحداً يشتم آكوب أو يتكلم ضده كلمة واحدة. من حقه وحده أن يفعل ذلك، أما إذا أبدى إنسان ملاحظة، مجرد ملاحظة، على آكوب، حتى لو كان يردد ما قاله راجي، فإنه يصبح عدواً «من أنت يا أجرب، إذا حكى راجي، راجي معلم وآكوب معلم. وأنت، من أنت؟» فإذا تجاسر أحد وقال إن آكوب بخيل أو يشرب بول إبليس فكان راجي يصرخ «تفضلوا، حاتم الطائي يتكلم... أحمد بن حنبل يفتي... تفضلوا» ويلتفت إلى الذي تكلم: «من أنت يا من تأكله البراغيث ويأكل القمل، أنت تساوي قرادة، فإذا لم تترك الناس الأشراف أساوي عظامك بأرض الطريق».

هكذا أصبح راجي، ويوماً بعد يوم لا يعرف الناس كيف يتعاملون معه. هل يصدقون شتائمه عن آكوب؟ هل يوافقونه؟ هل يختلفون معه؟ إن كل شيء يمكن أن «يثير هذا المجنون ويجعله نار الله الكبرى». إذا هزّ أحد رأسه موافقاً على ما يقوله رد هازئاً: «أي والله.. صار البرغوث حصاناً!» أما إذا أبدى أحد دهشته وهو يسمع الشتائم ضد آكوب فإن الصفعة تأتيه

سريعة: «ها... فتحت حلقك ورخيت بيضك؟ إنك مثل القط يفرح بعمى أهله!» فإذا خالفه أحد في الشتائم التي يكيلها إلى آكوب يصرخ: «أترك الكبار، لأن الصغار شغلتهم الوحيدة أن يتفرجوا».

ومثلما شغلت الهموم الناس في الفترات السابقة، وصرفتهم عن الكثير من الأحداث حولهم، فإن راجي وآكوب يمران في الذاكرة أو يغيبان بقدر ما تصل إلى الأسماع الشتائم والأصداء التي تصدر عن راجي، أو بقدر ما تحصل من الوقائع والأحداث. ففي أحد الأيام، وقد حصل هذا في يوم ماطر، يرون أن راجي يدخل بسيارته إلى حران، وقد ربطت إلى سيارة آكوب بحبل قوي. لم يكن أحد يتصور أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يحدث. فراجي الذي كان يباهي بسيارته التي «تعادل عشر سيارات مثل سيارة آكوب القرقيعة» والذي كان يزيّنها بالخرز والأضواء، وكانت تبدو قوية لامعة، وأكبر قليلاً من سيارة آكوب، لم يكن يتصور أن تتحول إلى جثة وتجر هكذا. قال ابن نفاع لما رأى السيارتين، الواحدة تقطر الأخرى، قال وهو يضحك

- الحجر اللي ما يعجبك يدميك.

وبعد ان هز راسه عدة مرات أضاف ولم تفارق الضحكة فمه:

- ومثل ما الحمار يقطر الأباعر ويجرها، وإن كانت أكبر منه، فاليوم شفنا القطاية تشيل دبشاية!

وقد تحدث أهل حران عن ذلك طويلاً، وكادت تقع أكثر من معركة بين راجي والآخرين، لأنهم فقط تجرأوا على أن ينظروا ويضحكوا! أما حين وقفت السيارتان عند المسجد، وبعد أن أنزلت الأحمال وغادر الركاب، ولم يبق إلا عدد محدود من الرجال، فقد قال آكوب وهو ينظر إلى راجي بحيرة:

- اسمع اسطة راجي، انت صاحب السيارة، اما ترجع معي الى عجرة وتتفاهم مع سامي او...

وتوقف قليلا، ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يخفض وجهه إلى الارض، وأضاف:

ـ أو تحط أيدي بيدك، ويمكن الله. . .

ودون تردد قال راجي:

ـ لا يا أبو الشباب، يا معلم آكوب، إذا انت موجود لا سامي ولا غيره.

ضحك آكوب بصوت مسموع ورفع إصبعه في وجه راجي:

ـ أنا موجود، آكوب مستعد. . بس

ـ بس شو؟

ـ كَلا. . كَلا ما في، گتي گالمدي ما في. . موافق؟

ولكي يتغلب راجي على الحرج قال وهو ينحني على آكوب ويطوق رقبته

ـ ولا يهمك، موافق.

الذين تابعوا الرجلين وهما يشتغلان ذكروا أن الأمور كادت تصل بينهما إلى درجة الخصومة، وكاد آكوب، أكثر من مرة، أن ينفض يده ويترك، لكن في اللحظة التالية يتراجع ويستمر في العمل. وفي إحدى المرات، وبعد أن بدأ الضيق واضحاً على وجهه، وكأنه أسقط بيده وبدا عاجزاً، قال راجي بصوت عالٍ أمام ثلاثة أو أربعة من الرجال كانوا يراقبون:

ـ اعط الخباز خبزك ولو سرق نصفه.

وطبطب على كتف آكوب بنوع من السخرية وتابع:

ـ معلم آكوب. . هذي الشغلة أكبر منك. . .

والتفت مرة أخرى نحو الاخرين وقال:

ـ ظبطت مع الافندي مرة تصور نفسه انه صار أسطه.

وضحك بصوت عال ثم تابع:

ـ كانت صدفة يا أسطة.

وآكوب الذي سمع، والذي لم يفهم أكثر ما قاله راجي، استمر في المحاولة واستمر العمل. رغم أن راجي بعد انقضاء ساعات، وبدا له أن

المحاولة دون جدوى، قرر أن يذهب إلى القهوة، قال لآكوب بسخرية ومرارة:

ـ معلم آكوب.. رجّع كل شيء الى مكانه، وتعال معي لأكسر رأسك بدق طاولة.

قال آكوب:

ـ الله معك حبيبي، روح.. بسيطة.

ظل آكوب واستمرت المحاولة، وظل راجي يتسقط الأخبار بين دق وآخر، ومع كل خبر جديد، مع كل دق جديد، تتوالى التعليقات، فيضحك لها الذين يسمعون لحظة ويحزنون في اللحظة التالية. فما كاد راجي يكسب الدق الأول حتى التفت الى كل الذين كانوا حوله وصرخ:

ـ يا جماعة... قولوا لآكوب أول رأس انكسر، ولازم يحضر راسه.

أما حين وصل مناور الخضيري وقال لراجي أن آكوب طلّع مصارين الحنتور وفسّخ كل شيء فيه فقد رد:

ـ والله لأطلع مصارينه، والله لأشنقه بمصران كلب.

وحين غلب راجي طبق الطاولة بقوة وصاح وهو يضرب على رأسه:

ـ «إذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً... وكم أهلكنا قبلهم من القرى!» وآكوب مفسد في حران، وقبله أو بعده الفاسق أبو أسعد الحلواني.

وعلى ضوء اللكس بدأ شوط طاولة ثانٍ ثم ثالث. وعلى ضوء المصباح اليدوي أول الأمر، ثم على ضوء اللمبة الكهربائية التي ثبتها آكوب في مكان مناسب من السيارة، قرب الماكنة، استمر العمل واستمرت المحاولة، وما كادت صلاة العشاء تنتهي حتى انتهى آكوب، فشغّل السيارة وجاء بها إلى مقهى أبو أسعد الحلواني. لقد أحس راجي بقلبه يخفق وهو يسمع هدير سيارة يقترب، وبشكل عصبي أفسد الدق، رغم أنه كان متفوقاً، ثم هبّ يستطلع الصوت. أما حين رأى سيارته تقترب، وقد عرفها من الأضواء الصغيرة الملونة على جنباتها، فقد اندفع لا شعورياً بقوة حصان. قال الذين رأوا الرجلين على ضوء السيارة يلتقيان، قالوا إنهم رأوا

دمعات تنحدر من عيني راجي، ورأوه ينحني كثيراً ويطوق آكوب ويدفن رأسه في صدره. وآكوب الذي جلس في المقهى وشرب كوبين من الشاي وراقب جزءاً من دق جديد بين راجي وأبو أسعد، ظل صامتاً. لم تصدر عنه إلا كلمات قليلة، كانت، في الغالب، رداً على أسئلة تتعلق بالصحة والأحوال. كان يرد باختصار شديد مع ابتسامة، وقبل أن ينتهي الدق قال إنه متعب ويريد أن يذهب لينام.

ومرة أخرى، بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة، غرقت حران في همومها، وتساءل الناس أية أحداث ستأتي مع انتهاء تعبيد الطريق، أية هموم جديدة وأية أفراح، خاصة وأن كل يوم يحمل معه خبراً أو توقعاً جديداً، وإن كانت أكثر الأخبار وأكثر التوقعات غيرت طريقها في السنين الأخيرة، فبدلاً من أن تأتي من جهة عجرة، عن طريق القوافل، أصبحت تأتي عن طريق البحر ومن أماكن ومدن لم يسمع بها أحد من قبل.

الآن والطريق يوشك على الانتهاء بدأت السيارتان تتباريان في سرعة قطع المسافة بين عجرة وحران. إذ بدل الثلاثين ساعة أو اليومين أصبحت السيارة تقوم صباحاً من عجرة وقبل أن يحل العصر تكون قد وصلت حران وأفرغت حمولتها. كما أصبحت السيارتان في هذه المرحلة تحملان المواد أكثر مما تحملان البشر. حتى عبود الذي كان يجد متعة في توزيع تلك القطع المعدنية على الركاب، وفي نقش ذلك التوقيع الذي كان يثير العجب لتعقيده، ويؤكد الكثيرون أن لا توقيع يشبه الآخر، كفّ في هذه الفترة عن توزيع القطع المعدنية، لأن الصبي الذي يعمل عنده جاءه يوماً بعشر قطع معدنية مرمية بالقرب من دكان سامي، الميكانيكي الوحيد في عجرة. وحين قارن عبود تلك القطع بالتي كانت عنده، بعد أن مسحها بالشوالات القريبة منه، تبين إنها متشابهة تماماً، ويمكن أن تختلط على الكثيرين، لذلك قرر أن يتوقف عن توزيعها. أما التوقيع فقد استمر لكن مع بعض التعديلات. فبعد أن أصبح «مكتب سفريات البادية» أكثر اتساعاً، إذ ضمّ إليه عبود الأرض الخلفية وحوّلها إلى مستودع، وكان من السهل على السيارة أن تقف في باب المستودع لكي تحمّل، قرر أن يخطو خطوة كبيرة

للأمام لتناسب المرحلة الجديدة، فكان أن أوصى على دفاتر فواتير وعلى ختم، وقد صنعت له في الشام، وبدأ استعمالها، رغم الخطأ في إسم البلدة، إذ كتب الخطاط بدل «عجرة» «غنجرة»، فكان عبود مضطراً لإصلاح كل فاتورة. كان يفعل ذلك أثناء فراغه ومن أجل التسلية. أصبحت الفاتورة والختم هواية جديدة، إذ لا بد من كتابة اسم المسافر والمبلغ، أما ما يقابل ساعة السفر ورقم المقعد المثبتين على الفاتورة، فكان عبود يضع خطاً مائلاً وهو يضحك ساخراً ويقول لنفسه: «ما بقي إلا أن نكتب اسم الأم ومتى يصل المسافر إلى حران!».

الفواتير لا بد أن تذيل بالتوقيع، ومع التوقيع الختم الدائري. كان عبود يقرّب الختم من حلقه ويزفر زفرتين أو ثلاثاً فإذا تأكد أن الرطوبة أصبحت كافية يطجّ الختم. ورغم أن المسافرين في كل سيارة أصبحوا أقل من قبل، ولا يمكن أن يقع خطأ في عددهم، كما لا يمكن أن يتهرب أحد من دفع الأجرة، إلا أن عبود كان يصرّ في اللحظة الأخيرة على أن يرى الإيصالات. كان يقول بلهجة حازمة: بعد أن يصعد الركاب إلى السيارة

ـ يا إخوان... كل واحد فاتورته بيده.

فإذا تأخر أحد أو نسي أين وضع تلك الوريقة كان عبود يصرخ:

ـ لا تؤخرونا وتؤخروا أرواحكم.. كل واحد فاتورته بيده.

خلال الشهر الأول، بعد انتهاء تعبيد الطرق، سارت الأمور سيراً مريحاً بالنسبة لعبود أولاً، وبالنسبة للسيارتين وآكوب وراجي بعد ذلك. فعبود الذي قرر أن يذهب إلى حران لكي يفتتح هناك مكتباً رسمياً، أجّل سفره مرة بعد أخرى، لأن قافلة الحج كانت على وشك العودة، ولاعتقاده أنه يستطيع إقناع سائق أو اثنين من سواق القافلة بالعودة إلى عجرة والعمل على خط عجرة ـ حران، خاصة وإن السيارتين لم تعد تكفيان، وأصبحت سيارة آكوب تتعطل مرة بعد أخرى، رغم الجهود الكبيرة التي يبذلها في الصيانة.

وفي هذه الفترة أيضاً ساد نوع من السلام بين آكوب وراجي، بل وأصبحا صديقين. أصبحا يقضيان وقتاً أطول في مقهى المائة وعشرة، ويتبادلان، بهمس، الكثير من الأخبار والهموم. أما حين يطلب أحد الركاب الإسراع في مواصلة الرحلة فكان يتكفل به راجي، سواء أكان ذلك المسافر على سيارته أو على سيارة آكوب. كان يصرخ ويهدد بإصبعه:

ـ الله يلعن أبو هذا الزمان، زمان عرص وابن ستين كلب.

وحين يفتح المسافر فمه دهشة، فلا يعرف إن كان الكلام موجهاً إليه أم إلى غيره، وأي معنى يعني، كان راجي يضيف:

ـ الواحد منكم كان يقضي أسبوع أو أسبوعين بين عجرة وحران... هذا إذا وصل!

وتتغير لهجته تماماً:

ـ إشرب شاي على حسابي، يا ولد، أو فرّك أصابع رجليك.. وخل الناس تشرب شايها على رواق.

فإذا أبدى المسافر اعتراضاً على الكلام أو على التأخير كان الغضب براجي يبلغ حده الأقصى:

ـ اسمع. . كل كلمة، كل فلسفة تؤخرك ساعة، وإذا أحد زادها والله ما ينام إلا في الماية وعشرة.

ولأن الكثيرين يعرفونه أو سمعوا به، أو جاء من يقول لهم أي نوع من الرجال هو، فقد كانت هذه المناقشات تنتهي عادة بدعابة أو قصة، وغالباً ما يتولى الغانم، صاحب مقهى المائة وعشرة، روايتها.

وفي المائة وعشرة بدأت شخصية آكوب تتضح أكثر من قبل، فأصبح يشاهد في المقهى يغني، وكان يشارك الآخرين طعامهم ويشرب الشاي أيضاً. أما القهوة المرّة التي يفخر الغانم أنه أحسن من يصنعها في المنطقة كلها فلم يكن آكوب يقربها أو يستسيغها. كان يقول له الغانم بأسف حقيقي، حين يمتنع عن شرب القهوة:

ـ لا عيب فيك إلا صوتك، وهذا الصوت لا تداويه إلا غزالة: المرة والمرّة.

وحين يهز آكوب رأسه ساخراً يقول راجي:

ـ الله حارمه وربنا لا يكملها دائماً.

وفي هذه الفترة عرف أن آكوب جاء من حلب، لكنه ولد وراء الجبال، إلى جانب بحيرة لم يخلق الرب أجمل منها، هكذا كان يقول. وفي تلك الفترة القاسية، ومع التبدلات الكبرى التي حصلت في أوائل القرن، إثر المذابح التي حلت بالأرمن، جاءت به جدته بعد أن فقد أباه وأمه وأكثر أفراد عائلته في تلك المذابح. جاءت به إلى حلب وفيها عاش. وأن هذه السيارة حصيلة عمر بأكمله، ورغم أنه تقدم في العمر ـ ولم يعترف بعمره أبداً ـ إلا أنه سيرجع خلال فترة قريبة، سنتين أو ثلاث سنوات إلى حلب، وبعد أن يتزوج سيذهب هو وزوجته إلى تلك البحيرة، وسيعيشان هناك، لأنه يريد لأولاده كلهم أن يولدوا على تلك الأرض. أما إذا تقدم به العمر فسوف يتفرغ لنظم الشعر!

كان آكوب يتوقع أنه خلال سنة واحدة، إذا استمر العمل كما هو

الآن، وبعد أن يبيع «القرقيعة» ويضيف ثمنها إلى ما جمعه، أن يشتري سيارة أخرى، سيارة أحدث. ولن تمر بعد ذلك سنة واحدة، وعلى أبعد تقدير سنتان إلا ويقول لحران وللخط كله: گولا . . . گولا ويقفل عائداً، أولاً إلى حلب ثم بعد ذلك إلى أرمينياً.

هكذا كان يفكر ويحلم ويخطط، فإذا مرت هذه الأفكار برأسه، ورآها واضحة جلية كاملة تنبسط ملامحه ويشرق وجهه، فيضحك بصوت عالٍ بعض الأحيان. كان وجهه كله يضحك فتبين في مؤخرة فمه أسنان فضية وعندها لا يستطيع الإنسان أن يقدر عمره، إذ يبدو فتياً وقوياً، ويبدو في نفس الوقت وكأنه ينزف آخر ما تبقى فيه من شباب.

ولئلا يفوت الوقت وتأتي الظلمة، ولكي لا يعترف ولا يبوح بأسرار يريد أن يستمر محتفظاً بها لنفسه، كان يقول لراجي:

ـ أنتم عرب، جماعة ألف ليلة وليلة. أنا أرمن، ما عندي إلا ثلاثمائة وخمسة وستين ليلة ولازم أخلص كل الشغل!

وبقوة حصان ينهض. كان إذا مشى يباعد رجليه قليلاً، وربما كانت الساقان مقوستين، أو أن ثقل الجسم القوي المكتنز يضغط على الساقين فيجعل مشيته أشبه بالبطة. كانت هذه المشية بالذات تثير راجي وتضحكه، كما لو أن إنساناً يدغدغه، فما أن يبتعد آكوب بضع خطوات، وتبدو مشيته من هذه المسافة، وقد أخذت هذا النسق، حتى يصرخ:

ـ آكوب . . . آكوب . .

فإذا وقف آكوب يتابع راجي بنغم:

ـ مشية الغزال مشية حبيبي.

فيرفع آكوب أصبعه مهدداً ويتابع محاولاً أن يعدل هذه المشية فلا يستطيع، وحين يقفز بخفة وقوة إلى اليسار يصله صوت راجي:

ـ ونطة الحجل نطة حبيبي.

ولا بد أن يتأخر راجي ساعة أو أكثر لأن الغانم خمّر دلة قهوة جديدة، «وإذا راجي ما ذاقها عمرها ما كانت» هكذا قال راجي مرة في تبرير تأخيره، ثم أصبح الغانم يردد هذا القول من أجل استبقاء راجي ساعة

أخرى «لأنه إذا رحت أنت، وراح آكوب ما أشوف الطير الطاير إلى أن يأتي واحد منكم».

❀ ❀ ❀

بعد شهرين وبضعة أيام من انتهاء طريق عجرة ـ حران، وبالإضافة إلى سيارات الشركة كانت سيارتا آكوب وراجي تطاردان على هذا الطريق. وبعد أن مرت قافلة الحج، وأجرى عبود مفاوضات طويلة وشاقة، لم تتبلور بشكل واضح، إذ ظلت مجرد وعود، قرر عبود أن يسافر إلى حران وأن يغامر بفتح مكتب هناك. ولأنه كان يخشى السفر مع راجي، لأسباب لا حصر لها، فقد جعل سفره يبدو مفاجئاً، وكأن الفكرة انبثقت فجأة أو عفو اللحظة. فما كاد ذلك «الحكيم» الذي كان يرافق قافلة الحج يقرر التوقف في عجرة، تاركاً لمساعده أن يتولى طبابة القافلة ومرافقتها، وبعد أن قضى بضعة أيام، واستكمل المعلومات حول فرص العمل، قرر أن يسافر إلى حران، ولذلك ما كاد يدفع الأجرة ويأخذ الفاتورة من عبود ويتجاذب معه أطراف الحديث، وقد اشترط أن يركب إلى جانب السائق، ما إن حصل هذا حتى قرر عبود أن يسافر. وهكذا وافق الطبيب على تأخير سفره يوماً آخر «لأن الأرمني يخاف الله ويسوق بطريقة رحمانية، عكس هذا المجنون اللي تشوفه يركض ويصرخ وما ينعرف إذا كان يصل حران أو لا يصلها!» وهكذا سافر الحكيم صبحي المحملجي إلى حران يرافقه عبود.

في الكيلو مائة وعشرة التقت السيارتان، أو بالأحرى كانت هناك سيارة راجي قبل أن تصل سيارة آكوب. وما كاد راجي يرى عبود حتى فوجئ تماماً. قال للغانم وهو يشير إلى عبود:

ـ هذا هو عبود أبو الحدايد اللي سولف لك عنه البدوان.

حاول عبود أن يبتسم، أن يتغلب على الحرج، وقد واجه هذه العيون كلها تنظر إليه دفعة واحدة. تابع راجي:

ـ خذ بالك يا عبود، حران ما بها حديد وقرطاس، بها كلمة.

ـ باكر يصير!

هكذا رد عبود وهو يضحك بصوت عالٍ كطريقة للدفاع. قال الغانم موجهاً الكلام إلى عبود ليخلق جوّاً جديداً:

ـ كل من مرّ إلى حران ذكرك بالخير.

ولكي يبدد أية شكوك قد تساور عبود أضاف:

ـ كل واحد يقول: لولا سيارات عبود ما وصلنا إلى حران.

بعد ذلك اختلط الناس واختلطت الأحاديث بعضها ببعض. وبدا الحكيم صبحي المحملجي، ببياض بشرته المشربة بحمرة، ثم بملابسه والنظارات التي يضعها على عينيه، شخصاً من عالم آخر. فطريق حران الذي ظل يستقبل أعداداً تتزايد يوماً بعد يوم من سنين، لم يشهد شخصاً بهذا الشكل. حتى المعلمان اللذان مرا قبل ثلاثة أسابيع، لم يكونا بهذه الأناقة والنظافة والصحة، أما المهندسون الأميركيون وغير الأميركيين الذين مروا من هنا، واستراحوا في هذا المقهى، فقد كانت أشكالهم وتصرفاتهم أقرب إلى العمال، بل إن كثيرين منهم كانوا يأكلون بأيديهم. قال راجي وهو يميل على آكوب لكي يستفسر عن هذا الأفندي المتأنق:

ـ هذا الأفندي.. قولك يصل حران أو يذوب على الطريق؟

ضحك آكوب ولم يجب. تابع راجي:

ـ ابن الحرام عبود... مثل المنشار ياكل على الطالع وعلى النازل، أخذ الأجرة وركبه إلى جانبه!

والتفت إلى عبود، وسأل بطريقة تنم عن البراءة:

ـ ها أبو نجم... إذا كنت قاصد حران لمن تركتنا؟

ـ كلها كم يوم وارجع.

توقف عبود لحظة ثم أضاف:

ـ وفيكم البركة... والصبي هناك وهو يعرف كل شيء.

رد راجي ولم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك، وكانت يده تتحرك في الهواء:

ـ والتواقيع والأختام؟

قال عبود وقد بدأ يغضب:

ـ والله يا لئيم أطول ما فيك لسانك.

قال راجي وهو ينهض ويشير إلى أكثر من موضع في جسده:

ـ كل شيء فيّ طويل يا أبو نجم!



في اليوم الرابع لوصول عبود إلى حران، وبعد أن فوجئ بهذه البلدة التي رآها قبل أربع سنوات ويراها الآن، فتبدو له مختلفة تماماً عما كانت، أو بالأحرى ليس بينهما أية صلة. ولولا الوجوه الكثيرة التي يصطدم بها في الشارع، في المقهى، في كل مكان يمر فيه، وجوه الذين سافروا إلى حران عن طريقه، لأنكر أنه في حران.

في اليوم الرابع لوصوله، وبعد أن اتفق مع شهاب الدريعي على افتتاح مكتب للسفريات في حران، امتداداً لمكتب عجرة، أطلعه على الفواتير والختم، ثم حدّثه عن الكومسيون الذي يستحقه المكتب عن كل مسافر وعن كل حمل. وتم الاتفاق أيضاً على التفاصيل، بما في ذلك التوصية على أوراق جديدة تطبع باسم المكتبين معاً في الشام وصنع أختام جديدة. أحدها يكتب عليه اسم شهاب الدريعي، باعتبار أنه لا يعرف الكتابة والقراءة، وبالتالي لا يستطيع التوقيع، رغم أن عبود أكد لشهاب، بأكثر من طريقة، أن مسألة التوقيع مختلفة عن مسألة القراءة والكتابة، إذ بمجرد ما يحسن الإنسان طريقة خاصة يخط بها اسمه، بحيث لا يستطيع أحد أن يقلد هذه الطريقة، فإنه يضمن بالتالي التوقيع. بعد أن تحدث عن كافة هذه التفاصيل، تحدث أيضاً عن الاحتمالات الإيجابية الكثيرة التي تنتظر المكتب الجديد، ثم ذهبا ليشربا القهوة في مقهى أبو أسعد الحلواني.

مع رشفات القهوة جاء أكثر من واحد إلى المقهى ليبلغ أن من جملة ما أفرغته الباخرة التي وصلت بالأمس ثماني سيارات جديدة كبيرة، أكبر من أية سيارات شهدتها حران من قبل، وإن السيارات الثماني ما إن أنزلت

إلى الأرض حتى صعد إليها سائقوها، ومعهم أشخاص آخرون، وقد شغلت ويمكن أن تنطلق في أية لحظة.

نظر شهاب إلى عبود نظرة تساؤل أقرب إلى الاتهام، وقال وهو يجره:

ـ جيت، يا أبو نجم، بوقتك، ومكتب السالك ـ الدريعي صار بالسماء.

وبعد العصر وقبل الغروب تجولت السيارات الثماني ـ وكانت خمس منها انترناش والأخرى مالّ بگيرين ـ مرتين في حران من البحر وحتى المسجد، ثم توجهت إلى طريق عجرة فغابت أقل من ساعة، وأخيراً اصطفت كلها في شارع الراشدي، قرب مكاتب رضائي، فملأت الشارع من أوله إلى نهايته تقريباً.

وفي ذلك المساء، في المقهى والسوق والمسجد، وفي حران العرب ومعسكر العمال، قال جميع الناس أن عصراً جديداً بدأ. لم يكن أحد يتصور كيف سيكون وماذا سيجلب من أفراح وأحزان. هل سيكون خيراً على حران وأهلها أم سيكون شقاء جديداً يضاف إلى الشقاء الذي بدأ يعيشه الناس منذ إن جاءت باخرة الشيطان قبل أكثر من أربع سنوات.

ورغم أن الناس كانوا في حيرة كبيرة، فلا يعرفون كيف يفسرون هذا فقد قال ابن الزامل في المعسكر:

ـ مسكين آكوب.

وحين تطلع إليه العمال وتساءلوا بأعينهم لماذا يكون آكوب بالذات مسكيناً، تابع ابن الزامل بصوت حزين:

ـ السيارات الجديدة راح تاكل الأخضر واليابس، وأول ما تاكله آكوب وسيارته.

أما آكوب الذي شهد موكب السيارات مع الكثيرين، وكان قد وصل لتوه من عجرة، فقد ارتسمت علامات الحزن والفرح والخوف معاً على وجهه، ولم يستطع الذين رأوه في تلك الساعة أن يعرفوا هل كان يبتسم أم كان وجهه يعتم ويكفهر. أما حين وقفت السيارات قريباً من المسجد فقد

اقترب منها كثيراً، دار حولها مرة ثم ثانية، وسمع الذين كانوا قريبين منه أنه قال:

ـ البني آدم أهم من المكينة، وآكوب أقوى من الأنترناش والماك، لكن آكوب فقير...



وظل آكوب وراجي على الخط. كانت تمر بهما السيارات الجديدة كما يمر البرق، لسرعتها وحجمها الكبير. كان آكوب يبذل جهداً واضحاً كي يتقي ضغط الهواء القوي إذا تجاوزته إحدى هذه السيارات أو إذا التقت به. وفي وقت من الأوقات بدأت هذه السيارات تمازحهم في الطريق، إذ كانت تميل الواحدة إلى درجة تضطر أياً منهما للخروج عن الأسفلت، أو تهجم، إذا كانت مقبلة، إلى درجة يظن آكوب أنها ستصطدم به، فينحرف انحرافاً حاداً في محاولة للهرب، حتى إذا اقتربت السيارة، ولم تبق إلا مسافة قليلة، يعدلها سائقها في اللحظة الأخيرة ويتابع سيره بنفس السرعة، وابتسامة واسعة تملأ وجهه، لأنه أدخل إلى قلب العجوز كل هذا الخوف. ولأن السيارات متشابهة بألوانها وأحجامها، لم يكن من السهل تمييز من يقوم بهذه «الأدوار».

بعد أن تكررت هذه «الأدوار»، وفي الكيلو مائة وعشرة، ما كاد راجي يلتقي باثنين من السائقين، حتى جرّ المانويل ونزل راكضاً. كان يريد أن يدخل معركة دامية، أن يضرب إلى درجة القتل. وهذه النية التي عبر عنها أكثر من مرة أمام الغانم، كان من السهل أن تتحقق لولا أن الغانم كان حاضراً متنبهاً، إذ ما كاد يرى راجي راكضاً حتى هجم عليه، اعترضه، وبصعوبة استطاع، بالتعاون مع اثنين أو ثلاثة من الذين كانوا، أن يحجزه. قال راجي للسائقين اللذين فوجئا وظهر عليهما الخوف الشديد:

ـ والله يا أولاد الشرموطة قبل ما أموت لإخوض في دمكم...

وحاول أن يهجم من جديد، لكن امسكوا به بقوة. تابع وكان الزبد يخرج من حلقه:

ـ يا أولاد الكلب، يا جبناء، إذا كنتم تقولون لأنفسكم: سياراتنا جديدة، ويمكن أن نقلب سياراتهم ونقتلهم، غلطانين. قبل ما أموت أنا وآكوب، دمكم يسيل من عجرة لحران.

وحاول الكثيرون أن يهدّئوا راجي. قالوا إن هذين السائقين غير مسؤولين، ولم يفعلا شيئاً، وربما كان الآخرون هم الذين فعلوا أو حاولوا، فيصرخ راجي:

ـ ابن الشرموطة الأصلي هو رضائي. وإذا كان ما ذبح لسياراته لازم نبعث له بدم واحد من هالكلاب.

بعد جهد أُخرج السائقان من المقهى، وطلب إليهما أن يواصلا سفرهما توقياً لأي شر، وما كادا يبتعدان ويجلس راجي حتى بدأ صوته يهدر:

ـ يا جماعة... أنا وآكوب، هذا الطريق، قبل ما يتزفت، أكل طيازنا. مشيناه ألف مرة. من سنين ونحن على هذا الطريق. صحيح أن سياراتنا قديمة، لكن إذا كان الواحد سيارته قديمة ما هو مفروض أن يموت على الطريق مثل كلب. رضائي اشترى سيارات جديدة، كل واحد منا شافها. ما حكينا كلمة واحدة، يمكن سرقها، أو الله أنعم عليه، هذه بينه وبين رب العالمين، لكن رضائي فتش عن أخرا سواقين الله خلقهم وقال لهم: راجي وآكوب: يوك، اقتلوهم، اصطدموا بهم على الطريق، واللي ما يروح موت الله يروح موت العبد.

استراح قليلاً، زفر وابتسم ثم تابع:

ـ لكن بسيطة. أنا غلطان. الصغار ما لي شغل معهم، لازم يكون شغلي مع الراس.

انتهت هذه «الأدوار» في المائة وعشرة، وفي نفس اليوم وصلت القصة إلى حران، وصلت عن طريق هذين السائقين، ووصلت عن طريق الآخرين. وكما هي العادة دائماً لم يبق أحد في حران إلا وتحدث في هذه القضية. أما آكوب الذي كان خارجاً لتوه من عجرة، وما كاد يلمح من

بعيد إحدى سيارات رضائي حتى صلّب وخفف السرعة ثم أخذ أقصى اليمين. كان متوقعاً أن تمزح معه هذه السيارة كما تعودت أن تفعل جميع السيارات، لكن أكثر ما استغربه أن السيارة من مسافة كبيرة، وخلال النهار، أضاءت النور لتنبهه، ولاحظ أنها خففت السرعة وأخذت جانب اليمين أكثر مما تعودت أن تفعل دائماً. أحس بالخوف وخفف السرعة أكثر من قبل، وكاد أن يقف، فلما اقتربت السيارة كثيراً خففت السرعة مرة أخرى، فلما تلاقت السيارتان بدا لآكوب أن السائق قد ابتسم له، وحين توازيا رفع السائق يده بالتحية. قال آكوب للذي كان يجلس إلى جانبه وهو يضحك:

ـ يا جماعة.. راجي عملها.

تلك كانت نهاية هذه الطريقة في الحرب لتبدأ طريقة جديدة.

بدأت سيارات رضائي تنقل من حران أو إليها المسافرين والبضائع بدون أجر أو بأجر رمزي. فالسيارة التي تكون في عجرة وتحمل الإسمنت والخشب وبعض المؤن، كانت تحمل معها أي إنسان يريد أن يسافر، كل ما في الأمر أن يرضى السائق ويوافق على حمله. أما من حران فالكثيرون سافروا على سيارات رضائي ليس لأنهم مسافرون حقيقيون، وإنما لأن ليس لديهم شيء يفعلونه، ولأن السيارات تذهب فارغة فيمكن أن يركبوا ليقضوا يوماً أو بعض يوم في عجرة ثم يعودون مع السيارات الأخيرة إلى حران.

قال آكوب لراجي، وهما جالسان في مقهى المائة وعشرة، وكان راجي يحمل من عجرة ثلاثة شوالات من الطحين واثنين من البدو، أما هو فكان راجعاً فارغاً ووحيداً، لأن المعاون ذاته فضل أن يبقى في حران وأن يجد عملاً آخر. قال آكوب وهو يتنهد ويتذكر:

ـ تقول مشية غزال.. مشية ديك... اسمع.

وكاد آكوب أن يتوقف، فقد طال به الصمت وذهب بعيداً، لكنه بعد فترة تابع:

ـ قبل ثلاثين سنة، أربعين سنة، في حلب، مرضت. قالت جدتي:

آكوب بدو يموت. كان عندي كلب. تصور الكلب مرض. الكلب لا يأكل، لا يشرب، وعند رجلي ينام. بعد أسبوع أسبوعين آكوب طاب، صار أحسن، لكن الرجل ما طابت. انت تقول مشية غزال؟ شوف. .

ورفع آكوب البنطلون عن ساقه فبدت مستدقة في الأسفل ثم تتقوس عند بطة الرجل، قال بسخرية:

ـ ها. . . شفت؟

وضحك آكوب كأنه يتذكر قصة شخص آخر، وبعد أن هدأ قال:

ـ الكلب صار مثل آكوب. . صارت رجله عورا.

وضحك بصخب مرة أخرى وقال وهو يطبطب على ساق راجي:

ـ لا. . مش عورا. . العين بتصير عورا، صارت عوجا، مثل طارة، مثل عجل.

ومن جديد صمت آكوب. بدا له إنه لا يعرف لماذا قال ما قاله وحين تذكر أنه يعود وحيداً إلى عجرة، تفاعلت أفكار كثيرة في رأسه فأضاف بسرعة:

ـ السيارة مثل الكلب، يمكن تمرض ويمكن تموت.

ولم يستطع أن يضيف شيئاً واضحاً، بعد أن قضيا ساعة أو أكثر افترقا.

في اليوم التالي، أثناء عودة راجي من حران وجد آكوب، وجده قبل قهوة المائة وعشرة، كان يحاول بجهد وشراسة إصلاح السيارة التي تعطلت، لكن لم يستطع أن يصل إلى نتيجة، لم يقو على إصلاحها. أما حين سحبه راجي إلى المقهى، وكانت المسافة أقل من خمسة كيلومترات، فقد بدا آكوب حزيناً أكثر من أية مرة سابقة. وحين جلسا في المقهى، وقبل أن يتكلما في أي موضوع، أو يسأل أحدهما الآخر إن كان جائعاً أو بحاجة إلى قدح من القهوة أو الشاي، كانت الكلمة التي خرجت من فم آكوب:

ـ السيارة مثل الكلب، أنا مرضت هي مرضت!

وبدأ الاثنان يمرضان. كان المرض يبدو غامضاً وبعض الأحيان مستعصياً، فآكوب الذي يعرف كيف يبدأ مرضه وكيف يتطور، ومتى يحصل ولماذا، بدأ يحس في الفترة الأخيرة بأعراض لم يعرفها من قبل ولا يجد لها تفسيراً. حتى الحكيم الذي نقله إلى حران، والذي استأجر ثلاث دكاكين معاً، وافتتح عيادة كان يستقبل فيها المرضى ويجري العمليات، وخصص فيها أيضاً قسماً للإقامة، له وللمرضى الذين يجري لهم عمليات ضرورية وعاجلة، حتى صبحي المحملجي لم يستطع أن يشخّص مرضه، أو يفسر الأوجاع التي يشكو منها. كان الألم يبدأ من مؤخرة الرأس ثم ينتشر إلى كل مكان، وكان مع الألم الشعور بالإرهاق وفقدان الشهية وارتفاع الحرارة، خاصة في الليل.

كان آكوب يعالج مرضه بالأسبرين، وبعض الأحيان بأعشاب متنوعة يعرف كيف ينتقيها أو يوصي عليها، لكن هذه الأعشاب لم تكن تختلف عن الأسبرين بأثرها أو مدتها.

وكان يعالج السيارة بنفس الطريقة، إذ ما يكاد يحس بتعبها، وبأنها غير قادرة على مواصلة الرحلة، حتى يبدأ: يتفقد كل شيء. يقضي الساعات الطويلة، وبعض الأحيان يصل الليل بالنهار من أجل أن يكشف العلة ويعرف السبب، لكن أغلب الأحيان ينتهي إلى الفشل. وبعد أن يستريح يوماً أو يومين، ويفكر خلال الليل والنهار بهذه العلة الخفية، ولا يجد لها سبباً ممكناً، كان يقول لنفسه: «إذا كانت السيارة قوية آكوب: قوة سز. إذا كانت السيارة خرا وآكوب تمام ما في فايدة. إذا كان آكوب تمام والسيارة تمام سوق سز . . . سوق خرا».

حتى عبود الذي كان يبدو مثل ديك، وكان يتباهى بالتوقيع والقطع الحديدية، ثم بالفواتير والأختام، ما لبث أن شعر بوطأة القوة التي فرضها رضائي، وبالمنافسة التي لا يقوى على احتمالها، فبدأ يشارك الصبي في النداء «حران. راكب واحد لحران». ثم بدأ يتجاوز الدكان والرصيف، ويصل بعض الأحيان إلى المسجد أو بداية الطريق السلطاني، بحثاً عن مسافر إلى حران، وحين يجد أن هؤلاء البدو الفقراء الجاهلين لا يستجيبون

لنداءاته أو محاولاته في أن يركبوا سيارات «مكتب سفريات البادية» كان يقول بنوع من الغضب:

ـ خليهم يسافرون مع ابن رضائي، لكن باكر إذا طلع حليب أمهاتهم من خشومهم، وإذا دوروا بسراج وفتيل عن ابن السالك ما يلقون إلا الخراب.

وهكذا بدأ عبود السالك، يوماً بعد آخر، يتحول إلى دكان عادي مثل دكاكين عجرة. كان يبيع الرز والطحين، ويشتري الملح والتمر، وكان أيضاً ينتظر قوافل الحج، وينتظر أخيراً الصدفة العمياء، هكذا كان يسمي الحالات التي تأتي وحدها ولا ينتظرها أحد.

وفي هذه الفترة أيضاً، ومثلما جاءت سيارات رضائي، جاءت سيارتا باص لمحيي الدين النقيب. كان الباصان الأصفران شيئاً عجيباً في حران، فقد قضى الناس ساعات طويلة يتأملون هذه المخلوقات الغريبة التي جاءت فجأة عن طريق عجرة. لم يبق أحد إلا وقف طويلاً ونظر إلى الداخل، أما الصغار فقد حملوا بعضهم بكثير من الصخب لكي يلقوا نظرة إلى بطنها، كما يقولون، وحاول بعضهم أن يتسلق السلم الخلفي ليصعد إلى الأعلى، لكن صرخات السواق ورجال النقيب منعتهم من ذلك، ثم في وقت لاحق شُدّت أسلاك شائكة حول السلالم لتمنع أحداً من تسلقها، فاكتفى الصبية بأن خطوا أشكالاً ورسوماً على جدران الباصين. كانوا يفعلون ذلك بكثير من اللذة والاستغراق، وهذه الأشكال كانت تبدو جميلة غريبة، خاصة حين يكون الغبار كثيفاً على الجدران.

ومثلما انشغلت حران في المرات السابقة انشغلت الآن. لم يكن بعد واضحاً أي شيء ستفعله هاتان السيارتان العجيبتان، أما حين ربطت قطعة كبيرة من القماش على الدكان الأخيرة من المبنى الذي يشغله محيي الدين النقيب، وكتب عليها بلون أحمر وخط كبير: سفريات النقيب ـ السيف عبر الصحراء» ثم بدأ النداء: عجرة ـ عجرة، وجاء بعد ذلك محمد السيف وقال بصوت قوي والابتسامة تملأ وجهه:

ـ كل من يريد من أهل حران السفر إلى عجرة، ومن عجرة إلى حران

يركب.. سفركم كلكم على حسابنا، ولا واحد منكم يدفع قرش.

نظر الناس بعضهم إلى بعض ونظروا إلى ابن السيف وتساءلت عيونهم ووجوههم: السفر إلى عجرة، ومن عجرة إلى حران.. ولا قرش؟، بدون أجر؟

ولثلاثة أيام متوالية ظلت الباصات تذهب وتجيء، تحمل «المسافرين» في داخلها، أما العفش فكان يربط على السقف. لم يبق أحد إلا وركب الباص أو حاول الركوب. وصدف أن سافر بعض الأشخاص مرتين أو ثلاث مرات، وآخرون كثيرون حاولوا وانتظروا، وجاء بعضهم مبكراً، لكن نظراً للازدحام الشديد والمنافسة القوية بين هؤلاء الراغبين تعذر سفرهم كلهم.

في اليوم الرابع استراح الباصان وقام السواق بتنظيفهما جيداً، وسرى الهمس بين الناس أن السفر منذ اليوم بهذه الباصات المريحة السريعة القوية سيكون بسعرٍ عالٍ، أعلى من السعر الذي كان يُدفع في سيارة آكوب أو سيارة راجي، وربما يصل إلى ضعفين أو ثلاثة أضعاف، لكن المفاجأة كانت كبيرة حين أُبلغ الجميع أن الأجرة التي يدفعها المسافر هي نفس الأجرة التي كان يدفعها من قبل: «سعر القراقيع». وفي محاولة للتوضيح قال عبد الله السيف لبعض الرجال الذين كانوا حوله، في الطابق الثاني، فوق مكتب سفريات النقيب ـ السيف عبر الصحراء:

ـ نريد السيارات تطلّع مصروفها وأجرة سواقها، والله يلعن اللي يدور على ربح.

وهكذا بدأت سيارات الباص بين عجرة وحران. يخرج باص حران صباحاً فيصل إلى عجرة قبل الظهر، وعند العصر يغادر عجرة عائداً إلى حران، وهكذا الباص الآخر، لكن بشكل معاكس، وفي المائة وعشرة يستريح الباصان والركاب قليلاً ثم يواصلون سفرهم.

قال راجي لآكوب، وكانا يجلسان في مقهى المائة وعشرة وقد تدفق ركاب الباص مثل السيل، وكل واحد يريد أن يشرب قبل الآخر، قال راجي:

ـ أنا وأنت، يا آكوب، مثل السمك الصغير، إذا بقينا بعيدين يمكن أن نعيش ويمشي حالنا، لكن السمك الكبير كيف يعيش؟

وحين قلب آكوب شفته لا يعرف الإجابة، تابع راجي:

ـ جاك الموت يا تارك الصلاة، وخازوق النقيب فات برضائي من طيزه إلى عينه، وبكرة تسمع الصوت.

رد آكوب وهو يضحك:

ـ الخازووق فات فينا.. أفندي.

ـ صحّ! أكلنا الخازوق، لكن جاء النقيب ليرد الخازوق عشرة.

ـ عشرة؟ لمن؟

ـ طبعاً لرضائي.. رضائي أكل خرا.

ـ أفندي.. رضائي يأكل اللحم، رضائي ما ياكل خرا.

توقف آكوب لحظة ثم أضاف بسخرية:

ـ أنا وأنت، أفندي، ناكل خرا.

ـ غلطان.

ـ غلطان مش غلطان بكرة تشوف.

ـ يا سيدي أكثر من القرد الله ما مسخ.

وبدل أن ينهض آكوب بسرعة، كما كان يفعل من قبل، كان يفضل أن يطيل البقاء، أما حين يهدأ الغانم ويبدأ بصنع القهوة، ثم يأتي بها فيرفض آكوب تذوقها يقول الغانم وهو يضحك:

ـ اسطه... مائة مرة قلت لك: في هذه الجلهمية، في هذه الفلاة العكرة النكرة لا تحل المشكلة إلا غزالة: مُرّة أو مرة.

ويمدّ إليه فنجان القهوة من جديد ويقول بصيغة الأمر:

ـ اشرب، اسمع من أخوك واشرب.

فيرد عليه آكوب بغضب:

ـ خلينا يا شيخ، اشرب انت.

❀ ❀ ❀

ومثلما سرق رضائي الركاب والحمولة من آكوب وراجي سرق النقيب الركاب من رضائي. أما الحمولة فقد ظلت تنقلها سياراته، وأخذت هذه السيارات تتجاوز حران بمسافات بعيدة. بدأت السيارات الثماني تجلب الإسمنت والخشب ومواد أخرى كثيرة من بيروت مباشرة، وبدل الثماني أصبحت هناك سيارات أخرى كثيرة، وكانت بعض هذه السيارات تجر وراءها مقطورات كبيرة أيضاً. وإذا كان ابن نفاع قد ضحك طويلاً حين رأى آكوب يقطر سيارة راجي ويدخل إلى حران، فإنه قلب شفته استغراباً ودهشة حين رأى السيارات الطويلة ووراءها المقطورات، قال وهو يهز يده بنوع من السخرية والغضب معاً:

ـ إذا عشنا يجي يوم يقطرون حران كلها، يربطونها بحبل مثل ما يربط الحمار ويقولون: حي حي فتمشي.

وهكذا أصبحت الأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ بالنسبة لآكوب وراجي. حزن الكثيرون من أجلهما، وتمنوا شيئاً آخر، شيئاً أفضل، لكن لا أحد يستطيع الوقوف في وجه الحيتان الجديدة القوية. صحيح أن الكثيرين ظلوا يوصون آكوب إذا احتاجوا شيئاً من عجرة، وكان بعض الناس يفضّل السفر معه في تلك السيارة القديمة تحت الشمس، لكن هؤلاء كانوا قلة، ويتناقصون يوماً بعد آخر، كما أنهم لا يسافرون إلا في فترات متباعدة، وقد لا يسافرون مرة واحدة في السنة، كما أنهم بدأوا يجدون ما يحتاجون إليه حولهم في حران، عكس الفترات الماضية.

قبل أن تنقضي السنة الأولى على تعبيد الطريق بشهر أو شهرين قال راجي لآكوب في المقهى إياه، والذي أصبح لهما مثل ملجأ:

ـ اسطه... الشغل خلاص. شغل يوك.

هز آكوب رأسه موافقاً ولم يتكلم. سأله راجي:

ـ ها.. اسطه، رأيك نظل بهذا الشكل؟

حرك آكوب كتفيه ويديه بطريقة يائسة. قال راجي:

ـ اسمع.. قبل كم يوم بعث إليّ رضائي بواحد من جماعته.

فتح آكوب عينيه باهتمام وهز رأسه طالباً من راجي أن يتابع، تابع:

ـ باختصار: تبيعنا السيارة وتشتغل عندنا سائقاً!

ـ وافقت؟

قلت لهم اعطوني فرصة كم يوم، خلوني أفكر.

توقف قليلاً وبدا حائراً ثم أضاف:

ـ سألتهم، وآكوب؟ قالوا: آكوب إذا يبيع سيارته نشتريها منه. ومرة ثانية سألتهم: ويشتغل عندكم سائق؟ قالوا: . . .

وتوقف راجي لا يريد أن يتابع. بدا الحزن في وجهه قوياً جامحاً، أما حين ابتسم آكوب في محاولة لأن يخفف عنه، فقد قال بغضب:

ـ أولاد الكلب.

وتنهد بحسرة ثم ابتسم وقال كأنه يكلم نفسه:

ـ لازم ننجّر لهم خازوق. . يا آكوب.

وبعد فترة صمت وتفكير قال من بين أسنانه:

ـ أولاد الشرموطة، قالوا: آكوب مستوي، خالص.

وتغيرت لهجته وتغيرت ملامح وجهه:

ـ آكوب أقوى من ربهم، آكوب يدفنهم قبل ما يموت.

وعاد من جديد إلى لهجته الهادئة المتآمرة:

ـ إذا ما نجّرت لهم خازوق ما أكون راجي.

واقترب كثيراً من آكوب يريد أن يبوح له بسر:

ـ اسمع. . من رأيي أن نوافق على بيع السيارات، أي نعم نبيعهم سياراتنا، وبس الفلوس تصل أيدينا هم بطريق ونحن بطريق.

ـ أنا لا أبيع.

هكذا رد آكوب بسرعة وشراسة، قال راجي في محاولة للتوضيح:

ـ لو قطعت رأسي لا أشتغل عند رضائي، ممكن أوافق على الشغل في الشركة، عند النقيب، أما عنده. . فلا.

وبعد قليل أضاف آكوب وهو يشير إلى سيارته:

ـ أنا عندي هذه، وانت، الله معك، حبيبي.

ورغم أن راجي كان قد ترك حران قبل ساعات قليلة في طريقه إلى عجرة، إلا أنه كان يحس بحاجة لأن يبقى مع آكوب، أن يتحدث معه، أن يقضيا وقتاً أطول، لعلهما يتفقان على شيء ما، ولذلك قرر أن يرجع مرة أخرى إلى حران. قال في محاولة لأن يبقى الحوار مستمراً:

ـ أنا راجع معك إلى حران.

ـ حران؟

ـ أي، حران.

وأضاف وهو يضحك:

ـ ما دام شغل يوك في حران أو عجرة فكل الأماكن مثل بعضها.

ورجعا إلى حران.

لا أحد في الكون يتصور أن هذين الرجلين كانا خصوماً، أو يمكن أن يتخاصما، في يوم من الأيام. كما لا يوجد أحد يتصور أن هذين الرجلين يمتلئان فرحاً وقوة يمكن أن يخفيا في قلبيهما هذا المقدار من التعاسة وخيبة الأمل والحيرة، فما كادا يصلان إلى حران، وبعد أن نزل البدو الثلاثين وأنزلوا رؤوس الغنم العشرة التي كانت معهم، والأحمال الأخرى من الطحين والشعير، حتى انطلق آكوب وراجي. تجولا في السوق الرئيسي، والذي أصبح اسمه سوق الراشدي، رغم أن معظم الأراضي فيه اشتراها حسن رضائي، وقد أطلق عليه الناس هذا الإسم. توقف أمام مكاتب رضائي، كانت اللوحة الكبيرة مكتوباً عليها: «حسن رضائي وأخوه عباس تجارة عامة ونقل» وتحت اللوحة كانت ثلاث سيارات صغيرة جديدة تقف أمام المكاتب، واحدة منها سوداء وأكبر من السيارتين الأخريين. بعد أن توقف قليلاً انطلقا إلى السوق الشرقي، وهناك كان أبو كامل اللحام، وعلى مسافة قصيرة منه عبده محمد، وفي نهاية السوق باتجاه البحر، كانت قهوة أبو أسعد الحلواني.

كانا يتجولان ويتحدثان كما لو أنهما شابان في مقتبل العمر. كان

الواحد منهما يستوقف الآخر بين فترة وأخرى، لأن الحدث الذي يخوض فيه من الدقة ومن الأهمية بحيث يحتاج إلى أن ينظر في عيني صاحبه، أو أن يضيف إلى الكلمات التي يقولها بعض الإشارات التي تساعد على وضوحها. وكانا يضحكان بصوت عالٍ، ويتوقفان مع الكثيرين الذين عرفوهم من قبل. وكانا يردان على الدعوات الحارة التي توجه إليهما بأنهما سيبقيان وقتاً طويلاً في حران وأنهما سيستجيبان لكل الدعوات.

لقد جرى هذا قبل أن يصلا إلى القهوة، أما حين وصلاها فكانت تعجّ بالعشرات، وقد اضطرا للوقوف بعض الوقت مع أبو أسعد، إلى أن هيأ لهما مكاناً بعيداً، على شاطئ البحر، وشارك راجي بنفسه في تحضير النفس العجمي. أما حين قال أبو أسعد لراجي أنه حالما يفرغ قليلاً فسوف ينازله بالطاولة لكي يسد الغلب، فقد رد عليه راجي:

ـ خل الطاولة ليوم آخر.

وحين أصرّ أبو كامل على أن ينازله، وهذه الليلة بالذات، أجابه:

ـ حالف يمين أن لا ألعب اليوم.

لو أراد راجي، أو أي إنسان آخر ممن جلس معهما أن يستعيدا أحاديث تلك الليلة لما استطاع إلا أن يقول شيئاً باهتاً، شيئاً لا يستحق أن يقال. ولو أراد أحد أن يصور كيف بدأت السهرة وكيف انتهت لما قال إلا كلمات عادية لا تعلق بالذاكرة. لكن، مع ذلك، ظلت هذه الليلة كبيرة، غير عادية. وعبد الله الزامل الذي سهر مع الاثنين أكثر من الآخرين، وحاول أن يقنعهما بالذهاب معه إلى المعسكر، وقضاء الليلة هناك، أكد له آكوب إنه سيمرّ على المعسكر في اليوم لتالي، لأن الحاجات التي أوصاه عليها بعض العمال لا تزال في السيارة، ولا يمكن أن يخرجها في هذا الوقت المتأخر.

قال الكثيرون إنهم لم يشهدوا راجي هادئاً مبتسماً مثلما كان تلك الليلة، وأكد أبو كامل أن لحمة الفطائر التي أكلوها تلك الليلة كانت موضوعة في جانب وكان ينوي أن يأخذها معه ليشويها ويأكلها، «لكن كل شيء في هذه الدنيا قسمة ونصيب» وشاركهم في العشاء. وعبده محمد

الذي لا يمكن أن يمد يده إلى عجين أو طحين في مثل هذه الساعة من الليل، وافق بسرعة حين اقترح عليه أبو أسعد أن يخبز الفطائر، وابن نفاع الذي مر مسرعاً، متجنباً باب المقهى، اصطدم بآكوب وراجي اللذين كانا يجلسان قريباً من البحر، وكاد أن يواصل سيره إلى المسجد لولا أنه لم يستطع مقاومة رغبته في أن يسلم على آكوب.

وغير هؤلاء كثيرون مروا، وغير هذه الأحداث وقعت تلك الليلة، لكن لم يعد أحد يتذكر شيئاً، لأن ما جاء بعد ذلك أنسى الناس، أو جعلهم لا يتذكرون.

فبعد أن ذهب آكوب وراجي إلى السيارتين اللتين وقفتا بالقرب من المسجد، وفرد كل منهما فراشه في أرض سيارته، قال راجي وهو يتمطى ويطل على سيارة آكوب التي كانت إلى جانبها:

ـ بكره، ابن الكلب، رضائي، إذا اشترى السيارة يحوّلها إلى مشخة.

ضحك آكوب بصوت عالٍ في الليل الساكن. كانت ضحكته من القلب وأقرب إلى العربدة، وبعد أن هدأ أمسك بطرف السيارة وقال لراجي الذي فاجأته الضحكة وكان يقف مقابله:

ـ أفندي.. مثل ما النوم يريح البني آدم الشخاخ يريحه.

ـ والله يا آكوب أنا لا أرتاح إلا إذا شخيت على رضائي.

رد راجي بحدة وقد خرجت الكلمات من بين أسنانه؛ قال آكوب:

ـ أفندي.. اتركنا من قصة الشخاخ وخلينا ننام.

ـ أنا لا أقدر على النوم إذا ما شخيت على رضائي.

ـ طيب، أفندي، جرب، وتصبح على خير.

ـ تشوف يا آكوب، وإذا ما شفت تسمع، تصلك الأخبار... تصبح على خير. وناما.

قال راجي في اليوم التالي إنه بعد كلمات تبادلها مع آكوب، خيم الصمت، ولم يعد يسمع إلا عواء كلاب تحوم في السوق وقرب المعسكر. لا يدري كما ساعة نام، لكن حين استيقظ فجأة على صوت

خوار، صوت أقرب ما يكون إلى صوت يقاوم الذبح، ونظر حول السيارة يبحث عن هذا الثور فلا يجده، وجاءه الخوار أقوى من المرة الثانية. كان كثيفاً معتلجاً وفيه صرير، وكان يصدر من سيارة آكوب بالذات، وحيث ينام آكوب تماماً. ظن راجي خلال اللحظات الأولى أن رجال رضائي جاءوا، وإنهم بدأوا بذبح آكوب. تناول المناويل الذي كان يضعها دائماً إلى جانبه وصرخ وهو يهبط من السيارة:

ـ والله لالعن أبو رضائي الأولاني، يا اولاد الكلب.

لما اقترب من آكوب ولم يجد أحداً، وآكوب لا يزال يخور، والعرق يغسله تماماً، والزبد يملأ وجهه كله، صرخ، ناداه، هزه، لكن آكوب كان يفرك مثل ذبيحة، لا يجيب، لا يفتح عينيه، وكأنه في عالم آخر.

قال راجي عصر اليوم التالي «خفت كثيراً. لم أعرف ما أعمل. فتحت قربة الماء وصببتها على وجه آكوب، على صدره، ضربته على خده. رفعت رأسه، صرخت: آكوب آكوب، لكن آكوب لا يجيب ولا يتكلم، وبين لحظة والثانية يفرك كالذبيحة. كان يتألم، كان يصرخ، لكن صوته يخرج من بين أسنانه. كنت أريد أحداً يساعدني، ليكون إلى جانبي، ناديت، لكن لا أحد، تركت آكوب وركضت إلى الحكيم، الأفندي بعد ساعة قام من النوم، كان غاضباً منزعجاً. قال لي: تعال أنت وهو بكرة الصبح. قلت له: الرجل لا يحتمل، يمكن يموت. قال: لا تخف. وكاد أن يغلق الباب ويدخل. قلت له: حكيم... تفضل معي بسرعة، ورفعت المناويل. خاف، صار وجهه مثل الليمون. سألني بعصبية: من هو المريض؟ قلت له: صاحبك آكوب. قال: من آكوب؟ قلت: آكوب اللي حملك من عجرة، السائق. المهم بصعوبة جاء. كان خائفاً وقد اصطحب معه مساعده. لما وصلنا السيارة، ولم يتصور أن آكوب ينام هناك، فقد خاف أكثر من قبل. قال برجاء وكاد يبكي: الله يخليك اتركني، ورائي أولاد. قلت: لا تخف، بس شوف المريض. سأل: المريض... أين المريض؟ وحين جاءه صوت آكوب مخنوقاً مليئاً بالصرير، وكأنه احتكاك أجسام هائلة، استرد أنفاسه. تطلع باهتمام إلى داخل السيارة، أما حين

صعد والمصباح الصغير بيده فقد تعثر. المهم أنه رأى آكوب، ضربه إبرة، لكن بعد آذان الصبح كان آكوب قد انتهى. لا.. مع الأذان تماماً خلص. الحكيم رفع يده وقال: البقية في حياتك».

ذلك اليوم من أواخر الربيع كان يوماً حزيناً مروعاً في حران. لم تشهد مثله من قبل، وقد تمر سنوات لا يخلع قلبها مثل ذلك الحزن. امتلأت البيوت في حران العرب بالصمت، وفي الليل المتأخر بكت النساء. ومقهى أبو أسعد لأول مرة من ثلاث سنوات لا يستقبل أحداً، ولا يجلس فيه أحد، رغم أنه ظل مفتوحاً. وعبده محمد الذي لم يكن في التشييع، وراجت في البداية إشاعة قوية أنه ترك حران، لم يشارك لأنه لم يستطع احتمال ذلك، بل ورفض أن يصدق أن آكوب يمكن أن يموت. أما عبد الله الزامل وعشرات، بل مئات، من العمال فقد تركوا المعسكر دون خوف ودون إجازة أيضاً. فقط اكتفوا بأن أبلغوا إدارة الأفراد أن أحد زملائهم قد توفي ويجب أن يشاركوا في تشييعه، وإدارة الأفراد التي لم توافق ولم ترفض رفعت الأمر إلى الإدارة العامة. ولم يكتف الزامل وابن هذال والعمال الآخرون بهذا القدر من المشاركة فقد فعل كل واحد منهم شيئاً للتعبير عن الاحترام والحب الذي يكنه لآكوب.

لكن رغم هذا فإن موت آكوب ولّد عصبية لدى الجميع في حران. لم يكن مثل أي موت آخر، فبعد أن عرف بموت آكوب بوقت قصير بدأ التفكير كيف يجب أن يدفن وأين ومن سيتولى الأمر. وإذا كان إمام المسجد، إبراهيم الحميدي، قد رفض مجرد مناقشة الموضوع مع أحد، «لأن الميت نصراني وكافر» ولا يمكن أن يمد إليه يده، فإن مبادرة ابن نفاع، ثم الشهادات التي أدلى بها الكثيرون، وتلك الصعوبات التي سقطت الواحدة بعد الأخرى، انتهت إلى ذلك التشييع الذي شارك فيه جميع الناس، عدا عبده الذي غاب تماماً ذلك اليوم فلم يره أحد ولم يسمع به أحد.

قال ابن نفاع لعبد الله الزامل:

ـ غسله... وشوف.. وبعدها نشوف.

هكذا قال ابن نفاع دون أن يطلب منه أحد. وحين أكد عبد الله الذي قام بهذه المهمة أن كل شيء طبيعي، ويمكن لأي إنسان أن يتأكد، خاصة إذا نظر إلى سبابة اليد اليمنى، إذا كانت هذه السبابة شاخصة بالشهادة في يد مجروحة في أكثر من موضع. أما راجي الذي أكد أمام الجميع أن روح الرجل فاضت إلى بارئها مع آذان الصباح فقد ردد الجميع: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ورغم أن ابن نفاع أبدى استعداده لأن يصلي عليه ويلقنه فقد ظلت قضية أخيرة تشغله: الرجل يشرب بول إبليس أم لا. قال لراجي بعصبية حزينة:

ـ صحيح أن الحساب عند الله، لكن علّمنا، خويك يشرب بول إبليس؟

وحين أكد راجي بعبارات لا تحتمل الشك أن آكوب لم يمد يده إلى الخمرة ولا يشربها، وقد تقدم منه ابن نفاع خطوة وسأله همساً:

ـ والشراب الي يحطه بالماخوذ؟

ورغم الحزن اندفع راجي، انتزع من تحت مقعد السيارة الترمس وجاء راكضاً، قال بحدة:

ـ هذه قهوة، قهوة حلوة، وما كان يشرب غيرها.

وطلب ابن نفاع من عبد الله الزامل ومناور الخضيري أن يتذوقا القهوة، فلما فعلا وأكدا إنها قهوة، قهوة حقيقية، مثل التي يشربها الجميع، عدا أنها حلوة المذاق، قال ابن نفاع بصوت أراد من الجميع أن يسمعوا:

ـ الله يلعن الشيطان، كلهم قالوا أن المرحوم كان يملأ الماخوذ بول إبليس.

وشيعت الجنازة من مقهى أبو أسعد. كانت الجنازة حزينة، ولم يسمع على خطو الرجال الصامتين السائرين سوى كلمات: الله يرحمه ولا إله إلا الله.

وعند القبر، وبعد أن صلى ابن نفاع على الميت وجاء وقت تلقينه لم

يعرف اسمه كاملاً ولم يعرف اسم أمه، وبعد أن نظر ابن نفاع في الوجوه التي حوله واصل دون أن يسأل أحداً ودون أن يتردد:

- «يا يعقوب ابن فاطمة إذا جاءك الملكان الصالحان وسألاك من ربك قل الله ربي والإسلام ديني والكعبة قبلتي والمسلمون أخوتي وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله...

وبصمت قاسٍ أنزل آكوب إلى القبر، وسوي القبر مع التراب عدا حجر صغير وضع كشاهدة.

ونامت حران تلك الليلة والليالي التالية بحزن لم تعرف مثله من قبل.

بعد بضعة أيام كتب فواز بن متعب الهذال على الشاهدة بمسمار كبير: الفاتحة هنا يرقد المرحوم يعقوب الحراني!

بناء خط الأنابيب من وادي العيون إلى حران كلّف من المشقة والوقت الكثير، فبدل اثنين وعشرين شهراً، المدة التي كان يفترض أن ينجز خلالها، استمر العمل سبعة وعشرين شهراً. ومثلما جُنّ الأميركيون أثناء تعميق البحر، وكانوا يتسمون بذلك المقدار الهائل من العصبية ورغبة العراك، فهم الآن كذلك، مع فارق أساسي: إنهم هذه المرة في الصحراء، وسط الجحيم الحقيقي! فإذا كانوا قد تعودوا الرجوع آنذاك إلى المعسكر كل يوم، والغرق في برك السباحة أو الغرف المبردة، فإنهم الآن، هنا، مثل الحيوانات المحاصرة بالنيران كانوا يتراكضون في كل الاتجاهات ويصرخون ويتعاركون فيما بينهم ومع الآخرين، إضافة إلى الخوف والانتظار اللذين يسيطران عليهم. فإذا انتهت ساعات العمل وعادوا إلى الخيام لم يجدوا ما يفعلونه، حتى النوم أصبح متعذراً بالنسبة لهم. أما الإجازات التي يحصلون عليها، والتي تتلاحق شهراً بعد آخر، إذ بعد شهر من العمل، أو بالأحرى بعد خمسة وعشرين يوماً، كانوا يرجعون إلى حران ليقضوا هناك شهراً كاملاً، وخلال هذا الشهر تحل مجموعة بدل خرى. رغم ذلك فإن الإجازة بدل أن تخفف أو تغير فإن المجموعة التي تكون قد قضت شهراً في الراحة، تعود إلى واجب ثقيل، إلى مهمات لا تعرف كيف تؤديها بأسرع وقت وبضجر يصل حدود الموت.

السنة التي بدأ فيها مد الخطوط كان الطقس خلالها أحسن من سنوات غيرها، فالعمل بدأ أول الشتاء، والحياة، رغم برودتها في الليل، بدت شديدة الجمال والإغراء للعمال خلال النهار، خاصة بعد تلك الشهور الطويلة والسنوات الصعبة في حران وحولها. أما الأمطار التي تتالت مرة

بعد أخرى، فسالت الشعاب وامتلأت الغدران، فما لبثت إن فجّرت الكثير من النباتات، ثم بعد ذلك ساقت الطيور والحيوانات. وهذا سهّل العيش وجعل العمل غير مرهق، كما جعل العمال يقضون ساعات طويلة في جمع الأعشاب والنباتات، أو يطاردون الأرانب، وبعض الأحيان الظباء. أما الأمسيات المبكرة من هذا الشتاء فكانت حافلة، إذ إضافة إلى الألعاب الكثيرة التي يخترعها العمال لكي يحافظوا على حرارة أجسامهم، بعد أن تبدأ الشمس بالانحدار نحو الغروب، فإن دفقاً من الحنين كان يملأ صدورهم فيندفعون إلى الغناء.

لقد عرف العمال كيف يتكيفون مع المحيط الذي وجدوا أنفسهم فيه، وعرفوا أكثر من ذلك كيف يغيظون الأميركيين وكيف يخرجونهم عن أطوارهم، إذ إضافة إلى الألعاب التي كانوا يكتشفونها في التو واللحظة، أخذوا يضفرون من الصوف مقاليع قوية متقنة، وبدأوا يتصيدون الجرابيع والضباء، أو يتبارون في قذف الحجارة وإصابة الأهداف. كانت الحجارة المصقولة المنتقاة تئز وتصفر صفيراً حاداً وهي تطير في الهواء، وكان الأميركيون يتطيرون إلى أقصى حد من هذه «القذائف» التي يسمعون صوتها ولا يرونها، فيصرخون ويشتمون طالبين أن تتوقف!

وغير هؤلاء كان هناك عدد من العمال هوايتهم الوحيدة انتقاء الحطب وجمعه، وبعد أن يتركوه أياماً في الشمس لكي يجف يوقدونه ليصنعوا الشاي والقهوة، وهذا الحطب ما يكاد يشتعل ويملأ المعسكر والمنطقة المحيطة بالدخان حتى تنفجر مشكلة جديدة، وكأن الغبار الذي تولده آلات الحفر، ثم تلك الرياح التي تهب فجأة فتدفع في طريقها الغبار القريب والزوابع البعيدة، لا يكفي. كان الدخان يسبّب للأميركيين ضيقاً لا يخفونه أبداً. إذ رغم النظارات الشديدة الأحكام التي يضعونها على عيونهم، ثم تلك الأقمشة الرقيقة التي تُشدّ على الأنوف والأفواه، لكي تصدّ الغبار والزوابع، فإن النيران ما إن تشتعل ويبدأ الدخان يتلوى في الهواء ويتطاير بسرعة، حتى يصل الغضب بالأميركيين درجة القهر. كان بعضهم ينزع النظارات والأقنعة ويرمي بها، تماماً كما يفعل الأطفال أو المجانين،

وكانت تستبد بالآخرين موجة من السعال فيركضون نحو خيامهم أو نحو النار ليفعلوا شيئاً و ليهربوا من شيء.

فإذا انتهت هذه المصاعب والإزعاجات، أو لم تعد كافية بنظر بعض العمال، فقد وجد من كان بارعاً وموهوباً في خلق المقالب للآخرين، خاصة للأميركيين. من هؤلاء مجلي السرحان، القصير الضامر، الذي لا يكاد يسمع صوته، كان قادراً على إدخال الفزع إلى القلوب كل يوم، ويفعل ذلك دون أن يحس به أحد.

فالمرات التي أطلق فيها مجلي السرحان عدداً من الجرابيع والضباء في خيام الأميركيين لا حصر لها. كان يلاحق هذه المخلوقات بهمة لا تعرف التعب، وحين يقبض على عدد منها يربطها من أرجلها أو أذيالها ويجرها، فإن لم يكن الوقت مناسباً لإطلاقها تركها في مكان قريب، حتى إذا جاء الليل سحبها نحو الخيام وأطلقها. وهذه الجرابيع والضباء التي ظلت مربوطة لساعات طويلة، والتي تمتلئ بالخوف، ما تكاد تطلق حتى تتراكض لكي تختبئ. كانت تدخل إلى الخيام أو تنزل إلى الحفر التي يعمل فيها العمال، وتتراكض مذعورة بين الأرجل، والعمال حين يسمعون أصوات الأميركيين الحادة مع الركض وطلب المساعدة، يتطلعون حولهم باحثين عن مجلي. كانوا، أغلب الأحيان، يجدونه بينهم أو في مكان قريب، فيدققون متسائلين ما إذا كان، مرة أخرى، وراء هذا الذي يجري. ومجلي صامت، ملامحه شديدة البراءة، بل ولا يتردد، بعض الأحيان في تقديم المساعدة.

وفي أوقات أخرى يجمع مجلي الثعابين ويطلقها بين الخيام. لقد حصل هذا مرتين على الأقل، وفي شتائين متواليين، الأولى في بداية قيام المعسكر حول المحطة H2 في منتصف الطريق، وفسر الأمر آنذاك أن المنطقة مليئة بأوكار الثعابين، وإن الوادي القريب مرتع لها، وقد روج مجلي مع الآخرين هذه القناعة، ولذلك كان الأميركيون يخافون إلى أقصى حد من النزول إلى الوادي، وكانوا يقضون ساعات من الليل وهم يبحثون عن الثعابين، أما المواد التي أرسلوا بطلبها على جناح السرعة لمكافحة هذه الضواري المخيفة، والتي لم تتأخر في الوصول، فإنها أن كانت كافية

للمكافحة فإنها لم تخفف من الفزع الذي يملأ القلوب.

أما المرة الثانية فكانت أثناء زيارة المستر هاملتون، وبعد أن تقدم العمل كثيرا في خط الأنابيب. في هذه الزيارة عمل مجلي شيئين ظل العمال يتحدثون عنهما فترة طويلة. فما أن طلب أحد المهندسين من مجلي مناولته صندوق العدة، وبعد أن حمله وقدمه إليه، وكان المستر هاملتون قريبا يراقب تركيب بعض الأجهزة، وما كاد المهندس يفتح الصندوق حتى صرخ وركض هارباً، لأن ضباً بحجم القط تقريباً يرقد فوق الأدوات، كان الضب يتطلع بعيونه الشهباء وينفخ نفخاً قوياً مسعوراً. والمستر هاملتون الذي اصفر وجهه وبدا شديد الخوف لم يكن قادراً على الاقتراب و التراجع. أما المهندس الذي ركض من الفزع فما لبث أن تعثر وسقط. كان في حالة يرثى لها: العرق يتصبب منه بغزارة، شفتاه ترتجفان، ولون وجهه يتحول من الأزرق إلى الأصفر إلى البياض الشمعي. أما مجلي الذي ظل صامتاً متسائلاً فقد تقدم وسط هذا الخوف وهذا الذهول، التقط الضب، ماسكاً به من رقبته، بعد أن انتزعه من الصندوق بيدٍ تكاد تشبه العصا القاسية، رفعه إلى ما فوق رأسه وبقوة ضربه بالأرض فترنح الضب ثم تراكض في هذا الاتجاه ثم في الاتجاه الآخر، والأميركيون الذين ذهلوا وأصابهم الفزع أول الأمر ما لبثوا أن تراكضوا واقترب بعضهم من بعض لكي يتجنبوا هذا الوحش الخطير الذي لا يعرفون ما هو وكيف انبثق هكذا فجأة.

قال المهندس، في محاولة تفسير وجود الضب أكثر مما أراد تفسير فزعه: إن الخطأ هو في ترك صناديق العدة مفتوحة، فهذه الصناديق لأنها عميقة ورطبة فإن تلك المخلوقات الجهنمية تريد مكاناً، أي مكان، لكي تلجأ إليه!

في ذلك اليوم أمر المستر هاملتون أن تبقى صناديق العدة مغلقة، وعلى الجميع التأكد من ذلك! أما المهندس نفسه فقد وضع أقفالاً للصناديق الثلاثة التي كانت في عهدته.

في اليوم الثالث لزيارة المستر هاملتون قتل العمال ثعباناً كبيراً أسود كالليل، وقد تعمّدوا أن يضعوه في مكان ظاهر، قريباً من الخيام التي يسكن فيها الأميركيون، وأشاع الكثيرون أن هذا الثعبان واحد من ثلاثة كانت معاً، لكن لم يتمكنوا من الاثنين الآخرين! في ذلك اليوم، وفي الليلة التي تلته، خيم الفزع على المعسكر كله، وقد سافر المستر هاملتون في اليوم التالي مباشرة، ولم يُعرف ما إذا كانت هناك علاقة بين سفره السريع ووجود الثعابين!

هكذا كانت الحياة في المحطات الثلاث التي نشأت أثناء مد خط الأنابيب. وهذه المحطات التي أعطاها الأميركيون إسماً موحداً مشتقاً من إسم حران، باعتبارها المصب، مع إضافة رقم مختلف لكل محطة، فسميت H1 وH2 وH3 فإن العمال أبقوا على أسمائها القديمة أو أعطوها أسماء من عندهم، فالأولى هي المطيرة، هكذا كان اسمها من قبل، وهي لا تبعد عن وادي العيون إلا مسيرة يومين. أما المحطتان الأخريان، فأطلق عليهما العمال: عسكر والقصعة، وقد سميت الأولى هكذا لأن بيرسي، المهندس المسؤول عن H2، كان يحرص على أن يعدّ العمال بنفسه يومياً مرتين، مرة حين يبدأون العمل والأخرى عند الانصراف، بعد أن يجعلهم ينتظمون في صف طويل، ولذلك أطلق عليها العمال إسم عسكر. أما القصعة فقد اكتسبت اسمها من الطباخ الهندي الذي كان حين يُسأل عن الأكل ما إذا نضج أم لا يجيب: «قصعة تمام» أو «قصعة مش تمام».

المحطات الثلاث بدأت مجرد إسم، عدا المطيرة التي كان فيها بئر ماء وبعض الخيام، إلا أن آبار المياه التي حُفرت واحدة بعد أخرى، وتراكم الآلات والخيام والبشر، خلق حياة من نمط جديد، فبدأ العمال يألفون هذه الحياة ويحبونها، أما الأميركيون فأخذ يزداد ضيقهم وضجرهم، وبدأت المصاعب ترهقهم. كما أن المحاولات التي لجأوا إليها لكي يدفئوا الخيام في الشتاء أولاً، ثم في أن يبردوها في الصيف بعد ذلك، اصطدمت بصعوبات لا نهاية لها، لأن الأجهزة التي وُضعت في أطراف الخيام، وبدأت تهدر في الليل والنهار، خلقت من المشاكل أكثر مما ساعدت في

حل المشاكل، ولذلك فإن تلك الأجهزة التي لم تختنق وتتوقف بنفسها، نتيجة الرياح والغبار، سرعان ما أوقفت.

أما خيام العمال فكانت تتكيف ضمن جو طبيعي يوماً بعد آخر، وكان العمال يباهون، دون كلمات، حين يمتلئون في ذلك الجو الدافئ حول القهوة والنار في ليالي الشتاء، وحين دخل الصيف وبدأوا يرفعون أطراف الخيام، بعد أن حوّلوا أبوابها مع اتجاه الريح، أخذوا يرقبون الأميركيين وهم يحاولون مع تلك الآلات يعالجونها مرة بعد مرة، أما بعد أن أخذت أجسامهم العارية المحروقة تتصبب بالعرق، وكأنهم قرب مثقوبة، فكان العمال يعجبون ويحزنون ويتساءلون ويفرحون في وقت واحد، لأن لهم ميزة ليست للأميركيين.



لو أن الصعوبات اقتصرت على قسوة الجو أو تلك المشاكل التي تتولد من العمل لأمكن احتمالها أو التغلب عليها، لكن ما كاد الشهر الرابع ينقضي، وفي إحدى الليالي التي امتلأت بالمطر والرعود، وكأنها تريد أن تمزق صمت الصحراء الذي تراكم منذ آلاف السنين، في تلك الليلة النادرة انفجر طيف أقرب إلى الشبح، فبدد السكينة وملأ حياة الأميركيين ولياليهم بفزع أقرب إلى الجنون.

لقد حدث هذا فجأة دون توقع ودون انتظار، ففي هذه الليلة، قبل الفجر بقليل، سمعت ضجة كبيرة في المحطة رقم ٢، كانت الضجة غامضة متداخلة أول الأمر، لكن وهي تقترب اختلطت أصوات الرصاص بالشتائم بغثاء الإبل وصهيل الخيل، وخلال فترة قصيرة، الفترة التي تكفي ولا تكفي لأن يفتح الإنسان عينيه، لأن يتذكر في أي مكان هو، ولأن يميز أصوات البشر من الرعود التي ملأت السماء تلك الليلة، من أصوات الآلات التي تراكمت وتكاثفت في الآذان خلال الأسابيع الماضية، في تلك الفترة القصيرة اشتعلت النيران في عدد من الخيام.

لا أحد يعرف كيف أمكن أن تشتعل في مثل تلك الليلة الماطرة وبهذه

السرعة، فخلال دقائق قليلة، والعمال يخرجون لاستطلاع الأصوت ولمعرفة ما يجري حولهم، ارتفعت السنة اللهب فأتت على ثلاث خيام، كانت ضمنها خيمة المستر بيرسي وخيمة المقر.

والأميركيون الذين شلّ الرعب حركتهم وجعلهم يصرخون ويتراكضون في كل الاتجاهات، ولا يعرفون ماذا يفعلون أو إلى أين يتجهون، ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم متجمعين حول المستر بيرسي، الذي بدا في حالة من الإعياء الشديد إلى درجة أن عدداً من العمال أكد إصابته بطلق ناري، وبين مقاومة النيران أو إسعاف المستر بيرسي كان الأميركيون عاجزين عن تقديم أية مساعدة، أما محاولات ثلاثة منهم استعمال بعض المعدات لإطفاء الحريق فقد كانت متأخرة، لأن العمال لجأوا إلى الرمل، ولم يتركوا للأميركيين إمكانية استعمال غيره، مما اضطر هؤلاء إلى إلقاء المعدات التي جلبوها واستعمال الرمل أيضاً!

مع أضواء الفجر الأولى، وبعد أن مرّ وقت يكفي لأن يتملى الإنسان المشهد كله، بدأت الأسئلة: من فعل هذا؟ لماذا فعله؟ ومع الهمسات والتساؤلات والإجابات المبهمة تأكد شيء واحد: متعب الهذال. إنه الوحيد الذي يمكن ويستطيع أن يفعل ذلك. لم يقل أي من العمال ذلك بوضوح، ولم يُذكر اسم متعب الهذال بصوت عالٍ، لكن طيفه ملأ الفلاة كلها، أما بعد اليوم الثالث، وحين وصلت مجموعة من الإمارة الوسطى، ومعها اثنان من الأميركيين، وبدأ التحقيق، ثم تلك الأسئلة الأقرب إلى العداء التي أخذت توجه إلى العمال، حول من يحتمل أن يكون وراء هذا الذي جرى، ومدى معرفة أي واحد منهم أو قرابته بمتعب الهذال، وما إذا كان قد رآه أو سمع عنه شيئاً، خاصة في الفترة الأخيرة. بعد هذا التحقيق تأكد الجميع أن متعب الهذال الذي غاب سنين لا أحد يعرف أين، قد عاد، وإنه بعودته لا بد أن يحوّل الصحراء إلى جحيم بالنسبة للأميركيين. لقد فرح الكثيرون، لكن داخل هذا الفرح نوع من التحسب الأقرب إلى الانتظار. أما بعد أن جيء بفواز ابن متعب الهذال ومعه صويلح فلم يستطع العمال أن يفهموا أو يفسروا الأمر. قال بعضهم أن متعب إذا عرف أن ابنه

في المعسكر فلن يقدم على مهاجمته مرة أخرى؛ وقال آخرون أن فواز وضع رهينة، ولا بد أن يُنتقم منه إذا حصل شيء، أما مجلي السرحان فقد ذكر حين سئل أن لا أحد ولا شيء يمكن أن يقف في وجه متعب الهذال أو أن يرده.

ومجموعة الحراسة التي تكونت على عجل من ستة رجال جاءوا من عجرة، فقد كبرت وتضاعفت مع مرور الأيام، بل وأصبح عدد جنود الحراسة في وقت من الأوقات مساوياً لعدد الأميركيين، حتى أن العمال أطلقوا، بسرية وخفاء، أسماء أو ألقاباً على الجنود هي نفس أسماء أو ألقاب الأميركيين! ومع أن متعب الهذال غاب مرة أخرى، وقيل إن دوريات عديدة تعقبته وذهبت وراءه تبحث عنه، وراجت في فترة معينة أخبار إن إحدى هذه الدوريات التقت به وبجماعته وقتلت عدداً منهم، كان من بينهم متعب الهذال نفسه، إن هذه الأخبار التي روجها غطاس، مترجم المحطة الثانية، استقبلها العمال بقلق أول الأمر، لكن حين رأوا نمر السهيل، رئيس مفرزة الحرس يوزع على جنوده كميات إضافية من الذخيرة، وينبه عليهم بقسوة، مشيراً إلى أن «متعب الهذال في مثل هذه الليلة المظلمة التي تشبه القبر بعد أن ينهال عليه التراب، يمكن أن يفاجئهم» فقد تأكد الجميع أن أخبار غطاس مجرد تلفيقات، وأن متعب الهذال الذي يحتمي بالظلمة والصحراء لا بد أن يظهر مرة أخرى.

ومن جديد أصبح متعب الهذال هاجساً يملأ حياة المعسكر، وترافق هذا مع عداوة صامتة تزيد وتترسخ بين العمال والأميركان، فالرقابة الشديدة التي فرضت، خاصة أثناء فترات الراحة، وضرورة إبلاغ مفرزة الحراسة عن أي غرباء أو عابرين، قابلها العمال بالصمت والتجاهل، ثم في وقت لاحق بالشتائم والمعارك، حتى أن كثيرين أعربوا عن رغبتهم بترك العمل ومغادرة الشركة. وأصرّ آخرون على أن يعدوا طعامهم بأنفسهم، مما اضطر الأميركيين إلى تخفيف الإجراءات التي فرضت، والاستعاضة عنها بوسائل جديدة، إذ بالإضافة إلى المجيء بأعداد كبيرة من العمال الأجانب، فإنهم بدأوا ينقلون العمال بين فترة وأخرى. كما زادوا عدد المراقبين. وغطاس

الذي كان شديد الحذر والقسوة في آن واحد بعد تلك الليلة، واصطدم بالعمال أكثر من مرة أثناء التحقيقات التي جرت، ما لبثت أن ترك الاتصال بالعمال إلى نمر السهيل، لأنه «وحده الذي يمكن أن يتفاهم معهم» أما نمر السهيل الذي كان شديد الخشونة، وبدا قاسياً في الشهور الأولى، فما لبث إن تغير هو الآخر، وقد قيل إن هذا التغير كان بطلب من دار الإمارة في المنطقة الوسطى، لأن الشدة تخلق ألف متعب الهذال.

وعاد العمل ليأخذ وتيرة أسرع وأكثر راحة، وبدأ الجميع ينسون متعب الهذال أو يتظاهرون بنسيانه، إلا أن الأخبار والإشاعات لا تلبث أن تسري من جديد مرة بعد أخرى، وكان ينقلها الرعاة والعابرون، وكلها تؤكد أن شيئاً لا بد أن يحدث، وأن متعب الهذال سيكون وراء ذلك. ونمر السهيل الذي يستطيع بغريزته، أو ربما نتيجة معلومات مشوشة تصل إليه، ما يلبث أن يخلق جواً من الاستفزاز والرعب، فتقوم عمليات بحث وتفتيش في أوقات متعددة، في الليل المتأخر، بعد أن يأوي العمال إلى فراشهم، أو حين يكونون بعيدين عن الخيام، ورغم أن أحداً لم يذكر السلاح أو يشير إلى أن عمليات التفتيش تجري بحثاً عنه، إلا إن الجميع تأكد من ذلك، خاصة حين صودرت السكاكين الكبيرة وبعض الأدوات التي اعتبرت جارحة.

وتستمر حالة الترقب والانتظار أياماً، يرافقها الكثير من التوتر والارتياب، وخلال هذه الفترة كل تصرف له معنى مختلف عن الأيام الأخرى، وكل همسة وكل حركة ينظر إليها بخوف وحذر واضحين. فحين ربط أحد الرعيان صفيحة بذيل كلب وأطلقه نحو المعسكر، ولّد ذلك الحادث حالة من الخوف والاستفسار استمرت بعد ابتسامات السخرية والشفقة ساعات وساعات، أما الضرب الذي تلقاه ذلك الراعي من نمر السهيل فلم يجد له حتى الأميركيون مبرراً أو تفسيراً.

وفي مرة أخرى حين قبضت مفرزة الحراسة على رجل كان يمرّ بعد الغروب بالقرب من المعسكر، ولما تبين أن اسم الرجل متعب، فقد سيطرت على الجنود والأميركيين حالة من الفرح المشوب بالتوتر الظاهر،

أما حركات عناصر الحراسة فقد كانت محاذرة مترقبة وامتلأت بذلك التوقع الخطر، وظل الأمر كذلك حتى ظهر اليوم التالي! ورغم أن نمر السهيل استدعى في نفس الليلة أربعة من عمال وادي العيون وطلب إليهم التعرف على الرجل وهل هو متعب الهذال أم لا، فلم يصدق نفيهم واعتبر إنكارهم محاولة منهم للتستر على متعب الهذال والتواطؤ معه، إذ ما لبث أن بدا معهم شديد الخشونة والغلظة ورفع إصبعه في وجوههم مهدداً. أما في اليوم التالي وحين استدعى صويلح أولاً، وبوجود أحد الأميركيين، للتعرف على الرجل، فكان يراد بالدرجة الأساسية أن يُعرف رد فعله إذا حاول الإنكار. أما حين جاءوا بفواز فقد بدا الرجل شديد الاستغراب ولم يكن يفهم ما يدور حوله أو ماذا يريد منه هؤلاء الناس. ولم تنته القصة إلا عند العصر، حين وصل اثنان من المطيرة، وكان يعرفهم نمر، وقد جاءا يبحثان عن والدهم الذي غادر قبل أربعة أيام لا يعرفون إلى أين أو ماذا حلّ به، وقد قالا إن أباهما أصبح في الفترة الأخيرة ضائعاً وقد اختلطت عليه الأمور بعد وفاة زوجته!

ظل متعب الهذال شبحاً يغيب ويحضر طوال فترة مد خط الأنابيب. والأميركان الذين لجأوا إلى أساليب لا حدود لها من أجل إنجاز هذا المشروع، كانوا بين الشدة والإغراء، وكانوا شديدي الحذر والاضطراب، أما حين أوشك الخط على الانتهاء، فقد بدوا أكثر حذراً، وأصبحوا بشراً من نوع آخر: كل كلمة تثيرهم وكل تصرف، خاصة من نمر السهيل، تجعلهم في حالة من العصبية الأقرب إلى الانفعال، أما في ذلك الضحى، حين انتهت الفرقة الثالثة، ووصلت إلى المطيرة، ولحم آخر أنبوب، فقد بلغ الفرح حد الجنون، كانوا في حالة من النشوة والصخب لم يظهروا بمثلها من قبل وبدأوا يعدون للاحتفال.

وإذا كان مثل هذا الاحتفال قد جرى مرتين، الأولى في بداية العمل، والثانية حين التقى خط الأنابيب بمحطة القصعة، فإنهم هذه المرة بدوا أكثر اضطراباً وصخباً وهياجاً وكأنهم يريدون أن يفعلوا شيئاً مختلفاً.

العمال الذين بذلوا أقصى الجهد، وانتهى العمل عند الضحى، لم

يكونوا يشعرون بالجوع قدر شعورهم بالتعب. أما الأكل الذي قدم إليهم فلم يؤكل كله. كانوا بحاجة إلى ساعة من الراحة لكي يرتبوا أوضاعهم النفسية ولكي يستعدوا لاحتفال الليلة!

عند العصر، أو بعده بقليل، بدأت موجات صغيرة من العمال تتجه إلى المضرب الكبير المقام إلى جانب المحطة. أحس الكثيرون، أن الأمر أكثر جدية مما قدروا في البداية، وإن شيئاً غير عادي لا بد أن يحصل الليلة.

المشاعر التي سيطرت على الرجال في هذا المكان النائي هي مزيج من مشاعر الظفر والرهبة، فبعد سبعة وعشرين شهراً من العمل المتواصل، ومن معايشة الصحراء شبراً بعد شبر، ومن المعارك اليومية، يصلون إلى النهاية، كل واحد منهم يحس أنه وحده مسؤول عن هذا الإنجاز، ولولا الجهد الذي بذله، دون أن تلاحقه الرقابة، أو تصله كلمات التهديد، لما أمكن الوصول إلى هذه النتيجة.

ومجلي السرحان الذي غاب تماماً في الليلة السابقة، حتى ظن الكثيرون أنه ذهب ولن يأتي، وفي الصباح حين تأكد الجميع من غيابه سرت إشاعات ومخاوف كثيرة، حتى أن نمر السهيل اضطرب ووزع عناصره في أماكن كثيرة، كما منع البدو من الاقتراب. أما الرعاة الذين جاءوا صباحاً من أجل الماء فقد منعهم في البداية، ثم ما لبث أن وافق إذا أبلغوه بكل ما يعرفون عن متعب الهذال، أو عن أية أشياء غريبة رأوها خلال الأيام الأخيرة، وحين صمتوا وانتظروا، دون أن يقووا على عمل أي شيء، فقد تركهم يردون الماء، لكن مع تنبيهات وتحذيرات ما تنفك تتزايد. أما حين وصل مجلي عند الغروب، قابضاً على حصيني صغير، وكانت آثار الجروح ظاهرة على يديه وثيابه، فقد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الاستغراب، وحين طلب منه أن يرأف بهذا الحيوان البائس فيطلقه، وأن يغسل يديه لكي يذهب إلى المطيرة فقد ضحك بسخرية وقال:

ـ يا جماعة.. حتى الأميركان لهم عند الله حوبة.

ولما صمت الرجال ولم يفهموا ما يقصده، أضاف وهو يتطلع إلى أبو الحصيني:

ـ ابن الحرام طلع روحي.

وتغيرت لهجته:

ـ قلت لنفسي ما دام «بيب الشيطان» خلص لازم الأميركان تخلص، نويت عليهم، كنت أريد الواحد منهم يرّجع حليب أمه من الخوف، لكن مثل ما تشوفون، بعد كل التعب ما طلع معي إلا هالحصيصين وذبحني قبل ما أذبح الأميركان!

أما غازي السلطان، المسن العجيب، الذي ملأ عقول الرجال وخيالهم بتلك القصص الغريبة التي كان يحكيها لهم، والذي خلق أكثر من مشكلة في الأسابيع الأخيرة، طالباً من الأميركيين أن يحاسبوه ويطلقوا سراحه، كما كان يقول، والأميركان يقولون إنه لن يقبض قرشاً واحداً إلا إذا استمر في العمل حتى النهاية، وبعدما ينتهي العمل، في اليوم الأخير، يمكن أن يدفعوا له كل ما يستحق ويتركوه. حتى غازي السلطان، أبو عيشة، بدا في الأيام الأخيرة غير مستعجل، أو كأنه لا يريد أن يترك العمل، أما الرجال الذين هنأوه وقالوا له إن حريته أصبحت ملك يديه ويمكن أن ينطلق في الغد، فقد رد بخشونة:

ـ والله يا اولاد الحرام، يا بدوان، ما لكم صاحب وما لكم أمان!

فلما استغربوا كلامه تابع:

ـ كنت أظن إن هذه الشيبة لها عندكم قيمة، وقلت لنفسي: الخويا ما يتركون أبو عيشة، لكن يا حسافا!

في هذا الجو من المشاعر المتناقضة المختلطة بدأت، عند الغروب، تسري همهمة بين الرجال أنهم تأخروا، ويجب أن لا يتأخروا أكثر من ذلك. وما كاد غازي السلطان واثنان أو ثلاثة آخرون يطلبون من الجميع أن يتحركوا، وقد فعلوا ذلك بطريقة أقرب إلى الأمر، حتى بدأ العمال، موجة بعد أخرى، يتحركون. ومجلي الذي وافق على إطلاق سراح الحصيني، بعد أن تفل في وجهه مرتين وشتمه بقسوة، لأنه تسبب في الجروح التي

أصابته، أخذ معه، بما يشبه الاحتفال، الصندوق الذي يحوي الضباء الثلاثة. كان وهو يحمل الصندوق، وتلك المخلوقات البائسة تتحرك وتتصارع وتصدر منها أصوات واضحة، كان يهزج:

ـ «وين تولون، أميركان يا زرق العيون

وين تولون

الشمس من فوق والعقرب من حدرية

والضب ينهش الخصيان

والطيز أكلتها الواوية

وين تولون، أميركان، يا زرق العيون

وين تولون؟».

في هذا الجو من المرح الهش الرجراج الذي تولد في اللحظة الأخيرة، بدأت خطوات الرجال نحو المطيرة التي لم تكن تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات. وكان يمكن لأي حديث، لأي تصرف، أن يغير الجو، لكن عندما أخذت المسيرة خطواً أوضح، وبدت الخيمة والرجال يتخطرون حولها، وبدا الدخان يتلوى في ذلك الغروب، وكأنه زوبعة من ضباب خفيف، فقد أحس الجميع أنهم أنجزوا كل ما هو مطلوب، وأنهم الآن أكثر راحة وأكثر شقاء أيضاً!

أما بعد أن انتهى المستر مدلتون من إلقاء كلمته، بمناسبة انتهاء بناء خط الأنابيب، وقد ترجمها غطاس بطريقة رديئة لم يفهم العمال الكثير مما قاله، صفق الجميع، وأطال بعضهم التصفيق، حتى أن السخرية ظهرت واضحة تماماً. بعد هذا، ومثل جمل هرم، قام غازي السلطان. مشى نحو مدلتون ببطء، وكانت العيون معلقة به تتابعه؛ أما مدلتون الذي يعرف هذا العجوز. المشاغب، وأهمل الكثير من تصرفاته، لأنه حين يقرر أن يعمل يندفع بقوة يحسده عليها الشباب، فلذلك توقع الجميع مفاجأة من هذا العجوز نظر مدلتون في أكثر من اتجاه، وقد أحس أن شيئاً ما يدبر له، وما كاد غطاس السلطان يصل حتى مد يده إلى صدره وأخرج مجموعة من

النقود، أخرجها وجر يد مدلتون ووضع النقود فيها ثم أغلقها، وقال بطريقته الساخرة:

ـ ما دام اللي عندهم الفلوس ما يعطون، لازم الفقراء يعطون، وهذي مني لكم حلال بلال!

ومدلتون الذي فوجئ تماماً، ولم يفهم لماذا وضع غازي السلطان الفلوس في يده وماذا تعني، ظل مبهوراً مستغرباً بعض الوقت، أما حين ضجّ العمال بضحك صاخب، فقد بدا محرجاً، وبعد أن ترجم له غطاس ما قاله غازي غرق مدلتون في موجة عالية صاخبة من الضحك والإشارات، وبعد أن ربت على كتفي غازي وقال أشياء كثيرة لم يترجمها غازي كلها، أكد أن جميع العمال سيتقاضون علاوة ابتداء من هذا اليوم، وأن الاستحقاقات كلها سوف يتم صرفها خلال أيام العطلة الثلاثة.

في هذا الجو من المرح قام مجلي السرحان حاملاً الصندوق وتقدم نحو مدلتون. انقطعت أنفاس العمال، كانوا متأكدين أن هذه المفاجأة لن تكون سارة بأي حال من الأحوال للأميركان. أما مدلتون الذي توقع مفاجأة مثل المفاجأة السابقة، فقد خامره شك للحظات أن يقدم العمال هدية بمناسبة انتهاء خط الأنابيب، وحاول أن يفترض احتمالات معينة، لكنه لم يستطع أن يصل إلى نتيجة.

حين وضع مجلي الصندوق بين يدي مدلتون وتراجع خطوتين إلى الخلف، وكان السكون شاملاً قوياً، فقد بدا أن هذا البدوي الضامر، والذي لا تعرف الابتسامة طريقاً إلى وجهه، لا بد أن يدبر أمراً خطيراً، وقد زاد في إحساسه ابتعاد مجلي الحذرِ المخادع.

وضع مدلتون الصندوق على الأرض وسأل ببراءة مصطنعة:

ـ هذه الهدية للخط أم لي شخصياً.

وبعد أن ترجم ما قاله مدلتون، قال غازي السلطان الذي كان لا يزال قريباً:

ـ مثل زكاة الفلوس اللي دفعها العمال للأميركان، هذه زكاة الديرة كلها!

ولم يفهم مدلتون شيئاً مما قاله غازي السلطان، فسأل مجلي من جديد ما إذا كانت الهدية له أم لكل العاملين في الخط، وحين أشار إليه مجلي بإصبعه أن الهدية تعنيه شخصياً فتح الصندوق محاذراً، وبقوة غير مألوفة اندفع أحد الضباء الثلاثة وخرج من الصندوق. تراجع مدلتون وقد بدا عليه الخوف، لكن حين ضجّ العمال مرة خرى بالضحك، ما لبث أن شاركهم، متظاهراً أنه لم يفاجأ، وأن هذه الدعابة، خاصة في مثل هذه المناسبة، يمكن قبولها والتسامح بها، وزيادة في إظهار التساهل تقدم مرة أخرى من الصندوق، الذي أغلق من قبل أحد الأميركيين بإحكام، وقد وضع عليه يديه الاثنتين، تقدم مدلتون مرة أخرى وحمل الصندوق بطريقة بارعة وهزه، فلما اضطربت الضباء داخله، صاح بصوت قوي ومرح في آن واحد طالباً من مجلي أن يسترد هديته!

❀ ❀ ❀

وبكثير من الهرج المصحوب بالمرح دعي الجميع إلى العشاء، وقد أظهر الأميركان تبسطاً ظاهراً، حتى أن الكثيرين من العمال تساءلوا ما إذا كان هؤلاء هم أنفسهم الذين كانوا من قبل، ولماذا هم الآن كذلك.

وبانصراف مدلتون وثلاثة من الضيوف الذين جاءوا بهذه المناسبة اعتبرت الحفلة قد انتهت، أما حين وقف غطاس وقال بصوت حاد:

ـ انتباه.. انتباه.

فقد تطلعت العيون كلها إليه، ولما خيّم الصمت تابع:

ـ على الجميع مراجعة الإدارة صباحاً، ويجب أن تكونوا مستعدين تماماً عند الظهر للرحيل.

وتطلع العمال بعضهم إلى بعض وضمتوا.

خلال الشهور الثلاثة الأولى واجه الدكتور صبحي المحملجي صعوبات لا نهاية لها، وأكثر من مرة فكر أن يترك حران عائداً من حيث أتى، لكن في كل مرة يصل إلى هذه القناعة، كان يتعمد تأجيل اتخاذ القرار إلى اليوم التالي، لأن فلسفته في الحياة أن «لا يتخذ قراراً تحت تأثير الغضب أو الانفعال». ولذلك ما يكاد «العارض» كما يسمي السبب الذي أدى إلى غضبه أو انفعاله يزول حتى يهدأ ويبدأ يفكر «بعقل بارد» لأن الحياة كلها صعوبات، والدليل على ذلك أن الطفل حين يخرج من الرحم يبدأ الحياة بالبكاء والصراخ» ويضحك الحكيم بجذل ويضيف «وتستمر الصعوبات يوماً بعد يوم، منذ لحظة الميلاد وحتى ساعة الموت، ولا يخفف منها إلا النعمة، أما الموت فإنه يضع حداً للصعوبات كلها، والدليل أن الميت يتوقف عن الألم، يتوقف عن الصراخ والاحتجاج، تاركاً هذه المهمة للذين حوله، للذين ما زالوا على قيد الحياة».

العقل البارد إذن هو الذي يقود خطوات الحكيم، ويجعله يفكر بطريقة مختلفة عن الآخرين، ولأنه هكذا لم يكن له أصدقاء بالمعنى الحقيقي «الأصدقاء عبء على الإنسان، والعاقل هو الذي يعتمد على نفسه ولا يحتاج إلى الآخرين» حتى في بلدته لم يكن له أصدقاء. كان له معارف كثيرون «لكن الأصدقاء مثل الغول والعنقاء» ولأنه كذلك لا يحب الثرثرة، ولا يحب أن يخوض الناس في قضاياه الخاصة. أما زوجته التي كانت لها في البداية طباع من نوع مختلف عنه، فما لبثت مع الأيام أن تغيرت. كانت تشاركه فيما تتحدث به النسوة، وذكرت عدة مرات ما يحب الحكيم وما يكره، ومتى ينام ومتى يستيقظ، فلما وصل إلى علمه شيء مما قالته عنفها

بقسوة. لقد حصل هذا في بداية عهد الزواج، مما اضطر المرأة إلى أن تبلع لسانها، فاكتفت يوماً بعد آخر بسماع قصص الآخرين. أما حين جاءها الإبن الثالث فقد توقفت نهائياً عن المشاركة في الاستقبالات، وانصرفت بشكل كامل إلى تربية الأولاد والعناية بالبيت. حصل هذا دون ضجة ودون إعلان، لكن الحكيم بنظره الثاقب أدرك ذلك قبل أن تقول زوجته كلمة واحدة، وقد عقب آنذاك بأن قال: «من حكي الناس لا يأتي إلاّ العمى والطراش».

قبل أن يصل الحكيم إلى حران قضى عدة سنوات في حلب، وقبلها عاش في طرابلس. أما عن عائلته فإن المعلومات قليلة ومتضاربة إلى درجة كبيرة. وحين يسأل لا يجيب إجابات واضحة تماماً. يقول إن جده كان خزنداراً عند الوالي التركي في الأناضول، وقد رافق الوالي عدة مرات في محمل الحج، ثم قضى ما تبقى من حياته مجاوراً في المدينة المنورة، أما أبوه فكان كاتم أسرار والي ولاية بيروت الكبرى. كان الحكيم يقول ذلك بسرعة وبعبارات غامضة، ثم يضيف وهو يبتسم لينهي أية أسئلة أو حوار حول الموضوع: «إن الفتى منَ يقول هاأنذا وليس...».

أما لماذا جاء الدكتور صبحي المحملجي إلى حران ولماذا ترك بعثة الحج فإنه يفسّر الأمر بدوافع الإنسانية والرغبة في مساعدة الناس في هذا المكان المقطوع. أما حين سأله الأمير خالد، بعد أن توثقت العلاقة بينهما، فقد رد وهو يضحك:

ـ الماء لراكد، يا طويل العمر، يفسد، وكذلك الرجل صاحب الهمة، ولا يخفى عليك أن الخيل الطيبة يتعبها أصحابها، لكن إذا جاء وقت السباق كانت أسرع الخيول.

والأمير الذي كان يحب أن تكون العلاقة بينه وبين الحيكم على أحسن وجه، وخاصة جداً، كان يوافق، يهز رأسه ويقول مؤكداً:

ـ لا يعرف الإنسان في أية أرض يولد وفي أية أرض يموت...

أما حقيقة البواعث التي جاءت بالحكيم إلى حران، والتي يذكرها بعض الأحيان بخفاء ومواربة فتتلخص باثنين، الأول أن لديه أوراقاً خلّفها

جده الخزندار حول ملكية أراضٍ وبساتين في عدة أمكنة في الجزيرة وعلى الطريق السلطاني، وقد جاء لكي يستقصي ويبحث لعله يصل إلى نتيجة، والباعث الثاني أن لديه ولعاً شديداً بالأماكن الجديدة، وقد اكتسب هذا الولع من أسفاره الكثيرة ومن تنقلاته، ومن تلك القصص التي قرأها حين كان طالباً في برلين، عن أولئك المكتشفين والرحالة الذين وصلوا إلى العالم الجديد، وكيف استطاعوا أن يجمعوا ثروة في فترة قصيرة، ثم كيف تركوا تأثيرهم في الأماكن التي وصلوا إليها.

هذان الباعثان قلما يشير إليهما الحكيم، بل وكثيراً ما يحاول التمويه حتى على نفسه، لأن إرثاً مثل الذي تتحدث عنه جدته قد ضاع تماماً ولا يمكن استعادته، خاصة وأن أباه قبله قد سبقه إلى هنا، وقضى ثلاث سنوات كاملة يركض من مكانٍ إلى آخر وقد عاد دون جدوى، عاد حاملاً معه مجموعة من الأوراق الممزقة، المهترئة، مع كمية كبيرة من اليأس والمرارة، وقد ترك كل ذلك لابنه، والإبن الذي استلم الأوراق ولم يتخل عنها، قام مرة بعد أخرى بإعادة لصقها وترميمها، لأن الأمل لا يزال يراوده بالوصول إلى نتيجة. كان دائماً يقول لنفسه: «كل شيء ممكن في هذه البلاد. . . إذا جدّ الإنسان وصبر».

كان وصول الحكيم إلى حران حدثاً يفوق الكثير من الأحداث التي وقعت في ذات الفترة. فالملابس النظيفة الأنيقة التي ظهر بها في المقهى، بعد وصوله بساعات، ثم الأسئلة الدقيقة التي وجهها إلى بعض الذين جلسوا معه، حول عدد سكان حران، وما إذا جاء قبله طبيب أم لا، وسأل عن أجور البيوت والدكاكين، وهل تقدم الشركة أية خدمات طبية للعمال والسكان؛ ثم سأل عن الأمير، عن عمره واهتماماته وأي نوع هو من الرجال. هذه الأسئلة لفتت نظر الناس إليه وجعلتهم يتساءلون ويترقبون. أما حين استكمل المعلومات الضرورية فقد تساءل بينه وبين نفسه ما إذا كان الأفضل أن يقوم بزيارة الأمير مباشرة أم يطلب موعداً لهذه الزيارة، وتوصل أن القيام بهذه الزيارة في أسرع وقت، ودون وساطة أحد هو الحل الأفضل، لذلك حمل حقيبته الطبية في المساء إياه وتوجه إلى دارة الإمارة.

والأمير الذي سمع بوصول الحكيم، توقع زيارته، لكن لم يتوقع أن يأتي بهذه السرعة أو أن يأتي ليلاً، وحين أبلغ بوصوله قال بصوت هامس:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. .

ثم التفت إلى الذين حوله وتساءل:

ـ إذا كان هالشياطين يترزقون من المرض ومن الموت العافية تجي منين؟

وبطريقة احتفالية مبالغ فيها، وكأن صداقة قديمة تربط بين الاثنين، تقدم الطبيب وسلم بحرارة ومودة على الأمير، وقال إنه سعيد لوصوله إلى حران، وإذا أذن له الأمير سوف يقدّم خدماته لمن يحتاجها، وختم كلامه بقوله:

ـ وبإذن الله سوف أبذل كل جهدي من أجل تخفيف آلام المرضى ومعالجتهم بطريقة عصرية.

ظل الأمير صامتاً يستمع وينظر في وجه هذا الرجل المربوع الأبيض ويتساءل بينه وبين نفسه، أي نوع من الرجال هو، ويتساءل هل حران بحاجة إلى طبيب غير مفضي الجدعان؟

سأل الأمير يمتحن الرجل:

ـ ومن يدرينا أنك تعرف تداوي الناس؟

ابتسم الحكيم ابتسامة واثقة وتطلع في الوجوه التي تراقبه، وأجاب:

ـ حياة حجاج بيت الله الحرام وصحتهم، كانت أمانة في رقبتي، يا طويل العمر.

وابتسم أكثر من قبل وتابع:

ـ يمكن لبعض الأشخاص أن يكذبوا، أن يدّعوا. . . إلا في الطب. . .

ولم ينتظر ولم يتردد، إذ فتح حقيبته أمام عيني الأمير وقال:

ـ بهذه الأدوات والأدوية أستطيع أن أشفي أي مريض. . ثم إن شهادة الممارسة لا تعطى إلا بعد القسم.

قال الكلمات الأخيرة ببعض الحيرة، فتطلع الأمير باهتمام إلى الحقيبة المفتوحة، وقد راودته الرغبة في أن يقلب محتوياتها، والحكيم الذي أحس بهذه الرغبة دفع الحقيبة قليلاً إلى الأمام، فظهرت بعض الأدوات الطبية وبعض الأدوية. سأل الأمير من جديد:

ـ وتعرف تداوي كل الأمراض؟

ـ بمشيئة الله، يا طويل العمر.

ـ وين اشتغلت قبل ما تجي حران؟

كنت طبيب بعثة الحج يا طويل العمر، ولما سمعت أن حران بحاجة إلى طبيب توكلت على الله وجئت.

هز الأمير رأسه دلالة الفهم، وقال له أن لا مانع من بقائه في حران، وأن يمارس مهنة الطب، ثم بدأت الأحاديث والأسئلة تأخذ منحى آخر.

كانت هذه الطريقة في المعاملة والتحقيق كافية لأن يبقي الحكيم حقيبته مقفلة ويفكر بحملها مغادراً حران، لكن التعب الذي لقيه خلال الرحلة من عجرة إلى حران، ثم تعمده اتخاذ القرار إلى اليوم التالي، جعلاه ينتظر ثم يعدل عن فكرة الرحيل.

أما ما تلا هذه الحادثة، سواء في الليلة ذاتها أو بعد ذلك، فقد جعله أكثر حيرة وأكثر رغبة في العودة. فصعوبات السكن والأكل وغسل الثياب، إضافة إلى أن أهل حران لم يألفوا وجود طبيب بينهم، ولذلك لم يغامر أحد في الأيام الأولى بزيارته، بل وتوقع الكثيرون رحيلاً مبكراً لهذا الرجل الذي جاء قبل الأوان، أو جاء إلى مكان لا يحتاج إلى طبيب غير مفضي الجدعان، إلا أن بعض الأحداث التي أتت مصادفة غيّرت الكثير من المواقف والقناعات. فابن الأمير الذي أصيب بحمى لم تجد معها المحاولات التي بذلت في معالجته، تولى الحكيم المعالجة، وقام بهذه المهمة على أحسن وجه، والأمير نفسه راقب بانتباه شديد كل حركة من حركات الطبيب، وكل تصرف من تصرفاته أثناء العلاج، وكأنه يريد أن يتعلم أو أن يتأكد من كل شيء. والطبيب الذي كان بطرف عينه يتابع حركات الأمير وردود فعله، أظهر كثيراً من البراعة، وبالغ في الحركة، ثم

ما لبث أن قام بشرح الحالة بتفصيل ودقة، وأطلع الأمير على بعض الأدوات الطبية: قدم له السماعة، ثم قدم ميزان الحرارة وآلة قياس الضغط. والأمير الذي أمسك السماعة بحذر، ثم وضعها على أذنيه بمساعدة الحكيم نفسه، أبدى دهشة كبيرة عندما سمع دقات القلب واضحة قوية. أما ميزان الحرارة فلم يستطع أن يرى مؤشره، رغم محاولات الطبيب العديدة. وآلة قياس الضغط اعتبرها معقدة، وربما خطرة، ولم يفهم منها شيئاً البتة.

أما عندما انخفضت حرارة الصغير وتم شفاؤه في اليوم الثالث، فقد بدأ الطبيب يتمتع بحالة من الاحترام المشوب بالتقدير الغامض. كانت هذه الحادثة بداية علاقة وثيقة وبداية صعود نجم الدكتور صبحي المحملجي.

وتأكدت براعة الطبيب ولم يبق أحد إلا وتحدث عن ذلك، حين تعرض جوهر، مرافق الأمير، إلى حادث خطير أدى إلى جرح كبير في ساقه، مع ارتفاع درجة حرارته، فقد كاد مفضي الجدعان، الذي تولى المعلاجة قبل وصول الحكيم، أن يقتل جوهر، كما أكد الدكتور صبحي مراراً، وبإلحاح لا ينفك يتزايد، أو على الأقل أن يتسبب ببتر الساق. إذ لولا تدخل الحكيم في الوقت المناسب، ثم قيامه بإظهار براعته، والأمير يراقب بانتباه، ففتح الجرح بعد تخدير المريض ونظفه ثم أعاد تخييطه، وقد أجرى هذه العملية في الخيمة القريبة من خيمة الأمير، لولا تدخل الحكيم لكانت النتائج مختلفة، ولم يمر أسبوع والطبيب يتابع المعالجة، حتى نهض جوهر، رغم أنه استمر يتوكأ على عصا أثناء المشي، ثم تحولت العصا بمرور الوقت إلى الأبهة ثم لاستعمالات أخرى!

هذان الحادثان اعتبرا تزكية للطبيب، وقد حصلا خلال الفترة الأولى، فساعدا في تثبيت مكانته، رغم الكثير من الإشاعات والأقاويل التي بدأ يثيرها مفضي الجدعان. وخلال فترة قصيرة أصبح المحملجي شخصاً مرموقاً في حران. أما حين استأجر ثلاثة دكاكين معاً من الدباسي، وأجرى فيها تعديلات كبيرة، بحيث يمكن أن تصبح مكاناً ملائماً لاستقبال المرضى وللإقامة أيضاً، فقد تأكد الجميع أن الطبيب جاء ليبقى، وإن إقامته في

حران ستطول. ومفضي الجدعان الذي اختار مكاناً قريباً من العيادة وأخذ يجلس فيه فترات طويلة يحرّض ويشتم، وقد انتزع أكثر من مرة الأدوية التي كانت في أيدي الذين زاروا الطبيب ورمى بها، مؤكداً أنها مليئة بالعفاريت الصغيرة، ولن تلبث أن تُدخل الضيق إلى الصدور، لأن الذين صنعوها لم يتعوذوا من الشيطان ولم يسموا عليها باسم الرحمن! والحكيم الذي كان يصله كل ما يفعله مفضي عن طريق الحارس والمساعد الذي استخدمه، يتظاهر أنه لم يسمع ولا يعرف شيئاً خارج العيادة، لكنه مع ذلك كان ينتظر الوقت المناسب لكي يرد مرة واحدة على «هذا الدجال» كما أطلق على مفضي، وإلى أن يأتي ذلك الوقت انصرف الحكيم إلى بناء علاقات خاصة مع الأمير أولاً، ثم مع أعيان حران وأغنيائها بعد ذلك.

كان الحكيم يشعر أنه وحيد وأعزل، خاصة وأن طبيعته تجعل بينه وبين الآخرين مسافة، كما أنه لا يستطيع، في هذه الفترة، أن يبعث وراء زوجته وأولاده لكي يأتوا إلى حران، فحران لا تزال، رغم تزايد عدد الناس فيها، ورغم توافر الكثير من الأمور والحاجات، بلدة لم تكتمل بعد، أو بعبارات أدق غير قادرة على استقبال الجميع أو توفير ما يحتاجون إليه. فالمدرسة الإبتدائية التي افتتحت منذ بعض الوقت تقتصر على الصفوف الأربعة الأولى، بل إن عدد التلاميذ في الصف الرابع لا يتجاوز الخمسة، وهم أبناء المدير وأحد المعلمين الثلاثة. إضافة إلى اثنين من أبناء الراشد. أما أن يترك الأولاد لكي يتابعوا دراستهم في بيروت، عند جدتهم لأمهم، وتلتحق به زوجته، فقد بدا الأمر مبكراً، خاصة وأنه لم يعثر على سكن ملائم، أو بالأحرى بشكل جدي، لأنه غير مستقر على قرار نهائي.

ومما زاد في شعور الحكيم بالوحدة أن مساعده محمد عيد الذي عمل معه طوال السنوات السبع الماضية، والذي رافقه في بعثة الحج، وعده أن يلتحق به خلال فترة شهر، وعلى أبعد تقدير خلال شهرين. وها قد مضت ثلاثة شهور كاملة ولم يصل ولم يبعث بأي خبر. إن محمد عيد ليس مجرد مساعد يمكن استبداله بغيره، أو يمكن الاستغناء عنه، إذ إضافة إلى إتقانه

للمهمات التي يقوم بها مساعدو الأطباء عادة، فإنه متوقد الذكاء، سريع الفهم والاستجابة، حتى بعض الأمور التي قد ينساها الطبيب نفسه كان يلفت النظر إليها، ويتداركها. هذا عدا عن الألفة التي تولدت من العمل المشترك الطويل بين الاثنين، ونتيجة هذه العلاقة كان محمد عيد يقوم بأعمال ليست من مهمته، كأن يحضر الأكل أو يشرف على نظافة العيادة ومكان المنامة، إضافة إلى أعمال أخرى كثيرة!

لا يمكن لأحد غير محمد عيد أن يقوم بهذه المهمات، ولا يمكن للطبيب أن يدرب شخصاً جديداً، ويتوقع أن يكون مثل ذلك المساعد، خاصة وأنه في هذا العمر، وفي هذا المكان، يجد نفسه أقل قدرة أو أقل استعداداً من قبل لأن يفعل ذلك.

كل هذه الأسباب ترد في بال الطبيب، بل ويذكرها لنفسه أثناء الانتظار الطويل الممض لمحمد عيد، لكن في الحقيقة هناك أسباباً أخرى أكثر أهمية، وهي التي تسبب له تعاسة حقيقية وشعوراً قوياً أنه يواجه الآخرين وحيداً أعزل. من هذه الأسباب أن محمد عيد الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يقيم بينه وبين الآخرين نوعاً من الصلة، وهي وحدها التي يرتاح إليها الطبيب ويجدها المناسبة، إذ يعرف كيف يتكلم عنه أمام الناس وكيف يصوره. إنه يتكلم عن إنسان أسطوري، عن إنسان يمتلك قوى خارقة، خاصة في مجال الطب، فهو يتذكر المرات التي انتزع فيها الطبيب إنساناً من بين يدي عزرائيل وقال له «خسئت! لقد حصل ذلك عندما عجز الأطباء الآخرون وأعلنوا استسلامهم الكامل «وحده الدكتور صبحي الذي قال للموت: أنا أقوى منك. وأعاد لذلك الإنسان الحياة!» ومحمد عيد لا يذكر فقط عدد المرات أو الحالات التي تفوّق فيها الطبيب على الآخرين بل وتفوّق فيها على نفسه «لأنه عاشق لهذه المهنة ولم يخلق إلا لها» وإنما يمتلك مقدرة غير عادية على نقل أبسط الأمور بطريقة ساحرة مؤثرة، وحتى لو كررها مرات عديدة فإنها دائماً تبدو جديدة وكأنها حصلت بالأمس. وهذه القصص التي يرويها يعرف متى يرويها ولأي أشخاص، حتى الطبيب نفسه يعجب حين يُسأل بعض الأحيان عن تلك القصص، بل

إنه لا يتذكر هذه التفاصيل التي رواها مساعده!

ومن الأسباب التي قوت العلاقة بين الاثنين أيضاً أن محمد عيد يعرف الناس معرفة جيدة، ويعرف الطريقة المناسبة للتعامل معهم «فالطبيب مشغول جداً» حين يأتي أحد الأقرباء أو أحد المعارف. و«عنده عملية كبيرة» إذا جاءت الشرطة طالبة منه إجراء الكشف على مصاب في حادثة من الحوادث. و«الطبيب غير موجود» إذا جاء إنسان فقير. صحيح أن محمد عيد أخطأ في بعض الحالات أو تجاه بعض الأشخاص، لكنها أخطاء صغيرة يعرف كيف يبررها في وقت لاحق، حتى لتكاد تختفي من ذاكرة الذين حصلت معهم، أما من ذاكرته هو فإنها تختفي في اليوم نفسه.

والطبيب الذي يصغي إلى مساعده يروي ما قام به من مهمات نيابة عنه، فيقره عليها ويثني على ما فعله، يكرر التنبيه مرة بعد أخرى: «أنا ما شفت ولا سمعت.. فاهم؟» ويهز محمد عيد رأسه مع ابتسامة، ويضيف وهو ينسحب بعد أن قدم التقرير: «ولا يهمك.. حكيم.. خلّيها عليّ... أنا المسؤول».

يضاف إلى الأسباب الحقيقية التي يعرفها الطبيب ولا يذكرها أبداً: «إبرة العافية» فمحمد عيد هو الذي يتولى اللمسات الأولى والأخيرة بالنسبة لأغلب المرضى، إذ بعد أن يسجل اسم المريض بحروف كبيرة غير واضحة، يسجل الحالة، وغالباً ما تكون وصفاً بدائياً للمرض، كل ذلك بخط رديء متداخل الحروف، على عادة الأطباء، فيكتب: «وجع بطن» «حكة» «أوجاع مختلفة في الأعضاء». بعد أن ينتهي من هذه المهمة يبدأ بتهيئة المريض نفسياً، كان يؤكد له أن حالته بسيطة، أو أنه جاء في الوقت المناسب، وإن الله سبحانه وتعالى رحمه وأرسله إلى الدكتور صبحي. وبعد فترة من الصمت، لكي يترك أثر الكلمات التي قالها تترسب في أعماق المريض، يضيف وهو يبتسم ابتسامة الواثق:

ـ بعدما يفحصك ويصف لك الدواء، الإبرة جاهزة، وهذه الإبرة في خمس دقائق تؤدي مفعولها، وإن شاء الله تكون فيها العافية.

قليلون هم المرضى الذين لم تثقب حقنة محمد عيد جنوبهم، وأقل

منهم هم المرضى الذين لم يسألوا ما إذا وصف لهم الطبيب، ضمن الدواء، إبراً أم لا، وهل الحقن التي سيأخذونها من نفس نوع وقوة الحقن التي سيعطيها لهم محمد عيد. والدكتور صبحي الذي يعطي إجابات مختصرة جداً وسريعة، يترك المرضى في حيرة إلى أن يستلمهم مساعده، إذ بعد أن يطلب، بطريقة أقرب إلى الأمر، من المريض أن يهيّئ نفسه بسرعة «لأن الأبرة جاهزة» يسحب منه الروشيتة فيلقي عليها نظرة مدققة مع هزات من رأسه دلالة أنه فهم الحالة واعتبر الدواء مناسباً جداً. وفي ذلك المربع الصغير، الذي ربما كان في يوم من الأيام مخبأ أو مرحاضاً، وأصبح الآن أصغر غرفة في العالم، حيث لا يتسع إلا لوقوف شخص واحد، وبعد أن يستعد المريض وراء الستارة المسدلة، ويسأله محمد عيد: «أأنت جاهز؟» وما يكاد يسمع الإجابة حتى يرفع الستارة بطريقة متقنة للغاية، لفرط ما تكرّرت، عن الجزء الأسفل من جسد المريض، وبسرعة خاطفة ينتهي من مهمته، مع كلمة يرددها دائماً: «فيها العافية». «إبرة العافية» تعادل قيمتها أجرة الكشفية، لأنها قيمة كلية وغير قابلة للتجزئة، إذ لا يمكن أن يقال مثلاً: قيمة الإبرة كذا وأجرة إعطائها كذا. ولا يمكن الموافقة على طلب أحد المرضى أن يأخذ الإبرة لكي يتولى غير محمد عيد إعطاءها. إن مثل هذا لا يقع، كما أن المرات التي رفع فيها الطبيب أجور المعاينة ارتفعت معها قيمة «إبرة العافية» أيضاً. وإذا كان الدكتور صبحي قد بدأ ممارسة المهنة بأجور أقل من الآخرين، خاصة الكبار المعروفين الذين سبقوه في طرابلس وحلب، فالكثيرون كانوا يسخرون من كفاءته ونزاهته حين يذكر اسمه. يذكرون الإضافات التي يحصل عليها من هنا وهناك، مشيرين إلى «إبرة العافية» كما أصبح يطلق عليها، وإلى قيامه ببيع الأدوية التي يحصل عليها كنماذج.

إذن شعور الدكتور في حران بالوحدة والعزلة كانت له أسبابه، أما وصول محمد عيد في بداية الشهر الرابع، فقد غيّر كثيراً في شكل الحكيم وتصرفاته، أو بالأحرى جعله إنساناً آخر. فالصمت الذي كان يتحصن وراءه في حالات كثيرة، أو تلك الإجابات المضطربة الخشنة، بدأ

تجاوزهما من خلال لسان جديد. . . متمثل بمحمد عيد. فكل ما يريده الحكيم أو يسأل عنه يتولى المساعد القيام به. أما الأكل الذي تسبّب باضطرابات معوية حادة، وقد خاف منها الحكيم في فترة من الفترات «لأن الآخرين لا يفهمون عليه ولا يريدون مساعدته!» فما لبث أن أخذ نسقاً جديداً حين تولى مساعده إعداده وتحضيره. فزالت آلام الحكيم واستعاد قوته. ويمكن أن يقال الكثير عن النظافة والملابس وشراء الحاجات ومساومة الصناع ومراقبتهم. ولذلك أمكن تدارك أمور خلال أيام من وصول محمد عيد، وبدت العيادة التي تكاملت وانتظمت قريبة الشبه بالعيادة التي كانت للطبيب صبحي في طرابلس قبل عشر سنين. وإذا كان مكان سكن الطبيب في الدكان الجانبية قد ولد في نفسه نوعاً من المرارة نتيجة ملاحظات نقلت إليه. فما لبث أن فُتح لهذه الدكان باب جانبي، صبغ بلون أزرق فاتح، ووضعت إلى جانبه لوحة خطها أحد معلمي المدرسة، الذي وفد حديثاً إلى حران. كتب على اللوحة الصغيرة بخط رقعة جميل «الدكتور صبحي المحملجي ـ منزل» أما اللوحة الأصلية التي وضعت في وسط الواجهة الأمامية، على الشارع الرئيسي، وقد صممت بعناية في عجرة، فكان مكتوباً عليها: «الدكتور صبحي المحملجي، طبيب وجراح. إختصاصي في الأمراض الداخلية والتناسلية من جامعات برلين والنمسا».

إن اختصاص «الأمراض التناسلية» الذي كان من جملة اختصاصات الدكتور صبحي المحملجي، والذي أشار إليه، منذ البداية، إشارة سريعة، لكن مؤثرة وذات دلالة، هذا الاختصاص، الذي يعرف الحكيم أهميته وتأثيره، أقام بينه وبين الكثيرين روابط قوية ومتداخلة!

فلم تمر أسابيع قليلة على وصوله إلى حران إلا وبدأت بينه وبين الأمير علاقات وثيقة حتى أن كثيرين تساءلوا من جديد ما إذا كانت معرفة سابقة تجمع بين الرجلين، وقد حملهم على هذا التساؤل طريقة الطبيب في السلام على الأمير في الليلة الأولى، ثم هذه الجلسات الطويلة الخاصة التي تجمعهما الآن. والأمير الذي ظل يحرص، أمام الآخرين، أو في

بداية قيام هذه العلاقة، على أن يسأل ويستمع بانتباه عن الأمراض: أعراضها، أسبابها، وطرق معالجتها، ويبدي اهتماماً وإصغاء أثناء ما كان الطبيب يشرح، رغم أن القسم الأكبر مما كان يسمعه لا يفهمه، وتختلط المعلومات إلى درجة يحار كيف يمكن للطبيب نفسه أن يعرفها، فقد كان دائماً يهز رأسه دلالة الفهم والمتابعة، وفي أغلب الجلسات كان الأمير يبدي رغبته في استعمال السماعة، في أن يضعها على صدر أحد رجاله ليستمع إلى دقات قلبه. كان دائماً شديد الإعجاب بهذه الآلة، ويتمنى من أعماقه لو يستطيع أن يحصل على واحدة. وفي هذه الجلسات، ومن خلال الأسئلة، كان الحديث دائماً يتجه إلى تلك القضية الحساسة والمثيرة معاً «قضية الجنس» والطبيب الذي لا يعطي إلا القليل القليل، كان بإجاباته يثير من الفضول والرغبة أكثر مما يفسر ويوضح للآخرين، تاركاً كل واحد مفكراً مهموماً، وراغباً أيضا في أن يزوره منفرداً.

في فترة معينة، وبعد أن توثقت العلاقات أكثر من قبل بين الطبيب والأمير، أصبحت الأسئلة أقل براءة ومباشرة جداً وصريحة.

الدباسي الذي وافق بحماس على تأجير الدكاكين الثلاث إلى الطبيب، استجاب بكثير من التفهم إلى الاقتراحات والتعديلات المطلوب إجراؤها، لكي يتم تحويلها إلى عيادة ومستشفى ومكانٍ لسكن الطبيب. كان فخوراً أن الطبيب اختار هذه الدكاكين، وكان يحرص على أن يكون صديقاً وقريباً، كما أبدى استعداداً لأن يلبي أية طلبات لاحقة. وحول هذه النقطة الأخيرة جرى بحث غير واضح وغير نهائي في إمكانية بناء طابق ثانٍ، وربما ثالث أيضاً، لكي يصبح هذان الطابقان مستشفى كبيراً ومكاناً لائقاً لسكن الطبيب، خاصة حين تصل عائلته.

كان الدباسي يتعمد أن يقضي وقتاً أطول مما تعود في فترات سابقة للإشراف على التعديلات التي تجري. وقد تعمد أكثر من ذلك أن يكون قريباً من الطبيب، ورغم أنه قرر مرات عديدة، بينه وبين نفسه، مفاتحته لكي يعطيه بعض المقويات والأدوية، لأنه أصبح يشعر بحاجة إليها، خلافاً للفترات السابقة، رغم أنه قرر ذلك إلا أنه لم يجرؤ في البداية. كان يحس

بالخجل والارتباك حين يبلغ في تصميمه حد المكاشفة، كانت تظهر بعض العوائق، مما اضطره إلى تأجيل ذلك لفترة غير قصيرة.

ومثلما توثقت علاقات الحكيم بالأمير والدباسي فإن علاقاته بشاه بندر التجار وحسن رضائي وآخرين أخذت المنحى ذاته، مع اختلاف يسير بين واحد وآخر. حتى ابن نفاع الذي ظل حذراً مراقباً كل الفترة الأولى، وسمع ما قاله مفضي الجدعان وما قاله غيره، ورأى الطبيب عدة مرات في المسجد، ورأى التقى الذي يظهره، ثم عرف أنه كان رئيساً لبعثة الحج، فقد أبدى نوعاً من التسامح والتفهم لمجيئه، أما بعد أن وصل محمد عيد، وما نقله عن الطبيب أثناء مرافقة الحجاج، كيف أنقذ العشرات من موت محقق، وكيف كان يواصل الليل بالنهار لمراقبة المرضى والعناية بهم، ما إن سمع ابن نفاع هذه التفاصيل، واستفسر من محمد عيد حول عدة أمور، حتى تغير بشكل واضح. قال أمام الكثيرين أن ابن جدعان مخطئ ولا يريد خير المسلمين، لأنه يحاول قطع رزق واحد من الرجال الصالحين. وقال أكثر من ذلك، إن حران التي احتملت عدداً من التجار يزيد يوماً بعد آخر، لا يضيرها لو وجد أكثر من طبيب. أما المرضى فيمكن أن يذهبوا إلى ابن جدعان أو إلى الطبيب الجديد، لا فرق في ذلك. وقد أورد ابن نفاع عدة أحاديث وقصصاً عن الرسول قالها أو حصلت له، وكلها تحث على النظافة ومعالجة المرض.

مفضي الجدعان كان آخر من يتصور أن ابن نفاع يمكن أن يقف إلى جانب الطبيب الجديد. فلما تأكد من ذلك، قال أمام عدد من الرجال، وهو يشمر عن يده اليمنى ويحرك أصبعه بطريقة معينة:

ـ يتوهم ابن نفاع. يفكر أن اللي الله هدّه يمكن للطبيب أن يرده. . .

وحرك أصبعه أكثر من مرة دلالة الرخاوة وتابع وهو يضحك:

ـ قولوا له يجدع هذه السالفة من رأسه، وراح يظل ينام كفي على وجهه.

ابن نفاع الذي نقل إليه ما قاله مفضي الجدعان، استشاط غضباً، قال والزبد يتطاير من حلقه:

ـ قولوا له: ابن نفاع يعرّس كل ليلة وكل يوم، وإذا أراد يولّم أمه وينتظر بالباب ليسمع ويشوف.

وطالت المعركة بين الاثنين وتشعبت، لكن الحكيم لم يتدخل مباشرة. كان يسمع ما يقال، كان ينقل إليه حارسه هديب كل ما يجري، وبعد ذلك أخذ ينقل إليه محمد عيد مباشرة تفاصيل أخرى. فكان رده الذي قاله في مجلس الأمير ذات ليلة، وبدا شديد الثقة:

ـ إذا أراد ابن نفاع يمكن أن أرجعه شاباً ابن عشرين، ويمكن أن يعوّض كل ما فاته!

كلمات الحكيم السريعة العابرة، والتي كانت في معرض المزاح، رنت في آذان الرجال رنيناً حاداً موصولاً، والذين لم يفكروا يوماً بسؤاله حول هذا الأمر بالذات، لأنهم لا يشعرون بحاجة إلى ذلك، أحسوا أنهم قد يحتاجون إليه في يوم من الأيام، وأنه يملك قوى وإمكانيات خارقة! أما الذين انحطت قواهم، الذين كانوا بحاجة ماسة إلى المساعدة، فقد شعروا أنهم وصلوا إلى ضالتهم بعد انتظار طويل وبعد عذاب أطول، ولذلك تعلقت به العيون تتابع كل كلمة، كل تصرف، ودون إرادة، ودون شعور، أصبح الدكتور صبحي المحملجي مثالاً وأملاً للكثيرين.

والدكتور صبحي الذي عرف أو قدر أن حران بحاجة إلى طبيب، فإن مشكلة الأدوية أو مشكلة الصيدلية لم يفكر فيها بالمقدار الكافي. إذ بعد أن احتفظ بالقسم الأكبر من الأدوية التي كانت مع بعثة الحج، فقد طلب من مساعده أن يحضر معه عندما يأتي مجموعة أخرى سماها له، لكن ما عنده منها، وما يأتي به محمد عيد إذا كفى شهراً فلا بد أن ينفذ في الشهر التالي، ولذلك فكر، في جملة ما فكر فيه، أن يقيم علاقات طيبة مع الطبيب الباكستاني الذي يعمل في الشركة. قال ذات ليلة لمساعده وهما يرتبان الأدوية:

ـ تأمين الدواء يتطلب وجود اتصال مباشر مع النبع، والنبع في هذه الفترة هو الشركة، حتى يأتي صاحبنا صدقي المفتي أو واحد ابن حلال مثله.

وبكثير من البراعة والمكر بدأت زيارات بين الدكتور صبحي والدكتور محمد جناح. كانت أول الأمر زيارات مجاملة، تخللتها بعض الصعوبات، لأن الدكتور جناح لا يحسن سوى الإنكليزية، ويعرف بعض الكلمات العربية فقط، أما الدكتور صبحي فإن إنكليزيته «إنكليزية قراءة وليست إنكليزية أخذ وعطاء» هكذا قال الحكيم أول مرة، واستعان بوسائل عديدة، بالكتابة، بالقاموس، بالإشارات، وببعض الكلمات العربية أيضاً لكي يتفاهما. أما في المرات التالية فيبدو أن الاثنين استعدا، فحصيلة الدكتور الباكستاني من الكلمات العربية كانت أكبر، وكذلك حصيلة الدكتور صبحي من الكلمات الإنكليزية، وقد نطقها بطريقة بدت غريبة أول الأمر ولم يفهمها الطبيب الباكستاني، لكن بعد أن فهمت تحولت الغرابة إلى متعة مشوبة ببعض المزاح. وهكذا توثقت العلاقة بين الاثنين إلى ما يشبه الصداقة، وأصبح الاثنان يتفاهمان بطريقة خاصة للغاية!

بدت حران، أثناء تدشين خط الأنابيب، مدينة خطيرة، بنظر نفسها على الأقل! فقد سبق التدشين بأسبوع أو عشرة أيام وصول مجموعة كبيرة من رجال الشرطة والموظفين والحراس والخدم، إضافة إلى كميات كبيرة من المواد التموينية والخراف، ووصلت أيضاً إلى الأمير تعليمات متلاحقة وربما متناقضة.

أحس الناس بهذه الأمور إحساساً غامضاً، فاضطربوا بعض الشيء، وترافق ذلك مع حركة غير عادية في دار الإمارة، وفي البريد اليومي بين هذه الدار ومعسكر الأميركان، ثم استدعاء نائب الأمير لبعض أعيان حران، والأحاديث الطويلة التي جرت بينه وبينهم، وما تسرب منها، أو ما عرفه الناس بطرقهم الخاصة. وبعد ذلك الزيارة المفاجئة التي قام بها ثلاثة من الأميركيين الكبار إلى دار الإمارة ولقاؤهم بالأمير. وفي اليوم التالي زيارة الأمير نفسه لمعسكر الأميركان، وتجوله في المنطقة البحرية، والخيام الثلاث التي نصبت في معسكرهم، وسط الحديقة الكبيرة وقرب بركة السباحة، وقيل إنها ستكون للضيوف، لأن نائب السلطان ولي العهد سوف ينزل في بيت الأمير أو في دار الإمارة.

الحركة التي استمرت أياماً، وتميزت بالاضطراب وعدم الدقة، وقد تخللتها حالات غضب من الأمير أو من نائبه، وحتى من المرؤوسين تجاه من هم دونهم، ثم تساؤلات الناس التي لم تهدأ لحظة واحدة ولم تتوقف، والتي لم يكن من السهل الإجابة عنها، سواء عن عدد الضيوف الذين سيأتون إلى حران أو المدة التي سيقضونها، وأخيراً التعليمات والتنبيهات التي أعطيت على عجل لأصحاب الدكاكين، خاصة في الشوارع الثلاثة

الرئيسية، حيث سيمر الموكب، هذه التعليمات التي أشارت إلى ضرورة التزيين ووضع البيارق والإشارات الملونة، وإظهار الفرح والبهجة، كل هذه الأمور لم يستطع الكثيرون تصور كيف يمكن أن تكون، لأنه لم يسبق لهم أن فعلوا شيئاً مثل هذا من قبل. أما حين رأوا محمد عيد أمام عيادة الدكتور صبحي المحملجي، وقد هيأ مجموعة من العوارض الخشبية، وبمساعدة النجار الذي قام بإنجاز أعمال العيادة، وخلال بضع ساعات انتصب قوس غطى العيادة كلها تقريباً، ثم نشرت على هذا القوس سجاجيد كان الطبيب قد اشتراها في الفترة الأخيرة، أثناء وصول إحدى البواخر. نشرت هذه السجاجيد ـ عدا ثلاث فرشها الحكيم في العيادة وغرفة المنامة ـ ثم وضعت فوقها مجموعة من الأوراق الملونة، كانت عادة توضع في علب الأدوية الكبيرة. وعلى قطعة مستطيلة من القماش خط رؤوف السقا، الخطاط الذي كان في عجرة، والذي انتقل مؤخراً إلى حران، خط عبارات اختارها الطبيب بنفسه، وقد قضى الليلة السابقة يفكر فيها ويكتبها على ورقة أمامه، وظل ينقحها حتى استقر نهائياً على صيغة لها ترضيه. حين انتهى رؤوف السقا من كتابة اللافتة بدت جميلة متقنة، وقد أبدى الطبيب رضاه التام عنها. أما حين رفعت على عرض الشارع، أمام السوق مباشرة، فقد أشرف الطبيب بنفسه على ذلك، وطلب أكثر من مرة أن تُشد الحبال لكي ترتفع اللافتة أكثر، فلما انتهى كل شيء ذهب الطبيب إلى نهاية الشارع لكي يلقي نظرة من هناك، وتقدم خطوة بعد أخرى، وعيناه لا تفارقان اللافتة والقوس، فلما وصل تحتهما تماماً كان بادي السرور وقال بصوت مسموع:

ـ العظماء والقضايا العظيمة تستحق هذا وأكثر من هذا.

مبادرة الطبيب فتحت الآفاق أمام الآخرين، حتى الأمير نفسه لم يتردد في النزول إلى حران وزيارة الطبيب في عيادته، عصر اليوم الذي أقيم فيه القوس، وقد فُسرت هذه الزيارة على أنها بادرة رضا. أما محمد عيد حين سئل عن الزيارة فقد رد بثقة:

ـ زيارة الأمير للحكيم تتعلق بأمور أكبر وأخطر. . . .

توقف قليلاً تطلع في وجوه الذين يسألون ثم تابع:

- أنتم تعرفون العلاقة بينهما، إنهما أكثر من أصدقاء، إنهما أخوة.

ولم يستطع الكثيرون أن يفهموا معنى الزيارة على وجه مؤكد، لكن لم يبق أحد في حران إلا وتحدث عنها.

وإذا كان أهل حران قد اضطربوا وانتظروا فإن دار الإمارة كانت أكثر اضطراباً وأكثر انتظاراً. إذ لم يتصور أحد من قبل أن يأتي إلى حران مثل هؤلاء الرجال أو بعددهم. أما وقد تقرر مجيئهم فلا يعرف كيف سيكون انطباعهم أو رأيهم فيما سيرون أو يسمعون. لكن رغم شعور الرهبة الذي سيطر على الكثيرين فإن شعور الفخر، الذي يصل حدود الكبر، كان أقوى وأوضح، حتى الذين لم يطلب منهم إقامة الزينة بادروا إلى إقامتها، أو على الأقل رفعوا الأعلام أو وضعوا خرقاً ملونة.

الوحيد الذي أظهر رفضاً وصل حدود الإزدراء هو ابن نفاع، إذ ما كاد يمر في شارع الراشدي ويرى القوس الذي أقامه الدكتور صبحي حتى فوجئ مفاجأة جعلته يصرخ:

- آه... يا ابن الحرام يا أرناؤوطي. حسبناك ابن أوادم تراك طلعت مثلهم...

توقف قليلاً ثم أضاف بسخرية:

- لكن مثل ما قالوا: الكلب أخو السلوقي.

ولم يتوقف ابن نفاع عن الشتيمة والتحدي، رغم محاولات محمد عيد استرضائه وتوضيح الأمر له. والرجال الذين اجتمعوا تحت القوس، مقابل العيادة، وكانوا يوزعون نظراتهم بين ابن نفاع وهذه الزينة التي تبدو لهم شديدة التألق، لم يأخذوا كلام ابن نفاع وشتائمه على محمل الجد، وذكروا أنه لا يعني ما قاله كلية، ولكن هذه هي العادة التي لم يستطع هذا الشايب التخلي عنها منذ أن وصل الأميركان وحتى الآن. قال أحد الرجال في لحظة صمت، يريد أن يخلق شقاقاً جديداً:

- يا جماعة.. القصة من أولها إلى تاليها أن الإبرة اللي يحلم بها ابن نفاع ما رضي الطبيب يعطيها له!

وتغامز الرجال وانخرطوا في موجة عالية من الضحك والصخب، وما كادت الموجة تتراجع قليلاً حتى قال محمد عيد مازحاً:

- إذا كانت هذه كل القصة.. فاتركوا الحاج عليّ.

- ومن أنت يا أرناؤوط حتى تتكلم هذا الكلام؟

هكذ رد ابن نفاع غاضباً متسائلاً. كان غضبه شديداً أقرب إلى الهياج، ومحمد عيد الذي فوجئ بهذا الموقف، هز كتفيه ولم يجب. قال أحد الرجال من مكان بعيد متجنباً غضب ابن نفاع أو ربما ضربه:

- اسمعوا.. اسمعوا يا جماعة الخير...

فلما التفتت العيون نحو الصوت، قال الرجل وهو يتحرك يريد أن يفلت:

- آخر زمان يقصر (...) ويطول اللسان، وهذه حالة الشيبة.

لم يصدق ابن نفاع أن أحداً يمكن أن يكلمه بهذه الطريقة أو أن يقول ما قاله هذا الرجل. ظل مذهولاً بعض الوقت، فلما دوّت ضحكات الرجال عالية صاخبة، وسلقته العيون تتساءل ماذا سيكون رد فعله، نحّى الرجال بعصبية أقرب إلى الغضب، وتقدم إلى عمود القوس القريب، أرخى سرواله وهز عضوه أمام الجميع ثم جلس هناك وبال. خيم الصمت وعلت الوجوه تساؤلات مستغربة غير مصدقة، فلما وقف مرة أخرى قال وهو يضحك من السخرية والغيظ:

- قل لراعيك، يا أرناؤوط: ابن نفاع ما يبغي شي أبداً وحيله قوي، وهذا العمود أخذ شراب يلايمه.

وسار ابن نفاع شامخاً غير آبه بالنظرات التي ظلت تتابعه، ولا بالهمهمات التي سرت في الجمع وراءه، وحين ابتعد سمع صوت الطبيب من الداخل ينادي على محمد عيد طالباً منه أن يوافيه بسرعة.

كان ابن نفاع الشخص الوحيد الذي فعل شيئاً للتعبير عن عدم الرضا، لكن حركاته التي أضحكت الرجال، وأخافت محمد عيد، ما لبثت أن ضاعت في حمى الاستعداد والانتظار. حتى جوهر الذي أصبح مسؤولاً

عن الحراسة، ومهمته أن يشرف على الأمن وحماية الضيوف، والذي مر بعد فترة قصيرة ورأى الرجال قرب القوس وسمع منهم ما قاله ابن نفاع، فقد هز العصا التي كان يحملها وقال ضاحكاً:

ـ خلوا هذا الشيبة يعوي وحده، مجنون وهابلته خصيانه!

واستمرت الاستعدادات وتسارعت في الأيام الثلاثة الأخيرة، فلما جاء يوم الأربعاء وصل نائب السلطان وولي العهد الأمير خزعل.

كانت تتقدم الموكب سيارة بيك آب خضراء داكنة، يجلس على المقعدين المتقابلين فيها ثمانية من الحرس بأسلحتهم الكاملة، وهي عبارة عن بنادق طويلة وسيوف، إضافة إلى مجندين من الذخيرة متصالبين على صدر كل واحد منهم، ثم خناجر معقوفة بعض الشيء ومتفاوتة من حيث الطول والشكل. أما جوهر فكان يجلس في صدر السيارة إلى جانب السائق، وكانت يده التي تحمل العصا خارج النافذة أغلب الوقت. بعد البيك آب مجموعة من السيارات، كان عددها ثمانياً لما غادرت عجرة، لكن حين وصلت إلى حران كانت ستاً، لأن اثنتين تعطلتا على الطريق! ولولا أن نائب السلطان، الأمير خزعل، انتبه في الوقت المناسب لظل ركاب هاتين السيارتين على الطريق بين عجرة وحران. أما حين تحول ركاب هاتين السيارتين إلى السيارات الأخرى فقد بدت جميعها، عدا سيارة الأمير خزعل، مليئة ببشر لا يمكن للإنسان أن يميز بوضوح ودقة مراتبهم. سيارة الأمير خزعل حمراء قانية من نوع كاديلاك، أما السيارات الأخرى فرمادية أو بلون الطحين الأسمر، إلا واحدة كانت سوداء، وهذه السيارات من نوعي فورد وشيفرولية.

سيارة الأمير خزعل في الوسط، وهي بحجمها وشكلها وحتى بلونها والعلم يرفرف عليها، كالذبيحة الكبيرة في منتصف منسف متوسط الحجم، وتبدو كالخروف الأبيض وسط قطيع من الماعز!

إلى جانب الأمير خزعل، ومثل قط متربص، جلس الأمير خالد المشاري. وقد ذكر الكثيرون ممن رأوا الموكب يدخل حران، ثم هرولوا إلى جانبه، قريباً من السيارة الحمراء، ذكر هؤلاء أن الأمير خالد كان

صامتاً، وكان العرق يتصبب منه، كما لم يرفع يده بالتحية حين دق بعض الصبية على زجاج النافذة. أما في السيارات الأخرى فقد كان مرافقو الأمير وحاشيته، وكانت البهجة واضحة على وجوه الجميع، بمن فيهم السواق والحرس، وأبدوا الكثير من الطيبة والتسامح أثناء مرور الموكب في شوارع حران. كان الموكب يتوقف بين فترة وأخرى، لأن بعض الرجال أو الصبية كانوا يقفون وسط الشارع، ولأن آخرين كانوا يحملون عصياً ويرقصون بها، ومرة ثالثة توقف أو كاد لأن الأمير خزعل لفت نظره القوس الذي أقامه الدكتور صبحي، إذ طلب من السائق أن يتمهل، وطلب من كاتم السر الذي يجلس مقابله، أن يقرأ العبارات المكتوبة على اللافتة. أما حين وصل الموكب إلى دار الإمارة فكان هناك بانتظاره نائب الأمير ووجوه حران، بمن فيهم الدكتور صبحي المحملجي.

كان كل شيء في دار الإمارة مضطرباً قلقاً. حركة الرجال، خاصة الحرس والموافقين، أكثر مما يجب، بل أعاقت وغيّرت الكثير من الترتيبات التي هيّئ لها بعناية من قبل، ولهذا السبب لم يتح لبعض الرجال مثلاً أن يصلوا إلى الأمير خزعل أو أن يسلّموا عليه. لقد حصل هذا لاثنين من معلمي المدرسة ولدحام وابن جدعان. كما أن محيي الدين النقيب دُفع أثناء تقدمه نحو الأمير، ولولا أنه تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة لكبا على وجهه، وقد سلم عليه الأمير خزعل بحرارة وابتسم له، خاصة بعد أن همس في أذنه الأمير خالد معرّفاً بالرجل!

الدكتور صبحي كان متميزاً واضحاً وسط هذا الجمع الكبير. كان واضحاً بملابسه الأنيقة، دون إسراف، وكان واضحاً ببياض البشرة والابتسامة التي لم تفارق شفتيه، كذلك بنظراته المدققة الشفافة. كان لا يسرف في النظر إلى عيون الآخرين، لكي لا يشعروا بالحرج، إذ ما تكاد نظراته تلتقي بنظرات أحد، خاصة الذين يرافقون الأمير خزعل، حتى يبتسم ويسحب نظراته، كأنه يعتذر، أو يلقي بتحية من بعيد. ومع ذلك لم يفت الدكتور أي واحد من الرجال، بل واستطاع وهو يتقلب على فراشه تلك الليلة أن يستعيد الكثير من الوجوه والتفاصيل عندما كان يتذكر وقائع

ذلك اليوم. واستعاد أيضاً الكثير مما قيل وراجعه بعناية وفكر في كل ما حصل تفكيراً متأنياً موزوناً.

أما حين قُدّم الدكتور صبحي للأمير فقد جرى ذلك بشكل متميز. صحيح إنه قدم بعد حسن رضائي والدباسي والنقيب، لكن هذا لم يقلل من أهميته، ويبدو أن الأمير خالد ذكر أنه صاحب القوس الذي لفت نظر الأمير خزعل، وقد جرت الإشارة إلى هذه النقطة في وقت مبكر، وقبل أن يُقدم للأمير. إن هذا مجرد استنتاج توصل إليه الحكيم، رغم أنه لم يسمع ما تبادله الرجلان من كلمات، لكن أحس من طريقة الأمير وهو يشد على يده!

وتأكدت أهمية الحكيم، بل تفوقه الكلي، بعد لحظات من دورة فناجين القهوة. فمدير المدرسة الذي كان يفترض، أو يطمح، أن يلقي كلمة أهل حران أمام الأمير خزعل، والذي حاول بأساليب شتى أن يقنع نائب الأمير بذلك، تقرر بعد مشاورات طويلة في دار الإمارة، أو على التحديد بتوجيه من الأمير خالد نفسه، أن يكون المدير مقدماً ومُعلقاً، ويمكن أن يجيب عن الأسئلة أو يشرح بعض الأمور أثناء الزيارة، أما كلمة أهل حران فإن الحكيم هو الذي سيلقيها. هكذا تقرر دون إيضاحات كثيرة ودون تبرير. ومدير المدرسة الذي امتثل مكرهاً لهذا القرار، ووافق أن يكون مقدماً للآخرين فقط، ما لبث أن تكلم أكثر مما يفعل عريفٌ لحفلٍ، وهذا ولد بعض الانفعال وما يشبه الاضطراب لدى الحكيم، لأن بعض ما أراد أن يقوله في الترحيب بالأمير خزعل قاله المدير، لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً، خاصة بعد ان هدر صوت الحكيم فملأ القاعة الكبيرة في دار الإمارة والخيمة التي نصبت في مدخلها.

إن الدكتور صبحي يختلف عن رجال كثيرين، إذ بالإضافة إلى كونه أعظم طبيب في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، كما يحب محمد عيد أن يؤكد، وهذا التعبير الجغرافي الغامض يعجبه كثيراً، رغم أنه تساءل بينه وبين نفسه، وتعمد أن يسأل الطبيب وآخرين غيره، أية مناطق يعني وأية بلدان يشمل، إلا أنه لم يتوصل إلى تحديد واضح يطمئن إليه، رغم ذلك

كان يصر على استعمال هذا التعبير، خاصة في مجال المباهاة والتحدي.

إن هذه الصفة في الحكيم لا تثير الجدل، أما أن يكون خطيباً مفوهاً، أن يحفظ الشعر ويورد الأمثال، وبعض الأحيان يورد الطرائف والقصص، كل ذلك ضمن نبرة واضحة قوية، إن هذا لم يعرف عنه، ولم يتصوره أحد. حتى مدير المدرسة الذي نطق باسم الدكتور صبحي المحملجي بسرعة أثناء تقديمه، وكأنه يريد أن يطمسه، ما لبث أن دهش، وعبر عن ذلك بهزات من رأسه، وقد رآه الكثيرون يفعل ذلك، حين بدا الحكيم وسط هذا الجمع وكأنه الشخص الوحيد. أما الأمير خزعل الذي لم يتعود على كلمات من هذا النوع، وكان يفضل سماع القصص والقصيد على وعظ الدراويش كما كان يقول لبعض خلصائه، حتى الأمير ما لبث أن مسه السحر، فأخذ بما كان يقوله الحكيم، خاصة وإن اسمه كنائب للسلطان وولي للعهد، حين يتردد، كان الحكيم يشدد بقوة إضافية على مخارج الحروف.

لم تكن الكلمة طويلة حتى يملّ الناس، ولم تكن قصيرة وكأنها واجب ثقيل. لقد اختار لها الحكيم حداً مناسباً، وضمنها ثلاثة أبيات من الشعر ومثلاً واحداً. أما حين أوشكت على النهاية فقد ختمها بما يلي «وسوف تذكر حران بعد عشرات السنين، بل مئات السنين، هذا اليوم الأغر المحجل من أيامها، يوم زارها ابن أعظم السلاطين، مولاي الأمير خزعل، ويوم تكرمت يداه ففتحت أنابيب الخير والبركة على هذا الشعب، فتدفقت المحبة بين الناس، وشملت الخيرات القاصي والداني وبدأت الحياة الهنيئة».

«باسم حران، باسم رجالها ونسائها، شيبها وشبابها، باسم الحاضرة والبادية، باسم الأمير خالد الذي لا يهدأ ليل نهار، باسم جميع الحاضرين، وباسمي شخصياً، تقبل يا صاحب السمو الملكي أسمى آيات التقدير وأعمق مشاعر الحب والولاء؛ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

أما ما تلا ذلك، خاصة عصر اليوم نفسه، من احتفال في معسكر

الأميركان بافتتاح الخط، ثم الدعوة للعشاء التي أقيمت على شرف الأمير في المعسكر، والتي اقتصرت على عدد محدود من المدعوين، بمن فيهم الدكتور صبحي، ما تلا ذلك اتسم بنفس المقدار الكبير من الارتياح والأهمية والحفاوة. ورغم أن الكثير من التفاصيل الصغيرة، من أحاديث وأسئلة، وبعض القصص والأمثال وأبيات الشعر التي رويت، سواء في دار الإمارة أثناء الغداء، أو بعد ذلك في الخيمة الصغيرة التي اقتصر الحضور فيها على عدد محدود، ثم في الليل، في المعسكر وفي بيت الأمير، رغم أن هذه التفاصيل لا يذكرها أحد، ولا يعرفها إلا عدد قليل من الحاضرين، إلا أنها خلقت جسراً قوياً من المعرفة والثقة وحتى المحبة بين الأمير خزعل والدكتور صبحي المحملجي. أما في اليوم التالي، حين استعد الأمير خزعل للعودة، وبكثير من الارتباك الظاهر والحيرة الواضحة، تقدم الدكتور صبحي من زيد الهريدي، أقرب أعوان الأمير خزعل، وهمس في أذنه كلمات قليلة، ضحك على أثرها زيد وقال بصوت عالٍ يريد الأمير أن يسمعه:

- الأمر أمره.. والهدية لا ترد.

وحين التفت الأمير مستطلعاً سحب الدكتور صبحي من بين يدي محمد عيد، الذي كان يقف وراءه، وعلى مسافة غير بعيدة، سجادة صغيرة وقدّمها للأمير بتواضع، فلما أخذها الأمير، وتطلع إلى زيد الهريدي، ثم تطلع إلى الدكتور صبحي، قال الحكيم:

- هدية متواضعة، يا صاحب السمو، وقيمتها في أن تقبلها، وهذا شرف عظيم لن أنساه طوال حياتي.

قهقه الأمير خزعل وقلّب السجادة وأبدى إعجابه بها، ولما سأله عن عمرها ومن أين اشتراها رد الحكيم بتواضع:

- هدية من جدي لأبي، ومن أبي إليّ يا صاحب السمو، والآن ذهبت إلى أعظم الرجال!

وفي المساء، حين كان الحكيم يتذكر وقائع هذين اليومين مع

مساعده، لكي يرسخ هذه الوقائع فلا تضيع ولا تتوارى، التفت محمد عيد فجأة نحو الزاوية التي تراكمت عليها قطع السجاد التي اشتراها الحكيم قبل فترة، وتساءلت عيناه قبل أن يقول لسانه الجملة كاملة «يمكن يا حكيم اشترينا سجادة تشبه تلك التي. . .» رد الحكيم بسرعة وهو يشيح ببصره لكي لا تلتقي نظراته بنظرات مساعده:

ـ ولكن هذه غير تلك. . . صحيح أن بينهما شبهاً، لكن الفرق من الأرض للسماء!

مفضي

الجدعان ليس فقط «الحكيم» لحران كلها قبل وصول الدكتور صبحي المحملجي، بل كان أيضاً «ملبي الحاجات» كما يطلق عليه. فحين لا يحتاج أحد إلى طبه وعقاقيره، كان ينقل الماء إلى البيوت، ولما يتعب من هذه المهنة أو يضيق بها يقوم بأعمال كثيرة لا تدخل تحت أسماء معينة أو مهن محددة، كأن يساعد الصيادين، أو يركب البحر في سفرات قصيرة، ولقاء أكله يساعده البحارة في التجديف، أو يقوم بأية أعمال أخرى تطلب منه، فإذا عاد مرة أخرى إلى اليابسة يساعد البناءين والذين يقطعون الحجارة، أو يسرح بالإبل أو يذهب إلى الفلاة ليجمع الأعشاب، فإذا ملَّ من هذه الأعمال كلها، وكثيراً ما كان يقع ذلك، يقتفي أثر الأرانب والوعول، ويرجع، أغلب الأحيان، بحصيلة يعجب الكثيرون كيف تمكن من جمعها، وهذه الحصيلة يوزعها بنفسٍ طيبة، حتى أنه كثيراً ما يبقى صفر اليدين فلا يذوق شيئاً مما جمعه بنفسه.

منذ جاء قبل سنين عديدة وحتى الآن لم يتغير شكله إلا تغيراً قليلاً لا يكاد يلحظ، فذلك الوجه الأقرب إلى الأطفال، بالضحكة الصافية الرنانة، والعينين الجريئتين، ثم تلك الأسنان البيضاء اللامعة، وذلك الجسد الناحل الطويل، وكأنه قدّ من صخر أو من خشب قاسٍ لا يعرف الانثلام، جعله بنظر الكثيرين شيئاًثابتاً أزلياً مثل بئر حران أو مثل تلالها. حتى نساء حران اللواتي عرفن مفضي هكذا منذ أول يوم وصل فيه، وينظرن إليه الآن يقلن من بين فجوات الأسنان:

ـ كأن أمه فطمته البارحة، أو كأن السنين لا تقترب منه.

ورغم أنه قضى سنين طويلة في حران فأصبح واحداً من أبنائها أو أكثر

من ذلك، إلا أنه لم يتزوج، ولم يملك بيتاً، ولا يتعدى ما بحوزته أشياء قليلة توضع جميعها في خرج متوسط الحجم، وهي في الغالب ما يحتاجه في مهنته من أدوات الكي والفصد، إضافة إلى كميات من الأعشاب والعقاقير جعلها في صرر صغيرة محكمة الربط، ويعرفها من ملمسها، دون أن يضطر إلى فكها، فإذا أشكلت عليه بعض الأحيان، لتشابه الصرر بشكلها أو بحجمها، فإن رائحتها تكفي ليقرر دون ما خطأ.

في وقت متأخر وبعد أن تغيرت حران كثيراً، وجاءها خلق كثير، كان الرجال يخرجون من جيوبهم قطعاً نقدية ويقولون لمفضي: «إذا عرفت قيمة هذه القطعة فهي لك» فيقلب مفضي القطعة المعدنية أو الورقة النقدية، ينظر إلى الخطوط والرسوم بإعجاب ثم يعيدها إلى صاحبها ويقول: «أتريد الصدق؟ والله لا أدري!» ويضحك الرجال قليلاً ثم يحاولون مرة أخرى ويحصلون على نفس الجواب.

لم يتعامل مفضي في يوم من الأيام بالنقود، ولا يخفي احتقاره لها. كما لم يتعامل لقاء ما يقدمه من خدمات بمقابل، كان يغضب غضباً جامحاً إذا لوح له أحد أنه سيدفع له أجراً، أياً كان هذا الأجر. كانت الكلمات تخرج من بين أسنانه:

ـ يجي يوم تبيعون فيه الماء يا أهل حران. .

ويهز رأسه بلوعة ويقول وهو ينظر إلى الأرض:

ـ استحوا واتقوا الله يا جماعة الخير.

ولأنه كذلك فإن نظرة الناس إليه تختلف عن نظرتهم إلى غيره، وتعاملهم معه يختلف عن تعاملهم مع الآخرين. كان يدخل أي بيت من بيوت حران كأنه يدخل بيته، ولا يتردد في طلب الأكل أو اللبن. وحين يهترئ ثوبه أو حذاؤه لا يتردد في أن يطلب بديلاً. صحيح إنه لا يفعل ذلك بسرعة، إذ يؤجل مرة بعد أخرى، فيخيط الثوب ويربط النعل، فإذا وصل الحال درجة التلف الذي لا يجدي معه أي إصلاح، كان يقصد الميسورين أكثر من غيرهم، فيطلب الحذاء من واحد والثوب من آخر.

وفي حالات كثيرة كان الناس يجنبونه الطلب، أو بكلمات أدق كانت خزنة تقوم بهذه المهمة، وهي امرأة تشارك في معالجة المرضى، خاصة الأطفال والنساء. كانت خزنة قبل غيرها، رغم عينيها العمشاوين، تعرف أن ثوب مفضي قد تمزق، أو أن حذاءه قد دب إليه التلف، فتتولى تأمين ثوب أو حذاء، كانت تفعل ذلك بكثير من المهارة، ودون أن يحس أحد، حتى إذا قال أحد الميسورين لمفضي أنه يريده لأمر هام، وعليه أن يمر في اليوم ذاته، يكون قد هيأ له ثوباً أو حذاء. هكذا كانت تتم الأمور، رغم تمنع مفضي، إن كان في ثوبه أو حذائه بقية من رمق.

هذا هو مفضي الذي عاش في حران كل هذه السنين، فنسي الناس أنه جاء إليها كما جاء غيره، ونسوا أكثر من ذلك ما يفترضون أنه سبب مجيئه. أما لماذا لم يتزوج ولم يفتح بيتاً فقد ظل سراً يطوي صدره عليه، وفي إحدى المرات، ونتيجة خطأ أو سهو، قالت خزنة أن امرأة تنتظر مفضي، وإنها السبب وراء تركه لموطنه وأهله، ولا بد أن يعود في يوم من الأيام.

قالت خزنة ذلك أمام زوجة ابن نفاع وأم عبد الله السعد، وحين استفسرت المرأتان المزيد من الاستفسار تهربت خزنة من الإجابة، ثم ما لبثت أن غيرت الموضوع. وفي مرة لاحقة أنكرت، قالت ذلك مدعية أنه مجرد احتمال أو تقدير من عندها. أما حين سأل ابن نفاع مفضي ما إذا كانت وراء مجيئه امرأة فقد أصفر وجهه وبدا شديد الاضطراب، وأنكر إنكاراً تاماً أن يكون بشر، رجل أو امرأة وراء مجيئه.. ومثل عادته دائماً غيّر الموضوع!

هل يمكن أن يكون هذا هو السبب وراء العداء الصامت بين الرجلين؟ وهل ما بينهما عداء أم مجرد جفوة، أو عدم تطابق النجوم كما يقول مفضي؟ ابن نفاع يقول إن مفضي لا يعرف الله، لأنه لا يصوم، وحتى الصلاة إذا استطاع أن يهرب منها لا يتردد. ففي شهر رمضان يركب البحر أو يخرج إلى الفلاة. فإذا سئل لماذا لا يصوم يجيب أنه على سفر! أما إذا حان وقت الصلاة فكثيراً ما يشغل مفضي نفسه بأمر من الأمور لكي يهرب من هذا الواجب، فإذا لم يستطع كانت صلاته قصيرة مختصرة، ويكون

أول الخارجين من المسجد، وغالباً ما يلتفت وراءه خوف أن يقبض عليه أحد!

لم يتغير مفضي رغم أن حران لم تتوقف يوماً واحداً عن التغير. فالبدو الذين جاءوا من جهة الصحراء، عن طريق عجرة، لم يترددوا في سؤال مفضي واللجوء إليه إذا ألمّ بهم المرض. كانوا يذهبون إليه أو يبعثون وراءه حالما يحسون بالتوعك أو الألم. كانوا يعرفون الأعراض في بداياتها، فإذا لم يعرفوا علاجها أو لم يملكوا الدواء المطلوب يخفّون إليه مسرعين قبل أن تقعدهم الأوجاع أو ترهقهم. أما الحضر الذين جاءوا على نفس الطريق، ولكن من أماكن بعيدة، ولم يألفوا هذا النوع من العلاج، فكانوا يترددون في اللجوء إلى مفضي أو استشارته، ولم يخف بعضهم سخريته منه، لكن مع تزايد الألم وانحطاط القوى، ونتيجة الإرهاق الذي ما يني يزيد ساعة بعد أخرى، يوماً بعد يوم، لا يجدون مفراً من اللجوء إليه والامتثال لما يطلبه. هذان النوعان من البشر هما اللذان قامت بينهما وبين مفضي علاقة من نوع ما. وإذا كان البدو لم يشكّوا ولم يترددوا، فإن الحضر ظلوا كثيري الشكوك فيما يصفه لهم من العلاجات، بل وكانوا ينسون بسرعة العلاجات التي شفتهم أو المرات التي شفوا فيها، ويتذكرون ما سواها، فيكيلون لمفضي أقذع الشتائم وأقساها، واصفينه بالأهبل والدجال، ومعتبرين أنفسهم أخف عقلاً منه لأنهم صدقوه ووافقوا على تجرع تلك الأدوية المرّة التي وصفها!

أما الذين جاءوا من وراء البحر، أو عن طريق البحر، فلم يعرفوا مفضي في البداية ولم يحفلوا به بعد ذلك، لأنهم جاءوا ومعهم أطباؤهم وأدويتهم. والفقراء منهم الذين لا يعرفون الأطباء كانوا يحملون معهم في زجاجات صغيرة ملونة أو بخرق مربوطة بإحكام الأدوية التي يحتاجون إليها. والمرات القليلة التي رأوا مفضي في السوق، قرب الجامع أو قرب فرن عبده محمد، يكوي بعض المرضى، كانوا يشيحون بوجوههم عنه، ويخافون منه خوفاً حقيقياً، بل وكان بعضهم لوقتٍ غير قصير يلتفت وراءه. وروى عدد منهم أن كوابيس سوداء لاحقتهم في ليال كثيرة بعد أن شهدوا ما

قام به مفضي في السوق، وكانوا دائماً هم الضحايا في هذه الكوابيس.

أما خزنة الحسن، شريكة مفضي في هذه المهنة الشاقة، فقد أتقنتها على كبر، وبعد وصول مفضي بعدة سنوات، ويقال أنها أقل كفاءة منه، وهي تهتم بالنساء والأطفال، وتعالجهم على قدر معرفتها، إضافة إلى المساعدات التي تقدمها للنساء أثناء الوضع، خاصة في الفترة الأخيرة، بعد أن تغيرت الحياة في حران. وكانت أيضاً تجلس إلى جانب المحتضرين من الرجال والنساء، لتذكرهم بالشهادة، ولكي تنقّط الماء في حلوقهم، ولا تتردد أثناء ذلك في قراءة بعض السور القصيرة التي تعرفها من القرآن. كانت تقرأ بصوت خافت مدغوم، وقد قال ابن نفاع أكثر من مرة أن خزنة لا تعرف من القرآن الكريم حتى سورة الحمد، ولذلك تكون قراءتها بهذا الشكل الغامض المتداخل، لكي لا يميز أحد الخطأ من الصواب. لكن رغم ذلك فإن أخطاء من هذا النوع كان يغفرها الجميع ويتناسونها بسرعة، لأن مجرد ذكر الله عند رؤوس الذين يحتضرون يخفف عنهم ويجعلهم ينتقلون إلى الدار الآخرة براحة نفس مطمئنة وربما دون ذنوب أيضاً.

لم تكن خزنة تتردد في طلب الأدوية من مفضي أو استشارته في حالات معينة، بل وكانت ترفع يدها عن المريض إذا قدّرت أنها لا تستطيع إفادته أو شفاءه. وكانت تؤكد بإلحاح أن «أخو الجهرا» تعني مفضي، وحده القادر على معالجة هذه الحالة، وأغلب المرات كان يستجاب لطلبها. أما تلك النسوة اللواتي وفدن في الفترة الأخيرة، ولا يعرف ما إذا كن حضريات أم بدويات، فلم يكن ليستجبن لمثل هذا الطلب، ولذلك كان مفضي يعاون بطريقة غير مباشرة، ببعض الشروح والإيضاحات التي تمكن خزنة من مواصلة مهمتها، وما كانت لتفعل أو لتواصل هذا العمل لولا النذر الذي نذرته بعد أن غاب ابنها، أي بعد أن ركب البحر ومرت الأيام تبعتها الشهور ثم أعقبتها السنوات، ولا يأتي منه أي خبر. فقد نذرت خزنة الحسن أن تعالج المرضى وأن تبذل أقصى ما تستطيع إلى أن يعود ابنها، وما تزال تمارس هذه المهنة بانتظار عودته.



كان من السهل، أو على الأقل من الممكن، أن تحتمل حران الحكيمين: مفضي الجدعان وصبحي المحملجي، فالناس يتزايدون يوماً بعد يوم، وأغلب الذين يتداوون عند مفضي لا يفكرون بزيارة الحكيم الجديد أو التعامل معه. أما أولئك الذين رحبوا بصبحي المحملجي وفرحوا لمجيئه، وكأنهم كانوا ينتظرونه، فإنهم قد بدأوا يملون مفضي قبل وصول الحكيم الجديد بشهور طويلة، بل إن أكثر الذين كانوا لا يترددون في تقديم الثوب أو الحذاء لمفضي، قد توقفوا عن ذلك، لأن مفضي الذي لا يعرف المال ولا يتعامل به، بل ويحتقره أيضاً، لا يميز ما إذا كان المال يعنيه أم يعني الآخرين. فما كاد المال في حران يزيد ويتدفق بين أيدي الكثيرين حتى تغير مفضي تغيراً عجيباً، وهذا التغير يزداد ويكبر ما زاد المال وما كثر. ومفضي الذي تعلّم السكوت خلال السنين الطويلة، لم يستطع ذلك بعد الآن. أما خزنة الحسن التي شعرت قبل الآخرين وأكثر منهم أن مفضي الجدعان بدأ يسلك طريقاً خطراً، فقد كانت على يقين أن هذا الطريق له اتجاه واحد: القضاء على مفضي، لأن الذين يتحداهم ويشتمهم أقوى منه! لم تستطع أبداً أن تفهم لماذا أصبح مفضي مجنوناً هكذا. قدرت بنوع من الغموض أنه لم يعد يحتمل، وأن ذلك الحنين الذي طالما كتمه حتى كاد ينسى، كان أقوى مما تصورت وأقوى مما افترضت، ولا بد أن يكون هو السبب في هذا التغير الذي طرأ عليه.

قالت له ذات يوم، وقد رأت رأسه معصوباً من أثر جرح:

- ولد الحرام دحام ما يوفر أبوه، قتل ابن الراشد وقال: مات موت الله، وأنت رايح تناطح دحام وغير دحام.. اترك البشر يا رجال.

وحين هز رأسه، ولم تفهم ما إذا كان يعني الموافقة أم التحضير لجولة جديدة، قالت بمكر:

- إذا كانت البل طلبت أهلها والقلب ما يحمل... اقصد الله، يا محروس.

ضحك مفضي ساخراً ولم يجب.

لقد حصل هذا بعد أن أرسل دحام رجالاً ضربوا مفضي وأدموه، لأنه

تجرأ وقال إن دحام يسرق الناس، يسرق العرب والأميركان، يسرق الأحياء والأموات. بعد هذه الحادثة ضرب مفضي مرة أخرى في السوق، ولم يُعرف ما إذا كان صالح الدباسي وراء ذلك أم محيي الدين النقيب، لأن مفضي شتم الاثنين، وقال عنهما كلاماً قاسياً. وفي مرة ثالثة سُرق من مفضي الخرج الذي يضع فيه كل شيء، وبعد يومين وجد الخرج مطروحاً قرب الجامع، وكل ما كان فيه من عقاقير وأدوية تالفاً وقد اختلط بالتراب.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد ذكر بعض الرجال الذين وصلوا حديثاً من عجرة، وكانوا يعملون عند دحام، ولم يكونوا قد عرفوا مفضي بعد، ذكر هؤلاء أن مفضي هو الذي تسبب بموت تركي المفلح.

ومفضي الذي يسمع ما يقال فتنفتح عيناه على اتساعهما دهشة واستغراباً وخوفاً لا يتصور أن تصل الدناءة بهؤلاء الأغنياء لترويج هذه الأخبار الملفقة الكاذبة. وبدل أن يتراجع ويحترس فإنه يندفع مثل ثور: «يا أهل حران، الحاضر يبلغ الغايب، ابن جدعان مثل ما كان، لا يغدر ولا يخون، وما له بهذه الدنيا شيء ولا يخاف إلا رب العالمين. يا أهل حران الفلوس خرّبت قبلكم كثيرين، خرّبت دول وممالك. الفلوس إذا انعبدت استعبدت وما أسعدت، وبعيونكم تشوفون. ناظروا دحام وابن دعيج وابن فرحان، ناظروا النقيب وابن سيف والسلامي، الواحد ياكل أبوه، ويقتل أمه وأخوه، لكن لا شيء يدوم ولو دامت لغيرهم ما وصلت لهم، وباكر بعيونكم تشوفون، والله والله لأظل وراهم حتى ألعن والديهم وأنا وهم.. والأيام بيننا» والناس الذين يسمعون ما يقوله مفضي الجدعان لا يفهمون هذا الجنون الذي طرأ عليه فجأة، ولا يجدون له سبباً أو تفسيراً.

هكذا كان مفضي الجدعان حين وصل الدكتور صبحي المحملجي: حانقاً، مستثاراً، وكان حائراً أيضاً. لا يعرف كيف ترتفع البيوت وتُشترى الأراضي وتمتلئ الجيوب بهذه السرعة. يحس، دون دليل واضح، أن الكثيرين لا يعملون شيئاً سوى السرقة، يسرقون حين يشترون، ويسرقون حين يبيعون، فلما رأى الدكتور وحوله هؤلاء الأغنياء السراق، ثم لما عرف أن هذا الرجل جاء ليبقى في حران، ويريد أن يتقاضى أجوراً لقاء

المرض والموت، لم يصدق أبداً. أما حين افتتح الدكتور صبحي عيادته وبدأ يستقبل المرضى ويوزع عليهم تلك العلب الملونة ويتقاضى لقاء ذلك أجوراً لا يمكن للعقل أن يصدقها، فقد تأكد أن سارقاً جديداً يضاف إلى الذين كانوا من قبل، ومن أجل أن يمنع السرقة أخذ ذلك المكان، قريباً من عيادة الدكتور صبحي، لعله يستطيع شيئاً. والدكتور الذي أراد أن يبدأ بداية قوية، كان يفترض أن إزالة العوائق من الطريق، بحذف أولئك الذين يمكن أن يشكلوا تهديداً، أمر أساسي جداً. وحين بدأ مفضي الجدعان لم يتردد الدكتور في أن يصفه بالدجال، وبدأ، خفية، يحرض ضده. كان بطريقة مليئة بالمكر يسخر من أولئك الذين يقتلون الناس بحجة معالجتهم، دون أن يسمى مفضي بالذات. كان يتحدث عن الميكروبات والالتهابات وأشياء أخرى كثيرة، أما الذين يستمعون إليه فكانوا لا يفهمون أغلب ما يقوله، لكن ما دام المعني هو مفضي فإنهم يوافقون، ويضيفون إلى ما قاله الحكيم أشياء أخرى كثيرة.

لم يظهر الدكتور صبحي في هذه الحرب أبداً. كان يكتفي بالتحريض، وغالباً ما يكون تحريضاً خفياً، لأن من المبادئ الأساسية التي يؤمن بها: «الحرب المتكافئة، حرب الأنداد، لأن مثل هذه الحروب وحدها التي تشرّف المتحاربين، حتى الذين يخسرون، أما الحرب غير المتكافئة فإن المنتصر فيها مهزوم أيضاً». كان يقول هذا لنفسه ويضيف وهو يبتسم حين يتمثل له وجه مفضي الجدعان «ومن كان عنده خادم يجب أن لا يوسخ يديه!» وتمر في مخيلته صور أولئك المسعورين الذين يريدون أن يقضوا على مفضي اليوم قبل الغد، فيبتسم ويستمر في التحريض.

لكن بمرور الأيام ينسى الدكتور صبحي، أو يجبر نفسه على نسيان مفضي الجدعان، وحين التقى به أثناء وصول الأمير خزعل لافتتاح خط الأنابيب، تجاهله تماماً، رغم أنهما تقابلا وجهاً لوجه. كانا أول الأمر متقاربين، أما حين قال له عبد الله السيف:

ـ تراك إذا قرّبت خطوة ثانية، يا حكيم، لا بد ابن جدعان فاصدك أو كاويك!

فقد التفت الطبيب بطرف وجهه نحو مفضي وضحك ساخراً وتحرك.
أما بعد ذلك حين تعذر على مفضي أن يسلّم على الأمير، حين دفع مع كثيرين غيره، فقد أحس الحكيم بأهمية إضافية، وزادت هذه الأهمية حين وصلته بعد شهرين أو ثلاثة شهور من تدشين الخط، هدية الأمير خزعل، وهي عبارة عن سيارة خضراء. لقد كانت هذه الهدية بمثابة بداية الموت الحقيقي لمفضي الجدعان.

فالدكتور صبحي الذي كان يتحسب، حتى لو لم يعلن، من مفضي الجدعان، وكان يحرّض ضده، نسيه نهائياً في هذه الفترة لانشغاله بأمور أخرى أكثر أهمية. فالأرض الكبيرة التي كانت للسلامي على طريق معسكر الأميركان، ناحية الشمال، بدأت تقوم عليها أبنية غريبة، قيل في البداية إنها للشركة، لكن حين شوهد الدكتور صبحي هناك عدة مرات، إضافة إلى التوجيهات التي كان يعطيها بصوت عالٍ، فقد تأكد الجميع أن البناء يخصه، وتأكد هذا أكثر حين وضع السقا لافتة على مفرق طريق المعسكر ـ دار الإمارة، كتب عليها: «مستشفى الشفاء» ووضع سهماً باتجاه الشمال؛ عند ذاك لم يبق شك عند أحد أن البناء الذي يشاد هناك يخص الدكتور صبحي المحملجي. وفي هذه الفترة سافر الدكتور مرتين أو ثلاث مرات. لم يعرف الناس إلى أين، لكن حين عاد من إحدى السفرات كان معه مجموعة من الأشخاص. وقد استنتج الكثيرون نوعاً من القرابة لشدة الشبه بينهم. وما كادت أسابيع تنقضي حتى افتتحت «صيدلية الشفاء»، وغير بعيد عنها افتتح الدكتور وصفي الآغا عيادة لمعالجة الأسنان. ويؤكد مدير المدرسة أن وصفي كان مجرد مساعد طبيب أسنان في حلب، وقد عرفه هناك، ولا يعقل أن يكون قد درس طب الأسنان بعد أن تجاوز الخمسين! ورغم أن الكثيرين سمعوا ما قاله المدير، إلا أن «الدكتور» وصفي بدأ يستقبل المرضى في مطلع الشتاء، وكان من أوائل الذين زاروه الأمير خالد، إذ صنع له أسناناً ذهبية في مقدمة حلقه، وقد لفتت نظر الناس كثيراً!

وفي هذه الفترة تزوج من جديد عدد من الأغنياء. لقد فعلوا ذلك في

فترة واحدة تقريباً، أو بكلمات أدق خلال الشتاء ذاته، وكأنهم كانوا على اتفاق فيما بينهم، لأن عادة حران أن تتحدث عن مثل هذه الأمور قبل وقت طويل، وأن تمتلئ بالقصص والحكايات، وأن تسري فيها الإشاعات أيضاً، إلا أن الأمور سارت خلافاً لذلك هذه المرة. فما كاد الشتاء يبدأ إلا ويبدأ زواج الكبار، كان أكثرهم أصدقاء الدكتور صبحي، وكان ضمنهم أو أولهم الأمير خالد نفسه. وما لفت النظر إن هذه الزيجات تمت دون ضجة ودون احتفالات، خلافاً لما حصل من قبل، لكن ذلك لم يمنع الكثيرين من الحديث عن الأمر في مجالسهم الخاصة، وقد استنتجوا أيضاً علاقة من نوع ما بين الذي يحصل والدكتور صبحي.

وفي هذه الفترة أيضاً لبس جوهر الملابس العسكرية. لقد بدا شديد الغرابة، حتى ظن الكثيرون أن الأمر مجرد مزحة من المزحات، فالرجل القصير الذي جاء بعد شهرين أو ثلاثة شهور من سفر الأمير خزعل في السيارة الخضراء، ترافقه سيارة بيك آب فيها اثنان من العسكريين، والذي سأل باحترام مشوب بالخوف عن دار الإمارة، وتوقع الذين رأوه شيئاً غير عادي، ما لبثوا أن عرفوا في اليوم التالي: فالسيارة الصغيرة كانت هدية ولي العهد للدكتور صبحي. أما البك آب المغطاة فكانت تحوي مجموعة من الملابس العسكرية والبساطير والمستلزمات الأخرى من القياطين والخرق الملونة والإشارات المعدنية وأشياء أخرى كثيرة. وكانت مهمة الرجال الثلاثة إنشاء الوحدة العسكرية؛ مهمة القصير الإشراف الإداري، أما العسكريان فقد قاما بتسليم «اللوازم» إلى دار الإمارة، بموجب إيصالات رسمية، ثم أشرفا على إخراجها مرة أخرى وتوزيعها على «مفرزة الإمارة» كما سمي رجال الأمير. وخلال ثلاثة أيام من الجهد الشاق والمستمر، والذي لم يتوقف إلا في الليل، تكونت مفرزة الإمارة.

كان منظر الرجال وهم يتدربون مقبولاً، أما حين ارتدوا ملابس الاحتفالات والاستعراض فقد أصبح هذا المنظر مثيراً للضحك والاستغراب، فالألوان الكثيرة والشارات المعدنية والقياطين، إضافة إلى الأحذية الثقيلة، كل ذلك جعل حركات هؤلاء الرجال مرتبكة متداخلة،

وأقرب ما تكون إلى اللعب أو إلى حركات أطفال لا يعرفون ماذا يفعلون!
وقد تأكد ذلك في اليوم الثالث حين جرى «احتفال استلام المهمات» كما أطلق على الحفل الذي أقيم عصر ذلك اليوم وحضره الأمير.

لقد كان احتفالاً تحدثت عنه حران وقتاً طويلاً، فالجنود استعدوا منذ الصباح ولبسوا ملابس الاحتفال الملونة والمزينة بالشرائط، أما جوهر فبدا في مقدمة المفرزة مثل طاووس بملابسه المزركشة الفضفاضة، وقد علّق على صدره مجموعة من النياشين والخيوط الملونة، ووضع تحت إبطه عصا لم يُعرف ما إذا جاءت مع «اللوازم» واستلمها جوهر «عهدة» كما استلم الأشياء الأخرى، أم عثر عليها في مكان ما. حين بلغ الاحتفال ذروته، وكان الصمت شاملاً والعيون كلها تشخص نحو الأمير الذي وقف على باب الإمارة، منتظراً تقديم المفرزة، في هذه اللحظة سقطت عصا جوهر فارتبك ارتباكاً شديداً، ولم يعرف ما إذا كان عليه أن يلتقطها أم أن يتركها ويستمر في التقدم نحو الأمير. وحين قرر التقاطها انحنى بشكل مفاجئ وسريع فتعثر بثوبه وسقط! كانت لحظة متوترة قاسية أثارت من الضحك بمقدار ما أثارت من الشفقة، فلما وقف مرة أخرى، وقد تعفرت ثيابه وغسله العرق، التفت إلى المفرزة وراءه، وكانت قد ارتبكت تماماً، قال بانفعال وكأنه يتعارك:

ـ مفرزة.. مكانك سر.

وحاول من جديد أن يرمم المفرزة، أن يعطيها نسقاً منظماً يمكّنها من الوصول إلى الأمير على أحسن وجه، فلما بدا له أن هذا قد تحقق بعض الشيء، صرخ كأنه يؤذن:

ـ مفرزة.. قف. استرح، استعد، مفرزة.. إلى الأمام سر.

قامت المفرزة بكل ما طلب منها ثم سارت، حتى إذا لم تبق إلا خطوتان أو ثلاث من الأمير صرخ بصوت أعلى من كل المرات:

ـ سلام خذ.

وارتفعت الأيدي بالتحية للأمير، الذي ابتسم بدوره ابتسامة كبيرة أظهرت أسنانه الذهبية اللامعة. وخلافاً للتعليمات تقدم جوهر نحو الأمير

وصافحه، أما حين انحنى عليه الأمير يقبله فقد دفن جوهر وجهه في صدره، فظهرت العصا وراء ظهر الأمير وبدا كما لو أن جوهر يضربه، وقد سمع عدد من الذين كانوا يقفون قريباً من الاثنين، أن الأمير، بعد أن رفع جوهر رأسه، يقول له «عصاك، يا جوهر، مثل عصا موسى!» وقد ابتسم الجميع بمن فيهم جوهر نفسه، أما وهو يتراجع ووجهه نحو الأمير، فقد وضع العصا من جديد تحت إبطه، لكن شدّ عليها بقوة، ولما أصبحت المسافة، مرة أخرى، أربع أو خمس خطوات صرخ:

ـ مفرزة.. إلى اليمين در.

فلما دارت ودار معها علا في تلك اللحظة التصفيق، وقد شارك فيه الجميع، حتى الأمير نفسه، وكان ذلك اليوم بداية تكوين «جيش البادية».

قال مفضي الجدعان بعد هذا اليوم بسنة أو أكثر قليلاً، قال لنفسه وهو في تلك الغرفة المظلمة، أسفل الدرج: «سبحان الله، دنيا عجب، أعجب مما يتصور البني آدم، كل شيء فيها تغير، لكن أكثر من تغير هم البشر» هز رأسه وهو يتذكر، ثم مد يده إلى صدره يتلمس الجرح، فلما آلمه أكثر من قبل قال لنفسه «وأكثر ما يغيّر الناس البذلة والفلوس...» وكاد يضيف كلمة أخرى، لكنه خجل منها!

كان مفضي يتذكر جوهر، يتذكره يوم وصل مع الأمير خالد، ويتذكر يوم مرض وكواه، ولما مرض مرة أخرى وفصده. ويتذكر حين عالج الجرح في ساقه، لكن الأرناؤوطي لم يمهله، جاء يصرخ ويشتم، ونقل الذين كانوا موجودين آنذاك، أن الدكتور صبحي، وهو يكشف على الجرح كان يصرخ: «الدجال الذي داواه لازم تكسر يده، يجب أن يقضي حياته في السجن، لأنه قتل الرجل، وحتى لو عاش يمكن أن تقطع الساق كلها» يتذكر كل هذا ويتذكر بعد ذلك لما أصبح جوهر يلبس الملابس العسكرية ويحمل عصا. كان أول الأمر يتكلم مع الناس، يجلس في المقهى أو في بعض الدكاكين. كان يبتسم للصبية وهم يتطلعون بإعجاب إلى ملابسه العسكرية، ولم يكن يمانع في أن يمد بعض الرجال أيديهم لكي يتلمسوا القياطين الملونة أو الشارات المعدنية. كان يبرز صدره بفخر وتعالٍ لكي

يمكّن الذين يريدون أن يتأكدوا من نوعية القياطين أو من ثقل الشارات المعدنية، كما أعطى عصاه لكثيرين لكي يروزوها ويختبروا ما إذا كانت من خشب أو معدن. هكذا كان جوهر في البداية، لكن جوهر تغير «غيّرته، بنت الكلب، البذلة» هكذا قال مفضي الجدعان لنفسه. أصبح يوماً بعد آخر يقطب وجهه، ولا يتكلم إلا أقل الكلمات. أما حين يجلس في المقهى، بين فترة وأخرى، فكان يدخل بأبهة ويتطلع في الوجوه بطريقة عدائية أو ساخرة. أصبح يجلس مع مجموعة محدودة، خاصة من الأغنياء والوجهاء «البذلة خربته، خربته تماماً، صارت مثل البردعة على روحه» صار إذا مر في السوق لا يتطلع في الوجوه مباشرة، وإذا رد التحية يردها باختصار وسرعة. صار يصرخ، ولا يتردد في أن يضرب. أما عندما خُصّص جناح في دار الإمارة «الجيش البادية» وأصبح مقراً لجوهر، فقد تغيّرت الأمور تماماً: أصغر جندي، الجندي الذي لبس البذلة بالأمس، صار مثل جوهر. صار الجنود يمشون في السوق وبأيديهم العصي، ولا يترددون في ضرب أي إنسان لأقل الأسباب، لأتفه الأسباب. أما جوهر نفسه فلم يعد يراه أحد. أصبح يقضي معظم وقته في «المقر»، هكذا أطلق على جناح جيش البادية، وحين اكتملت البناية التي أقيمت لجيش البادية، قريباً من دار الإمارة، فقد أطلق عليها اسم «القيادة». كانت القيادة مؤلفة من طابقين ومستودع، وهذا المستودع الذي ينزل إليه الإنسان بدرج طويل مظلم، نزل إليه مفضي الجدعان مرتين من قبل، والآن هذه هي المرة الثالثة.

كان مفضي الجدعان أول سجين في حران. صحيح أن نائب الأمير حاول أن يسجن هاجم وخاله قبل بضع سنين، لكن لم يكن هناك أي مكان يصلح لأن يسمى سجناً. الآن، وفي هذا المستودع الذي تراكمت فيه أشياء كثيرة: الأرزاق واللوازم وإطارات السيارات والحطب والبراميل، جُعلت فيه غرفة، وهي الأخيرة ناحية اليمين، سجناً.

كان جوهر محرجاً لما جيء بمفضي أول مرة. صحيح أنه ظل جالساً وراء الطاولة، وكان عاري الرأس، لكنه لم ينظر في وجه مفضي إلا مرة أو

مرتين. قال له وهو يتطلع إلى الأرض، أن لديه أوامر بسجنه، وأنه لا يستطيع إلا أن ينفذ الأوامر. ومفضي الذي ظل يتطلع بإلحاح إلى جوهر، ويتمنى لو يرى عينيه، ابتسم حين سمع الكلمات التي قالها له، ولما أخذه اثنان من الجنود إلى المستودع، إلى السجن، قال جوهر وهو يقف:

ـ إن شاء الله كم يوم وتنتهي القضية على خير!

لم يعلق مفضي وظل يبتسم. أما القضية التي تمنى جوهر أن تنتهي خلال أيام فلم تنته إلا بعد أربعين يوماً، وكانت التهمة: شبهة سرقة، المتهم، مفضي الجدعان. إذ بعد أن سرق محل حسن رضائي، أكد اثنان من الرجال الذين يعملون في هذا المحل أنهما شاهدا مفضي الجدعان يدور حول المحل خلال يومين متواليين، وقد حصل هذا قبل السرقة بيوم واحد.

المرة الثانية التي نزل فيها مفضي إلى السجن، إلى تلك الغرفة إياها، كانت إثر مشادة بينه وبين صالح الدباسي. أوقفوه ولم يوقفوا صالح. قالوا إن مفضي هو المعتدي، رغم الكدمات والجروح التي أصيب بها، والتي ظلت ظاهرة تحت عينه اليسرى لمدى أسابيع. أما صالح فقد وافق أخيراً على أن يفرج عنه، وكفله ابن نفاع، وقد حصل هذا بعد ثلاثة أسابيع. وحين أفرج عنه قال له جوهر، وكان غاضباً حانقاً:

ـ كثرتْ طلايبك يا ابن جدعان. كل يوم والثاني لك مشكلة، وهذه المرة إذا وافقنا على كفالة أبو عثمان وطلعت، المرة الجاية تظل تنكز تحت إلى أن تتكسر عظامك.

لم يصدق مفضي أن الكلام موجه إليه، وحين أراد أن يتكلم، قال جوهر بنزق وهو يدير وجهه ويهز يده:

ـ خلصنا، اسكت، وإذا تكلمت أية كلمة تنزل تحت.

والتفت إلى ابن نفاع الذي كان يتابع كل شيء وقال له:

ـ لولا إنك عزيز علينا، يا أبو عثمان، لكان هذا الخبل ما يطلع.

الآن، المرة الثالثة التي ينزل فيها مفضي إلى السجن، إلى الغرفة الأخيرة، ناحية اليمين، لأنه «مشرد»! هكذا وصفه الدكتور صبحي

المحملجي، أثناء الحديث الذي جرى بينه وبين الأمير، حينما كان هذا الأخير يفتتح جناحاً جديداً في «مستشفى الشفاء». لقد جرى الحديث عرضاً. كان الدكتور يستعرض مع الأمير ذكرياته منذ اللحظة الأولى التي وصل فيها إلى حران «لم يكن في حران، ذلك الوقت إلا ذاك الدجال... لقد نسيت اسمه، كان يقتل الناس بالأدوية التي يعطيها، وكان يصرخ ويشتم عندما بدأنا الطب الحديث... الآن خلصت حران من هؤلاء المشردين، وهذه المستشفى دليل على ذلك». لقد راقت كلمة «مشرد» للأمير، ولم تمر ثلاثة أيام، وحين نقل أحد الناس أن مفضي الجدعان يجلس في مقهى أبو أسعد الحلواني ويقول أن الأرناؤوطي، يقصد الطبيب، جمع فلوسه بالحرام، وأن المال الحرام مصيره الحريق أو الغريق، ما كاد هذا الكلام يصل إلى دار الإمارة حتى جاء الأمر إلى جوهر بأن يقبض على هذا «المشرد» الذي لا عمل له إلا شتم الناس. ورغم أن جوهر لم يفهم معنى كلمة مشرد، ولم يتصورها على نحو واضح، إلا أنه نفذ الأمر في أقل من ساعة، ونفذه بطريقة لائقة، إذ كلف الجنود الذين ذهبوا لإحضار مفضي الجدعان أن «يتوصوا» به قبل أن يصل إلى القيادة. وفهم الجنود هذه التعليمات بدقة، لأن مفضي حين وصل كان بين الحياة والموت. لقد تلقى من الضرب والجر والإهانة ما لا يتحمله شاب في مقتبل العمر. تلقى ذلك صامتاً، فقد كان مستوعباً الأمر بدقة ويعرف الأسباب أكثر مما يعرفها الذين يكيلون له الضرب. وبعد شهر، حين جيء به، وقد ربطت يداه خلف ظهره، لمقابلة جوهر، فقد سمع كلاماً لم يتصور أن جوهر يعرفه، أو يمكن أن يقوله له. وبعد هذا الكلام أعيد، مرة أخرى، إلى السجن. لم يسمح له أن يقول كلمة، لم يُسأل، وحين حاول أن يتكلم جاءته ضربة خيزرانة على كتفه وجزء من ظهره جعلته يصرخ، أما وهو ينزل الدرج، وكان يُدفع دفعاً، مما أدى إلى وقوعه، فكان صوته يهدر مثل حيوان جريح «ديار الظالمين تاليها الخراب، ابشروا يا اولاد الكلب، دياركم تاليها الخراب، والله لالعن أبوكم وأبو جوهر وأبو اللي لبّسه البردعة» وظل يصرخ ويشتم بعد مرور وقت طويل على إغلاق الباب عليه!

ستة شهور وبضعة أيام في السجن، وبعدها أفرج عنه. كفله ابن نفاع مرة أخرى. لم يقابله جوهر، قابله أحد مساعديه، رجل حضري صغير السن ويبدو بوجهه الحليق وكأنه فتاة.. قال له:

ـ خلال أسبوع واحد إما أن تعمل في المحجر أو تترك حران.

قال هذه الجملة القصيرة الواضحة وتوقف. نظر إليه بلؤم وحقد، وكان يريده أن يترك الغرفة في أسرع وقت. ومفضي الذي كانت عيناه تؤلمانه أشد الألم، حتى لا يكاد يرى بهما، لا يعرف ماذا يقول. كانت الأمور مختلطة عليه إلى أقصى حد، وكان يشعر بالتعب إلى درجة الإرهاق. وابن نفاع الذي ظل يقلب نظراته بين هذا الشاب الذي لا يعرفه ولم يره من قبل وبين مفضي الذي بدا عجوزاً فانياً، وقد هدّته الشهور التي قضاها في ذلك المكان المظلم، لا يعرف ماذا يفعل.

بعد صمت بدا طويلاً للثلاثة سأل الشاب من جديد:

ـ ها ما هو قولك: المحجر أو تترك حران؟

ولم يتكلم مفضي، قال ابن نفاع لينهي هذه اللعبة الكئيبة:

ـ خلص.. أنا كفيل، وكّل الله يا وليدي وما يصير إلا الخير.

وخرج مفضي متعثراً بخطواته، فوضع ابن نفاع يده تحت إبطه لكي يساعده على السير وليحميه من السقوط!

لم يذهب مفضي الجدعان إلى المحجر ولم يغادر حران أبداً. لقد كان هو نفسه متأكداً أنه لن يفعل، وكان الجميع متأكدين أيضاً. حتى جوهر الذي أوعز إلى مساعده أن يطلب منه العمل في المحجر أو مغادرة حران كان متأكداً أن مفضي الجدعان لن يمتثل لهذا الأمر. أما أبو عثمان الذي استدعي إلى القيادة في اليوم الثالث ليسأل من قبل الشاب ذاته ما إذا كان مفضي سينفذ الأمر أم لا فقد رد بنوع من الغضب:

ـ يا عباد الله، يا جماعة الخير، قلتم أسبوع، واليوم... الثالث ما صار.

قال الشاب الحليق الضامر وهو يبتسم بتحدٍ:

ـ أنت كفيله، إذا مر الأسبوع والأمر ما نفّذ.. انت وإياه ضيوفنا!

ـ يا وليدي.. لا تشيخ، ترانا كلنا ضيوف بهذه الدنيا.

ـ الأوامر هي الأوامر.

ـ وكّل الله، يا ابن الحلال، والأمر لرب العالمين.

ـ بسيطة، خلي الأسبوع ينقضي ونشوف.

وخلال هذا الأسبوع حصلت أشياء كثيرة لا يمكن أن تحصل في أسبوع غيره.

فبعد أن قضى مفضي الجدعان يوماً واحداً في الفراش، نهض في اليوم التالي إنساناً آخر. استحم ولبس الثوب الجديد الذي قدمه إليه أبو عثمان، وجلس في الحوش يستقبل الناس. الذين لم يسمعوا بخروجه أو لم يتمكنوا من زيارته في اليوم الأول فعلوا ذلك في الأيام التالية. والذين لاحظوا خلال الأيام الثلاثة الأولى أن مفضي بدا متعباً، شاحب اللون،

ونور الشمس يؤذي عينيه ما لبثوا أن لاحظوا قوة غير عادية تدب في جسده وعينيه، وأكثر من ذلك بدأ يتكلم بصوت عالٍ، أما الابتسامة، ابتسامة التحدي، فلم تفارق شفتيه أبداً.

بعد الأيام الثلاثة الأولى بدأت زيارات من نوع آخر لمفضي: فابن عجيل الذي باع أراضيه كلها غرب دار الإمارة، لكي يدفع أجور المعالجة في عيادة الدكتور صبحي ثم في المستشفى، وكانت حالته تسوء وتتردى، حمله أولاده إلى بيت ابن نفاع ووضعوه أمام مفضي الجدعان، وخلال ساعات قليلة، وبعد أن كواه مفضي وأعطاه الدواء تحرك وكاد ينهض، أما بعد ذلك بيومين فكان يستطيع أن يمشي مستنداً إلى الحائط.

والدباسي الذي أصابه ألم ربط ساقه اليمنى من الحوض حتى القدم، ولم تجد معه كل الأدوية التي جرّعه إياها الدكتور صبحي، والذي هدّه الخوف إلى درجة أن الثقل أصاب لسانه وبدأت يده اليسرى تؤلمه، ما لبث إن جاء إلى بيت ابن نفاع. جاء بحجة زيارة ابي عثمان، وقد تظاهر أنه فوجئ لما رأى مفضي، لكن لم تمر بضع ساعات حتى كان ممدداً في غرفة داخلية وقد فصده مفضي ودلكه، ثم شد عرقاً في مكان بين الحوض والخصيتين، ورغم الألم وأنين حاد قصير، فقد أكد الدباسي، وهو يتوكأ على عصاه، مغادراً بيت ابن نفاع ذلك المساء، أكد أن الألم الذي يحسه الآن غير الذي كان يحس به من قبل، وفي مكان آخر أيضاً. وبعد بضعة أيام كان يمشي مثلما كان يمشي وهو شاب، لكنه، مع ذلك لم يترك العكاز.

أما حمدان الراعي الذي لم يتوقف يوماً واحداً عن زيارة مفضي، وبدا شديد السرور، ولم يستطع أن يتكلم، ربما من الفرح، أو لأنه نسي عادة الكلام، فقد ظل شيء ما يجعله غير قادر على مواصلة الفرح إلى النهاية، وحين عرف مفضي إن ما يمنعه من ذلك هو كلبه الذي مرض مرضاً شديداً، لم يتردد في أن يطلب منه إحضار الكلب، وأبو عثمان الذي كان يتطير من الكلاب، فلا يتركها تقترب من بيته أو تمس حاجة من حاجاته، وافق على أن يؤتى بالكلب وأن يعالج، وقد قام مفضي بمعالجته، ثم فتح

حلقه وتفل فيه فعطس الكلب ونهض يركض مترنحاً وما لبث أن استعاد قوته.

والعمال الثلاثة الذي رفض صبحي المحملجي استقبالهم في المستشفى، لأن الشركة لن تدفع أجور العلاج في هذه المرحلة، إذ ما زالوا في مرحلة الاختبار والتدريب، وكانوا لا يملكون المبالغ التي يطلبها الطبيب، لم يجدوا سوى مفضي الجدعان، فلما كوى واحداً وأعطى الاثنين الآخرين أدوية جلبتها خزنة الحسن، بدا أن اثنين من العمال الثلاثة أفضل حالاً، أما الثالث فلم يستطع أن يقدّر بدقة ما إذا تحسن أم ظل مثلما كان.

كانت كل حركة، مهما بدت بسيطة، تحصل في حوش ابن نفاع، تنتقل أسرع من البرق. كان أهل حران كلهم يتحدثون عما فعله مفضي الجدعان ذلك اليوم. حتى المرضى الذين كانوا يرقدون في مستشفى الشفاء، وقد مرت على بعضهم أسابيع طويلة، ولم يعد في جنوبهم مكان لا تثقبه حقن محمد عيد، كان هؤلاء يتمنون لو يستطيعون الهرب والوصول إلى مفضي الجدعان، ورغم الألم الذي يمكن أن يسببه الكي، أو ذلك النوع من التدليك الذي يقوم به، إلا أن ألم ساعة خير من هذا الألم الذي يقاسون منه ويزيد يوماً بعد آخر، ما داموا مستلقين على ظهورهم ليل نهار لا يتحركون إلا حين يأتي محمد عيد ويديرهم من ناحية لأخرى لكي يتأكد أياً من الجنبين ما زال قادراً على الاحتمال أكثر!

ومفضي الذي قام بهذه المداواة بفرح يزيد ويكبر بعد كل مريض، كان فرحه يكبر ويزداد مع كل كلمة وشتيمة يكيلها لجوهر ولمن لبّس جوهر البذلة العسكرية، وكانت هذه الكلمات والشتائم تنتقل من لسان إلى آخر، لكن بعد أن تتغير تبعاً للسامع، فالذين كانوا ينقلون لجوهر أو لقصر الإمارة كانوا يسمعون كلاماً لو نقلوه لا يعني شيئاً هاماً أو خطيراً. أما أولئك الذين يبلعون ألسنتهم أمام رجال الأمير فلا يقولون إلا ما يجب أن يقال، كانوا يسمعون كلاماً لا يتمالكون معه أنفسهم من القهقهة العالية، وحتى لو كانوا وحيدين وتذكروا ما قاله مفضي الجدعان، كانوا يبتسمون أو يقهقهون.

خزنة لم تفارق بيت ابن نفاع منذ الساعة التي وصل إليه مفضي، وقد بدت كبيرة هرمة قياساً للفترة الماضية، كما لو كبرت عشرين عاماً، وزاد بكاؤها على ابنها الذي تنتظره، حتى أصبحت عيناها أضعف من قبل. أما بعد أن عاد مفضي فما لبثت أن تغيرت، فبدت أقوى، وأكّد بعض الناس إنهم رأوها تضحك. والمساعدات التي قدمتها لمفضي في العلاج كانت كثيرة ولا تتوقف. جاءت بكل ما عندها من أدوية وأدوات. كانت تمسك بعض المرضى، وتقول كلمات خشنة إن بدا الخوف أو التردد على أحد منهم. وكانت تساعدها في ذلك آمنة بنت ابن نفاع، وهي شابة صغيرة لا يتجاوز عمرها العشر سنوات. كانت الصغيرة تركض حاملة الماء الساخن، أو حاملة قطعاً من الحطب أو القماش. وكانت تنظر إلى مفضي بإعجاب ممزوج بالخوف، خاصة وهو يقوم بعمليات الكي. أمها، صبحة العبد الله ظلت بعيدة وظلت تتحرك مثل قطة مسنّة، غير ملتفتة إلى كل ما يجري ويشغلها شيء واحد: عدد الأفواه التي يجب أن تحضر لها الأكل؛ عدد الأرغفة التي يجب أن تخبزها ذلك اليوم. فإذا سألتها الصغيرة عن أمر يريده مفضي أو تريده خزنة بدت مرتبكة مستغربة وأشارت إلى تلك الغرفة الواطئة حيث توضع كل الأشياء.

التلال الشمالية لا تتوقف عن مراقبة كل ما يجري، خاصة مراقبة التلال الغربية، وعلى التحديد ما يجري في حوش ابن نفاع. وجوهر الذي كان يسمع ويهزّ رأسه كان ينتظر انتهاء مدة الإنذار الذي وجّهه «والله إذا مرّ الأسبوع وابن جدعان بهذه الديرة لاخلي أخباره على كل لسان!» ويبتسم ويقول لنفسه «والله لاجدع أنفه واقصّ لسانه... وهذه العصا تفوت من حدره وتطلع من حلقه، ورب العالمين ما يخلصه...» ويزيد غضب جوهر ويتعاظم ما زادت القصص التي تروى عما فعله ابن جدعان.

حتى الدكتور صبحي الذي نسي مفضي الجدعان نهائياً، ولم يعد يتذكره إلا كما يتذكر الإنسان قصة قديمة، ما كاد يسمع أن مفضي خرج من السجن، وأن من جملة الذين عالجهم الدباسي، حتى قال بنوع من اليأس مخاطباً الدكتور وصفي الذي كان يزوره في المستشفى:

ـ أنا تورطت وورطتكم معي. . .

وحين تطلع إليه «الدكتور» وصفي متسائلاً بوجهه وعينيه ولم يفهم الكلمات التي قالها، تابع وكأنه يخاطب نفسه:

ـ الجماعة، يا أخي، بدو، حمير، إذا قلت لهم: ثور، يقولون: إحلبه!

وعاد إلى لهجته الأولى:

ـ حتى الأغنياء منهم حمير، الدباسي أكبر حمار. انت تعرف الدباسي. . طلعت روحنا ونحن نعالجه. كل يوم: معاينة وإبرة، وهو كما تعرف: خالص، ما منه فائدة. بعد كل التعب والشقاء حمل نفسه وراح عند واحد دجال، بدوي يساوي فرنك وكواه. . ولا أحد يعرف ماذا عمل فيه أيضاً.

والدكتور وصفي الذي ضحك ساخراً وهز رأسه دلالة الأسف والاستغراب تساءل:

ـ والحكومة. . . كيف تسمح الحكومة بهذه الخزعبلات؟

ـ مائة مرة قلنا، حكينا، لكن، يا أخي، كلهم حمير، من فوق إلى تحت.

أما ما دار من حديث بعد ذلك بين الدكتور صبحي والأمير فلم يعرف منه شيء. وحين استدعي ابن نفاع للمرة الثانية، من قبل ذلك الشاب، في اليوم الخامس، فقد كان واضحاً أن ما جرى هو التهديد فقط، وأن الإنذار لا يحتمل الانتظار أو التأجيل.

قال ابن نفاع لمفضي بعد أن عاد من دار الإمارة، وكانت خزنة موجودة:

ـ ما بقي بهذه الدنيا خير. . .

وحين التفت إليه الاثنان أطرق وظل صامتاً فترة غير قصيرة، ثم تابع:

ـ الجماعة وصلوا لأرواحنا، ما ظل إلا أن يطلبوا من الرجل أن يطلق زوجته. . تْفُو!

قالت خزنة ببعض النزق:

ـ بلّ قلوبنا، يا أبو عثمان، وسولف لنا عن ما صار وما جرى.

ـ السالفة من أولها إلى تاليها: يريدون من مفضي أن يرحل، يشيل، إما يترك حران أو يروح للمحاجر.. وهناك يشتغل.

ـ والله ما يفرحون...

هكذا رد مفضي وهو يضحك، وبعد قليل أضاف:

ـ اللي ترميه السماء تتلقاه الأرض، وأكثر من القرد الله ما مسخ، وما بعد السجن إلا الموت. شفنا مضافة جوهر وعمه خالد المشاري، ظلّ علينا، هالحين، نشوف مضافة رب العالمين.

قال ابن نفاع بحقد:

ـ اسمع يا ابن أخي... هذا البيت بيتك وانت تعرفني: أنا ما خفت منهم، وهم ما يتقربون مني، لكن أخاف عليك.

قالت خزنة:

ـ سبحان الله.. الأغراب يحكمون ويرسمون، يقولون يصير وما يصير، والله باطن الأرض أخير من ظهرها.

ـ وكّلي الله، يا بنت الحلال، الدنيا بأولها.

هكذا رد مفضي، وقد بدا فرحاً مثل طفل. كان وجهه كله يضحك، وتمنى لو يرقص في تلك اللحظة، أو لو يخرج رأساً إلى دار الإمارة، هناك يمكن أن يشتم، أن يصرخ، ويمكن أن يتفل في وجه جوهر ووجوه الآخرين. قال ابن نفاع بحزن:

ـ قالوا أسبوع، وبقى من الأسبوع باكر واللي بعده.

ـ طويلة عليهم... يا أبو عثمان.

ـ وقصيرة علينا، يا ابن أخي.

ـ لا تخف يا رجل.

ـ اللي تختاره، أنا معك.

ـ ما قولك لو تركت بيتك... يا أبو عثمان؟

تترك بيتي؟ تترك بيتك؟ الله يخزي الشيطان.

قالت خزنة بغضب:

- شوفوا الأمير، احكوا مع الرجال، عساها القضية تنتهي على خير.

في هذه الأثناء دخلت آمنة راكضة وراء الغزال الذي وصلهم هدية قبل أقل من شهر. كانت شديدة التعلق بهذا الغزال، تعتني به، تطعمه، وتحاول باستمرار أن تحمله، والغزال ما يكاد يُحمل حتى يحس بالحصار فيلبط ويُخرج صوتاً حزيناً، وغالباً ما يهرب، وهي بمقدار ما تحبه تريده أن يكون قريباً. قال أبوها وهو يراها تلاحقه:

- خلّه، يا بنت الحلال، يكفيه سجنه... وإلا مع البلا عوانة؟

نظرت الصغيرة إلى أبيها ونظرت إلى الغزال، كانت تريد أن تقبض عليه، أن تحتضنه، لكنها لم تجرؤ. ظلت واقفة تنتظر، فلما خرج إلى الحوش مرة أخرى ركضت وراءه.

بقي الثلاثة صامتين، وكأنهم لا يجدون شيئاً يقولونه، أو أنهم ذهبوا بعيداً في أفكار وذكريات لا حدود لها. وإذا كان الحزن قد بدا على ابن نفاع وخزنة فإن مفضي تحول إلى طفل بابتسامته الصغيرة الفرحة، وبعينيه اللتين تضجان بالتحدي ورغبة العراك. لما طال الصمت أو رجعوا من ذكرياتهم وأفكارهم، أو رجع مفضي على الأقل، قال بسخرية:

- لا تخافوا يا جماعة الخير، مثلهم مثل غيرهم، باكر يصيرون تواريخ وأمثال.

قالت خزنة بنفس اللهجة الساخرة:

- المهم اليوم... يا ابن الحلال.

والتفتت إلى الجهة الثانية وقالت كأنها تكلّم نفسها:

- وعش يا كديش إلى حين ما يجيك الربيع.

كان من الممكن أن تطول المناقشة أو تأخذ منحى آخر، وكان من الممكن أن يسيطر الصمت الحزين مرة أخرى لولا مجيء نعمة دخل الله. جاءت باكية منتحبة تقود طفلاً صغيراً. ومن خلال دموعها قالت إنها لم

تترك أحداً في عجرة وحواليها وفي حران أيضاً إلا وعرضت عليهم هذا الطفل، حتى الطبيب الشامي، والأرناؤوطي الذي معه أعطياه عدداً من الحقن وسقياه أدوية حمراء وخضراء، لكنه لم يستفد منها. كانت تتحدث دون أن ترى خزنة في البداية أو تنتبه لوجودها، أما حين رأتها فقد سلّمت عليها بأن ضربت على ركبتها وابتسمت ابتسامة مختصرة وقالت:

ـ . . وخزنة تدري بالقصة من أولها إلى تاليها، والله يكثر خيرها عملت كل ما قدرت عليه.

وشرحت خزنة لمفضي أن الطفل أصيب بعين شريرة، ومنذ ذلك الوقت لم يتكلم.

كان الطفل ينظر في الوجوه نظرة مرتاعة وكأنه على وشك الانتحاب أو أنه يريد الهرب، ومفضي الذي هز رأسه عدة مرات، دلالة أنه فهم الحالة، قال بصوت خافت:

ـ إذا ما كان اليوم فباكر.

في ذلك اليوم لم يحصل شيء، أما في اليوم التالي صباحاً، وحين جاء أحد العمال المرضى، وقرر مفضي أن الكي هو الدواء المناسب له، فقد طلب أن يؤتى بالطفل أيضاً. وعلى خلاف المرات السابقة أوقد ناراً كبيرة ووضع أدوات الكي كلها، فلما احمرت، صارت جمراً، جربها على خشب قاسٍ، ثم جربها في الماء، وكان بطرف عينيه يتابع نظرات الطفل وردود أفعاله، حتى إذا قرّر أن يكوي العامل طلب منه أن يصرخ، أن يظهر ألمه وتوجعه، والعامل الذي خاف واستغرب كاد أن ينسحب ويهرب من بين يدي مفضي، لكن حين أوضح له ذلك امتثل، وما كاد المسمار الكبير يطش على ساق الرجل، عند الكاحل، حتى دوّت صرخة ألم. كانت صرخة حقيقية صادرة من القلب، وكانت حادة قوية انتهت بأنين. وما أن فرغ مفضي من الرجل حتى التفت إلى الطفل، وضع أدوات الكي في النار الملتهبة، ووضع ملقط النار ذاته وبعض قطع الحديد الأخرى ثم فجأة صرخ وعيناه تمتلئان بالشرر:

ـ امسكوه. . . هاتوه.

وأمسك الطفل بقوة، والطفل الذي أصيب برعب شديد أخذ يفرك مثل سمكة قوية بين يدي مفضي. كان يلبط ويدفع بيديه، وحين وجد أن قبضة مفضي أقوى من أن يقاومها وأحس بالنار القوية تلفح وجهه فقد صرخ صرخة قوية. . . عند ذاك رماه مفضي إلى الفراش المجاور وقال وهو يبتعد عن النار:

ـ خلص. . خذيه، وعسى ما يكون به خلاف.

لقد حصل هذا في ضحى اليوم السادس؛ وابن نفاع الذي كان حائراً وأقرب إلى الخوف العصبي، لا يدري ماذا يفعل أو كيف يواجه جوهر إذا انقضت المدة ومفضي الجدعان لم يغادر حران أو لم يذهب إلى المحجر. إنها تجربة قاسية لم يمر عليه مثلها في حياته، ولم يتصور أن يأتي يوم يُجبر الناس على أمور لا يطيقونها أو غير مقتنعين بها. ماذا يريد منه جوهر أو غير جوهر، وماذا يهمهم إذا كان مفضي هنا أو في أي مكان آخر؟ والأمير أيدري ما يحصل للناس؟ وإذا عرف لماذا يسكت؟ قال ابن نفاع وهو يخرج من البيت لا يطيق أن يبقى فترة أطول لكي لا يختنق: «إذا ما ضاقت ما تنفرج».

لا يدري أحد ماذا فعل مفضي بين ضحى ذلك اليوم والظهر، ولا يدري أحد أنى ذهب أو من رأى، إذ ما كاد ابن نفاع يخرج ويبتعد قليلاً حتى خرج مفضي الجدعان أيضاً. قال لآمنة إنه سيرجع قبل المساء، ولم يقل شيئاً آخر. والصغيرة التي هزت رأسها وصمتت ظلت ترقبه عندما أخذ ينحدر نحو السوق وإلى أن غاب.

لماذا نزل مفضي إلى السوق؟ هل كان ينوي الذهاب إلى المقهى أو إلى دار الإمارة، أو ربما يريد مغادرة حران؟ وهل وصل إلى السوق وتوقف أو تحدث مع أحد؟

إن الغموض الشديد يحيط بكل خطوة وبكل تصرف وبكل دقيقة منذ أن غاب عن ناظر الفتاة الصغيرة، وهو ينحدر من التل الغربي. لكن رغم هذا الغموض فإن كل إنسان في حران، حتى من كان بعيداً، يؤكد أنه رأى مفضي أو سمع صوته أو أحس به يمر قريباً منه. إن ذلك شيء مؤكد إلى

أقصى حد. العمال في المحجر، حين سئلوا في تلك الليلة، أكدوا أنهم رأوه. كان يصعد التل نحوهم ببطء شديد، ولقد توقفوا عن العمل وأشاروا إليه بأيديهم وهي ترفع الفؤوس، بل ونادى عليه اثنان أو ثلاثة منهم.

ويؤكد ثلاثة من الصيادين، كانوا عائدين من رحلة الليل الطويلة، إنهم رأوا مفضي في زورق أبيض. كان بعيداً في عرض البحر، وكان وحيداً في الزورق. وحين اقترب منهم رفع المجداف وسلم وابتسم ثم استمر، وحين نادوه التفت لكن لم يتوقف! أما العمال في المعسكر، أو أولئك الذين كانوا عند المصب، وغيرهم الذين كانوا في موقع رقم أربعة، كلهم رأوا مفضي رأي العين. مرّ عليهم، توقف، تحدث ثم ابتسم وتركهم بسرعة. والذين استيقظوا، ولم يكونوا قد اكتفوا نوماً بعد، لم يغضبوا حين أيقظهم، بل وفرحوا حين رأوه، وقد سلّموا عليه وصافحوه، ولما طلب إليهم أن يعودوا إلى النوم وأنه سيلقاهم مرة ثانية حين يستيقظون، أكدوا له أنهم لن يستطيعوا معاودة النوم ثانية!

وفي السوق، في الشوارع الرئيسية والشوارع الصغيرة الضيقة، أكد الكثيرون أن مفضي مر من هناك، توقف عند بعض الدكاكين. ابتسم وتحدث، ومازح بعض الصبية. أما في المقهى فكل الذين كانوا قبل الظهر رأوا بتأكيد حازم مفضي حين مر. توقف فترة ليست طويلة مع أبي أسعد وتحدث معه. وقال كثيرون أن دحام مر في ذات الوقت فسلّم مفضي عليه ومازحه.

والنسوة في البيوت حتى البعيدة منها على التلال الغربية، قلن إنهن رأين مفضي الجدعان، كان يمر مسرعاً ولم يتوقف ولم يتحدث إلى واحدة منهن، لكنه كان يبتسم ويشير بيده.

ومقر القيادة، خلال نفس الفترة، كان في حركة دائبة وقلق ممضّ، أما جوهر فلم يهدأ، ظل يشتم ويصرخ إلى ما قبل العصر بقليل، وكذلك مساعده وأشخاص آخرون. وفي وقت متأخر، أكد اثنان من الجنود لأصدقاء لهما أنهما شاهدا مفضي يمشي ببطء، وأنهما حينما التقيا به عند

خزان المياه ابتسم لهما، رغم أن واحداً منهما كان قد ضربه في المرة الأخيرة، حين كان في السجن!

وابن نفاع الذي لم يقوَ على البقاء في البيت فخرج، لم يستطع أن يتجول في السوق أو أن يجلس في المقهى، ولما كان الوقت ما زال مبكراً فلم يذهب إلى الجامع، وحين قرر أن يعود إلى البت مرّ بقرب خزان المياه. ولا يُدرى ما إذا كان التعب هو الذي استوقفه قرب الخزان أم الأنين الذي سمعه، لكن حين وقف وألقى نظرة إلى الجهة الشمالية شاهد مفضي: كان وجهه نحو الأرض، وأنينه خافتاً، ويده تحفر التراب. كان خيط رفيع من الدماء على الأرض. كان الدم ينزف من مكان قرب الخاصرة. لم يصدق أول الأمر. ظن نفسه حالماً أو أن نظره يخدعه، لما اقترب أكثر عرف مفضي من ظهره، من يده، ثم من الثوب. وحين قلبه على ظهره كانت ابتسامة صغيرة تملأ وجهه.

كان مفضي وهو يُحمل يبذل جهداً كبيراً لكي يكون خفيفاً، بل ظل يحرك رجليه فترة، أما حين أوصل إلى البيت، وقد حمله ابن نفاع وثلاثة آخرون، وذهب اثنان لاستدعاء الدكتور صبحي، فقد تطلع حواليه بنظرة واسعة، وكأنه يريد أن يتأكد من المكان، وبعد ذلك أغمض عينيه.

لم تستطع خزنة أن تعمل شيئاً. كانت يداها ترتجفان، وكانت دموعها تتساقط بغزارة، والفتاة الصغيرة كانت تحتضن غزالها وتقف بعيداً عن الغرفة الواطئة. كانت تبكي دون أن تدري. أما ابن نفاع الذي صعد إلى السطح ثلاث أو أربع مرات لكي يراقب الطريق وليعرف ما إذا كان الحكيم قد وصل أم لا، فكان شديد الانفعال نزقاً، وقد سمعه الكثيرون يشتم شتائم بذيئة لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يعيدوها دون أن يغضب! وكانت صبحة العبد الله تخبز في ركن البيت حين جيء بمفضي، وما كادت تعرف حتى هرولت تاركة العجين في التنور فاحترق.

رجع اللذان أرسلا لاستدعاء الطبيب. قالا: «الطبيب في غرفة العمليات»، وبعد قليل أضاف أحدهما: «محمد الأبري يقول: احضروا المريض إلى المستشفى» لما سمع أبو عثمان ذلك سقطت دموعه دون

إرادة، أما خزنة فقالت: «إتركوه لينام براحة». أحد الرجال قال: «يجب أن نحمله إلى المستشفى قبل فوات الوقت» الطفلة الصغيرة مسحت دموعها عدة مرات بظهر الغزال. صبحة العبد الله في لحظة معينة لم تستطع أن تقاوم فصرخت. كانت صرختها قوية أدت إلى سقوط الفتاة الصغيرة بعد أن أجفل الغزال وهرب. اقترب الغزال كثيراً من مفضي وتشممه. دموع ابن نفاع تساقطت بغزارة أكثر وهو ينحني على مفضي. قال أحد الرجال «إذا لم تأخذوه فوراً راح إلى الأبد». قالت خزنة «اتركوا الرجل ينام».

عند الظهر قال الكثيرون في السوق وفي معسكر العمال، وقال أحد الصيادين أيضاً، أن رجفة قوية أصابتهم. وقال اثنان من عمال المحجر أن الرجفة كانت من القوة إلى درجة أن المهدّات التي كانت بأيديهم وقعت. أما أبو أسعد الحلواني فقد سقطت من بين يديه صينية مليئة بأقداح الشاي وانكسرت الأقداح كلها. لقد حصل هذا عند الظهر تماماً. أما نعمة دخل الله فقد بكت وهي تسمع ابنها يقول لها إنه جائع ويريد طعاماً، بكت من الفرح، لكن كان فرحاً حزيناً. أما كلب حمدان فقد كان نائماً عند الظهر وفجأة استيقظ وأخذ يعوي بتلك الطريقة المقلوبة فصاح به حمدان: عوذة.. عوذة، ولما لم يتوقف ضربه بحجر فأصاب رجله الأمامية اليسرى.

حين قرر الرجال أن يحملوا مفضي ويأخذوه إلى المستشفى، تنحى ابن نفاع قليلاً، لكن لما وجدوه بارداً ترددوا. خزنة صرخت من بين دموعها طالبة من الرجال أن يتركوه نائماً لعل النوم يفيده. أما حين وصل سلمان الزامل واثنان آخران، وقد سمعوا لغطاً في السوق، حين وصلوا ورأوا مفضي، انحنى سلمان ووضع أذنه على صدره، ثم أمسك بيده، فلما وجده بارداً ارتجف فترك اليد تسقط، ووقف دون أن يتكلم كلمة واحدة!

في وقت ما تقدم ابن نفاع، تطلع إلى مفضي فلما رأى عينيه لا تزالان تحملقان انحنى فوقه وأغمض العينين، وظل هكذا إلى أن أنهضه سلمان الزامل وقال بصوت غير واضح لأن الدموع خنقته:

ـ يسلم راسك يا أبو عثمان، وعظّم الله أجرك.

عصر اليوم ذاته شيّع مفضي الجدعان. حران كلها خرجت لوداعه. حتى دار الإمارة أرسلت واحداً من رجالها ممثلاً عن الأمير. وسار موكب الجنازة من دار ابن نفاع حتى المسجد ثم المقبرة، وقد أكد الكثيرون أن الجنازة وهي تجتاز شارع الراشدي، وقرب عيادة الدكتور صبحي المحملجي، وفي لحظة معينة اضطربت وكأن الميت استيقظ، وأكد الذين كانوا يحملون النعش أن الحركة كانت قوية جداً ومفاجئة، حتى أن النعش كاد يقع من أيديهم، وأكد هؤلاء وغيرهم أن ابن نفاع انفصل عن الناس قرب العيادة وبال. أما آخرون فينفون أن ابن نفاع بال ويقولون أنه تقيأ.

ونامت حران تلك الليلة وقد أحست أن أياماً قاسية سوداء تنتظرها.

وفي تلك الليلة ذاتها مات الغزال الذي كان في بيت ابن نفاع، والبنت الصغيرة حزنت حزناً شديداً، وظلت تبكي حتى أن أمها خافت عليها فضربتها لكي تسكت.

أما خزنة فقد زاد بكاؤها. وقال كثيرون أنهم سمعوها تقول إنها ستنتظر إلى أن يعود الإثنان: عواد ومفضي. ولم تمض شهور قليلة حتى انطفأت عيناها تماماً، لكن وُلد في داخلها نور أبيض بلون الحليب، هكذا أكدت دون أن تشعر بأسف، وظلت تدور في البيت كما كانت تفعل قبل عشرين سنة!

وابن نفاع واصل حياته، لكن دخل في حالة من الصمت الخطر.

وظل أهل حران سنين وسنين يتذكرون مفضي الجدعان ويتذكرون هذا اليوم بالذات.

ظهر الخميس مات مفضي، وعصر الخميس دفن. أما عندما هبط الظلام فقد هبط معه الحزن وملأ حران كلها، كان حزناً قوياً مستبداً، اقتحم البيوت ودخل دون انتظار. لم يترك بيتاً إلا ودخل إليه، ولم يترك قلباً إلا وتغلغل فيه. كان ينتشر كما ينتشر الظلام، ويمشي مسرعاً مضطرباً كما تمشي المياه في المنحدرات، وكان يختلف عن أية مرة سابقة ويختلف عن أي حزن غيره. فجأة أحس الناس أنهم أكثر حزناً مما تصوروا، ووجدوا أن عندهم من الأسباب الكثير الكثير. أما عندما اجتمعوا في بيت ابن نفاع، وصلوا صلاة العشاء جماعة هناك، ثم قاموا إلى الأكل، فقد وجدوا أنهم لا يشتهون أكلاً أو شراباً. كانت أيديهم تمتد ثقيلة رخوة إلى الطعام، وذاقوا مع حبات الرز طعم الدموع، وأحسوا الماء مرّاً. ورغم أنهم توقفوا عن الأكل إلا أنهم ظلوا في أماكنهم وظلوا صامتين. ولا يعرف أي وقت مر ولماذا جاءت خزنة الحسن. لما رأت الرجال صامتين قالت بصوت خشن مضطرب:

ـ دم مفضي برقابكم، برقبة كل واحد منكم.

تطلعت إليها العيون وارتدت إلى الأكل الذي لم يؤكل منه إلا القليل. لم يجرؤ الرجال على أن يتطلع بعضهم إلى بعض، ولم يجسروا على الكلام. أما حين قال الدباسي:

ـ يخلف على مَنْ تكلّف والله يرحمك يا مفضي.

فقد تحرك الجميع، قاموا قومة رجل واحد. وما إن رفع الأكل ودارت القهوة حتى بدأت أحاديث جانبية. أخذ كل اثنين أو ثلاثة يتحدثون: كيف قتل مفضي، أين وجد، ومن يحتمل أن يكون القاتل، كانت الأحاديث هامسة، قصيرة، خائفة، ورغم أن القاتل لم يسم، إلا أن شبح جوهر كان

يملأ المكان. صحيح أنه لم يقتل بنفسه أو مباشرة، لكنه وحده القاتل المحتمل. تذكر الكثيرون صورة جوهر، تذكروا كيف كان قبل سنتين أو ثلاث سنوات، وكيف هو الآن، وتذكروا مفضي.

في الليل المتأخر، بعد أن ذهب معظم الرجال، بمن فيهم رجال دار الإمارة، واثنان من القيادة، ولم يبق إلا سلمان الزامل وفواز الهذال وعبده محمد واثنان من أقرباء ابن نفاع، وابن نفاع نفسه، زفر عبده محمد وقال بصوت عصبي:

ـ إذا ما أخذت تارك يا مفضي ما أكون عبده.

قال سلمان بصوت بطيء:

ـ القاتل ما هو واحد. . .

انتبه ابن نفاع الذي كان يغمض عينيه أغلب الوقت. تطلع إلى ابن الزامل بعيون متسائلة، تابع سلمان:

ـ نعم، القاتل أكثر من واحد. . . ومفضي مات مرتين.

انشدّت إليه العيون مع حركة الأجساد التي تحفزت، قال ابن نفاع:

ـ القاتل واحد. . وذاك هو، أكبر من الجبل، وكل واحد يعرفه.

ـ والله لو كان أكبر راس ما يفلت من عبده.

هكذا قال عبده بعصبية. أما سلمان الزامل فقد تابع كأنه لم يسمع ما قاله الآخرون:

ـ أول مرة قتله جماعة أبو سنان الذهب، والثانية قتله الأرناؤوطي. جوهر وجماعته خوضوا بدمه، جروه عند الخزان وقالوا: خلص. واللي ما خلصوه هم جاء الأرناؤوطي وكمله ـ ابن الحرام الأرناؤوطي. . ما له شغل بحران إلا يجرّ فلوس الناس ويلعب بخصيان أبو الريح. لما راحوا إليه الجماعة، قال: «عندي عمليات، عندي شغل»، وكأن مفضي ما هو بني آدم، كأنه كلب.

قال أحد أقرباء ابن نفاع:

ـ والله صحيح، لو جاء الطبيب، لو أسعفه يمكن انكتبت له حياة ثانية.

رد ابن نفاع بغضب:

ـ اتركوا هذي السوالف. ما قتل مفضي إلا الأميركان، هم أصل السبب وأصل البلا.

ـ والله الحق ما قلته، يا عمي، يا أبو عثمان.

قال عبده محمد هذا بطريقة يائسة، ثم أضاف بحدة وقد خرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ والله لو كنت وحدي، ما أحد معي، ابن القحبة جوهر ما يفلت.

ـ من يوم ما جاءوا، من يوم ما داسوا حران، ونحن مثل بول البعير، كل يوم لورا، وأشار ابن نفاع إلى معسكر الأميركيين بسبابته ثم أضاف:

ـ قلت لكم، ما تركت واحداً منكم إلا وقلت له: الأميركان هم العلة، هم أصل البلاء، وهذا اللي شفناه ما هو بشي للبلاوي اللي راح تنصبّ فوق رؤوسنا، وبكرة تقولون الله يرحمك يا أبو عثمان، كل ما قلته صار.

هذا الحديث، أو ما يقاربه، جرى في كل بيت، وفي المعسكر. وإذا كان الرجال قد تحدثوا بغضب، وشتموا، فإن النساء أصغين وهن صامتات ثم انحدرت دموعهن. والصبية الذين بدوا خائفين أول الأمر ما لبثوا أن نسوا الخوف، وقالوا أشياء كثيرة عن مفضي، كيف كان يسابق الغزلان ويسبقها. كيف كان يقضي أياماً في الفلاة دون أكل، لا يخاف أحداً ولا يهاب شيئاً. أما إذا شمر عن ساعديه لكي يقوم بالكيّ فكان يحصر أكبر الرجال وأقواهم بين فخذيه بمفرده. وقد ذكر بعض الصبية أن مفضي أعاد الحياة لأشخاص كثيرين بعدما ماتوا.. وقبل الدفن. وقال هؤلاء، إن مفضي يمكن أن يعود، وأن أحداً لا يستطيع أن يقتله أو يميته. وحين ذكرت تلك الأمور التي حدثت في المقهى وفي المحجر ساعة الظهر تماماً، الساعة التي مات فيها مفضي، تذكر الصبية أموراً كثيرة حدثت، فالأولاد الذين كانوا على الشاطئ شاهدوا غزالاً كبيراً يهوي في البحر. أما الذين عادوا من المدرسة إلى التلال الغربية، ورأوا بعض الرجال يتراكضون في بيت ابن نفاع أو حوله، فقد توقفوا لحظة سمعوا صرخة قوية أعقبها خروج طيور بيضاء من نوافذ البيت ومن بابه. كانت طيوراً أكبر من أية

طيور أخرى، وأكبر مما رأوا في أية مرة. أما العصافير التي كانت تقف على سور البيت فقد تهاوت جميعها في لحظة واحدة وأكلتها الكلاب التي كانت تنبح بطريقة غريبة!

لم يبق أحد في حران كلها إلا وتذكر شيئاً عن مفضي تلك الليلة، حتى الدكتور صبحي الذي عرف بموته عند العصر، قال لمحمد عيد يوصيه لأنه سيسافر في اليوم التالي:

ـ الطبيب كان في غرفة العمليات، كانت العملية كبرى، ومع ذلك قال لهم: احضروه فوراً. كان يمكن أن يذهب معهم، لكن العملية. . . الرجل الذي كان بين يديه لا يحتمل. عند العصر لما انتهت العملية لبس ثيابه وحضر حقيبته ليذهب، لكن. . .

وحين عقّب محمد عيد بمكر:

ـ لازم نتفق على المريض اللي عملنا له العملية يا حكيم. . .

ـ حط بالخرج.

رد الحكيم هكذا وهو يضحك بصوت عالٍ، ثم أضاف:

ـ من راح يحاسبنا؟ حط بالخرج وانس هذا الكلب، إنه لا يساوي أن يسمم الإنسان دمه بقصة مثل هذه.

وإذا نامت حران تلك الليلة، فقد كان نوماً ثقيلاً، متقطعاً، مليئاً بالكوابيس، واستغربت الأمهات أن أولادهن استيقظوا ليلاً مرات عديدة، الكبار منهم شعروا بالعطش وقد طلبوا أن يؤتى لهم بالماء، خلافاً لليالي السابقة، إذ كانوا يذهبون بأنفسهم لجلب الماء إذا استيقظوا. أما الأصغر سناً فقد ظلوا في فراشهم لكنهم بكوا بكاءً طويلاً موصولاً، وكأنهم يشكون من ألم أو يخافون من شيء.

في اليوم التالي، الجمعة. خَبَزَ عبده محمد أكثر من أي يوم آخر، ووزع الخبز كله دون مقابل. كانت كلماته، وهو يرفض الفلوس قصيرة حادة:

ـ الخبز اليوم على روح المرحوم.

لم يكن مستعداً أن يضيف اسم مفضي، ولم يكن الآخرون بحاجة إلى

سؤاله، فقد حصل تواطؤ غامض بين الجميع، وكأنهم بهذه الطريقة يعبرون عن عواطفهم ومواقفهم.

ومثلما فعل عبده محمد فعل أبو أسعد الحلواني، دون أن يعرف الواحد بما فعله الآخر!

والرجال الذين لم يتعودوا الذهاب إلى المقهى، وجدوا أن الوقت لا يزال طويلاً، وأن ساعات لا تزال تفصلهم عن الصلاة، فذهبوا. وقد فعل ذلك بعضهم مرة أخرى بين العصر والغروب، فامتلأ المقهى في كل الأوقات. أما عندما حان وقت صلاة الظهر فقد قام الجميع قومة رجل واحد. لم يكونوا ليفعلوا ذلك من قبل، لكن إحساساً غامضاً ورغبة من نوع ما هما اللذان كانا يقودان خطوات الناس ويحددان لهما ما يجب أن يفعلوا. وبعض الذين تعودوا الاختفاء أو التهرب، إذا حان وقت الصلاة، وجدوا أنفسهم ينهضون قبل غيرهم، بل وبلغ الحماس ببعضهم أن سأل الآخرين ما إذا كان من الواجب الذهاب إلى المسجد فوراً أو الانتظار بعض الوقت، مع أنهم كانوا يضيقون في وقت سابق بتلك الأدعية التي تسبق أذان الجمعة.

وإذا لم تكن من عادة أهل حران الذهاب إلى المقابر أبداً، فإن خزنة وجدت نفسها تفعل ذلك دون إرادة. ما كادت تجلس بالقرب من القبر، وقد عرفته دون أن تسأل أحداً، ربما من رطوبة التراب، أو من دليل آخر، ما كادت تجلس حتى وجدت بالقرب منها امرأتين أيضاً. وجدت نعمة دخل الله، وأم عثمان، صبحة، زوجة ابن نفاع. لم تسأل أياً من المرأتين لماذا جاءت، وهكذا لم تفعل أي منهما، إذ لم تكن بحاجة لأي سؤال. خزنة التي أخذت تقرأ بطريقتها الخاصة قالت أشياء لا يمكن أن تكون من القرآن الكريم، رغم أن أياً من المرأتين ليست متأكدة من ذلك. وصبحة التي قالت لزوجها في الليل المتأخر أن خزنة كانت تقرأ القرآن على قبر مفضي، توقفت لحظات وتساءلت ما إذا كانت في القرآن آيات تشتم الملوك والأمراء، وأنه لا يأتي منهم إلا الخراب، فأكد لها أبو عثمان أن آيات مثل هذه موجودة في القرآن الكريم، لكن صبحة ظلت في شك، لأن

القرآن لا يمكن أن يوجد فيه شتائم مثل تلك التي قالتها خزنة، ولم تشأ أن تذكر هذه الشتائم! وأبو عثمان الذي استغرب أول الأمر أن زوجته ذهبت إلى المقابر لم يغضب ولم يثر كما كان يفعل في أمور أقل من هذه بكثير.

ومثلما سهر الناس وتأخروا في الليلة السابقة، فإنهم وجدوا أنفسهم أقل قدرة وأقل رغبة في هذه الليلة على السهر، فما لبثوا أن ناموا بعد العشاء بقليل. وإذا كانوا قد شعروا ببعض الراحة وهم يضطجعون في فراشهم، فقد ندموا وتأسفوا أنهم ذهبوا إلى النوم مبكرين، لأن الكوابيس التي لاحقتهم وهبطت على صدورهم كما تهبط الحجارة، كانت تستمر وتتلاحق ما استمروا في النوم. وقد ذكر بعض الرجال أنهم اضطروا لترك فراشهم والليل كثيف ثقيل، كأنه في أوله. وذكر غيرهم أنهم ذهبوا إلى المسجد فوجدوا كل شيء ساكناً هادئاً، وحين جلسوا بانتظار الأذان وقيام الشيخ قضوا هناك ساعات طويلة! وقد استغرب عبده محمد أن عدداً من أهل حران قد جاء إليه قبل الفجر، وذكر شيئاً مماثلاً أبو أسعد الحلواني.

أما يوم السبت فقد كان يوماً غير عادي. فعند الظهر، أو قبل ذلك بقليل، صدر عن دار الإمارة بلاغ قصير: «بعد التحقيق الذي أجرته دار الإمارة، بخصوص مقتل البدوي المدعو مفضي الجدعان، المهنة مُتَسبّب، تبين أن للمذكور أعداء كثيرين من خارج حران، وبعد التدقيق والتمحيص لم تثبت التهمة على أحد، وقد أمر صاحب السمو الأمير بغلق القضية واعتبار القاتل مجهولاً».

ويوم السبت ذاته أبلغت الشركة ثلاثة وعشرين عاملاً أنها لم تعد بحاجة إليهم، وطلبت منهم مراجعة «إدارة الأفراد» لتصفية حقوقهم. وذكرت النشرة التي علقت في عدة أماكن أنه في حال توافر فرص عمل جديدة في المستقبل سوف تعطى لهؤلاء الذين سيتركون العمل الأفضلية في الاستخدام.

لقد قرأ ابن هذال النشرة بصوت عالٍ حين طلب إليه العمال ذلك. قرأها مرتين وفي مكانين مختلفين. أما في المرة الثالثة، وقبل أن ينتهي، فقد تقدم أحد العمال ومزق النشرة، رغم أن بعض العمال الذين ذكرت

أسماؤهم لم يصدقوا. وقد رافقوا ابن هذال من مكان إلى مكان، وطلبوا إليه بإلحاح أن يتأكد، ولم يكتفِ بعضهم بذلك، بل وطلب منه أن يشير إلى كل إسم بإصبعه، وأن يكون أكثر تروياً أثناء قراءة الأسماء. لقد حصل هذا ما بين الضحى والظهيرة، خلافاً للمرات السابقة، حيث كانت النشرات تعلق منذ الصباح الباكر، بل وكثيراً ما علقت قبل وصول دورية الصباح. هذه المرة عُلّقت قبل نهاية الاستراحة الأولى، ورغم أن الصافرة أعلنت العاشرة والنصف، وقت انتهاء الاستراحة، فإن الذين ذهبوا إلى العمل كانوا أقلية. وقد تدخل عدد من مسؤولي إدارة الأفراد، إذ دفعوا العمال وهددوهم، وقالوا إن الذين سيتخلفون عن الالتحاق بالعمل فوراً سيكون مصيرهم مصير الذين استغني عنهم، لكن لم يستجب أحد لهذا الطلب. وفي وقت لاحق تدخل خمسة من رجال الإمارة، وقد تكلموا بصوت عالٍ ضد العمال دون تمييز ولم يتركوا طريقة إلا وحاولوا اتباعها من أجل إقناعهم بالعودة إلى العمل.

ولما وصلت الأخبار إلى جوهر، وكان مشغولاً بإملاء بيان على أحد مساعديه يحتم على كل راغب في العمل لدى الشركة مراجعة «القيادة» والحصول على موافقتها. وكان يراد تعليق هذا البيان في المسجد وفي كراج سفريات الصحراء وفي مقهى أبو أسعد الحلواني. لما وصلته الأخبار أصيب بخوف أو ما يشبه صدمة المفاجأة، لكن لم يترك لهذا الشعور أن يسيطر عليه، فما لبث أن ابتسم ابتسامة عريضة وقال لمساعده:

ـ إذا ضحكت بوجه البدوي، إذا قلت للواحد منهم: «مرحباً يا ولد» ظن أنك تخاف منه. أولاد الحرام البدو ما ينعطون وجه، مثل المرا والولد، ولازم تنكسر رؤوسهم.

ودون أن ينتظر أمر بإعداد سيارة مسلحة، وأن يستعد سبعة من العناصر لمرافقته، وخلال فترة قصيرة قال لمساعده:

ـ الظاهر أن الجماعة لا يعرفون جوهر أو ما شافوه.

وابتسم بثقة وهو يعدّل ثيابه، ثم ضرب حافة النافذة بعصاه وقال:

ـ إذا كانوا رجالاً، وإذا كانت فيهم مرجلة خلنا نشوف.

وبكثير من الشراسة والغضب سأل عن العناصر، مع أنهم كانوا يقفون إلى جانب السيارة المسلحة، على أهبة الاستعداد، وإذ مرّ أمامهم نظر إلى كل واحد منهم نظرة قاسية مكتشفة. نظرة سريعة أقرب إلى العداء، فلما تأكد من كل شيء قال بحدة:

ـ أريدكم تعلموهم الموت الأحمر شلون يكون. كسروا عظامهم. العنوا والد والديهم ولا ترحموهم.

بدت الكلمات غامضة مثيرة للجنود. لم يكونوا يعرفون عن أي شيء يتحدث رئيسهم، لكن أحسوا أن مهمتهم كبيرة وخطيرة، وإنه يعتمد عليهم إلى أقصى حد، ويثق بهم كل الثقة، لذلك حين قفزوا إلى السيارتين، حيث ركب ستة منهم في السيارة المسلحة، وركب جوهر ومساعده في السيارة الأخرى، وطلب من أحد العناصر، وكان أسود اللون كبير الحجم، أن يركب معه؛ كانوا مثل الذئاب الجائعة. كانوا يمتلئون حقداً ورغبة في أن يضربوا، في أن يدمروا. أما عندما تحركت السيارتان فقد لوح هؤلاء الجنود للآخرين وشدّوا قبضاتهم دلالة أنهم يبدأون الآن.

أعطى جوهر لحركته صفة البراءة: جولة من الجولات التفقدية التي يقوم بها بين فترة وأخرى. توجه أول الأمر إلى السوق. مرّ في شارع الحارثي ثم قصد الراشدية فمعسكر العمال. لم يتوقف في معسكر العمال، لكن أعطى لسائقه أمراً بتخفيض سرعة سيارته إلى أقصى حد، وحين مر بمجموعات ثلاث من العمال، وكانت عائدة لتوها من معسكر الأميركان، نظر إليهم باحتقار ممزوج بالحقد، لكن لم يتوقف ولم يسأل، وحين وصل إلى معسكر الأميركان رأى تجمعاً عند بوابة العمال، فمر بالقرب من البوابة، لكنه لم يتوقف أيضاً. اتجه إلى بوابة المعسكر الرئيسية ودخل. لم يكن بعد قد اتخذ قراراً أو استقر على قرار. كان يريد اختيار الوقت المناسب والنقطة الضعيفة. لم يكن في عجلة من أمره. ولم يكن مضطراً لأمر. كان متأكداً إنه سيسحق رؤوس هؤلاء الذين يريدون أن يخلقوا شغباً في المعسكر، وكان متأكداً من قوته. إنه يعرف هؤلاء البدو، يعرف متى يأتيهم ومن أية نقطة. قال في نفسه: «الصوت العالي ما هو دائماً دليل

قوة، والرجل الذي يتقدم ليس دائماً أقوى الرجال أو أشجعهم. بدو، اولاد حرام، وما هو سهل أبداً أن تحزر عليهم. يمكن الواحد منهم يكون بطول الشبر لكن إذا ضام الضيم، إذا عنّت براسه يصير مثل الصل، ويصير ألعن من إبليس، والذهين.. الذهين هو اللي يعرف متى يضرب ومن يضرب!». هكذا كان يقول في نفسه وهو يدخل بوابة المعسكر الرئيسية، بعد أن ألقى نظرة على العمال المتجمعين عند البوابة الأخرى. أما حين قال له مساعده:

ـ ما قولك، يا أبو سلطان، إذا نزلوا الجماعة وسنعوّهم؟

فقد رد وهو يبتسم، بعد أن التفت إليه بطرف وجهه:

ـ لا تخف، يأخذون حقهم وزود.. بس إذا ضربت فاوجع.

توقف قليلاً ثم أضاف:

ـ أريد الصّل من بينهم، إذا وصل يدي خليت عنتر بن شداد يتلمس رأسه ويقول: شفاعتك يا رسول الله... يا جد الحسنين.

قال الأميركيون إن الإجراء الذي اتخذ بصرف العمال إجراء روتيني تماماً، وقد سبق أن اتخذت إجراءات مشابهة، ولذلك لا يقتضي الأمر موقفاً استثنائياً، أما عدم التحاق قسم من العمال بأعمالهم فإنه يعود إلى الاضطراب الناشئ عن عدم معرفة القراءة والكتابة، وبالتالي لا يعرف العمال من استغني عنه ومن لم يستغن عنه. وأكد الأميركيون أنه لمعالجة مثل هذه الحالة في المستقبل سوف يتم الإعلان عن الأسماء في وقت مبكر، وسوف تتم قراءتها قبل أن تلصق في لوحات الإعلانات. أما العمال الذين صرفوا من الخدمة فعليهم مراجعة إدارة الأفراد لتسوية أوضاعهم وصرف استحقاقاتهم.

في طريق العودة كان جوهر أكثر حيرة. هل يرجع إلى القيادة دون أن يفعل شيئاً؟ هل يقول للأمير أن الإجراء الذي اتخذه الأميركيون بصرف العمال إجراء لا يعرف ماذا سموه أو كيف وصفوه، وإنه مثل الإجراءات الأخرى؟ وهؤلاء البدو الذين لم يكونوا يجدون كسرة خبز ولا يعرف من أين أتوا، وقد أصبحوا الآن، بعد أن عملوا في الشركة، يلعبون بالفلوس،

وبعد ذلك إذا استراحوا، إذا قالوا لهم استريحوا.. يعربدون؟

مرّ قريباً من بوابة العمال. كان العمال لا يزالون هناك. أوقف سيارته على مسافة غير قصيرة، وأشار بيده طالباً من بعض العمال أن يأتوا إليه. كانت الإشارة واضحة، لكن تردد العمال وعدم استجابتهم كانا واضحين أيضاً. صاح بصوت قاسٍ:

- تعال، يا ولد، انت وانت...

تطلع بعض العمال إلى أنفسهم وحواليهم، متسائلين ما إذا كان يقصدهم أم يقصد غيرهم، تابع:

- أنت، تعال، انت يا ولد.

تقدم سلمان الزامل واثنان آخران. تقدم من الجانب البعيد، من نقطة الحراسة، اثنان من رجال الإمارة. سأل جوهر بغضب:

- ها.. ما عندكم شغل؟ ليش واقفين بهذا المكان؟

في هذه الأثناء تقدمت مجموعة كبيرة من العمال، أحاطت بالسيارة، نزل عناصر السيارة المسلحة ودفعوا العمال. تطلع جوهر إلى الوجوه بإمعان، رأى غضباً خطراً، سأل بلهجة جديدة ماكرة:

- لا تخف يا وليدي، تكلم، سولف.

- طردوا العمال...

- طردوا العمال؟

- قالوا لهم ما لكم شغل عندنا، شوفوا لكم شغل في مكان ثانٍ.

- انت.. انت طردوك؟

- لا.. أنا ما طردوني، لكن طردوا خوياي.

- وما عليك انت؟

- خوياي يا ابن الحلال.

- انت لك لازم بنفسك، ما لك لازم بغيرك.

- الله أكبر.. مالي لازم بخوياي؟

واختلطت الأصوات ببعضها، ودفع الجنود العمال الذين تكاثروا وتقدموا من الموكب، قال جوهر وهو يضحك:

ـ يا جماعة الخير حطوا عقولكم بروسكم وابعدوا عن السوالف اللي تضركم.

توقف لحظة ثم أضاف بلهجة أبوية:

ـ يلّله... كل واحد منكم لشغله...

صرخ واحد من الخلف ولم يتبين جوهر شكله أو وجهه:

ـ واللي طردوه من شغله؟ اللي ما عنده شغل؟

ـ الشغل واجد، أكثر من التراب...

ـ طردونا دون حق، دون سبب.

ـ لا ترفع صوتك يا بدوي، واحمد ربك إنك واجد ما تاكله...

وتغيرت لهجة جوهر الذي أخذ يرتجف:

ـ قلنا لكم حطوا عقولكم بروسكم، وخلصونا من السوالف الشينة، واللي ما يفهم هذا الكلام، عندنا طريقة ثانية نفهمه بها.

توقف مرة أخرى، زفر بقوة وهو يتطلع في الوجوه التي تحيط بالسيارة، ثم قال:

ـ من الحين إلى العصر اللي يفهم ويتعلم ما بيننا وبينه خلاف، واللي يعاند ويركب رأسه الله يستره منا!

قبل أن تغيب سيارة جوهر والسيارة المسلحة كان العمال قد كسروا بوابة المعسكر ومزقوا الأوراق وحطموا لوحة الإعلانات. كما جلبوا بعض البراميل الفارغة فسدوا البوابة الرئيسية والبوابة الأخرى، وملأوا هذه البراميل بالرمل. وجمعة الذي كان يحاول منعهم، الذي احتج وصرخ وأراد أن يستعمل كرباجه، ربطوه في عارضة الباب الإسمنتية وتركوه بعد أن أخذوا الكرباج. أما رجال الإمارة فقد ابتعدوا حالما ابتعدت سيارة جوهر، وحين حطم العمال البوابة انسحبوا وهربوا دون أن يحس بهم أحد.

عند الظهر كانت جموع العمال تتوجه من المعسكر إلى حران، لا يعرف من اقترح عليهم ذلك أو لماذا أخذوا هذا الطريق. أما حين اقتربوا من حران فقد انضم إليهم أناس آخرون، جميع الذين كانوا في الخيام قرب

البحر، الذين وصلوا من أسابيع وشهور طويلة، وأولئك الذين وصلوا قبل أيام. كما انضم إليهم جمع كبير من أهل حران. أما الصبية الذين كانوا شديدي الفرح فقد تراكضوا في أنحاء عديدة، ووصل بعضهم إلى حران العرب نفسها، على التلال الغربية، وقالوا إن العمال كلهم جاءوا إلى حران، فما لبث أن نزل أهل حران، وشارك الجميع الناس الذين كانوا في الأسواق. وحين اقتربت الجموع من المقهى لم يبق أحد إلا وخرج، فدوى تصفيق الذين يقفون وانضموا إلى العمال. وخلال فترة قصيرة أصبح الجميع في المسجد.

نعيم شعيرة، النصّيص، الذي كان يترجم لهاملتون، قال للأمير وهو يرتجف:

ـ المهم الآن أن لا يقترب المضربون من منشآت الشركة...

وهز الأمير رأسه دلالة أنه فهم، تابع نعيم وقد تغيرت لهجته:

ـ ونحن الذين أوعزنا لبعض العناصر أن يقنعوا العمال بالتوجه إلى حران بدل العودة إلى المعسكر وتحطيم المنشآت أو إشعال الحرائق...

توقف هاملتون قليلاً وقد بدا عليه الهم، ثم عاود مرة أخرى:

ـ لدينا قناعة أن المسألة تتعدى فصل ثلاثة وعشرين عاملاً. إن الشركة سبق لها أن طلبت من مجموعات ترك العمل، ولم يحصل أي رد فعل، ليس هذا فقط، لقد أعادت الشركة استخدامهم، أو استخدام بعضهم مرة أخرى. أما هذه المرة فإن تقديراتنا المبدئية تشير إلى وجود أسباب وعوامل تحريض لم تكن موجودة في المرات السابقة، وقد تكون هذه الأسباب والعوامل لا علاقة لها بالشركة.

كان الأمير يستمع بصمت، يهز رأسه، لكنه لم يكن يفهم بوضوح ما يقوله هاملتون.. صحيح أن الترجمان ينقل إليه كلاماً عربياً، وقد سبق أن ترجم بين الاثنين مرات كثيرة، وكان ما يقوله مفهوماً، الآن ما ينقله لا يبدو مفهوماً بالمقدار الكافي. سأل الأمير في لحظة صمت:

ـ قلت إن الجماعة هم اللي قالوا لهم روحوا حران؟

ـ لما بلغ الهياج درجة كبيرة، وحين حطم العمال البوابات والزجاج،

واقترح بعضهم إشعال النار والوصول إلى منشآت الشركة، بدأ رجالنا بتنفيذ خطة الطوارئ، وهذه الخطة سبق إقرارها في حال وقوع أية اضطرابات في الشركة لسبب أو آخر، ولذلك اقترح رجالنا أن يتوجه العمال إلى حران، بدل الذهاب إلى المعسكر.

كان هذا الحديث يجري وأصداء بعيدة تصل من حران. أما عندما استعمل الأمير منظاره المقرب فقد رأى منظراً عجباً: كان العمال في حالة من الهياج لكامل، العرق يتصبب من وجوههم، وقبضاتهم ترتفع في الهواء، وكان بعض العمال يركب على أكتاف آخرين والجميع يحركون أيديهم، وربما كانوا يشتمون أو يصرخون، هكذا قدّر الأمير، لكنه لم يكن متأكداً.

كان من الممكن أن يستمر الأمير في مراقبة الجموع فترة أطول، لكن صوت هاملتون أعاده من جديد:

ـ ماذا تقول يا صاحب السمو.. هل يحتمل أن تكون هناك أسباب غير معروفة للشركة؟

ـ أسباب؟ أية أسباب؟

ـ الشركة تتساءل: هل كان لدى قصر الإمارة معلومات سابقة أو تقديرات تشير إلى احتمال وقوع اضطرابات؟ وهل تعتقدون أن الإضراب نتيجة الاستغناء عن بعض العمال أم أن هناك أسباباً أخرى؟

كان الأمير حائراً لا يعرف كيف يجيب عن هذا السؤال المعقد، هز كتفيه أنه لا يعرف، وقال وهو يتطلع إلى نقطة أبعد من الرجلين:

ـ من يدري؟ الله أعلم.

قال هاملتون وهو يتطلع إلى عيني الأمير:

ـ هل هناك علاقة بين هذه الاضطرابات ومتعب الهذال، وهل هي امتداد لاضطرابات السنة لماضية؟

ـ متعب الهذال؟ لا.. يا جماعة الخير، متعب صار أثر بعد عين!

ـ وهل للرجل الذي قتل قبل يومين علاقة بالاضطرابات؟

ـ ويش علاقة الشركة بمفضي الجدعان؟

ـ الشركة لا علاقة لها بهذا الرجل أبداً، كما أن الرجل لم يكن موظفاً في الشركة في يوم من الأيام.

ـ هذا البدوي صاحب طلايب، وكل يوم له مشكلة، ولا أحد يعرف من قتله!

ـ وهل لمقتله علاقة بالعمال؟

ـ علاقة بالعمال؟

ـ تقصد الشركة هل مقتله أثار العمال؟ هل حرّضهم؟

ـ ما يندرى!

بعد ذلك أخذ الحديث مجرى آخر. طلب هاملتون من الأمير تأمين عناصر حراسة للمنشآت، طلب تأمين عشرين عنصراً، وقال إن الشركة ستتولى إطعام هذه العناصر وتأمين السكن لها، وستكون مهمتها، بالتعاون مع مجموعة الطوارئ الأميركية الموجودة في المعسكر، حماية المنشآت ومنع الاقتراب منها. واقترح هاملتون على الأمير أن لا يلجأ إلى القوة في فضّ الإضراب. مؤكداً له أن هذا اليوم إذا مرّ دون صدام فإن الجو سيبرد تدريجياً، وربما عادت الأمور إلى حالتها الطبيعية. واقترح هاملتون أخيراً أن تُشكل غرفة عمليات لمواجهة الموقف، وغرفة العمليات يجب أن تكون من خمسة أشخاص: اثنين من الأميركيين واثنين من الإمارة والخامس ممثل عن التجار وأصحاب المصالح في حران، وهؤلاء يمكن أن يجتمعوا مرتين يومياً، ويمكن، إذا اقتضت الضرورة، أن يبقوا في حالة اجتماع دائم، خاصة في الفترة الأولى لمعالجة الموقف. وقال هاملتون أخيراً وهو يستعد لأن يغادر:

ـ لقد حدّدنا عناصرنا، يا صاحب السمو، وهم على أهبة الإستعداد في كل لحظة، وسوف يقوم نعيم بزيارتكم بعد ساعتين من الآن ليتلقى توجيهاتكم بخصوص موعد اجتماع غرفة العمليات وأية أمور أخرى!

والأمير الذي أعجبته الفكرة، بل أُخذ بها تماماً، قال لنفسه أن الأميركيين يفكرون بكل شيء، وأنهم مستعدون لكل شيء. أما عندما وقف هاملتون، فقد سأل سؤالاً أخيراً:

ـ نعتبر أننا اتفقنا على كل شيء يا صاحب السمو. . أليس كذلك؟

رد الأمير وهو يفكر تفكيراً مختلطاً مضطرباً:

ـ وكّل الله، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير!

❀ ❀ ❀

حين سأل الأمير عن جوهر ولم يجده، قيل له أنه نزل إلى السوق مع ثلاثة من العناصر، قبل وصول العمال إلى المسجد، ومن المتوقع أن يعود بين لحظة وأخرى، لذلك قرّر الأمير بالتشاور مع نائبه، تأجيل البتّ في القضايا إلى حين عودة جوهر، وبعد ذلك انشغل بمراقبة السوق والجموع، ولم ينس أن يتطلع عرضاً نحو البحر ونحو معسكر الأميركيين.

أما جوهر الذي نزل مبكراً إلى السوق، بعد أن وصلته المعلومات حول تحرك العمال وتوجههم إلى حران، فقد وجد نفسه مضطراً، لئلا يلتقي بالجموع، للتوجه إلى مكاتب حسن رضائي.

كان في البداية شديد الثقة، بادي الغضب، كان يشتم ويعربد، وأكد أن عملاً مثل هذا لن يمر دون عقاب، عقاب شديد، وتساءل بمرارة:

ـ آخ على من يعلمني. . إذا عرفت من هو اللي وراء هذه الطوشة والله لافرّق لحمه على تلال حران كلها.

أما محاولات حسن رضائي في أن يخفف من غضبه باعتبار ما يحصل الآن شيئاً طارئاً، حالة من حالات الغضب، ولا بد أن تزول وتنتهي كما بدأت، هذه المحاولات لم تجد، بل وأصبح الغضب خوفاً حين بدأت الجموع تقترب. بدأت الأصوات تصل أوضح وأقوى، وجوهر الذي تراءى له أن هذه الجموع يمكن أن تكتشف مكانه، ويمكن أن تهجم عليه وتفتك به، بدا شديد العصبية والخشونة في التعامل مع العناصر التي كانت ترافقه. سألهم أكثر من مرة عن مكان وقوف السيارة، وما إذا رآهم أحد أثناء وقوفهم ثم صعودهم إلى مكاتب رضائي، وحين أطل من النافذة ورأى السيارة تقف مقابل المكاتب مباشرة ولا بد أن يكتشف، تساءل بمكر:

ـ وين نحط السيارة، يا جماعة الخير، أحسن ما يحرقها هالمجانين؟

وأخرجت إحدى سيارات حسن رضائي من الكراج وأدخلت سيارة جوهر، لقد تم هذا بكثير من العجلة والارتباك، وبدا هذا التصرف لجوهر في إحدى اللحظات أنه خطأ بالغ. فالجموع التي كانت تقترب، لا بد أن تكون قد لاحظت هذه الحركة الرعناء، ويمكن أن تُفسّر بشكل خاطئ، قال حين دخل السائق:

ـ أبدا ما تصيرون أوادم، ساعة إلى حين ما تدخلون السيارة؟

ولما ظل السائق صامتاً، أضاف جوهر:

ـ ها.. أحد شافكم؟

ـ لا... سيدي.

ومع أن جوهر راقب كل شيء بنفسه، إلا أنه لم يكن مطمئناً. كانت كل خطوة تقربه من الجموع، أو تقرّب الجموع منه تشعره بمزيد من الخوف. وحسن رضائي الذي عداه الخوف، فبدأ يتحرك في الغرفة كما لو أنه حيوان حبيس، قال في لحظة ضعف:

ـ الأحسن يا أبو سلطان أن ندخل إلى الغرفة الثانية.

ودون أن ينتظر مناقشة أو موافقة جوهر، الذي وقف بلا تردد، دخلا الغرفة الصغيرة.

كانت الغرفة أقرب إلى المستودع، حيث توضع فيها مجموعة من الحقائب وخزانة لحفظ الأوراق وقاصة حديدية، كانت هذه الغرفة ببابها الحديدي وجدرانها القوية، رغم صغرها، توحي لحسن رضائي بالطمأنينة.

دخلا الغرفة وأغلقا الباب من الداخل، ومن الشباك الطويل الضيق، والذي أشبه ما يكون بالشق في الجدار، ومن وراء ستارة خشنة، كان يأتيهما الصوت أول الأمر، ثم بدأت طلائع الجموع. كان الخوف يزيد ويكبر مع كل خطوة، وجوهر الذي حاول أن يبدو متماسكاً قوياً ما لبث أن شعر بقلبه يخفق وأنفاسه تضيق، قال باضطراب:

ـ لو سدّينا الباب أسفل.

ردّ حسن رضائي وهو يبتسم ابتسامة صغيرة:

ـ كل الأبواب أقفلت يا أبو سلطان.

حين كانت الجموع تمر تحت النافذة بدت الوجوه لجوهر متشابهة إلى أقصى حد، أو كأنها وجه واحد يتكرر مئات المرات، وكان وقع الأقدام الثقيلة أشبه ما يكون بضربات أيدٍ ماهرة في عجين لين. أما الأصوات فكانت كثيفة منغمة وهي تردد وراء سلمان الزامل:

جـوهـر خـبـر دولـتـك   اللـي بـنـوا الـبـيـب سـبـاع

والـرجـال تـحـمـي حـقـوقـهـا   ومـا تـصـيـر لـلأمـيـركـان مـتـاع

وهـذي الـديـرة ديـرتـنـا

بعد الغروب قال جوهر للأمير، وقد بدا شديد الاضطراب:

ـ مجانين، يا أبو مسفر، كل واحد منهم يقتل أبوه، بعران وهاجّه، يركّضون مثل السلوقية، وما تعرف ويش يريدون، لولا أن الله نجّانا ذبحونا.

ضحك الأمير والتفت إلى حسن رضائي الذي أوصل جوهر بسيارته، وقال:

ـ بدوان وفورتهم قصيرة، مثل المزنة تنفض وتمشي، وإذا الواحد تركهم بلشوا ببعضهم.

رد جوهر وكان لا يزال خائفاً:

ـ إذا تركناهم يا طويل العمر أكلوا الأخضر واليابس.

ـ انت تعرف البدوان يا جوهر..

ـ اعرفهم، اولاد حرام، يا طويل العمر، وإذا ما وجعهم خشمهم سووا اللي ما يصير.

ـ الأميركان يقولون اتركوهم..

ـ ويش اللي يفهّم الأميركان؟

وهز جوهر رأسه أسفاً ولوعة ثم أضاف بلهجة حانقة:

ـ حنا أدرى بجماعتنا يا أبو مسفر.

ـ ما تقول يا أبو صادق؟

هكذا سأل الأمير موجهاً الخطاب لحسن رضائي، رد حسن بارتباك:

ـ الجماعة في السوق كانوا مثل الوحوش، . كانوا يريدون حرق حران وتدمير كل شيء، وإذا تُركوا لا يعرف الإنسان ماذا يحصل.

قال الأمير وهو يضحك:

ـ وكّلوا الله يا جماعة الخير.. بدوان وحنا نعرفهم زين، يوم والثاني، وبعدها كل شي ينتهي، وكأنه ما كان.

ـ يا أبو مسفر، يا طويل العمر، ما هم بدوان وبس، بدوان وحضر، وحران كلها معهم وجماعتنا اللي بين العمال يقولون متعب الهذال ما هو بعيد عن هذه السالفة، وإذا تركناهم ما أظن تنتهي على خير.

هكذا رد جوهر، وحين تدخل نائب الأمير في هذا الحوار، واقترح أن يترك الأمر للغد، ليعرف ما إذا كان سيأخذ نفس المجرى ونفس الحدة أم ينتهي كما بدأ، وافق الجميع. أما حين وصل نعيم شعيرة، للمرة الثانية، في هذا المساء، فقد أبلغ أن «الأمير في حالة اجتماع دائم مع المسؤولين» كما اقترح حسن رضائي أن ينقل للأميركيين، ويمكن أن يأتي نعيم غداً في الحادية عشرة لإبلاغه بالخطوات الضرورية والمناسبة.

بعد الغروب بقليل هدأت حران مرة أخرى. أحست بالارتواء فارتخت ثم بدأت تستريح. أما الجموع التي ملأت الشوارع كلها فقد ذابت كما يذوب الملح في الماء، إذ لم يبق بيت في السوق أو على التلال الغربية إلا وفتح أبوابه لاستضافة عدد من العمال، ولم يبق أحد من أهل حران إلا ورجع ومعه اثنان أو ثلاثة من «ضيوف الرحمان» كما أطلق على العمال ذلك اليوم. أما الذين أصروا على البقاء في المسجد أو في المقهى، وقرروا قضاء الليل هناك، فقد حُمل إليهم الأكل والماء. ورغم أن الماء كان موفوراً، وليست ثمة ضرورة لحمله من حران العرب أو أماكن أخرى، فقد أصرّ عدد من الفقراء على جلبه، وكانوا يقدمونه دون طلب مع كلمات حزينة: «لروح مفضي الذي سقى حران كلها».

ومثلما كانت الليلة التي مات فيها مفضي طويلة فقد كانت هذه الليلة طويلة أيضاً. أحس الناس بالشقاء الذي يزحف نحوهم وبالخوف يطوقهم. كان إحساساً غامضاً لكنه كثيف. وربما فكر كل واحد أنه إذا كان مفضي

قد مات الآن وهكذا، فإن أياً منهم يمكن أن يموت مثله دون سبب ودون أن يعرف قاتله. وهؤلاء العمال الذين طردوا اليوم ولا يعرف ماذا سيفعلون أو إلى أين يذهبون، فإن كل عامل معرض أي يوم لنفس المصير. أما ما قاله جوهر أن يحمدوا الله لأنهم ما زالوا أحياء وما زالوا يأكلون، فلا أحد يعرف إلى متى سيبقون أحياء وما إذا سيجدون غداً ما يأكلونه! صحيح أن الشركة تدفع الآن، لكن ما يتلقونه بيد يدفعونه باليد الأخرى في اليوم التالي. أصبحت أسعار الحاجات ترتفع يوماً بعد يوم، وأصبح المال يتجمع في أيدٍ قليلة. أما الوعود التي قدمها ابن الراشد قبل سنين، وهو يسوقهم من عجرة والأماكن الأخرى، سواء بالبيوت التي سيجدونها في حران، أو بالحياة التي سيحيونها، فقد تلاشت قبل أن يغيب ابن الراشد. وما قالته «إدارة الأفراد» من أن الشركة ستبني بيوتاً للعمال، وسيكون بمقدور كل واحد منهم أن يأتي بعائلته، وأن يرجع إلى بيته وأولاده كل مساء، ها قد مضت سنوات، سنة وراء أخرى، ولم يُشد بيت واحد، ولم تزل البركسات الملعونة، والتي تزيد حرارة وقذارة يوماً بعد آخر، المكان الذي يحشرون فيه كل ليلة.

تذكر العمال ذلك وتذكروا أهلهم فشعروا بالحزن يسحقهم. وأهل حران الذين نظروا في وجوه هؤلاء ونظروا في وجوه بعضهم بعضاً، ورأوها حزينة مهمومة، قدروا أن وراء هذا الحزن أسباباً جعلتهم هكذا فحزنوا مرة أخرى، ثم شعروا بالخوف أيضاً، لكنهم مع ذلك تجرأوا وقالوا أشياء ما كانوا ليقولوها لو لم يستبد بهم هذا الحزن كله وهذا الغضب كله. لماذا يعيشون هم هكذا ويعيش الأميركيون بشكل آخر؟ لماذا يحرّم عليهم الاقتراب من بيوت الأميركيين أو مجرد النظر إلى برك السباحة أو الوقوف لحظات في ظل شجرة من الأشجار؟ والأميركيون لماذا يصرخون طالبين إليهم أن يتحركوا، وأن يتركوا المكان فوراً، ويطردونهم كما تطرد الكلاب؟ حتى جمعة لا يتردد في ضرب أي واحد منهم بكرباجه إذا وجده في «الأمكنة الممنوعة». لقد زرعوا تلك الإشارات التي تمنع الوقوف أو الاقتراب في معظم الأمكنة. حتى البحر وضعوا فيه الأسلاك

الشائكة التي تحرّم الاجتياز أبعد من مسافة معينة.

ولماذا يجبرهم الأميركيون على القيام بأعمال لا يفكر أي واحد منهم القيام بها؟ ومع أنهم سكتوا ورضوا بكل شيء، فإن الأميركيين لا يرضون ولا يوافقون على مجرد استمرارهم في العمل.

... والأمير هل هو أمير لهم، يدافع عنهم، يحميهم أم أمير للأميركان؟ لقد كان أول وصوله إلى حران إنساناً آخر. كان لا يتردد في النزول إلى السوق، وكان الكثيرون يشربون القهوة عنده. أما عندما بدأت تلك الآلات التي جلبها له حسن رضائي وغيره تشغله، فقد غرق فيها وترك الأمور كلها لجوهر. وجوهر أي إنسان هو؟ مع الأميركيين كأنه النعجة يصمت، يستمع بأدب، يهز رأسه مع كل كلمة يقولونها له، ومع نعيم شعيرة، النصّيص، يضحك، يتحدث كما لو كانا صديقين أو أخوين، أما إذا التفت ورأى بعض العرب فلا يتردد أبداً في أن يشتمهم وأمام الأميركيين بشكل خاص، بل وبلغ به الأمر أن استعمل عصاه عدة مرات دون سبب. ويتذكر العمال أموراً عجيبة: ففي إحدى المرات، أثناء جولة من جولاته، وقف مع بعض العمال، وأخذ يسألهم عن أسمائهم ومن أين جاءوا وكم مرّ عليهم من الوقت في الشركة. كان في لحظة من لحظات صفائه، وقد حصل هذا بعد أن لبس البذلة العسكرية بشهور قليلة، وإذ تجمع العمال حوله وأخذوا يتحدثون، مرّ أحد الأميركيين، وربما أراد شيئاً من جوهر أو ربما كان مدفوعاً بفضوله، إذ ما كاد يقترب ويراه جوهر حتى بدأ يشتم العمال ويضربهم بعصاه، طالباً منهم الانصراف إلى أعمالهم.. وإلا سوف يسجنهم كلهم!

لقد استغرب العمال هذا التصرف ولم يجدوا له تفسيراً أو سبباً. وفي مرة أخرى طلب من مجموعة من العمال أن يأتوا إلى دار الإمارة في يوم العطلة لكي يساعدوا في بناء السور، وقد كان مرحاً وهادئاً أثناء الحديث معهم، وأكد أن العمل لن يحتاج إلا نصف يوم، والعمال الذين أبدوا استعدادهم للمجيء والقيام بالعمل، ما لبثوا أن دهشوا حين وصل نعيم إلى وسط تلك الحلقة فجأة، وإذ بجوهر يتغير تماماً. أخذ يصرخ، وما لبث أن

طلب من الجنود الذين يرافقونه إلقاء القبض على ثلاثة من العمال وسوقهم إلى السجن مباشرة. وبعد أن قضوا في السجن أسبوعاً لم يخرجهم إلا بعد أن تشفع لهم نعيم نفسه!

القصص التي تروى عن جوهر لا نهاية لها، وتتزايد أسبوعاً بعد آخر، وإذا كان الناس مستعدين للنسيان والتسامح فإنهم لا يستطيعون ذلك دون حدود. فما كاد خبر مقتل مفضي يصل إلى الناس حتى أحسوا بأحقادهم كلها تطفو، وأحسوا أنهم مظلومون أكثر مما ينبغي وأكثر مما يحتملون. وحين وقف سلمان الزامل على سور الجامع وقال إن أهل حران والعمال ليسوا ضد أحد ولا يريدون أكثر من شيئين: إعادة العمال الذين طردوا، والتحقيق لمعرفة قاتل مفضي الجدعان، حين قال سلمان الزامل هذا الكلام صفق الناس وقالوا: الله أكبر.. الله أكبر. أما الأهازيج التي اخترعوها في التو واللحظة فكانت تركز على هذين المطلبين. كانت الأهزوجة تقول:

دمك يا مفضي ما يضيع حران كلها تطالب
وانت يا أبو التل الشمالي تسمع ولازم تجاوب
دمك يا مفضي ما يضيع

أما الأهزوجة الثانية فكانت كما يلي:

حجر حجر حنا اللي بنينا وشبر شير حنا اللي مدينا
وبعد ما عمّرنا وبنينا ما تقولي يا شركة يا الله
وفي أمان الله
وما لكم حقوق
حقوقنا قايمة ودايمة
وحنا أصحاب الحقوق
ونحصلها بدمنا وأيدينا

ومثلما اختلطت الوجوه على جوهر فلم يستطع في تلك الغرفة الصغيرة أن يميز وجهاً من آخر، فإن ما قاله الناس كان مشوشاً متداخلاً في أذنيه، وكأنه هدير رعد، فلم يستطع أن يسمع وأن يميز، أما عندما جاءه بعض الرجال في الليل المتأخر، وقالوا أن أهل حران كلهم كانوا في

المظاهرة وإنهم كانوا يهزجون ويطالبون بدم مفضي وعودة العمال الذين طردوا، فقد بلغ جوهر درجة من الغضب إن شتم الذين جاءوا بالأخبار ووصفهم بالجبن وقال إنه سينتقم منهم!

الأمير الذي اعتبر تأجيل اتخاذ القرار إلى الغد حلاً مناسباً، سر لوجود حسن رضائي في تلك الليلة. إن هذا الرجل يوحي له بالطمأنينة وسعة العالم، إذ بالإضافة إلى الاكتشافات العلمية الكبرى التي أطلعه عليها، فإن أسفاره في العالم وتجاربه الكثيرة كانت زاداً لا ينضب. فما كاد الأمير يلقي نظرة متأنية مدققة على حران بعد الغروب، فوجدها هادئة مستقرة حتى فتح الراديو على إذاعة لندن، وبعد أن استمع وحسن رضائي ونائبه إلى الأخبار، بدا في حالة من الثقة أقرب إلى النشوة، إذ لديه هذه الليلة ما يقوله ويبحثه مع حسن رضائي.

عاد مرة أخرى إلى ما حدث، قال بتأكيد حازم أن الأميركان فكروا بكل شيء، وأبلغوه أن الأمور ستنتهي كما بدأت، وهو يتفق معهم تماماً.

قال هذا وابتسم ابتسامة كبيرة واثقة، ثم طلب من حسن رضائي أن يقترب منه لكي يبلغه بسر لم يبح به لأحد، فلما اقترب غمز لنائبه أن يقترب أيضاً، فلما أصبحت رؤوسهم متلاصقة همس:

ـ بعد كم يوم تصلنا عجيبة.. وإذا اشتغلت كل المشاكل تنحل وتنتهي!

بدا حسن رضائي مستغرباً حائراً، إذ لم يفهم ما قاله الأمير، ولم يرد أن يظهر بأنه لم يفهم، وحين هز الأمير رأسه دلالة الثقة، وبدا له أن الاكتشاف الجديد الذي أطلعه عليه الأميركان قبل بضعة أيام أكبر وأخطر من أن يفهمه حسن رضائي بهذه السهولة، سرّ سروراً كبيراً لأنه يعرف أكثر منه، ودون انتظار نهض محاذراً خفيفاً، ومن بين الوسائد التي كانت موضوعة في مكان قريب استخرج تلك الآلة العجيبة. حملها كما يحمل الأب ابنه الأول، وبهدوء وضعها بين يدي حسن رضائي، فلما ضحك حسن وقال:

ـ أي نعم.. أي نعم.. تلفون.

فقد فوجئ الأمير وبانت عليه الدهشة، وبدأ يسأل حسن ما إذا كان قد رأى هذه الآلة وأين، وحين أكد له أنه رآها في أماكن عديدة، فقد أبدى الأمير إعجابه، وطلب منه أن يشرح له كل ما يتعلق بها: كيف تعمل؟ وهل تعمل في الليل والنهار؟ وهل تتعب أو تستريح.. وهل يمكن للإنسان أن يتصل من خلالها بأشخاص غائبين حتى لو كانوا أمواتاً؟

وحسن رضائي الذي حاول أن يشرح، قال أشياء كثيرة معقدة، لكن الأمير فهم منها أهمية هذه الآلة وفائدتها، وكيف يمكن أن تقرب المسافات وتساعد البشر، فما كان منه إلا أن أفشى سره:

ـ قال لي الصاحب، رئيس المعسكر، بأسبوعين، وأقصى حد شهر، يكون بين دار الإمارة والمعسكر اتصال دائم ويمكن أن نتكلم بالليل والنهار عن طريق هذه الآلة.

وبدأ الأمير يجرب الآلة: هالو.. هالو ترانك، هالو.. أجب، هالو حوّل. لقد استعمل كل العبارات التي سمعها أثناء زيارته لمعسكر الأميركان قبل أسبوع، وحين أكد له هاملتون أن الإجراءات قد اتخذت من أجل مد الخطوط بين المعسكر ودار الإمارة كان شديد الانفعال مسروراً إلى أقصى حد. كان يتمنى أن ينهض في إحدى الليالي على صوت الجرس. إن الجرس لا يقل أهمية وغموضاً عن الآلة نفسها، وإن كان فيه شيء نصراني كما قال بنوع من الأسف، لكن شغله كيف يدق وحده،وهل يستطيع المسلمون أن يحوّلوه فيقول الله أكبر بدل هذا الصوت؟

قضى الأمير السهرة كلها يتحدث عن هذه الآلة العجيبة، وتخيل أشياء لا حصر لها يمكن أن تتحقق من هذا الاكتشاف العظيم؛ وأكد لنائبه أنه إذا وصل إلى حران يمكن أن يساعد دار الإمارة مساعدات لا حصر لها، فما لا يستطيعه المنظار المقرب يمكن لهذا الاكتشاف أن يحققه:

ـ الصوت.. نعم الصوت يا أبو رشوان أهم شيء. ويش يقول الناس، ويش يفكرون، لا كيف يظهرون.. هذا هو المهم.

واسترسل الأمير، وتذكر أنه أحب أكثر من امرأة من خلال الراديو. قال وهو يتمدد مستريحاً هادئاً مستقراً:

ـ والأذن تعشق قبل العين أحياناً!

في نفس الوقت الذي انشغل الأمير بالتلفون، انشغل جوهر بأمور أخرى: كيف يستطيع أن يدمر الإضراب؟ كيف يستطيع أن يقبض على الذين خلقوا هذه المشاكل؟ وإذ قيل له أن سلمان الزامل هو الذي وقف على سور الجامع وقال تلك الأشعار، بدأ يحاول استعادة صورة ذلك الرجل. إنه يتذكره، يتذكره بكل تأكيد، لكن صورته الآن تتداخل مع صور الكثيرين وتتلاشى بسرعة. قال للرجال الأربعة الذين استدعاهم:

ـ ها.. ننتظر إلى حين ما اولاد الحرام يشعلوها؟ لا. حنا نشعلها ونلعن والد والديهم! أحسن ما يجونا غَفَل ويقولون يصير وما يصير، حنا نذْبي عليهم، نمسكهم بحجورهم، وهذا ابن الزامل أريده، لا تذبحوه، قولوا له تعال معنا وكل شيء يصير، وإذا يدي قبضته خلص..

والرجال الذين يستمعون لا يعرفون ماذا يجب أن يفعلوا أو ما هو الشيء المطلوب منهم. يتطلعون إلى وجه جوهر، وبسرية يتبادلون فيما بينهم نظرات متسائلة، أما حين قال:

ـ من الفجر، قبل الأذان، تكونون بالمسجد، وقبل ما يتكلم أحد، قبل ما يقول كلمة، تقولون: الشركة، أبو الشركة، احرقوها، العنوا أبو اللي سواها، هي السبب، وبعدها ما عليكم.

أعاد جوهر هذه التعليمات عدة مرات، حتى إذا استوعبها الرجال قال لهم بحزم:

ـ الليلة ما تنامون، اسهروا وما عليكم.

وانصرف إلى تهيئة العناصر التي ستأخذ مواقع عند الأسلاك، قريباً من البوابة الرئيسية، ومن بوابة العمال. لقد أعدّ لذلك جميع مفارز البادية، عدا حرس الأمير.

كانت ليلة كبيرة لم ينم خلالها أحد، وجوهر الذي طلب من مرافقه الأسود أن يوقظه قبل الفجر، لم يستطع أن ينام لحظة واحدة. كان يتقلب في فراشه، كان يتصور العمال وأهل حران يتقدمون نحو المعسكر، وتراءى له رجاله الذين أرسلهم في الليل يصطدمون مع المتظاهرين فتسيل الدماء.

وتصور أيضاً كيف أن الأميركان والأمير وكل أهل حران يتوجهون إليه، يناشدونه، يطلبون منه أن يضع حداً لهذا الذي يجري، وهو بمقدار ما يعرف كل شيء، بمقدار الثقة التي انطلق منها، يريد أن يقبض على بعض الأشخاص، أن يجعلهم أمثولة.

إن الأمر أكبر من أن يتركه يفلت من بين يديه. وإذا كان قد وافق أن يبقى في تلك الغرفة الصغيرة، وأن يسمع الشتائم والتحديات، ويرى هؤلاء الذين كان يضربهم، يصرخ في وجوههم فيتفرقون، قد أصبحوا هكذا الآن، فإنه لا يستطيع أن يحتمل وأن يتسامح. الأميركان لا يعرفون هؤلاء البدو قدر معرفته لهم. أما الأمير فإنه مشغول بأمور لا يعرف ما هي، وكل ما يقوله مجرد كلمات لا معنى لها. لا يمكن أن يترك الأمور تفلت من بين يديه. إنه المعني بالأمن، وهو الوحيد القادر على أن يفعل شيئاً. إذا لم يفعل هو بالذات فلن يستطيع أحد غيره. إذا استطاع أن ينجح في القبض على هؤلاء الذين كانوا وراء هذه الفوضى، سوف يشكره الجميع. حران ليست بحاجة إلى مثل هؤلاء ولا يمكن أن يسمح بأكثر من ذلك. وهل بلغ بهم الأمر أن يطالبوا بدم مفضي؟ إذ تركهم دون عقاب يمكن، غداً أو بعد غد، أن يطالبوا بكل شيء. هؤلاء البدو أطمع من الذئاب، لا لن يتركهم يفلتون، إنهم جبناء، إذا ضرب الرؤوس سوف يصمت الآخرون، يصبحون كالنعاج، لا أحد يتكلم، لا أحد يفتح فمه.

العمال وأهل حران ناموا نوماً عميقاً. حتى أولئك الذين يحبون المرح، ويلذ لهم أن يخلقوا المشاكل أو المقالب في اللحظة الأخيرة، لم يفعلوا إلا القليل. نام العمال في البيوت والمسجد، والذين رغبوا بالعودة إلى المعسكر لم يصروا على ذلك، لأن المسافة كانت كبيرة. وكان شيء من التحسب يسيطر على الجميع.

❀ ❀ ❀

سلمان الزامل الذي كان ضيف ابن نفاع ومعه ابن هذال واثنان آخران، بدا قلقاً متحسباً وهم يشربون القهوة بعد العشاء، عكس ما كان وضعه

خلال النهار، فالثقة التي كان يمتلئ بها وهو يهتف، وهو يهزج، وحين وقف على سور الجامع، حلّ مكانها شك مشوب بالتساؤل: أين جوهر؟ لماذا لم يعترض المتظاهرين؟ واذا مرّ هذا اليوم هكذا فهل ستكون الأيام الأخرى مثله؟ والشركة هل تستجيب وتعيد العمال إلى أشغالهم أم تبقى بعيدة وراء الأسلاك لا تسمع ولا تجيب؟

إن شكاً أقرب إلى الحيرة سيطر عليه، وكان بحاجة إلى الآخرين، أن يسمع منهم، وأن يسألهم، إذ لا بد أن يمتحن قناعاته قبل أن يقدم على الخطوة التالية. قال ابن نفاع وقد قرأ الشكوك التي تساوره:

ـ اسمع، يا وليدي، اسمع وتفطن، ترى إذا طاح جمل أو عثر بدوي من المياسم إلى جويريد، ومن البحر إلى مصر، ترى وُلِد الحرام وراه..

سأل سلمان مازحاً، وقد فهم أنه يعني الأميركان:

ـ وجوهر يا أبو عثمان؟

ـ من هذا الكلب؟ أجير عندهم، لقّام، وما يسوى نواة.

ـ ومن اللي ذبح مفضي؟

ـ سبحان الله... انت تسألني يا ابن أخي؟

ـ ما هو جوهر اللي ذبحه؟

ـ أي نعم جوهر، لكن من جوهر بلّياهم؟

ـ وين صار ثارنا يا أبو عثمان؟

ـ ثارنا عندهم وعند غيرهم.

ـ وما هو شورك لباكر وعقب باكر؟

ـ القول اللي قلته بالمسجد اليوم: يرجع العمال، ويقولون من ذبح مفضي.

ـ وإذا ما سمعوا؟

ـ يسمعون، يا وليدي، نعم يسمعون، الدق يذوّب الصفا، بس انتم كونوا جميع، لا تتفرقوا ولا يدهي بعقولكم اولاد الحرام، ترى الناس كلها معاكم.

يوم الأحد لم يكن يوماً عادياً في حران، فالمسنون الذين تعودوا أن يكونوا وحدهم في المسجد أثناء صلاة الصبح، وجدوا أنفسهم قلة وسط الناس الذين امتلأ بهم المسجد هذا الفجر، ووجدوا أن أعداداً كبيرة سبقتهم. أما الذين ناموا في المسجد فقد اكتفوا بساعات قليلة ثم قضوا ما تبقى من الليل في القصص والمزاح، وصلى بعضهم أيضاً؛ ولم يتردد عدد منهم في إخلاء أمكنتهم للذين جاءوا متأخرين بعض الشيء. وابن نفاع الذي أمَّ المصلين، ـ لأن الإمام كان مريضاً أو ربما تظاهر بالمرض، لم يتردد في أن يقول أشياء وأشياء قبل الصلاة وبعدها. ففي الحلقة التي كبرت وتكاثفت حوله قبل الصلاة، قال إن هذه هي أيام حران، كما كانت للعرب أيام في الجاهلية والإسلام، وأكد أنه إذا كانت الصلاة فرضاً على المسلم، فإن مقاومة الظلم فرض، وحماية المسلم لأخيه المسلم فرض، والدفاع عن الأرض والحق فرض. وقال إن في الاتحاد قوة، وإنه لا تُغلب فئة متآخية متحابة، أما إذا تفرق الناس واختلطت أهواؤهم ونواياهم ذهبت ريحهم. قال ابن نفاع هذا وقال أشياء أخرى أيضاً. أما حين اختار تلك الآيات بالذات ورددها بصوت مُنَغَّم واضح النبرات أثناء الصلاة، فقد استقرت في قلوب الناس وأثرت فيهم كثيراً، حتى لكأنهم أصبحوا طينة أخرى وبشراً من نوع آخر.

قال كثيرون، بعد انتهاء الصلاة، إنهم أحسوا بالملائكة تحوم فوق رؤوسهم. وقال آخرون أن نوراً أبيض حاداً قوياً كأنه البرق ملأ المسجد كله عندما قال ابن نفاع: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم ورحمة ا لله وبركاته» أما حين ذهب الرجال جماعات جماعات إلى

السوق أو إلى مقهى أبو أسعد الحلواني، للتجول أو الاستراحة قليلاً، فقد اتفقوا أن يلتقوا مرة أخرى عند الضحى. . . وفي المسجد أيضاً.

وما عدا المخابز وبعض الدكاكين ظلت حران صامتة مغلقة. وباص عجرة الذي يغادر في السادسة كل يوم لم يجد راكباً واحداً، حتى الذين دفعوا الأجرة قبل أيام ورتبوا أمورهم على أن يسافروا هذا اليوم بالذات لم يفعلوا. أما حين جاء بعض العمال في الضحى، وهم في طريقهم إلى المسجد، وسألوا السائق الذي كان مشغولاً بإصلاح الباص، ما إذا كان سيغادر إلى عجرة ذلك اليوم، فقد رد دون أن يرفع رأسه:

ـ السيارة مكسورة وتحتاج يومين أو ثلاثة أيام إلى أن تتصلح!

وأبو أسعد الحلواني الذي قرر أن يشارك الآخرين في الإضراب، وقال للعمال وهم يدخلون المقهى أنه سيستقبلهم لكن لن يقدم لهم شيئاً، ما لبث أن تراجع وقال بصوت فرح:

ـ صار لي خمس. . ست سنين أسقي أهل حران، واليوم، إذا أراد أهل حران أن يشربوا فهذه هي العدة: كل شيء موجود: الشاي، السكر، القهوة. . . المهم أن يشمر كم واحد منكم، لأن أبو أسعد اليوم مُسبت، أي بالعربي: مضرب.

وبكثير من الصخب حلّ بعض العمال محل أبو أسعد، لكن الأخطاء التي ارتكبوها، والهرج الذي ملأ المقهى جعله يقطع الإضراب ويعود إلى خدمة الزبائن!

❁ ❁ ❁

كل المحاولات التي جرت من أجل استدراج الناس إلى العنف والصدام فشلت، فقد ظل كل شيء في إطار المطالبة بإعادة العمال والتحقيق في مقتل مفضي. أما عندما جرت محاولة إحراق سيارة من سيارات رضائي فقد قاومها الكثيرون، وقالوا: «إحراق سيارة يحرق حران كلها، وجوهر ينتظر الشرارة لكي يبدأ الحريق الكبير! وحين اقترح بعض الناس التوجه إلى الشركة واقتحام الأبواب وتكسير كل شيء رد سلمان

الزامل، وهو يتطلع في عيني ذلك البدوي الذي أخذ يصرخ ويطالب بالتوجه إلى الشركة، رد عليه:

ـ اسمع.. ذاك هو باب الشركة، رح وحدك، وقل لهم العمال بحران ينتظرونكم.

ولما صرخ البدوي مرة أخرى أمسك به فواز الهذال من رقبته، وقال بغضب:

ـ قلنا لك: ذاك باب الشركة، وهالمرة نريد الشركة تجينا، ولازم تجي.

ومثلما حصل في اليوم السابق ظلت الأمور في حران هكذا حتى العصر، إذ انطلقت الجموع من المسجد، فطافت الشوارع الرئيسية الثلاثة ثم عادت مرة أخرى، والأهازيج التي نظهما الناس بالأمس أضيفت إليها بعض الكلمات أو عذلت بعض الشيء لتكون أوضح وأقوى. أما الدباسي الذي أصبح رسولاً بين أهل حران ودار الإمارة، فنقل عن الأمير قوله أن العمال الذين تركوا أعمالهم لا بد أن يرجعوا في وقت من الأوقات، وإنه يطلب من العمال إنهاء الإضراب والعودة إلى العمل. أما ما يتعلق بمفضي فإن مفضي قد مات وانتهى، ولا أحد يعرف من قتله.

نقل الدباسي ما قاله الأمير أو ما سمعه من الآخرين بألم ومرارة، وقد تأكد بعد زيارتين لدار الإمارة، الأولى عند الضحى والثانية ظهراً، تأكد له أن استمراره بالوساطة لن يجدي، ولا بد أن يغضب منه أحد الطرفين لو قام بمحاولة ثالثة، ولذلك حين نقل للعمال ما قيل له في المرة الثانية أضاف بحزن كأنه يكلم نفسه:

ـ المرا والأمير والولد الصغير يظنون أن كل شيء يصير.

وحين نظر إليه العمال ولم يفهموا شيئاً مما قاله أو قصد إليه، ابتسم بحزن وأضاف:

ـ أولها وتاليها الرأي رأيكم، انتم أعرف، وأنا مثل ما تشوفون: العين بصيرة واليد قصيرة.

كان يريد أن يقول للعمال أن يصمدوا، أن يثابروا، لأن عينيه برقتا بغضب.

حين صاح أحد العمال: «ودم مفضي ـ يا أبو صالح؟» فقد نظر إليه طويلاً لكنه لم يستطع ان يرد لأن كلمة مثل هذه لو قالها لا بد أن تصل إلى دار الإمارة، وبعدها سيطرد من حران، ولن يأمن ولن يستطيع أن يواجه الأمير. كان حائراً موزعاً، إذ بمقدار ما كان يعتز بالعلاقة بالتل الشمالي، وبالصداقة التي تربط بالأمير، بمقدار ما كان إحساسه أن مقتل مفضي ليس له ما يبرره ويجب إلا يمر دون عقاب.

خيم الصمت. كان صمتاً ثقيلاً فظاً، فالدباسي لم يكن عنده شيء يضيفه، بل وأحس أكثر من ذلك بعدم جدوى الكلام. أما الناس الذين تفاءلوا وتوقعوا، والذين انتظر عودة الدباسي من دار الإمارة، فقد تأكدوا أن الوضع أصعب من أن ينتهي بسرعة، أو كما يريدون، ولذلك لم يجدوا ما يقولونه. ولما وقف الدباسي مستنداً إلى عكازه يريد الانصراف، طلب من سلمان وفواز أن يقتربا منه، فلما اقتربا وتحرك هو قليلاً كاد يسقط لاختلال توازنه، لكنه اتكأ على سلمان وتلامس جسداهما تماماً فهمس:

ـ هذا اللي قدرت عليه، يا وليدي، مع الجماعة.

وأشار بأصبعه ثم أضاف بلهجة ورد:

ـ وإذا احتجم أي شيء تعالوا. تسمعوني؟ تعالوا لأبو صالح قبل ما تروحون لأحد وعسى أن الله يقدّرنا.

وأضاف ووجهه إلى الأرض وبدا حزيناً:

ـ الله يلعن الشيطان ويخزيه.

جاء نعيم قبل الحادية عشرة إلى دار الإمارة لكي يستفسر عن الاقتراح الذي تقدم به هاملتون بالأمس حول تكوين غرفة للعمليات. وحين أبلغ الأمير اضطرب قليلاً، وكأنه لم يتوقع مجيئه، تمنى في تلك اللحظة لو أن التلفون، هذه الآلة العجيبة، يعمل بينه وبين المعسكر، إذ لو كان موجوداً لأمكن الاتفاق على كل شيء، يمكن أن يتحدث مطولاً مع هاملتون، أو

مع حسن رضائي وجوهر والآخرين، قبل أن يجيب عن أي سؤال أو أي طلب. مرت هذه الرغبة في نفسه، وحين ظل كاتبه ينظر إليه مستفسراً حول ما يجب أن ينقله إلى نعيم... سأل:

ـ وجوهر.. وين جوهر؟

ولما جاء جوهر قال له الأمير وقد تظاهر بالحزم:

ـ تروح انت والترجمان، تاخذ معك نجم وأبو صادق وتروحون يمّ الجماعة.. وشوفوا اللي تقدروا عليه.

قال فيليب:

ـ الشركة لن تلبي مطالب العمال، ولن تعيد تحت الضغط والتهديد الذين تركوا الخدمة، لأن سابقة من هذا النوع تفقد الشركة هيبتها، وتشجع العمال على المطالبة بأشياء أخرى، هذا أولاً. وثانياً، ليس من رأي الشركة، في هذه المرحلة، اللجوء إلى القوة، وأن الأمور لم تصل إلى حد، يُلزم باستعمال القوة. يمكن أن نعطي وعداً بدراسة الأمر، على أن يعود العمال المضربون فوراً إلى العمل، ويمكن أن نؤكد استعداد الشركة لإعطاء الذين تركوا الخدمة الأولوية في حال وجود شواغر. وثالثاً وأخيراً، إن الشركة تنوه أن الإضراب الذي حصل بالأمس له أسباب تتجاوز الاستغناء عن مجموعة من العمال. ونحن نتساءل ولا نجزم.

هكذا بدأ فيليب، أحد ممثلي الشركة في غرفة العمليات، ونعيم الذي ترجم ما قاله فيليب، قرأ الترجمة من نص مكتوب، ورغم أن جوهر تظاهر أنه يصغي إصغاءً تاماً، إلا أن ذهنه شرد أكثر من مرة، ولم يفهم بعض العبارات التي قرأها نعيم. تطلعت العيون إلى جوهر وكأنها تطالبه أن يتكلم، أن يقول شيئاً. اضطرب، أحس أنه محاصر، ضرب الطاولة بعصاه بشكل مفاجئ بحدة:

ـ إذا ما كسّرنا رؤوسهم، إذا ما ضعضعنا عظامهم يركبونا.

ضحك أرنولد لما ترجمت العبارات التي قالها جوهر، بعد أن استفسر منه نعيم عن كلمة «ضعضعنا»، فشعر جوهر بالثقة، واستنتج أن الأميركيين يتفقون معه. تابع:

ـ جماعتنا وحنا نعرفهم زين: أضرب الخشم تدمع العين، نضربهم، ندق عظامهم، وكل شيء يرجع مثل ما كان.

سأل فيليب:

ـ هل هناك علاقة بين مقتل البدوي والإضراب؟

أصيب جوهر بالذهول بعدما تُرجم سؤال فيليب، بدا شاحب الوجه، عصبياً، رد بحدة:

ـ هذه سالفة وهذه سالفة...

ولم يُفهم ما قصد إليه بعد أن ترجم كلامه. ظلت العيون تتابعه. أضاف:

ـ يا جماعة الخير... مفضي طلايبه قتلته، وهو مات وراح، والبدوان اللي يشتغلون بالشركة سالفتهم غير سالفة.

ـ لماذا لم تحصل إضرابات قبل هذه المرة؟ لماذا لم يضربوا قبل شهرين أو بعد أن انتهى مد الخط واستغني عن عدد كبير من العمال؟

ـ إذا رنت الطاسة طلعت ألف رقاصة. كانوا يريدون حجة وجاءت الحجة!

قال فيليب وهو يقرأ من ورقة:

ـ الظاهرة التي نواجهها اليوم تتطلب الدراسة والمعالجة على مستويين: المستوى الأول، العاجل، إنهاء الإضراب، دون أن ترضخ الشركة، ودون أعمال عنف. أما المستوى الثاني فدراسة وضع العمال بدقة لمعرفة الجوانب العميقة: هل هناك تيارات سياسية؟ هل ثمة تنظيمات ومحرضون؟ وهل ثمة أسباب خارج مجال الشركة والعمل؟

قال حسن رضائي:

ـ أي نعم... المسألة غير طبيعية، هذا شيء مؤكد. أي نعم.. المسألة غير طبيعية، ويجب أن ننتبه كثيراً ونحتاط للمستقبل.

رد جوهر بغضب ولم يكن يتابع ما يقال:

ـ أنتم لا تعرفون البدو ولا تعرفون خبثهم، الواحد منهم ألعن من إبليس.

هز حسن رضائي رأسه وعقّب:

ـ الحق معك، خبثاء، أي نعم، خبثاء جداً، الواحد منهم يضحك لك ويحفر تحت رجليك. وإذا ظفر بك يذبحك وما يرفّ له جفن.

نقل جوهر عينيه بين رضائي والأميركيين، يريد أن يؤكد كل كلمة قالها حسن رضائي. عاد فيليب إلى الحديث مجدداً:

ـ أنتم أدرى بهؤلاء الناس، وما يهمنا الآن هو إنهاء الإضراب.

ـ اتركوا المسألة عليّ.

هكذا رد جوهر. قال فيليب:

ـ نوافق، على أن لا يُلجأ إلى العنف، على الأقل في هذه المرحلة.

وانتهى الاجتماع دون الاتفاق على شيء نهائي، إذ اقترح رضائي أن يُراقب الوضع خلال اليوم، وأن تجتمع اللجنة مرة أخرى مساءً، أو في وقت يتفق عليه لاحقاً.

تأكد جوهر أن لا أحد يعرف معالجة القضية كما يعرف هو، فالأميركان يتحدثون عن قضايا معقدة، وليست لها صلة بما يحدث. يقولون نوافق ولا نوافق، وهم لا يعرفون عن أي شيء يتكلمون. إنهم لا يعرفون البدو أبداً يتصورونهم أناساً بسطاء، مسالمين.. إنهم لا يفهمون!

وقرر جوهر أن يتحرك بسرعة، خاصة حين تبين له أن محاولات العناصر التي أرسلت صباحاً إلى المسجد لم تجدِ، وتأكد أكثر من ذلك أن العمال يريدون تجنب الاصطدام به.

الوقت بين العصر والغروب، الرجال في ظلال المسجد وظلال الدكاكين المجاورة، بعد أن جالوا حران، حتى نهاية شارع الحارثي، للمرة الثانية، يقيلون التماساً لبعض الراحة، وانتظاراً لانكسار حدة الشمس قليلاً، لكي يقوموا بالشوط الثالث والأخير لهذا اليوم، لكي يختموا يوماً ثانياً طويلاً وثقيلاً، وكانوا ينتظرون أيضاً عودة الذين ذهبوا إلى المعسكر لإحضار بعض الحاجات. في هذا الوقت بالذات سمعت أصوات الرصاص. كانت الأصوات بعيدة متقطعة، وكانت تأتي من جهة المعسكر.

قال سليمان الزامل:

ـ ابن الحرام، جوهر، سوّاها.

رد ابن نفاع الذي كان يحدث عدداً من الرجال:

ـ الله يستر.

خلال ذلك تراكض بعض العمال ليستطلعوا ما حصل، وخيم نوع من الصمت القاسي المتوتر. أما حين بدت من بعيد مجموعة من العمال تركض نحو حران، وسُمع صوت الرصاص مرة ثانية، فقد اتضح الموقف كله: تأكد الجميع أن شيئاً خطيراً قد وقع.

وأهل حران الذين كانوا إلى ذلك الوقت يضحكون ويمزحون، وكانوا أقرب إلى التسامح، شعروا أن في داخلهم شيئاً يتغير. شعروا أن أمعاءهم تؤلمهم، وأنهم غير قادرين على البقاء في نفس المكان. أما كلمات ابن نفاع وغيره من الذين كانوا يتحدثون فقد تلاشت أو لم تعد تسمع. وتلك القوة أو السيطرة التي يمتلكها بعض الناس في الأحوال العادية ما لبثت أن سقطت. خلال دقائق قليلة وصل ثلاثة من العمال. كانت وجوههم شديدة

الصفرة وعيونهم زائغة، وكانوا يلهثون. ومن الكلمات السريعة المتقطعة التي قالوها فهم الرجال أن اثنين من العمال قد جرحا أو ربما قتلا، وأن آخرين حوصروا بين محطة الكهرباء والعنابر الأولى، وهؤلاء المحاصرون يطلبون المساعدة والنجدة، لأنهم إذا تركوا هناك فسوف يفتك بهم الجنود.

كان للكلمات وهي تتساقط في آذان الرجال وقع الطبول. كانت تضجّ وتتحرك كما لو أنها الزوابع، ومع ضجتها وحركتها يرتفع غضب الرجال ويحسون في أصداغهم نبضاً قوياً، أما نظراتهم فقد توزعت بين الرجال الذين يلهثون أمامهم وبين أولئك المحاصرين هناك عند محطة الكهرباء وقرب العنابر.

قال أحد الرجال وهو يتناول قضيباً حديدياً:

ـ اليوم يومكم يا نشامة.

وركض وركض وراءه الكثيرون. تناول كل واحد منهم ما وصلت إليه يداه: قضيباً حديدياً، عصا، قطعة من الحجارة أو جزءاً من لوح خشبي. كانوا يتراكضون كما تتراكض الجمال، ومع الركض انبثق فجأة غناء يعرفونه منذ أيام بعيدة، ويأتي هكذا تلبية لحاجة يحسونها تطفو وترتفع على كل ما عداها من الأصوات والعواطف والأحاسيس.

كيف اجتمعت هذه الأمواج البشرية ومن أين جاءت؟ كيف وصل أهل حران بهذه السرعة وكيف سبقت النسوة الرجال وهم يتجهون نحو المعسكر؟

إن شيئاً أقرب إلى السحر قد حصل في تلك الساعة. فابن الزامل الذي صرخ يريد أن يوقف الناس، والذي شتم وأمسك ببعض الرجال، وجد أن صوته يضيع. أما الرجال الذين أمسك بهم فقد نظروا إليه بطريقة معينة، فتراخت يداه ووقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل، ثم وجد نفسه فجأة يركض مع الراكضين، بل وسبق الكثيرين. وابن نفاع الذي أمسك بعصاه وأخذ يهزها في الهواء وجد أنه يغني مثل الآخرين، ورغم أنه لا يستطيع أن يكون كالشباب، إذ لا يقوى على الركض أو حتى مجرد السير السريع، ما لبث أن انبثقت من داخله قوة خارقة، وهو نفسه يستغرب كيف استطاع أن

يصل إلى المعسكر بهذه السرعة. حتى خزنة التي كانت في طريقها إلى حران العرب، حاملة معها رغيفاً من الخبز، بعد أن قضت نهارها كله قرب المسجد، وتجولت في السوق، وكانت تردد كلمة واحدة كلما رأت مجموعة من الناس «الله يقويكم والله ينصركم» ما كادت خزنة تضع أقدامها على أول المنحدر، وكان خزان الماء يبين أمامها كأنه صخرة كبيرة، وتراءت لها غمامة سوداء تحيط به، حتى سمعت أصوات الرصاص. التفتت للحظة صغيرة ثم تدحرجت وركضت عائدة نحو المسجد. قال الكثيرون إنها كانت تهزج وتحدو، وكانت الدموع تتساقط من عينيها. ولا يُعرف ما إذا كانت دموع فرح أم حزن، لكن كل من رآها تركض هكذا تجاه المعسكر أصابته حالة من الهياج والنشوة، ورغم أن كثيرين قد سبقوها إلى هناك إلا أن غناءها كان شديد الوضوح، وكان مؤثراً وقوياً.

كانت الجموع تتحرك كتلة واحدة، وكان أصواتها ترتفع حتى تصل إلى أبعد الأمكنة، بل وتعلو على أصوات الرصاص، وعلى الصراخ الذي يأتي من الجهة الثانية...

أما كيف حصل الأمر منذ البداية، فإن جوهر الذي كان ذاهباً إلى معسكر الأميركان، وما كاد اثنان من الجنود يقولان له إن مجموعة من العمال قد وصلت إلى المعسكر، وأنهم سمحوا لهم بالدخول، بعد أن قاموا بتفتيشهم، ما كاد جوهر يسمع ذلك حتى صرخ مثل ذئب:

- وتركتموهم يدخلون.. يا اولاد الحرام؟

ولما صمت الجنود وأرخوا رؤوسهم إلى الأرض صرخ أكثر من قبل:

- والله لألعن اللي خلفوكم. والله لأكسّر روسكم قبل ما أكسر روسهم.

وهجم على أحد الجنود القريبين وضربه بعصاه وسأل:

- وين صاروا؟ وين راحوا؟

ولم يصل جوهر إلى معسكر الأميركان، فقد أعطى أوامره بإطلاق النار، ولكي لا يترك مجالاً للتردد أو الانتظار أشهر مسدسه وبدأ إطلاق النار بنفسه، وخلال فترة قصيرة انهمر الرصاص، وملأ المكان. العمال

الثلاثة الذين اجتازوا الأسلاك الشائكة ووصلوا إلى المسجد، نقلوا فقط المشاهد الأولى، أما عندما وصل أهل حران ومعهم جموع العمال، فقد خيم على المعسكر خلال الفترة الأولى صوت واحد ملأ الفضاء كله: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أين ذهب جوهر؟ ماذا يهيّئ؟ والعمال المحصورون أين هم الآن؟

قال خالد العيسى، في لحظة صمت، مخاطباً الجنود الذين كانوا وراء البراميل وبنادقهم موجهة إلى الناس:

ـ اتركوا العمال واعطونا المجاريح.

رد أحد الجنود، وقد خرج صوته مضطرباً:

ـ إذا تقدمتم خطوة نطلق النار.

ـ البارود ما يخوّف يا ابن الحلال، البارود عطر الرجال، والأحسن اتركوا الجماعة واعطونا المجاريح.

ـ خطوة... خطوة واحدة ونطلق النار.

صرخ ابن نفاع وهو يتقدم:

ـ اسمع يا ولد، اخزوا الشيطان واتركوا الناس اللي عندكم واعطونا المجاريح.

من مكان بعيد، بصوت شرس مكتوم، أقرب ما يكون إلى صوت رجل في كهف، جاء الأمر:

ـ ارمِ.

أكد كثيرون أن صوت الرصاص امتزج امتزاجاً كلياً بزغاريد خزنة الحسن، وكأنها في عرس. وأكد هؤلاء وغيرهم أن أكثر الرجال التفتوا إلى خزنة ولم يلتفتوا إلى صوت الرصاص، لكن حين رأوا ابن نفاع يميل قليلاً على عصاه، ثم ينزلق ويسقط على الأرض فقد التفتوا، أصابهم الذهول للحظات، وحين رأوا عصا ابن نفاع ترتفع في الهواء، وكأنه يلعب بها، ثم سمعوا صوتاً يقول بحشرجة:

ـ ذبحني خادم الأميركان...

وبعد قليل أضاف وهو يحاول الابتسام:

ـ لكن لا تخافوا.

حين رأى الناس وسمعوا ما قاله ابن نفاع أدركوا أنه أصيب. كان يتحرك حركة ثقيلة، صعبة، وكان الألم واضحا على وجهه، أما عندما ظهر خيط الدم تحت ظهره، وهو ينقلب، فقد سمعوا خزنة تحدو:

الموت يموت... وانت ما تموت
يا أبو عثمان
عز الرجال وفوق الروس
يا أبو عثمان
الموت يموت وأنت ما تموت...
يا أبو عثمان

أي جنون يمكن أن يسيطر على البشر في لحظة مثل هذه وأية قوى يمكن أن تنفجر؟

كما تضرب الريح الشجر، أو كما تلطم الأمواج الصخر، ضربت ريح الغضب كل وجه وكل قلب، ولطمت ذلك التعقل الخائف الذي كان يسيطر قرب الجامع أو في السوق. أصبح الناس في لحظات ناراً أو كالرياح العاصفة. لم يعودوا خائفين من شيء أو يقيمون وزناً لشيء. وجوهر الذي استمر يصرخ: «إرم... إرم» لم يصدق عينيه أن الناس يهجمون كالسيل ويتقدمون كالجراد، ولم يصدق أن جنوده المسلحين يمكن أن يتراجعوا ثم يبدأوا الفرار.

اهتزت العوارض الأسمنتية كما يهتز القصب الفارغ، واقتلعت كما تقتلع الأشجار الميتة، أما الأسلاك فقد دفنت خلال لحظات تحت الرمل، وتدفقت بعد ذلك أمواج البشر. قال كثير من الناس أنهم رأوا فواز الهذال وأخاه مقبل الذي وصل حران قبل أسابيع قليلة، قالوا إنهم رأوهما يطيران فوق الرؤوس. كانا كالعصافير يطيران ويصرخان: «جيناك ولبيك يا يوبه» وإن فواز كان أول من وصل إلى الجرحى. وأكد الكثيرون أنهم رأوه وحده يحمل إبراهيم الدوسري، رغم أن إبراهيم يفوقه وزناً. وكان أول، أو أحد

اثنين، عرف بمكان الجرحى، وأين اختفى العمال الأربعة، وساعد في إنقاذهم. أما جوهر الذي رأى الجموعَ تهجم وتقتحم، ورأى رجاله يتراجعون ثم يهربون، فلم ينتظر طويلاً لكي يهرب. اتجه إلى معسكر الأميركان، لكن قبل أن يصل البوابة أدركه فواز الهذال، أمسك به من رجله فسقط، ولولا أنه استعمل أسنانه وعض يد فواز عضة قوية تركت علامة استمرت فترة طويلة من الزمن، لولا تلك العضة لما تركه فواز يفلت.

أما الذين وصلوا متأخرين بعض الوقت إلى المعسكر فقد ذكروا أنهم شاهدوا من بُعد رجلاً على ناقة بيضاء يطارد الجنود ويطلق النار عليهم، وأنه اقتحم بوابة المعسكر الرئيسية، وقد تساءل الكثيرون ما إذا كان الرجل متعب الهذال. أما أناس آخرون فقد أكدوا بتصميم لا ينفك يقوى ويزيد أنهم شاهدوا طيفاً أقرب إلى الإنسان يطير فوقهم ويشبه تماماً مفضي الجدعان. وأكد هؤلاء أن الجنود الذين أطلقوا النار كانوا في حالة من الفزع بلغت درجة الرعب والصراخ، وإن أكثر الطلقات وجهت إلى هذا الطيف، إلى مفضي الجدعان. وقد روى الكثيرون فيما بعد أن ملابس الرجل كانت مليئة بالثقوب التي أحدثها الرصاص.

بعد إنقاذ العمال المحتجزين كان يمكن للناس أن يتابعوا هجومهم، لكن خالد العيسى الذي وقف على سطح خزان الماء قال وهو يلهث:

ـ يكفي يا جماعة الخير، وهالحين إسعاف المجاريح.

بعد تردد لم يطل تحول الناس إلى الجرحى، والذين لم يشاهدوا مفضي الجدعان أثناء اقتحام المعسكر أو حين هرب الجنود ومعهم جوهر، فقد شاهدوه أثناء نقل الجرحى بل وأحسوا به تماماً، لأن الجرحى كانوا يودون أن يفلتوا، كانوا يطيرون من بين الأيدي، إذ أصبحوا بوزن الريش أو أخفّ من ذلك، وكانت هناك أيدٍ لا تحصى ولا ترى تساعد وتحمل مع الذين يحملون.

قال محمد عيد من وراء الباب، عندما ذهب بعض الناس لاستدعاء الطبيب:

ـ الحكيم مسافر، ولن يرجع قبل أسبوع.

أما الدباسي الذي أرسل ابنه صالح إلى معسكر الأميركان لكي يبحث معهم إمكانية استقبال الجرحى، فقد تلقى جواباً واضحاً:

ـ يمكن للشركة أن تقدّم الإسعاف الأولي، في المكان الذي يوجد فيه الجرحى، وهذا لن يتم إلا بموافقة الأمير خالد، وبعد ذلك يمكن أن ينقل الجرحى إلى عجرة، أو إلى أي مكان آخر.

وصالح الدباسي الذي أكد لنعيم ولواحد من الأميركيين، كان يراه لأول مرة، أن حالة اثنين من الجرحى دقيقة، وتتطلب علاجاً سريعاً، تلقى إجابة واضحة ومختصرة:

ـ لا يمكن البت في مثل هذا الطلب قبل عودة المستر هاملتون أو نائبه، والاثنان في رحلة بحرية منذ الصباح الباكر، ولا ينتظر عودتهما قبل منتصف الليل.

لم ينتظر الناس جواب الدكتور صبحي المحملجي أو محمد عيد الأبري، لأنهم لم يفكروا بذلك. أما ذهاب صالح الدباسي إلى المعسكر فقد اعتبره الكثيرون إهانة لا يمكن السكوت عليها.

فابن نفاع الذي أسعف في المسجد، وقد ساعد خزنة في تنظيف الجرح الذي أصيب به في الفخذ اثنان من العمال، ثم حُمل بعد ذلك إلى بيته، قال في الليل، وكان الدباسي يزوره، وقد حدثه بما حصل مع ابنه، وأي جواب تلقى من الأميركيين:

ـ ما أظنك تقبلها لنا يا أبو صالح، وإذا الله كتب لنا الموت نموت ببيوتنا وبين أهلنا، أحسن ما نموت عندهم مثل الكلاب.

الجريحان اللذان سقطا في بداية المعركة، رغم أن إصاباتهما لم تكن خطيرة أو قاتلة، أتعبهما النزيف، ولذلك لم تجرؤ خزنة على أن تمد إليهما يدها. قالت وهي تعض على شفتها فتدميها:

ـ وينك يا أبو الأيتام، يا أخو الجهرا.

قال راجي الذي ربط كتف أحد الجريحين ربطاً قوياً فأوقف النزيف:

ـ أنا آخذهم لعجرة، خلال ساعة أو ساعتين نطبّ عجرة وهناك ندبرهم.

وضُمّد جرح الآخر. أما عندما ذهب سلمان الزامل للدباسي لكي يطلب منه سيارته من أجل نقل الجرحى إلى عجرة، فقد قال الدباسي وهو يزفر بحرقة:

ـ الله يلعن اليوم اللي أنبنى فيه أول حجر بحران، والله يلعن اليوم اللي جيت فيه، لأنه ما جاء منها إلا المصايب.

وأضاف بعد قليل بلهجة يائسة:

ـ حتى فلوسها سودا وما تنراد.

وخلال فترة كانت السيارة على الطريق. لم تتوقف في الكيلومائة وستين ولم تتوقف في المائة وعشرة. والغانم الذي وقف قريباً من الطريق وأشار بيده قبل أن تصل السيارة، بل وتصور، للحظات، أن راجي يمزح معه، ولا بد أن يتوقف ويرجع، رغم تجاوزه المقهى وظل بنفس السرعة، فقد قال بصوت عال واستغراب:

ـ ما أظنه يصير حرامي آخر أيامه.

توقف لحظة وهو يهز رأسه استغراباً وتابع:

ـ مثل ما الغايب عذره معه، المسافر عذره معه.

وخلال أقل من ساعتين كانت السيارة تدخل عجرة. دخلت مع أذان العشاء، وتوجهت رأساً إلى المستشفى الوطني.

قال الاثنان اللذان رافقا راجي والجرحى:

ـ أكثر من مرة متنا. كانت السيارة تطير فوق الأرض، كانت تسبح في الهواء، لكن أبو يعقوب، خيّال الشقرا، وصّلنا.

انتهت خزنة من تضميد الجرحى الثلاثة، وقد ساعدها الكثيرون، حتى آمنة الصغيرة كانت تتحرك في المسجد كما لو أنها عاشت فيه سنواتها كلها. كانت تقدم لخزنة ما تريده: الماء الساخن، الخرق، ولا أحد يعرف من أين جاءت بالأغطية الصوفية التي طلبتها خزنة.

بعد أن انتهى تضميد الجرحى، قالت خزنة، وقد بانت سنها الأمامية، وهذا دليل الفرح:

ـ بعون الله وعون ذاك اللي تعرفونه انكتبت لكم حياة جديدة.

وقد فهم الجميع إنها تعني مفضي. أما خلال الليل فقد تراءى لعدد لا يحصى من الناس مفضي، كان ينتقل بين المسجد وحران العرب، ولم يبق أحد إلا ولمح ثوبه المطرز بالرصاص. وأكد ثلاثة، أحدهم من العمال والآخران من حران، أكد الثلاثة أنهم تلمسوا الثوب الذي اخترقه الرصاص، ووجدوا أن أطراف الثقوب محروقة، ولما رآهم مفضي يتلمسون الثوب، ويبدون استغرابهم ضحك وقال إنه يستحق ثوباً جديداً!

وقال راجي، الذي نام مع العمال الجرحى في عنبر المستشفى، بعد الكثير من الصخب والاختلاف، حيث رُفض طلبه أول مرة، وأودع الاثنان اللذان كانا يرافقانه السجن، إلى حين انتهاء التحقيق ومعرفة كيف جرح الرجلان ومن المسؤول عن ذلك، قال راجي أنه رأى مفضي في تلك الليلة مرتين، الأولى حين ثبت الغطاء على أحد الجريحين، والمرة الثانية بعد الفجر حين جاء بالماء إلى مريض في نهاية العنبر.

أما في الليل المتأخر فلم يبق أحد في حران إلا ورأى مفضي. بدا أول الأمر متعباً، ربما من عمل النهار الطويل، لكن بعد أن شرب الشاي في بيت ابن نفاع، وكان أبو عثمان ممدداً في صدر الغرفة، نهض بعزم وقوة، فك الجرح وقرب الضوء كثيراً لكي يتأكد، فلما اطمأن ربط الجرح مرة ثانية، وقال إن خزنة فعلت أحسن مما يفعل هو، وبعد ذلك استأذن لكي يمر على الجرحى الآخرين الذين نُقلوا إلى بعض البيوت. أما حين سئل عنهم وما إذا كان سيعود في اليوم التالي فقد هزّ رأسه وضحك ولم يجب.. ثم اختفى.

لما سمع الأمير خالد صوت الرصاص، وكان يجرّب التلفون بعد العصر وقبل الغروب، أصيب بشيء ما، وهو يؤكد أن هذا الشيء ليس الخوف بأي حال من الأحوال، لأنه عندما نظر في وجه نائبه الذي كان يداعب القط الأسود، وكان يتفاءل به كثيراً، اختلط صوت الرصاص بمواء

القط. ويؤكد الأمير أنه في نفس اللحظة خرج بريق يشبه لمعان الشمس من عيون الاثنين، وأعقب ذلك البريق دخان أزرق. هكذا شرح الحالة للطبيب الباكستاني الذي استدعي على عجل بين المغرب والعشاء لكي يفحصه.

أما نائب الأمير فقال لحسن رضائي والدباسي، بعدما عرفا بمرض الأمير المفاجئ وجاءا لزيارته، قال هامساً وهو يتلفت في كل لحظة:

ـ خلال اليومين الماضيين أبو مسفر ما يعجب...

قال هذه الكلمات وهو يهز رأسه حزناً، وبدأ يتذكر من جديد:

ـ أول أمس ما كان به خلاف، كان يسولف ويضحك، وأنتم شفتوه. أمس، بعدما راح أبو صادق قال: «الوجع هنا وهنا» وأشار إلى رقبته ومؤخرة الرأس. قلت له تعب يا أبو مسفر» قال: «ما أظنه تعب، شيء يتلوى، لا يطلع ولا ينزل، مثل سيخ النار» قلت له: «وكّل الله. إذا نمت كل شيء يروح، ولازم تستريح» قال: «ما أظن إني مصبّح» قلت «وكل الله يا رجل» وظليت معه إلى أن نام.

اليوم، من الصبح، ما يعجب، أبو صالح شافه. شفته يا أبو صالح. عيونه بالسما وكأنه ضايع، وما أكل ولا شرب.

لما سمع الرصاص قال: «خلصت» وبلّش بالماخوذ «هالو.. علو.. أجب، حول» وقال «الأميركان ما لهم أمان، وما لهم صاحب» وأندار عليّ «الدخان، الدخان يطلع من عيونك ومن خشمك يا أبو رشوان. دخان أسود، دخان أزرق، دخان بكل مكان» ضربته الحرارة. قلت لنفسي: السخونة تخلي البني آدم يهذي، وبعثنا وجاء الحكيم الهندي، ما قال له وين الوجع، ظل يسولف عن الدخان. الدخان من هنا، الدخان من هنا، والطبيب يريد يفحصه وهو ما يوافق، ولا يخليه يمد يده. قال الهندي: «أعطوه هذا الدواء.. إذا أخذ الدواء ينام ويستريح وبعدها يصير أحسن» لكن الله يهديه ما يريد ولا يوافق. بعث على مساعد الطبيب الشامي، قال له تجي وتجيب معك السماعة... وجاء!».

هكذا عرض نائب الأمير على الرجلين ما حصل، وكانت من الغرفة المجاورة تصل أصوات متداخلة صاخبة، وكان يمكن تمييز صوت الأمير

من بين هذه الأصوات، وهو يصدر أوامره أو حين يهذي: «ألو. . أجب. . . حول!» أو وهو يصرخ: «فوق. . شوي فوق. . لا. . تحت، يمين. . . بعد يمين».

نظر حسن رضائي إلى الدباسي متسائلاً ما إذا كان من المناسب أو اللائق زيارة الأمير وهو في هذه الحالة، أم يكتفيان بأن يبلغا نائبه أنهما يرجوان له الشفاء العاجل ويغادران. كان نائب الأمير بحاجة إليهما، ويريد مساعدتهما في هذه اللحظات الصعبة، كان يريدهما أن يبقيا إلى جانبه، ولكنه يتحسب أيضاً من ردة فعل الأمير إذا رآهما، أو إذا عرف بوجودهما ولم يزوراه ولم يدخلا عليه.

قال الدباسي بصوت متعب وهو يدق الأرض بعصاه:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. . .

توقف قليلاً ثم تابع:

ـ إذا جاءت المصايب تجي غمر وزود، تجي مثل السيل، لا تبقي ولا تذر.

رد حسن رضائي:

ـ إذا مرت هذه الأيام على خير، ورجعت صحة الأمير كل الأمور تهون.

قال الدباسي كأنه يكلم نفسه:

ـ ما أظنها يا أبو صادق.

ودب الصخب أكثر من قبل، ومع الصخب الشتائم، نظر نائب الأمير إلى الرجلين بحيرة وتساؤل.

انفتح الباب فجأة وأطل الأمير. كان ثوبه مفتوحاً فيظهر صدره عارياً، وكانت السماعة معلقة في رقبته وعيناه حمراوين والزبد على زاويتي الفم. حين رأى الرجال جالسين وقد تقاربت رؤوسهم، وكأنهم يتشاورون، تقدم نحوهم بخطوات بطيئة حذرة، كان ينظر إليهم وابتسامة صغيرة حاقدة تظهر على وجهه. قال وهو يقترب أكثر:

ـ الدنيا ما بها أمان. . .

نظر إليه الثلاثة بخوف مشوب بالشفقة. قال نائبه بارتباك:

ـ عساك أحسن. . يا أبو مسفر؟

تابع الأمير دون أن يلتفت إلى ما قاله نائبه:

ـ الأميركان بعثوا الهندي وقالوا له: إذبحه، لا تخليه يصبّح. وهالحين أنتم تقولون إذا الأميركان ما ذبحوه حنا نذبحه. ها؟

قال الدباسي بيأس مرير:

ـ وكّل الله يا أبو مسفر، قلوبنا معك، ونريدك تتعافى اليوم قبل باكر.

ـ ما بي خلاف، ومثل ما تشوف أقوى من الجمل.

واقترب خطوة أخرى، فأصبح يقف فوق رأس نائبه تقريباً. تراجع نائبه مذعوراً. قال الأمير:

ـ انت مريض يا أبو رشوان، قل لي الوجع وين مكانه؟

وانحنى فوقه أكثر. أمسك بالسماعة وتابع:

ـ ها. . وين الوجع؟ لا تخف، قل لي. . وين ما عليك. . . الباقي عليّ.

وبصعوبة أدخل الرجال الثلاثة الأمير إلى الغرفة الأخرى، الغرفة التي جاء منها. وجدوا في الزاوية محمد عيد. كان خائفاً يرتجف وقد اصفر وجهه. أما في الزاوية الثانية فقد رأوا اثنين من رجال الأمير، وما كاد الجميع يدخلون، ويبدأ بعضهم في إقناع الأمير بأن يستريح، بأن ينام، حتى نظر إلى محمد عيد، قال له بلهجة حاقدة وبصوت بطيء:

ـ سافر. . . ها؟ ومتى يرجع؟

وبغمغمة غير واضحة حاول محمد عيد أن يجيب، لكن الأمير لم ينتظر إجابته، تابع وهو يضحك:

ـ ابن الحرام الخبل يتصور أني مخبول. . . اوسفّ الزعوط اللي يعطيني. لا. . لا يحلم، دفنته كله بالرمل وبلت فوقه!

قال حسن رضائي:

ـ يا أبو مسفر لو استرحت ساعة أو ساعتين.

التفت الأمير إلى أحد رجاله وقال:

ـ تعال.. أنت.

تقدم الرجل خائفاً. قال الأمير وهو يشير إلى محمد عيد:

ـ هذا مثل سيده وراعيه ما يقول الصحيح، ولا يعرف شيء أبداً. أريدك أنت تعلمني، تقول لي اللي تقوله هذي.

وانتزع السماعة من رقبته وثبتها في أذني الرجل الذي بدا مرعوباً مرتبكاً وهو ينقّل نظراته بين الرجال الحائرين والأمير.

تمدد الأمير على الفراش وطلب، بإشارة من يده، إلى الرجل أن يتقدم، أن يضع السماعة على الصدر قرب الرقبة، والرجل الذي لا يعرف كيف يتصرف، كيف يتحرك كان في حالة يرثى لها، وكان الرجال الآخرون حائرين لا يعرفون ما ينبغي أن يفعل.

بعد محاولات عديدة، تخللها الرجاء والتوسل، وتخللها نوع من الحزم أيضاً، وبعد أن تم إخراج محمد عيد والرجلين الآخرين، أمكن إقناع الأمير أن يستريح، أن يتمدد في فراشه، وربما وافق نتيجة التعب.

قبل أن ينتصف الليل كان الأمير يغط في نوم عميق، وقد تمكن نائبه وحسن رضائي من سحب السماعة التي أصر على وضعها في أذنيه وعلى صدره، وتركاها إلى جانب الفراش. أما الدباسي فقد انسحب في وقت مبكر، ومرّ على ابن نفاع قبل أن يذهب إلى بيته.

يوم الخميس. بعد شروق الشمس بقليل، ذكر الخارجون من المسجد أنهم شاهدوا ست سيارات تابعة لدار الإمارة، وكانت ضمنها سيارة الأمير. توقفت السيارات قليلاً في شارع الراشدي، مقابل مكاتب حسن رضائي، ثم تحركت وأخذت طريق عجرة، وقد أكد هؤلاء أنهم شاهدوا الأمير في إحدى السيارات. كان يضع في رقبته السماعة الطبية ويحمل بيده قطعة حديد سوداء لم يتبينوا ماهيتها أو لأي أغراض تستعمل، وهي تشبه يد المهباش أو الملعقة الكبيرة، وكان الأمير يقرّب من فمه هذه الحديدة ويصرخ ويشتم، وإلى جانبه في السيارة كان حسن رضائي، الذي حاول أكثر من مرة أن يمسك به وأن يهدئه! أما في السيارة الثانية فكان جوهر ممدداً داخلها، وقد رفع رأسه لحظة اقتربوا من المقبرة، وتأكد الكثيرون من ذلك، لأن مرافقه الأسود كان يجلس إلى جانب السائق وكان يتلفت نحو المقعد الخلفي بين لحظة وأخرى، أما السيارات التي وراءها فكان فيها الحرس والمرافقون وبعض أفراد عائلة الأمير.

ذكر عبده محمد أن إحدى سيارات الإمارة جاءته قبل ثلاث ساعات من الموعد الذي تأتي به عادة، وقد اضطر الجنديان المكلفان بجلب الخبز للانتظار وقتاً ليس قصيراً لكي يؤمن لهما ما طلباه، وفهم من الحديث الذي دار بين الاثنين أن مجموعة من دار الإمارة تستعد للسفر، لكن لم يعرف على وجه مؤكد هوية المسافرين أو عددهم.

وذكر المسافرون الذين وصلوا من عجرة في الصباح الباكر، أنهم التقوا بسيارات الإمارة في الكيلومائة وستين، وقد توقفت سيارات الإمارة للحظات قريباً من المقهى، وربما كان مسافروها يريدون الاستراحة، لكن

في اللحظة الأخيرة عدلوا عن ذلك وواصلوا السفر، وأكثر ركاب الباص رأوا الأمير يضع السماعة الطبية في رقبته، وقد رفع يده بمرح ليرد التحية، وأكد الجميع أنهم رأوا في السيارة الثانية مرافق جوهر الأسود وحده.

أما خزنة التي كانت عند قبر مفضي منذ الفجر فقد روت عصر الخميس أنها رأت مناماً خلال غفوة قصيرة بجانب القبر. رأت مفضي أو أحداً غيره، إذ لم تستطع أن تميز الوجه بوضوح، يدفعها عنه ويحاول الابتعاد والهرب، وقد فزعت وبكت. أما عند العصر فقد قالت أن تفسير المنام هو: «خروج اولاد الحرام وهربهم» كما سمّت الأمير وجوهر والجنود الذين أطلقوا النار.

ورغم أن يوم الخميس كان يوماً ثقيلاً قاسياً، وقد امتلأ بالإشاعات، خلافاً للأيام التي سبقته، فإن ابن نفاع قال للذين زاروه عند الضحى وذكروا له ما رآه المصلون وما ذكره ركاب باص عجرة، قال دون أن ينظر للذين حوله:

ـ يجوز أنهم سافروا، لكن ما يندري يرجعون أو ما يرجعون. . .

وتغيرت نبرة صوته تماماً:

ـ شفنا قبلهم كثيرين راحوا، بس اللي يجون ما هم دائماً أخْيَر، ويمكن نترحم على اللي راحوا اليوم!

قال ابن عساف وهو لا يخفي فرحه:

ـ المهم خلصنا من هذي البلية يا أبو عثمان. كانت على صدورنا، وقلت يموتونا قبل ما يموتون.

ـ البلية، وأنت الصادق، اللي على صدرنا، ذيك. . وأنت تعرفها.

ـ جوهر وعم جوهر كانوا البلايا يا أبو عثمان.

هكذا رد ابن عساف، وبعد قليل أضاف وهو يضحك:

ـ الله. . . يا طريق عجرة كم أخذ وكم ورّد.

تساءل سلمان الزامل:

ـ وطريق البحر؟

تحرك ابن نفاع في فراشه وقال بعد أن تنحنح:

ـ الطريق ما هو طريق عجرة، ولا طريق البحر، الطريق يا جماعة الخير هو اللي يأخذ الجماعة كلهم وبعدها ما يردّون. . .

ولما صمت الرجال تابع كأنه يكلم نفسه:

ـ قلت لكم: الأميركان هم أصل العلة وإصل البلية.

عند الظهر صدر عن ديوان الإمارة البلاغ القصير التالي:

. . . غادر صاحب السمو الأمير خالد حران صباح هذا اليوم للعلاج، وقد أمر سموه قبل سفره بعودة جميع العمال إلى الشركة، وقد استجابت الشركة لهذا الأمر، كما أمر سموه بتكليف لجنة للتحقيق وتحديد مسؤولية الحوادث الأخيرة.

«وديوان الإمارة إذ يهيب بالجميع إلى التعاون وبذل أقصى الجهد يأمل أن يسود التعقل والحكمة لمنفعة الوطن وخدمة المواطنين، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

قالت خزنة لابن نفاع وهي تربط جرحه من جديد:

ـ قولك، يا أبو عثمان، إن دم مفضي ما يروح.

رد وهو يضحك:

ـ دم مفضي، يا خزنة، راح. . . راح.

ـ راح!

ـ اسألي، يا بنت الحلال، هالحين دم من!

ـ سالفتنا طويلة يا أبو عثمان؟

ـ طويلة. . . وقصيرة.

ـ وكل الله يا رجال. . . الدنيا صارت بخير.

ـ ما يندري.

وضحك بحزن وأضاف:

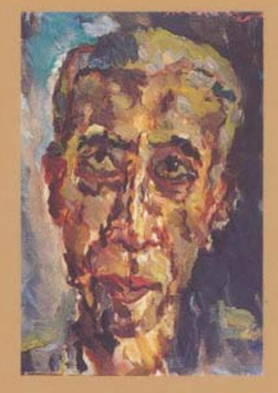
ـ تفاءلوا بالخير. . . لكن لا أحد يعلم بالغيب.

انتهت

شتاء ١٩٨٣

«التيه» الجزء الأول من خماسية مدن الملح، الرواية التي تتحدث عن الانقلاب الكبير نتيجة اكتشاف النفط: الثروة المفاجئة، وبداية رحيل سكان الواحات، والشروع في بناء مدن الحديد والاسمنت، ثم تدفق الحالمين بالثروة، والصراع على المال والسلطة.

هذا الجزء من الرواية يرصد أهم التحولات في بلدان النفط العربية، مازجاً الواقع بالخيال، من أجل تقديم صورة لما جرى، وما يحتمل أن يقع، وكيف تتصادم الإرادات وتتواجه القوى، لتبدأ بعد ذلك الأسئلة والتوقعات.



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

أرض السواد (3 أجزاء)

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

عالم بلا خرائط
(بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)

شرق المتوسط

قصة حب مجوسية

أم النذور

سيرة مدينة
(عمان في الأربعينات)

النهايات

لوعة الغياب

الكاتب والمنفى

العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة

بين الثقافة والسياسة

عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي
الإخراج:
آنيا مورينغ
صورة الكاتب:
رسم لمرون قصاب باشي

مُدُن المِلح
التّـيه

* في الرواية نفس ملحمي لا أعرف مثله في أي روائي. إنه يذكّرني بالروايات الكبرى التي كُتبت في الغرب في النصف الأول من هذا القرن.

جبرا إبراهيم جبرا

* مدن الملح وثيقة اجتماعية تاريخية ترصد فترة من أخطر الفترات في التاريخ العربي المعاصر.

فيصل دراج

* يدهشنا منيف بمقدرته على صياغة رقعة النسيج الواسعة بتفاصيلها الدقيقة، وفي تعدد مظاهرها، بحيث تراها العين ـ الذاكرة مشتعلة في زمن واحد.

يمنى العيد

* إن فكرة منع تداول مدن الملح في (...) فكرة غريبة إلى درجة تثير السخرية شأن منع تدخين النرجيلة في مينابوليس.

جون ابدايك ـ نيويوركر

* لو طلب إليّ أن أختار خمسة أفضل كتب صدرت (بالإنكليزية) في عام 1988 لاخترت مدن الملح واحداً منها.

ميشيل ابشيرسن ـ روائي أميركي

ISBN 9953-68-103-1



المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافي العربي